الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

من الكاتبة التي كانت الملهمة لمسلسل شبكة «فوكس» الدرامي الشهير «العظام BONES» والتي تُرجمت كتبها إلى ثلاثين لغة في مختلف أنحاء العالم

كاتي رايكس
Kathy Reichs

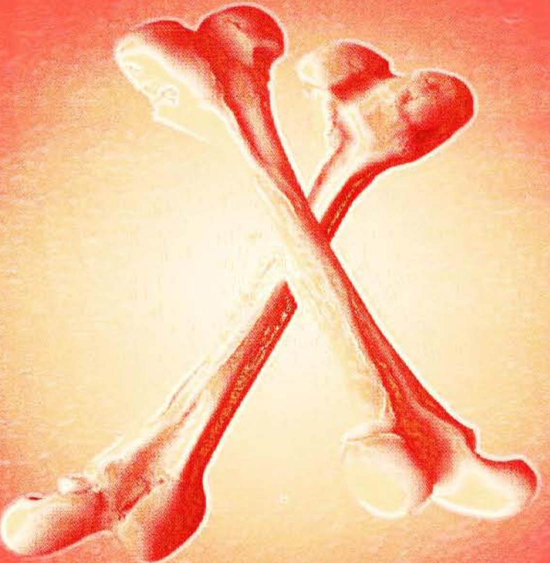

وُجِدتْ مَيِّتة
DÉJÁ DEAD

رواية

وُجِدَتْ مَيِّتة

DÉJÁ DEAD

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
DÉJÁ DEAD
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونيا من الناشر
POCKET STAR BOOKS
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © 1997 by Kathleen J. Reichs
All rights reserved
Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

وُجِدَتْ مَيِّتة

DÉJÁ DEAD

رواية

تأليف

كاتي رايكس

ترجمة

سعيد الحسنية

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-496-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إهداء

إلى كارل ومارتا رايكس،

ألطف وأكرم شخصين عرفتهما.

كارليس رايكس 1914 - 1996

،

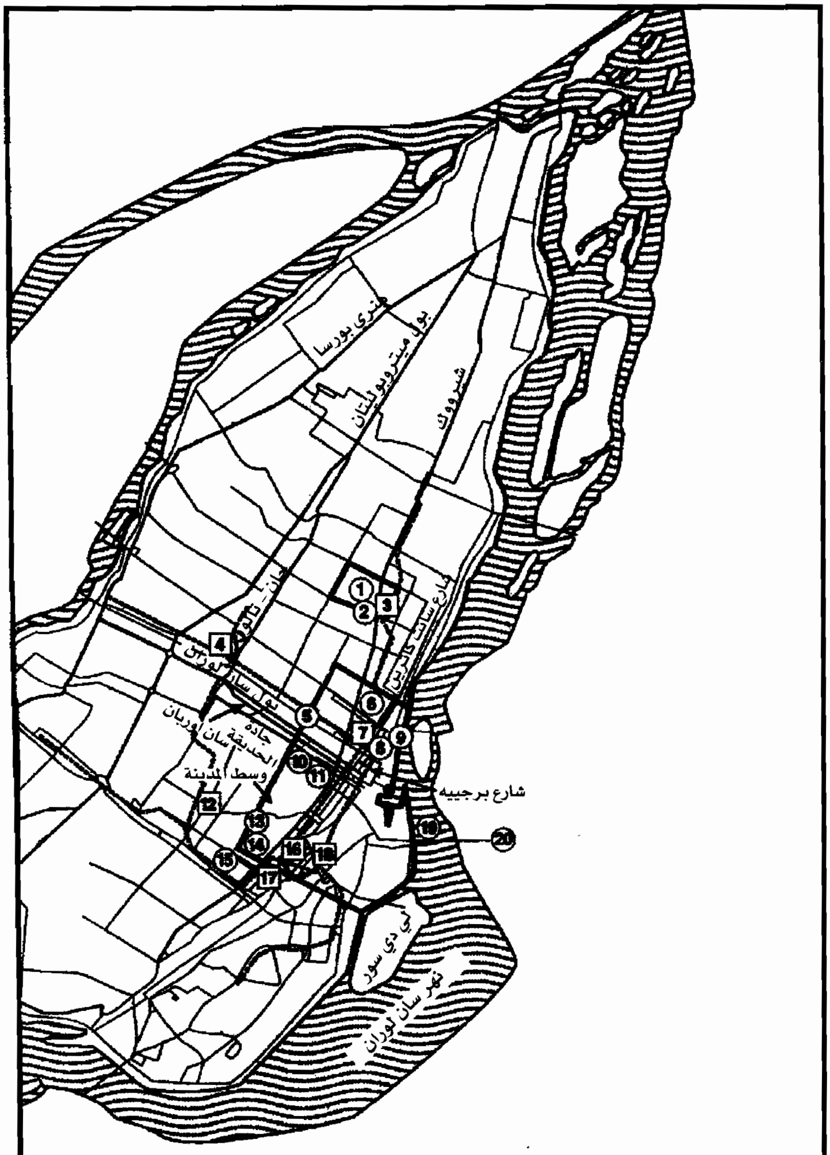
هنري بورسا
بول ميتروبوليتان
شيربروك
وسط المدينة
شارع برجييه
نهر سان لوران

مونتريال

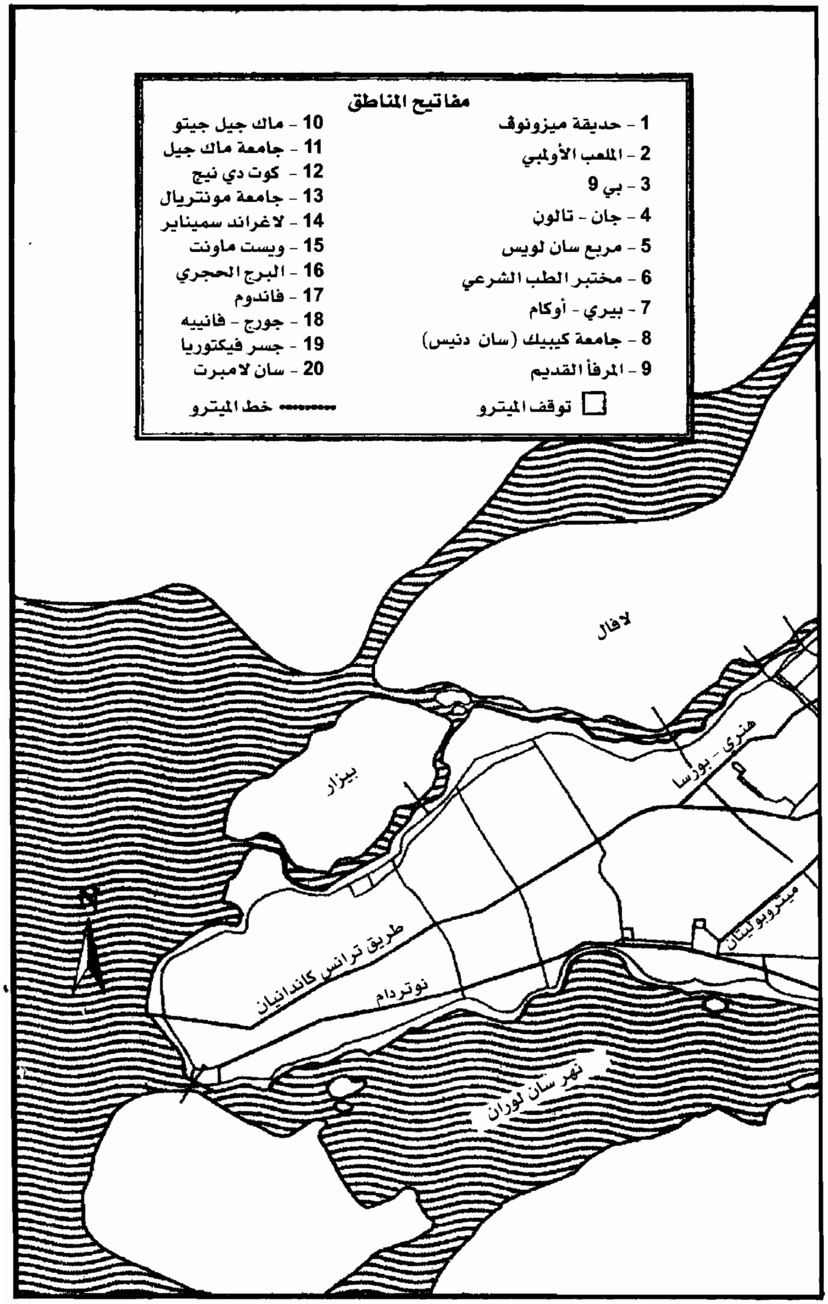
مفاتيح المناطق
1 - حديقة ميزونوف
2 - الملعب الأولمبي
3 - بي 9
4 - جان - تالون
5 - مربع سان لويس
6 - مختبر الطب الشرعي
7 - بيري - أوكام
8 - جامعة كيبيك (سان دنيس)
9 - المرفأ القديم
10 - ماك جيل جيتو
11 - جامعة ماك جيل
12 - كوت دي نيج
13 - جامعة مونتريال
14 - لاغراند سمينار
15 - ويست ماونت
16 - البرج الحجري
17 - فاندوم
18 - جورج - فانييه
19 - جسر فيكتوريا
20 - سان لامبرت
توقف الميترو
خط الميترو
لافال
بيزار
هنري - بورسا
ميتروبوليتان
طريق ترانس كانادنيان
نوتردام
نهر سان لوران

1

لم أكـــن أفكّر بالرجل الذي فجّر نفسه للتو، ولكن سبق لي أن فعلتُ ذلك. أمّا الآن، فأنا أركّز على إعادة تجميع عظامه. وضعتُ أمامي جزءين من الجمجمة، بيـــنما برز جزء ثالث من وعاء فولاذي لا يصدأ مليء بالرمل، ولم يكن الغراء قد جـــفّ تمامــاً في الأجزاء التي فرغتُ من تجميعها. اعتبرتُ أنّ هذه العظام تكفيني للتأكد من هوية القتيل، وأعتقد أن المحقق الجنائي سيكون مسروراً.

إنـــي أعمل الآن في وقت متأخرٍ من مساء يوم الخميس الواقع في 2 حزيران عـــام 1994. وقـــد وجدتُ نفسي شاردةً الذهن أثناء انتظاري جفاف الغراء، إذ أيقـــنتُ أنّ الصدمة التي من شأنها أن تقطع عليّ شرودي، وأن تحوّل مسار حياتي، وأن تغيّـــر مفاهيمي حول كلّ ما يتعلق بحدود الفساد البشري لن تحدث قبل مرور عـــشر دقائـــق أخرى. رحتُ أستمتع بمشاهدة منظر نهر **سان لوران**، وهي الميزة الوحـــيدة التي يجدها المرء في مكتبي الضيّق. وكان منظر المياه يريح أعصابي وينعشني – وعلـــى الأخص عندما تنساب بطريقة متناغمة – وينسيني **غولدن بوند**. أعتقد أن **فرويد** كان سيستمتع بهذا المنظر هو الآخر.

أخـــذتني أفكاري إلى عطلة الأسبوع القادم. إذ كنتُ أعتزم القيام برحلة إلى **كيبـــيك سيتي**، ولكنني لم أضع بعد تفاصيل هذه الرّحلة. فكّرتُ في زيارة **سهول آبـــراهام**، وفي تناول بلح البحر، والفطائر المحلاة الرقيقة، بالإضافة إلى شراء بعض الهدايا الصغيرة من البائعين المنتشرين في الشوارع. وبكلمات أخرى، كنت أريد أن أهـــرب عـــن طريق السياحة. بقيتُ في **مونتريال** لمدة عامٍ بكامله، عملتُ خلاله

بصفتي عالمة أنثروبولوجيا جنائية للمقاطعة، ولكنني لم أذهب فعلياً إلى تلك النواحي حتى الآن، ولهذا بدت الفكرة برنامجاً جيداً بالنسبة لي. شعرت أنني بحاجة إلى عدة أيامٍ أبتعد فيها عن الهياكل العظمية، والجثث المتحلّلة، أو الجثث التي سُحبت حديثاً من النهر.

غالـــباً ما كانت الأفكار ترد بسهولة إلى ذهني، لكن لطالما كان تنفيذها أمراً صعباً. اعتدتُ أن أدع الأمور تمرّ هكذا. إذ أعتقد أن هذه هي وسيلتي للهروب، أو بالأحــرى هذه هي طريقتي للسماح لنفسي بالنكوص، ولكي أفتح لنفسي طريقاً للعبور من بابٍ جانبيٍّ لتحقيق الخطط التي أرسمها. والواقع هو أنني مترددة في حياتي الاجتماعية، ومتحمسة جداً في عملي.

أدركـــتُ أنـــه يقـــف أمام الباب قبل أن يمدّ يده ويقرعه. أعرفُ أن الرجل يتحرك بهدوء يندر أن يتصف به رجلٌ في مثل ضخامته، لكن رائحة غليونه وشت بـــه. شـــغل **بيار لامانش** منصب مدير ***مختبرات الطب الشرعي*** لمدة عقدين من الـــزمان تقـــريباً. وأعرفُ أيضاً أنّ زياراته إلى مكتبي لم تكن اجتماعية أبداً، لذلك شـــككتُ بأنّ الأخبار التي يحملها إليّ لا بدّ أنّها سيئة. طرق **لامانش** الباب بهدوء مستخدماً ظاهر يده.

"**تمبرنس؟**" وكان لفظه لاسمي مُقفّى مع كلمة **فرانس**. فلقد امتنع هذا الرجل علـــى الدوام عن استخدام اسمي المختصر، ولعل أذنيه لم تتعودا على سماعه. ولكن، ربما يتعلق الأمر بتجربة سيئة له في **أريزونا**، فهو الوحيد الذي لا يدعوني **تمب**.

"***وي؟***" اعـــتدتُ أن ألفظ هذه الكلمة بطريقة آلية. إذ وصلتُ إلى **مونتريال** معـــتقدةً أنني طليقة اللسان بالفرنسية، لكنني اكتشفتُ أنني لست ماهرة ***بالفرنسية الكيبيكية***. فلقد بدأتُ أتعلمها، ولكن ببطء.

نظـــر الـــرجل إلى ورقة مكالمات هاتفية كان يحملها، وقال: "تلقيت مكالمةً للتو". بدت كل ملامح وجهه عامودية تماماً، بما في ذلك الخطوط والتغضنات التي تنـــساب مـــن الأعلـــى وحتى الأسفل، كما أنّها كانت متوازية مع أنفه الطويل والمـــستقيم ومع أذنيه. بدت تفاصيل وجهه حادة. وعلى الأغلب، بدا وجهه مسنًّا حـــين كان شابًّا. وخُيِّل إليّ أنّ تغضّنات هذا الوجه قد ازدادت عمقاً مع الزمن. وعجزت عن تقدير العمر الحقيقي لهذا الرجل.

تأمّل وجهي الذي لم يكن يطفح بالسعادة، وقال: "وجد رجلان من العاملين في **هايدرو كيبيك** (مصلحة مياه كيبيك) بعض العظام هذا اليوم".

عـــاد الـــرجل لينظـــر إلى الورقة الزهرية اللون، وصمت قليلاً، ثم قال بلغته الفرنسية الرسمية الصحيحة: "إنها قريبة من المكان الذي وُجدت فيه المقابر التاريخية القديمة في الصيف الماضي". لم يسبق لي أن سمعت الرجل يتكلم مستخدماً الكلمات المختـــصرة، أو اللغة التي يستخدمها رجال الشرطة، أو اللهجات الأخرى. "سبق لك أن كنت هناك، وأعتقد أنك أمام المهمة ذاتها. أريد أن أرسل شخصاً إلى ذلك المكان كي نتأكد من عدم الحاجة إلى استدعاء محقق جنائي".

رفـــع نظره عن الورقة، ولاحظت أن تغضّنات وجهه وخطوطه قد ازدادت عمقـــاً نتـــيجة تغييره لزاوية النظر. سحب الرجل نفثةً من دخان غليونه الأسود، وحاول أن يرسم ابتسامة باهتة على شفتيه.

قلتُ بهدوء أقرب إلى التردد: "أتعتقد أنها عظامٌ أثرية؟"

لم يكـــن الـــبحث في موقـــعٍ محتملٍ للجريمة من ضمن برنامجي، هذا إذا ما اعتزمت الانطلاق في عطلتي يوم غد. إذ يتوجّب عليّ الذهاب إلى مصبغة التنظيف الجاف، والانتهاء من غسل الثياب، والتوقّف عند الصيدلية، وحزم حقيبتي، ووضع زيـــت في محرك السيارة، وشرح كيفية الاعتناء بالهرة **لِونستون** وهو وكيل البناية التي أسكنها.

أومأ بيار موافقاً.

"حسناً". أدركت أن الأمر ليس كذلك بالنسبة إليّ.

ناولني الورقة: "أتريدين أن تقلّك سيارة شرطة إلى المكان؟"

نظـــرتُ إلـــيه، وحاولتُ قدر المستطاع أن أبدو في غاية الجدية: "لا. جئت بـــسيارتي إلى العمل هذا اليوم". قرأتُ العنوان، ووجدتُ أنّه ليس بعيداً عن مكان سكني فقلت: "سأجده بنفسي".

غادر **بيار** المكان بالهدوء ذاته الذي صاحب مجيئه. فهو يفضّل انتعال أحذية ذات كعوب مطاطية، ويحرص على أن تبقى جيوبه فارغة كي لا تصدر عنها أي خشخشة، أو أصـــوات أخرى. فلقد وصلَ مثلما يصل تمساحٌ إلى نهر، وغادر بمثل الصمت الذي رافق دخوله إلى المكتب. يعتبر بعض الموظفين طريقته هذه مثيرةً للأعصاب.

وضعتُ مجموعة من المآزر في حقيبة الظهر التي أمتلكها، بالإضافة إلى حذائي المطاطـــي، وأملـــتُ أن لا أحـــتاجها، ثم تناولتُ حاسوبي المحمول، وحقيبة يدي، وأمـــسكتُ بغطـــاء المائدة المزخرف الذي اعتبرته ضرورياً في هذا الفصل. وَعَدتُ نفسي بأنني لن أعود قبل يوم الإثنين، لكن صوتاً آخر في زوايا ذهني تدخّل، وأصرّ على عدم صحة افتراضي.

يندفع فصل الصيف عند وصوله إلى **مونتريال** مثلما يفعل راقص الرومبا الذي يـــرتدي ملابسه القطنية اللماعة ذات الكشاكش، ويظهر بساقيه اللامعتين، وجلده الملـــتمع بالعـــرق. إنه باختصار احتفال غير مهذب يبدأ في شهر حزيران، ويستمر حتى أيلول.

يبـــتهج الـــناس بقدوم هذا الفصل ويستمتعون به. إذ تنتقل حياة الناس إلى العلـــن، وتعاود مقاهي الأرصفة الظهور بعد شتاءٍ طويلٍ وكئيب، وكذلك يظهر راكـــبو الـــدراجات، والمتـــزحلقون الذين يتنافسون في الممراتً المخصّصة لسير الدراجات، وسرعان ما تتوالى الاحتفالات في الشوارع الاحتفال بعد الآخر، كما تُحوِّل حشود الناس الأرصفة إلى أمواج بشرية تفوح بالحياة.

يخـــتلف فصل الصيف كثيراً في **سان لوران** عن الصيف في الولاية التي أنتمي إلـــيها، أي **كارولينا الشمالية**، حيث يتميّز الفصل ببعض الإقبال على الاسترخاء علـــى كراسي البحر، أو بالتنـــزه في الجبال، أو بالجلوس على شرفات المنازل في الـــضواحي. يـــصعب علـــى المرء أن يحدّد هناك التواريخ الفاصلة ما بين الربيع، والـــصيف، والخريف، من دون الاستعانة بروزنامة. فوجئت بهذه الولادة السريعة للربيع في سنتي الأولى التي أمضيتها في هذه المناطق الشمالية، وأبعدتُ عن أفكاري الحنين إلى الوطن الذي بدأ يخيّم عليّ في الليالي الطويلة، والباردة، والمعتمة.

سيطرت هذه الأفكار على ذهني بينما كنت أقود سيارتي تحت جسر **جاك– كارتيـــيه**، وعندما بدأت أنعطف غرباً باتجاه **فايغر**. مررتُ من أمام مصنع شراب **مولـــسون**، الـــذي يمتد على ضفة النهر إلى يساري، ثم مررتُ من أمام برج مبنى **راديو كندا** الدائري، ورحت أفكّر بالناس المحتجزين داخل هذا المبنى؛ إنهم شاغلو هذه الخلايا الصناعية الذين يتمنون، ومن دون شك، الانطلاق من أماكن أعمالهم، مثلـــي أنا. تصورتهم يتأملون أشعة الشمس من وراء واجهاتهم الزجاجية الشفافة،

ويحـــنّون إلى رؤية الزوارق، والدرّاجات الهوائية، والأحذية المطاطية، وينظرون إلى ساعاتهم بين حين وآخر، بينما يستمتعون بدفء أشعة شمس حزيران.

أنـــزلتُ زجاج نافذة السيارة، ومددتُ يدي كي أشغّل جهاز الراديو.

سمعـــتُ **جيري بولي** يغني "***Les Yeux du Coeur***". ترجمتُ كلمات الأغنية في ذهـــني. اســـتطعت أن أتـــصوره، وتخيلـــتُه شخصاً ضخماً ذا عينين داكنتين، وخصلات شعره تتطاير حول رأسه، ويتمايل مع موسيقاه متحمساً. تصورتُه رجلاً ميتاً بعمر الرابعة والأربعين.

رجعـــتُ بـــتفكيري إلى تلـــك المقابـــر التاريخـــية الأثرية. يتولى المحققون الأنثروبولوجيون قضايا مثل هذه. فهم يتفحّصون العظام القديمة التي ينبشها عمال البناء، والكلاب، ومياه الفيضانات، وحفّارو القبور. ويشرف مكتب المحقق الجنائي على الوفيات في مقاطعة **كيبيك**. إذ يجد المحقق الجنائي نفسه مضطراً لمعرفة أسباب الوفاة، وما إذا كان المرء قد مات بطريقة غير مناسبة، أي من دون إشراف الأطباء، أو خارج سريره. وإذا كان موت المرء يهدّد حياة الآخرين، فسيجد المحقق الجنائي نفسه مضطراً لمعرفة هذه المعلومة. ويطلب المحقق الجنائي تفسيراً للوفيات الناتجة عن أعمال العنف، أو التي تحدث فجأة أو في غير أوانها. ولكن الأشخاص الذين قضوا منذ وقت طويل لا يحظون إلا بقدرٍ طفيفٍ من الاهتمام. فلقد بقيت هذه الوفيات تستـــصرخ الأصوات المطالبة بالعدالة، ولربما حملت معها تحذيراً من كارثة داهمة، لكـــن هذه الصرخات بقيت ساكنةً لوقت طويلٍ جداً. إذ يتم التأكد أولاً من قِدَم هـــذه العظام، ثم تمرّر إلى علماء الآثار. أظنّ أن هذه القضية ستكون قضية من هذا النوع. وأتمنى ذلك من كل قلبي.

قُـــدتُ الـــسيارة عبر طريق متعرج، وعبر ازدحام السيارات في وسط المدينة. ووصـــلتُ في غضون خمس عشرة دقيقة إلى العنوان الذي أعطاني إياه **لامانش؛ لا غـــراند ســـيمينايو**. تُعتبر **لا غراند سيمينايو** من بقايا الممتلكات الضخمة **لدور العـــبادة**، وهي تحتل مساحةً كبيرةً من الأراضي الواقعة في قلب **مونتريال**. أنا الآن في **سنتر فيل**، وسط المدينة، أي الحي الذي أسكنه. صمدت هذه القلعة المتحضرة بـــصفتها جزيـــرة خضراء وسط بحرٍ من الأبنية الإسمنتية العالية، ولذلك فإنها تقف شـــاهدةً صـــامتةً على مؤسسةٍ كانت قوية في وقت من الأوقات. رأيتُ الجدران

الحجرية المجهزة بأبراجٍ للمراقبة، والتي تحيط بقلاعٍ رمادية معتمة الألوان. وشاهدتُ أيضاً مساحات من العشب الأخضر التي تلقى عناية مناسبة، بالإضافة إلى مساحات أخرى تُركت من دون عناية.

اعتادت العائلات أن ترسل أبناءها بالآلاف إلى هذا المكان كي يتدربوا على حـــياة التعـــبّد. وكان ذلك في أيام العز التي عرفتها دور العبادة هذه. أمّا في هذه الأيام، فيدأب عدد قليل من الشبان على الحضور إليها. علمتُ أن الأبنية الكبيرة قد تمّ تأجيرهـــا، وأن مهمـــة مدارسها ومؤسساتها أصبحت أكثر علمانية، حيث حلّ الإنترنت، والفاكس، مكان النصوص الدينية، وأصبحا المعتقد الفعلي للناس. أعتقد أن هذا المكان يصلح لاتخاذه رمزاً للمجتمع الحديث.

تـــوقفتُ في شـــارعٍ صغير قبالة الأرض التابعة للكلية، ونظرت شرقاً باتجاه **شيربروك**، أي باتجاه ذلك القسم من الأرض الذي تستأجره الآن **كلية مونتريال**. لم ألاحـــظ أي شـــيء غير اعتيادي. أسندتُ مرفقي إلى زجاج النافذة، ثم نظرتُ باتجـــاه الجهة المقابلة. لسع ساعدي ذلك المعدنُ الساخنُ والمغطى بالغبار، فسحبته بسرعة مثلما يفعل سرطان بحري بعد أن يُضرب بعصا.

شاهدتُهم في تلك اللحظة. كانوا مستندين بطريقة فوضوية إلى جدران البرج الحجـــري الذي يعود إلى القرون الوسطى. استطعتُ أن أرى سيارة شرطة بلونيها الأزرق والأبـــيض، وتحمل على جانبها عبارة **شرطة مدينة مونتريال**، وقد سدّت المـــدخل الغـــربي المؤدي إلى المجمّع السكني. شاهدتُ أمامها مباشرة شاحنةً تابعةً **لمؤســـسة مياه كيبيك** بسلالمها وأجهزتها، التي تتدلى مثل ملحقات محطة فضائية. شاهدتُ ضابط شرطة يقف إلى جانب الشاحنة، ولكنه كان منشغلاً بالحديث مع رجلين يرتديان ثياب العمل.

انعطفـــتُ يـــساراً، والتحقتُ بالسير المتجه غرباً فوق **شيربروك**. شعرتُ بالارتـــياح لأنني لم أرَ مندوبي الصحف. إذ يتحوّل الاحتكاك مع الصحفيين في **مونتـــريال** إلى كارثـــة مزدوجة، لأنني اكتشفت أن وسائل الإعلام تستخدم اللغـــتين الفرنسية والإنكليزية. وأنا لا أعتبر نفسي لطيفة بالضبط عندما أضطر للتكلم بلغة واحدة، لكنني سرعان ما أصبح فظة بالتأكيد إذا ما اضطررتُ لرد هجوم باللغتين معاً.

كـــان **لامـــانش** على حق. سبق لي أن حضرتُ إلى هذه الأمكنة في الصيف الفائت. إنني ما زلتُ أتذكر القضية التي عملتُ عليها حينها، حيث تمّ الكشف عن عظـــامٍ أثناء إصلاح أحد أنابيب المياه الرئيسية. وكانت ملكية تلك الأراضي تعود إلى دار العـــبادة. تذكـــرتُ وجـــود المقبرة القديمة، وعمليات الدفن التي جرت. وتذكـــرتُ أيضاً استدعاء عالِم الآثار. أُقفلت القضية عند هذا الحد. أتمنى من كل قلبي أن يجري التقرير الذي سأكتبه عن هذه القضية على نحوٍ مماثل.

نـــاورتُ بسيارتي **المازدا** كي أركنها أمام الشاحنة. لاحظتُ أنّ الرجال الـــثلاثة المتواجدين في المكان قد توقفوا عن تبادل الحديث، ونظروا إليّ. تمهّل الـــضابط قلـــيلاً عندما ترجلتُ من السيارة وكأنه يفكر بالمسألة ملياً، ثم تحرك نحـــوي. لم يبتـــسم. أعتقد أنه تجاوز نوبة عمله لأن الساعة أشارت إلى الرابعة والرّبع من بعد الظهر، ولعل الرجل لم يكن سعيداً بالبقاء في هذا المكان. حسناً، هذه هي حالي أيضاً.

"عليكِ أن تحرّكي هذه السيارة يا سيدتي. لا تستطيعين إيقافها هنا".

أشـــار الـــرجل بيده وهو يحدّثني كي يدلّني على الاتجاه الذي يُفترض بي أن أســـلكه لدى مغادرتي. استطعتُ أن أتخيّل أنّ حركة يده تشبه تماماً حركتها عندما يطرد الذباب عن طبق سلطة البطاطا.

أغلقتُ باب **المازدا** بشدة وقلتُ: "أنا **الدكتورة برينان**. أعمل لدى **مختبرات الطب الشرعي**".

"هل أتيت من قِبل مكتب المحقق الجنائي؟"

كانـــت لهجته اللطيفة هذه توحي بالثقة، حتى ولو جاءت من فم محقق يعمل لدى أجهزة المخابرات السوفياتية.

قلـــتُ بـــبطء، وكـــأنني مدرّســـة في الصف الثاني الأساسي: "أجل. إنني ***الأنثـــروبولوجية القضائية***. وأنا أهتم بالقضايا الغامضة، وبالهياكل العظمية. أعتقد أنّ هذه ربما تفسّر لك الأمرين".

وناولتُه بطاقة تعريف عن عملي. أنبأتني لوحة نحاسية صغيرة ثُبِّتت فوق جيب قميـــصه أنـــه الـــشرطي **غرولكس**. نظر إلى الصورة المثبتة على البطاقة، ثم نظر باتجاهـــي. لم يكن مظهري مقنعاً بالنسبة إليه. كنتُ قد قرّرتُ صباحاً العمل على

تجميع جمجمة طيلة اليوم، ولهذا فقد ارتديتُ ملابس تناسب مواد الغراء. فارتديتُ سـروالاً من الجينـز البنّي الشاحب، وقميصاً من نفس النوع، ورفعت كمَّيَّ حتى المرفقين، وانتعلتُ حذاءً عالياً، لكن من دون جوربين. ضممتُ معظم شعري تحت قـبعة، أما ما بقي منه فتحرر من القبعة مطيعاً قانون الجاذبية، وراح يتلوى حول وجهـي، ثم اتجه نـزولاً نحو عنقي. انتشرت بقعٌ جافة في أنحاء وجهي، فجعلتني أبـدو وكـأنني والدةٌ في منتصف عمرها أُجبرت على التخلي عن مشروع لصق أوراق الجـدران الـذي كانت تقوم به، أكثر من كوني أنثروبولوجية تعمل لدى القضاء الشرعي.

تفحّص الرجل بطاقتي لوقتٍ طويل، ثم أعادها لي من دون أي تعليق. واتّضح لي أنني لست المرأة التي كان ينتظرها.

سألتُه: "هل رأيتَ البقايا العظمية؟"

حـرّك الرجل يده بطريقة غريبة كي يشير إلى الرجلين اللذين وقفا يراقباننا، ولـذلك أرجـأا حديثهما حتى وقتٍ آخر. "لا. إنني أحرس المكان. وجد هذان الرجلان العظام. وسيرشدانك إليها".

تساءلتُ ما إذا كان الشرطي **غرولكس** قادراً على تأليف جملةٍ مركبة. أشار بيده مرةً ثانية إلى العاملَين.

"سأحرس سيارتك".

أومـأتُ باتجاهه، لكنه تحرك مبتعداً. راقبني عاملا مصلحة المياه بصمت أثناء تقدمي نحوهما. وكان كل منهما قد وضع نظارة بيضاوية الشكل، ولكنني لاحظت أنّ أشـعة شمس المساء كانت تنعكس بشكلٍ متناوبٍ على زجاج نظارتيهما كلما حـرّك أحـدهما رأسه. وتدلى شارب كل منهما حول فمه آخذاً شكل حرف U المقلوب.

بدا الرجل الذي على يساري أكبرهما سناً. ولاحظتُ أنه رجل نحيفٌ وداكن الـوجه، ويمتلك النظرة ذاتها التي يتميّز بها كل كلب صيدٍ صغير. نظر الرجل حوله بعصبية، وتنقلت نظرته ما بين شيءٍ وآخر، وبين شخصٍ وآخر، مثلما تفعل النحلة عندما تنتقل بين زهرة متفتحة وأخرى. أبقى الرجل نظرته مركزةً نحوي، ثم أبعدها عني على نحوٍ مفاجئ، وكأنه خشي أن يدفعه تلاقي نظرته مع نظرات الآخرين إلى

الإقـــدام على أمرٍ سيندم عليه في ما بعد. نقل ثقلَ وزنه بين قدمٍ وأخرى، ثم أحنى كتفيه قبل أن يرفعهما مجدداً.

كـــان شـــريكه رجلاً أضخم بكثير. وجهه شاحب، وقد أسدل ضفيرة شعرٍ طـــويلة ورفيعة. ابتسم الرجل ما إن اقتربتُ منه، فبانت على الفور فجوات كانت تحتلها أسنانٌ ذات يوم. شككتُ أن يكون الأكثر ميلاً للثرثرة من بينهما.

بادرني الرجل بالفرنسية: "مرحباً. كيف حالك؟"

رددتُ عليه بإيماءتين متتاليتين: "أنا بخير. أنا بخير".

عـــرّفتُ بنفـــسي، ثم ســـألتُهما ما إذا كانا قد أبلغا عن اكتشافهما للعظام. فشاهدتُ المزيد من الإيماءات.

"إذاً أخـــبراني عـــنها". تناولتُ دفتر ملاحظات من حقيبة ظهري، وفتحتُ الدفتر، وجهّزتُ قلمي استعداداً للكتابة. ثمّ ابتسمتُ تشّجيعاً لهما.

تكلّم الرجل ذو الضفيرة بحماسة، وتدافعت كلماته مثلما يفعل الأطفال الذين يـــنطلقون لأخذ استراحتهم المدرسية. بدا لي أنه يستمتع بهذه المجازفة. وتميزت لغته الفرنـــسية بألفاظها المشدّدة. فتسارعت الكلمات متزاحمةً من فمه، فضاعت أواخر بعضها، على عادة **الكيبيكيين** الذين يسكنون في الجهات العليا من النهر. ووجدتُ نفسي مضطرةً للإصغاء إليه بعناية.

أشـــار بـــيده إلى أسلاك الطاقة الكهربائية الموجودة فوق رؤوسنا، ثم أجرى مـــسحاً بـــصرياً شـــاملاً للمنطقة المحيطة بنا. "كنا نقوم بعملنا، وننظف الموصل الكهربائي، إذ يتعيّن علينا إبقاء الخطوط نظيفة".

أومـــأتُ موافقةً. فالتفت وأشار باتجاه منطقة كثيفة الأشجار، تمتدّ على طول قطعـــة الأرض الـــتي كنا نقف عليها وتابع قائلاً: "عندما نـــزلتُ إلى تلك الحفرة الموجودة هناك، شممتُ رائحة غريبة". توقف عن الكلام، وتسمّرت عيناه في اتجاه الأشجار، ثم مدّ ذراعه، واخترقت سبابته الهواء.

"غريبة؟"

اســـتدار إلى الخلـــف: "حسناً، لم تكن غريبةً بالتحديد". توقّف قليلاً ساحباً الهواء بشفته السفلى أثناء بحثه عن الكلمة المناسبة في قائمة المفردات التي يختزنها في ذهنه. تابع قائلاً: "رائحة جثة. أتعرفين، رائحة جثة؟"

انتظرتُه كي يكمل حديثه.

"أتعرفين؟ وكأن حيواناً زحف كي يموت في مكان يناسبه".

هزّ كتفيه قليلاً عندما نطق بهذه العبارة الأخيرة، ثم نظر نحوي كي يعرف إذا مـــا كنت عازمة على موافقته على قوله. كنتُ أعرف ما يتحدث عنه هذا الرجل، فرائحة الموت ليست غريبة عني. فأومأت ثانية.

"اعـــتقدتُ ذلـــك. اعتقدتُ أنّ كلباً، أو ربما نمساً، مات في المكان. بدأتُ باستكـــشاف المكان حول الموصل الكهربائي مستعيناً بمعولي، وركّزتُ على المكان الـــذي فاحـــت منه الرائحة الأقوى. وجدتُ، بالتأكيد، مجموعةً من العظام". هز الرجل كتفيه مرةً أخرى.

"آه – هه". بدأ شعور غير مريح يسيطر عليّ. إذ لا تصدر رائحة عن الجثث المدفونة منذ زمن طويل.

"وهكـــذا ناديتُ **جيل**..." نظر إلى الرجل الأكبر منه سناً منتظراً منه الموافقة علـــى كلامه. بدا **جيل** منشغلاً بالتحديق في الأرض. "... ثم بدأنا نحفر سوياً بين أوراق الأشجار، وتلك العظام التي وجدناها. لم يكن ما وجدناه يشير إلى ما يشبه بقايـــا كلب أو نمس". طوى الرجل ذراعيه فوق صدره أثناء تلفظه بهذه العبارات، وأخفض ذقنه، ثم وقف على عقبيه.

"ولماذا؟"

"إنـــه كـــبير جـــداً". طوى الرجل لسانه، ثم استخدمه كي يتفحص إحدى الثغـــرات الموجودة في طقم أسنانه الصناعية. ظهر طرف لسانه، ثم اختفى ما بين أسنانه مثل دودة تتحقق من طلوع شمس النهار.

"هل من شيءٍ آخر؟"

تراجع الرجل النحيل إلى الوراء. "ماذا تقصدين؟"

"هل وجدتما شيئاً آخر غير العظام؟"

"أجـــل. وهذا ما بدا غريباً بالنسبة لي". مدّ ذراعيه على طولهما، وأشار إلى أبعـــاد ذلك الشيء الغريب بيديه. "وجدنا كيساً مصنوعاً من النايلون يحيط بكل هذه الأشياء..." هزّ كتفيه، ثم رفع راحتَي يديه، وترك جملته غير مكتملة.

شعرتُ أنّ انـــزعاجي يتزايد. "وماذا بعد؟"

"*وفينستوز* واحدة". قالها بسرعة. وبدا وكأنه شعر بالارتباك والدهشة في الوقت ذاته. رافقني **جيل** بنظراته. أدركتُ أنّ فهمه لما يجري يعادل ما فهمتُه أنا. ابتعد بنظره عن الأرض، ثم ما لبث أن عاد كي يتفحصّها ثانية.

ظننت أنني ربما لم أفهم الكلمة التي قالها للتو. "ماذا؟"

"*فينستوز*. مطبّة، من النوع الذي يُستخدم في الحمامات". أومأ بحركات يديه إلى كيفية استخدامها، وتقدّم بجسده إلى الأمام، ولّف يديه حول عصا غير مرئية، ثم راحت ذراعاه ترتفعان وتنخفضان صعوداً ونزولاً. لم تكن هذه الحركات الإيمائية بشعة في سياقها، بل جاءت مزعجة بعض الشيء.

تلفّظ **جيل** بكلمة "*ساكرية*..." وسمّر نظره على الأرض. اكتفيتُ بالتحديق فيه. لم يكن هذا صحيحاً. لذا أنهيتُ كتابة ملاحظاتي، ثم أغلقتُ الدفتر.

لم أرغب بانتعال جزمتي، وردائي الفضفاض الذي أرتديه أحياناً فوق ملابسي إلا إذا كان ذلك ضرورياً: "هل الأرض رطبة هناك؟"

ردّ الرجل: "لا". نظر مجدداً إلى **جيل** كي يحصل على تأييد لما قاله. فأومأ الرجل من دون أن يحوّل بصره عن التراب الموجود على قدميه.

قلت: "حسناً. هيا بنا". تمنيتُ أن أبدو متمتعة بالهدوء أكثر مما شعرتُ به.

مشى الرجل ذو الضفيرة أمامنا فوق العشب وبين الأشجار. وانحدرنا تدريجياً حتى وصلنا إلى وادٍ صغير، ولاحظتُ أنّ الأشجار والأعشاب تتكاثف كلما اقتربنا من قعر الوادي. تبعتُ الرجلين نحو الأجمة. أمسكتُ بالأغصان الكبيرة في يدي اليمنى، وهي الأغصان التي دفعها الرجل نزولاً نحوي، قبل أن يمرّرها نحو **جيل**. ومع هذا بقيَتْ بعض الأغصان الصغيرة عالقةً في شعري. فاحت رائحة التراب، والأعشاب، وأوراق الأشجار المتعفنة. وتسلّلت أشعة الشمس من خلال الأغصان الخضراء بطريقة غير متساوية جاعلةً من الأرض تبدو مبقّعة مثل قطع أحجية. وجدتْ أنوار الشمس منفذاً لها حتى تصل إلى الأرض. وتراقصت جزيئات الغبار ضمن حزَم الأنوار. بينما حامت الحشرات الطائرة حول وجهي، وأزّت في أذني، في حين فضّلت الحشرات الزاحفة أن تتمسك بكاحليّ.

توقف العامل الموجود في أسفل الوادي كي يستريح قليلاً، ثم انعطف نحو جهة اليمين. تبعتُه، وانشغلتُ بمكافحة البعوض، وأبعدتُ النباتات عن طريقي،

وحدّقتُ في أسراب البعوض المتطايرة حول عينيّ، وركّزتُ على البعوضة الوحيدة الـــتي اتجهـــت مباشـــرة نحو قرنية عيني. انتشرت حبيبات العرق على ثنايا شعري وشفتيّ، وتسبّبتْ في التصاق خصلات شعري الهاربة بجبهتي وعنقي، لذلك ما كان يجدر بي أن أقلق بشأن فستاني، أو شعري.

لم أجـــد نفسي بحاجة إلى دليلٍ كي أعرف أنني لا أبعد عن الجثة سوى خمس عشرة ياردة. فلقد اشتممتُ رائحة الموت المميزة، والممتزجة مع رائحة تربة الغابة، وضـــوء الشمس. و لم تكن رائحة الجثة المتحلّلة تشبه أي رائحة أخرى، وهي تخيّم فوقنا وسط هواء المساء الدافئ. صحيحٌ أنها رائحة ضعيفة، لكن لا يستطيع المرء أن يتجاهلها. قويَت الرائحة النتنة شيئاً فشيئاً مع كل خطوة مشيتُها، وتعزّزت كثافتها مـــثل طنين أسراب الجراد. لم تعد رائحة الموت ممتزجةً مع الروائح الأخرى، لأنها تغلّـــبت على كل ما عداها. استسلمت روائح الآشنة، والدبال، والصنوبر أمام قوة رائحة اللحم المتعفن.

توقـــف **جـــيل**، وجمُد في مكانه محتفظاً بمسافة معقولة تفصله عن الجثة. فلقد اكتفى الرجل بالرائحة، لذلك لم يكن بحاجة إلى إلقاء نظرة أخرى. في حين توقّف الرجل الأصغر سناً بعد أن تقدّم عشرة أقدامٍ أخرى، والتفتَ نحوي، ومن دون أن ينطق بكلمة واحدة، أشار نحو كومة صغيرة مغطاة جزئياً بالأوراق، وبعض البقايا الأخرى. حامت أسراب الذباب حول الكومةِ مثلما يحوم الآكاديميون حول مائدة طعام مفتوحة.

شـــعرتُ بتشنجٍ في معدتي فور رؤيتي لهذا المنظر، وبدأ صوتٌ في رأسي يضج بالقـــول "ألم أقـــل لكِ ذلك؟" تزايد الخوف في أعماقي. وضعتُ حقيبتي عند أسفل شـــجرة، وتـــناولتُ قفازين طبّيين. تقدمتُ بهدوء وسط الأغصان الخضراء. وأكّد المنظر الذي رأيته مخاوفي.

بـــرزت، مـــن خـــلال الأوراق والتراب، مجموعة من عظام الأضلاع، والتي أشـــارت أطـــرافها نحـــو الأعلى، فبدت مثل أضلاع قارب في المرحلة الأولى من التـــصنيع. انحنـــيتُ كي انظر عن قرب. واعترضتُ أسراب الذباب التي توهجت ألـــوان قـــوس القزح من خلال أجسادها الزرقاء - الخضراء. أزحتُ بعض بقايا الأغصان فلاحظتُ أنّ قسماً من العمود الفقري يثبت الأضلاع في مكانها.

أخـــذتُ نَفَـــساً عميقاً، وارتديت قفّازَيّ، ثم بدأتُ بإزالة حفنات من أوراق الأشـــجار اليابسة، وأوراق الصنوبر الإبرية. وعندما بدأ العمود الفقري يظهر أمام ضوء الشمس أسرعتْ مجموعة من الخنافس مبتعدةً. تباعدت الحشرات عن بعضها، وتدافعت نحو الخارج، ثم اختفت الواحدة بعد الأخرى بعيداً عن أطراف العظام.

تابعـــتُ إزالـــة الوحول عن العظام متجاهلةً الحشرات. وتمكنتُ من تنظيف مساحة ثلاثة أقدام مربعة تقريباً، ببطء وعناية. استطعتُ أن أعرف في غضون عشر دقائق طبيعة الشيء الذي عثر عليه جيل ورفيقه. رفعتُ خصلة شعري بيدي المغطاة بالقفـــاز المطاطي. وتراجعتُ قليلاً واسترحتُ كي أعاين الصورة التي بدأت تظهر أمام عينيّ.

نظرتُ إلى الجذع الذي ظهرتْ منه العظام في بعض أجزائه. فشاهدتُ القفص الـــصدري، والعمـــود الفقـــري، والحوض الذي ما زالت تربطه عضلات وأربطة تعرضت للجفاف. بدا النسيج الرابط متيناً ورافضاً تخفيف قبضته عن المفاصل بعد أشـــهرٍ أو أعـــوام، لكن الدماغ والأعضاء الداخلية لم تتمتع بالإصرار ذاته. فلقد تحلّلـــتْ بـــسرعة لأنهـــا تتلقى مساعدة من البكتيريا والحشرات، ويحدث ذلك في غضون أسابيع.

رأيـــتُ بقايـــا الأنـــسجة الجافة البنيّة اللون والتي تتمسك بأسطح عظام الصدر والـــبطن. جلستُ القرفصاء فأسرعت أفواج الذباب لتحوم من حولي. وتسلّلت حزم أشعة الشمس من خلال أشجار الغابة المنتشرة في المكان. تأكدتُ من أمرين، أولهما أنّ الجذع يعود لإنسان، والثاني أنّ تواجده في هذا المكان كان منذ وقت قريب.

أدركـــتُ أيـــضاً أن وجـــوده، أو وصوله، إلى هذا المكانً لم يكن من قبيل الـــصدفة. فلقد تأكدتُ من أن الضحية قُتلت ثم رُميت هنا. إذ وُضعت البقايا في كـــيسٍ مـــن النايلون من النوع العادي الذي يُستخدم لجمع النفايات في المطابخ. وخمّنتُ أنّ الكيس الذي أصبح ممزقاً الآن قد استُخدم من أجل نقل هذا الجذع. لم أجـــد الرأس ولا الأطراف، ولم ألاحظ وجود أي أغراضٍ شخصية، أو أي أغراضٍ أخرى في الكيس. ما عدا شيئاً واحداً.

أحاطت عظام الحوض بمطبة مثل تلك المستخدمة في الحمامات. وبرز مقبضها الخـــشبي الطـــويل نحـــو الأعلىً، وبدا مثل قطعة ***بوبسيكل*** مقلوبة، ورأيت دائرة

الغطـــاس (المطبة) الحمراء ملتصقة بشدة على فتحة الحوض. أوحى لي هذا المنظر بأنهـــا حُشرت عمداً في مكانها. وبدت الفكرة مرعبة مع أنّ الرابط الذي استنتجته كان منطقياً.

وقفتُ ونظرتُ من حولي، وشعرتُ أن ركبتيّ تعترضان على وضعية وقوفي. أعـــرف مـــن تجاربي السابقة أنّ الحيوانات المفترسة تستطيع جرّ أجزاء من جثة ما مـــسافات مذهلة. إذ تستطيع الكلاب تخبئة هذه الأجزاء تحت الأعشاب الكثيفة، لكـــن الحـــيوانات الحفّارة تستطيع نقل العظام الصغيرة، والأسنان، إلى حُفرٍ تحت الأرض. نظّفـــتُ بقايـــا التراب من يديّ، واستكشفتُ المنطقة المحيطة بي مباشرة، وبحثتُ عن طرقات محتملة.

أزّت أسراب الذباب من حولي، وزعق صوت بوق سيارة في **شيربروك**، التي خلـــتُها تـــبعد مليون ميلٍ عني. تسلّلت إلى ذهني ذكريات غابات أخرى، وقبورٍ أخـــرى، وعظامٍ أخرى، وبدت مثل صوَرٍ غير مترابطة من أفلام قديمة. وقفتُ من دون حـــراك في مكـــاني، وتابعـــتُ بحثي بانتباه. لم أشاهد أي أمرٍ شاذ في المنطقة المحـــيطة بي، لكنني أحسستُ بوجود أمرٍ مثل هذا. واختفى هذا الشيء الجاف قبل أن تـــتمكن خلايا دماغي العصبية من تكوين صورة له. حدث ذلك بسرعة تماثل ســـرعة اختفاء حزمة من الضوء بعد انعكاسها على سطح مرآة. دفعتني ومضةٌ لم أستطع تفسيرها إلى الالتفات. لم أرَ شيئاً. تسمّرتُ في مكاني، لكنني لم أكن واثقةً مـــن رؤيـــتي لأي شـــيء. طردتُ الحشرات التي حامت أمام عينيّ، ولاحظتُ أنّ الطقس بدأ يميل إلى البرودة.

اللعنة! تابعتُ بحثي. تطايرت خصلات شعري المشبعة بالرطوبة حول وجهي بفعـــل نـــسيمات خفيفة استطاعت بعثرة أوراق الأشجار. تملّكني الإحساس ذاته مجدداً. اعتقدتُ أنّ ضوء الشمس ينعكس على سطحٍ ما. تقدمتُ خطواتٍ قليلة مع أنـــني لم أكـــن متأكدة من مصدر هذا الوميض، ثم توقفت. تنبهت كلّ خلية من خلايا كياني مترصدة كل الأضواء والظلال. لا شيء. لا يوجد، بالطبع، أي شيءٍ غريبٍ أيتها الغبية! لا يُمكن أن يتواجد أي شيء هناك، حتى الذباب.

فجأة لاحظتُه. هبّت الريح بلطف فوق سطحٍ لامعٍ وتسبّبت في تموّجٍ مؤقتٍ في أضـــواء المساء. لم يكن التموّج كبيراً لكن عينيّ استطاعتا ملاحظته. تمكنتُ من

التنفس بصعوبة. اقتربتُ أكثر، وتطلعت إلى الأسفل، و لم أفاجأ بما رأيته. فكّرتُ في نفسي أنّ مهمةً جديدةً بدأت الآن.

تــراءت لي مــن خــلال فجوة في جذور شجرة حور صفراء زاوية كيس بلاســتيكي آخر. انتشرت باقة من الحوذان (عشب ذو زهرٍ أصفر) حول شجرة الحور والكيس، ونَمَت بشكل مجموعات معرشة لتختفي تحتَ الأعشاب التي تحيط بها. بدت الأزهار ذات اللون الأصفر الفاقع مثل الأشكال الهاربة في لوحة **بياتريس بوتر**، بينما بدت نضارة الأزهار في تناقضٍ شديدٍ مع ذلك الشيء الذي أعرف أنه يختبئ في كيسٍ مصنوعٍ من النايلون.

اقتربتُ من الشجرة، وسمعتُ طقطقة الأغصان الطرية، والأوراق تحت قدميّ. اســتندتُ بإحــدى يــديّ، وجرّبتُ باليد الأخرى أن أرفع ما يكفي من الكيس المــصنوع مــن النايلون بشكلٍ يمكّنني من وضع يدي، ثم أسندتُ جسدي بقوة، وســحبتُ بلطف. لا فائدة. أعدتُ لفّ الكيس المصنوع من النايلون حول يدي وســحبتُ بقــوةٍ أكبر إلى أن شعرتُ أنّ الكيس يتحرك. تأكدتُ من أنّ الكيس يحــتوي على شيءٍ ما. بدأت الحشرات تطنّ حول وجهي، وبدأت قطرات العرق تتساقط على ظهري، وبدأ قلبي بالخفقان مثل آلة موسيقية تعزف ضمن فرقة.

ســحبتُ مرةً أخرى فتحرّر الكيس. دفعتُه إلى الأمام لمسافة تكفيني كي ألقي نظــرة على محتوياته. أو لعلني أردتُ فقط أن أبعده عن **أزهار ميز بوتر**. اكتشفتُ أنّ الكيس ثقيل بغض النظر عما يحتويه، لكنني كنت شبه متأكدة ممّا يحتويه. كنت محقة، فما إن بدأتُ بفك رباطات أطراف الكيس حتى فاحت رائحة العفونة القوية وغطت على ما عداها.

حــدّق بي وجه بشري. لم يتعفن الوجه تماماً بسبب تغطيته، الأمر الذي أبعد عنه الحشرات التي تسرّع عملية التحلّل، لكن الحرارة والرطوبة غيّرتا معالم الوجه، وحوّلــتاه إلى قناعٍ للموت لا يحمل إلا القليل جداً من الشبه بالشخص الذي كان علــى قــيد الحــياة. حدقت بي عينان ذاويتان ومتقلصتان من تحت جفنين نصف مغمــضين. رأيتُ الأنف منحنياً نحو جهة واحدة، والمنخرين منضغطَين ومسطّحين على خد غائر. لاحظتُ الشفتين المزمومتين، والتكشيرة الأبدية التي رسمتها مجموعة مــن الأَســنان الــسليمة. كــان لون اللحم في الوجه الميّت أبيضَ بلون العجين،

وتـــشكلت قشرة بيضاء رطبة قَولبت نفسها حول العظام الموجودة تحتها. أحاطت كـــتلة مـــن الشعر الأحمر الباهت بكل تلك الأشياء، ولاحظتُ أنّ الخُصَل اللولبية الباهتة قد التصقت بالرأس بواسطة أنسجة الدماغ المُسالة والمتسربة.

مـــرتجفةً، أغلقـــتُ الكيس. تذكرتُ عاملَي المياه، وتطلعتُ نحو المكان الذي تـــركتهما فيه. رأيتُ أصغرهما سناً يراقبني جيداً، فيما بقي رفيقه خلفه وبعيداً عنه قليلاً، وقد أحنى كتفيه، وأدخل يديه في أعماق جيبـــي سرواله الذي يرتديه أثناء العمل.

خلعـــتُ قفّازَيَّ ومررتُ بالقرب منهما، ثم خرجتُ من تحت الأشجار لأعود إلى حـــيث تقف سيارة الشرطة. لم يقولا شيئاً، لكنني سمعت وقع أقدامهما ورائي، فوق أوراق الأشجار.

شاهدتُ الشرطي **غرولكس** مستنداً إلى السيارة. راقبني وأنا أقترب نحوه لكنه لم يتحرك. سبق لي أن تعاملتُ مع أشخاص أكثر وداً.

أســـتطيع أن أكـــون باردةً بدوري. "هل أستطيع استخدام جهاز الراديو في سيارتك؟"

انتـــصب واقفـــاً ومستنداً إلى يديه، واستدار حول السيارة متجهاً نحو جهة الـــسائق. أدخل رأسه من خلال النافذة المفتوحة، وانتزع الميكروفون من مكانه، ثم وجّه نحوي نظرة تساؤل.

قلتُ: "إنها جريمة قتل".

بدا مندهشاً. شعر بالأسف، ثم طلب الرقم الذي أردتُه. قال للموظف: "قسم الجـــرائم". سمعـــتُ صوت رجل تحرٍّ ينساب في الهواء بعد فترة من التأخير المعتاد، والتحويلات، والخشخشة.

قال الصوت بنبرة من الغضب: "**كلوديل**".

ناولني الشرطي **غرولكس** الميكروفون. عرّفتُ بنفسي، وأعطيتُه عنوان الموقع الـــذي أتـــواجد فيه. قلتُ له: "لديّ جريمة قتل هنا. وهناك احتمال وجود عملية تخلّـــص من الجثة. ويُحتمل أن تكون الضحية أنثى، وهناك احتمال حدوث عملية قطع للرأس. أريدك أن ترسل فريقاً من أجل نقل الجثة على الفور".

مرّت فترة انتظار طويلة. واتضّح أنّ الجميع وجدوا هذه الأخبار سيئة.

"عفواً؟"

كرّرتُ ما سبق وقلته، وطلبتُ من **كلوديل** أن يُبلغ **بيار لامانش** عندما يتصل بموظفي المشرحة. فلن تكون هناك حاجة لعلماء الآثار هذه المرة.

أعـــدتُ الميكروفون إلى **غرولكس** الذي أصغى إلى كلّ كلمة قلتُها. ذكّرتُه بـــضرورة الحـــصول على تقرير كامل من العاملَين. بدا مثل رجلٍ حُكِم عليه للتو بالـــسجن عشرة أعوام، أو عشرين عاماً. أدرك الرجل أنه لن يتوجّه إلى منـــزله في وقت قريب. لم أشعر بتعاطف خاص تجاهه، خصوصاً وأنني لن أتمكن من النوم في **كيبـــك ســـيتي** في عطلة نهاية الأسبوع هذه. تبيّن لي بعد أن اجتزتُ مسافة قليلة باتجـــاه منـــــزلي بأنـــه لن يتمكن أحد منا من النوم كثيراً لمدة طويلة. وقد بيّنت الأحداث أنني كنت محقة، لكنني لم أتمكن من تقدير مدى الرعب الذي تربّص بي.

2

بدأ اليوم التالي حاراً ومشمساً مثل اليوم الذي سبقه، وهو الطقس الذي يرفع من معـــنوياتي في العادة. إنني امرأة يتأثر مزاجها بالطقس، لذلك يتحسّن مزاجي مع تحسّن ميــزان الضغط الجوي، ويهبط معه. لم أشعر أنّ للطقس أهمية في ذلك اليوم بالذات. وجـــدتُ نفسي عند الساعة التاسعة صباحاً في غرفة التشريح رقم 4، وهي أصغر غرفة في مختـــبرات **علوم الطب الشرعي**، لكنها الغرفة الأفضل تجهيزاً بوسائل تهوئة إضافية. اعـــتدتُ العمـــل في هـــذه الغرفة لأن معظم الجثث التي أعمل عليها لا تكون محفوظة جيداً. لكن أجهزة التهوئة لا تكفي، ويبدو أن لا شيء كافٍ في هذه الأيام. لم تستطع المـــراوح والمطّهرات أن تتغلب على رائحة الموت المزمن، كما فشل لمعان الفولاذ غير القابل للصدأ الذي يلتمع بفعل المواد المعقمة بأن يمحو آثار الموت البشري.

تـــستحقّ البقايا التي أُخذت من **لا غراند سيمينايير** أن تكون في الغرفة رقم 4 بكل تأكيد. عدتُ الليلة الماضية إلى المكان بعد أن تناولتُ عشاءً سريعاً، ثم جهزنا موقـــع الجـــريمة. وصلت العظام إلى المشرحة عند الساعة التاسعة والنصف مساءً. وتـــرقد العظام الآن في كيسٍ مصنوعٍ من النايلون فوق عربة مدولبة موجودة إلى يمـــيني. ناقشنا القضية #26704 في الاجتماع الصباحي الذي يعقده فريق العمل. وأوكَل إليّ أحد الأطباء الخمسة الذين يعملون في المختبرات معاينةَ هذه الجثة، بعد استعراض الإجراءات الروتينية. طُلب مني استخدام خبرتي في هذه القضية لأن الجثة اقتـــصرت علـــى العظام غالباً، ولأن الأنسجة الطرية كانت قليلة جداً، ومتحلّلة، بحيث يصعب إجراء تشريح عادي عليها.

ســبق أن اتصل صباحاً أحد التقنيين العاملين في المختبرات وقال إنه مريض. وتسبّب غيابه بنقص في المساعدين. يا لهذا التوقيت السيئ! انشغلتُ كثيراً في الليلة السابقة: انتحار مراهق، زوجان وُجدا ميتين في منــزلهما، واحتراق شخص نتيجة انــدلاع حريقٍ في سيارة فتشوهت معالمه. ها أنا الآن أمام أربع عمليات تشريح، وقد تطوعتُ - فضلاً عن ذلك - لكي أعمل بمفردي.

ارتــديتُ ثــوبي الجراحــي الأخضر، ونظارة الوقاية البلاستيكية، وقفّازين مطاطــيّين. يا للروعة! انتهيتُ من تنظيف الرأس وتصويره. سيتم تصويره بالأشعة الــسينية هــذا الــصباح، وسيُغلى بعد ذلك من أجل إزالة اللحم المتعفن وأنسجة الدماغ لكي أتمكن من فحص خصائص الدماغ.

فحــصتُ الــشعر بتأن، وبحثتُ عن أي ألياف، أو آثار تشكل دليلاً. بدأتُ بتفــريق الخُصَل الرطبة، لكنني لم أستطِع عدم تخيّل آخر مرة أقدمت الضحية فيها علــى تمــشيط شــعرها، ورحتُ أتساءل عما إذا كانت قد شعرتْ بالرضا، أو بالإحــباط، أو باللامبالاة. هل كان يوم الشعر الجميل، أم يوم الشعر غير المرتب، قبل أن يصبح يوم الشعر الميت؟

حاولــتُ طــرد هذه الأفكار من ذهني، ووضعتُ العيّنة في كيسٍ أرسلته إلى قــسم البيولوجــيا، حيث يتمّ تحليل العيّنة مجهرياً. كذلك، كان الغطاس (المطبة)، والأكــياس المصنوعة من النايلون قد وصلت إلى **مختبرات العلوم الشرعية**، حيث ســيجري فحصها بحثاً عن البصمات، أو أي آثار من سوائل الجسم، أو حتى بحثاً عن مؤشرات تدل على القاتل، أو الضحية، مهما كانت صغيرة.

قــضينا ثــلاث ســاعات في الليلة السابقة مستندين إلى أيدينا وركبنا ونحن نتحــسّس مــن خــلال الوحول، ونفتّش من خلال الأعشاب والأوراق، ونقلّب الأحجار وجذوع الأشجار. لم نجد شيئاً. تابعنا البحث إلى حين أجبرنا الظلام على إنهــاء عملنا من دون أن نعثر على شيء. لم نجد ملابس، ولا أحذية، ولا جواهر، ولا أغراض شخصية. علمنا أنّ فريق استعادة مسرح الجريمة سوف يعود اليوم كي يحفر ويغربل، لكنني شككتُ في إمكانية عثوره على شيء. لن أجد بقربي علامات الــصانعين أو قــسائمهم، ولا سحّابات أو مشابك أو جواهر، ولا أسلحة، ولا أربطــة، ولا ملابــس ممزقة مليئة بالثقوب تساعد على التعرف على الأشياء التي

وجــدناها. تخلّــص المجرم من الجثة بعد أن عرّاها وقطّعها، وجرّدها من كل شيء يربطها بالحياة.

عُدتُ إلى الكيس الذي يحوي الجثة، أو بقاياها المريعة، وحضّرتُ نفسي للبدء في الفحــص الأولي لها. سيخضع الجذع والأطراف في ما بعد إلى عملية تنظيف، وسأجري تحليلاً كاملاً لكل العظام. استطعنا أن نحصل على كامل الهيكل العظمي تقريباً. سهّل القاتل هذه العملية علينا عندما أقدم – أو أقدمتْ – على وضع الرأس والجذع في كيسين، ووضع الذراعين والرجلين في كيسين آخرين. وهكذا حصلنا علــى أربعة أكياس. إنه عمل في غاية الترتيب. ملأ القاتل الأكياس، وتخلص منها مثلما يتخلص المرء من النفايات التي تجمعت على مدى أسبوع. حوّلتُ نقمتي إلى مكان آخر وأجبرتُ نفسي على التركيز.

أخرجتُ الأجزاء المقطّعة من الأكياس، ورتبتُها بحسب مواقعها التشريحية على طاولــة التشريح المصنوعة من الفولاذ الذي لا يصدأ، والموضوعة في وسط الغرفة. حرصــتُ أولاً علــى إخراج الجذع وركّزتُه في الوسط ووضعتُ جهة الصدر إلى الأعلــى. بدا الجذع متماسكاً بصورة مرضية. لم يكن الكيس الذي احتوى أجزاء الجسد مربوطاً بعناية مثلما كان الكيس الذي احتوى الرأس. وجدتُ الجذع على أســوأ حــال ممكــنة، فتماسكت العظام بواسطة حزَم جلدية مؤلفة من عضلات وأربطــة جافة. لاحظتُ أن الفقرات العليا مفقودة، وتمنّيتُ أن أجدها مع الرأس. في حين اختفت الأعضاء الداخلية و لم يتبقَ منها إلا أثرٌ قليل.

انــتقلتُ بعــدها إلى وضع الذراعين على جانبي الجذع، والساقين إلى الجهة السفلى. لم تتعرض هذه الأطراف إلى ضوء الشمس لذلك لم يلحقها الجفاف مثلما حــصل مع الصدر والبطن. لذا احتفظت الأطراف بقسمٍ كبير من الأنسجة الطرية المتعفــنة. حاولــتُ أن أتجاهل الطبقة الصفراء الشاحبة، والمتموجة، التي تراجعت بــشكل بطــيء تحــت سطح كل طرف من الأطراف عندما سحبتُها من الكيس المخصص لحفظ الجثث. إذ تسرع الديدان إلى مغادرة الجثة عندما تتعرض للضوء. رأيــتُها تتساقط من الجثة إلى الطاولة، ومن الطاولة إلى الأرض. حدث ذلك على شــكل رذاذ مستمر، وإن ببطء. انتشرت حبيبات الأرزّ (الديدان) الشاحبة متقلبةً قرب قدميّ، لكنني تجنبتُ الدوس عليها. في الواقع، لم أتعود عليها.

تقـــدمتُ مـــن لوحة الكتابة، وبدأتُ أملأ النموذج. الاسم: مجهول. تاريخ التشريح: 3 حزيران، 1994. المحققون: **لوك كلوديل، ميشال شاربونيو**، من ***قسم الجنايات*، شرطة مدينة مونتريال.**

أضـــفتُ رقم تقرير الشرطة، ورقم التشريح، ورقم مختبرات الطب الشرعي. اجتاحتني الموجة المعتادة من الغضب نتيجة اللامبالاة المتغطرسة التي يُظهرها النظام. إذ لا تـــسمح الوفـــيات الناتجة عن العنف بأي خصوصية. فتستبيح هذه الوفيات كـــرامة الضحية، كما تستبيح حياتها. فتُلمس الجثة، وتُفحص بدقة، وتصوّر، كما تُـــضاف مجموعة من الأرقام عند كل خطوة. تتحوّل الضحية إلى جزءٍ من الدليل، أو المستند القانوني، وتُعرض أمام الشرطة، والأطباء، والمختصين العدليين، والمحامين، وأخيراً هيئة المحلفين. تُعطى هذه الجثة رقماً، ثم يتمّ تصويرها، وتؤخذ العينات منها، ثم توضع إشارة على إصبع القدم. إنني أعتبر نفسي مشاركة نشطة في هذه العملية، لكـــنني لم أستطِع أبداً أن أتقبّل هذه الموضوعية التي يتميّز بها النظام. إذ تغدو هذه العملـــية أشبه بعملية سلب ذات مستوى شخصي رفيع. ولكن، سأقوم على الأقل باكتـــشاف اســـم هذه الضحية. تُضاف هذه الوفاة بهذه الطريقة المجهولة إلى قائمة الانتهاكات التي يعانيها، أو تعانيها، الضحية.

انتقيتُ أحد النماذج من اللوحة. فلقد اعتزمت أن أغيّر برنامج الفحص الذي أعـــتمده في العـــادة، وهكذا فإنني سأترك إجراء الجردة الهيكلية الكاملة إلى وقت لاحـــق. أخـــبرني رجـــال التحري أنهم يريدون معرفة ملخص عن هوية الضحية: الجنس، العمر، والعرق.

اتـــضح عِرْق الضحية لدي فوراً. شعرها أحمر، وما بقي من الجلد بدا فاتحاً. ولكـــن، مـــع ذلك، يقدر التحلّل على فعل أمورٍ غريبة. تفحصتُ تفاصيل عظام الهـــيكل بعـــد تنظـــيفها. أســـتطيع أن أراهن الآن على أن الضحية تنتمي للعِرق القوقازي.

اتجهت تخميناتي في البداية إلى أنّ الضحية أنثى. كانت معالم الوجه دقيقة، أما معالم البنية الجسدية فدلّت على النحافة. ولا يدل الشعر الطويل على شيء.

تفحّـــصتُ الحوض. ولاحظتُ عندما قلبته إلى جانبه أنّ الشق الموجود تحت نـــصل الورك عريض وغير عميق. عدّلت وضعيّة الحوض حتى أستطيع رؤية العظام

العانية، أي تلك المنطقة من الجهة الأمامية حيث يلتقي النصفان الأيمن والأيسر من الحوض. لاحظتُ أنّ القوس الذي يتشكل من حدّيهما الأسفلين كان قوساً عريضاً. ارتفعت حواف دقيقة عبر الجهة الأمامية فوق كل عظمة عانية، فشكّلت بذلك مثلثات واضحة عند الزوايا السفلية. إنها مظاهر أنثوية نموذجية. سآخذ القياسات في ما بعد، ثم سأجري تحليل التمييز الوظيفي على جهاز الكمبيوتر، لكن ما من شك عندي في أنّ هذه البقايا العظمية تعود إلى امرأة.

كنت منهمكةً في لفّ المنطقة العانية بقطعة قماش مبلّلة عندما روّعني صوت الهاتف. لم ألاحظ مدى السكون المخيّم على المكان، أو مدى التوتر الذي شعرتُ به. اقتربتُ من الطاولة، لكنني سرتُ بطريقة متعرجة مثل طفلٍ يلعب لعبة الرمي، كي أتجنب الدوس على الديدان.

قلتُ: "**دكتورة برينان**". رفعتُ نظارتي إلى أعلى شعري، ثم تمالكتُ على الكرسي. واستخدمتُ قلمي كي أرمي دودة عن سطح الطاولة.

سمعتُ صوتاً عبر السماعة يقول: "**كلوديل**". كان **كلوديل** أحد رجلَي التحري المعينين لحل هذه القضية. نظرتُ إلى ساعة الحائط التي أشارت إلى العاشرة والربع. انتبهتُ بعد قليل إلى أنه لم يُكمل كلامه. وأدركتُ أنه يعتبر اسمه رسالةً كافية.

"إنني أعمل عليها الآن". استطعتُ سماع صوتٍ معدني. "يتعيّن..."

قاطعني: "أتعنين أنها *أنثى*؟"

"نعم". راقبتُ دودةً أخرى تتقلّص لترسم شكل هلال، ثم انثنت على نفسها، وكرّرت المناورة في الاتجاه المعاكس.

"هل هي بيضاء؟"

"نعم".

"والعمر؟"

"يُفترض أن أعطيك تقديرات في غضون ساعة من الزمن".

استطعتُ أن أتصوّره ينظر إلى ساعته.

"حسناً. سأوافيك بعد العشاء". سمعتُ قرقعةً. كنت قد سمعتُ تصريحاً لتوي، ولم أسمع طلباً. يبدو أنّ موافقتي لا أهمية لها.

أنهيتُ المكالمة وعدتُ إلى السيدة المستلقية على الطاولة. تناولتُ لوح الكتابة، وقلبتُ الأوراق حتى وصلتُ إلى الصفحة التالية من أوراق التقرير. العمر؟ تجاوزت الـضحية سن البلوغ. إذ سبق لي أن تفحّصتُ فمها، ولاحظت أن أضراس العقل برزت بالكامل.

تفحّصتُ الذراعين في المكانين اللذين فُصلتا فيهما عن الكتفين. لاحظتُ أن أطراف عظمتَي العضد كانت كاملة، لكنني لم أشاهد أي خط فاصل يحدّد الغطاء في الجهتين، أما النهايات الأخرى فكانت من دون فائدة، لأنّها قُطعت بكل دقة فوق الرسغين تماماً. واعتزمتُ أن أبحث عن الشظايا في وقتٍ لاحق. تطلّعتُ نحو الساقين. كانت نهاية كل عظمة فخذ تامة التكوين على الجهتَين اليمنى واليسرى.

أقلقني شيء ما في تلك المفاصل المقطوعة. لم يكن لذلك الشعور أي علاقة برد فعلي المعتاد عندما أرى حالة فساد أمامي، لكنه كان شعوراً غامضاً ومشوهاً. شعرتُ بتجمّد في أحشائي أثناء إعادتي للساق اليسرى إلى مكانها فوق الطاولة. عاودني شعور الهلع الذي خيّم عليّ في الغابة. طردتُ هذا الشعور، وأجبرتُ نفسي على التركيز على المسألة التي أعالجها. كم يبلغ عمر الضحية؟ يتعيّن عليّ تحديد العمر. إنّ من شأن التقدير الصحيح للعمر أن يزيد من احتمالات التوصل إلى تحديد الاسم. إنّ تحديد اسم الضحية أصبح الآن على رأس سلّم الأولويات عندي.

استخدمتُ مبضعاً من أجل إزالة اللحم الذي يغلّف الركبة، ومفاصل المرفقين. أزلته بسهولة. لاحظتُ مرةً أخرى أنّ العظام الطويلة تامة النمو. سأتأكد من هذه المسألة لاحقاً بعد التصوير بالأشعة السينية، لكن كل المؤشرات تدل على أنّ نمو العظام أصبح تاماً. لم ألاحظ وجود شحوم، أو تغيّرات في المفاصل. يعني هذا أنّ الضحية قد بلغت سن البلوغ، لكنها ما زالت شابة. توافق ذلك مع ما لاحظتُه من سلامة أسنانها.

أريد المزيد من الدقة. أعرف أن **كلوديل** يرغب في أقصى درجات الدقة. تفحّصتُ كل عظمة من عظمتَي الترقوة، حيث تلتقي بعظمة القص عند قاعدة العنق. لاحظتُ أنه رغم أنّ العظمة اليمنى قد انتُزِعت، إلا أنّ سطح المفصل كان مغلّفاً بكتلة صلبة من الغضاريف والأربطة الجافة. استخدمتُ السكّين كي أقطع ما

أمكنني من أنسجة الجلد، ثم عمدتُ إلى تغليف العظمة بقطعة قماش مبلّلة، وعاودتُ اهتمامي بالحوض.

نزعتُ قطعة القماش مجدداً، ثم بدأتُ، مستعينةً بالمبضع، بخياطة الغضروف الذي يربط النصفين الأماميين. ساعدت عملية الترطيب على جعل الغضروف أكثر ليونة، وسهّلت عملية قطعه، لكن العملية بقيت مع ذلك بطيئة ومملة. لم أرغب في إتلاف الأسطح التحتية. وتوصلتُ أخيراً إلى فصل العظام العانية، وقطعتُ الأشرطة القليلة المتبقية من العضلات التي تربط الحوض مع الجهة السفلى الخلفية من العمود الفقري. حرّرتُه، ثم نقلتُه إلى حوض المياه، وغطّستُ القسم العاني من الحوض في المياه.

عدتُ إلى الجثة مجدداً. فانتزعتُ عظمة الترقوة من الكيس، ثم نزعتُ ما أمكنني من النسيج. ملأتُ بعد ذلك وعاءً بلاستيكياً يُستخدم لأخذ العيّنات بالمياه، ووضعتُه قبالة القفص الصدري، ثم قمتُ بتثبيت طرف عظمة الترقوة فيه.

نظرتُ إلى ساعة الحائط، وأشارت عقاربها إلى الساعة الثانية عشرة واثنتي عشرة دقيقة من بعد الظهر. ابتعدتُ عن الطاولة ونزعتُ قفّازَيّ الطبّيين عن يديّ. بدأ الألم في ظهري يتزايد ببطء. شعرتُ وكأنّ جميع أفراد فريق **البوب وارنر** قد تمرّنوا فوقه. وضعتُ يديّ على وركيّ وتمطيتُ. قوّستُ ظهري إلى الخلف، ثم حرّكتُ الجزء الأعلى من جسدي يمنةً ويسرة. لم تنجح هذه الحركات في تخفيف الألم، لكنها في المقابل لم تؤذِني. أخذ عمودي الفقري يؤلمني مؤخراً، لأن الانحناء فوق طاولة لمدة ثلاث ساعات يساهم في زيادة الألم. رفضتُ أن أعتقد، أو أؤمن، أنّ كل هذا الألم يرتبط بتقدمي في السن، كما رفضتُ الاقتناع أنّ حاجتي إلى نظّارة للقراءة - التي اكتشفتها حديثاً - وزيادة وزني من 52 كلغ إلى 54 كلغ ونصف، ما هي إلا نتيجة لتقدمي بالسن. يبدو أن لا شيء يرتبط بتقدمي في السن.

التفتُّ لأرى **دانيال**، وهو أحد تقنيي التشريح، يتطلع نحوي عبر زجاج المكتب الخارجي. بدت شفته العليا متشنجة، كما لاحظتُ أنّ عينيه قد أغمضتا لفترة وجيزة. غيّر وقفته فأصبح ثقله على ساقٍ واحدة، بينما أراح الثانية. بدا في وقفته هذه مثل طائر الطِّيْطَوِيّ الذي ينتظر وصول موجة تغمر الرمال التي يقف عليها.

سألني: "متى تريدينني أن أبدأ التصوير بالأشعة؟" تدلّت نظارته إلى أسفل أنفه، وبدا أنه ينظر من فوق إطارها، وليس من خلالها.

"أتوقـــع أن أنتهـــي حوالى الساعة الثالثة". قذفتُ بقفّازَيَّ الطبيّين في السلّة المخصصة للنفايات البيولوجية. وتذكرتُ، فجأةً، كم أنا جائعة. تطلعتُ إلى كوب قهوتي الصباحية الباردة، والتي بقيت كما هي. لقد نسيتُ قهوتي تماماً.

"حسناً". تراجع إلى الخلف، واستدار، ثم توجه نحو القاعة واختفى عن ناظريّ.

ألقـــيت بنظارتي على طاولة العمل، ثم تناولت قطعة ورقية كبيرة من الدُرْج الموجـــود أسفل الطاولة. فردتُ قطعة الورق، ثم غطيتُ الجثة. غسلتُ يديّ جيداً، وقفلـــتُ عائـــدةً إلى مكـــتبي الموجود في الطابق الخامس. ارتديتُ ثيابي العادية، وتوجهتُ كي أتناول غدائي. كانت تلك إحدى المرات النادرة بالنسبة إلي، لكنني شعرتُ اليوم أنني أحتاج إلى أشعة الشمس الدافئة.

وفى **كلـــوديل** بـــوعده. فرأيتُه في مكتبي عندما عدتُ عند الساعة الواحدة والنـــصف مـــن بعد الظهر. كان جالساً قبالة طاولة مكتبي، ومركّزاً اهتمامه على الجمجمة التي أعدتُ جمعها على طاولة عملي. التفتَ برأسه عندما سمعني، لكنه لم يقل شيئاً. علّقتُ معطفي خلف الباب، وتجاوزتُه ثم توجهتُ إلى مقعدي.

"***بونجـــور، مسيو كلوديل. كيف حالك؟***" وجّهتُ ابتسامةً لطيفة نحوه عبر طاولة مكتبي.

"***بونجـــور***". بـــدا غـــير مكتـــرثٍ بعملي. انتظرتُه حتى يتكلم. ولم أرغب بالاستسلام لجاذبيته.

رأيـــتُ ملفاً موضوعاً أمامه على الطاولة. وضع يده عليه ونظر إليَّ، وذكّرني وجهـــه بمنظر الببّغاء. بدت ملامحه الممتدة ما بين أذنيه وخط منتصف وجهه مائلة بحـــدة، وبـــرزت إلى الأمام حتى انتهت بأنف مستدق. وبدا ذقنه، وفمه، وطرف أنفـــه، متجهة نحو الأسفل بسلسلة من الزوايا التي تشبه حرف V. ويبدو شكل V الـــذي يظهـــر في فمه أكثر حدة في المرات النادرة التي يبتسم فيها، وتبدو شفتاه منسحبتين أكثر من كونهما متراجعتين.

تأوّه. أبدى الرجل صبراً شديداً معي. لم يسبق لي أن عملتُ مع **كلوديل** من قبل، لكنني سمعتُ الكثير عنه. يعتبر الرجل نفسه ذكياً فوق العادة.

قـــال لي: "بحوزتي أسماء عديدة. هناك الكثير من الاحتمالات. اختفى الكثير من الأشخاص خلال الأشهر الستة الماضية".

كـــان قد سبق لنا أن ناقشنا سوياً مسألة الوقت الذي مضى على الوفاة. ولم يتغيّـــر رأيـــي نتـــيجة عملي الصباحي. أصرَرْتُ على أنّ وفاة الضحية قد حدثت منذ أقل من ثلاثة أشهر، ولهذا فمن المحتمل أن تكون قد حدثت في شهر آذار، أو مـــا بعـــده. إذ تتميز فصول الشتاء في **كيبيك** ببرودتها القاسية على الأحـــياء، وبلطافـــتها بالنـــسبة إلى الأموات، فالجثث المتجمدة لا تتحلّل، ولا تجـــتذب الحشرات. ولو كانت عملية التخلص من الجثة قد حدثت في الخريف الماضي، أي قبل بداية فصل الشتاء، لكنتُ لاحظتُ علامات تدلّ على تعرّضها للحشرات. إنّ وجود بيوت الحشرات، أو اليرقات، كان سيشير إلى اجتياح غير مكـــتملٍ لحشرات الخريف. وأنا لم أجد أي علامة تدلّ على وجودها. تلاقت دلائـــل درجة اهتراء الجثة، مع معطيات الربيع الدافئ، لتؤشر إلى أنّ الوفاة قد حدثت في غضون ثلاثة أشهر أو أقل. إنّ وجود الأنسجة الرابطة، والغياب التام للأحشاء وأي أجزاء من الدماغ، دلاّ أيضاً على أنّ الوفاة قد حدثت في أواخر الشتاء، أو أوائل فصل الربيع.

اســـتندتُ إلى الخلف ونظرتُ نحوه بترقب. أستطيع أن أكون كتومةً بدوري. فتح المغلّف وبدأ يقلب محتوياته. واكتفيتُ بالانتظار.

اخـــتار أحـــد الـــنماذج وأخذ يقرأ: "**مريام وايدر**". توقف قليلاً ليتفحص المعلـــومات الموجـــودة في الـــنموذج. "اختفت في 4 نيسان، 1994". توقف مرةً أخـــرى. "أنثـــى. بيضاء". توقف لمدةٍ أطول هذه المرة. "تاريخ الولادة 6 أيلول، 1948".

بدأت وإيّاه الاحتساب ذهنياً؛ تبلغ المرأة الخامسة والأربعين من عمرها.

قلتُ: "هناك احتمال أن تكون هي". أومأتُ له بيدي كي يتابع.

وضـــع النموذج على الطاولة، وأخذ يقرأ النموذج التالي. "**صولانج ليجي**. أبلغ زوجها عن اختفائها". صمت قليلاً وجهِد كي يقرأ التاريخ. "الثاني من أيار، 1994. أنثى. بيضاء. تاريخ الولادة 17 آب 1928".

هززتُ رأسي: "لا. تبدو مسنةً كثيراً كي هي تكون الضحية".

وضـــع هذا النموذج خلف النماذج الأخرى، وانتقى نموذجاً آخر. "**إيزابيل غاغنون**. شوهدت آخر مرة في 1 نيسان، 1994. أنثى. بيضاء. تاريخ الولادة 15 كانون الثاني، 1971".

أومـــأتُ ببطء: "إنها في الثالثة والعشرين من عمرها. أجل، قد تكون احتمالاً آخر". وضع النموذج على الطاولة.

"**سوزان سان بيير**. أنثى. فُقدت منذ 9 آذار، 1994". بدأت شفتاه تتحركان وهـــو يقـــرأ. "لم تعد من مدرستها". توقف قليلاً، وراح يحتسب عمرها لوحده. "عمرها ستة عشر عاماً. يا إلهي!"

هززتُ رأسي مجدداً: "تبدو صغيرةً جداً. هذه الضحية ليست بفتاة".

عـــبس قليلاً وسحب آخر نموذج. "**إيفيلين فونتان**. أنثى. العمر ستة وثلاثون عاماً. شوهدت لآخر مرة في **جزر سيت** في 28 آذار. آه، حسناً. إنها من **الإينو**".

"أشـــك في أن تكون هي الضحية". قلت هذا لأنني لا أعتقد أنّ البقايا تعود لهندية.

قـــال: "هذا كل شيء". بقي نموذجان فوق الطاولة. بقيت **مريام وايدر**، التي بلغت الخامسة والأربعين من عمرها، **وإيزابيل غاغنون**، التي بلغت الثالثة والعشرين مـــن العمـــر. لعـــل إحداهما هي التي ترقد في الطابق السفلي، وفي الغرفة رقم 4 بالتحديد. نظر **كلوديل** نحوي، وارتفع حاجباه في الوسط ليشكلا حرف V آخر، لكنه مقلوبٌ هذه المرة.

"كـــم ***يبلغ*** عمرها؟" سألني مشدداً على الفعل في سؤاله، ربما بسبب المعاناة التي يلاقيها في صبره.

"دعـــنا ننـــزل إلى الطابق السفلي، ونرى". قلتُ في نفسي إنّ هذا سيُدخل بعض البهجة إلى قلبي.

لا أستطيع أن أفعل أي شيء مع الأسف. أعرف أنّ **كلوديل** معروفٌ بتجنب غـــرفة المشرحة، لذلك أردتُ أن أتسبب بإزعاجه. بدا للحظة وكأنه وقع في الفخ. استمتعتُ بانـــزعاجه. تناولتُ معطف مختبرٍ كان معلقاً وراء الباب، وأسرعتُ عبر القاعـــة، ثم أدخلتُ مفتاحي في باب المصعد. حافظ الرجل على صمته في طريقنا نـــــزولاً. بـــدا لي مـــثل رجل على وشك الخضوع لفحص بروستات. يندر أن

يستخدم **كلوديل** هذا المصعد بالذات، لأنه لا يتوقف إلا في الطابق المخصّص للمشرحة.

استلقت الجثة في مكانها بهدوء. وضعتُ قفّازيَّ ثم انتزعتُ قطعة الورق البيضاء الكبيرة. استطعتُ رؤية **كلوديل** بطرف عيني متسمّراً عند المدخَل. توغل في الغرفة بما يكفي كي يقول إنه دخلها. تنقّل بصره فوق سطح الطاولة المصنوعة من الفولاذ غير القابل للصدأ، والواجهات الزجاجية للخزائن التي تحتوي مخزوناً من الأوعية البلاستيكية الشفافة، والميزان المعلق، وكل شيء في ما عدا الجثة. مررتُ بهذه التجربة من قبل. إذ لا تشكّل الصور تهديداً، لكن منظر الدماء والجروح أمرٌ آخر. إنّ مسرح الجريمة هو نوعٌ من التدريب السريري، ولا يشكّل معضلة. يمكنك أن تشرّح جثة، وتتفحصها، وأن تحلّ اللغز. لكن الأمر يتغيّر إذا وضعتَ الجثة على طاولة التشريح. حاول **كلوديل** أن يضع مسحةً من اللامبالاة على وجهه، وجرّب أن يبدو هادئاً.

انتزعتُ العظام العانية من المياه وفصلتُها بهدوء. استخدمتُ مجساً كي أتفحص أطراف الحزمة الجيلاتينية التي تغطي السطح العاني الأيمن. انفصلت الحزمة أخيراً، ولكن تدريجياً. تميّزت العظمة الموجودة تحتها بتغضّنات عميقة وأخاديد امتدت بشكلٍ أفقي على السطح. شكّلت شظية من العظام القّاسية إطاراً جزئياً حول السطح العاني وشكّلت حافةً رقيقة، وإن كانت غير تامة. كرّرتُ العملية في الجهة اليسرى، فوجدتُها متماثلةً مع الجهة اليمنى.

لم يتحرّك **كلوديل** من مكانه قرب الباب. نقلتُ الحوض إلى مكان وجود مصباح **لوكسو**، وسحبتُ ذراعه الامتدادية نحو الحوض، ثم ضغطتُ على الزر. أضاء ضوء الفلوريسنت العظمة. بدأت تظهر تفاصيل عبر العدسة المكبرة المستديرة لم تظهر سابقاً للعين المجردة. نظرتُ إلى أقصى طرف قوس كل عظمةٍ من عظمَتي الورك فرأيتُ ما كنت أتوقعه.

قلتُ من دون أن أرفع بصري. "**مسيو كلوديل**. انظر إلى هذه".

تقدم حتى أصبح خلفي، تحرّكتُ من مكاني كي يتمكن من النظر جيداً. أشرتُ باتجاه شذوذ في الطرف الأعلى من الورك. لاحظتُ أن النتوء الحرقفي كان على وشك الالتحام عندما حدثت الوفاة.

وضـــعتُ الحوض على الطاولة، لكنه تابع النظر باتجاهه من دون أن يلمسه. عـــدتُ إلى الجثة كي أتفحص عظام الترقوة، وكنتُ متأكدة مما سأجده. سحبتُ الطرف القصّي من المياه، وبدأتُ بانتزاع الأنسجة. أشرتُ إلى **كلوديل** كي ينضم إليّ مـــا إن اســـتطعتُ رؤية سطح المفصل. أشرتُ إلى طرف العظمة من دون أن أتكلم أبداً. لاحظتُ أنّ سطحها كان عريضاً ومتموجاً، مثل السطح العاني. التصق قـــرصٌ صـــغيرٌ من العظام بجهة الوسط، ولاحظتُ أنّ أطراف هذا القرص محددةً وواضحة.

"إذاً؟" رأيتُ حبيبات العرق المتساقطة من جبهته. لقد نجح في إخفاء عصبيته بشجاعة تامة.

"إنها شابة، ولعلها في أوائل العشرينيات من عمرها".

كـــان بوسعي أن أشرح له علاقة العظام بالعمر، لكنني لم أعتقد أنه سيصغي إليّ جـــيداً، لـــذلك اكتفيتُ بالانتظار. علقت بقايا غضروفية على قفازَيّ، لذلك أبعـــدتُ يديّ عن جسمي ورفعتُهما، مثلما يفعل الشحاذون، بينما بقي **كلوديل** مبـــتعداً بالمـــسافة ذاتها التي كان سيحافظ عليها فيما لو كان متواجداً مع شخص مصاب بمرض الإيبولا. بقيت عيناه تنظران باتجاهي، لكن تركيزه تحوّل إلى الأفكار الـــتي تجول في رأسه أثناء تفحصّه لمعطيات النموذجين باحثاً عن مواصفات مطابقة لما يراه.

"**غاغنون**". بدا ذلك تصريحاً، وليس سؤالاً.

أومأتُ. **إيزابيل غاغنون**. العمر ثلاثة وعشرون عاماً.

قال لي: "سأطلب من المحقق البحث عن سجلات أسنانها".

أومأتُ مجدداً. بدا وكأنه يريد معلومات أكثر.

سألني: "ما هو سبب الوفاة؟"

قلتُ له: "لم يتّضح السبب بعد. قد أعرف المزيد عندما أرى صور الأشعة، أو لعلّي سألاحظ أمراً ما عندما أنتهي من تنظيف العظام".

غـــادر ما إن انتهيتُ من كلامي. لم يقل وداعاً. و لم أتوقع منه هذا التصرف، لكـــنني ارتحـــتُ إلى مغادرتـــه مثلما ارتاح هو. نـــزعتُ قفازيّ ورميتهما جانباً. مـــررتُ مـــن أمام جناح التشريح الواسع، وأخبرتُ **دانيال** أنني انتهيتُ من العمل

على هذه القضية لهذا اليوم. وطلبتُ منه أخذ صور بالأشعة السينية للجثة بكاملها بما في ذلك الجمجمة، بالإضافة إلى صور أمامية وخلفية وجانبية. توقفتُ في الطابق العلـــوي أمـــام مختبر الأنسجة، كي أبلِّغ رئيس التقنيين أنّ الجثة أصبحت جاهزة للغلـــي، لكـــنني طلبتُ منه بذل عناية خاصة لأن الجثة مقطّعة. لم يكن طلبي هذا ضرورياً في الواقع، لأن أحداً لا يستطيع تقليص حجم شخصٍ مثل **دينيز**. سيظهر هيكلها العظمي في غضون يومين، نظيفاً وسليماً.

أمـــضيت مـــا تبقّى من فترة ما بعد الظهر مع الجمجمة المغرّاة الموجودة على طاولة مكتبي. بقي ما يكفي من مظاهرها للتعرف على صاحبها رغم تقطيعها. لن يكون صاحب هذه الجثة مضطراً لقيادة صهاريج الغاز بعد الآن.

عـــدتُ إلى منـــزلي، وعاودني الإحساس بأنّ شيئاً ما على وشك الحدوث، وهـــو الإحساس ذاته الذي تملّكني عندما كنتُ في الوادي. استفدتُ من انهماكي بعملـــي خلال النهار كي أُبعد هذا الشعور عني. نجحتُ في إبعاد توجسي هذا عن طريق التركيز التام على هوية الضحية، وعلى جمع جمجمة سائق الشاحنة. استفدتُ خلال وقت الغداء من سرب الحمائم في المتنـــزه كي أُبعد هذه الفكرة عني. فلقد انـــشغلتُ كلياً بالكشف عن نظام التقاط الحبوب الذي تتبعه هذه الحمائم. جاءت الحمـــائم الـــرمادية أولاً، وجاءت الحمائم المرقطة ببقع بنية في ما بعد. تبيّن لي أن الحمائم ذات القوائم السوداء تأتي في آخر القائمة.

أصـــبحتُ جاهزة للاسترخاء الآن. تسنى لي الوقت الكافي كي أفكر، وكي أقلـــق. سيطر عليّ هذا الشعور ما إن دخلتُ إلى المرآب بسيارتي، فأطفأتُ جهاز الراديو. فصمتت الموسيقى كي يبدأ القلق. زجرتُ نفسي. لا ليس الآن، بل في ما بعد. دعينا نؤجل ذلك إلى فترة ما بعد الغداء.

دخلـــتُ الشقة. سمعتُ صوت نظام الأمان الذي يبعث الطمأنينة في نفسي. تـــركتُ حقيبتي في الردهة. أغلقتُ الباب ورائي، واتجهتُ إلى المطعم اللبناني الذي يقع عند زاوية الشارع. طلبتُ تجهيز صحن **شيش طاووق**، وصحن **شاورما**، كي آخذهما معي إلى المنـــزل. هذا ما يعجبني في السكن وسط المدينة؛ أستطيع الحصول علـــى كل أنواع الأطباق العالمية التي تقدّم في مطاعم تقع بالقرب من شقتي. فهل يعود سبب زيادة وزني إلى...؟ لا.

تأملـــتُ لائحة المأكولات التي تُقدَّم في المطعم: **حمّص**، **تبولة**، ورق عريش... يا لهذه القرية العالمية (العالم)! تبنّى اللبنانيون الذوق الفرنسي في النهاية.

رأيـــتُ رفاً صُفّت عليه زجاجات من الشراب الأحمر إلى يسار صندوق النقد في المطعـــم. كـــنت أمتلك سلاح الاختيار. نظرت إلى هذه الزجاجات، وشعرت بالـــرغبة في تناول هذا النوع من الشراب للمرة الألف. تذكرتُ طعمه ورائحته، وصـــفاءه، ومدى الانتعاش الذي يبعثه في نفسي. تذكرت الشعور بالدفء الذي ســـيبدأ بالسريان في معدتي وينتشر صعوداً وفي الاتجاهات كافة متخذاً مساراً لولبياً في أنحـــاء جـــسمي، ومُـــثيراً فيّ الشعور بالسعادة في طريقه. إنها مشاعل التحكّم، والحماســـة، والمنعة. أحسستُ أنني بحاجة إلى هذا الشعور الآن. أجلْ. هل أخدع نفـــسي؟ أعلم أنني لن أتوقف عند هذا الحدّ؟ ماذا يسمّون تلك المراحل؟ سأمضي قـــدماً كي أصل إلى أقصى درجات المنعة إلى أن أصبح غير مرئية. سأمضي بعيداً جداً قبل أن أتحطم. سيكون الشعور بالراحة قصير الأجل، لكن الثمن سيكون غالياً جداً. مضت ستة أعوام على آخر مرة تناولتُ الشراب فيها.

أخـــذتُ طعامـــي إلى منـــزلي وتناولته برفقة هرّي ***بيردي***، وشاهدتُ على شاشـــة الـــتلفاز ***مونتريال إكسبو***. نام ***بيردي*** في حضني ملتفاً حول نفسه، وأخذ يخرخـــر بـــنعومة. خسر ***مونتريال إكسبو*** جولتين أمام ***الكبس***. لم يأتِ أحد على ذكر الجريمة. ارتحت كثيراً لهذا.

اســـتمتعتُ بحمامٍ ساخنٍ لفترة طويلة، وتوجّهتُ إلى سريري عند العاشرة والنـــصف مـــساءً. لم أســـتطع مقاومة تلك الفكرة بعد أن أصبحتُ وحدي، والظلمـــة تلفني وسط الهدوء المخيّم. نَمَتْ تلك الفكرة واكتسبت قوة، مثلما تفعـــل الخلايـــا الـــتي يصيبها الجنون، واستطاعت أخيراً أن تتغلغل إلى وعيي، وأصرّت على إثبات نفسها. إنها الجريمة الأخرى. الشابة التي وصلت قطعةً قطعة إلى المـــشرحة. رأيـــتُ تفاصـــيلها كافة، وتذكرتُ المشاعر التي تملّكتني عندما انـــشغلتُ بالعمـــل على عظامها. أتحدثُ عن **شانتال تروتييه** ابنة الستة عشر ربـــيعاً. خُنقت **شانتال** وتعرضت للضرب، وقُطع رأسها، كما قُطعت أطرافها الباقـــية. وصـــلت مـــنذ أقل من نصف عام عارية، ومغلّفة بأكياس النفايات المصنوعة من النايلون.

جهّـــزتُ نفـــسي كي أختم يومي، لكن عقلي رفض إنهاء مهماته لهذا اليوم. اســـتلقيتُ علـــى ســـريري ورأيـــتُ تكوّن جبال وسط تحرك الصفائح القارية. استـــسلمتُ للنوم في النهاية، لكن العبارة ترددت في أنحاء جمجمتي. ولاحقتني هذه العبارة طيلة عطلة نهاية الأسبوع. الجرائم التسلسلية.

3

أخـــذت **غـــابي** تنادي رقم رحلتي. اصطحبتُ معي حقيبة سفرٍ كبيرة، ولهذا وجـــدتُ صـــعوبة في شق طريقي وسط المسافرين. انـــزعج المسافرون الآخرون، لكن لم يتقدم أحد لمساعدتي. استطعتُ أن أرى **كاتي** جالسة في الصف الأمامي من مقاعـــد الدرجة الأولى. وكانت قد ارتدت الثوب الحريريّ الأخضر الفاتح الذي اختـــرناه لها عند تخرجها من المدرسة الثانوية. أخبرتني لاحقاً أنها لا تحبه، وأسفت لأننا اخترناه لها. أخبرتني أنها تفضّل عليه الثوب الذي يحمل رسومات لأزهار. إذاً لمـــاذا ارتدته؟ ولماذا تتواجد **غابي** في المطار في الوقت الذي يُفترض فيه أن تكون في جامعتها؟ أخذ صوتها يعلو شيئاً فشيئاً عبر المذياع، وأصبح أكثر خشونة وشدة.

جلستُ. كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة وعشرين دقيقة. وصلنا الآن إلى صباح يوم الإثنين. ملأ الضوء حواف ستارة النافذة، لكن لم يتسرب إلى الغرفة إلا القليل منه.

اســـتمر صوت **غابي** بالمناداة. "... لكنني أعرف أنني لن أستطيع الاتصال بك في مـــا بعـــد. أظـــن أنك تنهضين أبكر مما كنت أعتقد. على أي حال، إنني على وشك..."

تـــناولتُ سماعة الهاتف. "مرحباً". حاولتُ أن أبدو أشد وعياً مما أنا عليه في الواقع. لكن الصوت توقف قبل إتمام الجملة.

"**تمب**؟ هل أنتِ معي؟"

أومأتُ موافقة.

"هل أيقظتك؟"

"نعم". لم أتمكن بعد من التفكير في جواب أفضل.

"آسفة. هل تريدين أن أتصل بك لاحقاً؟"

"لا. لا. استيقظت". منعتُ نفسي من أن أقول لها إنني مضطرة للنهوض والرد على الهاتف على أي حال.

"لكنّ الوقت ما زال مبكراً على النهوض يا عزيزتي. اسمعيني، بشأن هذه الليلة. هل نستطيع أن نجعل..." سمعتُ شيئاً يشبه الصراخ منعها من إكمال جملتها.

"إبقَي معي. لا بد أنني تركتُ الآلة المجيبة في حالة الإجابة الآلية". وضعتُ سماعة الهاتف مكانها ثم توجهتُ إلى غرفة المعيشة. رأيتُ الضوء الأحمر يومض. تناولتُ السماعة النقالة وقفلتُ عائدةً إلى غرفة النوم، ثم أعدتُ تلك السماعة إلى مكانها.

"حسناً". أصبحتُ مستيقظة بالكامل في هذه الأثناء، وشعرتُ برغبة في ارتشاف كوبٍ من القهوة. لذا توجّهتُ إلى المطبخ على الفور.

"أتصل بكِ كي أتحدث معك بشأن هذه الليلة". تميّز صوتها بشيءٍ من الحدة. لا أستطيع أن ألومها لأنها أمضت خمس دقائق حتى الآن في محاولة إنهاء جملةٍ واحدة.

"أنا آسفة يا **غابي**. أمضيتُ عطلة نهاية الأسبوع بكاملها في قراءة أطروحة أحد الطلاب. تأخرتُ كثيراً قبل أن أستسلم للنوم، لكن نومي كان عميقاً. حتى أنني لم أسمع رنين الهاتف". إنه لأمرٌ مستغرب حتى بالنسبة إليّ. "ما الأمر؟"

"بشأن الليلة. آه، هل يمكننا تأجيل موعدنا حتى الساعة السابعة والنصف بدلاً من السابعة؟ جعلني هذا المشروع أكثر عصبية من صرصار في قفص سحلية".

"بالتأكيد. لا مشكلة لدي. لعل الأمر يناسبني أنا أيضاً". أبقيتُ سماعة الهاتف على كتفي وتوجّهتُ إلى خزانة المطبخ. بحثتُ عن الإناء الذي يحتوي حبوب البن، وتناولتُ مقدار ثلاث ملاعق ووضعته في المطحنة.

سألتني: "أتريدين أن أمر بك لأقلّك؟"

"لا فرق عندي. أستطيع أن أقلك إذا أردت. إلى أين تريدين أن نذهب؟" فكّرتُ في تشغيل المطحنة، ثم قررتُ أن لا أمضي في تنفيذ الفكرة. فلقد بدت **غابي** عصبية قليلاً.

مـــرّت فترة صمت. تصوّرتُها وهي تلهو بخاتم أنفها أثناء تفكيرها بالأمر، أو لربما وضعت حلقةً هذه المرة. انـــزعجتُ لهذا في البداية، لأنني وجدتُ صعوبة في التركيـــز أثناء محادثاتي مع **غابي**. كنتُ أركّز حينها على الخاتم، وأتساءل عن مدى الألم الـــذي يـــشعر به المرء عندما يثقب أنفه. ولكنّني توقفتُ في المدة الأخيرة عن التفكير في هذا الأمر.

قالـــت لي: "ستكون هذه الليلة رائعة. ما رأيك في تناول الطعام في مكان ما في الخارج؟ في **برنس آرثر**، أو **سان دينيز**؟"

قلـــتُ: "عظيم! إذاً لست مضطرةً للقدوم إلى هنا. سأمر عليكِ عند الساعة السابعة والنصف تقريباً. أريدكِ أن تفكري في مكان جديد. أشعر بضرورة الذهاب إلى مكانٍ رائعٍ".

إنه الروتين المعتاد، رغم أنّ الأمر محفوف بالمخاطر مع **غابي**. إنها تعرف المدينة أفضل مني بكثير، ولهذا فأنا أترك لها مسألة اختيار المطعم عادةً.

"حسناً. لكن سنبقى حتى وقت متأخر ".

أجبـــتُها: "***سنبقى حتى وقت متأخر***". دُهشت، وشعرت بالارتياح قليلاً. لو تُـــرك الأمر لها لكانت ستبقى مشغولة بالهاتف إلى الأبد، ولطالما اختلقتُ الأعذار كي أهرب من متابعة المكالمة.

لطالما كان الهاتف شريان الحياة بالنسبة إلى **غابي** ولي. إنني أتحدث معها على الهاتـــف أكثـــر مما أتحدث مع أي شخص آخر. سرنا على هذا المنوال منذ بداية صداقتنا. اعتبرتُ حينها أنّ مكالماتي الهاتفية معها مصدر ارتياحٍ كبير لي ينقذني من حالـــة الكآبـــة التي كانت تسيطر عليّ في تلك الأعوام. اعتدتُ أن أتحادث هاتفياً معهـــا عندما كانت ابنتي **كاتي** تتناول طعامها في سريرها، بعد أن تكون قد انتهت مـــن حمامها اليومي. كنا نتبادل الأحاديث لساعات عن كتب اكتشفناها حديثاً، ونتـــبادل الأحاديث عن صفوفنا، وعن أساتذتنا، وعن رفاقنا الطلاب، وحتى عن أمـــورٍ غير محددة. اعتبرنا أنّ هذه المكالمات هي مصدر لهونا الوحيد في تلك الفترة من حياتنا التي لم تكن تسمح باللهو.

اخـــتلف هذا النمط قليلاً عبر العقود القليلة الماضية، رغم أنّ مكالماتنا أخذت بالتباعد. تشاركنا أوقات سرورنا، وأوقات هبوط معنوياتنا، سواء كنا مجتمعتَين أو

منفصلتين. وجدتُ **غابي** إلى جانبي عندما اشتركتُ في برنامج التخلص من الإدمان علـى الشراب، أي عندما كانت تسيطر عليّ رغبتي في تناول الشراب في ساعات صحوي. وجدتها بقربي حينما كنت أرتعش ويتصبب العرق مني في الليل. ولم تجد **غـابي** بـدورها شخصاً غيري تحادثه هاتفياً، وقد امتلأت بهجةً وأملاً عندما كان الحب يدخل إلى حياتها، أو وهي وحيدة ويائسة، عندما فرغ قلبها من الحب.

نقلـتُ القهوة فور جهوزها إلى الطاولة ذات السطح الزجاجي الموجودة في غـرفة الطعام. ترددت في ذهني ذكرياتي مع **غابي**. اعتدتُ أن ابتسم عندما كنت أفكّـر فـيها. تذكرتُ **غابي** عندما كانت في فصل تخرجها. تذكرتُها أيضاً عندما كانـت تعمـل في موقع التنقيب، وعندما كانت تنهمك في الحفر، وقد وضعت منديلاً أحمر اللون بشكلٍ مائل حول خصرها، بينما كانت خصلات شعرها المصبوغة بلـون الحنة تتمايل أثناء انشغالها بإزالة التراب مستخدمةً ماجها. أدركتْ أنها لن تُعتبر جمـيلة أبداً بالمعايير التقليدية، بسبب طولها الذي يبلغ حوالى المتر وثمانين سنتمتراً. لم تحـاول أن تـنحّف نفسها، أو أن تكتسب سمرة. ولم تعتدْ على إزالة الشعر عن سـاقيها، أو من تحت إبطيها. بقيت **غابي** كما هي، أي **غابي**. **غابرييل ماكولاي** القادمة من **تروى ريفييه، كيبيك**، والتي وُلدت من أمٍّ فرنسية وأب إنكليزي.

تـصادقتُ وإياهـا أيـام دراستنا الثانوية. كرهتْ صديقتي مادة الأنتروبولوجيا الفيـزيائية، وعانـت مـن المواد التي أحببتها. وتملّكني الشعور ذاته تجاه فصول علم الأجـناس التي أحبتها. توجّهتُ إلى **كارولاينا الشمالية**، بينما عادت هي إلى **كيبيك**، وذلـك بعـد مغادرتنا **جامعة نورث ويسترن**. لم نلتقِ كثيراً منذ ذلك الوقت، لكن الهاتـف بقي صلة الوصل بيننا. ساهمت **غابي** كثيراً في حصولي على وظيفة أستاذ زائر في **مـاك جـيل** في العـام 1990. بدأتُ في ذلك العام العمل في المختبر بدوامٍ جزئي، واسـتمريتُ بهـذا بعـد عودتي إلى **كارولاينا الشمالية**. بقيتُ أتوجّه شمالاً كل ستة أسابيع، وحسب ما تمليه مقتضيات العمل. أخذتُ لنفسي إجازةً من **جامعة كارولاينا الـشمالية** في **شارلوت** هذا العام، وذلك كي أتفرغ لعملي في **مونتريال** بشكلٍ دائم. اشتقتُ كثيراً إلى رفقة **غابي**، لذلك استمتعتُ بتجدد صداقتنا.

لفـت نظـري الضوء الذي يومض في الآلة المجيبة. إذ يدل هذا على وصول مكالمـة قـبل محادثتي مع **غابي**. سبق لي أن برمجتُ تلك الآلة كي تجيب بعد أربع

دقـــات إلا إذا بدأ الشريط بالعمل، وعندها سترد الآلة بعد الرنة الأولى. تساءلتُ عـــن ســـبب استغراقي في النوم رغم هذه الدقات الأربع، وبعد رسالة بأكملها. تقـــدمتُ مـــن الآلة وضغطتُ على الزر. عاد الشريط إلى بدايته، ثم بدأ بالدوران، وبـــدأ بـــبث الرسالة. مرّت فترة صمت قبل أن أسمع قرقعة. تبع ذلك صوت حاد استمر فترة قصيرة، ثم انساب صوت **غابي**. إذاً لم يتعدَ الأمر مشكلة تقنية. حسناً. ضـــغطتُ على زر الإعادة ثم انصرفتُ كي ارتدي ملابسي استعداداً للذهاب إلى العمل.

يقـــع مختبر الطب الشرعي في المبنى الذي يُعرف بمبنى QPP، أو SQ، وذلك بحـــسب توجّهك اللغوي. يُطلق الناطقون بالإنكليزية اسم **شرطة مقاطعة كيبيك** علـــى هذا المبنى، بينما يعرفه الناطقون بالفرنسية باسم **أمن كيبيك**. تشبه **مختبرات الطب الشرعي في مونتريال مكاتب الطب الشرعي** في الولايات المتحدة. تتقاسم هـــذه المختـــبرات الطابق الخامس من المبنى مع **مختبر العلوم القضائية**، وهو المختبر الجنائـــي المركـــزي للمقاطعـــة. تؤلف **مختبرات الطب الشرعي، ومختبر العلوم القضائية**، وحدةً تسمى **إدارة المعاينة القضائية**. يحتوي المبنى على سجن في الطابق الـــرابع، والطوابـــق الثلاثة العليا منه. أما جناحَي المشرحة والتشريح فيتواجدان في الطابق السفلي. وتحتل شرطة المقاطعة الطوابق الثمانية المتبقية.

يتمـــتع هذا الترتيب بميزات متعددة بالنسبة إليّ. فعندما أحتاج إلى رأي بشأن ألـــياف معيـــنة، أو إلى تقريـــر بشأن عينة من عيّنات التربة، لا أضطر سوى إلى النـــــزول عـــبر الرواق كي أصل إلى مرجع المعلومات التي أحتاجها. يمتلك هذا التـــرتيب سيئاته أيضاً من جهة سهولة الوصول إلينا. إذ لا يحتاج مفتش من شرطة **كيبـــيك**، أو رجـــل تحـــرٍ يعمل لدى سلطات المدينة، عندما يريد إيصال دليل أو تقرير، إلا أن يستقل المصعد كي يصل إلينا.

ويـــشهد هذا الصباح على ما أقوله. فعند وصولي، وجدتُ **كلوديل** ينتظرني أمـــام باب مكتبي. حمل الرجل مظروفاً بنياً صغيراً في راحة يده. إذا قلتُ إنه بدا لي متوتراً، فكأنني قلتُ إن غاندي بدا جائعاً.

"حـــصلتُ علـــى سجلات الأسنان". بدا لي أنه يتباهى بهذا المظروف، كما يفعل من يقدم جوائز **آكاديمي**.

"أحضرتها بنفسي".

قــرأ الاســم المدوّن على المظروف. "**الدكتور نغوين**. تقع عيادته هناك في **روزمون**. كنتُ سأصل قبل الآن، لكن الرجل يوظف سكرتيرة بلهاء بالفعل".

ســألتُه: "أتفــضّل القهوة؟" لم ألتقِ سكرتيرة **الدكتور نغوين** من قبل لكنني شعرت بالتعاطف معها. أدركتُ أنّ صباحها كان سيئاً.

فــتح الرجل فمه ليعطيني جواباً بالقبول أو بالرفض. ولكنّني لم أفهم جوابه، لأن **مــارك بيرغيرون** ظهر في تلك اللحظة. يبدو أنّ الرجل لم ينتبه لوجودنا، فمرّ مــن أمــام صف من أبواب المكاتب السوداء اللامعة، ثم توقف أمام باب المكتب المجــاور لمكتبي. انحنى الرجل ثم وضع حقيبته على ركبته وفخذه. فكّرتُ في منظر مــناورة الــرافعة في فيلم ***فتى الكاراتيه***. فتح الرجل حقيبته وهو في هذا الوضع، وبحث في محتوياتها، ثم تناول مجموعةً من المفاتيح.

"مارك؟"

أجفــل الرجل، وما لبث أن أغلق حقيبته بقوة، وأنــزلها إلى الأرض بحركةٍ واحدة.

كتمتُ ابتسامتي وقلتُ: "صدفة سعيدة".

"شــكراً". نظــر الرجل نحو **كلوديل** ونحوي، ثم حمل الحقيبة بيده اليسرى، وحمل المفاتيح بيده اليمنى.

يبدو منظر **مارك بيرغيرون** غريباً بكل المقاييس، فهو في أواخر الخمسينيات، أو أوائــل الستينيات من عمره. أما جسده الطويل والنحيل فمقوّسٌ قليلاً، ومنحنٍ إلى الأمام عند الصدر. يبدو الرجل في هذه الوضعية وكأنه يستعد لتلقي ضربة على معدتــه. ظهرت هالة من شعره الأبيض المجعد من أواسط فروة رأسه، وهذا ما زاد طــوله إلى ما يفوق المتر وتسعين سنتمتراً. بدا إطار نظارته على الدوام مبقّعاً بطبقة مــن الــشحوم والغبار. ويظهر الرجل وكأنه يركّز بصره على الدوام على قسيمةً حــسمٍ ذات أحــرف متناهــية في الصغر. بدا أشبه بشخصية من شخصيات **تيم بيرتون** مما هو طبيب الأسنان الشرعي.

قلتُ، وأنا أشير إلى رجل التحري: "يمتلك **المسيو كلوديل** سجلات الأسنان العائدة إلى **غاغنون"**. رفع **كلوديل** المظروف وكأنه يؤكد على كلامي.

لم ألاحـــظ أي رفّة جفن وراء عدستَي النظارة الوسختين. تأملني **بيرغيرون** بـــشرود. بـــدا الرجل مثل نبتة هندباء بجذعه الطويل والنحيل، وبشعره الأبيض. أدركتُ أنه لا يعلم شيئاً عن القضية التي نعمل عليها.

يعمل **بيرغيرون** من ضمن مجموعة من الأخصائيين الذين يعملون بدوامٍ جزئي لـــدى **مختبرات الطب الشرعي**. يقدمً كل واحد من هؤلاء الأخصائيين الشرعيين مشورته في كل ناحية من نواحي الاختصاصات المٌختلفة: طب الأعصاب، التصوير الشعاعي، علم الأحياء الدقيقة، وعلم طب الأسنان. اعتاد الرجل أن يحضر مرةً في الأسبوع إلى المختبر، وأن يستقبل مرضاه في عيادته الخاصة بقية أيام الأسبوع، لكنه تغيّب عن العمل في الأسبوع الماضي.

لخـــصّتُ له القضية. "وجد عاملون في الأسبوع الماضي بعض العظام في أرضٍ تخـــص **لا غراند سيمينابر**. اعتقد **بيار لامانش** أنّ القضية لا تعدو عن كونها مقبرةً تاريخية قديمة، فأرسلني إلى الموقع. و لم تكن القضية كذلك".

وضع الرجل الحقيبة على الأرض، وتابع الإصغاء بانتباه.

"وجدتُ أجزاء مقطعة من جثة وُضعت في كيسٍ تمهيداً للتخلص منها. أعتقد أنّ كـــل هـــذا جرى في غضون الأشهر القليلة الماضية. تعود الجثة لأنثى بيضاء، ولعلها في أوائل العشرينيات من عمرها".

تـــصاعدت وتيرة نقرات **كلوديل** على المظروف. توقفت مؤقتاً عندما تعمدّ الرجل النظر إلى ساعة يده، ثم تنحنح.

نظر **بيرغيرون** إليه، ثم عاد ببصره نحوي. تابعتُ كلامي.

"اســـتطعتُ أنـــا **والمسيو كلوديل** تضييق مجال الاحتمالات، وحصرناها في احـــتمالٍ يـــبدو مـــؤكداً. تتناسب كل المعطيات، وكذلك التوقيت. حصل على السجلاتً بنفسه من **الدكتور نغوين** الذي يعمل في **روزمون**. هل تعرفه؟"

هـــزّ **بيرغيرون** رأسه بالنفي، ومد يده الطويلة والنحيلة. قال: "حسناً. أعطِني إياها. هل انتهى **دينيز** من أخذ الصور الشعاعية؟"

قلت له: "قام **دانيال** بأخذ الصور. لا بد أنّ الصور موجودة على طاولة مكتبك".

فـــتح باب مكتبه، وما لبث **كلوديل** أن تبعه. رأيتُ من خلال الباب المفتوح مظـــروفاً بنـــياً صغيراً فوق طاولة المكتب. تناول **بيرغيرون** المظروف وتأمل رقم

القضية. استطعتُ أن أرى **كلوديل** وهو يتفحص الغرفة، وكأنه ملكٌ يختار المكان الذي يريد الجلوس فيه.

قـــال **بيرغـــيرون**: "تـــستطيع أن تعـــود في غضون ساعة من الزمن، **مسيو كلوديل**".

بُهِتَ **كلوديل**. همّ بالكلام، لكنه زمّ شفتيه فرسمتا خطاً رفيعاً، ثم أعاد تعديل كمّـــيه قبل أن يغادر الغرفة. أجبرتُ نفسي على عدم الابتسام للمرة الثانية. كنتُ أعلـــم أنّ **بيرغـــيرون** لـــن يطيق محققاً يتطلع من فوق كتفيه أثناء عمله. يبدو أنّ **كلوديل** قد أدرك هذه الحقيقة لتوّه.

ظهـــر وجـــه **بيرغـــيرون** مجدداً من خلال الباب المفتوح. سألني: "أتريدين الدخول؟"

قلتُ: "بالتأكيد. هل نتناول القهوة؟" لم أتناول قهوتي الصباحية منذ وصولي إلى مكـــان العمل. اعتدتُ وإياه على إحضار القهوة إلى بعضنا بعضاً. كنا نتناوب على إحضارها من المطبخ الصغير الموجود في الجناح المقابل.

تناول كوبه الكبير، وأعطاني إياه: "عظيم. سأنتظرك هنا".

أحـــضرتُ كوبي وسِرتُ عبر الرواق. شعرتُ بالسرور لدعوته لي. إذ اعتدنا على العمل على القضايا ذاتها. عملنا على الجثث المتحلّلة، والمحترقة، والمحفوظة، أو العظمـــية. عملنا على هذه الحالات التي لا يُمكن التعرف على أصحابها بالطرائق الاعتيادية. سار عملنا معاً بطريقة جيدة. يبدو أنّ الرجل يوافقني على هذا الرأي.

رأيـــتُ عند عودتي مربعين أسودين صغيرين معروضين على اللوحة الضوئية. عرضـــتْ كـــل صورة جانباً من الفك، وبدت مجموعتان من الأسنان براقتين إزاء الخلفـــية الشديدة السواد. تذكرتُ هذه الأسنان عندما رأيتها لأول مرة في الغابة، ولاحظـــتُ أنّ سلامة هذه الأسنان تتناقض بشدة مع المكان المريع الذي تواجدت فيه. تبدو مختلفةً الآن. إنها نظيفة، وتصطفّ بترتيب تام في صفوف منتظمة جاهزة للـــتفحص. أضـــيئت كل الأشكال المعتادة للتيجان، والجذور، وحجيرات اللب، بشدة متفاوتة من اللونين الرمادي والأبيض.

بـــدأ **بيرغـــيرون** بترتيب صور الأشعة لما قبل الوفاة ووضعها إلى اليمين، أما صـــور ما بعد الوفاة فوضعها إلى جهة اليسار. عيّن بأصابعه الطويلة والنحيلة ورماً

صـــغيراً في كل صورة من صور الأشعة، ثم أخذ يرتب هذه الصور واحدة واحدة واضـــعاً الجهـــة الـــتي تحتوي الإشارة إلى الأعلى. وبعدما انتهى من هذه العملية، اصطفت كل صورة من صور ما قبل الوفاة قبالة مثيلتها من صور ما بعد الوفاة.

قـــارن المجموعـــتين بحثاً عن فروقات. بدا كل شيء متطابقاً. لم تظهر في أي مجمـــوعة أي أســـنان ناقصةَ. ظهرت كل الجذور تامة حتى نهاياتها. وتطابقت كل الخطـــوط والمنحنـــيات الموجودة على جهة اليسار، ومثيلاتها الموجودة على جهة الـــيمين. بـــرزت بوضـــوح كتلٌ مستديرة ناصعة البياض تمثّل الحشوات الصناعية للأســـنان. بـــرزت مجموعة الأشكال ذاتها التي ظهرت في صور ما قبل الوفاة بكل تفاصيلها على الصور التي التقطها **دانيال**.

تفحّـــص **بيرغيرون** صور الأشعة السينية لوقت بدا لي طويلاً جداً، ثم اختار مـــربعاً من المجموعة التي على يمينه، ووضعها على صورة أشعة ما بعد الوفاة المماثلة لهـــا، وتركها كي أتفحصها لاحقاً. تطابقت الأنماط غير المنتظمة للأضراس تماماً. استدار ليواجهني.

قـــال لي: "أنا متاكد". أسند ظهره واضعاً مرفقه على الطاولة. "أقولها بشكلٍ غـــير رسمي بالطبع، وهذا حتى أنتهي من السجلات المكتوبة". مدّ يده كي يتناول قهـــوته. ســـينهمك الرجل في مقارنات مضنية للسجلات المكتوبة، بالإضافة إلى إجـــرائه مقارنـــات أخرى مع صور أشعة سينية أكثر تفصيلاً، لكن لم تتملكه أي شكوك عن هوية الضحية. إنها **إيزابيل غاغنون**.

شعرتُ بارتياحٍ كبير لأنني لن أكون الشخص الذي سيواجه والدَي الضحية، أو زوجهـــا، أو حبيبها، أو ابنها. تواجدتُ في اجتماعات مثل هذه من قبل، وأعرف تلك النظرات جيداً. أعرف نظرات العيون المتوسّلة. سيقولون أخبرينا أنك مخطئة، وأنّ كل ذلـــك ليس إلا حلماً مزعجاً. دعيه ينتهي. قولي لنا إنّ الأمر ليس كما نظن. تأتي بعد ذلك ساعة الحقيقة. يتغيّر العالم إلى غير رجعة في جزءٍ من الألف من الثانية.

قلتُ له: "أشكرك لأنك نظرت في هذه القضيّة على الفور يا **مارك**. وأشكرك على هذا الفحص التمهيدي".

"أتمـــنى لـــو أنّ كل القضايا هي بمثل هذه السهولة". ارتشف قهوته، وابتسم قليلاً، ثم هزّ رأسه.

"هـــل تريدني أن أواجه **كلوديل** بنفسي؟" حاولتُ أن أبعد المرارة عن صوتي، لكن يبدو أنني لم أنجح في محاولتي هذه. ابتسم ابتسامة من يعرف ما أقصده.

"لا أشك في أنك تستطيعين ترويض **المسيو كلوديل**".

قلتُ: "أنت محق. هذا بالضبط ما يحتاجه: مروّض".

استطعتُ أن أسمع ضحكته حتى بعد أن عدتُ إلى مكتبي.

اعـــتادت جدتي أن تقول لي إنه يوجد قدرٌ من الطيبة في كل شخص. قالت لي: "كل ما عليك فعله هو أن تبحثي عنها..." اعتادت أن تقولها بنبرةٍ ناعمة مثل الحرير... وستجدينها. "يمتلك كل شخصٍ فضيلةً ما". لا شك، يا جدتي، في أنك لم تقابلي **كلوديل** أبداً.

يتميّز **كلوديل** بفضيلة دقة المواعيد. عاد في غضون خمسين دقيقة.

توقـــف في مكـــتب **بيرغيرون**. استطعتُ سماع صوتيهما عبر الجدار. سمعتُ اسمي يتكرر بينهما مرات عديدة، إلى أن أحاله **بيرغيرون** إليّ. دلّ صوت **كلوديل** على الانـــزعاج. أراد رأياً أصيلاً، لكنه اضطر إلى التنازل، وسماع رأيي مجدداً. بعد ثوانٍ قليلة، ظهر في مكتبي، متجهم الوجه.

لم يبادر أحد منا بإلقاء التحية، بل اكتفى بالانتظار قرب الباب.

قلتُ له: "أنا متأكدة. إنها **غاغنون**".

عبسَ قليلاً، لكنني تمكنت من ملاحظة الابتهاج يتجمّع في عينيه. حاز على هوية ضـــحية. يـــستطيع الآن أن يباشر التحقيق. تساءلتُ إن كان قد شعر بشيء تجاه هذه المـــرأة الميتة، أم أنه يعتبر الأمر مجرد تمرينٍ له. يتعيّن عليه الآن إيجاد الرجل الشرير، وأن يتفوّق على المجرم بذكائه. سبق لي أن سمعتُ دعابات، وتعليقات، ونكات فوق جثث الـــضحايا المـــشوّهة. يعتـــبر بعضهم هذه الدعابات طريقة من أجل مواجهة قذارات العنف، وسداً حامياً ضد المجازر اليومية المستمرة التي يتعرض لها البشر.

هـــل يمكنـــنا أن نـــسمي هذا مرح المشرحة، أو ربما نعتبره تغليف الرعب بالشجاعة الذكورية؟ أعتقدُ أنّ الآخرين ينظرون إلى الأمر بصورةٍ أعمق. شككتُ أن **كلوديل** ينتمي إلى هذه الفئة الأخيرة.

راقبـــتُه لـــثوان عديـــدة. سمعتُ صوت رنين هاتف في مكان ما من القاعة. صـــحيحٌ أنـــني أكره الرجل، لكنني أجبرتُ نفسي على الاعتراف أنّ رأيه بي مهمٌ

جـــداً. أردتُ الحـــصول على استحسانه. أردتُه أن يشعر بالود تجاهي. أردتُ أن يتقبّلني الجميع، وأن يقبلوني في ناديهم.

لمعـــت صورة **الدكتورة لينتز** في ذهني. إنها عالمة النفس التي سمعت محاضراتها منذ وقتٍ طويل.

اعـــتادت أن تخاطبني بالقول: "**تمب**، أنتِ ابنة والد مدمنٍ على الشراب. إنك تبحثين عن الاهتمام الذي حرمكِ منه، وتريدين الحصولَ على الاستحسان الأبويّ، وهكذا تحاولين إرضاء الجميع".

أوضـــحتْ هذا الأمر لي، لكنها لم تستطِع تصحيح الخلل. يتعيّن عليّ القيام بهـــذا التـــصحيح بنفسي. أعتقد أنني أفرطتُ في التعويض في بعض الأحيان، ولهذا اعتـــبرني كثيرون مضجرة. لم تكن هذه هي حالي مع **كلوديل**. أدركتُ أنني كنت أتجنب المواجهة معه.

أخذتُ نَفَساً عميقاً وبدأتُ باختيار كلماتي بعناية.

"هـــل فكّـــرتَ يا **مسيو كلوديل** في احتمال أن تكون هذه الجريمة مرتبطة بالجرائم الأخرى التي حصلت خلال العامين الماضيين؟"

جمـــدت ملامحه، وزمّ شفتيه بشدة حتى كادتا تختفيان. بدأت دائرةٌ من اللون الأحمر تنتشر من عنقه صعوداً، وببطء شديد، حتى وصلت إلى وجهه، لكنّ صوته بقي بارداً كالثلج.

جمد في مكانه تماماً: "أي جرائم تقصدين؟"

"أتحـــدث عن **شانتال تروتييه**، التي قُتلت في تشرين الأول من العام 1993. قطّعـــت الجـــثة، وفُـــصل رأسها عنها، وأُفرغت أحشاؤها". نظرتُ إليه مباشرة، "ووُجد ما بقي منها ملفوفاً في أكياس نفايات مصنوعة من النايلون".

رفـــع كلـــتا يديه حتى مستوى فمه، وشبكهما ببعضهما. تداخلت أصابعه، وأخـــذ ينقـــر بهمـــا علـــى شفتيه. سمعتُ الأصوات الخافتة التي أحدثتها الحلقتان الذهبيّتان في كمّي قميصه المفصل تفصيلاً مناسباً على قياسه. نظر نحوي مباشرةً.

قـــال مـــشدداً علـــى اللقب الإنكليزي من اسمي: "**ميز برينان**. أقترح عليكِ أن تحصري اهتمامك في مجال اختصاصك فقط. أعتقد أنه من مسؤوليتنا **نحن** أن نكتشف أي رابط محتملٍ بين هذه الجرائم. وحتى الآن، لا وجود، لأي رابطٍ يجمع بينها".

تجاهلـــتُ التوبـــيخ: "ألا تلاحظ أنّ الضحيتين من النساء، وقُتلتا خلال العام الماضي، وظهرت على جثتيهما علامات التشويه ومحاولات..."

انهار أخيراً سد الحفاظ على رباطة الجأش الذي أحكم تشييده، فانفجر غضبه تجاهي كالسيل الجارف.

أطلق في وجهي سيلاً من الشتائم صائحاً: " هل أنتن..."

زمّ شفتيه كي يتلفظ بالشتيمة، لكنه تمكّن من ضبط نفسه في الوقت المناسب. استعاد رباطة جأشه، لكن بجهد كبير.

"لماذا تفرطين في رد فعلكٍ على الدوام؟"

"فكّـــر في هـــذه". بصقتُ في وجهه. وجدتُ نفسي أرتجف غيظاً، قبل أن أتوجّه إلى الباب كي أقفله.

4

إنّ مجرد الجلوس في غرفة البخار والتعرّق يبعث في المرء شعوراً طيباً. تعمّدتُ أن أكــون في هذه الحالة. سِرتُ ثلاثة أميال فوق **ستاير ماستر**، وأنهيتُ جولة في **نواتيلاس**، ثم بدأت أسترخي. لم يكن النادي على مستوى توقعاتي، وكذلك كان مــا تبقّــى من يومي. نجحت التمارين في تبديد بعض الغضب الذي سيطر عليّ، لكّــنني بقيت مضطربة. أعرف أنّ **كلوديل** ليس إلا ذلك الرجل التافه. كان هذا الوصــف أحــد الأوصاف التي كنت أقذفها في وجهه مع كل جولة من جولات **ســتاير ماستر**. اشتملت القائمة على: تافه، غبي، وبليد. أعتقد أنّ الأوصاف ذات المقطعــين هــي الأفضل. ركّزتُ على هذه النقطة، ولم أفكّر في الأمور الأخرى. نجحــت هذه الخطة في تسليتي قليلاً، لكن لم أستطِع إبعاد الجريمتين عن ذهني بعد فتــرة الاستراحة هذه. فكّرتُ في **إيزابيل غاغنون، وشانتال تروتييه**. بقي الإسمان يجولان في ذهني مثلما أفعل بحبيبات البازيلاء في صحني.

غيّرتُ وضعية منشفتي، وسمحتُ لدماغي أن يعيد ترتيب أحداث اليوم. بدأتُ بالاتــصال مع **دينيز** كي أعرف الوقت الذي سيجهز فيه هيكل **غاغنون**، وذلك بعــد مغــادرة **كلــوديل** مكتبي. أردتُ أن أتفحص كل بوصة منه بحثاً عن آثار كــدمات. أردتُ أن أبحث عن كسورٍ، أو جروحٍ، أو أي شيء آخر. أزعجني أمرٌ مــا في طريقة تقطيع الجثة. أردتُ أن ألقي نظرة عن كثب على علامات الجروح التي تحملها العظام. علمتُ بوجود مشكلة في أجهزة الغلي، ولذلك لن تجهز العظام حتى الغد.

تـــوجّهتُ بعـــد ذلـــك إلى خزانة الملفات المركزية، وتناولتُ ملفّ **تروتييه**. أمـــضيتُ مـــا تبقى من فترة العصر منكبةً على تقارير الشرطة، ونتائج التشريح، وتقاريـــر الـــسموم، والصور. بقيت فكرةٌ تلح على خلايا ذاكرتي. أصرّت تلك الفكـــرة على أنّ هاتين القضيّتين مترابطتان. رفرفت على أفكاري بعض التفاصيل الـــتي لم أســـتطع تذكرها، لكنها تربط الضحيتين بطريقة لم أفهمها تماماً. أبلغتني إحدى ذكرياتي المختزنة، التي لم أستطِع استعادتها بالكامل، أنّ الأمر لا يقتصر على تقطيع الجثث ووضعها في الأكياس. أردتُ إيجاد ذلك الرابط.

أعـــدتُ تعديل وضع منشفتي، ومسحتُ العرق المتصبب على وجهي. تجعد الجلـــد عند أطراف أصابعي، لكن كل المناطق الأخرى من بشرتي كانت في غاية الـــنعومة. إنني لست من الذين يتحملون كثيراً، لكنني قررت أن أبقى خمس دقائق إضافية.

قُـــتلت **شانتال تروتييه** منذ أقل من عام، أي في خريف أول عام عملٍ متفرغٍ لي في المختـــبر. كانت في السادسة عشرة من العمر. وضعتُ صور تشريح جثتها فـــوق طـــاولتي عصر هذا اليوم، لكنني لم أحتجها. تذكرتها جيداً، وتذكرتُ كل تفاصيل ذلك اليوم الذي وصلت فيه جثّتها إلى المشرحة.

حدث ذلك يوم 22 تشرين الأول، عشية **حفلة المحار**. كان يوم جمعة، لذلك تـــرك معظم الموظّفين مكاتبهم باكراً كي يتمكنوا من تناول شراب الشعير، وكي يـــستطيعوا شـــق طريقهم خلال صناديق **المالبيك**. فلقد أرادوا حضور الحفلة التي تجري كل خريف بشكل تقليدي.

اســـتطعتُ أن أرى **لامانش** من خلال الحشد الذي تجمّع في قاعة الاجتماعات. كـــان يـــتحدث عـــبر الهاتف. رأيتُ يده التي وضعها على أذنه الأخرى كي يستطيع حجب الضجيج الناتج عن الحفلة. راقبتُه. تفحّص الرجل القاعة بعينيه ما إن انتهى من مكالمـــته. وأشـــار لي بإحـــدى يديه عندما رآني، وفهمتُ منه أنه يريدني أن ألاقيه في القاعـــة. فعـــل الأمر ذاته عندما شاهد **بيرغيرون**. شرح لي الأمر في المصعد بعد خمس دقائـــق. قال إنّ شابة صغيرة وصلت للتو. وإنّ آثار الضرب والتشويه الشديدين ظهرا على جثّتها. أضاف إنه من المستحيل التعرف على هوية صاحبة الجثة بصرياً. وأراد من **بيرغيرون** أن يتفحص الأسنان، وأرادني أن أتفحص الجروح التي ظهرت على العظام.

تناقض الجو في المشرحة كلياً مع الهرج السائد في الطابق العلوي. وقف رجلا تحــرٍّ مـــن **أمن كيبيك** على مسافة قريبة من الجثة، بينما انهمك ضابط يرتدي زياً رسمياً من قسم التعرّف على الجثث بالتقاط بعض الصور. وكان أن سبق للتقني أن وضع البقايا بصمت تام. لم يقل رجلا التحري شيئاً. لم تُسمع نكات ولا كلمات مـــنمقة. غاب الحولُ المعتاد كلياً، ولم تُسمع في القاعة غير الأصوات الصادرة عن الكاميرا عند التقاط صور تلك الفاجعة الإنسانية الملقاة على طاولة التشريح.

جُمعت الأجزاء التي تبقّت من الضحية كي تشكل جثة. وُضعت الأجزاء الستة المملوءة بالدماء في أماكنها التشريحية المناسبة، لكنّ الزوايا لم تكن دقيقة تماماً. تحوّلت، هكذا، إلى نسخة بالحجم الطبيعي من تلك الألعاب التي تُصمّم كـــي تتحـــرك في وضعيات غيرِ مطابقة للوضعيات الطبيعية. بدا المنظر بشعاً بالإجمال.

قُطـــع الرأس من مكان عالٍ من الرقبة، وبدت العضلات المقتطعة بلون أحمر قـــانٍ يشبه لون الخشخاش. لاحظتُ أنّ الجلد الشاحب قد تراجع قليلاً عند حدود القطعٍ، وكأنه انكمش بلطف نتيجة احتكاكه باللحم الطازج النيء. كانت عيناها شـــبه مغمضتين، بينما انساب خيطٌ رفيعٌ من الدماء الجافة من منخرها الأيمن. أما شعرها الأشقر الطويل فكان مبللاً وملتصقاً برأسها.

لاحظـــتُ أنّ الجـــذع مـــشطور عند منطقة الخصر، وأنّ ذراعيها انحنتا عند المـــرفقين فوق المنطقة العليا من الجذع، كما أنّ يديها كانتا ترتاحان فوق معدتها. إنه الوضع المعتاد للدفن فيما عدا أنّ أصابعها لم تكن متشابكة.

كانـــت يدها اليمنى مقطوعة جزئياً. وبرزت نهايات الأربطة البيضاء، وبدت مثل أسلاك كهربائية انتُزعت من مكانها. نجح قاتلها أكثر مع يدها اليسرى. وكان التقني قد وضعها قرب رأسها، حيث بقيت وحيدة، وبدت أصابعها منكمشة مثل أرجل عنكبوت ذاوية.

رأيـــتُ صـــدرها مشقوقاً بالطول. امتد الشق من العنق حتى البطن، وتدلّى ثدياها نـــزولاً نحو جهتَي القفص الصدري. بدا أنّ ثقلهما يشدّ جانبَي لحم الصدر المـــشقوق. امـــتد القسم الأسفل من الجذع من خصرها وحتى ركبتيها، في حين كانـــت ســـاقاها في القـــسم الأسفل جنباً إلى جنب، لكنهما وضعتا تحت أماكن

ارتباطهما الطبيعية. بدا هذان القسمان غير ملتحمين عند مفصل الركبة، فظهرت القدمان متّجهتيْن نحو الجانبين، بينما اتجهت أصابع القدمين نحو الأعلى.

اجتاحتني وخزة من الألم عندما لاحظتُ أن أظافرها ملونة باللون الزهري الفاتح. شعرتُ بالألم عندما لاحظتُ هذه اللمسة الشخصية، إلى درجة أردتُ معها أن أغطيها، وأن أصرخ طالبةً من الجميع تركها وشأنها. لم أفعل ذلك، لكنني وقفتُ واكتفيتُ بالمراقبة، وانتظرتُ دوري كي أختلس نظرة على الضحية.

استطعتُ مع ذلك أن أرى، حتى عندما أغمض عينيّ، الحواف المتعرجة للشقوق الموجودة على فروة رأسها، وهي دليلٌ على ضربات متعددة بآلة غير حادة. استطعتُ أيضاً تذكر جروح رقبتها بكل تفاصيلها. استطعتُ أن أرى بقع النزيف في عينيها، وهي البقع الدقيقة الناتجة عن انفجار الأوعية الدموية الدقيقة. يُعتبر وجود هذه البقع - الناتجة عن ضغط شديد على الأوعية الوداجية - دليلاً تقليدياً على حدوث عملية خنق.

شعرتُ بتوتر في أعماقي عندما بدأتُ أتساءل عن الأمور الأخرى التي جرت معها. حُرمتْ هذه المرأة الطفلة الهادئة والرقيقة، من تناول زبدة الفستق التي اعتادت عليها، ومن الاجتماع بالقادة الكشفيين، ومن المخيمات الصيفية، وصفوف أيام الآحاد. شعرتُ بالأسى على الأعوام التي لم يُسمح لها بعيشها، والحفلات الراقصة التي لن تحضرها أبداً، وكمية الشراب التي لن تتمكن من تجرعها. نقول - بعد كل ذلك - إننا نحن - الأميركيون الشماليون - قبيلة متحضرة تعيش في العقد الأخير من الألفية الثانية. وعدنا الضحية أن تعيش سبعين عاماً، لكننا لم نسمح لها بالعيش سوى ستة عشر عاماً.

حاولتُ أن أبعد عن ذهني كل ذكريات تلك الضحية التي تمّ تشريحها، وتسببت بشعوري بالألم، ومسحتُ العرق الذي تصبب من وجهي، وهززتُ رأسي، كما حركتُ شعري إلى الخلف وإلى الأمام. بدأت الصور الذهنية بالتدافع في مخيلتي، إلى درجة عجزتُ معها على الفصل ما بينها وبين الصور التفصيلية التي رأيتُها ذلك المساء. إنها صورٌ مثل الحياة ذاتها. شككتُ منذ وقت طويل أن تكون الذكريات التي أحتفظ بها عن طفولتي قد نتجت فعلاً عن صورٍ فوتوغرافية قديمة، إنها ليست إلا مزيجاً من اللقطات، ومن صور شرائط الأفلام المعدّلة، والتي أصبحت

في النهاية واقعاً جاهزاً للتذكر في ما بعد. تُرجِعُنا **كوداك** إلى الوراء. أظن أنه من الأفضل أن نتذكر الماضي بهذه الطريقة. إذ يندر أن نلتقط صوراً في مناسباتنا الحزينة.

فُتح الباب بغتةً. ودخلت امرأةٌ غرفة البخار. ابتسمت المرأة وأومأت نحوي، ثم انهمكت بنشر منشفتها على المقعد إلى يساري. بدا فخذاها بلون اسفنج البحر. فتناولتُ منشفتي وتوجّهتُ لآخذ حمامي.

وجدتُ **بيردي** بانتظاري عندما وصلتُ إلى منزلي. نظر إليَّ عبر الردهة. رأيتُ انعكاس شكله الأبيض على رخام الأرضية الأسود اللون. بدا منزعجاً. هل تشعر القطط بمشاعر تماثل مشاعرنا؟ أفترض أنني أقوم بنوعٍ من الإسقاط. تفقدتُ وعاءه فوجدتُ كمية الطعام قليلةً بعض الشيء، لكنه لم يكن فارغاً. شعرتُ بالذنب، لكنني ملأته على أي حال. تكيّف **بيردي** جيداً مع مبادرتي هذه. أعرف أن احتياجاته بسيطة. إنه يحتاج إليّ، وإلى **أسماك فريسكي أوشن**، ويحتاج إلى النوم. تتميّز هذه الاحتياجات بمرونتها ولا تشكل أي عقبة بالنسبة إليه، بالإضافة إلى إمكانية تغيير مواقعها بسهولة.

بقيت لديّ ساعة قبل أن يحين موعدي مع **غابي**، وهكذا استلقيتُ على الأريكة. أحسستُ بالإجهاد الذي تسبّبت به التمارين والبخار، وشعرتُ كما لو أنّ مجموعات عضلية مهمة قد تعطلت عن العمل. أعطى الإجهاد ثماره. فلقد استرخيتُ جسدياً، لكن ليس ذهنياً. أحسستُ فعلاً، كالعادة في مثل هذه الأوقات، أنني بحاجة لتناول الشراب.

انتشرت أشعة شمس ما بعد الظهر في أرجاء غرفتي، لكن حدتها خفّت بفعل ستائر **الموسلين** التي تتدلى وراء كل نافذة. هذا هو أكثر ما يعجبني في هذه الشقة. إذ يتمازج ضوء الشمس مع **الباستيل** الشاحب فتنبعث في الغرفة مشاعر البهجة الساطعة التي تريح أعصابي. إنها جزيرتي الهادئة وسط عالم من التوتر.

تقع الشقة في الطابق الأرضي من مبنى يتخذ شكل U، ويحيط بباحة داخلية. تشغل شقتي معظم الجناح، كما أنها بعيدة عن الجيران. تشرف أبوابٌ فرنسية في إحدى جهات غرفة المعيشة على حديقة الباحة. أما الأبواب في الجهة المقابلة فتشرف على الباحة المخصصة لي. تمثل هذه الباحة مشهداً حضرياً

نادراً؛ العشب، والأزهار في قلب وسط المدينة، حتى إنني أنشأتُ حديقة أعشاب صغيرة خاصة بي.

تساءلتُ في البداية عما إذا كنت سأحب العيش بمفردي. لم أجرّب هذا من قبل. فلقد تركتُ المنزل كي ألتحق بالجامعة. تزوجت **بيتي** بعد ذلك، وربّيتُ **كاتي**، لذلك لم أكن أبداً سيدة مملكتي. لم يكن هناك من داعٍ لكل ذلك القلق الذي شعرتُ به في السابق، لأنني أحببتُ نمط حياتي هذا.

كنتُ أتأرجح ما بين عالَمي اليقظة والنوم حينما أعادني رنين الهاتف إلى عالم الواقع. تناولتُ سماعة الهاتف، وشرعتُ أتحدث وأنا أشعر بألم في رأسي بسبب غفوتي التي لم تكتمل. حادثني على الجانب الآخر صوت إلكتروني يحاول بيعي قطعة أرض مخصصة للدفن.

قلت: "**لا أحتاجها**". حرّكتُ ساقيّ خارج أريكتي، ونهضت. إنها إحدى سلبيات العيش بمفردي؛ فلقد اعتدتُ على التحدث مع نفسي.

أما الناحية السلبية الأخرى لهذا النمط من العيش فهي اضطراري للعيش بعيداً عن ابنتي. طلبتُ رقمها. رفعتْ السماعة من الرنة الأولى.

"أوه يا **ماما**. أنا مسرورة جداً لأنك اتصلت بي! كيف حالكِ؟ لا أستطيع الكلام الآن. لدي اتصال على الخط الآخر، لكن هل أستطيع مكالمتكِ بعد قليل؟"

ابتسمتُ. إنها **كاتي**، المتحمسة دوماً، والتي تنظر بألف اتجاه واتجاه.

"بالطبع يا حبيبتي. ما من شيء مهم. أردت إلقاء التحية عليكِ فقط. سأتعشى مع **غابي** هذه الليلة. سأكلمكِ في الغد".

"عظيم. قبّليها عني. آه، تذكرت. حصلتُ على درجة A في مادة اللغة الفرنسية، إذا كان هذا ما تفكرين فيه".

قلتُ ضاحكةً: "لم أشُك أبداً في قدرتكِ على نيل هذه الدرجة. سأهاتفكِ في الغد".

تمكنتُ بعد عشرين دقيقة من إيقاف سيارتي أمام المبنى الذي تسكن فيه **غابي**. ساعدتني معجزة على إيقاف سيارتي مقابل باب منزلها. أطفأتُ المحرك، وخرجتُ من السيارة.

تعـــيش **غابي** في ساحة **كاري سان لوي** الصغيرة والرائعة، وهي الساحة التي تقع ما بين شارعَي **سان لوران وسان دينيز**. يتألف هذا المجمّع السكني من بيوتٍ متلاصـــقة تتخذ أشكالاً غريبة، وتتميّز بغنى مكوّناتها الخشبية. تُعتبر هذه الأبنية من بقايا فورةٍ هندسية غابرة. أقدم المالكون على طلاء هذه الأبنية بألوانٍ غريبة تحاكي ألوان قوس القزح، وملأوا باحات منازلهم بكل أنواع الأزهار الصيفيةٍ، فبدت هذه الباحات كأنها لوحات صورٍ متحركة رسمها فنانو **ديزني**.

تخـــيّم علـــى هـــذا المجمّع السكني أجواء من الغرابة توحي بها تلك النافورة المركـــزية الـــتي تتصاعد من البركة، وكأنها زهرة توليب عملاقة، وكذلك السياج الحديدي المزخرف الذي يحيط بالموقع، والذي يصل علوّه إلى ما فوق الركبة بقليل. كمـــا تفصل زخارف حديدية، ذات أشكالٍ منحنيةٍ وغريبة، الباحة العشبية العامة عن المنازل المزخرفة التي تحيط بها. بدا أن الفيكتوريينً المتشددًين إزاء مسائل الجنس اســـتطاعوا أن يلهـــوا أنفسهم بهندسة أبنيتهم. أوحى لي هذا الواقع، بطريقةٍ ما، بوجود نوعٍ من التوازن في الحياة.

تطلعـــتُ نحـــو المبنى الذي تسكنه **غابي**. يقع هذا المبنى في الجهة الشمالية من المجمّـــع الـــسكني، وهو الثالث من جهة شارع **هنري جوليان**. لو رأت **كاتي** هذا المنظـــر لكانت وصفت ما تراه على أنه "فائض تعيس". أي مثل تلك الأثواب التي اعـــتدنا أن نسخر منها في مسابقاتنا الربيعية السنوية. يبدو أنّ المصمم الذي عمل على هندسة هذه الأبنية قد أفرغ كل ما في جعبته من التفاصيل الغريبة التي يعرفها.

يـــتألف هـــذا المبنى من ثلاثة طوابق استُخدم الحجر البني اللون في تشييدها، ويتميـــز الطابق السفلي منه بنوافذه البارزة الكبيرة. يرتفع سقف المبنى بشكل برجٍ مقطـــوع ذي ستة أضلاع، ويتميز ببلاطاته الصغيرة التي رُكّبت بشكلٍ يماثل ذيل حـــورية البحـــر. يحيط بقمة السطح ممر مسيّج بالحديد المزخرف. ظهرت النوافذ المغاربية التصميم بجوانبها السفلية المربعة، أما جوانبها العلوية فشكلت أقواساً مقببة. وتتميـــز جمـــيع الأبـــواب والنوافذ بإطارات من الخشب المحفور بزخارف معقدة، والملوّن بظلال خفيفة من اللون البنفسجي الشاحب. ظهر إلى يسار المجمع السكني سلّم حديدي يصل ماً بين الطابق السفلي وبين سقيفة مدخل الطابق الثاني. تماثلت تـــصميمات أعمدة هذا السلم وحلقاته مع أعمدة سياج المجمّع السكني. شاهدتُ

أزهـــار أوائـــل حزيران متفتحة في صناديقها الموضوعة أسفل النوافذ، وفي الأوعية الكبيرة التي تحيط بمدخل السقيفة.

كانت بانتظاري. لأنني لاحظتُ، قبل أن أعبر الشارع، أنّ ستارةً تحركت لبرهة، وأنّ الـــباب الأمامـــي قد فُتح. أومأت لي بيديها، ثم أقفلت الباب، وتأكدت جيداً من إقفالـــه. أســـرعت بالنـــــزول على الدرج الحديدي، فتموجت تنورتها وراءها مثلما يـــتموج شـــراع يخـــت يشق الأمواج. استطعتُ سماعها أثناء اقترابها مني. تحب **غابي** الأشياء اللامعة، والتي تُصدر أصواتاً. وضعتْ في تلك الليلة حلقةً من الأجراس الفضية الـــصغيرة حول كاحلها. تصدر هذه الأجراس أصواتاً مع كل خطوة تخطوها. رأيتها مرتديةً ما سمّيته **نوفو آشرام** في المدرسة الثانوية، فقد اعتادت ارتداء هذه الأزياء دائماً.

"كيف حالك؟"

أجبتها بتحفّظ: "أنا في أحسن الأحوال".

أدركـــت من طريقة جوابي أنّ ما أقوله غير صحيح، حتى وأنا أتلفظ بجملتي هـــذه. إلا أنني لم أرغب في التحدث معها عن الجرائم، أو **كلوديل**، أو زيارتي التي لم تـــتم إلى **كيبيك سيتي**، أو عن زواجي المنهار، أو حتى عن أي شيء آخر شغل تفكيري في المدة الأخيرة.

"وأنت؟"

"أنا بخير".

تمايلـــت خصلات شعرها عندما حركت رأسها من جانب إلى آخر. **بخير**، أو **لـــست بخـــير**. يشبه هذا ما كان يحدث في الأيام الماضية، لكنْ ليس تماماً. أعرف طريقة سلوكي، وأنا أعرف أنها تتظاهر أيضاً، وترغب في إبقاء المحادثة في حدودها الدنـــيا. شعرتُ بقليل من السوداوية، لكنني خفتُ أن أتسبّب في هذا الجو المحبط، ولهذا شاركتُ في مؤامرة تجنب الآخر المتبادلة في ما بيننا.

"إذاً، أين سنتناول الطعام؟"

في الواقع، لم أغيّر وجهة الحديث، لأنه لم يبدأ في الأصل.

"بماذا تفكرين؟"

فكّـــرتُ بالموضوع. اعتدت أن أحسم خياراتي عن طريق تصور الطعام على الطـــبق الموجود أمامي. أعرف، بالتأكيد، أنّ عقلي يفضل اعتماد الطريقة البصرية.

أعتقد أنني أستطيع القول إنه في ما يتعلق بالطعام، فإنّ دوافعي تكون أشكال المأكولات وصورها، وليس أنواعها. أردتُ الليلة الحصول على طعامٍ أحمر وثقيل.

"أتفضلين طعاماً إيطالياً؟"

فكّرت قليلاً قبل أن تقول: "حسناً. ما رأيكِ بمطعم **فيفالدي في برنس آرثر**؟ نستطيع الجلوس في الخارج".

"عظيم. لن أكون مضطرة إلى التخلي عن مكان إيقاف سيارتي هذه".

انحرفنا عبر الباحة، ومررنا تحت أوراق الأشجار العريضة التي تظلّل الباحة العشبية. رأينا رجالاً مسنين جالسين على مقاعدهم يتحدثون معاً، ويتأملون رفاقهم المواطنين. شاهدتُ امرأةً مرتدية ثوب حمامها تطعم حمائمها من كيس يحتوي على الخبز، وتزجرها مثلما تفعل مع أولادٍ مشاغبين. رأيتُ حارسين يمشيان فوق ممرٍ يعبر الباحة، وقد وضعا أيديهما خلفهما بشكل حرفَي V متماثلين. توقفا بين الحين والآخر ليتبادلا التحيات مع المارة، أو من أجل طرح بعض الأسئلة، أو للرد على مزحة ما.

مررنا قرب المُنشأة الإسمنتية الصغيرة التي تقع في الطرف الغربي من الباحة. لاحظتُ كلمة "**فيسباسيان**"، فتساءلتُ، مجدداً عن سبب حفر اسم ذلك الامبراطور الروماني فوق باب هذه المُنشأة.

غادرنا الباحة، وعبرنا **شارع لافال**، ثم مررنا أمام مجموعة من الأعمدة الإسمنتية التي تزيّن مدخل **شارع برنس آرثر**. لم نتبادل أي كلمة حتى هذا الوقت. بدا هذا غريباً، فليس من عادة **غابي** أن تكون هادئة، وسلبية، إلى هذه الدرجة. اعتدتُ أن أسمعها وهي تفصح عن خططها وأفكارها، لكنها التزمت هذه الليلة بالموقف الذي التزمتُ به أنا.

راقبتُها بطرف عيني من دون أن تشعر. انشغلت هي أيضاً بتفحص الوجوه التي تمر قربنا، لكنني لاحظتُ أنها تضع طرف إبهامها في فمها بين الحين والآخر. لم أستنتج من مراقبتي لها أنها شاردة، بل بدت عصبية، وكأنها تبحث عن شيء ما على الأرصفة المكتظة بالناس.

كان هواء المساء دافئاً ورطباً. اكتشفنا أنّ **برنس آرثر** مكتظ بروّاده. رأينا الناس يتحركون في كل الاتجاهات. ولاحظنا أنّ المطاعم فتحت أبوابها ونوافذها.

رأيـــنا الطـــاولات مليئة بأنواع الأطباق، وبدت هذه الطاولات وكأنها تنتظر من يـــرتّبها في وقـــت لاحـــق. انشغل الرجال الذين يرتدون قمصاناً قطنية، والنساء العاريات الأكتاف، في تبادل الأحاديث والضحكات تحت المظلات الملونة الكبيرة. بيـــنما وقـــف آخـــرون في صـــفوف ينتظرون إيجاد أمكنة لهم كي يجلسوا فيها. انضممتُ إلى الصف الموجود خارج **مطعم فيفالدي**، بينما توجهت **غابي** إلى الحانة الواقعة في زاوية الشارع كي تشتري زجاجة شراب فرنسيّ.

عـــندما جلـــسنا أخيراً في مكانينا، اختارت **غابي طبق فيتوشيني ألفريدو. في حـــين** طلـــبتُ طبق لحم العجل بصلصة الليمون الحامض، إلى جانب **السباغيتي**. بقيتُ مخلصة جزئياً لمنظر لحم العجل الأحمر رغم إغراء الليمون الحامض. ارتشفتُ زجاجة مياه **بيرييه** المعدنية أثناء انتظارنا وصول أطباق السَلَطة التي طلبناها. تحدثنا قلـــيلاً أثـــناء تناولنا الطعام، وتبادلنا بعض الكلمات التي لا تحمل معنىً محدداً، بل اكتفيـــنا غالباً بالجلوس. لم أستطِع أن أعتبر هذه الجلسة الصامتة من نوع جلسات الأصـــدقاء القدامى الذين اعتادوا رفقة بعضهم بعضاً، لأن جلستنا كانت من نوع تبادل حديث مصطنع.

اعـــتدتُ علـــى مدّ مزاج **غابي** وجزْره، كما اعتدتُ على دورات حيضي. أحسستُ بوجود بعض التوتر في سلوكها. لم تلتقِ عيناها بعينيّ، لكنهما طافتا بقلق وكأنهمـــا تبحـــثان عن شيء ما، تماماً كما كانتا في المجمّع السكني. اتّضح لي أنها محـــتارة. اســـتنتجتُ ذلـــك من طريقة ارتشافها لشرابها. انعكس ضوء المساء في **الشيانتي** في كل مرة رفعت فيها كوبها، وجعلته يتوهج مثل أشعة شمس **كارولاينا**.

أعـــرف مغزى هذه الدلائل. بدأت تفرط في الشراب في محاولةٍ منها لتخفيف حـــدة قلقها. أعرف أنّ الشراب هو المخدّر الذي يستخدمه المتعبونَ في هذا العالم. وأعـــرف هذا لأني جرّبته. راقبتُ الثلج الموجود وسط كوب **البيرييه** أثناء ذوبانه البطـــيء، كما راقبتُ الليمون الحامض في حركته المنعشة داخل الكوب. بدأ هذا الليمون بالنـــزول من مكعب إلى آخر محدثاً ذلك الأزيز.

"**غابي**، ما بكِ؟"

أجفلَتْ من سؤالي.

"ما بي؟"

أطلقـــت ضـــحكة عصبية قصيرة، وأبعدت خصلات شعرها عن وجهها. لم أستطِع فهم ما تشي به عيناها.

حـــذوتُ حذوها، فانتقلتُ مجدداً إلى موضوعٍ محايد. توقعتُ أن تبلغني عندما تكون جاهزة. هل أصبتُ بالجبن؟ وهل يكون ثمن الحميمية خسارتها أحياناً؟

"هل يتصل بك الزملاء القدامى من جامعة نورث ويسترن؟"

ســـبق لي أن التقـــيتُ **غابي** في السبعينيات أثناء دراستنا الجامعية. كنت قد تزوجت حينها، أما ابنتي **كاتي** فكانت في مرحلة الحضانة. شعرتُ أنني أحسد **غابي** والآخـــرين على حياتهم في ذلك الوقت. فقد حُرمت من التعرف إلى الآخرين في الحفـــلات التي تستغرق الليل بكامله، وخلال دورات الفلسفة الصباحية. كنتُ في مثل أعمارهم، لكنني عشتُ في عالمٍ مختلف. لم أنشئ علاقات وثيقة إلا مع **غابي**، لكـــنني لم أعرف السبب تماماً. كنا مختلفتين، كما هي الحال مع أي امرأتين. برز اختلافـــنا في ذلـــك الوقت. وربما تعود هذه الاختلافات إلى إعجاب **غابي** الذي أظهـــرته تجـــاه **بيتي**، أو أنّ هذا هو ما تظاهرت به، على الأقل. عدتُ بفكري إلى الماضـــي: **بـــيتي**، بـــصرامته العسكرية، محاطاً بفتيانٍ صغار جالسين على العشب يتناولون أرخص أنواع شراب الشعير. أعرب لي حينهاً عن كرهه لحفلاتي الجامعية، لكنه وضع كراهيته هذه وراء قناعٍ من الازدراء. بذلت **غابي**، وحدها، مجهوداً كي تحقق اختراقاً لموقفه هذا.

فقـــدتُ الاتصال مع كل زملائي السابقين، عدا القليلين منهم. توزع هؤلاء في أنحـــاء الولايات في البلاد حيث يعملون في مختلف الجامعات والمتاحف. نجحت **غابي** في إبقاء اتصالاتها مستمرة مع زملائها على مدى الأعوام، أو لعل الأصح هو أنّ هؤلاء الزملاء هم الذين أرادوا إبقاء الاتصالات مستمرة معها.

"يتّـــصل بي **جو** بين حين وآخر. أخبرني أنه يدرّس في إحدى البلدات المعزولة في مكـــانٍ مـــا من ولاية **أيوا** كما أعتقد، أو لعلها في **إيداهو**". لم تكن جغرافية أمريكا من بين نقاط قوة **غابي**.

قلتُ مشجعة: "أوه، حقاً؟"

"أمـــا **فـــيرن** فيعمل في بيع الأراضي في **لاس فيغاس**. جاء إلى هنا منذ أشهر قليلة ليحضر مؤتمراً. ترك الأنثروبولوجيا، لكنه سعيد مثل طائر **البطلينوس**".

ارتشفت المزيد من شرابها الفرنسيّ.

"ومع هذا فهو يمتلك الشعْرَ ذاته".

بــدت ضــحكتها حقيقــية هذه المرة. هل يعود سبب هدوئها المفاجئ إلى الشراب، أو إلى جاذبيتي؟

"آه. اســتلمتُ أيضاً رسالةً إلكترونيةً من **جيني**. إنها تفكّر في العودة إلى عالم الأبحاث. أتعلمين أنها تزوجت من أحد التافهين، وتخلت من أجله عن وظيفةٍ دائمة في **روتجرز**، كي تتبعه إلى **كيز**؟"

لم تتعود **غابي** المسايرة في حديثها.

"حسناً، حصلتْ على عضوية جمعيةٍ ما، كما أنها تجهد نفسها للحصول على منحة".

ارتشفت جرعة أخرى من شرابها.

"هذا عندما يُسمح لها. ما هي أخبار **بيتي**؟"

صدَمَني سؤالها. بقيتُ إلى هذه اللحظة متحفظة جداً في الحديث عن زواجي الفاشل. بدا الأمر وكأن ضوابط كلامي كانت متوقفة عند هذا الموضوع، وبدا لي أنّ إلغــاء هذه الضوابط سوف يؤكد هذه الحقيقة. خُيّل إليّ أنّ العمل على ترتيب الكلمــات في جمــلٍ منتظمة، سوف يؤكد على الواقع الذي لم أكن مستعدة تماماً لمواجهته. تجنبتُ الحديث عن هذا الموضوع، لكن **غابي** كانت من إحدى القليلات اللواتي أطلعتهن عليه منذ البداية.

"إنه بخير. نتحدث أحياناً".

"لكَم يتغيّر الناس".

"أجل، هذا صحيح".

وصــلت أطــباق السلطة أخيراً، وهكذا ركّزنا في الدقائق القليلة التالية على صــحن الــتوابل والفلفل. رأيتُها، عندما رفعتُ رأسي أخيراً، جامدةً في مكانها، ولاحظتُ أنّ مقدار شوكة من الخس قد تسمّر فوق طبقها. ابتعدتْ عني بأفكارها مجــدداً، رغم أنها بدت غارقةً في عالمها الداخلي هذه المرة، بدلاً من انشغالها بالعالم الذي يحيط بها.

جرّبتُ طريقة أخرى.

تناولتُ حبة زيتون سوداء: "أخبريني عن سير مشروعك".

"هــا، ماذا؟ المشروع. جيد. إنه يسير سيراً حسناً. حزتُ أخيراً على ثقتهم، وبدأ بعضهم بالتكلم معي بصراحة".

تناولتْ بعضاً من السلطة.

"**غابي**. أعرف أنه سبق لكِ أن شرحتِ الأمر لي، لكن أخبريني مجدداً. تعلمين أنني أفهم بالعلوم الفيزيائية. ما هي الغاية من مشروعك بالضبط؟"

انطلقــتْ بالــضحك على فكرة الفصل المعتاد ما بين طلاب الأنثروبولوجيا الفيزيائية والثقافية. كان صفّنا صغيراً لكنه امتاز بالتنوع: درس بعض الطلاب علم الأجــناس، بيــنما اختص آخرون باللغويات، أو بعلم الآثار، أو بالأنثروبولوجيا الأحيائــية. أعلــم القدر القليل عن **التحليل النَصّي** مثل ما تعرفه هي عن الحمض النووي في **الميتوكوندريا**.

"أتتذكرين تصنيف الأجناس البشرية الذي حمَلَنا **راي** على قراءته؟ **اليانومامو، والــسيماي، والنويــر**؟ حسناً، إنها الفكرة ذاتها. إننا نحاول أن نصفَ عالم بنات الهوى عن طريق المراقبة عن كثب، بالإضافة إلى إجراء مقابلات مع المخبرين. أعني العمــل الميداني القريب والشخصي". تناولتْ المزيد من السلطة. "من هنّ؟ من أين أتــينَ؟ ومــا هي أسباب تورطهن في هذا العمل؟ وماذا يفعلنَ في أيامهن؟ وكيف يدخلن في دورة الاقتصاد الشرعي؟ وكيف ينظرن إلى أنفسهن؟ وأين..."

"فهمت".

هل يفعل الشراب فعله، أم أنني عزفتُ على وترٍ حساسٍ تشغف به في حياتها. لاحظــتُ أنها أصبحت أكثر نشاطاً. استطعتُ أن ألاحظ التورّد الذي غزا وجهها رغم الظلمة التي بدأت تنسدل. التمعت عيناها بأضواء مصابيح الشوارع.

"لفــظ المجــتمع هؤلاء النساء. لا يكترث أي شخص بهن، في ما عدا الذين يشعرون أنّ هذه الفئة تشكّل تهديداً لهم، ويريدون التخلص منهن".

أومأتُ، وتناولتُ وإياها المزيد من السَلَطة.

"يعــتقد معظــم الــناس أنّ البــنات يلجأن إلى عالم الليل بسبب تعرضهن للاغتــصاب، أو لأنهــن أُجبرن على سلوك هذا الطريق، أو لأسباب أخرى. تُقدم الكــثير مــن البــنات، في واقع الأمر، على هذا السلوك سعياً وراءً الحصول على

الأمـــوال. لا تمـــتلك هؤلاء الفتيات الكثير من الكفاءات التي تؤهلهن الدخول في ســـوق العمل الشرعي، ولهذا فإنهن يدركن أنهن لا يستطعن العيش بمستوى لائق. تقرر الفتيات سلوك هذا الطريق لأعوام معدودة، لأنه العمل الذي يدر عليهن أكبر قدرٍ من المداخيل. إنّ المتاجرة بالجسد تدرّ أموالاً أكثر من بيع سندويشات **البيرغر**".

تناولنا المزيد من السلطة.

"تمتلك هذه الفئة ثقافتها الخاصة بها، مثلها مثل أي مجموعة أخرى من المجتمع. أنـــا مهـــتمة بالشبكات التي تقيمها هذه الفئة، وبالمخططات الذهنية التي تمتلكها، وأنظمة الدعم التي تستند عليها، وأشياء مثل هذه".

عاد النادل حاملاً الأطباق الرئيسية التي طلبناها.

"ماذا بشأن الرجال الذين يستخدمون الفتيات؟"

"ماذا؟" بدا أن سؤالي هذا أثار أعصابها.

"مـــاذا بشأن الرجال الذين يقصدون تلك الأماكن؟ أعتقد أنهم يشكلون عنصراً مهماً في العملية بكاملها. هل تتحدثون معهم؟" تناولتُ مقدار شوكة من **السباغيتي**.

بـــدا الارتـــباك على وجهها، وراحت تتمتم: "أنا... أجل. إننا نتحدث مع بعضهم". مرّت فترة صمت: "كفى حديثاً عني يا **تمب**. أخبريني عن عملكِ أنتِ. هل تمر معك قضايا مشوقة؟" ركّزت عينيها على طبقها.

أذهلني تغيير وجهة الحديث، فأجبتُ من دون تفكير.

"تجعلني هذه الجرائم متوترة". ندمتُ فوراً على هذه الإجابة.

"أي جرائم؟" بدا صوتها عميقاً، وخرجت كلماتها مشدّدة ومترافقة مع نعومة ظاهرة في أواخرها.

"وصـــلتنا إحـــدى أشد الجرائم بشاعةً يوم الخميس الفائت". لم أتابع، لأنني أعرف أن **غابي** لا ترغب أبداً في سماع أخبار عملي.

"أوه؟" تـــناولتْ المزيد من الخبز. بدت مؤدبة. أخبرتني عن عملها، وها هي الآن تستعد لسماعي وأنا أتحدث عن عملي.

"أجـــل. لم يكـــن رجال الصحافة موجودين لحسن الحظ. وُجدت الضحية خـــارج **شيربروك** الأسبوع الماضي. كانت مجهولة الهوية عندما وصلت. تبيّن لنا لاحقاً أنها قُتلت في نيسان الماضي".

"تبدو هذه القضية مشابهة لقضاياك الأخرى. لماذا القلق؟"

اســـترخيتُ في جلستي ونظرتُ إليها متسائلةً عما إذا كان يجدر بي أن أمضي في هـــذا الحديث. لا أعرف، لعله من الأفضل أن أُكمل. هل إن هذا أفضل بالنسبة لي؟ لا أســـتطيع أن أتحدث مع أحدٍ غيرها حول هذا الموضوع. هل تريد فعلاً أن تسمعني؟

"تمّ ذبح الضحية، ثم قُطِّعت أوصالها، ورُمِيَت في الوادي".

نظرتْ نحوي من دون أن تعلّق بشيء.

"أعتقد أنّ معطيات هذه الجريمة تماثل قضيةً أخرى سبق لي أن عملتُ عليها".

"ماذا تقصدين؟"

"إني أرى..." رحتُ أبحث عن الكلمة المناسبة. "العناصر ذاتها في الجريمتين".

"مثل ماذا؟" مدّت يدها لتمسك بكوبها.

"أقصد أموراً مثل الضرب الوحشي، وتشويه الجثة".

"لكن هذه الأمور شائعة جداً، أليس كذلك؟ متى تكون النساء ضحايا؟ إنهم يـــضربوننا على رؤوسنا، ويخنقوننا، ثم يعمدون إلى تقطيعنا. إنه العنف الذكوري المعتاد".

قلـــت معتـــرفةً: "أجل. إنني لا أعلم على وجه التحديد سبب الوفاة في هذه القضية الأخيرة، لأن الجثة كانت متحلّلة جداً".

بدت **غابي** غير مرتاحة. هل أخطأتُ بالتحدث عن هذا الموضوع؟

"وماذا أيضاً؟" رفعتْ كوب شرابها، لكنها لم ترتشف منه.

"إنّ التـــشويه، وتقطيع الجثة، أو إزالة أجزاء منها، أو..." توقفتُ عن متابعة الكلام لأنني فكرتُ بالغطاس (المطبة). ما زلت غير أكيدة من معنى وجودها.

"إذاً، أتظنين أن الوغد ذاته نفّذ الجريمتين؟"

"أجل. أعتقد ذلك، لكني لا أستطيع أن أقنع ذلك الأبله الذي يتولى القضية. رفض حتى أن يتفحص القضية الأخرى".

"هل يُحتمل أن تكون الجريمتان من فعل أحد الأوغاد الذين يستمتعون بذبح النساء؟"

أجبتُ من دون أن أرفع رأسي: "أجل".

"أتعتقدين أنه سيكرّر فعلته مرةً ثانية؟"

لاحظـــتُ حـــدّةً في صوتها مجدداً، لكن النعومة اختفت من نهايات كلماتها. وضعتُ شوكتي ونظرتُ إليها. رأيتُها تحدق بي عمداً، ولاحظتُ أنها أحنت رأسها قلـــيلاً إلى الأمـــام، كمـــا أن أصابعها التفّت بإحكام حول مقبض كوب شرابها. لاحظتُ أنّ الكوب يرتعش، وأنّ السائل بداخله يتموج قليلاً.

"**غابي**. أنا آسفة. ما كان يجدر بي أن أتحدث حول هذا الموضوع. **غابي**، هل أنتِ بخير؟"

اســترخت في مقعدها، ثم وضعت الكوب عمداً على الطاولة، لكنها بقيت ممسكة به للحظة قبل أن تتركه. تابعت التحديق بي، وأومأت للنادل كي يقترب.

"أتريدين قهوة".

أومأت بالموافقة.

أنهينا عشاءنا، ثم انصرفنا للاستمتاع بشرب **الكانولي والكابوتشينو**. لاحظتُ أنهـــا اســـتعادت مـــرحها عندما أخذنا نضحك معاً، وأخذنا نسخر من ذكريات دراســـتنا في **آيـــج أوف آكواريوس** (عصر برج الدلو)، وعندما أرسلنا شعرنا، وارتديـــنا قمـــصاناً مصبوغة، وعندما كنا نرتدي سروال الجينـــز منخفض الخصر والمتـــسع عند القدمين. كنا بنات جيلٍ هاربٍ من التماثل. انصرفنا من المطعم بعد منتصف الليل بقليل.

ســـرنا علـــى طول شارع **برنس آرثر**، وما لبثت رفيقتي أن أثارت موضوع الجريمتين مجدداً.

"كيف يبدو هذا الرجل يا ترى؟"

فاجأني سؤالها.

"أعـــني، هـــل هو مخبول؟ أم أنه إنسان طبيعي؟ وهل ستتمكنين من التعرّف إليه؟"

بدا أنّ اضطرابي يزعجها.

"هل تستطيعين تمييز ذلك السافل وسط جمهور في دار العبادة؟"

"أتعنين القاتل؟"

"أجل".

"لا أعرف".

ألحّت في متابعة الموضوع: "هل يبدو طبيعياً؟"

"أعتقد هذا. إذا كان الشخص ذاته قد أقدم على قتل هاتين المرأتين، وأنا لست أكيدة من هذا يا **غابي**، فلا شك في أنه منظّم جداً. إنه يخطط جيداً. يخدع كثيرون من القتلة التسلسليين العالم لوقت طويل قبل أن يُلقى القبض عليهم. إنّ كل هذا هو مجرد تخمين، لأنني لست محلّلة نفسية".

وصلنا إلى المكان حيث أوقفتُ سيارتي، فأسرعتُ إلى فتح أبوابها. اقتربت مني على حين غرّة وأمسكتني من ذراعي: "دعيني أريكِ تلك المنطقة".

لم أفهم مقصدها. خانتني سرعة الخاطر. أخذني تفكيري إلى بناية الجسر.

"آه..."

"أعني منطقة الأنوار الحمراء. إنه المشروع الذي أعمل عليه. دعينا نذهب بالسيارة وسأعرّفك إلى الفتيات".

نظرتُ إليها عندما غمرتها أنوار سيارة قادمة. بدا وجهها غريباً نتيجة الإضاءة المتغيرة. تنقّل الضوء عبر جسدها مثل حزمة ضوء مصباح البطارية، فأبرز بعض المعالم وأخفى بعض المعالم الأخرى وراء الظلال. أقنعني تلهفها. نظرتُ إلى ساعتي التي أشارت عقاربها إلى الثانية عشرة وثماني عشرة دقيقة من بعد منتصف الليل.

"حسناً". لم تكن الأمور على ما يرام في الواقع. أعرف أنّ عملاً شاقاً ينتظرني في الغد، لكنها بدت قلقةً كثيراً بحيث لم يطاوعني قلبي على رفض طلبها.

صعدت إلى السيارة وأسرعتْ في إرجاع المقعد إلى أبعد مسافة ممكنة. اكتسبت بعض المساحة الإضافية، لكن ليس بالقدر الكافي.

خيّم الصمت في ما بيننا لدقائق عديدة أثناء قيادتي للسيارة. اتبعتُ تعليماتها واتجهنا غرباً. قطعنا شوارع عديدة ثم انعطفنا جنوباً حتى أصبحنا في **سان إرباين**. استدرنا بالسيارة حول أقصى الطرف الشرقي لحي غيتو **ماك جيل**. يتألف هذا الحي من مزيج من بيوت الطلاب ذات الإيجار المنخفض، والبنايات العالية التي تحتوي شققاً سكنية، بالإضافة إلى بعض المنازل المجددة المشيدة بالحجر الأسمر. انعطفتُ يساراً إلى شارع **سان كاترين** بعد أن اجتزتُ ستة مربعات سكنية. أصبحت منطقة وسط **مونتريال** ورائي. استطعتُ أن أرى خيالات **مجمع ديجاردان**

الـــسكني ومركز الفنون في المرآة الخلفية. بدا لي أنّ زاويتَي المبنيين المتقابلين تقفان وقفة تحدٍ. ظهر تحتهما مجمّع **غاي فافرو السكني وقصر المؤتمرات.**

يتـــراجع وسط **مونتريال** الفخم بسرعة أمام كآبة الجهة الشرقية من المدينة، لكـــن شـــارع **ســـان كاترين** يشهد على الحالتين. يبدأ هذا الشارع من **شارع ويـــستمونت** الغني، ثم يتهادى من خلال وسط المدينة، ويمضي شرقاً باتجاه **بولفار ســـان لوران، وماين**، الخط الفاصل ما بين الشرق والغرب. يحتضن **سان كاترين** كـــلاً مـــن **الفورم، والإيتون، والسبيكتروم.** وتصطف الأبنية العالية والفنادق، بالإضافة إلى المسارح ومراكز التسوق، على جانبي منطقة وسط المدينة. ما إن يصل **ســـان كاترين** إلى **سان لوران** حتى يترك وراءه مجمعات المكاتب والشقق الخاصة، ومراكز المؤتمرات، ومحلات الألبسة، والمطاعم، والحانات المخصصة للعازبين. تبدأ فتيات الليل، والشبان المتسكعون (**البانكس**) بالانتشار ابتداء من هذه النقطة. تمتد مـــنطقة نفوذ هؤلاء باتجاه الشرق، أي من **ماين** حتى قرية الشاذّين. يتقاسم هؤلاء المـــنطقة مع تجار المخدرات، وحليقي الرؤوس. يجازف السواح وسكان الضواحي بالقدوم إلى هذه المنطقة بصفتهم زواراً، ويكتفون بإلقاء نظرة لكنهم يتجنبون التقاء العـــيون. إنهم يشاهدون الجانب الآخر، لكنهم يؤكدون تمايزهم، وهم لا يمكثون طويلاً على أي حال.

ما إن كدنا نصل إلى **سان لوران**، حتى أشارت **غابي** بضرورة الانعطاف إلى الـــيمين. وجدتُ مكاناً أستطيع إيقاف السيارة فيه أمام **لا بوتيك دو سكس**، ثم أطفـــأتُ محـــرك السيارة. تجمعت في الجانب الآخر من الشارع مجموعة من النساء خارج مدخل **فندق غرانادا**. رأيتُ لافتة الفندق التي كتب عليها **غرف سياحية**، لكنني شككتُ في أن يقدم السواح على استئجار مثل هذه الغرف.

قالت: "انظري. تقف **مونيك** هناك".

انـــتعلت **مونـــيك** حـــذاءً عالياً أحمر اللون مصنوعاً من الفينيل، يصل حتى منتـــصف ســـاقها. وارتدت لباساً قابلاً للتمدد، أسود اللون، غطى ردفيها، لكن بعدما وصل إلى أقصى حدوديهما. استطعتُ أن أرى حدود ملابسها الداخلية من خلالـــه، كما رأيتُ كتلةً بارزةً من خلال حاشية بلوزتها المصنوعة من **البوليستر** الأبـــيض. رأيـــتُ قـــرطيها البلاستيكيين يتدليان على كتفيها، وقد شكّلا بقعتين

زهـــريتي اللون وسط شعرها الأسود الفاحم. بدت لي شخصية كاريكاتورية لفتاة ليل.

"هذه **كاندي**".

أشـــارت نحـــو شابة ترتدي سروالاً قصيراً أصفر اللون، وتنتعل حذاء عالي الساقين. أعطتها مساحيق التجميل التي وضعتها شكل بنت هوى حقيقية. بدت لي صـــغيرةً جداً، ما عدا الانطباع الذي تعطيه إياها السيجارة التي تدخنها، ووجهها الذي يشبه وجه مهرّج. كان يُمكنها أن تكون ابنتي.

خُيّل إليّ أنني أمام مشهد مستهلك: "هل تستخدم الفتيات أسماءهن الحقيقية؟"

"لا أعرف. هل كنتِ ستستخدمين اسمكِ الحقيقي لو كنتِ أنتِ؟"

أشارت نحو فتاة تنتعلَ حذاءً رياضياً وسروالاً قصيراً جداً.

"وهذه **بواريت**".

غمرتني موجة من الذهول: "كم يبلغ عمرها".

"تقول إنها في الثامنة عشرة من عمرها، لكنها ربما لم تتجاوز الخامسة عشرة".

اســـترخيتُ في جلـــستي ووضعتُ يديّ على عجلة القيادة. لم أستطِع إلا أن أفكّـــر بقِـــرَدة **الغيبون** خلال تقديمها للفتيات لي واحدةً بعد أخرى. وقفت هذه الفتـــيات على مسافات متقاربة، تماماً مثلما تفعل القِرَدة الصغيرة التي تقسّم الأرض الـــتي تعيش فيها إلى مناطق نفوذ محددة ومتنوعة. تسيطر كل قردة على منطقتها، وتـــستبعد عـــنها بنات جنسها كي تنصرف إلى الإيقاع بشريكها. بدت لي هذه الوقفات المغرية، وكل تلك السخرية والتهكم، طقوساً تمهد للمطارحة، وذلك على طريقة المخلوقات الحية العاقلة. لم يكن الإنجاب من بين أهداف هؤلاء الراقصات.

انتـــبهتُ إلى أنّ **غـــابي** قد توقفت عن الكلام بعد أن انتهت من وصلة تعداد الأسمـــاء. الـــتفتُّ كي انظر إليها. رأيتُها تنظر في اتجاهي، لكنها كانت تنظر إلى البعيد، وركّزت نظرها على شيء ما خارج نافذة السيارة، ولعل هذا الشيء كان خارج عالمي أنا.

"هيا بنا".

قالتها بهدوء شديد، إلى درجة أنني بالكاد سمعتها: "ماذا...؟"

"هيا انطلقي!"

أذهلـــتني شراســـتها. تهيأتُ للرد عليها، لكن نظرة عينيها أقنعتني أن لا أقول شيئاً.

التـــزمنا الـــصمت مجـــدداً أثناء تحرك السيارة. بدت **غابي** غارقةً في أفكارها العمـــيقة، وكأنهـــا انـــتقلت بذهنها إلى كوكبٍ آخر. اقتربنا من منـــزلها، لكنها فاجأتني بسؤالٍ آخر.

"هل اغتُصِبنَ؟"

عدتُ بذاكرتي إلى الوراء كي أتذكر حديثنا. لم أُفلح. إذ فاتني مسار آخر.

"من تقصدين؟"

"النساء".

هل تقصدُ بنات الهوى؟ أم ضحايا جرائم القتل؟

"أي نساء؟"

التزمت الصمت لثوانٍ عديدة، و لم تُجب.

" لم أعد أطيق هذه المهزلة!"

ســـارعت بالخروج من السيارة، وصعدت السلم الحديدي قبل أن أتمكّن من الرد عليها. صفعني العنف الذي حملتُه كلماتها.

5

لم أتلــقَ أي اتــصال مــن **غــابي** على مدى الأسابيع القليلة التالية. لم يــضع **كلــوديل** اسمي على قائمته هو الآخر، ويبدو أنه استبعدني من حلقته. **تعــرفت** على بعض المعلومات التي تخص حياة **إيزابيل غاغنون** عن طريق **بيار لامانش.**

عاشت مع شقيقها وعشيقها في **سان إدوارد**، وهو حيّ الطبقة العاملة، الذي **يقــع** إلى الشمال الشرقي من وسط المدينة. عملت هذه الفتاة في **متجر العشاق**، وهــو متجر يقع على مقربة من **سان دينيز** يتخصص في بيع الملبوسات التي تصلح للجنــسين، بالإضــافة إلى بيع أدوات متنوعة أخرى. يُدعى المتجر **سلايس أوف لايــف** (**شــريحة مــن الحياة**). فكّر الشقيق، الذي يعمل خبّازاً، في هذا الاسم. وجدتُ أنّ المفارقة التي يثيرها الاسم تثير الكآبة.

اخــتفت **إيزابيل** يوم الجمعة في الأول من نيسان. وقال شقيقها إنها اعتادت ارتياد الحانات الموجودة في **سان دينيز**. أضاف أنها تأخرت كثيراً في الليلة السابقة لاخــتفائها، وقال إنه يظن أنها وصلت إلى المنــزل في الثانية فجراً، لكنه لم يتأكد مــن حضورها بالفعل. غادر الرجلان متوجهَّين إلى مكانَي عملهما في وقت باكر من صباح اليوم التالي. قال أحد الجيران إنه رآها في الواحدة من بعد الظهر. وكان يُنتظــر وصولها إلى المتجر في الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم، لكنها لم تصل أبداً. اكتُــشفت بقاياها بعد مرور تسعة أسابيع في **لا غراند سيمينار**. وكانت لم تتعدَ الثالثة والعشرين من عمرها.

ذاتَ مساء، حضر **لامانش** إلى مكتبي في وقتٍ متأخرٍ كي يعرف إذا ما كنتُ انتهيتُ من تحاليلي.

قلـــتُ له: "هناك الكثير من الكسور في الجمجمة. عملتُ كثيراً حتى أعدتُ تركيبها".

"**وي** (نعم)".

تناولتُ الجمجمة من حلقة الفلين التي تحيط بها.

"ضُربت ثلاث مرات على الأقل. هذه هي الضربة الأولى".

أشـــرت إلى فجـــوة صغيرة تشبه الصحن. انتشرت مجموعة من الدوائر ذات المركز المشترك التي انطلقت وبدت مثل حلقات لوحة التدريب على الرمي.

"لم تكـــن الضربة الأولى شديدة بما يكفي لتحطيم جمجمتها، لكنها تسببت بكسرٍ عميقٍ في **اللوحة** الخارجية، ثم ضربها هنا".

أشـــرتُ نحـــو نمط من خطوط الكسور يشبه الانفجار النجمي. بدت هذه مجمـــوعة مـــن الكسور المنحنية وكأنها تتبع نظام المدارات الذي تتبعه الأقمار. إذ تداخلت هذه الخطوط والدوائر مشكّلةً شبكة عنكبوتية من الأضرار.

"هذه هي أكثر الضربات شدةً، وهي التي تسببت بكسرٍ وانسحاقٍ شديدين، فلقد حطّمت جمجمتها".

اســـتغرقت عملـــية إعادة تجميع قطع أجزاء الجمجمة ساعاتٍ طويلة، لذلك بقيت آثار الغراء ظاهرةً على أطراف هذه الأجزاء.

أصـــغى إليّ بانتـــباه شديد، وتنقلت عيناه بإصرار ما بين الجمجمة ووجهي، بحيث ظهرتا وكأنهما تحفرانِ قناةً في الهواء.

"ثم ضربها هنا".

أشـــرتُ باتجاه خط آخر امتد من نظام انفجار نجمي آخر باتجاه الخط الذي أشـــرتُ إلـــيه لتوي. تقدم الكسر الطولي الثاني باتجاه الخط الأول، ثم توقف مثلما يبدو طريق في الريف عندما يصل إلى تقاطع بشكل الحرف T.

"جاءت هذه الضربة لاحقاً. إذ وجدت الكسور الجديدة أمامها حاجزاً مؤلفاً مـــن الكـــسور الموجودة قبلها. ولذلك لم تستطعِ الخطوط الجديدة عبور الخطوط القديمة، وهذا يعني بالضرورة أنّ هذا الكسر قد جاء لاحقاً".

"*وي*".

"يُحتمل أن تكون الضربات قد جاءت من الخلف، وإلى جهة اليمين قليلاً".

"*وي*".

اعتاد على هذا أمامي. إنّ امتناعه عن التعليق من جهته لا يدل على عدم اهتمامه، ولا حتى عدم فهمه، لأن **بيار لامانش** لا يفوته شيء. أشك في أنه احتاج يوماً إلى تفسيرات إضافية. إن ردّه المؤلف من مقطعٍ واحد كان طريقته المفضلة التي يستخدمها من أجل إجبار محدّثه على ترتيب أفكاره. يُحتمل أنه يتخذ هذه الطريقة بمثابة تجربة تمهد لعرض القضية أمام هيئة المحلفين. تابعتُ حديثي.

"عندما تتعرض الجمجمة إلى ضربة قوية فإنها تتصرف مثل البالون. تضغط العظمة، التي تتلقى نقطة الصدمة، باتجاه الداخل مدة ثانية مثلما يحصل في كسرٍ بسيط، ثم تندفع في الاتجاه المقابل. لهذا السبب، لا ينحصر الضرر في المكان الذي تلقّى فيه الرأس ضربته".

تطلعتُ كي أرى ما إذا كان لا يزال يتابعني، فتأكدتُ من متابعته لي.

"تسمح هندسة الجمجمة بأن تنتقل القوى التي سبّبت صدمة قوية ضمن مساراتٍ معينة. إنّ هذا يسمح لنا أن نتوقع انهيار العظمة، أو انكسارها".

أشرتُ في اتجاه الجبهة.

"تستطيع الضربة هنا، على سبيل المثال، أن تتسبب بأضرار في محجري العينين، أو الوجه".

أشرتُ نحو منطقة تقع خلف الجمجمة.

"تتسبب الضربة في هذا المكان بكسورٍ في جانبٍ من قاعدة الجمجمة يمتد حتى الجانب الآخر".

أومأ موافقاً.

"لدينا في هذه الحالة كسرَين صغيرين، وكسراً عميقاً في مؤخر الجزء الأيمن للجمجمة. وجدتُ أيضاً عدة كسورٍ طولية تبدأ من الجهة المقابلة من الجمجمة، وتتجه نحو منطقة الضرر في الجزء الأيمن منها. توحي هذه الكسور أنّ الضحية ضُربت من الخلف، ومن جهتها اليمنى".

قال لي: "ثلاث مرات".

أكّدتُ استنتاجه: "ثلاث مرات".

سألني، رغم معرفته طبيعة جوابي: "هل كانت كافية لقتلها؟"

"يُحتمل هذا. لا أستطيع أن أجزم".

"أتوجد دلالات عن السبب".

"لم نجد رصاصات، ولا علامات تدل على الطعن، ولا كسور أخرى. وجدتُ بعض الجروح الغريبة في العمود الفقري، لكنني لستُ متأكدة تماماً من مغزاها".

"أيحتمل أنها نتجت عن عملية تقطيع الاطراف؟"

هززتُ رأسي: "لا أعتقد هذا، لأنها لا تتواجد في مكانها المفترض".

أعدتُ الجمجمة إلى حلقتها.

"كانت عملية التقطيع نظيفة جداً. لم يكتفِ القاتل بقطع الأطراف، بل فصلها بدقة كبيرة عند المفاصل. هل تذكر قضية **غاغني**؟ أو قضية **فالنسيا**؟"

استغرق في التفكير دقيقة. وأمالَ رأسه، في حركة نادرة منه، إلى جهة اليمين ثم إلى جهة اليسار، مثلما يفعل كلبٌ يتخبط داخل كيسٍ من النايلون.

قلتُ موضحةً: "جاءنا **غاغني**، ربما منذ عامين. كان ملفوفاً بعدة حرامات كانت قد ثُبّتت جيداً بأشرطة لاصقة. نُشرت الساقان وغُلّفت كل ساقٍ على حدة".

تذكّرتُ المصريين القدماء حينها. اعتاد هؤلاء إزالة الأعضاء الداخلية وحفظها قبل عملية التحنيط. كانوا يعمدون بعد ذلك إلى لفّ الأحشاء بشكلٍ منفصلٍ، ثم يضعونها مع الجثة. فعل قاتلو **غاغني** الأمر ذاته بالنسبة لساقيه.

"آه، ***وي***. أتذكّر هذه القضية".

"نُشرت ساقا **غاغني** من تحت الركبة. حصل الأمر ذاته مع **فالنسيا**. قُطعت ذراعاه وساقاه فوق بوصات قليلة من المفاصل، أو تحتها".

"تورط **فالنسيا** في صفقة مخدرات، لكنه انتهى عندنا ملفوفاً بكيس يُستخدم في لعبة الهوكي".

"نُشرت الأطراف في كلتا الحالتين في الأمكنة المناسبة. **أقدم** القاتل في هذه الحالة على فصل المفاصل. أترى؟"

قـــدّمتُ له رسماً. استخدمتُ الرسم التشريحي التقليدي كي أُظهر النقاط التي قُطعـــت فـــيها الجثة. مرّ أحد الخطوط التي رسمتها بالعنق، وقطعت خطوط أخرى مفاصل الكتف، والورك، والركبة.

"فـــصل القاتـــل الرأس بمستوى الفقرة العنقية السادسة، وأزال الذراعين عند مفاصل الكتف، وفصل الساقين عند مفصل الركبة".

تناولتُ عظمة لوحة الكتف اليسرى.

"أترى كيف أحاطت الشقوق بالحفيرة الروحاء؟"

تفحـــص كـــل العلامـــات، ومجموعات الأخاديد المتوازية التي تحيط بسطح المفصل.

اســـتُبدِلت لوحة الكتف بعظمة الحوض: "يُلاحظ الأمر ذاته في الساق. انظر إلى الشِقّ. وصل القاتل حتى داخل المحجر".

تفحّـــص **لامـــانش** الغطاء العميق الذي يحتضن قمة عظمة الفخذ. انتشرت جروح عديدة على جدران هذه العظمة. أخذتُ عظمة الحوض منه وأعطيتُه عظمة الفخـــذ مـــن دون أن أنطق بكلمة واحدة. تميّز عنق هذه العظمة بشقوق متوازية أحاطت به.

تفحّص العظمة لوقت طويلٍ قبل أن يعيدها إلى الطاولة.

"لم ينحـــرف القاتـــل عن قاعدته إلا عند اليدين. عمد هناك إلى القطع من خلال العظام".

عرضتُ عليه عظمة لدليل على ما أقوله.

"غريب".

"أجل".

"أيٌّ من النمطين نستطيع اعتباره نموذجياً؟ هل هو هذا، أم الآخر".

"النمط الآخر. يريد القاتل، عادةً، تقطيع الجثة كي يسهل عليه التخلص منها، وهكذا فإنه يُنهي العملية في أسرع وقت ممكن. يتناول القاتل منشاراً ويبدأ بعملية النشر. أخذ هذا القاتل وقتاً أطول كي يُنجز مهمته".

"مهلاً. ماذا يعني هذا الأمر؟"

فكّرتُ ملياً في هذا السؤال.

"لا أعرف".

لم يتكلم أحدنا على مدى اللحظات القليلة التالية.

"تـــريد العائلـــة اســـترجاع الجثة لدفنها. سأحاول تأخير عملية التسليم قدر اســـتطاعتي، لكن تأكدي من التقاط الصور المناسبة، وجهّزي كل شيء استعداداً لأخذ هذه القضية إلى المحكمة".

"أنـــوي أخذ أجزاء من مكانين مختلفين من الأمكنة التي تظهر عليها علامات الجـــروح. سأتفحصها لاحقاً تحت المجهر لأتأكد من قدرتي على تحديد نوع الأداة المستخدمة".

حرصتُ على انتقاء كلماتي التالية بعناية فائقة، وراقبتُ ردّ فعله عليها.

"إذا تجمّع لديّ القدر الكافي من الدلائل فسأحاول أن أقارن هذه الشقوق مع الشقوق الموجودة في قضية أخرى".

ارتعـــشت زاويتا فمه قليلاً. لا أعرف إن كان قد فعل ذلك نتيجة سروره أو انـــزعاجه. يُحتمل أن أكون قد تخيّلتُ هذه الحركة.

قـــال بعد فترة من الصمت: "أجل. ذكر السيد **كلوديل** هذا الأمر أمامي". نظر إليَّ مباشرة. "قولي لي لماذا تعتقدين أنّ هاتين القضيتين مترابطتان".

أوجزتُ له نقاط التشابه التي لاحظتها ما بين قضيتَي **تروتييه وغاغنون**. يبرز مـــن بين هذه النقاط عملية الضرب، وتقطيع الجثة بعد الوفاة، واستخدام الأكياس البلاستيكية، ورميَ هذه الأكياس في أمكنة منعزلة.

"هل تقع القضيّتان ضمن صلاحيات **وحدة شرطة مدينة مونتريال؟**"

"تقـــع قضية **غاغنون** من ضمن صلاحية هذه الوحدة، أما قضية **تروتييه** فتقع ضمن صلاحيات **أمن كيبيك**، لأن الجثة وُجدت في **سان جيروم**".

تُعتـــبر قضية تحديد مسائل نطاق الصلاحية صعبة في **مونتريال**، مثلما هي الحـــال في بقية المدن. تقع المدينة فوق جزيرة وسط نهر **سان لوران**. لذا، تعالج **وحـــدة شـــرطة مدينة مونتريال** قضايا الجرائم التي تقع فوق الجزيرة ذاتها. أما خارج الجزيرة فصلاحية معالجة الجرائم تعود إلى مراكز الشرطة المحلية، أو **أمن كيبيك**. أعرف أنّ التعاون بين هاتين الوحدتين ليس على المستوى المطلوب في بعض الأحيان.

قـــال لي بعد برهة من الصمت: "أحياناً يكون السيد **كلوديل**..." تردد قليلاً قبل أن يتابع "صعباً. تابعي مقارناتك. وأعلميني إن احتجتِ لشيء".

الـــتقطتُ - في وقـــتٍ لاحق من الأسبوع - عدةَ صورٍ لعلامات الشقوق بواسطة المصوّر المجهري ومن زوايا، وتكبيرات، وتركيزات ضوءٍ متنوعة. قصدتُ أن أحـــصل علـــى تفاصيل تركيبة هذه الشقوق الداخلية. استخرجتُ عدة أجزاء عظمـــية صـــغيرة من أسطح مفاصل عديدة. كنتُ قد خططتُ أن أتفحص هذه الأجـــزاء بالمجهـــر الإلكتـــروني المقطعي، لكنني وجدتُ نفسي غارقةً بالعظام في الأسبوعين التاليين.

فلقـــد اكتشف بعض الصبية الصغار الذين كانوا يتجولون في متنـــزه إقليمي هـــيكلاً عظمياً لا يغطيه إلا القليل من الثياب. واكتُشفت جثة متحلّلة على شاطئ بحـــيرة **سان لوي**. وعلمتُ أيضاً أنّ زوجين تزوجا حديثاً وجدا في قبو منـــزلهما الذي اشترياه حديثاً، صندوقاً مليئاً بالجماجم البشرية التي غُطّيت بالشمع، والدماء، والريش. ووجدت جميع هذه المكتشفات طريقها إليّ.

افترضتُ أنّ البقايا التي وُجدت في بحيرة **سان لوي** تعود إلى رجلٍ مات حينما تعـــرض قاربـــه لحادث في الخريف الماضي، وذلك أثناء عمله بالمنافسة في تهريب السجائر. كنتُ على وشك وضع جمجمته في مكانها عندما جاءني الاتصال.

توقعتُ حصول ذلك، لكن ليس بهذه السرعة الكبيرة. بدأ قلبي بالخفقان وأنا أســـتمع وشـــعرتُ أنّ دمائـــي تغلي في صدري. وأحسستُ أنها تغلي مثلما تفعل زجاجة صودا مكربنة بعد خضّها بشدة. وشعرتُ بحرارة شديدة تجتاحني.

كان **لامانش** يقول: "ماتت منذ أقل من ست ساعات. أعتقد أنه من الأفضل أن تأتي لتلقي نظرة".

6

كانـــت **مارغـــريت آدكينـــز** في الرابعة والعشرين من عمرها، وعاشت مع زوجهـــا الذي تزوجته مدنياً، وابنها الذي يبلغ السادسة من عمره في حيّ سكني يقـــبع في ظلال **الملعب الأولمبي**. كان من المفترض أن تقابل شقيقتها عند العاشرة والنـــصف مـــن ذلك الصباح. اتفقت الشقيقتان على اللقاء عند العاشرة والنصف لتتـــسوقا ســـوياً، ومن أجل تناول غدائهما في وقت لاحق. تخلفت **مارغريت** عن مـــوعدها، و لم تـــردّ على المكالمات الهاتفية بعد أن اتصّل بها زوجها عند العاشرة. وكانـــت قد عجزت عن الرد لأنها قُتلت في وقتٍ ما بين مكالمته إياها وبين المساء، أي عندما اكتشفت شقيقتها جثتها. حدث ذلك منذ أربع ساعات، وهذا هو كل ما نعرفه عنها.

بقـــي **كلوديل** في مسرح الجريمة، بينما جلس زميله، **ميشال شاربونيو**، على أحـــد المقاعد البلاستيكية المصفوفة مقابل الجدار البعيد من جناح التشريح الكبير. عـــاد **لامانش** من مسرح الجريمة منذ أقل من ساعة، وقد صلت الجثة قبله بدقائق معـــدودة. كانت عملية التشريح قد بدأت عند وصولي، وأدركتُ على الفور أنّ جميع الموجودين سوف يضطرون للعمل لساعات إضافية تلك الليلة.

اســـتلقت الـــضحية ووجهها نحو الأسفل، وامتدّت ذراعاها على جانبيها، ولاحظـــتُ أنّ راحـــة يدها كانت موجهة نحو الأعلى بينما أُطبقت أصابع يديها. لاحظـــتُ أيـــضاً أنّ الأكياس الورقية التي وُضعت فوقها سابقاً قد أُزيلت. انتهى فحص أظافرها والخدوش الدقيقة للتو. كانت عارية، وبدا جلدها شمعياً إزاء سطح

الفولاذ اللامع غير القابل للصدأ. انتشرت دوائر صغيرة على ظهرها نتيجة الضغط على فجوات التهوئة الموجودة على سطح الطاولة. رأيتُ عدة شعرات هنا وهناك تلتصق على جلدها، وهي الشعرات التي انفصلت إلى الأبد عن كتلة الشعر المجعدة والمتشابكة التي تحيط برأسها.

بــدت المنطقة الخلفية من شعرها مشوهة بشكلها غير المنتظم، وظهرت مثل رسـم عـشوائي رسمه طفل صغير. تسرّب الدم من شعرها واختلط مع المياه التي اسـتُخدمت لتنظيفها، ثم تجمّع تحت جثتها مؤلفاً بركة شفافة حمراء اللون. انتشر فـستانها الطـويل، وحمّالة صدرها، ولباسها الداخلي، وحذاؤها، وجارباها فوق طاولـة التـشريح المجاورة. تشبعت كلها بالدماء، وخيّمت الرائحة الحادة ثقيلةً في الهـواء. رأيتُ إلى جانب هذه الأغراض كيساً بزمّامة مزوّداً بحزام مطاطي ولفافة معقمة.

كان **دانيال** منهمكاً بالتقاط الصور الفوتوغرافية. رأيتُ المربعات ذات الإطار الأبـيض علـى الطاولة الموجودة قرب **شاربونيو**. لاحظتُ أنّ الصور تتفاوت في درجـة وضوحها. بدأ **شاربونيو** في تفحّص الصور واحدةً تلو الأخرى، ثم أرجع كـل صورة إلى مكانها الأصلي بعناية تامة. لاحظتُ أنه يمضغ شفته السفلى أثناء تفحصّه لهذه الصور.

رأيـتُ موظفاً يرتدي زياً رسمياً من قسم تحديد الهوية أثناء التقاطه صوراً بآلة تـصوير **نـيكون** مـزودة بفلاش يتيح أخذ صورٍ ذات نقاوة عالية حتى في ضوء خافـت. وضعت **ليزا**، التي انضمت حديثاً إلى فريقٍ تقنيي المشرحة، ستارة قديمة الطـراز وراء الجثة. تعود هذه الستارة المعدنية المطلية بسطحها الأبيض، إلى حقبة انتـشر فيها استخدام مثل هذه الأشياء في غرف المستشفيات، بهدف عزل المرضى أثناء القيام بأعمال تحتاج إلى المحافظة على الخصوصية. بدت المفارقة كبيرة بالنسبة إليّ. رحـتُ أتـساءل عـن أي خصوصية يحافظون عليها هنا. لم تعد **مارغريت آدكينـز** بحاجة إلى حماية بعد الآن.

ابـتعد المصوّر عن مكان وقوفه بعد أن التقط عدة صور، ثم نظر إلى **لامانش** متـسائلاً. اقترب أخصائي الأمراض من الجثة وأشار إلى خدشٍ في الجهة اليسرى الخلفية من الكتف.

"هل صوّرتَ هذه؟"

حملــت **ليــزا** بطاقة مستطيلة الشكل فوق الجهة اليسرى من الخدش. حملت الــبطاقة رقــم **مختبرات العلوم الشرعية**، ورقم المشرحة، والتاريخ: 23 حزيران، 1994. التقط **دانيال** و**المصور** صوراً قريبة.

انــشغلت **ليزا**، من جهة **لامانش**، بحلاقة الشعر حول جروح الرأس، ورشّت فــروة الرأس تكراراً مستخدمةً مرذاذاً. بلغ مجموع الجروح التي عملت عليها **ليزا** خمسة. ظهرت على كل جرح من هذه الجروح حواف الشقوق المألوفة التي تسببها الأدوات الحــادة. قــام **لامانش** بقياس طول الجروح وقطرها، فيما التقطت آلات التصوير صوراً قريبة لها.

قال **لامانش** بعد فترة صمت: "أعتقد أننا انتهينا من التصوير من هذه الزاوية. اقلبوها على الجانب الآخر من فضلكم".

تقــدمت **ليــزا** خطوة، فحجبت الرؤية عني برهةً قصيرة. أزاحت الجثة إلى أقــصى جهــة يــسار الطاولة، وقلبتها إلى الخلف قليلاً، ثم قرّبت الذراع اليسرى ووضــعتها فوق منطقة المعدة. ساعدها **دانيال** في قلب الجثة على ظهرها. سمعتُ صــوت ارتطــامٍ ناعم عندما سقط الرأس على سطح الفولاذ غير القابل للصدأ. رفعت **ليزا** الرأس ثم وضعت كتلةً مطاطيةً تحت الرقبة وتراجعت إلى الخلف.

رأيت مشهداً زاد من سرعة جريان دمي، أي مثلما يحدث مع زجاجة صودا موجودة في صدري، وما لبث أن انفجر فيه بركان من الخوف.

رأيــتُ **مارغريت آدكينــز** مشقوقةً من عظمة صدرها حتى عظام عانتها. ظهــر شق حاد من عظام القص نــزولاً، مظهراً في طريقه ألوان الأحشاء المقطّعة وأنــسجتها. اســتطعتُ أن أرى الغمد اللامع، الذي يحيط بعمودها الفقري، في المنطقة العميقة من الشق أي في الأمكنة التي انتُزعت الأعضاء منها.

انــتقلتُ ببصري إلى الأعلى فوراً، وأبعدتُه عن القسوة الفظيعة التي رأيتُها في بطن الضحية. لم أجد هناك أي عزاء لي. رأيتُ الرأس مائلاً قليلاً، وقد بان وجهها مثل وجه شبح نتيجة أنفها المقلوب، وذقنها المدبب. رأيتُ خدّيها البارزين اللذين انتــشر الــنمش فيهما. تناقضت – في ميتتها – بقع النمش الدقيقة البنية اللون مع اللــون الأبــيض الــذي يحيط بها. ذكّرني شعرها البني القصير بمنظر **بيبــي لونغ**

ستوكينغ. لم ترتسم أي ضحكة على فمها الصغير. بدا مفتوحاً إلى آخر حدٍّ له وبرز منه ثدي الضحية المقطوع، بينما استراحت حلمة هذا الثدي فوق شفتها السفلى الدقيقة.

رفعتُ رأسي فالتقت عيناي بعينَي **لامانش**. بدت لي الخطوط الموازية لعينيه أعمق من المعتاد. لمحتُ ما يشبه التوتر في جفنيه السفليين، التوتر الذي تسبب بتحرك بسيط في الهلالين الموجودين تحتهما. رأيتُ الحزن فيهما، لكنني ربما رأيتُ شيئاً أعمق من الحزن.

لم يقل **لامانش** شيئاً بل تابع التشريح، مركزاً تارةً على الجثة، وتارة أخرى على لوحة الكتابة. سجل كل المظاهر الوحشية التي شاهدها، ووصف موقعها وأبعادها. فصّل أيضاً كل جرحٍ وكل إصابة. التُقطت صور للجثة من الجهة الأمامية أثناء انهماكه بالعمل، أي مثلما صُوِّرت من الخلف. اكتفينا بالانتظار، بينما انشغل **شاربونيو** بتدخين سجائره.

انتهى **لامانش**، بعد فترةٍ خلناها دهراً، من الفحص الخارجي.

"حسناً. خذوها للتصوير الشعاعي".

نزع قفازيه الطبيين، وجلس قبالة الطاولة، ثم انحنى فوق لوح كتابته مثلما يفعل رجل عجوز أمام مجموعة طوابعه.

دفعت **ليزا** بمساعدة **دانيال** عربةً مدولبةً من الفولاذ الذي لا يصدأ وأوقفاها إلى يمين طاولة التشريح، وقاما بنقل الجثة بكل تجرد ورشاقة مهنيين، ثم ابتعدا بعربتهما إلى قسم التصوير الشعاعي. انتقلتُ بصمت إلى الجهة الأخرى، وجلستُ على المقعد المجاور لمقعد **شاربونيو**. نهض قليلاً، ثُم أومأ باتجاهي وابتسم قبل أن يسحب نفثةً كبيرةً من سيجارته، ويطفئها.

"كيف تسير الأمور يا **دكتورة برينان**؟"

اعتاد **شاربونيو** أن يحدثني بالإنكليزية مفاخراً بفصاحته، لكن حديثه كان مزيجاً غريباً من اللهجتين **الكيبيكية والجنوبية**. اكتسب لهجته هذه نتيجة تمضيته لطفولته في **شيكوتيمي**، والتي أثّرت عليها سنتان من العيش في حقول النفط في شرق تكساس.

"إنها تسير سيراً حسناً، وأنت؟"

"إنها على ما يرام". هزّ كتفيه بطريقة لا يتقنها إلا الذين يحبون فرنسا، وتتميّز بإحناء الكتفين قليلاً، ورفع راحتَي اليدين.

يمتلك **شاربونيو** وجهاً ودياً وشعراً أشيَب خشن الملمس يذكّرني دوماً بحقلٍ كاملٍ من شقائق النعمان. كان رجلاً ضخماً، لكن رقبته كانت كبيرة وغير متناسبة مع جسمه. حافظ الرجل على ياقاته ضيقةً. لاحظتُ أنّ ربطات عنقه كانت مطويةً ومائلةً قليلاً إلى إحدى الجهتين، أو أنها غير مربوطة ومتدلية إلى أسفل الزر الأول من القميص، وكأنه يفعل هذا كي يعوّض عن عدم التناسب في جسمه. أعرف أنه كان يعمد إلى إرخائها منذ الصباح الباكر، ولعله فعل ذلك من أجل جعل المحتّم يبدو متعمداً، أو لعله أراد فقط أن يكون مرتاحاً. لم يحاول **شاربونيو** ارتداء زي جديد كل يوم، أي أنه كان على عكس رجال تحري **وحدة شرطة مدينة مونتريال.** لا أعرف، لعله كان يفعل ذلك، لأنه ارتدى اليوم قميصاً بلون الأصفر الشاحب، وسروالاً مصنوعاً من البوليستر، وسترةً رياضيةً خضراء اللون، أما ربطة عنقه فكانت بنية اللون.

نهض كي يتناول مظروفاً أسمر اللون عن الطاولة، وسألني: "هل رأيتِ صور المجزرة؟"

"ليس بعد".

تناول رزمةً من الصور الفورية وناولني إياها: "إنها الصور الاحتياطية التي جاءت اليوم مع الجثة".

أومأتُ وبدأتُ بتأمل الصور. راقبني **شاربونيو** عن كثب. يُحتمل أنه توقع أن أذهل من مشاهد المجزرة، ثم يمكنه عندها أن يبلغ **كلوديل** أنني اضطررتُ إلى إغماض عينيّ، ولعله كان مهتماً فعلاً برد فعلي.

وجدتُ أنّ الصور في المظروف موضوعة حسب ترتيبها الزمني. نجحت هذه الصور في تكوين صورةٍ لمسرح الجريمة كما وجده الفريق المختص. أظهرت الصورة الأولى شارعاً ضيقاً تصطف على جانبيه بنايات قديمة لكنها نظيفة، وتتألف الواحدة منها من ثلاثة طوابق. رأيتُ صفوفاً متوازيةً من الأشجار تحيط بكل رصيف على كل جانب. غطّت أسفل جذوع هذه الأشجار مربعات ترابية صغيرة محاطة بالإسمنت. وظهرت أمام كل بناية باحة صغيرة مستطيلة الشكل يخترقها ممر

صغير يؤدي إلى درج معدني شديد الانحدار. لاحظتُ وجود درّاجات هوائية ثلاثية الدواليب تسدّ الممر الصغير هنا وهناك.

ركّزت الصور الثلاث التالية على المنظر الخارجي لثلاثة مبانٍ مشيدة بالقرميد الأحمر. لفتت انتباهي بعض التفاصيل. ظهرت لوحات معدنية فوقَ بابَي شقتين في الطابق الثاني، يحملان الرقمين 1407 و1409. قام أحدهم بزرع أزهار تحت إحدى نوافذ الطابق الأرضي الأماميّ. استطعتُ أن أميّز ثلاث زهرات مخملية متقاربة، لكنها ذاوية. بدت رؤوسها الصفراء الضخمة والذابلة متدلية بشكل أقواس متماثلة. تُركت وحدها بعد أن أزهرت. لاحظتُ وجود دراجة هوائية تستند إلى سياجٍ حديدي طاله الصدأ، وهو السياج الذي يحيط بالباحة الأمامية الصغيرة. بدت لوحة معدنية صدئة ملقاة على الأرض، وشكّلت زاوية مع العشب. كانت قريبةً جداً من الأرض وكأنها تحاول إخفاء ما كُتب عليها: **للبيع**.

بدت تلك البناية شبيهة بالبنايات المجاورة لها التي تصطف على جانبَي الشارع، رغم المحاولات التي بُذلت من أجل جعلها تبدو مختلفة. كان يوجد في هذه البناية السلّم الحديدي، والشرفة، والأبواب المزدوجة، والستائر المطرزة ذاتها التي توجد في البنايات الأخرى. رحتُ أتساءل: لماذا هذه البناية بالذات؟ ولماذا اختارت الفواجع هذا المكان بالذات؟ ولماذا لم تحلّ هذه الفواجع بالبناية رقم 1405 مثلاً؟ أو في الجهة المقابلة من الشارع؟ أو في مكان أبعد من الحي؟

تابعتُ تأمّل الصور واحدة تلو الأخرى. بدا الأمر وكأنني أتأمل في مجهر، وتنقلتُ من درجة تكبير إلى درجة أكبر. أظهرت المجموعة التالية الشقة من الداخل. بدت التفاصيل التي حملتها هذه المجموعة مثيرةً للاهتمام. لاحظتُ أنّ الغرف صغيرة، وأثاثها من النوع المتواضع. رأيتُ جهاز التلفزيون، الذي لا بد من وجوده في كل منزل. وظهرت غرفة المعيشة، وغرفة الطعام. بدت أيضاً غرفة الأولاد، والتي حملت جدرانها صوراً تمثل لعبة **الهوكي**. رأيتُ كتاباً ملقىً فوق سرير مفرد. حمل الكتاب عنوان: ***كيف يسير العالم***. شعرتُ بوخزة ألمٍ أخرى. شككتُ أن يستطيع الكتاب تفسيرها.

أحبت **مارغريت آدكينز** اللون الأزرق. إذ انتشر اللون الأزرق في كل مكان. حملت الأبواب وكل قطعة من قطع الأثاث اللون الأزرق اللامع.

جـــاءت أخـــيراً صورة الضحية. استلقت الجثة في غرفة صغيرة تقع إلى يسار المـــدخل الأمامي. ظهرت من خلال الأبواب غرفة نومٍ ثانية، وظهر المطبخ أيضاً. اســـتطعتُ أن أرى مـــن خـــلال باب المطبخ طاولة من الفورمايكا، ومجموعة من الحـــصائر البلاســـتيكية. احـــتوى المكان الضيّق الذي ماتت فيه **آدكينـــز** جهاز تلفزيون، وأريكة، وخزانة صغيرة. وتوسطت جثتها كل هذه الأشياء.

اســـتلقت على ظهرها منفرجة الساقين. لاحظتُ أنّ الضحية كانت بكامل ثـــيابها، لكـــن القسم الأعلى المنـــزوع من فستانها غطى وجهها. رأيتُ معصميها مقيّدين فوق رأسها بطوقٍ من بلوزتها، بينما ظهر مرفقاها وتدلت يداها الهزيلتان. بدت في هذا الوضع مثل راقصة باليه مبتدئة أثناء تقديمها لحفلتها الأولى.

انفتح الجرح البليغ في صدرها، وظهر اللحم المجبول بدمائها، ولم تحجبه قليلاً إلا ظلمة الفيلم التي تحيط بالجثة، وبدا أنّ هذه الظلمة تطغى على كل شيء. رأيتُ إشـــارة مربع قرمزي في المكان الذي انتُزع منه ثديها الأيسر، وظهرت حواف هذا الـــثدي نتيجة الجروح المتعاقبة، وهي الجروح التي تتقاطع عامودية عند الزوايا، أي زوايا تسعين درجة. ذكّرني الجرح بالثقوب التي رأيتها على جماجم **المايا** القدماء. لم يعمـــد القاتل إلى هذا النوع من التشويه من أجل تخفيف حدة ألم الضحية، أو من أجـــل طرد أرواح مفترضة من جسدها. وإذا كانت هناك روح حبيسة في جسدها قـــد تحـــررت، فمن المؤكد أنها لم تكن روحها. استُخدمت **مارغريت آدكينـــز** بمثابة معبرٍ سعت بواسطته روح غريبة معذبة وراء الخلاص.

أقـــدم أحـــد الأشخاص على سحب نهاية فستانها كي يغطي ركبتيها، وبدا خـــصر الفستان المطاطي مشدوداً جداً. وتقاطرت الدماء ما بين ساقيها وتجمعّت تحتها. ماتت الضحية مرتدية جاربيها ومنتعلةً حذاءها الرياضي.

أرجعتُ، بصمت، الصور الفوتوغرافية إلى مكانها وناولتُ **شاربونيو** المظروف.

سألني: "إنها صورٌ مقززة، أليس كذلك؟" أزال شيئاً صغيراً عن شفته السفلى. تفحّصهُ ثمّ رماه بعيداً.

"أجل".

قـــال وهو يهز رأسه: "يظن هذا المغفل أنه جرّاح لعين. حمل سكاكينَ حادة النصل".

كنتُ أهّيأ للرد عندما عاد **دانيال** حاملاً صور الأشعة السينية، وبدأ بوضعها علـــى لـــوحة الضوء المثبتة على الجدار. أصدرت كل صورة خلال انثنائها في يده صوتاً يشبه قصف الرعد البعيد.

تفحصنا هذه الصور بالتتابع، وتنقلت نظرتنا الجماعية من اليسار إلى اليمين، ومن رأسها حتى قدميها. أظهرت الصور الأمامية والخلفية للجمجمة وجود كسور عديـــدة. بقيت مناطق الكتفين، والذراعين، والقفص الصدري، طبيعية. لم نلاحظ أي شيء غير اعتيادي حتى وصلنا إلى صورة بطنها وحوضها. رأى الجميع محتوى الصورة في وقتٍ واحد.

قال **شاربونيو**: "يا للسماء!"

"بحق الله!"

"يا للفظاعة!"

توهج شكلٌ بشريٌّ صغيرٌ في أعماق بطن **مارغريت آدكينـــز**. حدّقنا جميعاً، صامتين، في هذه الصورة. لم نجد سوى تفسيرٍ واحد. حُشر هذا الجسد الصغير من خـــلال المهبل، ثم دُفع باتجاه الأحشاء بقوةٍ تكفي لإخفائه تماماً عن النظر. شعرتُ لـــدى رؤيتي هذا المنظر وكأن مسعراً ساخناً قد طعنني في أحشائي. وضعتُ يدي على بطني بصورةٍ عفوية، بينما تسارعت دقات قلبي بين أضلعي. حدّقتُ بالصورة جيداً، فرأيتُ تمثالاً.

تـــواجد ذلـــك الشيء ضمن عظام الحوض العريضة، فبدا في تناقضٍ حاد مع الأعضاء التي وُضع بينها. أحاطت الألوان الرمادية العائدة إلى أمعاء الضحيّة بذلك الـــشيء العـــاري الأبـــيض اللون. برزت إحدى قدميه إلى الأمام، بينما مدّ يديه الاثنـــتين. بدا لي أنّ هذا الشيء ما هو إلا تمثال. لاحظتُ أنّ رأس التمثال قد انحنى قليلاً، فظهر مثل تمثال **فينوس**.

لم يـــتفوه أحد بأي كلمة في اللحظات القليلة التالية. فقد خيّم الصمت التام على الغرفة.

قـــال **دانـــيال** أخيراً: "سبق لي أن رأيتُ هذه الصور". أرجع نظارته إلى أرنبة أنفه بحركة سريعة. واجتاحت ملامحه تشنجات عفوية، فظهر وكأنه لعبة مطاطية.

عُدنا جميعاً إلى تفحص ذلك الشيء المعتم في صورة الأشعة السينية. بدا لي أن تلك العتمة تزيد من حدة الجرم، وتجعلها أكثر بذاءة.

قـــال **شـــاربونيو**: "يـــبدو ذلـــك اللعين لقيطاً مريضاً بالفعل". نسي رجل التحقـــيقات الجنائـــية هذا كل ما تدرّب عليه من حيادية بسبب الظروف العارمة للّحظة الراهنة.

فاجـــأتني لهجته العنيفة. لم أكن متأكدة ما إذا كانت تلك الوحشية وحدها هـــي التي أثارت أمراً ما في أعماقه، أم أنّ طبيعة هذا الشيء هي التي أسهمت برد فعلـــه هذا. نشأ **شاربونيو**، بالتأكيد، في طفولته وسط بيئة تقليدية، مثله مثل غالبية **الكيبيكـــيين**، أي أنّ إيقاع الحياة التقليدية تحكّم في حياته اليومية. إننا نحافظ على تقديرنا الشديد لهذه التقاليد، رغم تخلي معظمنا عن هذه المظاهر. يستطيع الإنسان أن يـــرفض ارتداء عباءة من دون أكمام، لكن ذلك لا يعني أنه مستعد لإحراقها. إنـــني أفهم هذا الوضع. أعيش في مدينة غريبة، وأتكلم لغة غير لغتي، لكنني أنتمي، مع ذلك، إلى القبيلة. وترفض المشاعر المتأصلة الموت بسهولة.

مـــرت فتـــرة صمت طويلة أخرى. أخيراً تكلم **لامانش**، لكنه اختار كلماته بعناية. لم أكن متاكدة ما إذا كان قد استوعب العواقب الكاملة لما نشاهده أمامنا. عبّـــر الرجل عن أفكاري بشكلٍ كاملٍ رغم أنه استخدم نبرة ألطف من تلك التي كنت سأستخدمها لو تكلمتُ بنفسي.

"ســـيّد **شـــاربونيو**، أعـــتقد أنك وزميلك بحاجة للاجتماع معي والدكتورة **بـــرينان**. أنـــا متأكد من أنك تعرف بوجود بعض المظاهر المقلقة في هذه القضية، وبعض القضايا الأخرى".

توقف قليلاً ليتيح لنا وقتاً كي نستوعب كلامه، وكي يستشير روزنامته الذهنية.

"أريـــد نتائج هذا التشريح في وقتٍ لاحقٍ الليلة، لأن غداً هو يوم عطلة. هل يناسبكم أن نجتمع صباح الاثنين؟"

نظـــر التحري تجاهه، ثم نظر نحوي. بدا وجهه خالياً من أي تعابير. لم أعرف ما إذا كـــان قـــد فهم ما يقصده **لامانش**، أم أنه لم يعرف فعلاً بوجود حالات أخرى. أعـــرف أنه من المستغرب أن يتجاهل **كلوديل** ملاحظاتي من دون أن يأتي على ذكرها إلى زميله. وإذا كان الأمر كذلك فلا يستطيع **شاربونيو** أن يقرّ بجهله بها.

"أجل. حسناً. سأحرص على بذل كل ما بوسعي".

ركّز **لامانش** عينيه الحزينتين على **شاربونيو** وانتظر لبرهة.

"حسناً. حسناً. سنكون هنا. الأفضل لي الآن أن أخرج إلى الشارع وأبدأ بالبحث عن هذا النذل. إذا جاء **كلوديل** أخبره أنني سألتقيه في المركز قرابة الثامنة".

بدا مضطرباً. لم يتمكن من التحدث بالفرنسية مع **لامانش**، وتأكدتُ من أنه سيتحدث مطولاً مع زميله.

استأنف **لامانش** عملية التشريح قبل أن يغلق **شاربونيو** الباب وراءه. كانت بقية العملية عملاً روتينياً. فُتح الصدر بشق يماثل الحرف Y. انتُزعت الأعضاء الداخلية، وتم وزنها، وتقطيعها وفحصها. حُدِّد موقع التمثال، وتم تقييم الأضرار ووصفها. استخدم **دانيال** مبضعاً كي يقطع جلد فروة الرأس، ثم انتزع الوجه وأبعده قليلاً إلى الأمام، ثم انتزع فروة الرأس وأبعدها قليلاً إلى الخلف. عمد بعد ذلك إلى انتزاع جزء من أعلى طاقية الرأس مستخدماً منشار **سترايكر**. تراجعتُ خطوةً إلى الوراء. أمسكتُ أنفاسي لأن الهواء امتلأ بأزيز المنشار، ورائحة العظام المحترقة. كان الدماغ سليماً من الناحية التركيبية. تعلّقَت بسطحه كراتٌ هلاميةٌ هنا وهناك، فظهر مثل قنديل بحرٍ أسود اللون فوق كرة رمادية ملساء نتيجة الضربات التي تلقتها الضحية على رأسها.

عرفتُ ما سيكون عليه جوهر تقرير **لامانش**. سيلحظ التقرير أنّ الضحية كانت شابة تتمتع بصحة جيدة، أي أنها لا تعاني من أي عللٍ، أو علامات تدل على أمراض. بقي ذلك صحيحاً حتى ضربها أحدهم على رأسها بقوةٍ كافيةٍ كي تكسر جمجمتها. بدأت الأوعية المخيّة بنزف الدماء إلى دماغها. ضُربَ رأس الضحية خمس مرات على الأقل. عمد القاتل بعد ذلك إلى إدخال تمثالٍ في مهبلها. تسبب هذا في انتزاع أحشائها جزئياً، ثم قُطِع ثديها.

اجتاحتني قشعريرة حينما رحتُ أفكّر بمحنتها. فالجروح التي أصيب بها مهبلها كانت خطرةً جداً. فقد نزفت الكثير من الدماء في تلك المنطقة، لأن التمثال أُدخل بينما كان قلبها ما زال ينبض، أي عندما كانت حية.

"...أبلغي **دانيال** ما تريدينه يا **تمبرنس**".

لم أكـــن أصغي إليه. أعادني صوت **لامانش** إلى الحاضر. كان قد انتهى من عملــه، فاقتــرح عليّ أخذ عيّنات العظام التي سأفحصها لاحقاً. أُزيلت في وقتٍ سابقٍ من عملية التشريح، عظمة القص والأجزاء الأمامية للأضلاع، لذلك أبلغت **دانيال** بضرورة إرسالها إلى الطابق العلوي من أجل تغطيسها وتنظيفها.

اقتربتُ من الجثة ونظرتُ إلى التجويف الصدري. لاحظتُ عدداً من الجروح الصغيرة التي تنتشر على العظام الفقرية الواقعة في الجهة العليا من البطن. بدت هذه الجروح مثل آثارٍ من الشقوق الدقيقة في الغمد الصلب الذي يغطي العمود الفقري.

"أريـــدكَ أن تنتـــزع الفقرات من هذا المكان إلى هنا. أريد الأضلاع أيضاً".

أشـــرتُ إلى ذلـــك الجزء الذي يحتوي على الجروح. "أرسِلها إلى **دينيز**. قل له أن يغطّسها، لكن من دون أن يغليها. كن حريصاً جداً عند إزالتها. لا تمرّر عليها أي نوعٍ من السكاكين".

أصـــغى إليّ رافعاً يديه اللتين غطاهما بقفازيه الطبيين. تحرّك أنفه وشفته العليا عندما حاول تعديل وضعية نظارته. وأومأ موافقاً مرات عديدة.

نظر إلى **لامانش** عندما انتهيتُ من الحديث معه.

سألَ: "هل أخيط الجرح؟"

ردّ **لامانش**: "نعم، لكن بعد أن تنتهي".

بـــدأ **دانـــيال** عملـــه على الفور. فأزال أجزاء العظام، ثم شرع في إعادة الأعـــضاء وخـــتم الجزء الأوسط من الجثة. سيعمد في النهاية إلى إرجاع أعلى طاقـــية الرأس إلى مكانها، وإعادة الوجه إلى مكانه، ثم سيقوم بخياطة الجوانب الممزقة من فروة الرأس. ستبدو **مارغريت آدكينـــز** سليمة ما عدا الدرزة التي أخذت شكل الحرف Y، التي تبدو من جهتها الأمامية. ستكون **مارغريت** بعد قليل جاهزة لعملية الدفن.

عـــدتُ إلى مكتبي وقد صمّمتُ على استجماع معنوياتي قبل أن أقود سيارتي متجهةً إلى المنـــزل. وجدتُ الطابق الخامس مهجوراً بالكامل. أدرتُ مقعدي كي أســـتطيع وضـــع قدميّ على حافة النافذة، ثم تطلعتُ إلى النهر الواسع الذي أعتبره عالمـــي. ظهر مجمّع **مايرون** من جهتي مماثلاً لمنشأة **ليغو**. يحتوي المجمّع السكني على بـــنايات رمادية غريبة متصلة بممرات شبكية فولاذية. رأيتُ خلف معمل الإسمنت

قارباً يتحرك ببطء باتجاه أعلى النهر، لكن ظلال الغسق الرمادية حجبت قليلاً أنوار هذا القارب المتباعدة.

بـــدت البـــناية ساكنةً تماماً، لكن هذه السكينة المخيفة عجزت عن تهدئتي. كانـــت أفكـــاري حالكة مثل مياه النهر تماماً. تساءلتُ لفترةٍ وجيزةٍ ما إذا كان شـــخصٌ مـــا في المـــصنع ينظر إليّ. قد يكون هذا الشخص وحيداً مثلي، ومتوتر الأعصاب مثلي، نتيجة ساعات العمل الإضافية المليئة بالعزلة، والتي تتردد أصداؤها في هذه البناية الفارغة التي تضم مكاتب عديدة.

وجـــدتُ صعوبة كبيرة في استسلامي للنوم، مع أنني استيقظتُ عند الساعة السادسة والنصف صباحاً. لا بد أنني كنتُ متعبة جداً، لكنني شعرتُ بالتوتّر أيضاً. انـــشغلتُ بشرود بالعبث في حاجبي الأيمن، وهي الحركة التي لطالما أثارت زوجي كـــثيراً. ولم يفلحْ نقده لي على مدى الأعوام في دفعي إلى الإقلاع عن هذه العادة. أدركتُ أنّ الانفصال يمتلك حسناته أيضاً. أستطيع الآن أن أتململ قدر ما أشتهي.

عـــدتُ بخـــيالي إلى **بيتي**. تذكّرتُ آخر عام لنا معاً. وظهر أمامي وجه **كاتي** عندما أخبرناها عن انفصالنا. ظننا أنّ الأمر لن يشكل صدمةً كبيرةً لها، لأنها كانت بعـــيدةً عـــنا في جامعتها. وكم كنا مخطئين. كادت دموعها تدفعني للرجوع عن قراري. برزت أمامي يدا **مارغريت آدكينـــز** المنقبضتان نتيجة الموت. لقد لوّنت أبـــوابها باللون الأزرق بتلك اليدين، وعلّقت أيضاً لوحات ابنها. أخذتني أفكاري إلى القاتل. هل هو هناك الآن؟ هل يستمتع يا ترى بما فعلته يداه اليوم؟ وهل أشبع تعطشه للدماء، أم أنّ حاجته للقتل قد تزايدت نتيجة فعلته هذه؟

رنّ هاتفـــي قاطعـــاً السكينة المخيمة مثلما يفعل انفجار صوتيّ. انتشلني هذا الصوت من ذلك الكهف الشخصي الذي وجدتُ نفسي داخله. أجفلتُ إلى درجة أنـــني قفزتُ لا شعورياً، وقلبتُ حاملةَ الأقلام بمرفقي، فتطايرت أقلام الحبر **البيغ والسكربتو** في الهواء.

"**دكتور برينا...**"

"**تمـــب**. أوه، شـــكراً لله! حاولتُ الاتصال بشقتك، لكنكِ لم تكوني هناك، بالطـــبع". بدت ضحكتها عميقة، لكنها متوترة. "فكّرتَ في تجربة حظي مع هذا الرقم. لم أظن فعلاً بأنك ستردّين عليه".

عـــرفتُ صوتها، لكن الصوت اكتسب ميزةً لم أعرفها من قبل. جاء الصوت مفعمـــاً بالحـــزن، لكنه انساب عالياً بإيقاعات متشابكة. اندفعت كلماتها نحوي متقطعةً ويائسةً، مثل همسة تنساب مع زفير حاد. شعرتُ مجدداً بتوترٍ في أعماقي.

"لم أسمع صوتكِ منذُ ثلاثة أسابيع يا **غابي**. لماذا لم..."

"لم أستطعِ الاتصال بك. تورّطتُ بأمرٍ يا **تمب**. أحتاج إلى المساعدة".

سمعـــتُ خشخـــشةً ناعمةً وما يشبه الاحتكاك عبر خط الهاتف عندما نقلت الـــسمّاعة من مكانها. استطعتُ أن أسمع الأصوات المكتومة المنبعثة من مكان عام. سمعتُ معها أصواتاً مكتومةً، لكنها متقطعةً بالإضافة إلى رنين معدني. تخيلتُها تقف في كـــشك هاتـــف عمومي، وقد انشغلت في تفحّص ما يحيط بها. تخيلتُ عينيها المتعبتين على الدوام، اللتين تبثّان الخوف، مثلما كان يفعل **راديو أوروبا الحرة**.

"أيـــن أنتِ؟" تناولتُ قلماً من حافظة الأقلام الموجودة على طاولتي، وبدأتُ بتحريكه دائرياً.

"أنـــا موجـــودة في مطعم يدعى **لا بيل بروفنس**. يقع هذا المطعم على زاوية تقاطـــع شـــارعَي **سانت كاترينا وسان لوران**. لا أستطيع الخروج يا **تمب**. تعالي واصطحبيني معك".

زادت الخشخشة، وأصبحت **غابي** أكثر توتراً.

"كان يومي طويلاً جداً هنا يا **غابي**. أنتِ تتواجدين على بعد مجمّعات سكنية قليلة من شقتك. ألا تستطيعين..."

"إنـــه عازمٌ على قتلي! لا أستطيع التحمّل أكثر. ظننتُ أنني أستطيع التحمّل، لكنني لا أستطيع. لا أستطيع أن أحميه بعد الآن. يتعيّن عليّ أن أحمي نفسي. إنه لا يتصرف تصرفاً سليماً، كما أنه أصبح خطِراً. إنه مجنون تماماً!"

استمر صوتها بالارتفاع بشكل ثابت حتى وصل إلى أعلى درجات الهستيريا. وتوقـــف الـــصوت فجـــأةً. زادت وطأة هذا التوقف عندما تحوّلت إلى الحديث بالفرنسية. توقفتُ عن العبث بالقلم ونظرتُ إلى ساعتي. أشارت عقاربها إلى 9:15 مساءً. اللعنة!

"حـــسناً. ســـأكون عندك في غضون خمس عشرة **دقيقة**. **انتظري** وصولي. سأصل من ناحية شارع **القديسة كاثرين**".

تسارعت دقات قلبي وارتعشت يداي. أقفلتُ باب مكتبي، وهرعتُ - رغم تعـــبي الشديد - في ما يشبه الركض نحو سيارتي. أحسستُ وكأنني احتسيت ثمانية أكواب من القهوة.

7

أخذتني مشاعري إلى أماكن بعيدة أثناء قيادتي للسيارة. كانت الظلمة قد أرخت سـدولها، لكن المدينة كانت مضاءةً بالكامل. توهجت نوافذ الشقق بالأضواء في الحي الـشرقي من المدينة، وهو الحي الذي تتواجد وسطه أبنية **أمن كيبيك**، واستطعتُ أن أرى أجهزة التلفزة المضاءة هنا وهناك مخترقةً بأضوائها عتمة هذه الليلة الصيفية. جلس كـثيرون في شرفاهم، أو في شرفات مداخل منازلهم. تحلق هؤلاء في الخارج تلبيةً لنداء اللـيالي الصيفية الدافئة، وتبادلوا الأحاديث وارتشفوا المشروبات الباردة. لقد خرجوا كي يستبدلوا حرارة الظهيرة الشديدة ببرودة المساء المتجددة.

تمنـيتُ أن أشـاركهم جلستهم البيتية هذه، لكنني تمنيتُ فقط أن أتوجه إلى منـزلي، وأن أتقاسم شطيرةً من لحم سمك التونا مع بيردي، ثم أستسلم للنوم بعد ذلـك. أردتُ أن أتأكد من أن **غابي** بخير، لكنني أردهما أن تتوجه إلى بيتها بسيارة أجرة. خشيتُ في الواقع أن أتعاطى مع حالة الهستيريا التي تعاني منها. ارتحتُ كثيراً عـندما سمعتُ صوهما، لكنني خفتُ على سلامتها. شعرتُ بالقلق لاضطراري أن أذهب إلى **ماين**. لم يكن هذا المزيج من المشاعر مزيجاً مريحاً.

سـرتُ عـن طريق شارع **رينيه لافيسك** ثم استدرتُ إلى اليمين فأصبحت **شـايناتاون** (الحي الصيني) ورائي. استعد ذلك الحي للإقفال في نهاية اليوم. رأيتُ آخر مالكي المحلات وهو يُدخل صناديقه وأدوات عرض بضائعه إلى الداخل.

امـتد شـارع **ماين** شمالاً أمامي، بدءاً من **الحي الصيني**، ومتوازياً مع **بولفار سـان لـوران**. يُعتـبر **شارع ماين** مركزاً للمحلات والمطاعم الصغيرة، والمقاهي

الرخيصة، بينما يُعتبر **سان لوران** شريانه التجاري. ويتفرع هذا الشارع من هناك إلى شبكة من الشوارع الخلفية الضيقة، والتي تكتظ بالشقق الصغيرة التي تتميّز بإيجاراتها الرخيصة. بقي **شارع ماين** خليطاً ثقافياً رغم طابعه الفرنسي. إنه المنطقة التي تتعايش فيها مختلف اللغات والجاليات العرقية، لكنها تعجز عن الاختلاط في ما بينها. تشبه حالتها هذه حالة الروائح المتنوعة التي تنطلق من عشرات المحلات والمخابز الموجودة فيه. تتجاور على جانبَي هذا الشارع المحلات الإيطالية، والبرتغالية، واليونانية، والبولندية، والصينية، وتمتد صعوداً معه من المرفأ حتى الجبل.

كان شارع **ماين** في ما مضى محطة الاستقبال الرئيسية للمهاجرين. فلقد انجذب القادمون الجدد إلى الشقق الرخيصة، وارتاحوا إلى وجودهم المريح بين بني جنسهم. سكنوا هناك كي يتعلموا طرائق العيش في كندا، وتجمعت كل مجموعة من القادمين الجدد مع بعضها كي تخفف عنها وطأة غربتها، ومن أجل تعزيز ثقتها بنفسها في وجه ثقافة غريبة عنها. تعلّم بعضهم الفرنسية والإنكليزية، وجنوا ثروات، ثم انتقلوا إلى أماكنٍ أخرى. بينما بقيَ آخرون، إما لأنهم فضلوا البقاء تحت غطاء الأمان الذي توفره لهم الأماكن المألوفة، وإما لأنهم لم يمتلكوا القدرة على الانتقال. هذه الأيام، انضمت إلى هذه النواة من المحافظين والفاشلين مجموعةٌ منوعةٌ من غريبي الأطوار والمتوحشين، بالإضافة إلى فرقة من الضعفاء والمنبوذين من المجتمع والذين يعيشون عالة عليهم. يأتي الغرباء إلى **شارع ماين** بحثاً عن عدة أشياء: صفقات الشراء بالجملة، والحصول على وجبة غداء رخيصة، والعقاقير غير القانونية، والشراب القوي، والأمور اللاأخلاقية. إنهم يأتون إليه للشراء، وللتحديق في واجهات المحلات، وللضحك، لكنهم لا يمكثون فيه.

يؤلف شارع **سانت كاثرين** الحد الجنوبي لشارع **ماين**. انعطفتُ إلى اليمين في هذا المكان، ثم توجهتُ إلى المكان الذي جلستُ فيه مع **غابي** منذ ثلاثة أسابيع تقريباً. إنه وقت أبكر الآن. لذا، انصرفت بنات الهوى إلى ترتيب مناطق نفوذهن. ولم يصل الدرّاجون بعد.

لا بد أنّ **غابي** كانت تراقب المكان، لأنني لمحتُها عندما تطلعتُ في المرآة الخلفية بعد أن أصبحتُ في منتصف الشارع، وأخذت تركض ممسكةً حقيبتها بشدة إلى صدرها. بدا خوفها واضحاً، وإن لم يصل إلى درجة الركض بأقصى

سـرعتها. ركضت كما يركض البالغون الذين لم يركضوا منذ أن كانوا أطفالاً. لاحظتُ أنّ ساقيها الطويلتين كانتا منحنيتين، وأنّ رأسها كان منخفضاً. شاهدتُ حقيبة كتفها تتأرجح في تناغم مع خطواتها المسرعة.

دارت حول السيارة، ثم دخلت إليها وجلست مغمضة العينين، في حين كان صـدرها يعلـو ويهبط. بدا أنها تجهد كي تستعيد هدوءها، فشبكت أصابع يديها بـشدة في محاولةٍ منها لإيقاف ارتعاشها. أرعبتني لأنني لم يسبق لي أن شاهدتُها في هـذه الحالـة مـن قبل. أعرف أنّ **غابي** تتميّز بنـزعة للتصرف بشكلٍ مثير أثناء تعرضها لأزماتٍ طويلة المدى، سواء الحقيقية منها أم المتخيّلة، لكن لم يسبق لها أن انفعلت إلى هذه الدرجة نتيجة أي أزمة.

لم أقـل شـيئاً في اللحظات القليلة التالية. كانت الليلة دافئة، لكنني شعرتُ برعـشة، وأصـبح تنفسي صعباً. تصاعدت في الخارج أصوات زمامير السيارات، ورأيـتُ فتاة ليل تعترض سيارة عابرة. حلّق صوتها في هذا المساء الصيفي صاعداً وهابطاً في مسارات لولبية ودائرية.

"هيا بنا".

قالتها بهدوء شديد إلى درجة كدت أن لا أسمعها.

سألتُها: "هلاّ تقولين لي ماذا يجري؟"

رفعـت يدها وكأنها تريد أن تتفادى توبيخاً ما. ارتعشت يدها، ثم وضعتها علـى صـدرها وهي مبسوطة. استطعتُ أن أحسَّ بالخوف يجتاح السيارة. كان جسدها دافئاً ويعبق برائحة خشب الصندل والعرق.

"سأفعل. سأفعل. أعطيني دقيقة فقط".

بـدا صـوتي أكثر حدّةً مما أردت وأنا أقول لها: "لا تحاولي استفزازي يا **غابي**".

قالت وقد أحاطت وجهها براحتَي يديها: "أنا آسفة. دعينا نغادر هذا المكان بأسرع وقت ممكن".

حسناً، سأفعل ما تقوله. سأتركُها تهدأ على طريقتها الخاصة، لكن لا بد وأن تخبرني.

سألتها: "هل نتوجه إلى منـزلك؟"

أومــأت من دون أن ترفع وجهها من بين راحتَي يديها. أدرتُ محرّك السيارة وتوجهتُ بها نحو شارع **كاري سان لوي**. حافظت على صمتها إلى حين وصولنا إلى البناية التي تسكنها. استمرت يداها بالارتجاف، مع أنّ وتيرة تنفسها قد عادت إلى طبيعـــتها. عادت إلى ضم يديها وإبعادهما بين حين وآخر، وأخذت تصفّق بهما وكأنها تؤدي حركة راقصة غريبة ناتجة عن الذعر. إنها رقصة الرعب.

ركــنتُ الــسيارة وأطفــأتُ المحرك، لكنني خشيتُ من المواجهة الوشيكة الحــدوث. ســبق لي أن قدّمتُ لها استشاراتي ونصائحي في أمور تتعلق بالأزمات الصحية، والعائلية، والدراسية، والدينية، وتقدير الذات، والحب. أجهدتْ كل هذه الأمــور أعــصابي، فتولدت عندي قناعة تامة بأنها ستكون في أحسن حال، وغير مكــدرة الخاطر، عندما سأراها للمرة الثانية. ستكون قد نسيت مصيبتها في ذلك الوقت. لا يعني هذا أنني لا أتعاطف مع **غابي**، لكنني خبرتها في هذه الحالة من قبل. تذكّــرتُها عــندما قالت إنها حامل، ولم تكن كذلك فعلاً. تذكرتُ أيضاً المحفظة المسروقة التي ظهرت لاحقاً بين وسائد أريكتها. أقلقني مع ذلك رد فعلها الذي تميز بالحدة. تمنيتُ كثيراً أن أنعم ببعض الوحدة كي أخلو إلى نفسي، لكن لم يبدُ عليها أنها ستتركني وشأني.

"هل تودين أن أبقى معك هذه الليلة؟"

لم تُجــبني. رأيتُ في الجانب الآخر من الباحة رجلاً مسنّاً وقد رتب لفافةً من القماش تحت رأسه، واسترخى على المقعد كي يمضي ليلته عليه.

امــتدّ الــصمت طويلاً بحيث اعتقدتُ أنها لم تسمعني. التفتُّ عازمةً على تكرار عرضي، لكنني وجدتُها تحدّق بتركيزٍ في اتجاهي. لاحظتُ أنها استبدلت حــركاتها المذعــورة التي أبدتها منذ لحظةٍ مضت بالسكون التام. بدا عمودها الفقري متصلباً، بينما انحنى القسم الأعلى من جسدها إلى الأمام حتى إنها بالكاد لامست مسند مقعدها. وضعت إحدى يديها فوق حضنها، بينما وضعت قبضة يــدها الأخــرى على شفتيها بشدة. أغمضت عينيها قليلاً، وارتعش جفناها الــسفليّان بحركة غير مفهومة. بدت وكأن عقلها مشغولٌ بأمرٍ ما، وأنها تحاول ربــط المتغيرات وحساب العواقب. بدا هذا التحوّل المفاجئ في مزاجها مقلقاً جداً بالنسبة لي.

بــدت هادئة تماماً الآن، وانساب صوتها خافتاً ومنتظماً: "لا بد أنك تعتقدين بأنني مجنونة".

"أنا مضطربة قليلاً". لم أعبّر عما أفكّر به فعلاً.

"حقاً؟ إنها طريقة ملطّفة لوصف الأمور".

قالت هذا مع ضحكة استهجان، وأخذت تهزّ رأسها ببطء، فتمايلت جدائل شعرها.

"أعتقد أنني تصرفت بغرابة هناك".

انتظـرتُها كي تكمل. وسمعتُ صوت باب إحدى السيارات ينغلق بشدة، ثم انساب إلى مسامعي صوت ساكسفون حزين صادر من موقف السيارات. سمعتُ أيضاً من البعيد أنين سيارة إسعاف. إنها أصوات يومٍ صيفي في المدينة.

اسـتطعت وسـط العتمة أن أحسّ - قبل أن أرى - غابي وقد غيّرت نقطة تركيزها. بدا الأمر وكأنها صوّبت نظرها نحوي ثم انحرفت على نحوٍ مفاجئ في آخر دقيقة. كيّفت بصرها على شيء أبعد من مكاني، وكأنها تعدّل تركيز عدسة بندقية آلـية. وعـادت إلى العزلة مجدداً، وكأنها تفكّر في الخيارات المفتوحة أمامها، وأي مظهرٍ يجدر بها أن تبدو عليه.

انهمكـت في تـناول حقيبـتها وكيـسها، ومدّت يدها نحو مقبض الباب: "سأكون بخير. أشكركِ جداً لأنكِ أتيتِ لأجلي".

قررتْ أن تراوغ أخيراً.

شعرتُ بشيء كأنه الإجهاد، وربّما كان ناتجاً عن تعب الأيام القليلة الماضية. فقدتُ أعصابي من دون أن أعرف السبب.

انفجـرتُ صـارخةً بها: "انتظري دقيقة! أريد أن أعرف ماذا يجري! ذكرتِ قبل سـاعة مـن الآن أنّ شخصاً ما يريد قتلك! خرجتِ راكضةً من ذلك المطعم، وعبرتِ الشارعَ وأنتِ ترتجفين، وكأن شخصاً غامضاً يلاحقكِ! استطعتِ بالكاد أخذ أنفاسكِ، وارتعشت يداكِ وكأن تياراً كهربائياً قد مسّكِ. تريدين الآن أن ترحلي من هنا من دون أن تقولي شيئاً غير أشكرك كثيراً على إيصالك لي بالسيارة، ومن دون أي تفسيرات!"

لم يـسبق لي أن غـضبتُ علـيها بهذا الشكل. ارتفع صوتي كثيراً، وبدأت أنفاسي بالتقطع. أحسستُ بنبضٍ في الجهة اليسرى من صدغي.

أجـــبرها غـــضبي على أن تجمد في مكانها. بدت عيناها المستديرتان مجوفتين، وظهرتا مثل عينَيْ ظبية تسمرت في مكانها نتيجة تسليط ضوء قويّ عليهما. مرّت سيارة فتوهج وجهها باللون الأبيض ثم الأحمر، فظهرت صورتها مضخمة. تسمّرتْ في مكانهـــا للحظة، وكأنها مجرد مجسّم صلب يقف في سماء يوم صيفيّ. بدا وكأن التوتـــر قد غادر جسدها بفعل صمامٍ انفتح بشكل مفاجئ. تركت مقبض الباب، وأنـــــزلت حقيبـــتها ثم اســـترخت في مقعـــدها. انكمشت على نفسها مجدداً واســـتغرقت في موجة تأمل جديدة. أعتقد أنها أرادت أن تقرّر من أين تبدأ، وربما راحت تفكر في طرائق بديلة للهرب. ولكنني انتظرتُها.

أخـــذتْ نفساً عميقاً في النهاية ورفعت كتفيها قليلاً. لا بد أنها استقرت على رأي أخـــيراً. تأكدتُ من قرارها ما إن بدأت بالكلام. سوف تسمح لي بالتدخل، ولكـــن بـــشكل محـــدود. اختارت كلماتها بعناية، واختارت مساراً حذراً وسط مستنقع الأحاسيس التي تجتاح ذهنها. استندتُ على الباب، وانكمشتُ على ذاتي.

"كنتُ أعمل مع بعض الأشخاص غير العاديين مؤخراً".

اعتبرتُ أنّ ما سمعتُه لم يكن كافياً، لكنني لم أصرّح بذلك علناً.

"لا، لا. أعرف أنّ هذا يبدو أمراً عادياً. أنا لا أتحدث عن أشخاص الشوارع العاديين. فأنا أستطيع التعامل مع هؤلاء".

عذّبني اختيارها لكلماتها.

"إذا كـــنتِ علـــى معـــرفة باللاعـــبين، فيمكنك تعلّم قواعد اللعبة ولغتها، وســـتكونين على ما يرام في ذلك المكان. يشبه هذا ما يحدث في أي مكان آخر. يتعيّن عليك أن تنتبهي لطريقة السلوك المتبعة في ذلك المكان، وأن لا تُبعدي الناس عـــنك. الأمر بسيطٌ جداً: ويكمن في أن لا تتطفلي على منطقة نفوذ الأخريات، وأن لا تفكـــري بحيلة، وأن لا تتكلمي مع رجال الشرطة. لا يُعتبر العمل صعباً هنا لـــولا الملل من جرّاء مرور الساعات المتثاقل، عدا أن الفتيات يعرفنني. إنهن يعرفن بأنني لا أشكّل تهديداً لهن".

التـــزمتْ الصمت بعد ذلك. لم أعرف ما إذا كانت تستبعدني مجدداً، أو أنها لجأت إلى ترتيب ملفاتها من جديد. قررتُ أن أجرّب معها مجدداً.

"هل يهددك أحد؟"

لطالمـــا اعتبرت **غابي** الأخلاق أمراً مهماً، ولهذا شككتُ أنها تحاول حماية مخبرٍ ما.

"أتعـــنين الفتيات؟ لا. لا. إنهنّ لطيفات معي. لا مشكلة لديّ معهنّ إطلاقاً. أعتقد أنهنّ مسرورات برفقتي. أستطيع أن أكون صريحة مثلهن".

عظيم. أصبحتُ أعرف الأمور التي لا تسبب مشكلة. حاولتُ مجدداً.

"كيف تتجنبين أن يظنك أحدهم فتاةً مثلهم؟"

"أوه. أنـــا لا أحـــاول شـــيئاً من هذا القبيل. تستطيعين القول إنني اختلطتُ معهنّ، فإن لم أفعل ذلك فسيتضرر الهدف الذي أعمل عليه. تعرف الفتيات أنني لا أقوم بخداع أحد، وهكذا فهنّ يثقن بي".

لم أطرح عليها السؤال البديهي.

"إذا ضـــايقني أحـــدهم فـــإنني أكتفي بالقول إنني لا أعمل في ذلك الوقت. وينصرف معظمهم عندما يسمعون ذلك".

مـــرّت فترة صمت أخرى عمدتْ أثناءها إلى ترتيب أولوياتها ذهنياً، وفكّرت في ما عساها تقوله لي، وما عساها تُبقيه لنفسها، وما هي الأمور التي ستبقيها طي الكـــتمان، لكنها تستطيع الإفصاح عنها عند الضرورة. راحت تتحسّس حقيبتها. سمعـــتُ نباح كلب في الباحة. تأكدتُ الآن من أنها تقوم بحماية شخصٍ ما، أو أنها تخفي أمراً ما، لكنني لم أحاول أن أثيرها مرةً أخرى.

تابعت كلامها: "أعني معظمهم، ما عدا ذلك الشاب الذي التقيته مؤخراً".

مرّت فترة صمت.

"ومن يكون؟"

مرّت فترة صمت.

"لا أعرف، لكنه جعلني أشعر بالقلق. إنه ليس زبوناً، لكنه يحب مرافقة بنات الهوى. لا أعتقد أنّ الفتيات يكترثن به. إنه يعرف الكثير عن حياة الشوارع، كما أنه مستعد للتحدث معي، وهكذا بدأتُ بإجراء مقابلة معه".

مرّت فترة صمت.

"بدأ مؤخراً بملاحقتي. لم ألاحظ ذلك في البداية، لكنني رحتُ أراه في أماكن غـــريبة. اعتاد أن يكون في **المترو** عندما أصل ليلاً إلى منـــزلي، أو هنا في الباحة.

رأيتُه ذات مرة في **الكونكورديا**، خارج مبنى المكتبة حيث يقع مكتبي. رأيتُه مرات عديـــدة ورائي على الرصيف وكان يمشي بنفس الإتجاه الذي أسير فيه أنا. شاهدتُه الأســـبوع الماضـــي عندما كنتُ في شارع **سان لوران**. أردتُ أن أقنع نفسي أني أتخـــيّل وجـــوده، وهكذا امتحنتُه. كان يتمهّل إذا تمهلت، ويسرع إذا أسرعت. أردتُ أن أتخلـــص منه، فدخلتُ محل حلويات. ورأيتُه عندما خرجت وهو يتظاهر بالتفرج على واجهة أحد المحلات على الجانب الآخر من الشارع".

"هل أنتِ متأكدة من أنه الشاب ذاته؟"

"أنا متأكِدة تماماً".

مرّت فترة صمت طويلة وثقيلة. انتظرتُ حتى تنتهي.

"هذا ليس كل شيء".

حدّقتُ بيديها اللتين تلاقتا مجدداً، وتشابكتا بقوة.

"بـــدأ يحـــدثني مؤخراً عن أمورٍ غريبة. حاولتُ أن أتجنبه، لكنه ظهر الليلة في المطعـــم. بدا لي أنه يمتلك راداراً. عادَ يحدثني عن المواضيع ذاتها، وطرح عليّ أسئلة غريبة".

عـــادت للإنطـــواء على ذاتها. التفتت إليّ بعد هنيهة وكأنها وجدت إجابة لم تخطر على بالها من قبل. وحمل صوتها نوعاً من أنواع المفاجأة.

"إنهما عيناه يا **تمب**. عيناه غريبتان جداً! فهما سوداوان وقاسيتان، مثل عينَيْ الأفعى، كما أن البياض فيهما مشوبٌ باللون الزهري ومبقعٌ بالدماء. لا أعرف إن كـــان مريضاً، أو أنه يتسكع طيلة الوقت، أو أي شيء آخر. لم أشاهد عينين مثل عينـــيه، لأنهما يدفعانك للزحف والاختباء تحت شيء ما أو في مكان آمن. شعرتُ بالرعب يا **تمب!** أعتقد أنني كنتُ أفكّر بحديثي معك آخر مرة، وذلك النذل الذي تعملين من أجل كشف هوية ضحيته. فكّرتُ في ذلك على الفور".

لم أعـــرف مـــا يجدر بي قوله. لم أستطع رؤية معالم وجهها في الظلمة، لكن حـــركات جـــسدها عكست لغة الخوف. كان جذعها صلباً، وذراعاها مسبلتين، وتشدّان الحقيبة على صدرها، وكأنها تفعل ذلك لحمايته.

"ماذا تعرفين أكثر عن هذا الشاب؟"

"لا أعرف الشيء الكثير".

"وما هي صورته عند الفتيات؟"

"إنهنّ يتجاهلنه".

"هل بدا خطِراً في يومٍ من الأيام؟"

"لا. ليس بصورة مباشرة".

"هل سبق له أن كان عنيفاً ذات يوم، أو خارجاً عن السيطرة؟"

"لا".

"هل هو متورط بالعقاقير غير القانونية؟"

"لا أعرف".

"أتعرفين من يكون، أو أين يسكن؟"

"لا. هناك الكثير من الأسئلة التي لا نطرحها. إنها قاعدة غير مكتوبة، ونوع من الاتفاق الضمني هناك".

مرّت، مجدداً، فترة صمت أخرى استغرقنا خلالها في التفكير بما قالته للتو. راقبتُ شخصاً يركب دراجة هوائية وهو يمرّ إلى جانب الرصيف. بدت خوذته ملتمعة، وأومضت عند مروره تحت أحد مصابيح الشوارع. راقبتُه أيضاً عندما دخل في الظلمة الحالكة مجدداً. عبَر الرجل مجال رؤيتي ثم اختفى ببطء في ظلمة الليل. تبعته يراعةٌ، فأومضت مرات عديدة.

فكّرتُ في ما قالته لي، وتساءلتُ إذا ما كان يجدر بي أن ألوم نفسي. هل أثرتُ مخاوفها عندما تحدثتُ عن مخاوفي، أم أنها التقت أحد الرجال المضطربين عقلياً؟ هل تقوم بعملية تضخيم سلسلة من المصادفات غير المؤذية، أم أنها في مأزق فعلاً؟ وهل يجدر بي أن أترك الأمور تسير كما قدّر لها أن تسير لفترة معينةٍ؟ هل يتعيّن عليّ فعل شيءٍ ما؟ وهل هذه قضيةٌ تخصّ الشرطة؟ وجدتُني أطرح على نفسي السلسلة ذاتها التي لا نهاية لها من الأسئلة، والتي اعتدتُ على طرحها.

جلسنا لبعض الوقت، وأصغينا إلى الأصوات الصادرة عن موقف السيارات، ورحنا نشمّ روائح هذه الليلة الصيفية اللطيفة، واستغرقت كل واحدةٍ منا في تأملاتها الخاصة. ساهم هذا الفاصل الزمني المليء بالسكون في تهدئة مشاعرنا. أخيراً، هزت **غابي** رأسها، وأسقطت حقيبتها في حضنها، ثم استرخت في مقعدها.

لم تكـــن ملامحهـــا واضحة، لكنني استطعتُ ملاحظة التغيّر الذي طرأ عليها. جاء صوتها أقوى وأقل توتراً عندما تكلمتْ هذه المرة.

"أعرف أنني أفرط في رد فعلي. إنه شابٌ شاذٌ لكنه غير مؤذٍ، ولا يريد سوى أن يقـــتحم عـــزلتي. دخلتُ معه في لعبته هذه. أعطيتُ هذا المعتوه فرصة السيطرة على عقلي، وسمحتُ له أن يهز عالمي".

"ألا تصادفين كثيراً من هؤلاء الشاذين، كما تسميهم؟"

"أجـــل. إنّ معظـــم المخـــبرين الـــذين أتعامل معهم ليسوا من نوع **الإخوة بروكس**". ضحكتْ هنا ضحكة قصيرة تخلو من المرح.

"ما الذي يجعلك تعتقدين أنّ هذا الرجل يختلف عن غيره؟"

فكّرت قليلاً في سؤالي هذا، وأدخلتْ ظفر إبهامها بين أسنانها.

"آه. يـــصعب عليّ التعبير بالكلمات. هناك خط رفيع يفصل ما بين المجانين، والرجال الذين يشكلون خطراً حقيقياً. يصعب عليّ وضع التعريف المناسب. لعلها مجـــرد غريزة اكتسبتها من تواجدي هناك. لكنني أعرف أنه إذا شعرت امرأةٌ، من اللواتي يتخذن تلك المهنة، بخطرٍ يتهددها من شخصٍ ما، فإنها لن تخرج معه. تمتلك كـــل امرأة وسائل إغرائها الخاصة بها، لكنها تعرف كيف تضع حدودها. تصلح العيـــنان لهذه الغاية، أو قد تكون على شكل طلبٍ ما. تمتنع **هيلين** عن الخروج مع أي شخص ينتعل حذاء رعاة البقر".

استراحت قليلاً كي تناقش ذاتها.

"أعـــتقد أنـــني انحـــرفتُ قليلاً بكل ذلك الحديث عن المجرمين التسلسليين، والمهووسين الجنسيين".

مرّت فترة تأمل ذاتي أخرى. حاولتُ أن أسترق نظرة إلى ساعة يدي.

"يحاول ذلك الرجل أن يرعبني".

مرّت فترة سكون أخرى حاولت خلالها تهدئة نفسها.

"يا لذلك المتسكّعٍ!"

لربما حاولت أن تزيد من ثورتها. فبدأ صوتها يزداد غضباً مع مرور الوقت.

"اللعـــنة يـــا **تمب**. لن أدع ذلك النذل يفعل ما يريده ويريني صوَره المقززة. سأبلغه أن يذهب بها إلى الجحيم!"

التفتت صوبي ووضعت يدها على يدي.

"أنـــا آســـفة لأنني أوقعتكِ في هذه الورطة هذه الليلة. لا شك أنني أتصرف بطريقة مجنونة! هل ستسامحينني؟"

حـــدّقتُ بها بصمت. أدهشني هذا التحوّل السريع في مزاجها. كيف أمكنها التحوّل من حالة الرعب، إلى التحليل، فالغضب، ثم إلى الاعتذار أخيراً، وأن يجري كل ذلك في غضون ثلاثين دقيقة؟ كنتُ متعبةً جداً، بالإضافة إلى أنّ الوقت أصبح متأخراً جداً، لذلك لم أتمكّن من فهم السبب الصحيح.

"**غابي**. أصبح الوقت متأخراً جداً الآن. دعينا نؤجل الحديث في هذا الموضوع إلى الغد. لستُ غاضبة بالطبع. إنني مسرورة لأنكِ بخير. إنّ دعوتي إليك للمكوث عندي هي دعوة من القلب. أرحب بكِ في منـــزلي على الدوام".

انحـــنت وعانقـــتني: "شكراً لكِ. سأكون بخير. سأكلمكِ هاتفياً. أعدكِ بذلك".

راقبـــتُها وهـــي تصعد السلّم الحديديّ. شاهدتُ تنورتها تتطاير، فبدت مثل غمامة تحيط بها. اختفت في غضون لحظة من خلال بابها الأرجواني اللون. تباعدت المسافةُ في ما بيننا، ولم يعد يفصلني عنها سوى الفراغ والسكون. جلست وحيدة وســـط الظلمـــة، ووسط رائحة خشب الصندل. اختفت من أمامي مثل ظلٍّ ظهر لبرهة قصيرة ثم مضى.

بقـــي تفكـــيري مـــشتتاً أثناء توجهي إلى منـــزلي. هل تقوم **غابي** بالتحضير لمـــيلودراما جديدة؟ أم أنها في خطر حقيقي؟ هل أخفت عني بعض الحقائق؟ وهل يمـــثل هـــذا الرجل خطراً حقيقياً عليها؟ أم أنها تغذي بذور الذعر التي زرعها في مخيلتها حديثي عن الجرائم؟ هل يجدر بي إبلاغ الشرطة؟

رفضتُ أن أدع قلقي على سلامة **غابي** يسيطر عليّ. لجأتُ عند رجوعي إلى منـــــزلي، إلى طـــريقة كـــنت أستخدمها في طفولتي في أوقات التوتر والإرهاق: أخـــذتُ حماماً ساخناً وملأتُ المغطس بالأملاح العشبية. وضعتُ أسطوانةً مدمجةً **لكـــريس ري**، ورفعـــتُ مستوى الصوت إلى الحد الأقصى. انساب صوته الذي تحـــدث عن الطريق إلى جهنم أثناء استمتاعي بالمياه التي تغمرني. أعتقد أنّ جيراني يفضلون البقاء على قيد الحياة. حاولتُ الاتصال **بكاتي**، لكنّ آلتها المجيبة ردّت عليّ

مجـــدداً. تشاركتُ مع **بيردي** تناول بعض الطعام والبسكويت، لكنه فضّل تناول الحليب. تركتُ الأطباق على الطاولة، ثم تسلّلتُ إلى سريري.

لم يتـــبدّد قلقـــي كلـــياً. لم أستطع الاستسلام للنوم بسهولة، لذلك بقيتُ مستقيظةً في السرير مدةً من الوقت، وتسلّيتُ بمراقبة الظلال المرتسمة على السقف. قاومتُ بشدة فكرة الاتصال **ببيتي**. كرهتُ نفسي بسبب شعوري بالحاجة إليه من وقتٍ إلى آخر، ولأنني أردتُه أن يتواجد بقربي عندما أشعر بالاضطراب. إنه الشيء الوحيد الذي أقسمت على قهره.

غلـــبني ســـلطان النوم أخيراً وكأن دوامةً جذبتني، فأزاحت من طريقها كل أفكـــاري عن **بيتي، وكاتي، وغابي**، بالإضافة إلى كل الجرائم التي تشغل ضميري. كان ذلك في صالحي، لأنه نقلني معه إلى اليوم التالي.

8

تمـــتعتُ بنومٍ عميقٍ حتى التاسعة وخمس عشرة دقيقة من صباح اليوم التالي. لـــستُ مـــن الـــنوع الذي يتأخر بالنهوض عادةً، لكن اليوم هو يوم الجمعة، 24 حزيـــران، أي يـــوم ذكرى وطنيّة في **كيبيك**. اعتدتُ ألا أعبأ بالتعب الذي تحمله معها مثل هذه الأيام. إذ تقفل كل المؤسسات التجارية تقريباً في هذا التاريخ، الذي يُعتـــبر ذكـــرىً رئيسية في كامل أنحاء المقاطعة. لن أجد عدد ***الغازيت*** عند الباب، وهكـــذا اكتفـــيتُ بتحضير القهوة، ثم نـــزلتُ إلى زاوية الشارع كي أبحث عن جريدة بديلة.

كـــان الـــنهار مـــشرقاً ومليئاً بالحركة، وبدا العالم مثل منظومةٍ حيةٍ نشطة. ظهـــرت كـــل الأشياء مع ظلالها بوضوحٍ تام. وبرزت ألوان القرميدِ، والخشب، والمعـــادن، والأعـــشاب، والأزهار، صارخةً في أماكنها المنفصلة في تلك التشكيلة الواســـعة. تألقت السماء بروعتها، و لم تحتمل وجود الغيوم فيها. ذكّرني هذا المنظر بـــزرقة بيـــضة أبي الحـــن المرسومة على إحدى البطاقات التي أحتفظ بها منذ أيام طفولتي. كان اللون الأزرق الصارخ ذاته.

بعث فيّ هواء الصباح شعوراً بالنعومة والدفء، وترافق ذلك مع الرائحة التي تنـــبعث من صناديق أزهار **البيتونيا**. ارتفعت الحرارة تدريجياً، لكن بإصرار، على مدى الأسبوع المنصرم، وازداد الدفء يوماً بعد يوم. وضعت تقديرات طقس اليوم الحـــرارة عـــند اثنـــتين وثلاثين درجة مئوية. حوّلتُ هذا الرقم ذهنياً إلى مقياس فهـــرنهايت فـــبلغ حوالى تسعٍ وثمانين درجة فهرنهايت. تقع مدينة **مونتريال** وسط

خندق مائي هو نهر **سان لوران** الذي يؤمّن لها رطوبة ثابتة. **ياهو!** يشبه هذا اليوم أيام **كاليفورنيا** الحارة والرطبة. أحببتُ هذا اليوم لأنني نشأتُ في الجنوب الدافئ.

اشــتريتُ نسخةً من جريدة ***لو جورنال دو مونتريال***، وهي الجريدة اليومية الأولى الــناطقة بالفرنسية في أمريكا. يسهل عليّ تمضية اليوم مع هذه الجريدة أكثر من ***الغازيت*** الناطقة باللغة الإنكليزية. نظرتُ إلى صفحة الغلاف أثناء سيري تلك المــسافة القــصيرة إلى شقتي. برز في هذه الصفحة عنوانها الذي كُتب بأحرف من قياس سبعة سنتمترات، وباللون الأزرق السماوي: **ذكرى سعيدة يا كيبيك!**

أخــذتني أفكاري إلى الاستعراض وكل الحفلات الموسيقية التي تتبعه في **بارك مايــزونّيف**. تذكرتُ الشراب الذي سيهرق. فكّرتُ أيضاً في الانقسام السياسي الموجــود بــين ســكان **كيبــيك**. تأججت العواطف في هذه المنطقة مع اقتراب الانتخابات العامة في الخريف، وتصاعدت آمال الذين يناصرون الانفصال بحماسة بــأن يحصل ذلك هذ العام. انتشرت القمصان والإعلانات التي حملت شعار: **العام القادم هو عام بلدي!** تمنيتُ ألا يرافق العنف هذا اليوم.

وصــلتُ إلى البــيت، فملأتُ كوب قهوة، وحضّرتُ وعاءً من **ميوسلي**، ثم نــشرتُ الصحيفة على طاولة غرفة الطعام. إنني مدمنة على قراءة الأخبار. صحيح أنــني أســتطيع تمضية أيامٍ عديدة من دون قراءة صحيفة، وأنني أستطيع الاكتفاء بمــشاهدة الــبرامج الإخبارية الثابتة على شاشة التلفاز عند الساعة الحادية عشرة، لكــنني سرعان ما أشعر بالحاجة إلى الكلمة المكتوبة. اعتدتُ في أوقات سفري أن أبحــث عن محطة CNN قبل أن أفرغ ثيابي من الحقيبة. أقرأ الأخبار أيضاً أثناء أيام عملــي المحمومة، أي عندما أكون مشغولة بمتطلبات التدريس، أو أثناء عملي على قــضية ما. وأجد راحة كبيرة عندما أستمع إلى أصوات المذيعين المعتادة في برنامجَيْ **الحلقة الصباحية**، و**نظرة على كل شيء**، لأنني أعرف أنني سأعوّض في عطلة نهاية الأسبوع.

إنــني لا أتناول الشراب، وأكره دخان السجائر، كما أنني خططتُ لتمضية عام خالٍ من الجنس، لذلك أستمتع كثيراً في صباحات أيام السبت، عندما أنشغل في قراءة كل الأخبار الصحفية الغريبة، وأسمح لنفسي بأن أستمتع بأدق التفاصيل. لا يعــني هــذا أنّ الأخبار تحمل أشياء جديدة بالضرورة، إذ لا تحمل الأخبار شيئاً

جديداً. أعرف ذلك. إنها مثل كرات البينغو. تصرّ الأحداث ذاتها على الظهور مرة بعـــد مرة؛ الهزات الأرضية، والانقلابات، والحروب التجارية، واختطاف الرهائن. طوّرت هوايةً خاصةً بي تقتصر على معرفة أي كرات ستظهر في يومٍ معين.

اتّــبعت صـــحيفة ***لو جورنال*** طريقة عرض الأخبار القصيرة مع نشر صورٍ كثيرة. إنها تكفيني رغم أنها لا تصل إلى مستوى ***كريستيان سيانس مونيتور***. تعوّد **بـــيردي** على هذا البرنامج، لذلك جلس على المقعد المجاور. لا أستطيع أن أتأكد أبـــداً إذا ما كان يستريح لرفقتي، أم أن رائحة فضلات **الميوسلي** هي التي تجذبه. قـــوّس ظهـــره، واستقرّ في جلسته بعد أن وضع قوائمه الأربع تحت بطنه، ثم ركّز عينيه الدائريتين الصفراوين نحوي، وكأنه يريد الحصول مني على حلّ لغزٍ من ألغازه المعقدة. انشغلتُ بالقراءة، لكنني أحسستُ بنظرته تخترق خدّي.

وجدتُ المقالة في الصفحة الثانية. كانت محشورة ما بين المقالة التي روت قصة رجل الدين المخنوق، وبين مقالة **كأس العالم لكرة القدم**.

العـــثور على ضحية مقتولة ومشوهة. وُجدت امرأة تبلغ الرابعة والعشرين مـــن عمـــرها مقـــتولةً ومشوهة بوحشية. حدثت الجريمة في منـــزلها الكائن في الـــضاحية الشرقية. تدعى الضحية، وهي مدبرة منـــزل مارغريت آدكينـــز، وهي والدة صبي يبلغ السادسة من عمره. شوهدت السيدة آدكينـــز آخر مرة علـــى قيد الحياة في العاشرة من صباح ذلك اليوم، أي عندما تحدثت مع زوجها هاتفياً. اكتشفت شقيقتها جثتها، التي أُشبعت ضرباً وحشياً، وأصابها الكثير من التشويه، قرابة الظهر.

تقـــول مـــصادر شرطة مونتريال إنها لم تلاحظ علامات تدل على دخول المنـــــزل بالقـــوة، وأضافت أنه لم يتضح لها كيفية دخول المجرم إلى المنـــزل. أجرى الدكتور بيار لامانش عملية التشريح في مختبرات الطب الشرعي. وتقوم الدكـــتورة تمبرنس برينان، وهي عالمة أنثروبولوجية أميركية، ومختصة بإصابات هياكل العظام، بفحص عظام الضحية بحثاً عن آثار سكاكين...

تـــتابع المقالة بمقطعٍ مليء بالشائعات عن آخر نشاطات الضحية، وبنبذة عن حياتها، وبرواية حزينة وصفت رد فعل عائلتها عندما علمت بالخبر، وبالوعود التي قطعها رجال الشرطة بأنهم سيفعلون ما بوسعهم لاعتقال القاتل.

رافقـــت المقالة صورٌ عديدةٌ أظهرت تلك الدراما الحزينة وشخصياتها. ظهرت – بالألـــوان الرمادية – الشقة والدرج الحديدي، ورجال الشرطة، وموظفو المشرحة وهـــم يدفعون النقالة المدولبة التي تحمل كيس الجثة المقفل. ظهر في الصورة أيضاً حـــشدٌ من الجيران الذين يصطفون على الرصيف وراء الأشرطة التي وضعها فريق مـــسرح الجـــريمة. بان الفضول الذي يشعرون به في الصورة المبرغلة. تعرفتُ على **كلوديل** واقفاً بين الأشخاص الموجودين وراء الشريط الفاصل. رأيتُ ذراعه اليمنى مرفوعةً مثلما يفعل قائد فرقة موسيقية مدرسية. وظهرت في إحدى الصور القريبة للـــضحية دائرة تظهر **مارغريت آدكينـــز**. بدا وجه الضحية أسعد حالاً في هذه الصورة غير الواضحة تماماً، من الوجه الذي رأيته على طاولة التشريح.

رأيـــتُ صورةً أخرى أظهرت امرأةً أكبر سناً ذات شعر قصير أحاط برأسها، كمـــا ظهر صبيٌ صغير يرتدي سروالاً قصيراً وبلوزة **إكسبو**. ظهر في الصورة أيضاً رجـــلٌ ملتحٍ ويضع نظارة ذات إطار سلكي معدني. وضع هذا الرجل يديه حول كتفـــي المرأة والصبي، وكأنه يفعل ذلك كي يحميهما. ظهر حزن الثلاثة ودهشتهم مـــن خلال الصورة، كما ظهرت التعابير نفسها على ملامح الذين وجدوا أنفسهم وســـط هذه الجريمة النكراء. اعتدت على رؤية هذا التعبير في سياق عملي. عرّف التعلـــيق عن الذين ظهروا في الصورة على أهم والدة، وابن، وزوج الضحية الذي تزوجته مدنياً.

شعرتُ بالاستياء لدى رؤيتي للصورة الثالثة. كانت صورتي أنا، وهي الصورة التي التُقطت لي أثناء إحدى عمليات النبش. شاهدتُ هذه الصورة كثيراً، وهي التي التُقطت لي في العام 1992، واحتفظت بها الصحف في أرشيفاتها. أكثرت الصحف من نبش هذه الصورة ونشرها. تعرّف الصحف عني باعتباري "***عالمة أنثروبولوجيّة أميركية***".

"اللعنة!"

حرّك **بيردي** ذيله وتطلع ساخطاً. لم أكترث. بدا أنني لم أستطع أن أفي طويلاً بقَـــسَمي في طـــرد الجرائم من ذهني طيلة هذه العطلة. كان يجدر بي أن أعرف أنّ القـــصة ستُنشر في صحف اليوم. تجرّعتُ آخر رشفة من قهوتي الباردة، وحاولتُ مهاتفـــة **غابي**. لا جواب. شعرتُ بالقلق، رغم إمكانية وجود مليون سبب لغيابها

عــن المنــزل. توجهتُ إلى غرفة النوم من أجل ارتداء الثياب المخصصة لممارسة رياضـــة **تاي تشي**. ينعقد الصف عادة في ليالي أيام الثلاثاء، لكنّ الأعضاء فضلوا عقـــد جلـــسة خاصة اليوم. لم أكن متأكدةً من رغبتي بالذهاب، لكنّ المقالة التي قـــرأتها، والمكالمة التي لم تتم، حسَمَا أمر الذهاب عندي. سيتحرر ذهني من التفكير في الأمور التي تشغله لمدة ساعة، أو ساعتين، على الأقل.

أخطـــأتُ مجدداً. فلم تُفلح تسعون دقيقة من حركات مداعبة الطير، والتلويح بالـــيدين مـــثل الغيوم، والوخز في قعر البحر، في وضعي في مزاج يوم العطلة. ظلّ ذهني مشغولاً بحيث شعرتُ بقلقٍ أكبر فاضطررت إلى مغادرة الصف في وقتٍ أبكر من المعتاد.

فتحتُ جهاز الراديو أثناء قيادتي للسيارة متوجهةً إلى منـــزلي، وصمّمتُ على توجيه أفكاري مثلما يوجّه الراعي قطيعه. أردتُ احتضان الأفكار اللطيفة واستبعاد الأفكار البشعة من أفكاري. وصمّمتُ على إنقاذ يوم عطلتي.

"... قُـــتلت يـــوم أمـــس في وقت ما حوالى الظهيرة. كانت شقيقة السيدة **آدكينـــــز** في انـــتظارها، لكنها لم تصلْ في الموعد. اكتُشفت الجثة في **ديجاردان 1327**. لم يـــستطِع رجـــال الشرطة العثور على أي أدلة تشير إلى دخول المنـــزل بالقوة، وقالوا إنهم يظنون أنّ السيدة **آدكينـــز** قد تكون عرفت قاتلها".

أدركـــتُ أنـــه يجدر بي تغيير المحطة. ولكنني سمحتُ، بدلاً من ذلك، لصوت المذيـــع أن يمـــلأ مسامعي. حرّك صوت المذيع الذكريات الكامنة في ذهني، فعاد شعوري بالإحباط ليطفو على السطح مدمراً بشكلٍ نهائي عطلتي الأسبوعية.

"... لم تعلـــن نـــتائج التـــشريح بعد. تمشّط الشرطة الجهة الشرقية من **مونتريال**، وهي تقوم باستجواب كل شخصٍ كان يعرف الضحية. إنها الجريمة السادسة والعشرين هذا العام في منطقة **مدينة مونتريال**. طلبت الشرطة من كل شـــخص يمـــتلك أي معلومات عن القاتل الاتصال **بفرقة مكافحة الجريمة** على الرقم 2052-555".

لم أستطِع اتخاذ أي قرار صائب. غيّرتُ وجهة سيري واتجهتُ نحو المختبرات. انـــشغلت يـــداي بالقيادة، بينما تكفلّت قدمايَ بالدواسات. وصلتُ بعد عشرين دقيقة، وصمّمتُ على إنجاز أمرٍ ما، لكنني لم أكن متأكدة من طبيعة هذا الأمر.

خـــيّم الهدوء على مبنى **أمن كيبيك**، وهدأت الضوضاء المعتادة نتيجة مغادرة جمـــيع الموظفين، في ما عدا القليلين الذين خانهم الحظ. نظر إليّ حراس المبنى ببعض الريبة، لكنهم لم يقولوا شيئاً. لعلهم نظروا إلى تسريحة شعري التي كانت اليوم على شكل ذيل حصان، أو إلى الثياب التي ارتديتها، أو لعلهم تأكدوا من أنّ ضرورات العمل نهار العطلة هي التي أتت بي إلى هذا المبنى. ولكنّني لم آبه للسبب.

وجـــدت جناحَـــي LML، وLSJ مهجـــورَين تماماً. بدت المكاتب الفارغة والمختـــبرات في حالة رقود، أو إعادة تنظيم بعد عطلة نهاية أسبوع حارة. وجدتُ مكـــتبي على الحالة التي تركته فيها، فانتشرت الأقلام، وأقلام التأشير، على سطح طاولـــة مكتبي. نظرتُ من حولي عندما جمعتها فرأيتُ التقارير الناقصة، والشرائح غـــير المفهرسة، بالإضافة إلى مشروعٍ لم ينتهِ عن درزاتٍ فكّية. حدّقت بي بشرود محاجر العيون الفارغة للجمجمتين اللتين أعملُ عليهما.

لم أكن متأكدة من السبب الذي دفعني للتواجد في هذا المكان، أو ماذا أردتُ أن أفعـــل. شـــعرتُ بالتوتر. فكّرتُ بالدكتورة **لينتز**، وهي التي دفعتني للاعتراف بإدماني على الشراب، وحثّتني على مواجهة نفوري من **بيتي**. ساعدتني كلماتها على التركيـــز على الصخب الذي يغلّف مشاعري. كانت تقول لي "**تمب**. لماذا تصرّين دائماً على أخذ كل المسؤوليات على عاتقك؟ ألا يمكنك الوثوق بأحد؟"

لعلها كانت على حق، ولعلني كنت أحاول أن أهرب من شعوري بالذنب، وهو الـــشعور الذي يسيطر عليّ عندما أعجز عن حلّ مشكلة ما. وربما كنتُ أتجنب حالة الكسل والشعور بعدم الأهلية اللذين يصاحبان عجزي هذا. أقنعتُ نفسي أن التحقيق بالجرائم ليس من مسؤوليتي بالفعل، لأنّه يقع على عاتق رجال التحقيقات الجنائية، وأنّ مـــسؤوليتي تنحـــصر بمساعدتهم عن طريق تقديم الدعم التقني الدقيق. وبّختُ نفسي لوجودي في ذلك المكان، ولعلي جئتُ لأن أحداً لم يدعُني إلى مكان آخر. لا فائدة.

انتهـــيتُ مـــن جمع أقلام الرصاص، واستطعتُ فهم المنطقَ الذي يقف وراء حججـــي، لكنني لم أستطِع مع ذلك أن أهرب من شعوري بأنني بحاجة إلى عمل شـــيء ما. لازمتني هذه الفكرة مثلما يلازم حيوان قارضٍ جزرة حصل عليها. لم أستطِع التخلص من الإحساس المزعج بأنني أفتقد عنصراً دقيقاً، لكنه شديد الأهمية بالنسبة إلى هذه القضايا، وبطريقة لم أفهمها بعد. شعرتُ بضرورة القيام بعملٍ ما.

تناولت مظروف ملف من الخزانة حيث أحتفظ بكل تقارير القضايا القديمة.

تـــناولتُ مظروفاً آخر من كُدسة القضايا الجديدة، ثم وضعتُ المظروفين إلى جانب ملف **آدكينـــز**. نظرتُ إلى الملفات الصفراء الثلاثة. دلّت الملفات على ثلاث نساء انتُزعن من محيطهنّ وذُبحن بوحشيةٍ جنونية. **تروتييه. غاغنون. آدكينـــز**. عاشت الضحايا الثلاث على بعد أميال من بعضهنّ بعضاً، وكنّ مختلفات من حيث البيئات الاجتماعـــية اللـــواتي يعشن فيها، ومن حيث صفاتهنّ الجسدية، لكنني لم أستطع اســـتبعاد القـــناعة بأنّ اليد ذاتها قد ذبحت النساء الثلاث. لم ينظر **كلوديل** إلاّ إلى الفروقات. لذا، بقيَ عليّ أن أجد الرابط الذي يُقنعه بتغيير رأيه.

تـــناولتُ ورقةً مسطّرةً ورسمتُ عليها مخططاً أولياً. قسّمتُ الأعمدة إلى فئات اعتـــبرتُها مهمـــة؛ العمر، العِرق، لون الشعر وطوله، لون العينين، الطول، الوزن، الملابس التي ارتدتها الضحية عندما شوهدت حية لآخر مرةً، الوضع العائلي، اللغة، الفـــئة العـــرقية والدِّين، ومكان ونوع السكن، مكان ونوع العمل، سبب الوفاة، تاريخ وزمان الوفاة، معالجة الجثة بعد الوفاة ومكان إيجاد الجثة.

بـــدأتُ مـــع **شانتال تروتييه**، لكن سرعان ما تبيّن لي أنّ ملفاتي لن تحتوي المعلـــومات التي أحتاجها. احتجتُ للاطلاع على تقارير الشرطة بكاملها، وصور مـــسارح الجـــريمة. نظرتُ إلى ساعتي التي أشار عقرباها إلى 1:45 من بعد الظهر. اهتمّت **وحدة أمن كيبيك** بقضية **تروتييه**، وهذا ما دفعني إلى النـــزول إلى الطابق الأول. لم أكن متأكدة من وجود حركةٍ كثيرةٍ في غرفة فرقة مكافحة الجريمة، وهو الوضع الذي يساعدني على طلب ما أريدً.

كـــنتُ على حق. بدت تلك الغرفة الكبيرة فارغةً تقريباً، وكانت الطاولات المعدنـــية الـــرمادية مهجورة بمعظمها. تحلّق ثلاثة رجال في زاوية بعيدة من الغرفة. جلـــس رجـــلان على طاولتين متجاورتين قبالة بعضهما من دون أن تفصل بينهما سوى كدسات من حافظات ملفات القضايا والمزيد من القضايا.

شاهدتُ رجلاً نحيفاً فارع الطول ذا خدَّين أجوفين، أما لون شعره فيميل إلى الـــرمادي الغامق. جلس هذا الرجل على كرسيّه المائل إلى الخلف بينما مد رجليه ورفعهمـــا، واضعاً قدماً فوق أخرى. يدعى الرجل **آندرو رايان**، ويتحدث بلهجة فرنـــسية ثقيلة لكنها هادئة تشبه تلك التي يتحدث فيها الناطقون باللغة الإنكليزية

عندما يتكلمون بالفرنسية، ويؤشر بقلمٍ يلوّح به في الهواء. علّق الرجل سترته على ظهـــر كرســـيه، وقد تأرجحت ذراعاها الفارغتان مع حركات القلم. ذكّرني هذا المـــشهد برجال الإطفاء في مركزهم: فهم يستريحون لكنهم جاهزون للتحرك عند أقل إشارة.

أمـــا زميل **رايان** فراقبه عبر الطاولة، وأمال رأسه إلى جانب واحد، فبدا مثل طائر كنار يراقب وجهاً ما خارج قفصه. كان الرجل قصيراً ومليئاً بالعضلات، مع أنّ انـــتفاخات منتصف العمر بدأت تظهر على جسمه. ظهرت على بشرة الرجل سمـــرةٌ تشبه تلك التي يكتسبها المرء في مركز مخصص لهذه الغاية. بدا شعره الأسود الكثيف مسرّحاً وممّشطاً بعناية، وظهر مثل ممثل مبتدئ يقوم بتنفيذ شريط إعلاني. تـــولدت عندي قناعة بأنه سرّح شاربيه بعناية على أيدٍ خبيرة. ظهرت أمامه على الطاولة لوحة حُفر اسمه عليها: **جان برتران**.

جلـــس الرجل الثالث على حافة طاولة **برتران** مكتفياً بالإصغاء إلى الحديث الدائـــر، وانـــشغل في تفحص شريطي حذائه الإيطالي الصنع. انخفضت معنوياتي وكأنها هبطت في مصعد، ما إن رأيتُ وجهه.

"... وكأنها عنـــزةٌ في مرقدها".

ضـــحك الـــرجال كلٌ بدوره، وكأنهم يضحكون عند سماعهم نكتة تتعلق بالنساء. نظر **كلوديل** إلى ساعته.

فكّرتُ في نفسي بأنني أصبحت مذعورةً. سيطرتُ على مشاعري. تنحنحتُ وبدأتُ بشق طريقي وسط متاهة الطاولات. التزم الرجال الثلاثة بالصمت والتفتوا نحوي. ضحك رجلا التحرّي ونهضا، بينما بقي **كلوديل** في مكانه. لم يبذل الرجل مجهـــوداً ليخفـــي انـــــزعاجه، لكنه تململ في مكانه وأخفض قدميه، ثم استأنف تفحصه لحذائه، ولم يتوقف إلا عندما نظر إلى ساعته.

مـــدّ **رايـــان** يـــده باتجاهي، ثم تحوّل للحديث بالإنكليزية: "كيف حالك يا **دكتورة برينان**. هل زرتِ موطنك مؤخراً؟"

شعرتُ بجاذبيته الشديدة: "لم أذهب إلى هناك منذ عدة أشهر".

"قـــصدتُ أن أســـألكِ إن كنتِ تأخذين مسدس AK-47 عندما تذهبين إلى هناك؟"

"لا. إننا نحتفظ بهذه المسدسات جاهزة في المنـــزل".

سبق لي أن تعودت على دعاباته المتعلقة بالعنف الأميركي.

يحب **برتران** التحدث عن الجنوب. سألني: "هل جهزوا منازلهم بحماماتٍ داخلية؟"

أجبتُ: "فقط في بعض الفنادق الكبيرة".

بدا **رايان** المنـــزعج الوحيد من بين الرجال الثلاثة.

كـــان مـــن المستبعد جداً أن يعمل **آندرو رايان** بصفته رجل تحرٍّ جنائياً في **وحدة أمن كيبيك**. وُلد **آندرو** في **نوفا سكوشيا** من أبوين إيرلنديين. كان والداه طبيـــبين تلقيا تدريبهما في لندن، ووصلا إلى كندا وهما يتحدثان فقط بالإنكليزية، لغـــتهما الأم. أرادا أن يـــتخذ ولـــدهما مهنة الطب. ووجد الوالدان أنهما مقيّدان بلغتهما الوحيدة، فأقسما أن يجعلا ولدهما يتكلم الفرنسية بطلاقة.

بـــدأ **رايـــان** يـــواجه صعوباته الدراسية أثناء سنته الأولى في **سان فرانسيس خافيـــيه**. خضع ذلك الشاب لإغراءات حياة المغامرات، لذلك وجد نفسه غارقاً بتناول الشراب، وتناول أنواع الحبوب الأخرى. وجد نفسه خارج الحرم الجامعي معظـــم الأوقـــات لأنـــه أصبح يفضّل حياة الليل بين مدمني العقاقير غير القانونية والشراب. امتلك هذا الشاب سجلاً عند الشرطة المحلية، واستضافته غرف سجونها التي فاحت فيها روائح القيء والشراب. وجد نفسه ذات مساء في **مستشفى سان مارتـــا** عـــندما أقدم أحد المدمنين على العقاقير غير القانونية على جرحه في رقبته، وكاد أن يشق شريانه السباتي.

مرّ **رايان** بمراحل تغيّر كليّ وشامل. أعرف أنه ما زال متعلقاً بعالم الليل، لكنه غيّـــر جهة عمله. أنهى ذلك الشاب دراساته الجامعية في علم الجريمة، ثم قدّم طلباً للانـــضمام إلى **وحدة أمن كيبيك**. قُبِل طلبه وحصل على وظيفة في هذه الوحدة حتى ترقى ليُصبح ملازماً أول في التحري.

استفاد **رايان** كثيراً من تلك الفترة من حياته التي قضاها في الشوارع. يُعرف الرجل بأدبه في العادة، وبحديثه اللطيف، لكنه اشتُهر أيضاً بحدته في الشجار أحياناً، وأنـــه يستطيع التعامل مع المجرمين بلغتهم التي يفهمونها، وأن يجاريهم في حيَلهم. لم يسبق لي أن عملتُ معه، بل حصلتُ على كل هذه المعلومات عن طريق الإشاعات الرائجة في غرفة الفرقة، لكنني لم أسمع تعليقاتٍ سلبيةً عن **آندرو رايان**.

سألني: "ماذا تفعلين هنا في هذا اليوم؟" مدّ ذراعه الطويلة باتجاه النافذة. "كان بإمكانكِ أن تخرجي وتستمتعي بالحفلة".

استطعتُ أن أرى آثار الجرح الذي يتلوى من مستوى ياقة قميصه، وصعوداً في جانب عنقه. بدا الأثر صقيلاً وملتمعاً مثل أفعى ليّنة الملمس.

"إنـــي هـــنا بسبب الحياة الاجتماعية البائسة، كما أنني لا أعرف ماذا أفعل عندما تكون المتاجر مقفلة".

رفعتُ خصلات شعري التي انسدلت على جبهتي. تذكرتُ أنني أرتدي ثيابي الرياضـــية. شعرتُ بالرهبة قليلاً لأن الرجال يرتدون ثيابهم المتناسقة والمفصّلة على قياسهم. بدا الثلاثة وكأنهم يقدمون إعلاناً لصالح ***GQ***.

تقـــدم **برتـــران** من وراء طاولته باسطاً يده. أومأ ثم ابتسم. صافحتُه. استمر **كلوديل** بعدم النظر إليّ. إنني أحتاجه هنا مثلما أحتاج إلى تأثير الخميرة.

"إنـــي أتساءل عما إذا كنتُ أستطيع إلقاء نظرة على ملف من العام الماضي. أريد ملف **شانتال تروتييه**. قُتلت هذه المرأة في شهر تشرين الأول من العام 1993. ووُجدت جثتها في **سان جيروم**".

رفع **برتران** أصابعه كي يشير نحوي.

"أجـــل، أتذكـــر تلك القضية. إنها الفتاة التي رُميت في مكبٍ للنفايات. لم نقبض بعد على ذلك النذل الذي ارتكب هذه الجريمة".

رأيت من طرف عيني أن عيني **كلوديل** توجهتا نحو **رايان**. لفتت هذه الحركة انتباهي رغم أنها عفوية. شككتُ في أنّ **كلوديل** موجود هنا لمجرد زيارة اجتماعية، لـــذلك كنت واثقة من أنّ الرجال تحدثوا عن جريمة الأمس. لا أعتقد أنّهم ناقشوا قضيتَي **تروتييه وغاغنون**.

ابتـــسم **رايـــان**، لكن بتكلف: "بالتأكيد. تستطيعين الحصول على أي شيءٍ تريدينه. أتعتقدين أنّ معلومات مهمة فاتتنا؟"

مدّ يده كي يتناول علبة السجائر، وسحب واحدة. وضع السيجارة في فمه، ثم قدّم العلبة لي. فهززت رأسي رافضةً.

قلـــتُ: "لا، لا. لـــيس الأمر كذلك. أعمل على قضيتين في مكتبي. تذكرني القـــضيتان بقضية **تروتييه**. لستُ واثقة، في الواقع، من الأمور التي يجدر بي البحث

عـــنها. أود رؤيـــة صـــور مسرح الجريمة، وربما التقرير الذي وضعته الشرطة عن الحادث".

نفث دخان سيجارته من إحدى زاويتَي فمه: "أجل، أعرف هذا الشعور". لو أنـــه علم أنّ القضايا التي أعمل عليها تخص **كلوديل** أيضاً لما تابع حديثه. "يكفي أحياناً أن يتبع المرء حدسه. ماذا تظنين أنه يوجد لديك؟"

"تعتقد أنّ أحد المضطربين عقلياً هو المسؤول عن كل جريمة وقعت منذ جريمة **كوك روبين**".

جـــاء صـــوت **كلـــوديل** قاطعاً، ولاحظتُ أنه عاد ليركّز نظره على رباطي حذائـــه، وأنّ فمه بالكاد تحرّك عندما تكلّم. بدا لي أنه لا يحاول أن يخفي استهانته بي. أشحتُ ببصري وتجاهلتُه.

ابتـــسم **رايان** في وجه **كلوديل**: "هوِّن عليك يا **لوك!** اهدأ، لا ضير من إلقاء نظرة ثانية. إننا لا نسعى لتسجيل أرقامٍ قياسيةٍ للقبض على المجرم".

أصدر **كلوديل** صوت استهجانٍ وهزّ رأسه. ونظر إلى ساعته مجدداً.

سألني: "ماذا لديك؟"

فُـــتح الباب قبل أن أتمكن من الإجابة، وما لبث **شاربونيو** أن اندفع من آخر الغـــرفة بسرعة قياسية. ركض باتجاهنا وسط الطاولات، ملوحاً بورقةٍ حملها بيده اليسرى.

قال: "نلنا منه. تعرفنا على ذلك النذل". احمّر وجهه وراح يتنفس بصعوبة.

قـــال **كلـــوديل**: "حان الوقت للقبض عليه. دعنا نرى". توجه بالكلام إلى **شاربونيو** كما لو أنه يخاطب موظفاً لتوصيل البضائع، وبدا أن نفاد صبره قد تغلّب على أي ادعاء باللياقة.

تغـــضّن حاجـــب **شاربونيو**، لكنه سلّم الورقة إلى **كلوديل**. اقترب الرجال الثلاثة من بعضهم بعضاً، فاقتربت رؤوسهم من بعضها، وكأنهم أفراد فريق رياضي واحد يتشاورون ويرسمون خطط اللعبة. أخذ **شاربونيو** يتحدث إلى الرجال الذين استداروا نحوه.

"استخدم ذلك النذل بطاقتها المصرفية بعد أن قتلها بساعة واحدة. يظهر أنه لم يكتفِ بهذا القدر من المتعة، لذلك أراد الحصول على المزيد، فقصد المتجر الذي

يقـــع في زاويـــة الـــشارع. صودف أنّ هذا المتجر لا يهتم بالناس الذين يشترون الحلـــويات الرخيـــصة، لذلك وضع المتجر كاميرات فيديو مصوبة نحو آلة النقد. استطعنا الحصول على صورة **كوداك**".

أشار إلى نسخة الصورة.

"إنهـــا رائعة، أليس كذلك؟ أخذها إلى المتجر هذا الصباح، لكن الموظف الليلـــي لم يستطِع معرفة اسم ذلك الرجل، لكنه يعتقد أنّ وجهه مألوف لديه. اقتـــرح علينا أن نتحدث إلى الرجل الذي سيأتي للعمل بعد التاسعة. يبدو أنّ رجلنا زبون دائم".

قال **برتران**: "عجباً!"

اكتفـــى **رايان** بالتحديق في الصورة، وانحنى بقامته الطويلة والنحيلة فوق قامة زميله الأقصر منه.

دقّـــق **كلـــوديل** بالصورة التي حملها بيديه: "إذاً هذا هو السافل. دعونا ننال منه".

"أود أن أذهب معكم".

نسي الرجال أمر وجودي بينهم. فاستدار الرجال الأربعة نحوي، وبدا رجلا التحرّي في **أمن كيبيك** مستمتعَين قليلاً، وكأنهما شعرا بالفضول لما سيحدث بعد قليل.

أصّـــر **كلوديل** وحده على التحدث بالفرنسية: "مستحيل". بدا التوتر على عضلات فكّيه وباقي أجزاء وجهه. و لم تبدُ على عينيه ابتسامة ما.

هل بدأت المواجهة؟

بادلـــتُه الحديث بالفرنسية، لكنني اخترتُ كلماتي بعناية: "حضرة العريف في التحـــري **كلـــوديل**. أعتقد أنني ألاحظ نقاط تشابه مهمة تربط بين ضحايا عدة جـــرائم قـــتل طُلـــب مني تفحصها. وإذا كانت استنتاجاتي صحيحة فذلك يعني احتمال وجود مضطرب عقلي، كما تسمّيه، ارتكب كل هذه الجرائم. يُحتمل أن أكـــون على صواب، ويُحتمل أن أكون مخطئة. هل تريد فعلاً أن تتحمل مسؤولية تجاهل هذه الاحتمالات، والمخاطرة بحياة المزيد من الضحايا البريئة؟"

حافظتُ على تهذيـــي، لكنني لم أستسلم. شعرتُ، أنا الأخرى، ببعض القلق.

قـــال **شـــاربونيو**: "اسمـــع يـــا **كلوديل**. دعها تأتي. سنكتفي بإجراء بعض المقابلات".

قال **رايان**: "هيا بنا. سننال من هذا الرجل سواء اصطحبتها **معك** أم لا".

لم يعلّـــق **كلوديل** بشيء، بل تناول مفاتيحه، ودسّ الصورة في جيبه، ثم مرّ بجانبي أثناء توجهه نحو الباب.

قال **شاربونيو**: "دعونا نبدأ الحفلة".

أنبأني حدسي بأنّ يوماً آخر سيطول.

9

لم يكن وصولنا إلى ذلك المكان بالمهمة السهلة. شقّ **شاربونيو** طريقه غرباً، لكن بصعوبة في شارع **دي مايزونيف**. جلستُ في المقعد الخلفي، واكتفيتُ بالتحديق من خلال زجاج نافذتي، متجاهلةً الخشخشة الصادرة عن جهاز الراديو. تصببتُ عرقاً نتيجة الرطوبة، وشاهدتُ تصاعد موجات الأبخرة من الأرصفة نتيجة تزايد الحرارة.

انشغلت **مونتريال** بالتفاخر بحماستها الوطنية. فانتشرت صورة زهرة السوسن في كل مكان، وتدلّت من النوافذ والشرفات. ظهرت هذه الزهرة أيضاً على الكنزات، والقبعات، والسراويل القصيرة، كما ظهر رسمها على الوجوه، ولوّح الناس بالأعلام التي تحمل رسمها، وظهرتْ أيضاً على لوحات الإعلانات. احتشد الناس المتعرّقون ابتداءً من **وسط المدينة** شرقاً حتى **شارع ماين**، وسدّوا الشوارع متسببين بأزمة سير في الشوارع، أي كما تفعل اللويحات في الشرايين. ملأ ألوف الناس الشوارع، وتدفقوا بالاتجاهين، وظهروا مثل موجات من اللونين الأزرق والأبيض. بدا أنّ المتظاهرين لا يمتلكون خط سيرٍ معيّن، لكن الحشد توجه عموماً باتجاه الشمال، أي باتجاه **شيربروك** والمعارض. سار المراهقون **البانكي** إلى جانب الأمهات والمشاة الآخرين. غادر المتظاهرون والعربات **سان آربان** عند الساعة الثانية من بعد الظهر، ثم استدار الموكب شرقاً على طول شارع **شيربروك**، أي أنه كان يسير فوقنا في هذه اللحظة.

استطعتُ أن أسمع الكثير من الضحكات، وبعض الأغاني التي يطلقها الحشد بين حين وآخر، رغم صوت مكيّف الهواء في السيارة. شاهدتُ أحد الأغبياء وهو

يدفع صديقته على جدار. لاحظتُ أنّ لون شعره يماثل لون الأسنان التي تُركت من دون تنظيف، أما شعره فكان أجعدَ من الأعلى، وأُرسل على طوله فوق كتفيه. رأيتُ أيضاً بشرته البيضاء التي تميل إلى الشحوب قليلاً. ابتعدنا قبل أن يتلاشى منظر الحشد. رأيتُ وجهاً مرتعباً لفتاة صغيرة يتداخل مع صدر امرأة عارية. ظهرت عينا الفتاة تحدقان بشيءٍ ما، كما رسمت حرف O بفمها. وُضعت صورة الفتاة داخل إطارٍ إعلانيٍّ لمعرضٍ **تامارا دي ليمبيكا**، الذي يُقام في **متحف الفنون الجميلة**. وضع المعلنون عنواناً صارخاً لهذه الصورة: **امرأة حرة**. إنها مفارقة أخرى من مفارقات الحياة. شعرتُ بالارتياح لأن ذلك الأحمق لن يمضي ليلةً هانئةً، بل لعلها ستكون ليلته الأخيرة.

التفت **شاربونيو** نحو **كلوديل**: "دعني ألقي نظرة على الصورة".

سحبها **كلوديل** من جيبه. وأخذ **شاربونيو** يتفحصها، وتنقّل بنظره ما بين السيارات والصورة التي بين يديه.

"ليس بذلك الرجل الضخم. أليس كذلك؟" لم يوجّه كلامه إلى شخصٍ معيّن. ناولني الصورة من خلف مقعدي من دون أن ينطق بكلمة واحدة.

حملت في يدي صورةً بالأبيض والأسود. التُقطت الصورة من مكانٍ عالٍ إلى يمين الرجل. بدت صورة غير واضحة لرجلٍ أَشاح بوجهه، وركّز علّى مهمة إدخال وإخراج بطاقةٍ في آلة النقد الآلية.

ظهر شعره قصيًراً وناعماً، وشكّل إطاراً فوق جبهته. بدت منطقة أعلى رأسه صلعاء تقريباً، لكنه مشّط بعض الخصلات الطويلة من اليسار إلى اليمين في محاولة منه لإخفاء صلعه. إنها التسريحة الرجالية المفضلة عندي. تحمل هذه التسريحة معها جاذبية تماثل تلك التي تتمتع بها بذلة سباحة **سبيدو**.

حُجبت عينا الرجل بحاجبيه الكثيفين، وتوهجت أذناه مثل تويجات زهرة الثالوث. ظهر جلده شاحباً جداً. ارتدى قميصاً مطرزاً، بالإضافة إلى ما بدا أنه سروالٌ مخصّصٌ للعمل. حجبت البرغلة الظاهرة في الصورة، وزاوية التقاط الصورة، أي تفاصيل أخرى. وجدتُ نفسي أوافق **شاربونيو**. لم يظهر أنّ الرجل ذو شأن. كان يُمكن أن يكون أي شخص. أعدتُ الصورة إلى **شاربونيو**.

تُعتبر **الديبانيورات** متاجر واسعة الانتشار في **كيبيك**. إذ يستطيع المرء إيجاد مثل هذه المتاجر في أنحاء المقاطعة، وفي كل مكان مسقوف يغطي رفوفاً وثلاجات. تستمر هذه المتاجر بتقديم مواد السمانة، ومشتقات الحليب، والشراب. تنتشر هذه المتاجر في كل الأحياء، ولذلك فهي تشكّل شبكة تموين تؤمن احتياجات السكان المحليين والمارة. يستطيع المرء أن يعتمد على هذه المتاجر للحصول على الحليب، والسجائر، وشراب الشعير، وأنواع الشراب الفرنسي الرخيص، أما الأصناف الأخرى فتحددها الاحتياجات الخاصة بكل حيّ. لا تقدّم هذه المتاجر موقفاً لسيارة، كما أنها تخلو من مظاهر الديكورات. وتمتلك المتاجر الأكبر آلات نقد مصرفية. إننا نقصد الآن أحد هذه المتاجر.

سأل شاربونيو كلوديل: "هل نتوجّه إلى شارع بيرغر؟"

"أجل. يقع هذا الشارع إلى الجنوب من شارع **سان كاثرين**. تستطيع سلوك **شارع رينيه لافيسك** حتى **شارع سان دومينيك**، واتّجه شمالاً بعد ذلك. يوجد الكثير من الطرقات ذات الاتجاه الواحد هناك".

انعطف **شاربونيو** يساراً وبدأ بالاتجاه جنوباً. أظهر **شاربونيو** نفاد صبره، فضغط على دواسة الوقود أكثر مما ضغط على دواسة الفرامل، وهو الأمر الذي تسبب بترنح سيارة **الشيفي**، مثلما تترنح مقاعد دولاب **فيريس** (الدولاب الدوار الكبير المستخدم في مدن ملاهي الأطفال). أُصبتُ بما يشبه دوار البحر، لذلك ركّزتُ انتباهي على حركة محلات الثياب، والمطاعم الصغيرة، إلى أن سِرنا بمحاذاة مباني **جامعة كيبيك** القرميدية والتي تنتشر على جانبَي **سان دينيز**.

"يا الله!"

"اللعنة!" قالها **شاربونيو** عندما اعترضتُه سيارة **تويوتا ستايشن** ذات لون أخضر داكن.

داس على الفرامل فارتجّت السيارة: "أيها اللعين! انظروا إلى هذا المهووس الصغير".

تجاهله **كلوديل**، ويبدو أنه تعوّد على طريقة زميله العصبية في القيادة. فكّرتُ في تناول حبوب **درامامين**، لكنني لم أقل شيئاً.

وصلنا أخيراً إلى **شارع رينيه لافيسك** ثم انعطفنا غرباً. اتجهنا شمالاً بعد ذلك كي ندخل **شارع سان دومينيك**. سرنا في اتجاه معاكسٍ في **شارع سان كاثرين**، فوجدتُ نفسي مجدداً في شارع **ماين**، أي على بُعدٍ أقل من مربعٍ سكني واحد من أماكن تواجد الفتيات اللواتي تجاورهنّ **غابي**. يُعتبر **بيرغو** واحداً من المتاجر الصغيرة الــتي تحــيط بجانبي الشارع الذي يصل ما بين **سان لوران وسان دينيز**. ظهر هذا الشارع أمامنا مباشرة.

وصل **شاربونيو** إلى الزاوية وتقدّم إلى المنعطف الذي يقع أمام متجر **ديبانيور بيرغـــو**. ارتفعت لوحة وسخة فوق باب المتجر كُتب عليها ***شراب شعير وشراب فرنـــسي***. رأيتُ بعض إعلانات **مولسون ولابات** التي تغطي النوافذ وقد اصفرّت وتقشّرت بفعل الشمس ومرور الأعوام. تراكمت صفوفٌ من الذباب الميت فوق حـــواف النوافذ، وانتظمت بقاياها بحسب الفصول التي ماتت فيها. رأيتُ شبكةً حديديةً تحمي الزجاج. وجلس رجلان على كرسيين أمام الباب.

قال **شاربونيو** بعد أن نظر إلى دفتر ملاحظاته: "يدعى الرجل **هاليفي**. أعتقد أنه ليس لديه الكثير ليقوله".

قـــال **كلـــوديل** بعـــد أن أغلق باب السيارة بشدة: "إنهم دائماً هكذا، لكنّ ذاكرته ستتحسن إذا جعلناه يتعرق قليلاً".

راقَبنا الرجلان المسنّان بصمت.

رنّـــت مجموعة من الأجراس النحاسية عند دخولنا المتجر. انتشرت في المكان الحـــرارة، وروائح الغبار، والتوابل، والكرتون القديم. امتد صفّان من الرفوف التي تتلاصـــق جهاتها الخلفية على طول المتجر، فشكّلت بذلك ممرين في منتصف المتجر وعلـــى جانبيه. اصطفت مجموعة منوعة من أصناف المأكولات المعلّبة القديمة على الرفوف التي كان الغبار يعلوها.

رأيـــتُ بـــراداً أفقياً في أقصى اليمين يحتوي أوعية الجوز، والأطعمة الهندية، والـــبازيلاء المجففـــة، والطحين. ظهرت أيضاً مجموعة من الخضار الذابلة في أقصى البراد. بدا هذا الجهاز من حقبة ماضية، لأنه لم يعد يعمل.

ظهـــرت أيـــضاً براداتٌ عموديّة على الجدار الأيسر مليئة بالشراب الفرنسي وشـــراب الشعير. ظهر في الخلف صندوق مفتوح مليء بالمعلبات البلاستيكية التي

تُستخدم من أجل تبريد الحليب، والزيتون، وجبن **الفيتا**. رأيتُ إلى **أقصى** اليمين آلة النقد. بدا هذا المكان وكأنه لم يخضع للتجديد منذ أن قدّمت آلاسكا طلباً للانضمام إلى الولايات الأميركية.

تقع طاولة المكتب إلى يسار الباب الأمامي. جلس وراءها السيد **هاليفي**، الذي كان يتحدث منفعلاً على الهاتف الخلوي. واظب الرجل على تمرير يده على رأسه الأصلع، وهي حركة تعوّد عليها منذ أن كان شعره أغزر مما هو عليه الآن. رأيتُ على صندوق النقد ورقةً جاء فيها: **ابتسم. الله يحبك.** لم يتقيّد **هاليفي** بنصيحته التي يقدمها للآخرين. إذ ظهر وجهه أحمر اللون، جرّاء الغضب الشديد. تراجعتُ قليلاً، واكتفيتُ بالمراقبة.

وقف **كلوديل** أمام طاولة المكتب مباشرةً وتنحنح. أبرز **هاليفي** راحة يده وأومأ برأسه، وكأنه يطلب منه الانتظار. أبرز **كلوديل** شارته وهزّ رأسه. بدا **هاليفي** مضطرباً للحظة، ثم تحدّث قليلاً بكلمات هندية سريعة، وبعدها قطع الاتصال. بدت عيناه واسعتين من وراء نظارته، وتحرّكتا ما بين **كلوديل** و**شاربونيو** مرة بعد أخرى.

قال: "نعم".

قال **شاربونيو** بالإنكيزية: "هل أنتَ **بيين هاليفي**؟"

"أجل".

وضع **شاربونيو** الصورة على طاولة المكتب: "ألقِ نظرة على هذه الصورة. هل تعرف هذا الرجل؟"

غيّر **هاليفي** وضعية الورقة وانحنى فوقها، وأمسكت أصابعه المرتعشة بأطرافها. بدا الرجل عصبياً، وبذل جهداً كبيراً ليرضي الرجل الواقف أمامه، أو على الأقل كي يعطي الانطباع بأنه يتعاون. اعتاد العاملون في مثل هذه المتاجر على بيع السجائر المهربة، أو الأصناف التي تباع في السوق السوداء، ولذلك فقد اعتادوا على زيارات رجال الشرطة لهم بمثل ما اعتادوا على زيارات مراقبي الضرائب.

"لا يستطيع أي شخص أن يتعرف على الرجل من هذه الصورة. هل أُخذت من شريط فيديو؟ أتى رجال كثيرون إلى هنا من قبل. ماذا يعمل الرجل؟"

تحدّث الرجل بإيقاع أغاني شمال الهند.

تجاهل **شاربونيو** أسئلة الرجل: "ألديك فكرة عمن يكون؟"

هـــزّ **هاليفـــي** كتفيه: "أنا لا أطرح أسئلة على زبائني، وعدا ذلك، فالصورة ليست واضحة، كما أن الرجل ينظر إلى البعيد".

تحــرّك الـــرجل في مقعده. بدا أنه يرتاح قليلاً بعد معرفته أنّه ليس الشخص المطلوب، وأنّ الأمر يتعلق بصور الفيديو الأمنية التي صادرها الشرطة.

سأل **كلوديل**: "هل يسكن الرجل في هذه المنطقة؟"

"قلت لك لا أعرف".

"هل تذكّرك هذه الصورة بأي شخصٍ يتردد إلى هنا؟"

حدّق **هاليفي** بالصورة مجدداً.

"ربمـــا. ربما نعم. لكن هذه الصورة غير واضحة. أتمنى أن أساعدكم. أنا... ربما يكون رجلاً سبق لي أن رأيته".

رمقه **شاربونيو** بنظرة قاسية، وربما فكّر بالأمر نفسه الذي فكّرتُ أنا فيه. هل يحاول **هاليفي** أن يرضي الشرطة، أم أنه فعلاً رأى شيئاً مألوفاً لديه في الصورة؟

"مَن هو؟"

"أنا... أنا لا أعرفه. إنه مجرد زبون".

"ألديك فكرة عن عمل الرجل؟"

بدا وجه **هاليفي** خالياً من التعابير.

ازداد انـــزعاج **كلوديل**: "هل اعتاد الرجل على القدوم في الوقت نفسه من كـــل يوم؟ هل يأتي من الاتجاه نفسه؟ هل يشتري الأصناف ذاتها؟ وهل يحمل وشماً معيناً؟"

"ســـبق أن أخـــبرتُك. أنـــا لا أطرح الأسئلة، ولا ألاحظ. إنني أبيع أصنافي، وأتـــوجه إلى منـــــزلي ليلاً. يبدو لي هذا الوجه مثل الوجوه الأخرى. إنهم يأتون ويذهبون".

"متى يُقفل هذا المتجر؟"

"عند الثانية فجراً".

"هل يأتي في الليل؟"

"ربما".

انشغل **شاربونيو** بتدوين ملاحظاته على رزمة أوراقٍ ذات غلاف جلدي. لم يكتب الكثير إلى الآن.

"هل عملتَ البارحة في فترة ما بعد الظهر؟"

أومأ **هاليفي**: "كان المكان مزدحماً البارحة، لأنه اليوم الذي يسبق يوم العطلة، أليس كذلك؟ لعل الناس اعتقدت أنني لن أفتح هذا اليوم".

"هل رأيتَ هذا الرجل يدخل المتجر؟"

تفحص **هاليفي** الصورة مجدداً، ومرّر يديه الاثنتين على مؤخر رأسه، ثم أخذ يحكّ شعره بنشاط. تأفف قليلاً ورفع يديه دلالةً على العجز.

دسّ **شاربونيو** الصورة بين أوراق دفتر ملاحظاته وأغلقه، ثم وضع بطاقته على طاولة المكتب.

"إذا تذكرتَ أي شيء آخر يا **سيد هاليفي** اتصّل بنا. نشكرك على وقتك".

"بالتأكيد. بالتأكيد". التمعَ وجهه للمرة الأولى منذ رؤيته للشارة. "سأتصل".

قال **كلوديل** ما إن أصبحنا في الخارج: "بالتأكيد. بالتأكيد. سيتصل بنا ذلك الضفدع عند حصول معجزة".

أجاب **شاربونيو**: "إنه يعمل في ذلك المتجر، لكن الرجل مغفل".

عبرنا الشارع باتجاه السيارة. نظرتُ خلفي. رأيت الرجلين المسنّين في مكانهما قرب الباب. بدا الرجلان جزءاً من الديكور الثابت للمكان، أو مثل الكلاب الحجرية التي تحرس مدخل معبد بوذي.

قلت **لشاربونيو**: "أعطِني الصورة. أريدها لدقيقة".

فوجئ الرجل لكنه استخرجها. فتح **كلوديل** باب السيارة، فاندفع منها على الفور تيار ساخن يشبه ذلك الذي ينطلق من محرقة. وضع إحدى ذراعيه فوق الباب، ومدّ قدَماً وضعها على هيكل السيارة، ثم راح يراقبني. أخبرَ **شاربونيو** شيئاً عندما عبرتُ الشارع، لكنني لم أسمع، لحسن الحظ.

مشيتُ صوب الرجل العجوز الجالس إلى اليمين. كان يرتدي سروالاً قصيراً أحمر اللون، وقميصاً واسعةً، وجاربين سميكين، وانتعل حذاءً جلدياً. لاحظتُ دوالي شرايينه التي تغزو ساقيه النحيلتين، فبدا وكأن جلده الأبيض غير السليم

ينتشر فوق عُقَد من السباغيتي. اتخذ فمه ذلك الشكل البائس بسبب خلوّه من الأسنان، وامتدت سيجارة متدلية للأسفل من إحدى زاويتَي فمه.

قلت له: "صباح الخير".

"مرحباً". قالها وانحنى إلى الأمام قليلاً كي يريح ظهره المتعرق بسبب التصاقه بالجلد الممزق للكرسي. إما أن يكون الرجل قد سمعنا نتحدث، وإما أنه لاحظ لهجتي.

"يا لهذا اليوم الحار".

"مرّت علينا أيام أشد حرارة منه". تراقصت السيجارة في فمه أثناء كلامه.

"هل تسكن في مكان قريب من هنا؟"

مدّ ذراعه الهزيلة باتجاه **سانْ لوران**.

"أيمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟"

عكَسَ وضعية ساقيه ثم أومأ.

ناولته الصورة.

"هل سبق لك أن رأيتَ هذا الرجل؟"

أمسك الصورة بيده اليسرى، وأبعدها عنه قدر طول ذراعه، ثم رفع يده اليمنى كي يحجب الشمس عنها. طفا دخان سيجارته فوق وجهه. تفحّص الصورة لوقت طويلٍ إلى درجة ظننتُ معها أنه استغرق بالشرود. وراقبتُ هرةً ذات لونين رماديٍ وأبيض ومرقطة ببقعٍ حمراء تندسّ خلف مقعده لتعاود الطواف حول البناية، ثم اختفت عند زاويتها.

وضع الرجل المسّن الآخر يديه على ركبتيه، ثم نهض مصدراً همهمةً خافتة. كانت بشرته فاتحة اللون في ما مضى، لكنه بدا الآن وكأن مئةً وعشرين عاماً مضت على جلوسه على المقعد. عدّل الرجل وضعية حمّالتي سرواله، وانتقل إلى تعديل حزام سرواله، ثم اقترب منا. قرّب حافة قبعته **الميتز** حتى أصبحت بمستوى كتف رفيقه، ثم حدّق بالصورة. ناولني الرجل ذو الساقين الهزيلتين الصورة أخيراً.

"حتى والدة الرجل لن تعرفه من هذه الصورة التعيسة".

بدا الرجل الآخر أكثر ثقةً.

"يعيش الرجل في مكانٍ ما هناك". قال وهو يشير بإصبعٍ مصفرةٍ باتجاه مجمعٍ سـكنيٍّ متواضـعٍ مؤلفٍ من ثلاثة طوابق مسقوفة بالقرميد، وتكلّم بنبرة مشددة استطعتُ فهمها بصعوبة. افتقد الرجل إلى الأسنان الطبيعية، أو الصناعية، وبدا أنّ ذقنه تقترب من خدّه عندما يتكلم. أشرتُ، عندما توقف عن الكلام، إلى الصورة ثم إلى المبنى، فأومأ برأسه.

سألته: "هل يتردد إلى هنا عادةً؟"

"أجـل". أجابني رافعاً حاجبيه وكتفيه، ثم مدّ شفته السفلى إلى الأمام، ورفع راحته مرةً إلى الأعلى ومرةً إلى الأسفل في إشارة تدل على **عادةً**، أو **نوعاً ما**.

هزّ العجوز الآخر رأسه، وشخر باستهجان.

أشـرتُ باتجـاه **شاربونيو** و**كلوديل** كي يلحقا بي، ثم شرحتُ لهما ما قاله العجـوز. نظـر **كلوديل** إليّ كما لو أنه ينظر إلى زنبور يطن من حوله، أو كأن الـتعامل معي ليس إلا إزعاجاً لا مهرب منه. التقت عيناي بعينيه وكأنني أتحدّاه أن يقول شيئاً. عرف أنه كان يجدر به استجواب الرجلين.

أدار **شـاربونيو** ظهـره وراح يركّز على الرجلين من دون أن يعلّق بشيء. اكتفيتُ أنا و**كلوديل** بالوقوف والإصغاء. جرى الحديث بسرعة إطلاق الرصاص، وخـرجتْ أحرف العلة ممدودةً، بينما قُطعت نهايات الكلمات، لذلك لم أفهم إلا القلـيل من المحادثة. استطعتُ مع ذلك أن أفهم الخطوط العريضة بفضل الإشارات والإيماءات. قال ذو الحمّالتين إنّ الرجل يعيش في ذلك المجمع السكني، بينما عارضه الرجل ذو الساقين الهزيلتين.

اسـتدار **شاربونيو** مجدداً نحونا في النهاية، ومدّ رأسه نحو السيارة، وأشار لي و**كلوديل** أن نتبعه. شعرتُ عند عبورنا الشارع بمجموعتين من العيون تنصبّ على رقبتي.

10

استند **شاربونيو** إلى سيارة **الشيفي**، وتناول سيجارة من علبته وأشعلها. بدا جسده متوتراً مثل مصيدة معدة للانطلاق. بقي هادئاً للحظة، وجهد في استيعاب ما قاله العجوز. تكلّم أخيراً بفمٍ يبدو مثل خطٍ مستقيمٍ، بينما تحركت شفتاه بصعوبة.

سألَ: "ما رأيكم؟"

شعرتُ أنّ جدولاً صغيراً من العرق يتلوى تحت كنزتي وحتى أسفل ظهري، لكنني قلتُ متبرعةً: "يبدو من كلامهما أنهما يمضيان الكثير من الوقت هنا".

قال **كلوديل**: "قد يكونان رجلين يعرفان عما يتكلمان".

علّق **شاربونيو**: "أو قد يكونان مغفلَين". تنفس بعمق ونفض سيجارته بإصبعه الوسطى.

قال **كلوديل**: "لم يكونا الشاهدين المثاليين عند التفاصيل".

رد **شاربونيو**: "أجل، لكننا اتفقنا جميعاً على أنه يصعب تذكر الرجل، كما أنّ الأنذال مثله لا يظهرون كثيراً بين الناس".

قلتُ: "بدا الجدّ الثاني واثقاً جداً".

قال كلوديل مستهجناً: "قد لا يعرف العجوزان غير حانة الشراب وبنك الدم. أظن أنهما المكانين الوحيدين اللذين يعرفانهما".

أخذ **شاربونيو** نَفَساً أخيراً من سيجارته، ثم رمى عقبها وسحقها بحذائه: "قد يكون الرجل هنا، وقد لا يكون. لا أريد من جهتي أن أخمّن بطريقة خاطئة. أقترح أن نلقي نظرة، وأن نقبض عليه إذا وجدناه".

شـــهدتُ هزة أخرى من كتفَي **كلوديل**: "حسناً. لكنني لست مستعداً كي أحرق أصابعي. سأتصل كي أطلب قوةً مساندة".

غمَز بعينيه تجاهي، ثم نحو **شاربونيو**، ورفع حاجبيه.

هـــزّ **كلـــوديل** رأسه، واستدار حول السيارة، ثم دخلها من الجانب الآخر. استطعتُ أن أراه من خلال الزجاج وهو يتناول جهاز اتصاله.

التفت **شاربونيو** نحوي وقال: "ابقَي منتبهة. انبطحي أرضاً إذا حدث شيء".

ارتحتُ كثيراً لأنه لم يطلب مني أن أمتنع عن لمس أي شيء.

ظهـــر رأس **كلـــوديل** مجدداً في غضون أقل من دقيقة من خلال إطار باب السيارة.

قال: "هيا بنا".

دخلـــتُ إلى الـــسيارة وجلستُ على المقعد الخلفي، بينما ركب التحريان في المقدمـــة. أدار **شـــاربونيو** محرّك السيارة وتحرّك بها في الشارع، والتفت **كلوديل** نحوي.

"لا تلمـــسي أي شيء هناك. إن كان هو الشخص الذي نبحث عنه، فأنا لا أريد أن يفسد الأمر".

جهـــدتُ كـــي أكبح السخرية من صوتي: "سأحاول. إنني من الجنس الذي يفـــتقد لهرمونات **التيستوستيرون**، لذلك أجد صعوبة في بعض الأحيان في تذكّر أشياء كهذه".

أخـــرج الهواء من فمه، ثم عاد للاسترخاء في مقعده، وكنت متأكدة من أنه كان سيغمض عينيه ويبتسم بتكلف في ما لو تواجد أشخاص يقدرّونه.

قاد **شاربونيو** السيارة حتى الرصيف، وبدأنا جميعاً في تأمل المبنى الذي رُكنت الـــسيارة قبالته. قبع هذا المبنى وحيداً وسط أراضٍ فارغة. نبت العشب فوق أكوام الحـــصى وقطع الإسمنت، والزجاجات المكسورة، والإطارات القديمة، وكل أنواع الأنقـــاض الـــتي تتجمع في العادة في مساحات الأراضي المهجورة في المدن. رسم أحدهم رسماً جدارياً على الجدار المواجه للأرض. ظهر رسمُ عنـــزة يتدلى من كل أذن من أذنيها سلاح آلي. حملت العنـــزة هيكلاً عظمياً بشرياً في فمها. شككتُ أن يكون أي شخص قد فهم معنى هذا الرسم غير الفنان الذي رسمه.

"لم يرَه ذلك الولد الكبير اليوم". قال **شاربونيو** ذلك وهو يقرع بأصابعه على عجلة القيادة.

سأل **كلوديل**: "متى انطلقوا لمراقبة الحي؟"

أجـــاب **شـــاربونيو**: "عند العاشرة". نظر إلى ساعته، وفعل **كلوديل** مثله. سيكون **بافلوف** فخوراً. إنها 3:10 من بعد الظهر.

أضــــاف **شاربونيو**: "لعل الرجل يحبّ أن يتأخر بالنهوض، أو لعله تعب من جولته الميدانية البارحة".

"أو لعلـــه ليس هناك بالمرة، بينما يتهيأ هؤلاء المهووسين لأذية أنفسهم وهم يضحكون".

"ربما".

شــــاهدتُ مجموعة من الفتيات يعبرن الأرض الخالية التي تحيط بالمبنى. شبكت الفتـــيات أيديهنّ، كما تفعل المراهقات، وارتدين سراويل قصيرة حملت رسومات العلـــم **الكيبيكي**. بدت المراهقات مثل صف من زهور السوسن يتمايل بتناسقٍ تام مـــن خـــلال الحشائش البرية. جدّلت كل صبية من الصبايا شعرها بضفائر رفيعة، وملـــونة باللـــون الأزرق الفاتح. راقبتُ الفتيات عندما استغرقن بالضحك واللهو تحـــت حرارة فصل الصيف. تساءلتُ عن كيفية تمكّن رجل مجنون واحد من إطفاء الروح المعنوية العالية التي تتمتع بها فتيات صغيرات مثلهنّ. استطعتُ السيطرة على نـــوبة الغضب التي اجتاحتني. هل يُعقل أننا تواجدنا على بعد مسافة تقل عن عشر ياردات من ذلك الوحش؟

شـــاهدتُ خلفـــنا في تلك اللحظة دورية بالأزرق والأبيض وصلت بهدوء. خرج **شاربونيو** وتحدّث مع الضباط، وعاد في أقل من دقيقة.

قـــال لنا: "سيقومون بتغطية مؤخر السيارة". وأشار بعد ذلك إلى سيارة فرقة الشرطة. لاحظتُ حدّةً في صوته هذه المرة بعد أن اختفت السخرية منه. "***هيا بنا***".

بـــدأ **كلـــوديل** بالكلام ما إن فتحتُ الباب، ثم غيّر رأيه، وسار نحو الشقة. لحقتُ **بشاربونيو**. لاحظتُ أنه فكّ أزرار سترته، وأنّ ذراعه اليمنى متوترةٌ ومنحنيةٌ قلـــيلاً. شعرتُ بحالة حذرٍ عفوية، لكنني لم أستطعِ إدراك سبب حذري؟ ورحتُ أتساءل عن السبب.

بـــدا المبنى القرميدي واقفاً وحده بعد أن غادر جميع الجيران منذ مدة بعيدة. تـــراكمت الـــنفايات فـــوق مساحات الأراضي المجاورة، وتناثرت قطع كبيرة من الإسمنت بشكل عشوائي، وبدت مثل أحجار بقيت بعد انحسار الجليد، بينما امتد ســـياج من الحلقات الحديدية المتداعية والصدِئة على طول الجهة الجنوبية. لاحظتُ أنّ العنـــزة تواجه جهة الشمال.

وقفـــت ثلاثة أبواب قديمة بيضاء اللون جنباً إلى جنب. وكانت جميعها تنفتح على شارع **بيرغو**. امتدت أمام هذه الأبواب مساحة من الإسفلت حتى الرصيف.

طُلِيَ الرصيف ذات مرة باللون الأحمر، لكنه اتخذ الآن لون الدم الجاف.

عُلّقـــت علـــى نافذة الباب الثالث لوحة صدِئة، فشكّلت زاوية مع الستارة المزركـــشة والمتداعية التي زالت عنها ألوانها الأصلية. تمكّنتُ، بالكاد، من قراءة ما كُـــتب علـــى هـــذه اللوحة من خلال الزجاج الوسخ ***غرف للإيجار #1***. وضع **كلـــوديل** قدمـــه على أول درجة، وضغط على الزر الأعلى من الزرَّين الموجودَين قـــرب إطار الباب. لا جواب. ضغط مرة أخرى، وانتظر برهةً قبل أن يطرق على الباب.

"اللعـــنة!" صاح صوت في أذني مباشرة، وقد أجفلتني هذه الشتيمة **الكيبيكية** التي جعلت قلبي يقفز من مكانه.

استدرتُ ناحية الصوت الذي انطلق من نافذة في الطابق الأول، والتي لا تبعد عني أكثر من عشرين سنتمتراً إلى يساري. رأيتُ وجهاً عابساً من خلال الستارة، مظهراً الانـــزعاج الشديد.

"ماذا تظنون أنكم تفعلون؟ ستكسرون الباب، وستدفعون ثمنه".

تجاهل **كلوديل** ما قاله ذلك المغفل: "الشرطة".

"حقاً؟ أثبتوا لي أنكم من الشرطة".

قـــرّب **كلوديل** شارته من ستارة النافذة، فانحنى الوجه أكثر إلى الأمام، فتبيّن لي أنـــه وجه امرأة. كان وجهاً متورداً، ودميماً، يحيطه وشاحٌ شفافٌ معقودٌ بعناية كـــبيرة مـــن جهة أعلى رأسها. اتجهت نهايات الوشاح إلى الأعلى، وتطايرت مثل منـــسوجة حريرية. حمل وجه هذه المرأة شبهاً ملحوظاً مع وجه العنـــزة، ما عدا غياب الأسلحة عن أذنيها، وتسعين باونداً إضافياً.

"مـــاذا تريدون؟" تطايرت أطراف الوشاح في الهواء عندما راحت المرأة تنقّل أنظارهـــا مـــا بين **كلوديل وشاربونيو** وبيني. قررت المرأة أنني الأقل تهديداً لها من بينهم فأشارت نحوي.

قلتُ: "نود أن نطرح عليك عدة أسئلة". شعرتُ على الفور بأنني أقلّد صوت **جـــاك ويـــب**. بدت الجملة مستهلكةً بالفرنسية، مثلما كانت ستبدو بالإنكليزية، لكنني على الأقل امتنعتُ عن إضافة كلمة **مدام** في نهايتها.

"هل ستسألونني عن **جان مارك؟**"

رحـــتُ أتـــساءل عمن يكون **جان مارك** هذا: "لا أعتقد أنه من المناسب أن نتكلم في الشارع".

ظهـــر التردد على وجهها ثم اختفى. سمعنا بعد لحظات أصوات الأقفال أثناء انفـــتاحها، ثم فُـــتح الباب ورأينا امرأة ضخمة ترتدي فستان عمل منـــزلياً أصفر اللـــون مـــن البوليـــستر. لاحظنا أنّ العرق يغطي منطقتَي أسفل إبطيها وجذعها، واستطعتُ أن أرى العرق الممتزج بالأوساخ في ثنايا عنقها. فتحت المرأة الباب لنا، ثم استدارت وتهادت نـــزولاً نحو قاعة ضيقة، واختفت من خلال بابٍ موجود إلى اليـــسار. تبعـــناها واحداً بعد الآخرِ، ومشى **كلوديل** في المقدمة، بينما بقيتُ في الخلـــف. فاحت رائحة الملفوف والشحوم القديمة في المكان، وبلغت درجة الحرارة في الداخل نحو خمسة وتسعين درجة فهرنهايت.

ملأت المكان رائحة فضلات الهررة الكريهة، واكتظت شقتها الصغيرة بأنواع المفروشات الثقيلة والداكنة التي راجت في العشرينيات والثلاثينيات. شككتُ في أن يكون قماش المفروشات قد بقي كما كان في الأصل. ظهر ممر من الفينيل الشفاف فـــوق ســـجادة غرفة المعيشة. لاحظتُ أنّ السجادة ليست إلا تقليداً رثّاً لسجادة فارسية أصلية. لم أجد في المكان شيئاً مرتباً.

مـــشت المـــرأة بتـــثاقل نحو مقعد إلى جانب النافذة، تتكدس فيه بعض الأغـــراض، فجلـــست علـــيه بتثاقل. ترنحت إلى يمينها طاولة حديدية مخصصة للتلفـــزيون، فتمايلت مع الهزة علبة **بيبسي دايت**. جلستْ ونظرت بعصبية من خلال النافذة. تساءلتُ ما إذا كانت تنتظر أحداً، أو أنها لا تحب أن يقطع عليها أحد مراقبتها للشارع.

ناولتُها الصورة. نظرت إليها، وأخذت عيناها شكل يرقة تنقّب ما بين جفنيها المكتنـــــزين. رفعت بصرها نحونا وأدركت – وإن متأخرةً – بأنها وضعت نفسها في موقع لا تُحسد عليه. استفدنا من وضعنا لأننا كنا واقفين. نظرت نحونا ونقّلت بـــصرها مـــن شـــخصٍ إلى آخر. وبدا أنّ مزاجها قد بدأ يتنقّل ما بين العدواني والحذر.

بدأ **كلوديل**: "أنت...؟"

"**ماري إيف روشون**. لَمَ كل هذه الجلبة؟ هل يعاني **جان مارك** من مشكلة؟"

"هل أنت حارسةَ المبنى؟"

أجابت: "إنني أجمع الإيجار لصالح مالك المبنى".

تحركتْ في مقعدها، رغم ضيق المجال فيه. كان احتجاجها ظاهراً.

أشار **كلوديل** إلى الصورة: "أتعرفينه؟"

"أعرفه ولا أعرفه. إنه يسكن هنا، لكنني لا أعرفه".

"أين يقيم؟"

مـــدّت ذراعها فتمايلت كتل اللحم، وبدت مثل **التابيوكا**: "الشقة رقم 6، المدخل الأول في الطابق الأرضي".

"ما اسمه؟"

فكّـــرت قليلاً، وعبثت بشرود بطرف وشاحها. راقبتُ نقطة عرقٍ تصل إلى آخـــر مـــداها، فتفكّكت وانسابت عبر وجهها. "**سان جاك**. إنهم لا يستخدمون أسماءهم الحقيقية بالطبع".

انشغل **شاربونيو** بتدوين الملاحظات.

"منذ متى يسكن هنا؟"

"ربما منذ عام. مضت مدة طويلة على قدومه، كما أن معظم المقيمين هم من المتـــشردين. إنني لا أراهم كثيراً. أعتقد أنهم يأتون ويذهبون. إنني لا أعيرهم الكثير من الانتباه". أغمضت عينيها، وزمّت شفتيها بسبب كذبتها. "إنني لا أطرح الكثير من الأسئلة".

"أتعرفين أحداً بإمكانه التعريف عنه؟"

زفرت الهواء بصوتٍ مسموعٍ، وهزّت رأسها ببطء.

"هل يزوره أحد؟"

"قلـــتُ لك. لا أراه كثيراً". صمتت لبرهة. وهي تحرّك شالها باتجاه اليمين بسبب تلاعبها به، فابتعدت أذناها عن وسط رأسها. "يبدو أنه يقضي معظم أوقاته وحيداً".

نظر **شاربونيو** حوله: "هل كلّ الشقق مَثل هذه؟"

"شـــقتي هي الأكبر". زمّت زاويتَي فمها، وتحرّك ذقنها بشكل غير ملحوظ. وجـــدت المـــرأة وقتاً للكبرياء حتى في الظروف الضاغطة. " تبدو الشقق الأخرى محطّمة، وبعضها ليس إلا غرفاً تحتوي سخّانات وحمامات".

"هل هو هنا الآن؟"

هزّت المرأة كتفيها.

أغلق **شاربونيو** دفتر ملاحظاته: "يتعيّن علينا أن نتحدث معه. هيا بنا".

بدتْ مندهشة. "أنا؟"

"يُحتمل أن نضطر إلى دخول الشقة".

انحـــنت قلـــيلاً إلى الأمام ثم مسّدت ساقيها بيديها. اتسعت عيناها، وبدا أنّ أنفهـــا يتمدد. "لا أستطيع أن أفعل ذلك. سيُعتبر هذا خرقاً للخصوصية. تحتاجون إلى أمر تفتيش، أو إلى شيء من هذا القبيل".

رمقهـــا **شاربونيو** بنظرة قاسية، لكنه لم ينطق بشيء. تنهّد **كلوديل** بصوت عـــال، وكأنه ضجر من الحديث وخاب أمله فيه. شاهدتُ جدولاً صغيراً من المياه المكـــثّفة ينـــزل من علبة **البيبسي** ويلتحق بالحلقة الموجودة في أسفلها. لم يتحرك أحدٌ من الحاضرين أو ينطق بكلمة.

"حسناً، حسناً، لكنها فكرتكَ أنتَ".

تحركت من جانب إلى جانب، ثم اندفعت بمسارٍ مائلٍ إلى الأمام، مثلما يفعل قـــارب شـــراعي عندما تدفعه الرياح لمسافات قصيرة. تطاير فستانها المنـــزلي إلى الأعلـــى، فكشف مساحات كبيرة من لحمها المتعرّق. وضعت يديها الاثنتين على طرف الكرسي عندما حرّكت مركز الجاذبية عندها، فرفعتْ جسمها عند ذلك.

مشت نحو طاولة موجودة في الطرف البعيد من الغرفة. فتحت دُرْجاً وراحت تـــبحث فـــيه. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تحمل مفتاحاً بيدها، وتتفحص بطاقته. ناولتْه إلى **شاربونيو** بعد أن تأكدت من أنه المفتاح المطلوب.

"شـــكراً لكِ أيتها السيدة. إننا مسرورون لأننا سنتفحص الشقق بحثاً عن أي شيء غير قانوني فيها".

غلبها الفضول عندما تهيأنا للمغادرة. "مهلاً. ماذا فعل هذا الرجل؟"

قال **كلوديل**: "سنعيد لك المفتاح عندما نغادر". غادرنا، ومجدداً تركنا عينين مركّزتين على ظهورنا.

وجـــدنا أنّ الممـــر الموجود في المدخل الأول يماثل الممر الذي تركناه لتوّنا. شاهدنا أبواباً مفتوحةً على جانبَي الممر، أما في الخلف فلاحظنا وجود درجٍ شديد الانحـــدار يؤدي إلى الطابق العلوي. وجدنا أنّ الشقة رقم 6 هي الأولى إلى اليسار. خيّم الصمت الخانق والهدوء المخيف على المكان.

وقـــف **شاربونيو** إلى اليسار، أما **كلوديل** وأنا فوقفنا إلى اليمين. لاحظتُ أنّ ســـترتَي الـــرجلين واســـعتان على أكتافهما، لكن **كلوديل** وضع راحة كفّه على مقبض مسدسٍ من عيار 357. دق الباب. لا جواب. دق الباب للمرة الثانية، لكن النتيجة بقيَت هي ذاتها.

تـــبادل رجلا التحري النظرات. أومأ **كلوديل** وزمّ شفتيه بشدة، ثم مدّ رأسه إلى الأمـــام أكثـــر. أدخل **شاربونيو** المفتاح في القفل ثم فتح الباب. انتظرنا جميعاً، وجمدنا في مكاننا، واكتفينا بمشاهدة ذرات الغبار وهي تعود إلى مكانها.

"سان جاك؟"

لا شيء إلا الصمت.

"مسيو سان جاك؟"

لا شيء إلا الصمت مجدداً.

رفـــع **شـــاربونيو** راحة يده نحوي. انتظرتُ أثناء دخول رجلَي التحري، ثم تبعتُهما. تسارعت ضربات قلبي في صدري.

لم تحـــتوِ الغـــرفة إلا القليل من قطع الأثاث. شاهدتُ في أقصى زاوية اليسار ســـتارة زهرية اللون معلقة بحلقات صدئة تتدلى من قضيب شبه دائري. أفسحت هـــذه الـــستارة المجال من أجل إنشاء حمامٍ مؤقت. استطعتُ أن أرى تحت الستارة قاعدة خزانة، ومجموعة من الأنابيب ربما تكون موصولة مع مغسلة. بدت الأنابيب صـــدئةً جـــداً وحملت على أسطحها صيغةً ما من مستعمرة ناعمة، خضراء، تعجّ

بالحياة. شاهدتُ إلى يمين الستارة طاولةً طويلةً ذات سطح مصنوعٍ من **الفورميكا** قرب الجدار الخلفي. اشتملت هذه الطاولة على سخّانة، وعدة أكواب بلاستيكية، ومجموعةٍ غير متناسقة من الأطباق والصحون.

امـــتدّ على طول الستارة سريرٌ غير مرتب على طول الجدار الأيسر. لاحظتُ أنّ طاولةً صُنعت من ألواح الخشب المعاكس قد وُضعت على طول الجدار الأيمن. صُنعت قاعـــدة هـــذه الطاولة من ألواحٍ خشبية سميكة تُستخدم للنشر، وبدا واضحاً على كل لوحٍ ختم مدينة **مونتريال**. وُضعت رزماتٌ من الكتب والأوراق فوق سطح الطاولة.

غطـــت الخـــرائط والـــصور ومقالات الجرائد مساحة الحائط فوق الطاولة. شـــكّلت هـــذه المجموعة مساحة متنوعة من الملصقات امتدت على طول الطاولة. رأيـــتُ تحتها كرسياً معدنياً مطوياً. لاحظتُ أنّ النافذة الوحيدة الموجودة في الغرفة تقـــع إلى يمـــين الـــباب، وتتماثل مع النافذة التي أطلّت منها **مدام روشون**. تدلى مصباحان كهربائيان من السقف.

قال **شاربونيو**: "يا للمكان الرائع!"

"أجـــل. إنه آيةٌ من الجمال أستطيع وضعها إلى جانب **الهيربيس**، وشعر **برت راينولدس** المستعار".

تحرّك **كلوديل** نحو الحمّام، ثم تناول قلماً من جيبه، ثم جذب الستارة بحذر.

"أعتقد أنه يجدر بوزارة الدفاع أن تأخذ بعض العيّنات، لأن هذه الستارة قد تحتوي مواداً تُستخدم في الحرب البيولوجية". ترك الستارة ثم تقدّم نحو الطاولة.

رفـــع **شـــاربونيو** طرف حرام السرير مستخدماً مقدمة حذائه وقال: " ذلك النذل غير موجود هنا".

رحـــتُ أتأمـــل الأواني المطبخية التي وُضعت على سطحِ طاولة **الفورميكا**. رأيـــت كوبَي **إكسبو** يُستخدمان لشراب الشعير، وطبقاً قديماً يحتوي أشياء تشبه **الـــسباغيتي**. رأيتُ كميةً من الجبن مغمسةً بالمادة الموجودة في وعاء الخزف الصيني الأزرق. رأيتُ أيضاً كوباً من **البيرغر كينغ**، بالإضافة إلى عدة رزمٍ من البسكويت المملّح، مغلفة بورق **السيلوفان**.

اســـتندت إلى السخانة. فلسعتني حرارتها، فحوّلت دمي إلى كتلة من الجليد. استدرت نحو **شاربونيو**.

"إنه هنا!"

اختـــرقت كلمـــاتي الهواء في اللحظة ذاتها التي انفتح فيها الباب الموجود في الـــزاوية الـــيمنى من الغرفة. صدم الباب **كلوديل** **فأفقده** توازنه، والتصقت ذراعه الـــيمنى، وكتفه الأيمن، بالجدار. اندفع شخص ما عبر الغرفة وانحنى، ثم دفع رجليه باتجاه الباب الأمامي المفتوح. سمعتُ نَفَسه في حنجرته.

رفـــع هذا الهارب رأسه بعد اندفاعه المتهور عبر الغرفة. التقت عينان داكنتان بعـــينيّ، وحدّقـــتا بي من تحت حافة قبعته ذات اللون البرتقالي. شاهدتُ في تلك اللحظة القصيرة نظرة حيوان مرتعبٍ أكثر من أي شيء آخر. واختفى الرجل بمثل السرعة التي ظهر فيها.

استعاد **كلوديل** توازنه، وفتح مسدسه، ثم انطلق عبر الباب، واندفع **شاربونيو** وراءه. انضممتُ إلى المطاردة من دون أن أتردد.

11

كــاد ضوء الشمس يعميني عندما اندفعتُ إلى الشارع. تطلعتُ صوب **بيرغو** في محاولــة مني لإيجاد **شاربونيو وكلوديل**. انتهت المسيرة، فبدأت الحشود تتسلل مـــن **شيربروك**. رأيتُ **كلوديل** وهو يشق طريقه عبر الحشد. رأيتُ وجهه الأحمر المتوتــر عــندما كـــان يحثّ الناس المتعرقين على إفساح مجال العبور أمامه. سار **شـــاربونيو** وراءه تماماً ومد ذراعه ممسكاً شارته في قبضته، مستخدماً إياها كأداةٍ ليشقّ طريقه إلى الأمام.

اســتمر الحــشد بالمسير غير عابئ بما يجري. رأيت فتاة شقراء غزيرة الشعر تتلوى فوق كتفَي صديقها وقد أرجعت رأسها إلى الوراء، ورفعت ذراعيها ملوحةً بــزجاجة من **المولسون**. رأيتُ أيضاً رجلاً منتشياً يرتدي علَمَ **كيبيك** فوق عمود الإنارة. راح الرجل يشجع الحشد بصراخه ***"كيبيك للكيبيكيين!***" لاحظتُ حماسةً لدى الذين يرددون الهتافات لم تكن لديهم من قبل.

انحــرفتُ نحــو مكان خالٍ وتسلّقتُ كتلةً إسمنتيةً، ثم وقفتُ على أطراف أصابع قدميّ كي أستطيع إلقاء نظرة عامة على الحشد. لم أستطِع تحديد مكان **سان جاك**، هذا على افتراض أنّ هذا هو اسمه الحقيقي. تمتّع الرجل بميزة تواجده في مكـــان ســـكنه، لذلك استخدم جغرافية المكان من أجل الإبقاء على أبعد مسافة بينه وبيننا.

تمكنتُ من رؤية أحد أفراد فريق المساندة وهو يستبدل وحدة إرساله وينضم إلى المطـــاردة. طلب الرجل تعزيزات إضافية، لكنني شككتُ في أن تتمكن سيارة

جـــيب **كـــروزر** مـــن اختراق الحشود. اندفع الرجل وزميله باتجاه **بيرغر وسان كاثرين**، وسرعان ما أصبحا وراء **كلوديل وشاربونيو**.

اكتشفتُ فجأةً مكان وجود صاحب قبعة كرة القاعدة البرتقالية اللون. رأيته أمـــام **شاربونيو** الذي انعطف شرقاً نحو شارع **سان كاثرين**، لكنه عجز عن رؤيته بـــسبب كـــثافة البـــشر المتواجدين. رأيتُ **سان جاك** يتجه غرباً، لكنه اختفى في اللحظـــة الـــتي رأيتُه فيها. لوّحتُ بذراعيّ كي ألفت الانتباه، لكنني لم أُفلح. تاه **كلوديل** عن نظري، كما أنّ رجلَي الدورية لم يستطيعا رؤيتي.

قفـــزتُ، مـــن دون تفكـــير، من فوق الكتلة الإسمنتية التي كنت أقف عليها فأصـــبحتُ بـــين الحشد. فاحت روائح العَرَق، والمستحضرات الخاصة بالسمرة، وشـــراب الشعير الفاسد، من الأجساد المنتشرة من حولي، وامتزجت هذه الروائح كي تؤلف سحابة من الدخان الضبابي البشري. انحنيتُ وشققتُ طريقي من خلال الـــناس مـــستخدمةً لطافةً أقل من المعتاد، وذلك في محاولة مني للوصول إلى **سان جاك**. لم أكن أحمل شارة الشرطة كي تقدم عذراً لخشونتي، وهكذا حرصت على أن لا تلتقـــي عيناي بعينَي أحد أثناء تقدمي. تقبّل معظم الناس اندفاعي هذا بروحٍ طيـــبة، بينما توقف آخرون كي يكيلوا سيلاً من الشتائم لي، لكن معظمهم كانوا يعانون من حساسية تجاه الجنس الآخر.

حاولـــتُ أن أرى قبعة **سان جاك** البرتقالية اللون من بين مئات الرؤوس التي تحيط بي، لكن هذا كان أقرب إلى المستحيل. توجهتُ نحو النقطة التي رأيتُه فيها في الـــبداية، وشـــققتُ طريقي من خلال الأجساد البشرية مثل كاسحة جليد تشق طريقها عبر نهر **سان لوران**.

كـــدتُ أنجح. أمسكني أحدهم من الخلف عندما اقتربتُ من **سان كاثرين**. وأمـــسكتني يدٌ بحجم مضرب كرة المضرب، والتفّت حول عنقي، وشعرتُ أنّ قوةً تجذب جديلة شعري إلى الأسفل. اندفع ذقني نحو الأعلى، وسرعان ما شعرتُ، أو سمعـــتُ، قرقعةً في عنقي. جذبتني اليد إلى الخلف وضغطتني على صدر عامل بناء. شـــعرتُ بحرارة جسده ورائحة عرقه التي بلّلت شعري وظهري. اقترب وجهٌ من أذني، وسرعان ما وجدتُ نفسي غارقةً برائحة الشراب الفرنسي الفاسد، ورائحة دخان السجائر، ورائحة رقاقات البطاطا الفاسدة.

"أنت، من تلاحقين؟"

لم أتمكّن من الإجابة في وضعي هذا. وبدا أنّ ذلك قد زاد من غضبه، فأقدم على ترك شعري ورقبتي. وضع يديه على ظهري وما لبث أن دفعني بعنف. اندفع رأسي إلى الأمام مثل قاذف منجنيق. دفعتني قوة هذه الحركة نحو امرأة ترتدي سروالاً قصيراً، وتنتعل حذاءً ذا كعب عالٍ رفيع. صرخت المرأة، فتفرّق الناس قليلاً من حولنا. رفعتُ يديّ في محاولةٍ مني كي أستعيد توازني، لكنني تأخرت. فسقطتُ نزولاً واصطدمتُ بركبة أحدهم.

تزحلقتُ عندما اصطدمتُ بالرصيف فخدشتُ خدي وجبهتي، ثم وضعتُ ذراعيّ فوق رأسي في حركة عفوية لحماية نفسي. ضجّ الدم في أذنيّ، واستطعتُ أن أشعر بسطح الحصى الذي يضغط على خدّي الأيمن، وأدركتُ أن قسماً من جلدي قد انسلخ. حاولتُ أن أرفع جسدي عن الرصيف مستخدمةً يديّ الاثنتين، لكنّ حذاءً ضغط بقوة على أصابعي، فكادت أن تُطحن. لم أستطِع رؤية أي شيء غير ركبتيّ، وساقيّ، وقدميّ، بينما كانت الحشود تمر من فوقي، ويبدو أنهم لم يرَوني إلا حين كانوا يدوسون من فوقي.

استدرتُ على جنبي، وحاولتُ مجدداً أن أستند على يديّ وركبتيّ. منعتني الضربات غير المقصودة من الأقدام والسيقان من الوقوف. لم يتوقف أحدٌ كي يحميني أو يساعدني على الوقوف.

سمعتُ صوتاً غاضباً، لكنني شعرتُ أنّ كثافة الحشد قد خفّت قليلاً. وجدتُ من حولي مساحة فراغ. وبرزت راحةُ يد فوق وجهي، وتحركت أصابعها بيأس. أمسكتُ باليد وجذبتُ نفسي للأعلى. لم أصدّق أنني وقفتُ مجدداً كي أواجه ضوء الشمس والأوكسجين.

نظرتُ لأرى **كلوديل**. أفسح لي مجال الوقوف على قدميّ بصعوبة وسط الحشد مستخدماً ذراعه الأخرى. رأيتُ شفتيه تتحركان، لكنني لم أفهم ما قاله. بدا منزعجاً كالعادة، لكنه، مع ذلك، لم يظهر بمثل هذه الطيبة من قبل. أنهى كلامه وتوقف قليلاً، ثم راح يحدّق بي. راح يتفحص جرح ركبتي اليمنى، والخدوش التي انتشرت على مرفقيّ. رست عيناه على خدّي الأيمن الذي ملأته الخدوش والذي أخذ ينزف، بالإضافة إلى الورم الذي بدأ يظهر في منطقة عيني اليمنى.

تـــرك يدي ليتناول منديلاً ورقياً من جيبه، ثم أشار إلى وجهي. مددتُ يدي، فلاحظـــت أنها ترتعش. مسحتُ الدماء وبقايا الحصى عنها، وطويتها كي أحصل على جهة نظيفة منها، ثم وضعت المنديل على خدّي.

انحنى **كلوديل** وصرخ بأذني: "ابقَيْ معي!"

أومأت.

شـــقّ طريقه نحو الجهة الغربية من **البيرغو**، حيث خفّت كثافة الحشد. تبعتُه وأنا أجرجر ساقيّ المتعبتين. استدار، وبدأ يشق طريقه باتجاه السيارة. تقدمتُ نحوه وأمـــسكتُ بذراعـــه. توقف ونظر إليّ متسائلاً. هززتُ رأسي بقوة فتغيّر شكل حاجبيه من شكل V حاد إلى ما يشبه **ستان لوريل**.

أشرتُ في الاتجاه المعاكس وصرختُ به: "إنه موجود هناك. رأيتُه بنفسي".

مـــرّ رجل يرتدي زيّ **تويدلدي** بقربي. انشغل الرجل بتناول المثلجات، بينما تـــساقطت القطرات الذائبة، فارتسم خط أحمر على طول منطقة وسطه. بدا هذا الخط وكأنه ملوّث بالدماء.

رسم حاجبا **كلوديل** شكل الحرف V: "ستتوجهين إلى السيارة".

ظنـــنتُ أنه لم يسمعني، فكررتُ قولي: "رأيتُه في **سان كاثرين**. كان خارج **كهـــربائيات لافونـــتين!** اتجه الرجل نحو **سان لوران!**" بدا صوتي هستيرياً، حتى بالنسبة إليّ.

انتبهَ الآن، وتردد قليلاً عندما راح يتفحص الضرر الذي لحق بخدّي وأطرافي.

"هل أنتِ بخير؟"

"أجل".

"هل ستتوجهين إلى السيارة؟"

"أجـــل!" اســـتدار لينـــصرف. ""انتظر". رفعتُ ساقيّ المرتجفتين، الواحدة بعد الأخـــرى، فوق سلك معدني صدئ يرتفع إلى مستوى ما فوق الركبة، ويحيط بمساحة الأرض. انـــتقلتُ إلى كتلة إسمنتية أخرى ووقفتُ فوقها. رحتُ أتفحص بحر الرؤوس الـــذي يحيط بي، وبحثتُ عن صاحب قبعة كرة القاعدة البرتقالية اللون. لم أعثر عليه. راقـــبني **كلـــوديل** بـــنفاد صبر أثناء بحثي بين الحشود، وراح ينقّل بصره ما بيني وبين التقاطع، ثم عاد كي ينظر باتجاهي. ذكّرني بكلبِ مزلجةٍ ينتظر إشارة الانطلاق.

أخيراً، هززتُ رأسي ورفعتُ يديّ.

"اذهب. سأتابع البحث عنه".

عـــاد ليـــشق طريقه بين الجموع وسلك الاتجاه الذي حدّدته له. كان الحشد أمام **سان كاثرين** كثيفاً. مضت دقائق قليلة قبل أن يختفي رأسه بين بقية الرؤوس. بدا أنّ الحشد ابتلعه، كما يبتلع جيشٌ من الأجسام المضادة بروتيناً غريباً عنه. رأيته فرداً قبل لحظة، لكنه تحوّل بعدها إلى مجرّد نقطة في لوحة.

تابعتُ البحث حتى تعب نظري. جهدتُ كثيراً، لكن من دون جدوى، كي أســتطيع تحديد مكان **شاربونيو**، أو **سان جاك**. رأيتُ سيارة دورية للشرطة وهي تحـــاول الدخول بين الحشد المتجمع خلف **سان آربان**، ورأيتُ أضواءها الحمراء والـــزرقاء تلمع من بعيد. تجاهل المتظاهرون صوتها. لمحتُ لوناً برتقالياً مرةً واحدة، لكن تبيّن لي فيما بعد أنها امرأة ترتدي ثياب نمرٍ، وتضع ذيلاً، وتنتعل حذاءً رياضياً عـــالي الـــساقين. مرّت من أمامي بعد عدة لحظات ورأيتها تحمل قناع رأس النمر وتشرب **دكتور بيّر**.

ســـطعت أشـــعة الشمس بقوة، وشعرتُ بألمٍ في رأسي. أحسستُ أنّ قشرةً تتـــصلب على خدّي المخدوش. تابعتُ البحث بين الحشود مرةً بعد مرة. رفضتُ فكـــرة التخلـــي عن البحث، وقررتُ الاستمرار حتى عودة **شاربونيو وكلوديل**. أدركتُ أنه لا جدوى من البحث. فلقد سخر **سان جان** من مطاردتنا له، واختفى بين ضجيج النهار.

بعـــد مرور ساعة من الوقت، اجتمعنا عند السيارة. خلع رجلا التحري ســـترتيهما وربطتَي عنقيهما، وألقيا بهما على المقعد الخلفي. التمعت حبيبات العـــرق علـــى وجهيهما وانسابت على ياقتيهما. ابتلّت أيضاً مناطق ما تحت إبطيهما وظهريهما، أما وجه **شاربونيو** فتلوّن بلون فطيرة التوت البري، ووقف شـــعره في مقدمة رأسه، فذكّرني هذا المنظر بمنظر شعرٍ أضحكني في ما مضى. أحســـستُ أنّ كنـــــزتي وسروال العمل اللذين أرتديهما قد جاءا من الغسالة للـــتو. عادت حركة أنفاسنا إلى طبيعتها، وتفوهنا بكلمات الشتيمة أكثر من عشر مرات.

قال **كلوديل**: "اللعنة. أعتقد أنها بديل مقبول".

اســـتند **شاربونيو** إلى السيارة، ثم تناول علبة سجائر **بلايرز** من جيب سترته.

استند إلى دفاع السيارة وأشعل سيجارته، ثم أخرج الدخان من زاوية فمه.

"يـــستطيع ذلـــك اللعين أن يشق طريقه عبر الحشد كما يفعل صرصور بين الأوساخ".

قاومـــتُ دافعاً عندي كي أتفحص الضرر الذي أصاب خدّي، وقلت: "إنه يعرف طريقه جيداً في هذه المنطقة. وهذا الأمر يساعده كثيراً".

انشغل لبرهة في تدخين سيجارته.

" أتعتقدين أنه رجُلنا الذي ظهر مع آلة النقد، وهو الرجل الذي نبحث عنه؟"

قلت: "اللعنة، لا أعرف لأنني لم انظر إلى وجهه".

اســـتهجن **كلـــوديل** كلامي، ثم تناول منديلاً من جيبه، وبدأ بمسح العرق المتصبب من رقبته.

ركّزتُ عيني التي لا تؤلمني عليه: "هل تمكنتَ من التعرّف على هويته؟"

استهجانٌ آخر.

نظرتُ نحوه وهززتُ رأسي. تبخّرت سريعاً كل خططي بعدم التعليق.

"إنـــك تعاملني وكأنني لست بارعةً في عملي يا **مسيو كلوديل**. ها قد بدأت تستبعدني مجدداً".

ابتسم ساخراً مرة أخرى.

سألني: "كيف هي حال وجهك؟"

أجـــبتُ وسط أسنانٍ مطبقة: "بأفضل حال! أعتقد أنّ عملية تجميلية في مثل سنّي هي مكافأة".

"لا تتوقعي أن أنقذك إذا انطلقتِ مجدداً في عملية مطاردة للمجرمين".

"يتعيّن عليك تنظيم عملية القبضَ على المجرمين بطريقة أفضل في المرة القادمة، وعـــندها لن أحتاج لمساعدتك". شعرتُ باندفاع الدماء في جبهتي، وشددتُ على قبضتَيْ يديّ بحيث إنّ أظافري تركت آثاراً على باطن راحتَيّ.

قـــال **شاربونيو** بعد أن قذف بسيجارته بشكل قوسٍ واسع: "حسناً. يكفي التحدث بمثل هذه التفاهة. دعونا نقلب الشقة رأساً على عقب".

التفت صوب رجُلَيْ الدورية اللذين كانا واقفين بهدوء.

"استدعيا فريق مسرح الجريمة".

تحرك الرجل الأطول بينهما نحو سيارة الدورية: "فعلنا ذلك".

سِـــرنا جميعاً وراء **شاربونيو** بصمت نحو البناية القرميدية، ودخلنا الممر ثانيةً. انتظَرَنا رجل الدورية الآخر في الخارج.

أقفل أحدهم الباب الخارجي في فترة غيابنا، لكنّ الباب المؤدي إلى الشقة رقم 6 بقـــي مفتوحاً. دخلنا الغرفة وانتشرنا كما فعلنا من قبل، وكما يفعل ممثلون في مسرحية يتبعون التعليمات.

تحـــركتُ نحو الخلف، ولاحظتُ أن السخّانة قد بردت، لكن أشكال O من السباغيتي لم تتغير. تراقصت ذبابة على طرف المقلاة. ذكّرتني هذه الذبابة بالذبابات التعيسة الأخرى المتروكة وشأنها. لم يتغيّر أي شيء آخر.

سِـــرتُ نحو الباب الذي يقع في الزاوية اليمنى من الغرفة. تناثرت قطع صغيرة مـــن الجِـــصّ فوق أرض الغرفة، وهي التي تساقطت نتيجة اصطدام مقبض الباب بالجـــدار وبقـــوةٍ كبيرة. وجدتُ أنّ الباب نصف مفتوح. شاهدتُ سلماً خشبياً يـــؤدي إلى الطابـــق السفلي. يؤدي هذا السلم إلى استراحة تنتهي بانعطاف يبلغ تـــسعين درجـــة إلى اليمين قبل أن يختفي في الظلمة. اصطفّت علبٌ معدنية حول الاستراحة ووصلت حتى الجدار الخلفي. برزت خطّافات صدئة من الألواح الخشبية علـــى مـــستوى العـــيون. تمكنتُ من رؤية مفتاح كهربائي في الجهة اليسرى من الجـــدار. افـــتقد المفتاح للغطاء، فبرزت منه الأسلاك الملتفة مثل ديدانٍ علقت في كرتونة.

انـــضم إليّ **شـــاربونيو** ودفـــع الـــباب بقلمه إلى الخلف. أشرتُ إلى المفتاح الكهربائـــي فأســـرع إلى استخدام القلم ليضغط عليه. أضاء مصباحاً كهربائياً في مكـــان مـــا في الأســـفل، فانتشرت الظلال من حول درجات السلّم الخشبي في الأسفل. أصغينا وسط هذه الكآبة المخيمة. ساد الصمت. دخل **كلوديل** في إثرنا.

نـــزل **شاربونيو** إلى الاستراحة. توقف قليلاً، ثم نـــزل ببطء. تبعتُه وشعرتُ أنّ كـــل درجة تعترض بنعومة على نـــزولي. ارتعشت رجلاي المتعبتان، وشعرتُ كـــأنني فرغتُ لتوي من المشاركة بسباق الماراتون، لكنني قاومتُ دافعاً عندي كي ألمس الجدران. لم أرَ أمامي سوى كتفَي **شاربونيو** في ذلك الممر الضيّق.

شعرنا في الأسفل بالهواء الرطب، وبرائحة العفونة. أحسستُ وكأن حمماً منصهرة أصابت خدّي، لذلك اعتبرتُ أنّ البرودة تريحني جداً. نظرتُ من حولي. كانت غرفةً سفليةً عاديةً، وقدّرتُ أنّ مساحتها تصل إلى نصف مساحة المبنى. شُيّد الجدار الخلفي من أحجار إسمنتية غير مصقولة، لكنني قدّرتُ أنها أُضيفت لاحقاً كي تقسّم المساحة الكبيرة. رأيتُ إلى اليمين حوض غسيل معدنياً، وطاولة خشبية طويلة. لاحظتُ أنّ الطلاء الزهري اللون بدأ يتقشّر من الطاولة. رأيتُ مجموعة من فراشي التنظيف التي اصفرّت شعيراتها وغطتها خيوط العنكبوت. لاحظتُ وجود خرطوم مياه أصفر اللون وقد لُفّ بعناية على الجدار.

امتد فرنٌ كبير الحجم إلى اليمين وتفرعت قنواته مرتفعة مثل جذوع شجرة بلوط. انتشرت كومة من النفايات حول قاعدته. تمكّنتُ من رؤية إطارات صورٍ مكسورة، وإطارات دراجات هوائية، ومقاعد ملتوية، وعلَب طلاء فارغة، وخزانة صغيرة. بدت هذه المهملات مثل تقدمات في المعابد القديمة.

رأيتُ مصباحاً كهربائياً متَدلياً في وسط الغرفة، لكنه لم يصدِر إلا كمية ضئيلة من الضوء. أما ما تبقى من الغرفة فكان فارغاً تماماً.

حدّق **شاربونيو** في السلّم الخشبي، ووضع يديه على وركيه، ثم قال: "لا بد أنّ ذلك اللعين كان ينتظر في الأعلى".

داس **كلوديل** كومة المهملات بطرف حذائه وقال: "كان على **السيدة فاتاس** أن تبلغنا أنّ الرجل يمتلك مثل هذا المخبأ الصغير".

تأثرتُ لهذه الإشارة الأدبية، لكنني لم أقل شيئاً التزاماً مني بخطة الحياد. بدأتُ أشعر بالألم في ساقيّ، وأنّ هناك شيئاً على غير ما يرام في رقبتي.

"كان باستطاعة الوغد أن يهاجمنا من وراء ذلك الباب".

لم أعطِ رداً، وكذلك فعل **شاربونيو**. فكّرتُ وإياه بالأمر ذاته.

حرّر **شاربونيو** يديه، وتوجّه نحو السلّم، وبدأ يتسلّقه. تبعتُه وأنا أشعر مثل **تونتو** قليلاً. واجهتني الحرارة عندما دخلتُ إلى الغرفة. تقدمتُ نحو الطاولة وبدأتُ بتفحص تلك المجموعة من الصور المعلقة فوقها.

لاحظتُ أنّ أهمّها كان خريطة منطقة **مونتريال**. أحاطت بمجموعة من صور المجلات والجرائد المقتطعة بهذه الخريطة. لاحظتُ أيضاً أنّ الصور التي تقع في الجهة

اليمنى ما هي إلا صورٌ جنسية اعتيادية مقتطعة من إحدى المجلات. ظهرت الفتيات في هذه الصور بأوضاعٍ مختلفة، إما من دون ثيابٍ بشكل كلّي، وإما أنّ الثياب لم تكــن في أماكــنها المناسبة. ظهرت وجوه بعضٍ الفتيات عابسةً، بينما تظاهرت أخـــريات بالنـــشوة الكاملة. لم تبدُ أيٌّ منهن مقنعة. بدا أنّ من قام بتجميع هذه الـــصور كـــان انتقائـــياً في ذوقه. لم يُظهر الرجل تفضيلاً خاصاً لنوع معيّن من الأجـــساد، أو لجنسٍ، أو للون شعر. لاحظتُ أنّ أطراف الصور مقصوصةً بعناية، وقـــد وُضـــعت الصور على أبعادٍ متساويةٍ من بعضها البعض، وقد ثُبّتت جيداً في مكانها.

احـــتلّت مجموعة من مقالات الصحف المساحة الموجودة إلى يسار الخريطة. لاحظـــتُ أنّ مقـــالات قليلة منها مكتوبةٌ باللغة الإنكليزية، لكن معظمها كانت بالفرنـــسية. لاحظتُ أيضاً أنّ المقالات الإنكليزية مصحوبة بالصور. اقتربتُ أكثر، وقـــرأتُ بعض الجمل التي تحدثت عن أمرٍ مهمٍ في إحدى دور عبادة **درموندفيل**. انتقلتُ إلى مقالة بالفرنسية تحدثت عن حادثة خطفٍ في **سينيفيل**. انتقلت ببصري إلى إعـــلان تحـــدث عن مؤسسة **فيديودروم**. ادّعى الإعلان أنّ المؤسسة هي أكبر مـــوزّعٍ للأفـــلام الجنسية في كندا. لاحظتُ وجود مقالة مقتطعة من ***ألو بوليس*** تحـــدثت عن حانة رقص خلاعي. بدت في هذه المقالة "**بابيتي**" وهي ترتدي أربطةً جلديـــةً متصلةً بحلقات معدنية. رأيتُ مقالةً أخرى تحدثت عن حادثة اقتحام دار عـــبادة **سان بول دو نورد** حيث صنع اللص لعبةً من ثياب ضحيته الليلية، وطعنها مـــراتٍ عديدة، ثم تركها على سريرها. اكتشفتُ بعد ذلك أمراً أحال الدماء إلى جليدٍ في داخلي.

جمع **سان جاك** ثلاث مقالات مقصوصة ومثبتة بعناية تامة. تحدثت كل مقالة مـــنها عـــن قاتلٍ تسلسلي. لاحظتُ أنّ هذه المقالات هي نسخٌ مصورة، بخلافً المقـــالات الأصليةً الأخرى. تحدثت المقالة الأولى عن **ليوبولد ديون**، وحش **بون روج**. اكتشفته الشرطة في منـــزله مع جثث أربعة شبان في ربيع العام 1963. أقدم هذا القاتل على قتل الشبان الأربعة خنقاً.

روت المقالـــة الثانـــية مآثـــر **وايـــن كليفورد بودين** الذي أقدم على خنق واغتـــصاب نـــساء في **مونتـــريال وكالغاري** بدءاً من العام 1969. بلغت حصيلة

ضحاياه أربعاً عند اعتقاله في العام 1971. كتب أحدهم على هامش المقالة كلمتي **بيل الخانق**.

تحدثت المقالة الثالثة عن مآثر **ويليام دين كريستنسون**، الذي يحمل لقب **بيل السفّاح**، وهو المغتصِب الذي ظهر في منطقة **مونتريال**. قتل الرجل امرأتين في أوائل الثمانينيات، وقطّع جثتيهنّ وشوههما.

قلتُ، ومن دون أن أوجّه كلامي إلى شخصٍ معيّن: "انظروا إلى هذه". اجتاحتني موجة برودة رغم الحرارة الشديدة في الغرفة.

اقترب **شاربونيو** ووقف خلفي، وأخذ يتفحص القصاصات الموجودة إلى يمين الخريطة، وبدأ يقرأ: "أوه يا عزيزتي، عزيزتي... الحب من زاويته الواسعة".

أشرتُ إلى المقالات، وقلت: "هنا. انظر إلى هذه".

انضمّ **كلوديل** إلينا، وأخذ الرجلان يتفحصان المقالات بصمت. فاحت منهما رائحة العرق، والقطن المغسول، وعطر ما بعد الحلاقة. استطعتُ أن أسمع في الخارج امرأةً تنادي **صوفي**. تساءلتُ ما إذا كانت تنادي طفلاً، أم حيواناً أليفاً.

قال **شاربونيو** بعد أن استوعب فحوى المقالات: "يا للفظاعة!"

علّق **كلوديل** ساخراً: "إنّ هذا لا يجعله **شارلي مانسون**".

"كلا، لكن لعل الرجل كان يحضّر لأطروحته النهائية".

لاحظتُ، للمرة الأولى، شيئاً من القلق في صوت **شاربونيو**.

مضى **كلوديل** بالقول: "لعل الرجل كان يعاني من أوهام العظمة، أو لعله شاهد ما فعله **الإخوة ميننديز**، وظن أنهم جادّون. أم لعله يظن نفسه **دودلي دورايت** ويريد أن يحارب الشر، أو لعله يتمرّن على الفرنسية ووجد أنّ هذه أكثر إثارة للاهتمام من **تان تان**. كيف لي أن أعلم بحق الجحيم؟ إنّ ذلك لا يجعله في مصاف **جاك السفّاح**". التفتَ نحو الباب: "أين فريق استعادة مسرح الجريمة بحق الجحيم؟"

رحتُ أفكّر في نفسي أيها النذل! لكنني لم أنطق بكلمة.

حوّلتُ انتباهي، أنا **وشاربونيو**، نحو الطاولة. رأينا رزمةً من الجرائد من جهة الحائط. استخدم قلمه ليتفحص هذه الرزمة، وأخذ يرفع أطراف الجرائد واحدةً بعد

الأخـــرى ويتـــركها. احتوت الرزمة على إعلانات عن وظائف مطلوبة، وردت معظمها في جريدتَي **لا برس وغازيت**.

قـــال **كلوديل** ساخراً: "لعل ذلك الضفدع كان يبحث عن وظيفة، وأراد أن يكون **بودين** مرجعه".

لاحظـــتُ وجـــود شيء ملوّن بالأصفر في الأسفل عندما رفع الجريدة لبرهة قصيرة: "ما هو ذلك الشيء في الأسفلً؟"

دفع **شاربونيو** بالقلم داخل الرزمة ثم رفعها نحو الأعلى، فاقتربت من الجدار. شاهدتُ رزمةً صفراء في الأسفل. رحتُ أتساءل ما إذا كانت الحسابات جزءاً من التمـــرينات المطلوبة من رجال التحري. ترك رزمة الجرائد تسقط إلى مكانها على ســـطح الطاولـــة، ثم دس القلم إلى خلف الرزمة، ثم دفع الرزمة الصفراء إلى الأمام فأصبحت ظاهرةً للعيان.

كانـــت رزمـــة أوراق صـــفراء ومسطرة، وهو النوع الذي يفضله المحامون. لاحظنا أنّ الورقة العليا مليئةً بالكتابات. حملها **شاربونيو** بظاهر يده ثم دفع الرزمة الصفراء إلى مجال الرؤية الكاملة.

لا يعـــدّ تأثير قصص القتلة التسلسليين شيئاً بالنسبة لما شعرتُ به عندما قرأتُ مـــا كُتب على تلك الورقة. لم أستطِع كتمان الخوف الذي شعرتُ به في أعماقي، فسيطر عليّ بالكامل.

إيـــزابيل غاغنون. مارغريت آدكينـــز. لم أستطع أن أنسى اسميهما. كانتا جـــزءاً من لائحة تضم سبعة أسماء كُتبت على هامش الورقة الصفراء. رأيتُ صفاً مـــن الأعمدة بعد الأسماء الواردة في الصفحة تفصل في ما بينها خطوط عامودية. بدت الصفحة مثل مسودة جدولٍ تحتوي معلومات شخصية عن كل شخص ورد اسمه في اللائحة. لم يحمل هذا الجدول فروقاتٍ كبيرة عن جدولي الذي أعددته، ما عدا أنني لم أستطِع تمييز الأسماء الخمسة الأخرىً.

احتوى العمود الأول العناوين، أما العمود الثاني فاحتوى أرقام الهواتف، بينما احـــتوى العمـــود الـــثالث ملاحظات مختصرة عن أماكن السكن: المنـــزل ورقم المـــدخل الخارجـــي. الشقة، الطابق الأول. البيت والباحة. احتوى العمود التالي مجمـــوعاتٍ مـــن الأحرف كُتبت وراء بعض الأسماء، بينما تُركت الأسطر المقابلة

لأسماءٍ أخرى فارغة. تطلعتُ إلى السطر الذي يضمّ اسم **آدكينـــز**. وردت كلمتا **هـــو** و**ســـو** بعده. بدت هذه المجموعة مألوفة بالنسبة إليّ. أغمضتُ عينيّ وأجريتُ مسحاً في ذاكرتي بحثاً عن هذه الكلمات في قوائم القرابة.

قلـــتُ: "إنهـــم الأشخاص الذين عاشت الضحايا معهم. خذ **آدكينـــز** على سبيل المثال. يشير الاختصاران إلى الزوج والابن".

قال **شاربونيو**: "أجل. عاشت **غاغنون** مع شقيقها وعشيقها".

أضاف **كلوديل**: "حقاً؟ ماذا تعني كلمة **دو**؟" أشار **كلوديل** إلى العمود الأخير. كتب **سان جاك** كلمات مقابل بعض الأسماء، بينما لم يكتب شيئاً مقابل أسماء أخرى.

لم يمتلك أحدٌ منا إجابة جاهزة.

قلـــب **شاربونيو** الصفحة الأولى، فاستغرق الجميع في قراءة مجموعة الملاحظات التالـــية. قسّمت هذه الصفحة إلى نصفين، وحملت اسماً في أعلاها، وآخر في منتصفها. ظهرت تحت كل اسم مجموعة أخرى من الأعمدة. حملت الأعمدة إلى اليسار عناوين **التاريخ**، **الداخل**، **والخارج**. مُلئت الأماكن الفارغة بالتواريخ والأوقات.

صـــاح **شاربونيو**: "يا الله! لقد طاردهنّ، بعد أن انتقاهنّ ولاحقهنّ مثل طائرٍ مفترس".

لم يقل **كلوديل** شيئاً.

كـــرّر **شاربونيو** كلامه، وكأنه يعيد صياغة العبارات بحيث تصبح أكثر، أو أقلّ، قبولاً: "لاحق ذلك اللعين المريض النساء".

قلتُ بهدوء: "لعله مشروع بحث، ولم ينهِه بعد".

سأل **كلوديل**: "ماذا؟"

"ماتت **آدكينـــز** و**غاغنون**. إنّ هذه التواريخ حديثة. من هنّ الأخريات؟"

"اللعنة!"

صـــاح **كلوديل** قبل أن يختفي في الرواق: "أين فريق استعادة مسرح الجريمة بحق الجحيم؟" سمعتُ شتائمه في وجه رجل الدورية.

عـــدتُ بنظري إلى الجدار. لم أعد راغبة بالتفكير في اللائحة لما تبقى من هذا الـــيوم. شعرتُ بالحرارة، والتعب، والألم. لم أجد راحة في إدراكي أنني ربما على حق، وأنه يُحتمل أن أعمل أنا و**كلوديل** على هذه القضية.

نظـــرتُ إلى الخريطة، وبحثتُ فيها عن أي شيء يسلّيني. كانت خريطة كبيرة تظهـــر تفاصـــيل الجزيـــرة، والنهر، وخليط الجاليات التي تؤلف مدينة **مونتريال**، والمـــناطق المحـــيطة بها، بألوان قوس القزح. بدت مناطق الجاليات باللون الزهري تقطعهـــا الـــشوارع الملوّنة باللون الأبيض، والتي تتصل بعدة طرقات ملونة باللون الأحمـــر، وطـــرقات واســـعة باللون الأزرق. انتشرت على الخريطة المتنـــزهات الخـــضراء، وميادين الغولف، والمقابر. لُوّنت المؤسسات باللون البرتقالي، أما مراكز التسوّق فكانت باللون الأرجواني، أما المناطق الصناعية فأشيرَ إليها باللون الرمادي.

عيّنتُ مكان وسط المدينة واقتربتُ أكثر في محاولةٍ مني لتعيين الشارع الصغير الذي أسكن فيه. إنّ المجمّع السكني الذي أقطنه ليس كبيراً، لذلك بحثتُ عنه لبعض الوقت. بدأتُ أفهم لماذا تجد سيارات الأجرة صعوبة في إيجاده عندما أحتاج إليها. عزمتُ على أن أكون أكثر صبراً في المستقبل، أو على الأقل أكثر تحديداً. حددتُ مكـــان تقاطع غرب **شيربروك** مع شارع **غاي**، لكنني اكتشفتُ أنني ذهبت بعيداً جداً. أصابتني الصدمة الثالثة لهذا المساء.

وضـــعتُ إصـــبعي فوق **آتواتر**، وهو المكان الذي يقع مباشرة خارج المضلّع الـــبرتقالي الـــذي يحدّد **لا غراند سيميناير**. لفت نظري رمز صغير رُسم بقلمٍ في زاويـــتها الجنوبية الغربية. يتضمن الرمز دائرة مع علامة X في داخلها. لاحظتُ أنّ هذا الرمز يشير إلى مكانٍ قريب من المكان الذي وجدتُ فيه جثة **إيزابيل غاغنون**. شـــعرتُ بتزايد ضرباتٍ قلبي، ثم انتقلتُ كي أفتش في الطرف الشرقي من المنطقة، وحاولتُ إيجاد الملعب الأولمبي.

قلتُ بصوت متوتر ومرتجف: "**مسيو شاربونيو**، انظر إلى هذه".

اقترب مني أكثر.

"أين هو الملعب؟"

لمس مُوقعه بالقلم ثم نظر نحوي.

"أين تقع شقة **مارغريت آدكينـــز**؟"

تـــردد للحظـــة، ثم اقترب أكثر، وبدأ بتعيين الشارع الذي ينطلق جنوباً من **بـــارك مايزونيف**. جمُد قلمه في الهواء ما إن حملقنا سوياً في ذلك الشكل الصغير. كانت علامة X مرسومة داخل دائرة.

"أين عاشت شانتال تروتييه؟"

"عاشت في **سانت آندي بيلفيو**. يبعد كثيراً عن هذا المكان".

حدّقنا في الخريطة سوياً.

قلتُ مقترحة: "دعنا نبحث بطريقة منظمة. سأبدأ بالزاوية العليا إلى اليسار ثم سأنتقل جنوباً. ابدأ أنتَ بالناحية اليمنى السفلية ثم اتّجه إلى الأعلى".

وَجـــدها قبلـــي. علامة X الثالثة. كانت العلامة عند الشاطئ الجنوبي، قرب **سان لامبيرت**. لم يعرف **شاربونيو** عن جرائم قتل وقعت في تلك المنطقة، وكذلك كـــان الحال مع **كلوديل**. بحثنا عن علامة أخرى لمدة عشر دقائق أخرى، لكننا لم نجد إشارات X أخرى.

كـــنا علـــى وشك البدء بالبحث مجدداً عن علامات أخرى، عندما ظهرت أمامنا عربة فريق مسرح الجرائم.

دخـــل الرجال من خلال الباب حاملين صناديقهم المعدنية. بادرهم **كلوديل** بالسؤال: "أين كنتم بحق الجحيم؟"

قـــال **بيار جلبير**: "يشبه الأمر القيادة في منطقة **وودستوك**، لكن مع وجود وحلٍ أقل". أحاطت وجهه لحيةٌ مجعدةٌ، وشعرٌ أكثر تجعداً، ذكّرني بإلهٍ رومانيٌّ. لم أستطِع تحديد اسمه بالضبط. "ماذا لدينا هنا؟"

قال **كلوديل**: "لربما لدينا قاتل فتيات أوقعهنّ سوء حظهنّ في هذا المنـــزل أو ربما الوكر الصغير".

أشار إلى الغرفة بحركة سريعة من ذراعه: "كرّس نفسه للعمل بالكامل في هذا المكان".

قال **جلبير** مبتسماً: "سنعرف كيف سنخرجه منه". التصقت خصلات شعره الدائرية بجبهته الرطبة. "سنبدأ العمل على الفور".

"يوجد طابق سفلي أيضاً".

"***وي*** (نعـــم)". خرجت الكلمة بلهجة سؤال ***واي؟*** صاعدةً ومنخفضةً رغم التغيّر الذي طرأ على نغمة هذه الكلمة.

"لمـــاذا لا تبدأ من الأسفل يا **كلود**؟ وأنتَ يا **مارسي** ابدأ بالطاولة الموجودة هناك".

تحـــرك **مارســـي** إلى أقصى الغرفة. تناول علبةً من حقيبةٍ معدنية وبدأ برشّ مـــسحوق أســـود اللـــون على طاولة **الفورميكا.** توجّه التقنيّ الآخرُ إلى الطابق الـــسفلي. ارتدى **بيار** قفازيه المطاطيين وبدأ بنـــزع قصاصات الجرائد عن سطح الطاولـــة ووضعها في كيسٍ بلاستيكيٍّ كبير. تلقيتُ في تلك اللحظة بالذات آخر صدمة لي لهذا اليوم.

رفـــع كيـــساً صغيراً مربع الشكل وقال: "ماذا تعرفين عن هذا؟" مرّت فترة طويلة وهو يتفحصه ثم قال: "هل يخصّك؟"

فوجئتُ عندما رأيته ينظر إليّ.

مـــشيتُ نحوه بصمت، ونظرتُ إلى الكيس الذي يحمله. شعرتُ بتوتر كبير عندما رأيتُ سروال الجينـــز الذي أرتديه، وبالتأكيد كنـــزتي **الإيرلندية**، ونظارتي الـــتي تحمل ماركة **باوش ولومب.** أمسك بيده المغطاة بالقفاز الصورة التي ظهرت في صحيفة ***لو جورنال*** في ذلك الصباح.

وجـــدتُ نفسي، للمرة الثانية في ذلك اليوم، حبيسة ذكريات عامين مضيا. قُطعت الصورة بالدقة ذاتها التي قُطعت بها باقي الصور المعلقة على الجدار، لكن مع وجود فرقٍ واحد. رُسمت دائرة حول صورتي، وأُحيطت ثانية بخط القلم، بالإضافة إلى وجود علامة X كبيرة فوق صدري.

12

نمــتُ كثيراً في عطلة نهاية الأسبوع تلك. حاولتُ النهوض صبيحة السبت، لكنّ ذلك لم يستمر طويلاً. شعرتُ أنّ ساقيّ ترتعشان، وعندما حاولتُ أن أستدير برأسي كانت وخزات الألم تخترق رقبتي، وتمسك بأسفل جمجمتي. شعرتُ بتصلب في وجهي مثلما هي الحالة التي يسببها **مرهم برولي،** وبدت عيني اليمنى مثل إجاصة فاســدة. كانــت عطلــةً حفلت بتناول الحساء، وحبوب الأسبرين، واستخدامً المطهــرات. أمــضيتُ أياماً وأنا غافية على أريكتي. شاهدتُ الكثير من **أو. جي. سيمبسون** المسلية على جهاز التلفزيون. وأويتُ إلى فراشي عند الساعة التاسعة.

يــوم الإثــنين، هدأت كسارة الأحجار في رأسي، واستطعتُ المشي، لكن بــصعوبة، وكــذلك واجهتني صعوبة في إدارة رأسي يمنةً ويسرةً. نهضتُ باكراً في ذلك اليوم، واستحممتُ، ووجدتُ نفسي في مكتبي عند الساعة الثامنة والنصف.

وجــدتُ ثلاثة طلبات على طاولتي. تجاهلتُها، وطلبتُ رقم **غابي**. ردّت عليّ آلــتها المجيــبة. حضّرتُ لنفسي كوباً من القهوة السريعة التحضير، وبدأتُ بفتح الرسائل الهاتفية التي وجدتها في صندوقي الخاص. جاءت الرسالة الأولى من **فردان،** أمــا الرســالة الثانية فكانت من **آندرو رايان،** وجاءت الرسالة الثالثة من مراسلٍ صحفي. رميتُ الرسالة الأخيرة، ووضعتُ الرسالتين الأخريين قرب جهاز الهاتف. لم أتلقَ اتصالاً من **شاربونيو** أو **كلوديل،** ولا حتى من **غابي.**

اتصلتُ بغرفة فرقة **شرطة مونتريال** وطلبتُ التحدث مع **شاربونيو.** قالوا لي بعــد فتــرة إنه ليس موجوداً هناك. لم يكن **كلوديل** موجوداً هو الآخر. تركتُ

رسالةً لهما، وتساءلتُ عما إذا كانا قد انطلقا في عملهما في شوارع المدينة باكراً، أو أنهما تأخرا في الوصول.

اتــصلتُ **بآنـــدرو رايـــان** لكن خطّه كان مشغولاً. لم أفلح بالاتصال بأي شخصٍ هاتفياً، لذلك قررتُ أن أتوجه شخصياً إلى هناك. توقعتُ أن يحدثني **رايان** عن **تروتييه**.

استقلّيتُ المصعد حتى الطابق الأول، ثم توجهتُ نحو غرفة الفرقة. لاحظتُ أنّ الجو فيها أكثر حيويةً مما كان عليه في زيارتي الأخيرة. شعرتُ أنّ عينين تحدقان بي عندما سرت نحو طاولة **رايان**. أحسستُ بشعور غامضٍ من عدم الارتياح. لا شك في أنّ صاحبهما قد علم بما جرى لي يوم الجمعة.

مـــدّ **رايان** يده لمصافحتي، ونهض من مقعده. ظهرت ابتسامة على وجهه الـــذي يمـــيل إلى الاستطالة، وذلك عندما رأى أثر الخدوش على خدّي الأيمن، وقـــال بالإنكليـــزية: "دكـــتورة **برينان**، هل تجرّبين ظلاً جديداً من مساحيق التجميل؟"

"هـــذا صحيح. إنني أجرّب اللون القرمزي الإسمنتي. تلقيتُ رسالة منك. هل اتصلتَ بي؟"

بقي وجهه خالياً من كل تعبير للحظة من الزمن.

"أوه، أجـــل. اســـتخرجتُ الملف الخاص **بتروتييه**. تستطيعين إلقاء نظرةٍ إذا أردت".

انحـــنى إلى الأمام وقلّب بعض الملفات الموجودة على طاولته، ثم نشرها أمامه بشكل مروحة. انتقى ملفاً وناولني إياه في اللحظة التي دخل فيها زميله إلى الغرفة. تقـــدّم **برتران** نحونا. لاحظنا أنه يرتدي سترةً رياضيةً بلون رماديٍّ فاتحٍ، وارتدى معهـــا سروالاً يتناسب معها، لكن بلون رمادي أغمق قليلاً، وقميصاً أسود اللون، وربطة عنقٍ ذات ألوان سوداء وبيضاء. بدا مثل الشخصيات التي كانت تظهر على شاشات أجهزة تلفزة أيام الخمسينيات.

"كيف تجري الأمور يا **دكتورة برينان؟**"

"عظيمة جداً".

"واو، يا للمساحيق الجميلة!"

بحثتُ من حولي عن مكان أستطيع أن أنشر الملف عليه. قلتُ: "لا تعطي الأرصفة مسحة من الجمال. هل أستطيع..." أشرتُ إلى طاولة فارغة.

"بالتأكيد، لقد خرج الباقون".

جلستُ، وبدأتُ بترتيب محتويات الملف، وقلّبتُ أوراق تقارير الحادث، والمقابلات المثيرة، والصور. إنها صور **شانتال تروتييه**. بدا الأمر بالنسبة إليّ مثل المشي عارية القدمين فوق إسفلت ساخن. عاودني الشعور بالألم، وكأن الحادث قد وقع بالأمس، وهكذا داومتُ على النظر بعيداً، كي أعطي عقلي فترات استراحة من الألم الذي سيطر عليّ.

نهضت ابنة الستة عشر عاماً بتردد من نومها في 16 تشرين الأول عام 1993. انشغلت بكيّ كنزتها، وأمضت ساعة في التأنق، وتزيين شعرها. رفضت أن تتناول الفطور الذي قدّمته لها والدتها، ثم غادرت منزلها الذي يقع في ضاحية المدينة. أرادت الانضمام إلى أصدقائها وركوب القطار في طريقهم إلى المدرسة. ارتدت زياً مدرسياً مطرزاً، وجاربين يصلان إلى ركبتيها، ثم حملت حقيبة كتبها. تبادلت الفتاة الدردشة والقهقهات مع أصدقائها، ثم تناولت غداءها بعد انتهاء حصة الرياضيات. اختفت الفتاة مساء ذلك اليوم. ووُجدت جثتها المقطّعة بعد ثلاثين ساعة في أكياس نفايات مصنوعة من النايلون، على بعدِ أربعين ميلاً من منزلها.

وقع ظلٌ على الطاولة، فنظرتُ إلى الأعلى. وجدتُ **برتران** حاملاً كوبين من القهوة. كُتب على الكوب الذي قدّمه لي هذه الجملة **الإثنين أبدأ الحمية**. تناولتُ الكوب بامتنان.

"هل وجدتِ شيئاً مهماً؟"

أخذتُ رشفة قهوة: "ليس الكثير. كانت في السادسة عشرة من عمرها. وُجدت جثتها في **سان جيروم**".

"أجل".

رحتُ أفكّر بصوت عال: "كانت **غاغنون** في الثالثة والعشرين من عمرها. وُجدت في **سنترفيل**، وُجدت جثّتها أيضاً في أكياس مصنوعة من النايلون".

أحنى رأسه.

"كانــت **آدكينـــز** في الرابعة والعشرين من عمرها، ووُجدت في الملعب الرياضي في بلدها".

" لم تتعرض جثتها للتشويه".

"لا، لكـــنها قُطّعــت ومُزقّت. يُحتمل أن يكون شخصٌ ما قد فاجأ القاتل، لذلك لم يتوافر لديه وقتٌ كثير".

ارتشف قهوته، وشربها بصوتٍ مسموع. رأيتُ أثراً من قطرات الحليب البنيّة اللون على شاربيه.

"وضـــع **ســـان جاك** اسمَي **غاغنون وآدكينـــز** على لائحته". افترضتُ أنّ القصة قد انتشرت في هذا الوقت، وكنتُ محقة.

"أجل، لكن وسائل الإعلام قد تعامت مع هاتين القضيتين، لذلك عمد القاتل إلى ضـــم المقالتَين الواردتين بشأنهما في ***ألو بوليس وفوتو بوليس***. بدا لي أنه دودةٌ تتغذى على هذا النوع من الأشياء".

"يُحتمل ذلك". ارتشفتُ جرعةً أخرى، لكنني وجدتُ صعوبة في تصديق ما أسمعه.

"ألا يمتلك كدسةً كبيرة من هذه المواد؟"

جـــاء صـــوت **رايان** من ورائنا: "أجل. جمع ذلك المغفل قصاصات عن شتى أنـــواع الـــتفاهات. ألم تجمع يا **فرانكوير** قصاصات قضايا مثل هذه عندما كنتَ تعمل في قطاع الأراضي؟" وجّه كلامه هذا إلى رجلٍ قصير وسمين، ذي رأسٍ لامعٍ شديد السمرة، والذي أخذ يتناول قطعة من شوكولاته **سنيكرز**، وكان يجلس على بُعد أربع طاولات منا.

وضـــع **فرانكوير** قطعة الشوكولاته جانباً وأخذ يلعق أصابعه وأومأ. ومضت نظارته كلما حرّك رأسه إلى الأعلى وإلى الأسفل.

أخـــذ يلعق: "همم. هم. جمعتُ قصاصات عن قضيتين منها". تابعَ اللعق. "إنها أسوأ الأمور. يتسلل هذا السنجاب إلى مكان ضحيته، وينهب غرفة نومها، ثم يـــشكّل لنفـــسه لعبةً كبيرةً من ثياب نومها، أو من ملابس سيدة المنـــزل الرياضية. يحشو الرجل هذه اللعبة، ويُلبسها ملابسها الداخلية، ثم يمدّدها على الـــسرير ويأخذ بطعنها. يجعل الرجل هذا العمل أصعبَ من الامتحان النهائي

للرياضـــيات". تابـــع اللعـــق أكثر فأكثر. "يغادر بعدها من دون أن يأخذ أي شيء".

"هل يلجأ إلى أمورٍ شاذة؟"

"لا. أعتقد أنه يؤمن بالقيام بما يحلو له بطريقة آمنة".

"ما هي الأدوات التي يستخدمها".

"أعتقد أنه يستخدم سكّيناً، لكننا لم نتمكن من العثور عليها. يتحتم عليه أن يجلبها معه".

أزال **فرانكويـــر** المزيد من غلاف قطعة شوكولاته **سنيكرز**، وتناول كدسة أخرى منها.

"كيف دخل إلى المنـــزل؟"

"دخـــل من نافذة غرفة النوم؟" خرجت الكلمات مترافقةً مع قطع الكاراميل والفستق.

"متى يفعل ذلك؟"

"في الليل عادةً".

"وأين يضع عروضه الصغيرة الشاذة؟"

تابـــع **فرانكويـــر** مضغه البطيء لبرهة من الزمن، لكنه سرعان ما انتزع شذرةً من الفستق من أحد أضراسه مستخدماً ظفره. تأملها قليلاً قبل أن يقذف بها بعيداً.

"وجـــدنا واحدةً منها في **سان كاليست**، وأعتقد أنّ الأخرى كانت في **سان هـــوبير**. أمـــا قـــصاصة هذه القضية فوضعها منذ أسابيع عديدة في **سان بول دو نورد**". انتفخت شفته العليا عندما مرّر لسانه فوق إحدى أسنانه القاطعة. "وأعتقد أنّ إحـــداها وقعـــت بين أيدي **شرطة مدينة مونتريال**. أظن أنني تذكرتُ مكالمة هاتفية منذ ما يقارب العام من شخصٍ يسكن هناك".

مرّت فترة صمت.

"سيقبـــضون علـــيه في النهاية، لكن هذا السنجاب لا يُعتبر أولوية قصوى في الـــوقت الحاضر. إنه لا يؤذي أحداً ولا يسرق شيئاً. كوّن الرجل فكرة خاطئة عن مواعيد الغرام الرخيصة".

كـــوّر **فرانكوير** غلاف قطعة الشوكولاته وقذفها في سلّة المهملات الموجودة قرب طاولة مكتبه.

"سمعتُ أنّ المواطن المعني في **سان بول دو نورد** رفض أن يرفع شكوى".

قـــال **رايـــان**: "أجل. تنجح هذه القضايا بمثل نجاح جراحة فصل الفصوص الجبهوية بواسطة سكّين كشاف".

"لعـــل بَطَلَـــنا هـــذا أقدم على اقتطاع هذه المقالة لأنه يستصعب القراءة عن مواضـــيع متخصصـــصة تتعلق بكيفية دخول غرف النوم. اقتطع قصة تلك الفتاة في **ســـينيفيل**، ونحن نعرف أنه ليس الشخص الذي أمسكها. تبيّن بعد ذلك أنّ والد الفـــتاة هـــو الذي كان يخفيها طيلة الوقت". استرخى **فرانكوير** في مقعده قبل أن يتابع: "لعل ذلك يتوافق مع أوصاف الأقرباء المنحرفين".

أصـــغيتُ للمحادثة من دون أن أنظر فعلاً إلى المشاركين بها. انشغلت عيناي في تفحّـــص خـــريطة كبيرة للمدينة، وهي الخريطة التي جلس **فرانكوير** أمامها. لاحظـــتُ أنّ هـــذه الخريطةً تشبه تلك التي شاهدتُها في تلك الشقة الموجودة في **بيرغـــر**، لكـــنها كانـــت بمقـــياسٍ أصغر منها. امتدّت هذه الخريطة كي تشمل الضاحيتين الشرقية والغربية لجزيرة **مونتريال**.

دار النقاش في غرفة الشرطة، وشمل حوادث **بيبينغ طومز** الجنسية بالإضافة إلى حـــوادث أخرى مماثلة. نهضتُ بهدوء بينما كان النقاش يمتد من طاولة إلى أخرى، ومـــشيتُ نحو مكان الخريطة كي أحصل على نظرة أكثر قرباً، وتمنيتُ ألا يلاحظ أحـــد مـــا أقـــوم به. تفحصتُ الخريطة، وأعدتُ التمرين ذاته الذي قمتُ به مع **شاربونيو** يوم الجمعة، وعيّنتُ في ذهني مواقع أحرف X. أجفلني صوت **رايان**.

سألني: "بماذا تفكرين؟"

تـــناولتُ علـــبة دبابيس موجودة على حافة تحت الخريطة. تشكّلت رؤوس الدبابيس من كرات ملونة ولامعة. انتقيت دبوساً ذا رأس أحمر اللون وثبّته فوق الزاوية الجنوبية الغربية من **لا غراند سيميناير**.

قلتُ: "غاغنون".

وضعتُ دبوساً بعد ذلك تحت موقع **الملعب الأوليمبي**.

"**آدكينـــز**".

وضعتُ الدبوس الثالث إلى الزاوية اليسرى العليا، أي قرب فسحة كبيرة لنهرٍ يُعرف باسم **لاك دي ديز مونتان**.

"تروتييه".

تأخـــذ جزيرة **مونتريال** شكل قدمٍ يبرز كاحلها من الشمال الغربي، أما كعـــب هـــذه القدم فيتجه إلى الجنوب، بينما تشير أصابعها إلى الجهة الشمالية الغـــربية. حـــدّد دبوســـان القدم، فوق النعل تماماً. وتواجد أحدهما في كعب **سنترفيل**، بينما وُضع الآخر في جهة الشرق قرب أصابع القدمين. قبع الدبوس الـــثالث فوق منطقة الكاحل، أي في أقصى الطرف الغربي للجزيرة. لم تشكّل هذه الدبابيس نمطاً محدداً.

أشرتُ إلى أحد الدبابيس الموجودة في وسط المدينة، ثم إلى الدبوس الموجود في الطرف الشرقي، وقلتُ: "حدّد **سان جاك** بقلمه هذا الدبوس وذلك الدبوس".

تفحـــصتُ الـــشاطئ الجنوبي متبعةً **جسر فكتوريا** مروراً **بسان لامبرت**، ثم نـــــزلتُ جنوباً. بحثتُ عن أسماء الشوارع التي سبق أن رأيتها يوم الجمعة. تناولتُ عـــندها دبوســـاً رابعـــاً وغرزته في الجهة البعيدة من النهر، أي تحت قوس القدم مباشرة. لم يعطِني هذا الانتشار أي معنى. نظر **رايان** إليَّ متسائلاً.

"إنها علامة X الثالثة له".

"وماذا يوجد هناك؟"

سألته: "وماذا تظن؟"

"لا أعلـــم مطلقاً، لعل كلبه **سبايك** موجود هناك". نظر إلى ساعته: "انظروا ماذا لدينا هنا..."

"أتظن أن معرفتنا بذلك الشيء هو فكرة سديدة؟"

حـــدّق بي لـــوقت طـــويلٍ قبل أن يجيبني. بدت عيناه بلون **النيون** الأزرق. دهشتُ قليلاً لأنني لم ألاحظ لونهما من قبل. هزّ رأسه.

"لـــستُ مطمئـــناً. إنّ مـــا تملكيـــنه ليس كافياً. تمتلك نظريتك عن القاتل التسلـــسلي، في الـــوقت الحاضر، ثغرات أكثر من تلك التي تمتلكها **ترانس كندا**. حاولي أن تسدّي هذه الثغرات، أعطيني شيئاً آخر، أو دعي **كلوديل** يطلب إجراء بحث خاصٍ **بأمن كيبيك**. إنّ هذه القضية لا تخصّنا حتى الآن".

وكـــان **برتـــران** يومئ له، ويشير إلى ساعته، وما لبث أن أشار بإبهامه نحو الباب. نظر **رايان** نحو زميله. أومأ، ثم حوّل عينيه الزرقاوين باتجاهي.

لم أقل شيئاً. طاف بصري فوق وجهه بحثاً عن إشارة تشجيع. ولم ألحظ أي علامة تشجيعٍ، حتى ولو كانت موجودة.

"يتعيّن عليّ أن أذهب. اتركي الملّف على طاولتي عندما تنتهين منه".

"حسناً".

"و... آه... حافظي على رأسكِ مرفوعاً فوق كتفيك".

"ماذا؟"

"سمعـــتُ مـــا وجدته هناك، لأن ذلك النذل قد يكون أخطر من مجرد سافلٍ عـــادي". راح يـــبحث في جيبه، وما لبث أن تناول بطاقةً وكتب شيئاً ما عليها. "تـــستطيعين إيجادي على هذا الرقم في أي وقتٍ تقريباً. اتصلي بي إن احتجتِ إلى مساعدة".

مـــرّت عـــشر دقائـــق قبل أن أجلس على طاولتي. تملّكني شعور بالإحباط والتوتر. حاولتُ أن أركّز على أمورٍ أخرى، لكنني لم أنجح إلا قليلاً. كنتُ أتمنى أن يكون **كلوديل** أو **شاربونيو** هو المتصل في كل مرة يدق فيها الهاتف في مكتبٍ ما من المكاتب الموجودة على طول الرواق. اتصلتُ مجدداً عند العاشرة وخمس عشرة دقيقة.

سمعتُ صوتاً يقول: "لحظة من فضلك". سمعتُ صوتاً آخر بعد قليل.

"كلوديل".

قلتُ: "أنا **الدكتورة برينان**".

ساد صمت عميق.

"***وي*** ".

"هل تلقيتَ رسائلي؟"

"نعم".

تأكـــدتُ من أنه سيكون بمثل صراحة متهرب من الضرائب عندما يقف أمام مدققي الضرائب.

"أتساءل عما اكتشفته حتى الآن عن **سان جاك**".

شخر مستهجناً: "أجل. **سان جاك**. حسناً".

شـــعرتُ برغبة شديدة بالوصول إلى الطرف الآخر من الخط كي أسحب له لسانه، لكنني قررتُ أنّ الحالة تستدعي بعض الكياسة، وهي القاعدة رقم واحد في طريقة التصرّف مع رجال التحري.

"أتعتقدُ أنّ هذا هو اسمه الحقيقي؟"

"إن كان هذا هو اسمه الحقيقي فعندها سأكون **مارغريت تاتشر**".

"إذاً أين أنت؟"

مـــرّت فتـــرة صـــمت أخرى استطعتُ خلالها أن أتصوره خلالها ينظر نحو السقف مفكّراً بأفضل طريقة للتخلّص مني.

"ســـأقول لك أين نحن، لم نصل إلى أي مكان، و لم نحقق شيئاً. لم نرَ أسلحة متدلية، و لم نجد أشرطة سينمائية منـــزلية. لم نعثر على مذكرات اعتراف مفصلة، ولا أشلاء بشرية تذكارية".

"هل عثرتم على بصمات؟"

" لم نجد بصمات واضحة".

"هل من أمتعة شخصية".

"يقع ذوق الرجل ما بين المتطرف والقوي. لا يحب لمسات الزخارف. لم نجد أمـــتعة شخـــصية، ولا ثياب. آه، نعم. وجدنا كنـــزةً وقفازين مطاطيين قديمين، وبطّانية وسخة. هذا كل شيء".

"ولماذا القفّازان؟"

"لعله كان قلقاً على أظافره".

"وماذا لديك أنت؟"

"رأيـــتُ كـــل شـــيء. رأيتُ مجموعة **صور الآنسة**، والخريطة، والصحف، والقصاصات، والقائمة. أوه نسيتُ أن أذكر بعض السباغيتي الفرنسية الأميركية".

"أليس من شيء آخر؟"

"لا شيء".

"ألم تجدوا مساحيق تجميل؟ أو مواد طبية؟"

"اللعنة!"

فكّرتُ في ما سمعتُه قليلاً.

"لا يبدو لي أنه يعيش هناك فعلاً".

"إن كان يعيش هناك فستعرفين أنه أكثر الأشقياء الذين التقيتِ بهم في حياتك وساخةً. إنه لا ينظّف أسنانه، ولا يحلق ذقنه. إنه لا يستخدم الصابون، ولا الشامبو، ولا خيطان تنظيف الأسنان".

فكّرتُ قليلاً بما سمعته للتو.

"وماذا استنتجت؟"

"لعل ذلك المهووس التافه يستخدم المكان وكراً يستفيد منه في تنفيذ جرائمه الحقيقية، وممارسة مجونه، ولعل والدته لا تسمح له بممارسة هواياته في المنزل. كيف لي أن أعرف؟"

"وماذا بشأن اللائحة".

"إننا ندقق بالأسماء والعناوين".

"هل يقع أحدها في **سان لامبرت**؟"

مرّت فترة صمتٍ أخرى.

"لا".

"هل حصلتم على معلومات جديدة عن كيفية استخدامه لبطاقة **مارغريت آدكينز** المصرفية؟"

كانت فترة الصمت أطول هذه المرة، وتنضح بعدائية أكثر وضوحاً.

"**دكتورة برينان**، لماذا لا تلتزمين بعملك، وتدعيننا نلقي القبض على القتلة؟"

لم أستطِع الامتناع عن طرح السؤال: "وهل هو قاتل؟"

"ماذا؟"

"هل هو قاتل؟"

وجدتُ نفسي وأنا أستمع إلى نغمة خط الهاتف.

أمضيتُ ما تبقى من الصباح في تقدير عمر، وجنس، وطول شخصٍ، وكل ذلك من عظمة زند واحدة. وجد أطفالٌ هذه العظمة عندما كانوا يحفرون قرب **بوان أو ترمبلز**، وربما كان المكان مقبرة قديمة.

غـــادرتُ مكتبي عند الساعة الثانية عشرة والربع متوجهة إلى الطابق الأعلى كي أشـــتري زجاجة **دايت كوك** وأحضرتُها إلى مكتبي. أغلقتُ الباب وتناولتُ شطيرتي، وبعـــض ثمار الدراق. استدرتُ كي أواجه النهر، وشجعتُ أفكاري على الانطلاق. لم تنطلق هذه الأفكار لأنها حطّت على **كلوديل**، مثل صاروخ **باتريوت**.

يـــستمر الرجل في رفض فكرة القاتل التسلسلي. أيُعقل أن يكون محقاً؟ أيُعقل أن تكون نقاط التشابه مجرد مصادفة؟ وهل يُحتمل أنني أتوهم وجود روابط غير موجودة في الواقـــع؟ أيُحـــتمل أن يكون **سان جاك** مجرد هاوٍ للأشكال القبيحة للعنف؟ أعرف تماماً أنّ منتجي الأفلام، ودور النشر، يجنون الملايين من هذا الموضوع ذاته. يُحتمل أن لا يكـــون قـــاتلاً تسلسلياً، أو أنه اكتفى بجمع قصاصات مقالاتٍ عن الجرائم، أو أنه كان يلعب لعبة مطاردة مثيرة. أيُحتمل أنه عثر على بطاقة **مارغريت آدكينـــز**؟ وهل يُعقل أنه سرقها قبل موتها وأنها لم تفتقدها؟ ربما. ربما. ربما.

لا. لا تتطابق كل هذه المعلومات، لأنه إذا لم يكن **سان جاك** هو المجرم فلا بد مـــن وجود شخصٍ ما تقع عليه مسؤولية كل هذه الوفيات. إنني واثقة من وجود روابط بين بعض هذه الجرائم على الأقل، لذلك شعرتُ أنني غير مضطرة كي أنتظر اكتشاف جثة مقطعة أخرى كي أبرهن أنني محقة.

مـــاذا يلـــزمني كـــي أقنع **كلوديل** بأنني لست مجرد امرأة بلهاء تتمتع بمخيلة نـــشطة؟ امـــتعض الـــرجل من دخولي مجال منطقة صلاحياته، واعتبر أنني أتخطى حـــدودي. طلب مني أن ألتزم بمتطلبات عملي. **ورايان**؟ ماذا قال لي؟ تحدث عن وجود ثغراتٍ، وأنّ معطياتي لا تكفي، وطلب مني البحث عن دليلٍ أقوى يدل على وجود رابطٍ بين هذه الجرائم.

"حسناً يا **كلوديل**، أيها النذل سأجلب لك هذا الدليل".

قلـــتُها بصوتٍ عالٍ، ودفعتُ مقعدي بقوة، ثم رميتُ نواة ثمرة الدراق في سلة النفايات.

هكذا إذاً.

ما هي طبيعة عملي؟

إنني أنبش الجثث، وأفحص العظام.

13

طلبتُ من **دينيز**، الذي يعمل في مختبر الأنسجة، أن يستخرج لي ملفّي القضيّتين اللتين تحملان رقمَيْ 93-25906 و94-26704. رتّبتُ جهة الطاولة إلى يمين المجهر، ثم وضعتُ لوح كتابتي وقلمي. تناولتُ أنبوبين مصنوعين من **البوليسيلوكساين** ووضعتُهما في المكان الصحيح، ووضعتُ ملعقةً صغيرةً قربهما، بالإضافة إلى رزمة من الأوراق المطلية، ومسماكٍ (لقياس السماكة) تصل دقّته إلى جزء من عشرة آلافٍ من البوصة.

وضع **دينيز** صندوقين من الكرتون عند كل طرفٍ من طرفَي الطاولة: صندوق كبير وصندوق صغير، وكلاهما مختومان ومصنفان بعناية. أزحتُ الغطاء عن الصندوق الكبير، واخترتُ أجزاءً من عظام **إيزابيل غاغنون**، ووضعتُها على النصف الأيمن من سطح الطاولة.

فتحتُ الصندوق الأصغر بعد ذلك. سبق لعائلة **شانتال تروتييه** أن استلمت جثتها ودفنتها، لكننا أبقينا أجزاءً صغيرةً من عظامها لتكون دليلاً. يُعتبر ذلك إجراءً روتينياً بالنسبة لحالات القتل التي تتضمن إصابات العظام، أو التشويه.

تناولتُ ستة عشر كيساً من أكياس **زيبلوك** ووضعتُها في الجهة اليسرى من الطاولة. حمل كلُّ كيسٍ منها إشارة إلى ذلك القسم من العظام الذي يحتويه وجهَتِها: المعصم الأيمن، المعصم الأيسر، الركبة اليمنى، الفقرات العنقية، الفقرات الصدرية والقطنية (أسفل الظهر). أفرغتُ محتويات كل كيس ورتبتها في وضعها التشريحي الصحيح. وضعتُ جزأي عظمتَي الفخذ إلى جانب الأجزاء المقابلة لها من

عظـــام قـــصبة الساق، وعظام الشظية، فشكّلت بذلك مفاصل الركبة. تمثّل كل معـــصمٍ بخمسة عشر سنتمتراً من عظام الكعبرة والزند. لاحظتُ أنّ أطراف العظام التي جرى تشريحها كانت محززةً بوضوح. أدركتُ أنه يستحيل أن أخطئ في تمييز هذه الحزوز عن تلك التي أحدثها القاتل.

قـــرّبتُ العلـــبة التي تضمّ أنابيب المزج وفتحتُ أحدها، ثم استخرجتُ منها شـــريطاً أزرق اللون يحتوي مادةً تحمل آثار الأسنان، ووضعتُها على أعلى الورقة. اســـتخرجتُ شـــريطاً أبيض اللون من الأنبوب الثاني. انتقيت إحدى عظام ذراع **تـــروتييه** ووضـــعتُها أمامـــي، ثم تناولتُ الملعقة. عملتُ بسرعة على مزج وسيط كيميائيٍّ أزرق اللون مع القاعدة البيضاء، ثم انصرفتُ إلى عجن وقشط المادتين إلى أن أصـــبحتا مادةً لزجةً متجانسة. وضعتُ المزيج في حقنة بلاستيكية، ثم ضغطتُها بمـــثل الطـــريقة التي تزيّن فيها الكعكة (الكاتو)، وغطيتُ بها سطح المفصل بعناية شديدة.

وضعتُ العظمة الأولى على الطاولة، ثم نظّفتُ الملعقة والحقنة. نـــزعتُ بعد ذلـــك الـــصفيحة التي استخدمتُها، ثم بدأتُ العملية من جديد مع عظمة أخرى. نـــــزعتُ كل قالبٍ فور تجمّده، وعرّفتُ رقم الحالة، والموقع التشريحي، والجهة، والـــتاريخ، ووضعتُه إلى جانب العظمة التي يماثلها. كرّرتُ هذا الإجراء حتى تكوّن أمامـــي قالب مطاطي أزرق إزاء كل عظمةٍ من العظام الموجودة أمامي. استغرقتني العملية بأكملها حوالى الساعتين من الزمن.

انـــتقلتُ بعدها إلى المجهر، وحددتُ درجة التكبير ثم عدّلتُ الضوء الليفي – البـــصري كي يؤلف زاوية على لوحة المشاهدة. بدأتُ فحصاً مدققاً لكل الحزوز والخـــدوش الـــصغيرة مع عظمة فخذ **إيزابيل غاغنون** اليمنى التي صنعت قالباً لها لتوي.

بدت لي علامات الحزوز على نوعين. تميّزت كل عظمة من عظام الساعدين بوجـــود مجمـــوعة مـــن المنخفضات التي تشبه الخنادق، والتي تتوازى مع أسطح المفاصـــل. لاحظـــتُ أنّ جدران المنخفضات كانت مستقيمةً، وتنحدر لتلتقي مع أرضـــيتها، بالإضافة إلى أنها تشكل زاوية بمقدار تسعين درجة معها. بلغت معظم هـــذه الحزوز التي تشبه الخنادق أقل من ربع البوصة طولاً، أما عرضها فبلغ خمسة

مـــن أصل مئة من البوصة في المعدل. لاحظتُ أيضاً أنّ عظام الساقين كانت محاطةً بأخاديد دائرية ذات طبيعة مشابهة.

شاهدتُ أنّ هذه العلامات تأخذ شكل V، لكنها أضيق، وافتقدت الأخاديد التي تشبه الخنادق تلك الجدران والأرضيات العامودية. لاحظتُ أنّ هذه الشقوق، الـــتي تشبه الحرف V، تتوازى مع الأخاديد الموجودة على أطراف العظام الطويلة، لكنها كانت مفردة في محاجر الوركين وفي الفقرات.

وضـــعتُ مخططـــاً لكل علامة، وسجّلتُ طولها، وعرضها، وعمقها في حالة وجود الأخاديد. لاحظتُ كل خندق بعد ذلك وقارنتُه مع القالب الذي صنعته له، وذلـــك من الجهة العليا والمقاطع. مكّنتني القوالب من رؤية ميزات دقيقة لم أستطِع رؤيتها عندما نظرتُ إلى الأخاديد مباشرة. ظهرت نتوءات صغيرة جداً، وأخاديد، وخدوش تركت علامات على الجدران والأرضيات، والتي ظهرت كلها مثل صوَر سـلبية ثلاثـــية الأبعـــاد. بـــدا الأمر وكأنني انظر إلى خريطة إغاثة بكل جزرها، ومسطحاتها الزراعية، وتضاريسها الصخرية، وقد امتلك كل خندق قالباً بلاستيكياً أزرق اللون يماثله.

فُـــصلت الأطـــراف عند المفاصل، وهكذا بقيت العظام الطويلة سليمة. بقي هناك استثناء واحد. قُطعت عظام الذراعين السفلى فوق المعصمين مباشرة. انتقلتُ كـــي أتفحـــص النهايات المقطوعة لعظمتَي الكعبرة والزند. لاحظتُ وجود عظام المهماز المنفصلة وموقعها، وحلّلتُ السطح المقطعي لكل شقّ. انتهيتُ من العمل مع **غاغنون**، فكرّرتُ العملية ذاتها مع **تروتييه**.

ســـألني **دينيـــز** أثناء عملي ما إذا كان يستطيع أن يضع شيئاً ما ويقفل عليه. وافقتُ على طلبه لكنني لم أنتبه تماماً لما قاله. و لم أنتبه إلى الهدوء المخيّم.

"ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت؟"

كادت فقرة العظام التي تناولتُها من تحت المجهر أن تقع من يدي.

"يا إلهي. **رايان!** لا تفعل ذلك!"

"لا تجزعـــي، رأيتُ المكتب مضاءاً ففكرتُ أن أمرّ لأرى إن كان **دينيز** يعمل وقتاً إضافياً".

"كم الساعة الآن؟" جمعتُ ما تبقى من فقرات ووضعتها في كيسها.

نظر **آندرو رايان** إلى ساعته: "الخامسة والأربعين دقيقة". راقبني عندما رفعتُ الأكياس ووضعتُها في صندوق كرتوني أصغر، ثم وضعتُ الغطاء فوقه.

"هل وجدتِ شيئاً مفيداً؟"

"نعم".

أحكمـــتُ وضع الغطاء في مكانه، ثم تناولتُ العظام العانية العائدة **لإيزابيل غاغنون**.

"لا يعطي **كلوديل** أهمية كبيرة لعملكِ على تتبع آثار المناشير".

كان بالتأكيد قولاً غير مناسبٍ بالمرة. وضعتُ العظام في صندوق أكبر.

وضعتُ لوحَي الكتف في الصندوق وتقدمتُ كي أتناول عظام السّاعدين.

"ما رأيك؟"

"اللعنة! لا أعرف".

تابعـــتُ وضـــع العظام في الصندوق: "لديك خبرة بالنجارة وشؤون الجص، لكن ماذا تعرف عن المناشير؟"

"إنها تقطع الأشياء".

"حسناً، لكن أي نوعٍ من الأشياء؟"

"إنها تقطع الخشب، والأشجار المعرشة، والمعادن". توقف قليلاً. "والعظام".

"كيف؟"

"كيف؟"

"كيف".

استغرق بالتفكير لدقيقة من الزمن. "تستخدم المناشير أسناناً تندفع وتنسحب، ثم تقطع طريقها في المادة التي تنشرها".

"ماذا بشأن المناشير الدائرية؟"

"آه حسناً، إنها تدور".

"هل تقطع الشيء الذي تنشره، أم أنها تحفر من خلاله؟"

"ماذا تقصدين؟"

"هـــل أسنانها حادة عند الطرف أم أنها مسطحة؟ هل تقطع المادة قطعاً أم أنها تنشرها؟"

"أوه".

"وهل تقطع هذه المناشير أثناء حركة الأسنان ذهاباً أم أثناء حركتها رجوعاً؟"

"ماذا تقصدين؟"

"قُلتَ إنّ الأسنان تندفع وتنسحب، فهل تقطع أثناء حركة الدفع أم أثناء حركة السحب؟"

"أوه".

"هل هذه المناشير مصممة لتقطع من فوق السطح أم من خلاله؟"

"وهل يشكل ذلك فرقاً؟"

"كم تبعد أسنان المناشير عن بعضها؟ وهل تتواجد على بعد مسافات متماثلة؟ وكم سناً يوجد في الشفرة الواحدة؟ وما هو شكلها؟ وما هي زاويتها من الأمام وحتى الوراء؟ وهل أطرافها حادة أم مسطحة؟ وما هو موقعها بالنسبة إلى سطح الشفرة؟ وما هو نوع..."

"حسناً، حسناً، فهمت. إذاً عن المناشير".

أكملتُ وضع آخر عظام **إيزابيل غاغنون** أثناء حديثي، وأحكمتُ إغلاق الغطاء.

"توجد مئات الأنواع من المناشير المختلفة: المناشير المقطعية. مناشير الشق. مناشير التقليم. مناشير الحديد. المناشير الثاقبة. مناشير المطبخ واللحم. مناشير **ريوبا**. مناشير **جيغلي**. مناشير العصّي. مناشير العظام **و**الأمشاط. إنّ كل المناشير التي ذكرهّا هي مناشير يدوية فقط. تعمل بعض المناشير بقوة العضلات، بينما يعمل بعضها الآخر بالطاقة الكهربائية، أو بواسطة الوقود. يتحرك بعضها بفعل التردد، بينما يستخدم بعضها الآخر الحركة المستمرة. وبعضها يتحرك جيئة وذهاباً، وبعضها يستخدم شفرة دوّارة. صُمّمت المناشير كي **تقطع** أنواعاً مختلفةً من المواد، ولتقوم بأعمال متنوعة أثناء عملية القطع. وإذا حصرنا تفكيرنا بالمناشير اليدوية، وهي المستخدمة هنا، فإنها تتنوع كثيراً بحسب أبعاد شفراتها، وحجم أسنانها وتباعدها عن بعضها، ومواقعها".

نظرتُ كي أتأكد مما إذا كان ما يزال يصغي إليّ. كان يصغي، وبدت عيناه الزرقاوان مثل شعلة غازٍ زرقاء.

"إن كـــل ما قلته يعني أنّ المناشير تترك علامات مميزة على مواد مثل العظام. تـــتفاوت الأخاديـــد الـــتي تتـــركها في عرضها، وتؤلف أنماطاً مختلفةً في جدرانها وأرضياتها".

"وهكـــذا إذا كانـــت لديكِ عظمة، هل تستطيعين تحديد نوع المنشار الذي استُخدم في قطعها؟"

"لا. لكـــنك تـــستطيع معرفة أقرب الاحتمالات لنوع المنشار الذي أحدث الحزوز".

استوعب ما قلته له، وقال: "وكيف عرفتِ أنه منشار يدوي؟"

"لا تعـــتمد المناشير الآلية على قوة العضلات، ولهذا تترك شقوقاً أكثر ثباتاً. ونلاحـــظ أنّ الخـــدوش الموجودة في الشقوق، والحزوز الدقيقة، تتّخذ أنماطاً أكثر انـــتظاماً. يُلاحظ أيضاً أنّ اتجاه الشق يتميز بانتظام أكثر، لأنك لا ترى الكثير من التغيّـــر في الاتجاهات مثلما يُلاحظ مع المناشير اليدوية". فكّرتُ لمدة دقيقة. "ولأن الأمـــر لا يـــستدعي الكـــثير من الطاقة البشرية فإنّ الأشخاص الذين يستخدمون المناشـــير الآلـــية يتركون الكثير من بدايات النشر الزائفة. تتميز هذه البدايات بأنها أعمـــق، وبالإضـــافة إلى ذلك فإنّ مناشير هؤلاء تترك شذرات منفصلة أكبر عند انفـــصال العظمة أخيراً، بسبب ضغطهم بشدة على المادة التي ينشرونها، أو بسبب ثقل المنشار".

"وماذا يحدث عندما يستخدم شخص قوي بالفعل منشاراً يدوياً؟"

"إنـــه افتـــراضٌ سليمٌ، تُعتبر المهارة والقوة الفردية من العوامل المهمة، لكن المناشـــير الآلية تترك خدوشاً في بداية عملية القطع، لأن الشفرة تبدأ بالدوران قبل حـــصول الاحتكاك مع المادة التي تقطعها. يحدث الأمر ذاته في المناشير الآلية عند نهاية عملية القطع". توقفتُ قليلاً، لكنه انتظرني هذه المرة. "يُحدث التحوّل الكبير في الطاقـــة عند المناشير الآلية نوعاً من الصقل على السطح المقطوع، لكن المناشير اليدوية لا تفعل ذلك".

أخذتُ نَفَساً عميقاً، وأنا أنتظر كي يتأكد من أنني انتهيتُ فعلاً من كلامي.

"في بدايـــة دخول الشفرة في العظمة فإنها تُحدث أخدوداً، أو شقاً، مع زوايا في الـــسطح الـــذي بدأت فيه عملية القطع. وعندما يتحرك المنشار بعمق أكثر في

العظمة، فإن الزوايا الأولية تصبح جدراناً ويُحدِث الشق أرضية متمايزة. إنه يشبه الخندق في هذه الحالة. وإذا ما ابتعدت الشفرة عنه، أو سُحبت قبل إكمال طريقها في العظمة، فإن الشق المتبقي يُعرف ببداية نشرٍ مزيفة. تحتوي بداية النشر المزيفة على كل أنواع المعطيات. يحدد عرض شفرة المنشار ومجموعة أسنانها عرضَ هذه البداية المزيفة. تأخذ البداية المزيفة أيضاً الشكل المميز في مقطعها العرضي، كما أنّ أسنان الشفرة قد تترك علامات على جدرانها".

"ماذا يحدث حين يتجه المنشار بشكل مستقيم خلال العظمة؟"

"إذا تقدمت عملية القطع من خلال العظمة فإنّ أرضية الشق تبقى مرئية جزئياً في النتوءات المنفصلة. تبقى هذه النتوءات على حافة العظمة عند نقطة انفصالها في النهاية. ونستطيع أن نرى بالإضافة إلى ذلك آثار الأسنان على السطح المقطوع".

تناولتُ عظمة الكعبرة العائدة إلى **غاغنون**، وبحثتُ فيها عن بداية نشرٍ جزئية زائفة، ثم قمتُ بتسليط زاوية ضوء الألياف البصرية عليها.

"انظر إلى هذه، هنا".

انحنى وركّز بصره على العدسة، وعدّل درجة التركيز.

"أجل. إنني أراها".

"انظر إلى أرضية الشق. ماذا ترى؟"

"إنها تبدو متكتلة".

"صحيح. إنّ تلك الكُتَل هي بمثابة جزرٍ عظمية، ووجودها يعني أنّ أسنان المنشار موجودة بزوايا متناوبة مع شفرة المنشار. يتسبب نوع هذه المجموعة في إحداث ظاهرة تدعى انجراف الشفرة".

رفع رأسه عن عدسة المجهر ونظر إليّ بشرود. ترك إطار العدسة آثار حلقتين مزدوجة على وجهه، وبدت كأنها حزوزٌ ظهرت على وجه سبّاح يضع نظّارة ضيّقة على وجهه.

"عندما يبدأ السنّ الأول بالقطع في العظمة فإنها تحاول أن تتوازى مع سطح الشفرة. يبحث هذا السنّ عن خط المنتصف، وتتماشى الشفرة مع هذه المحاولة. تحاول العظمة أن تفعل الشيء ذاته عندما تدخل السنّ الثانية، لكن هذه السنّ تميل

إلى الجهة المعاكسة، وتتكيّف الشفرة مع هذا الوضع. تحدث العملية ذاتها مع دخول كـل سـنّ، وهكذا تتغيّر القوى الفاعلة على الشفرة بشكلٍ مستمر. تقوم الشفرة نتـيجةً لذلك بالتحرّك إلى الخلف وإلى الأمام في الشقّ. وتنحرف مجموعة الأسنان المـصفوفة بشكل واسع، إلى درجة أنّ المادة نفسها تُترك في خط منتصف الشق. تبقى هذه المادة على شكل جزر عظمية، وكتل".

"أي أنّ ذلك يدلّ على أنّ الأسنان مائلة".

"تدل على أكثر من ذلك في الواقع. إنّ كل تغيّر في اتجاه السن ينتج عن قدوم سـن جديد، أما المسافة ما بين هذه التغيّرات في الاتجاه فتدل على المسافة الموجودة بين الأسنان. تمثّل الجزر العظمية أوسع نقاط الانحراف، ولذلك فإنّ المسافة ما بين كل جزيرة وجزيرة تساوي المسافة الفاصلة بين سنّ وسنّ. دعني أريكَ شيئاً آخر".

سحبتُ عظمة الكعبرة، ثم وضعتُ عظمة الزند بحيث أُضيء سطح القطع في نهايته عند الرسغ، ثم تراجعتُ من أمام المجهر.

"أتستطيع رؤية تلك الخطوط المتموجة على سطح القطع؟"

"أجل. تبدو نوعاً ما كلوحة غسيل، لكنها كثيرة الانحناءات".

"تدعـى **توافقـيات**. يترك انحراف الشفرة هذه القمم والوديان على جدار القطع أثناء مغادرتها الجزر العظمية على الأرضيات. تتوافق القمم والجزر مع النقاط الواسـعة في الانحراف، أي تتوافق الوديان والمسطحات الضيقة للأرضية مع نقاط الانحراف عندما تكون الشفرة أقرب ما يكون إلى خط الوسط".

"وهل تستطيعين قياس هذه القمم والوديان مثلما تفعلين مع الجزر؟"

"بالضبط".

"إذاً لماذا لا أستطيع رؤية أي شيء أسفل الشق؟"

"يحـدث الانحراف غالباً في بداية عملية القطع أو في نهايتها، أي عندما تتحرر الشفرة وتخرج من العظمة".

"يـبدو هـذا معقولاً". رفع رأسه. ارتسم منظر النظارة الضيقة على وجهه مجدداً.

"هل يمكنك قول أي شيء عن الاتجاه؟"

"أتعني حركة الشفرة، أو تقدم الشفرة؟"

"وما هو الفرق؟"

"يعتمد اتجاه الحركة على ما إذا كانت الشفرة تقطع أثناء الدفع أو السحب. صُـــمِّمت معظـــم المناشير الغربية كي تقطع أثناء مرحلة الدفع، لكن بعض المناشير اليابانية تقطع أثناء عملية السحب. تستطيع بعض هذه المناشير أن تنشر بالاتجاهين. أما تقدّم الشفرة فيعتمد على اتجاه تحرك الشفرة خلال العظمة".

"هل تستطيعين تحديد الفرق بينهما؟"

"أجل".

فرك عينيه، وحاول أن ينظر إليّ في الوقت ذاته، وسألني: "إذاً، ماذا لديك؟"

تأخـــرتُ بالإجابة، وبدأت أفرك منطقة أسفل ظهري، ثم تناولتُ لوح كتابتي وبدأتُ أقلّب بين أوراق ملاحظاتي، واخترتُ النقاط التي تهمني.

"تمـــتلك عظـــام **إيزابيل غاغنون** بدايات نشرٍ قليلة جداً. يبلغ قياس عرض الـــشقوق حـــوالى 0.05 بوصة وتتميز بوجود أرضيّات عميقة في بعض الأحيان. تتواجد التوافقيات أيضاً، بالإضافة إلى جزر العظام. نستطيع قياس النوعين". قلّبتُ صفحة. "توجد أيضاً بعض الكسرات التي تدل على انتهاء عملية القطع".

انتظَرَني حتى أتابع حديثي. لم أتابع، فقال: "ماذا يعني كل ذلك؟"

"أعـــتقد أنـــنا أمام منشار يدوي يتميّز بأسنانٍ متناوبةٍ، ولعله من نوع عشرة TPI".

"أتقولين TPI؟"

"إنهـــا تعني الأسنان في البوصة الواحدة؟ أي أنّ المسافة بين السنّ والسنّ تبلغ عُشر بوصة. ويبدو أنّ الأسنان هي من نوع الإزميل، أما المنشار فيقطع أثناء حركة الدفع".

"آه، فهمت".

"أمـــا انحـــراف الشفرة فهو في حدّه الأقصى، بالإضافة إلى وجود الكثير من الشذرات عند انتهاء عملية القطع. يبدو لي أنّ الشفرة تستطيع أن تقطع بكفاءة عن طـــريق حفـــر المـــادة وإزالتها كلياً. أعتقد أنّ المنشار مصمّم على شاكلة منشار حديديٍّ كبيرٍ جداً. وتدلّ الجزر العظمية على أنّ مجموعة الأسنان متباعدة، وذلك من أجل تجنبِ الالتواء".

"وإلى أين يوصلنا ذلك؟"

كنتُ متأكدة جداً من الأداة التي سببت هذه الشقوق، لكنني لم أكن مستعدةً لإعطاء هذه المعلومات لأحد.

"أرغبُ بالتحدث مع شخصٍ آخر قبل أن أتوصل إلى استنتاجٍ نهائي".

"هل من شيء آخر؟"

فتحتُ الورقة الأولى من أوراق ملاحظاتي، ولخّصتُ الملاحظات التي توصلتُ إليها.

"تتواجد البدايات الزائفة على الأسطح الأمامية من العظام الطويلة. وتواجدت الشذرات المنفصلة على الأسطح الخلفية. يُحتمل أن يعني ذلك أنّ الجثة كانت تستلقي على ظهرها أثناء عملية تقطيعها. قُطِع الذراعان عند الكتفين، كما قُطعت اليدان. فُصلت الساقان عند منطقة الوركين، وقُطعت مفاصل الركبتين. قُطع الرأس عند مستوى الفقرة العنقية الخامسة. فُتِح القسم الأعلى من الجذع عن طريق جرحٍ عامودي شقّ طريقه إلى العمود الفقري".

هزّ رأسه: "يبدو أنّ الرجل ماهرٌ فعلاً باستخدام المنشار".

"لكن الأمر أكثر تعقيداً من هذا".

"ماذا تعنين بأنه أكثر تعقيداً؟"

"استخدم السكّين أيضاً".

عدّلتُ موضع عظمة الزند، وغيّرتُ درجة التركيز: "ألقِ نظرةً أخرى".

انحنى فوق المجهر. لم أغفل عن ملاحظة مؤخرته الرائعة المشدودة. يا إلهي، بريئان...

"لستَ مضطراً أن تضغط بهذه القوة على العدسة".

استرخت كتفاه قليلاً، وغيّر وقفته.

"أترى الحزوز التي كنا نتحدث عنها؟"

"آه - ها".

"انظر الآن إلى ناحية اليسار. هل ترى ذلك الجرح الضيّق؟"

بقيَ صامتاً للحظة وعدّل درجة التركيز: "يبدو أقرب إلى شكل الإسفين، كما أنه ليس مربعاً، وليس عريضاً".

"أنتِ على حق. نتج هذا الجرح عن سكين".

انتصب واقفاً. ارتسمت آثار دائرتين مجدداً على وجهه.

"تتخذ علامات السكين نمطاً محدداً. تتوازى معظم هذه العلامات مع بدايات النـــشر الـــزائفة، وتتقاطع مع بعضها. إنه النوع الوحيد الذي ألاحظه في مفاصل الوركين، وفي الفقرات".

"وماذا يعني ذلك؟"

"تـــتواجد بعـــض آثار السكين فوق آثار المنشار، وبعضها يتواجد من تحتها، ويدلّـــنا ذلـــك على أنّ القطع جاء قبل عملية النشر وبعدها. أعتقد أنه قطع اللحم بالـــسكين، ثم عمـــد إلى فـــصل المفاصل بالمنشار، ثم أنهى عمله بالسكين، ولربما اســـتخدمها لفصل أي عضلات أو أوتار قد تكون بقيت تربط العظام مع بعضها. بـــدأ الرجل عمله بالمفاصل، ما عدا منطقتَي الرسغين. عمد الرجل، لسببٍ ما، إلى نشر اليدين فوق الرسغين، ثم كان يُنهي عمله في نشر عظام الذراعين السفليً".

أومأ.

"قطع المجرم رأس **إيزابيل غاغنون**، وفتح صدرها مستخدماً السكين فقط. لم أشاهد أي آثار منشار على أي فقرة من الفقرات".

خيّم الصمت للحظاتٍ قليلةٍ، وتأملنا قليلاً في هذه النقطة. أردته أن يستوعبها قبل أن أفجّر قنبلتي.

"أجريتُ فحصاً على عظام **تروتييه** أيضاً".

الـــتقت العيـــنان الزرقاوان بعينيّ. بدا وجهه النحيل متوتراً، وممطوطاً، أثناء تحضّره لتلقي ما عليّ قوله.

"جاءت النتائج متطابقة".

بلع ريقه وأخذ نَفَساً عميقاً. تكلّم بهدوء عميق: "لا بد أنّ **الفريون** هو الذي يجري في شرايين هذا الرجل".

ابتعد **رايان** عن الطاولة في اللحظة ذاتها التي أطّل فيها البواب برأسه من خلال الـــباب. استدار كلانا كي ننظر إليه، لكنه ما لبث أن انصرف بسرعة، ما إن رأى تعابير وجهينا التعيسة. التقت عينا **رايان** بعينيّ مجدداً. لاحظتُ أنّ عضلات فكّه قد توترت.

"اعرضي هذه المعطيات على **كلوديل**. أعتقد أنك ستقنعينه".

"يتعيّن عليّ أن أتحقق من بعض الأمور أولاً. سأقصد **كابيتان كونجينيال** (النقيب اللطيف) بعد ذلك".

غادر من دون أن يقول وداعاً. أنهيتُ إعادة وضع العظام في صناديقها، وتركتُ الصناديق على الطاولة، ثم أقفلتُ باب المختبر ورائي. لاحظتُ، عندما عبرتُ قاعة الاستقبال الرئيسية، أنّ عقارب الساعة الموجودة فوق أبواب المصاعد تشير إلى 6:30 مساءً. وجدتُ نفسي مجدداً مع فريق التنظيف. أدركتُ أنّ الوقت قد تأخر لتنفيذ الأمرين الأخيرين اللذين عزمتُ على إنهائهما، لكنني قرّرتُ أن أحاول على أي حال.

مررتُ من أمام مكتبي، ثم نزلتُ كي أعبر الممر الأخير الموجود على جهة اليمين. شاهدتُ لوحةً كُتب عليها **المعلوماتية**، وكُتب تحتها الاسم **لوسي دومون** بكل وضوح.

تأخرت المعلوماتية بالوصول إلى **مختبرات الطب الشرعي ومختبرات العلوم القضائية**، إلى أن اتصلّت بشبكة الإنترنت. بلغت المعلوماتية أقصى حدٍّ لها في خريف العام 1993، وبدأت المعطيات بالتدفق إلى نظام الكمبيوتر. نستطيع الآن أن نتتبع القضايا الجديدة التي يتم تنسيقها مع الملّفات الرئيسية. أما قضايا الأعوام الماضية فيتم إدخالها تدريجياً في قاعدة البيانات. بلغت مؤسسة **الاستشارات القضائية** عصر الكمبيوتر بقيادة **لوسي دومون**.

وجدتُ بابها مغلقاً. طرقتُ الباب مع معرفتي أنني لن ألقى جواباً. غادر الجميع مكاتبهم بحلول الساعة 6:30 مساءً، حتى **لوسي دومون**.

مشيتُ بتثاقلٍ نحو مكتبي. تناولتُ دليل عضويتي في **الأكاديمية الأميركية للعلوم العدلية**. وجدتُ الاسم الذي كنتُ أبحث عنه. نظرتُ إلى ساعتي، وبدأتُ بالحساب بسرعة. لا بد أنّ الساعة هناك تشير إلى الرابعة والأربعين دقيقة فقط. أو لعلها الخامسة والأربعين دقيقة. هل تتبع **أوكلاهوما** التوقيت الجبلي، أم توقيت المنطقة الوسطى؟

"اللعنة!" قلتُ وأنا أنقر رمز المنطقة ورقمها. أجابني صوت شخص، فطلبتُ التحدث مع **آرون كالفرت**. قيل لي بطريقةٍ وديةٍ، وبصوتٍ خارجٍ من الأنف،

إنني أتحدث مع الخدمة الليلية، لكنهم مستعدون لنقل رسالة. تركتُ اسمي ورقمي، ثم أنهيتُ المكالمة من دون أن أعرف منطقة التوقيت التي أتحدث معها.

لم تعجبني طريقة سير الأمور. توقفتُ للحظة، وأسفتُ لأنني لم أحزم أمري في وقـــت أبكر من اليوم. توجهتُ بحماسٍ نحو جهاز الهاتف مجدداً. طلبتُ رقم **غابي**، لكنني لم ألقَ جواباً، وحتى الآلة المجيبة كانت مفصولة. حاولتُ الاتصال بمكتبها في الجامعة، بدأ الخط بعد أربع رنّات بإعطاء إشارة مشغول. كنتُ على وشـــك قطع الاتصال عندما سمعتُ صوت شخص قال إنه من مكتب الإدارة. أفادني بأنهم لم يروها. أضاف أنها لم تأخذ رسائلها البريدية خلال الأيام القليلة الماضـــية، وأنّ هـــذا ليس مستغرباً في فصل الصيف. شكرتُ الرجل ثم أنهيتُ المكالمة.

"يا للمصادفة!" لم أوجّه كلامي إلى شخصٍ معيّن. لم أوفق بالاتصال **بلوسي**، ولا **آرون** ولا **غابي**. يا الله، أين أنتِ يا **غابي**؟ لا أريد أن أفكّر بالمكان الذي يُمكن أن تتواجد فيه.

نقرتُ النشافة بقلم.

"بعيدة وعالية".

نقرتُ أكثر.

أضفتُ متجاهلةً الاستعارة: "رابعة وطويلة". نقرتُ مجدداً، وكرّرتُ ذلك مرةً أخرى.

"D.Q".

تراجعتُ إلى الخلف وقذفتُ بالقلم في الهواء.

"غلطة مزدوجة".

أمسكتُ بالقلم وقذفت به في الهواء مجدداً.

"يا للخطأ الشخصي!"

انطلق القلم مجدداً في الهواء.

"حان الوقت للتحوّل إلى لعبةٍ جديدة".

أمسكي بالقلم. اقذفيه.

"حان الوقت للانطلاق والإصرار".

أمـــسكتُ بالقلم واحتفظتُ به. بدأتُ مجدداً. نظرتُ إلى القلم. انطلقي. هذا كل شيء.

"حسناً". قلتُها وأرجعتُ مقعدي إلى الوراء قبل أن أتناول محفظتي.

"جرّبي الإرسال من الجهة الأخرى".

علّقتُ محفظتي على كتفي وأطفأتُ النور.

"سأقذفها في وجهك يا **كلوديل!**"

14

حاولـــتُ استئناف مناجاتي مع نفسي عندما ركبتُ سيارتي **المازدا**. لم ينجح الأمـــر. جعلتني حالةُ ترقبي للخطط التي أعددُتها للمساء متوترةً جداً، بشكلٍ منعني مـــن التفكير المجدي. قدتُ سيارتي نحو شقتي، ولم أتوقف إلا عند **كوجاكس** كي أتناول طبق **السوفلاكي**.

تجاهلـــتُ تحية **بيردي** المعاتبة عندما وصلتُ إلى منـــزلي. توجهتُ مباشرةً إلى الـــثلاجة وتـــناولتُ زجاجة **كولا دايت**. وضعتُها على الطاولة إلى جانب الكـــيس الملوّث بالدهن الذي يحتوي عشائي، ثم ألقيتُ نظرةً على الآلة المجيبة. حدّقت الآلة بي بدورها صامتةً، ومن دون ضوءٍ وامض. لم تتصل بي **غابي**. خيّم مـــن حولي إحساسٌ بالقلق، وانطلق قلبي في أداءٍ معزوفة سريعة مثل قائد فرقة موسيقية.

تـــوجهتُ إلى غرفة نومي ورحتُ أفتّش في خزانتي الموجودة قرب سريري. كان الشيء الذي أبحث عنه قابعاً في الدُرْج الثالث. نقلتُه إلى غرفة الطعام، ونشرتُه فـــوق الطاولة، ثم فتحتُ زجاجة الكولا وطبق **السوفلاكي**. لم ينجح الأمر. دفع منظـــر الأرزّ المغطـــى بالدهن، واللحم المطبوخ كثيراً، معدتي إلى الانسحاب مثلما يفعل سرطان بحري. فتناولتُ شريحة من الخبز العربي.

حـــدّدتُ الشارع الذي أسكنه على الخريطة، وعيّنتُ طريقاً يؤدي إلى خارج منطقة وسط المدينة **سنتر فيل**، ويمر عبر النهر حتى الشاطئ الجنوبي. طويتُ الخريطة الـــتي تُظهـــر مدينتَي **سان لامبرت ولانغويل**، بعد أن وجدتُ الحي الذي أريده.

جـــرّبتُ قضمة أخرى من **السوفلاكي** أثناء تعرّفي على معالم المدينة، لكن معدتي رفضت التخلي عن سلبيتها، لذلك لم تتقبل أي دفعة جديدة من الطعام.

اقترب **بيردي** مني لمسافة سبعة سنتمترات. دفعتُ وعاء الألومينيوم في اتجاهه وقلـــتُ له: "استمتع كما يحلو لك". بدا مندهشاً. تردّد قليلاً، ثم تحرّك تجاهه. لم يتأخر في البدء بالخرخرة.

وجـــدتُ مـــصباحاً يعمل على البطارية، وزوجاً من قفازات الحديقة، وعلبة من طـــارد الحشرات، في الخزانة الموجودة في القاعة. وضعتُ كل هذه الأغراض، بالإضافة إلى الخـــريطة، ورزمـــة من الأوراق، ولوح كتابة، في حقيبة ظهري. بدّلتُ ملابسي، وارتـــديتُ بلوزةً، وسروال من الجينـــز، وانتعلتُ حذاءً رياضياً، ثم جمعت شعري في جديلـــة، وأحكمتُ ربطها. تناولتُ، بعد فترة تفكير قصيرة، قميصاً من الجينـــز ذات كمّـــين طـــويلين وحشرتها في الحقيبة. أمسكتُ رزمة الأوراق الموجودة قرب الهاتف وكتـــبتُ: "ذهبتُ كي أتحقق من علامة X الثالثة؛ **سان لامبرت**". **نظرتُ** إلى ساعتي وكانت تشير إلى 7:45 مساءً. أضفتُ التاريخ والساعة، ثم وضعتُ رزمة الأوراق على طاولـــة غـــرفة الطعام. لعل ما فعلتُه لم يكن ضرورياً، لكنني بهذا أكون قد تركتُ أثراً على الأقل يدل على مكان تواجدي في حال وقوعي في المتاعب.

وضـــعتُ الحقيبة على كتفي، ثم نقرتُ مفتاح نظام الأمان في شقتي، لكن في غمـــرة حماستي نقرتُ الأرقام غير الصحيحة، فنقرتُها من جديد. أخطأتُ في نقر الأرقام للمرة الثانية. توقفتُ قليلاً، وأغمضتُ عينيّ، ثم ردّدتُ كل كلمة من عبارة **أتـــساءل عمـــا سيفعله الملك هذه الليلة**. **اعتدتُ** اللجوء إلى هذا التمرين الذهني كـــي أتسلّى. تعلّمتُ هذه الحيلة عندما كنت في المدرسة الثانوية، ونجح الأمر معي كالعادة. ساعدني هذا التمرين، الذي كنت أمارسه في أوقات الاستراحة في مدرسة **كامـــيلوت**، على استعادة سيطرتي على الوضع. نقرتُ المفتاح من دون خطأ هذه المرة، ثم غادرتُ الشقة.

خـــرجتُ من المرآب، وقدتُ السيارة حول المجمّع السكني، ثم سلكتُ طريق سانت **كاثرين** الذي يقع إلى الشرق من **دي لامونتان**، ثم انعطفتُ بسيارتي جنوباً نحـــو **جـــسر فيكتوريا**، وهو واحد من ثلاثة جسور تصل ما بين جزيرة **مونتريال** وبـــين الشاطئ الجنوبي لنهر **سان لوران**. لاحظتُ أنّ الغيوم التي كانت تزحف في

سمـــاء المساء تتجمع الآن للقيام بعمل جدّي ربما. ملأتْ هذه الغيوم الآفاق، وبدت داكنةً ومنذرةً بالسوء، فبدا النهر عدائياً بمياهه الرمادية.

تمكّـــنتُ مـــن رؤية **جزيرة نوتردام**، وجزيرة **سانتا هيلينا** الموجودتين أعلى النهـــر. شـــاهدتُ أيـــضاً **جسر جاك كارتييه** مقوساً فوقهما. ربضت الجزيرتان الـــصغيرتان في حالـــة تجهّم وظلمة حالكة. لا بد من أنّ الجزيرتين نبضتا بالحركة والحـــياة خـــلال معرض **إكسبو 67**، لكنهما ركنتا للهدوء الآن، وخيّم الصمت عليهما، واستكانتا للخمول، فبدتا مثل أطلال حضارة قديمة.

تقـــع جزيـــرة دي **ســـويروس وجزيرة ناذرات العفة** أسفل النهر. كانت الجزيـــرتان ملكاً لدار العبادة ذات يوم، لكن **جزيرة ناذرات العفة** هي الآن ملك المواطـــنين الأصـــليين (**الـــيوبي**)، وهي عبارة عن تجمعات من الشقق، وملاعب الغولف، وملاعب كرة المضرب، وبرك السباحة، ويبرز فيها **جسر شامبلاين**، وهو شـــريان الجزيـــرة الحيوي الذي يصلها مع المدينة. ومضت أضواء الأبراج السكنية العالية، وكأنها تتنافس مع الأضواء المتلألئة في البعيد.

وصلتُ إلى الشاطئ الجنوبي، وسرتُ في بولفار **السير ويلفريد لورييه**. تغيّرت ألوان السماء المسائية أثناء عبوري النهر، فعكست اللون الأخضر المخيف. أوقفتُ الـــسيارة كـــي أتفحـــص الخريطة. حدّدتُ موقعي مستخدمةً الأشكال الزمردية الـــصغيرة الـــتي تمثل المتنـــزّه وميدان **سان لامبرت للغولف**. وضعتُ الخريطة إلى جانبي على المقعد. أضاءت ومضة من البرق سماء الليل في الوقت الذي أطلقتُ فيه عنان محرّك سيارتي. ازدادت سرعة الرياح، وبدأت أولى قطرات المطر بالتناثر على زجاج سيارتي الأمامي.

شققتُ طريقي عبر الظلمة المخيفة التي أنذرت بقدوم العاصفة، فأبطأت سير السيارة عند كل تقاطع كي أتفحص علامات الشوارع. تبعتُ الطريق الذي رسمتُه في ذهني، وانعطفتُ إلى اليسار من مكاني هنا، وإلى اليمين هناك، ثم انعطفتُ يساراً مرتين...

ركـــنتُ سيارتي إلى جانب الطريق بعد مرور عشر دقائق. بدت ضربات قلبي مـــثل ضربات كرة الطاولة أثناء مباراة محتدمة. فركتُ راحتَي يديّ الرطبتين على سروالي الجينـــز، ونظرتُ من حولي.

اكتـــسبت السماء لوناً أكثر قتامةً، وأصبحت الظلمة أكثر شمولية. مررتُ من أمـــام أحـــياء ســـكنية تتألف من منازل صغيرة، وشوارع تصطّف الأشجار على جانبـــيها، وقـــد وصلتُ إلى حافة مجمّع صناعي مهجور. سبق لي أن لاحظتُ أنه موجود على الخريطة بشكل هلال رمادي صغير. وجدتُ نفسي وحيدةً بالكامل.

شـــاهدتُ صفاً من المستودعات المهجورة التي تقع إلى يمين الشارع، والتي أضاء مـــصباح الـــشارع الوحيد غير المعطل أشكالها الخالية من الحياة. شاهدتُ معالم البناية الأقـــرب لمصباح الشارع هذا بوضوحٍ تامٍ، وقد بدت مثل دعامة في مسرحٍ تنيره أنوار الأســـتديو، بيـــنما بقـــيت البنايات المجاورة تحت الظلال الحالكة، أما البنايات البعيدة فـــوقعت في قبـــضة الظلمـــة الكاملة. حملت بعض البنايات لوحات تعرضها للبيع أو للإيجـــار، بينما لم تحمل بنايات أخرى أي لوحات، وكأن المالكين قد فقدوا الأمل في تأجيرهـــا. لاحظـــتُ أنّ زجاج بعض النوافذ مكسور، وأنّ مواقف السيارات هي في وضـــعٍ سيّئ وتنتشر فيها الأنقاض والمهملات. بدا المكان بأكمله مثل صورة بالأبيض والأسود عن لندن أثناء تعرضها للقصف في الحرب العالمية الثانية.

لم يكن المنظر الذي شاهدتُه إلى يساري أقل قتامةً. لم أشاهد شيئاً غير الظلمة التامة. وتطابق هذا الفراغ مع المساحة الملونة باللون الأخضر، والتي لم تحمل اسماً في الخريطة، أي في المكان الذي وضع فيه سان جاك علامة X الثالثة. توقعتُ أن أجد مقبرةً في هذا المكان، أو حتى متنـــزّهاً صغيراً.

اللعنة.

وضعتُ يديّ على عجلة القيادة، وحدّقتُ في الظلمة.

والآن ماذا؟

في الواقع، لم أخطط لهذه المرحلة.

الـــتمع الـــبرق، وأضيءَ الشارع بأكمله للحظةٍ من الزمن. طار شيء ما من عـــتمة الـــشارع واصطدم بزجاج سيارتي الأمامي. قفزتُ من مقعدي، وأطلقتُ صـــرخةً مكـــتومةً. علق ذلك المخلوق على الزجاج لبرهةٍ من الزمن، وراح يرسم بضرباته اليائسة آثاراً على الزجاج، ثم طار ذلك الراكب العصبي في عتمة الليل.

هدّئـــي من روعك يا **بريينان**. خذي نَفساً عميقاً. تصاعد مستوى قلقي حتى بلغ ما بعد السحاب.

مـــددتُ يـــدي إلى حقيـــبتي. ارتديتُ قميصي الكتانية السميكة، ووضعتُ القفازين في جيبـــي الخلفي، ودسستُ المصباح الذي يعمل على البطارية في حزام خصري، و لم أترك في الحقيبة سوى دفتر ملاحظاتي وقلمي.

أبلغتُ نفسي بأنني لن أكون مضطرة لتدوين الملاحظات.

فاحت رائحة المطر الممتزج مع رائحة الإسمنت الحار في هواء الليل، وانهمكت الـــرياح بملاحقـــة بعض الأنقاض والمهملات على طول الشارع، وبعثرت أوراق الأشـــجار في الهواء على شكل إعصار قبل أن تلقيها أرضاً في أكوامٍ وتعيد بعثرتها من جديد. عبثت الرياح بشعري وتمسكت بثيابي، وطيّرت أطراف قميصي، فبدت وكأنهـــا معلقة على حبل غسيل. أصلحتُ وضع قميصي وحملتُ المصباح بيدي. لاحظتُ أن يدي أخذت ترتعش.

وجّهـــتُ ضـــوء المـــصباح كي ينير الشارع من أمامي. عبرتُه، ثم تجاوزتُ الرصـــيف إلى ممـــر عشبي ضيّق. اكتشفتُ بأنني محقة حين شاهدتُ أمامي سياجاً حديـــدياً صـــدئاً بعلـــو مترٍ وثمانين سنتمتراً تقريباً، ويحيط بكامل قطعة الأرض. لاحظـــتُ على الجهة البعيدة من السياج وجود أشجارٍ وشجيرات متشابكة، وهي التي شكّلت غابةً بريةً أوقف امتدادها السياج الحديديّ. وجّهتُ ضوء المصباح كي ينير المساحة من أمامي، وحاولتُ النظر من خلال الأشجار لكنني لم أستطِع تحديد مدى امتدادها، أو ماذا يتواجد من بعدها.

سِرتُ مع السياج الذي تداخلت من خلاله الأغصان التي تكفّلت الرياح بـــرفعها، وتراقـــصت الظـــلال عبر حزمة الضوء الدائرية الصفراء المنطلقة من مـــصباحي. تصادمت قطرات المطر مع أوراق الأشجار من فوق رأسي، لكن قطـــرات قلـــيلة نجحت في التسلّل لتصدم وجهي. أدركتُ أنّ انهمار المطر لم يعـــد بعـــيداً. اجتاحتني موجة ارتعاشٍ نتيجة توقعي انخفاضاً في درجة الحرارة، والبيـــئة المخـــيفة التي تحيط بي. توقعتُ المزيد من الأمرين، ولعنتُ نفسي لأنني جلبتُ علبة الرذاذ الطارد للحشرات معي، بدلاً من جلب سترةٍ تقيني من البرد والمطر.

عـــبرتُ ثلاثـــة أرباع قطعة الأرض قبل أن أصل إلى منخفض. سلّطتُ نور المصباح على ما بدا لي أنه طريق، أو ممر خدمات. لاحظتُ أنّ هذا الممر يُفضي إلى

مساحة خالية من الأشجار على بُعد عدة أمتار. شاهدتُ مجموعةً من البوابات المغلقة بسلسلة حديدية وقفلٍ يعمل بحسب الأرقام.

بدا أنَّ هذا الطريق لم يُستخدم حديثاً. نمت الحشائش البرية من خلال الحصى، وامتدّ حزام النفايات من دون انقطاع إلى ما بعد البوابة. وجّهتُ ضوء المصباح من خلال الفتحة، لكن الضوء لم يخترق العتمة إلا لمسافةٍ قصيرةٍ. بدا الأمر مثل استخدام مصباح بيغ من أجل إضاءة قبة السماء.

تقدمتُ ببطء لمسافة ثلاثين ياردة أخرى أو نحوها، أي حتى وصلتُ إلى طرف قطعة الأرض. خلتُ أنّ الأمر استغرقني عقداً من الزمن. نظرتُ حولي عندما وصلتُ إلى الزاوية. انتهى الشارع الذي سرتُ فيه عند تقاطعٍ بشكل حرف T. نظرتُ من خلال الظلمة إلى الجهة البعيدة من التقاطع، والتي كانت شارعاً مظلماً ومهجوراً مثل الشارع الذي أسير فيه.

تمكّنتُ من رؤية مساحة واسعة معبّدة بالإسفلت، ولاحظتُ السياج الذي يحيط بها ويأخذ شكل حلقات معدنية. توقعتُ أن تكون موقفاً للسيارات العائدة لموظفي مصنعٍ، أو مستودعٍ. بدا هذا المجمّع المهمل مضاءاً بمصباحٍ كهربائيٍّ واحد معلّقٍ في قوسٍ مهملٍ فوق عمود هاتف. ارتفع غطاءٌ معدنيٌّ فوق المصباح الذي يرسل أضواءه على مسافة ستة أمتارٍ تقريباً. شاهدتُ الأنقاض المنتشرة فوق الرصيف الخالي، ورأيتُ ظلالاً تنتشر هنا وهناك لمنازل صغيرة، أو لأكواخ تُستخدم كمستودعات.

أصغيتُ لبرهة. سمعتُ صوتاً غريباً. هل أسمع صوت الرياح؟ تساقطت قطرات المطر، ومن بعيد تناهى إلى أسماعي قصف الرعد، وكذلك سمعتُ دقات قلبي القوية. لم يتسرّب من ضوء مصباح الشارع إلا القدر الذي بدّد من الظلمة ما يكفي لإظهار يديّ المرتعشتين.

وبّختُ نفسي قائلةً: **"حسناً يا برينان، تغلّبي على خوفك، فلا مكاسب من دون ألم"**.

قلتُ بصوت عالٍ هذه المرة: "همم. انطلاقة جيدة". بدا صوتي غريباً حتى بالنسبة لي. كان مكتوماً، وكأن الليل يبتلع كلماتي قبل وصولها إلى أذنيّ.

رجعتُ إلى السياج الذي استدار مع زاوية قطعة الأرض بزاوية حادة إلى اليسار، فتوازى بذلك مع الشارع الذي وصلتُ إليه للتو. استدرتُ معه لأكتشف

أنّ السياج ينتهي بجدارٍ حجريٍّ على بعد ثلاثة سنتمترات. تراجعتُ قليلاً، ثم سلّطتُ الضوء على الجدار. قدّرتُ علوّ الجدار الرمادي اللون بحوالى المترين والنصف، ولاحظتُ أنه ينتهي بصفٍ من الأحجار الصخرية التي تبعد عن مسطح الجدار مسافة خمسة عشر سنتمتراً. امتد هذا الصف على طول الجدار الموازي للشارع، ولاحظتُ وجود فتحةٍ في منتصف المسافة، وبدا لي أنها مدخل قطعة الأرض.

تبعتُ مسار الجدار، ولاحظتُ وجود أوراقٍ مبتلةً، وقطع الزجاج المنكسر، وعلب الألومينيوم التي تجمعت عند قاعدته. شاهدتُ أنواعاً كثيرة من الأشياء التي لم أكترث بتحديد نوعها.

توقف الجدار بعد أن سرتُ حوالى ثمانية عشر متراً، وابتدأت عندها الشبكة الحديدية الصدئة مجدداً. شاهدتُ المزيد من البوابات ولاحظتُ أنها مقفلة مثلما كانت المجموعة الموجودة على المدخل الجانبي. قرّبتُ ضوء المصباح كي أتمكّن من رؤية السلاسل والقفل، فالتمعت أمامي السلسلة المعدنية. بدت هذه السلسلة جديدة.

أعدتُ المصباح إلى حزام خصري، وجذبتُ السلسلة بقوة، لكنها بقيت صامدة. حاولتُ مجدداً ولقيتُ النتيجة ذاتها. تراجعتُ قليلاً، وتناولتُ المصباح، ثم بدأتُ بتمرير حزمة الضوء ببطء إلى أعلى القضبان الحديدية وأسفلها.

تعلّق شيء ما بساقيّ في تلك اللحظة بالذات. أمسكتُ بكاحلي، لكن المصباح سقط مني. جعلني عقلي أرى عيوناً حمراء، وأسناناً صفراء، لكنني لم أشعر إلا بكيسٍ بلاستيكيٍّ في يدي.

"اللعنة!" خرجت الكلمة من فمي الجاف، في حين تزايدت الرعشة في يديّ عما كانت عليه من قبل، لكنني تمكنتُ من التخلص من الكيس. **هجوم واعتداء من قبل كيس فارمابري.** قذفتُ بالكيس بعيداً فراح يتقلّب في الهواء. سمعتُ صوت تقلّب الكيس في الهواء أثناء بحثي عن المصباح الذي ضاع عندما اصطدم بالأرض. وجدتُ المصباح لكنه رفض العمل. لم تنجح محاولاتي لجعله يعمل في البداية، لذلك رحتُ أضربه براحة يدي، ثم أضاء فجأة، لكنه ما لبث أن انطفأ. طرقتُ المصباح مرةً أخرى فأضاء، لكن النور بدا مرتعشاً ومتذبذباً. فقدتُ ثقتي بإمكانية عمل المصباح لمدة طويلة.

سِرتُ لبرهة في الظلام، وفكّرتُ بخطوتي التالية. هل أريد فعلاً أن أمضي قدماً بمشروعي هذا؟ وماذا آمل، بحق الله، أن أحقق من وراءه؟ بدا لي أنّ الذهاب إلى المنزل، وأخذ حمامٍ ساخن، هو أفضل ما يمكنني عمله.

أغمضتُ عينيّ وركّزتُ على الأصوات التي أسمعها، وجهدتُ كي أتبيّن علامات تنمّ عن وجودٍ بشريٍّ من بين الجلبة التي أسمعها. أعدتُ في ما بعد تذكّر هذا المشهدِ في ذهني وتساءلتُ عما إذا كنت قد غفلتُ عن ملاحظة أي شيء. هل فعلاً لم أنتبه إلى انسحاق الدواليب على الحصى، أو صرير مفصلّة باب، أو هدير محرّك سيارة. هل تكاسلتُ عن سماع كل هذه الأصوات؟ أم لعل العاصفة كانت جزءاً من المؤامرة. كل ما أعرفه هو أنني لم ألحظ شيئاً.

أخذتُ نَفَساً عميقاً ورفعتُ كتفيّ، ثم حدّقتُ في الظلمة حتى إلى ما وراء الجدار. ذكّرني هذا بزيارتي ذات مرة إلى **مصر**. زرتُ مقبرة قديمة في **وادي الملوك** وحدث أن انطفأت الأنوار. أذكر أنني وقفتُ في ذلك الحيّز الصغير. أحسستُ أنّ الظلمة أحاطت بي، ولم يكن هناك من وجودٍ لأي مصدرٍ من مصادر النور. شعرتُ أنّ العالم بأكمله قد انطفأ من حولي. عاودَني هذا الشعور في الوقت الذي رحتُ فيه أعبث بشيء ما وراء السياج. رحتُ أتساءل عمن يحمل أسراراً أكثر غموضاً من الآخر؟ هل هي مقبرة الفرعون، أم الظلمة الموجودة داخل هذا الجدار؟

إنه شيء يتعلّق بعلامات X. إنه هناك. هيا.

رجعتُ إلى الوراء، أي نحو الزاوية، وتقدمتُ مع السياج نحو البوابة الجانبية. كيف يمكنني فتح القفل؟ أضاء البرق المكان مثل وميض **فلاش** آلة التصوير. رحتُ أحرّك الضوء فوق القضبان المعدنية وأنا أبحث عن الحل جاهدة. شممتُ رائحة الأوزون في الهواء، وشعرتُ بوخزٍ في رأسي وفي يديّ. ورأيتُ في لحظة الوميض هذه علامةً إلى يمين البوابات.

سلّطتُ ضوء المصباح على هذه اللوحة المعدنية الصغيرة، فبدا لي أنها مثبتة على القضبان المعدنية. لاحظتُ أنّ الكلمات صدئة وغامضة، لكن فحواها كان واضحاً. ***ممنوع الدخول***. ابتعدوا. أبقيتُ ضوء المصباح مسلطاً على اللوحة، وحاولتُ قراءة الكلمات ذات الأحرف الأصغر الموجودة تحتها. ظهرت كلمة غير

واضـــحة قبل كلمة **مونتريال**. بدت وكأنها كلمة **أرشيدوق**. هل هي **أرشيدوق مونتريال**؟ لا أظن بأنه يوجد شخصٌ اسمه **أرشيدوق مونتريال**.

حدّقتُ في الدائرة الصغيرة المرسومة تحت الكتابة. مسحتُ بعض الصدأ بظفر إبهامـــي. بـــدأت ملامح ما يشبه الشعار بالظهور، وكان أقرب ما يكون إلى رمز معيّنٍ لم يكن غريباً عني تماماً. تذكرتُ كل شيء. تذكرتُ **أرشيدوقية**. **أرشيدوقيةً مونتـــريال**. إنّ ملكـــية هذه الأرض تعود لدار العبادة، ولعلها ملكية مهجورة من تلك الملكيات التي كانت منتشرة ذات يوم في **مونتريال**.

حسناً يا **بريتان**، أنتِ تتواجدين الآن ضمن حماية أرضٍ تعود لدار العبادة أي في ملكـــية جماعـــية. كيفَ خطرت في بالي هذه الشعارات؟ خطرت في بالي مع تـــصاعد دفعـــات الأدرينالين في دمي والتي أعقبت إدراكي مكان تواجدي، وهو الأمر الذي بعث الرهبة في أعماقي.

أعـــدتُ مصباحي إلى مكانه في سروالي الجينـــز، ثم أمسكتُ السلسلة بيدي اليمنى، وأمسكتُ معدناً صدئاً بيدي اليسرى. كنتُ على وشك أن أبدأ السحب، لكنني لاحظتُ عدم وجود مقاومة من جهة السلسلة التي بدأت بالانـــزلاق حلقةً فحلقـــة من خلال القضبان. التفّت السلسلة حول رسغي، وبدت مثل أفعى التفّت حول غصن شجرة. تركتُ البوابة وأخذتُ ألفّ السلسلة بيديّ الاثنتين. لم تتحرر السلـــسلة بالكامـــل فـــتوقفتُ عندما علقت بين القضبان. نظرتُ غير مصدقة إلى السلسلة التي علقت بآخر حلقة، لذلك بقيت مقفلة.

فـــتحتُ القفل ثم سحبتُ بقية السلسلة من خلال القضبان، ورحتُ أحدّق فـــيها. توقـــف هبوب الرياح أثناء عملي هذا، فخيم الصمت المقلق على المكان، وضجّ الهدوء في أذنيّ.

لففتُ السلسلة حول البوابة اليمنى، وسحبتُ البوابة اليسرى باتجاهي. بدا لي أنّ مفـــصّلات هـــذه الـــبوابة أخذت بالزعيق وسط السكون الذي خلّفته العاصـــفة. لم يقطـــع هـــذا السكون المخيّم أي صوت آخر. لم أسمع أصوات ضـــفادع، ولا صراصير. غابت عن الأسماع أيضاً أصوات صفارات القطارات البعيدة. بدا لي في تلك اللحظة وكأن العالم كله يمسك أنفاسه في انتظار الخطوة التالية للعاصفة.

تحركت البوابة ببطء شديد لكنني دخلتُ أخيراً بعد أن أقفلتها ورائي. تبعتُ ممراً غير ممهد بالكامل. أصدر حذائي أصواتاً نتيجة احتكاكه بالحصى. أبقيتُ ضوء المصباح متنقلاً ما بين الطريق والأشجار على جانبيه. توقفتُ بعد مسيرة ثلاثة أمتار، ووجّهتُ الضوء نحو الأعلى. رأيتُ أغصاناً متشابكةً تشكّل قوساً فوق رأسي. رأيتُ أغصان القوس ساكنةً بشكلٍ مخيف.

تتواجد دار العبادة هنا في هذا المكان، وهنا برجها. عظيم. تحوّل عقلي نحو أغاني الأطفال. وجدتُ نفسي أرتعش من التوتر، وتجمّعت عندي طاقة تكفيني كي أعيد طلاء مبنى **البنتاغون**. رحتُ أحذّر نفسي ***أنت خاسرة يا بريనان!*** فكّري **بكلوديل**. لا. اتجهي بأفكاركِ نحو **غاغنون وتروتييه وآدكينز**، بدلاً من ذلك.

انعطفتُ إلى اليمين، وسلّطتُ الضوء إلى أبعد مسافة يمكن أن يبلغها الضوء. أبقيتُ الضوء مسلطاً لفترة قصيرة على كل شجرة من الأشجار التي تحيط بالطريق، والتي بدا أنها تمتد في صف لا نهاية له. كرّرتُ الأمر ذاته في صف الأشجار إلى يساري. ظننتُ أنني أشاهد أمامي فسحة ضيقة على بعد تسعة أمتار. أبقيتُ حزمة الضوء مركزةً على تلك البقعة وتابعتُ المسير. اكتشفتُ أنّ ما بدا لي ثغرةً في البداية لم يكن كذلك. لم يكن هناك انقطاعٌ في صف الأشجار، لكن المكان بدا مع ذلك مختلفاً بطريقة ما، أو أنّ شخصاً ما قد عبث به. خطر في بالي عندها أمرٌ آخرٌ. لم تكن الأشجار هي الغريبة، لكن الحشائش الكثيفة الموجودة تحتها. لاحظتُ أنّ غطاء الحشائش كان متناثراً في بقعٍ متفرقة، وبدت العرائش والنباتات الزاحفة الأخرى وكأن أحداً قد عبث بها، وهو الأمر الذي لا ينطبق على تلك الحشائش المجاورة لها. ظهرت هذه البقعة وكأنها نمَت جزئياً من جديد بعد إزالة الحشائش منها.

بدت لي حشائش تلك البقعة أصغر من تلك المجاورة لها، أي أنها كانت أحدث نمواً. سلطتُ الضوء في كل الجهات. ظهرت بقعة الحشائش النابتة حديثاً ضيقةً، ولاحظتُ أنها تشق طريقها تحت الأشجار مثلما يفعل مجرى مياه، أو طريق. تمسكتُ بالمصباح بشدة أكبر وتبعتُ هذا المسار المنحرف. وبدأت العاصفة ضربتها بعد أن خطوتُ الخطوةَ الأولى.

توقـــف المطـــر الخفيف كي يُفسح المجال للسيل المفاجئ، فاندفعت الأشجار بالحـــركة متقافـــزةً وغائـــصةً، فبدت مثل منظر ألف طائرة ورقية. ومض البرق فتجاوب معه الرعد مرةً بعد أخرى. بدا ذلك مثل مخلوقات شيطانية تطارد بعضها بعـــضاً. يـــصدر الرعد قرقعةً هنا، فتبدأ المطاردة، أين أنتً؟ ويُسمعَ دويّ انفجار هناك. فتردّ الرياح بغضب تام مبعثرةً مياه المطر في كل الجهات.

بلّلت المياه ثيابي وألصقت شعري برأسي. تقاطرت المياه على وجهي فأعاقت رؤيتي، وتسببت بألم في مكان الخدوش في خديّ. أغمضتُ عينيّ وأرجعتُ شعري إلى ما وراء أذنيّ، ومرّرتُ راحة يدي فوق عينيّ. أخرجتُ طرف قميصي ووضعتُه على المصباح في محاولة مني لإبعاد المياه عنه.

أحنـــيتُ كتفـــيّ حينما وصلتُ إلى نهاية الممر غافلةً عن كل شيء يقع وراء حدود ضوء مصباحي الأصفر الشاحب. حركتُ مصباحي جيئةً وذهاباً عبر الممر، وسمحـــتُ له باستكشاف الأشجار الموجودة على الجانبين مثلما يفعل كلبٌ حين يشمّ طريقه ويتحسَّسه.

اكتـــشفتُها على بعد خمسة عشر متراً. أدركتُ بعد أن فكّرتُ ملياً أنّ لحظة الوعـــي قـــد حدثت، وأنّ دماغي قد ربط في جزء من مليون من الثانية المعطيات البـــصرية التي تلقاها في تلك اللحظة مع التجربة الماضية التي اختزنها حديثاً. عرفتُ في مستوى معيّن من الوعي المعطيات التي كنتُ أراها قبل أن يتمكن عقلي الواعي من تحويلها إلى صورة.

ما إن اقتربتُ، ودارت حزمة الضوء حول هدفها وحرّرته من الظلمة المسيطرة علـــى المكان، حتى طفت الحقيقة على سطح إدراكي. تمكّنتُ من تذوق محتويات معدتي بعد صعودها إلى حنجرتي.

رأيـــتُ ضمن حزمة الضوء المتمايلة كيس نفايات من النايلون بنيّ اللون. برز هـــذا الكـــيس من بين التراب وأوراق الأشجار. لاحظتُ أنّ نهاية الكيس ملتفة ومعقـــودة. وبرزت هذه العقدة من التراب فبدت مثل حيوان الفقمة البحري الذي يرفع رأسه طلباً للهواء.

راقبتُ المطر أثناء انهماره على الكيس والتربة المجاورة. واظبت مياه المطر على قـــرع أطـــراف الحفرة، وحوّلت التراب إلى وحل. بدأت أطراف الحفرة بالظهور

بـــبطء، لكن بثبات. شعرتُ بضعفٍ في ركبتيّ أخذ يزداد كلما تكشف المزيد من محتويات الكيس.

انتـــشلني ومـــيض الـــبرق من حلم يقظتي. تقدمتُ، بل قفزتُ، نحو الكيس وانحنـــيتُ إلى الأسفل كي أتفحصه. أرجعتُ المصباح إلى حزام سروالي الجينـــز، وأمسكتُ بالنهاية المعقودة للكيس وسحبتُها. كان الكيس ما زال مدفوناً بحيث لم يتزحـــزح مـــن مكانه. حاولتُ أن أفكّ العقدة، لكن أصابعي المبتلة لم تتمكن من الإمساك بالنايلون الرطب. لم أستسلم. قرّبتُ أنفي نحو الفتحة المغلقة واستنشقتُ. فاحت رائحة الوحل والنايلون، و لم أَميّز أي رائحة أخرى.

ثقبتُ الكيس المصنوع من النايلون قليلاً بظفر إبهامي واستنشقتُ ثانية. كانت الـــرائحة مميزة مع أنها خفيفة جداً. عرفتُ أنها رائحة اللحم المتعفن والعظام الرطبة. سمعـــتُ صوت غصن يتكسّر وأحسستُ بحركةٍ خلفي قبل أن أقرّر الانسحاب أو المواجهة. وفاجأني وميض البرق داخل رأسي في نفس اللحظة التي حاولتُ فيها أن أقفز جانباً، و لم أجد نفسي إلا وأنا أهبط مجدداً إلى ظلمات قبر ذلك الفرعون.

15

لم يسبق لي أن بقيتُ هذه المدة الطويلة في حالة من المعاناة. شعرتُ بألم كبير منعني من التذكر كثيراً. شعرتُ بسهام الألم تغزو دماغي والتي أجبرتني على البقاء ساكنةً. أدركتُ أنني سأتقيأ إذا فتحتُ عينيّ. توترت معدتي نتيجة التفكير بالحركة، ومــع ذلك كنتُ مضطرة للنهوض. شعرتُ بالبرد أكثر من أي شيء آخر. تحكّم البرد بجسدي بشكلٍ كاملٍ. رحتّ أرتجف بشكلٍ لا إرادي، وأدركتُ أنني أحتاج إلى حِرامٍ صوفيٍّ أكثر من أي شيء آخر.

جلــستُ وأغمــضتُ عينيّ بشدة. كان الألم في رأسي من الشدة بحيث تقيأتُ كمــية صــغيرة من **الصفراء** (مادة يُفرزها الكبد). خفضتُ رأسي إلى أن أصبح على مــستوى ركبتي وانتظرتُ انتهاء التقيؤ. عجزتُ مع ذلك عن فتح عينيّ. بصقتُ مادة الصفراء في يدي اليسرى، وحاولتُ التمسك بيدي اليمنى بشيء يعطيني بعض الدفء.

بدأتُ أدرك أنني لست في سريري من خلال الارتجاف والارتعاش. أحسستُ بالأغصان والأوراق في راحة يدي. اضطررتُ إلى فتح عينيّ سواء كنت أشعر بالألم أم لا.

جلستُ بين الأشجار بثيابي المبتلة والوحل يغطيني. وتناثرت أوراق الأشجار وأغــصانها على الأرض من حولي، وكان الهواء مثقلاً برائحة التراب والأشياء التي ســتتحول إلى تراب في المستقبل. استطعتُ أن أرى من فوقي الأغصان المتشابكة، وبــدت أصابعها العنكبوتية متداخلةً أمام سماءٍ مخمليةٍ سوداء. تلألأت مليون نجمة خلف غطاء الأغصان.

بدأت ذاكرتي تعود إليّ تدريجياً. العاصفة، البوابات الحديدية، الطريق. لكن كيف ارتميتُ في هذا المكان؟ لم تكن هذه ليلة شراب حقيقية، لكنها كانت ليلةً حملت التأثير ذاته.

مررّتُ يداً مستكشفةً فوق رأسي، واكتشفت وجود ورماً بحجم الليمونة تحت شعري. عظيم. ضُربتُ مرتين خلال أسبوعٍ واحدٍ. أعتقد أنّ معظم الملاكمين يُضربون بوتيرة أقل.

لكن، كيف ضُربت؟ هل تعثّرتُ ووقعت؟ هل وقع عليّ جذع شجرة؟ أعرف أنّ العاصفة جرفت كل شيء في طريقها، لكنني لم أشاهد أغصاناً كبيرةً بقربي. لم أستطع التذكّر جيداً، لكنني لم أكترث لذلك. أردتُ مغادرة المكان فقط.

قاومتُ الشعور بالغثيان، وبحثتُ عن المصباح وأنا جاثمة على يديّ وركبتيّ. وجدتُه مغموراً بالوحل بالكامل تقريباً. تناولتُه ونظفتُه من الوحل، وضغطتُ على الزر. أضاء المصباح وسط دهشتي الكاملة. حاولتُ السيطرة على ساقيّ المرتجفتين. وقفتُ، فانفجرت سهام الألم داخل رأسي. أسرعتُ كي أستند على شجرة وتقيأتُ مجدداً.

ملأت الصفراء فمي وأحسستُ بطعمها. طرح وعيي المزيد من الأسئلة. متى أكلت آخر مرة؟ الليلة الماضية؟ هذه الليلة؟ كم الساعة الآن؟ كم من الوقت مضى عليّ في هذا المكان؟ انتهت العاصفة وظهرت النجوم. خيّم الليل وما زلت أشعر بالتجمّد. هذا هو كل ما أعرفه.

توقفت التقلصات في بطني، وقفتُ ببطء وسلطتُ الضوء من حولي، وبحثتُ عن الطريق. تراقصت حزمة الضوء فوق الغطاء العشبي فأيقظت في ذهني المزيد من الذكريات. الكيس المدفون. جلبت هذه الذكرى المفاجئة موجةً من الخوف معها. تمسكّتُ أكثر بالمصباح، وأدرتُه دورةً كاملةً وتأكدتُ من عدم وجود أحد ورائي. عدتُ إلى مكان تواجد الكيس. أين هو المكان يا ترى؟ بدأت الذكريات تعود زاحفةً، لكنها عادت بشكل صورٍ ساكنة. تمكنتُ من رؤية الكيس في ذهني، لكنني لم أستطعِ تحديد موقعه على الأرض.

بحثتُ بين الأعشاب المجاورة عن المكان الذي دُفن الكيس فيه. عدتُ إلى سماع الدَويّ في رأسي، وعاد الغثيان يغزو حنجرتي، لكن لم يتبقَ أي شيء في

معدتي، وتسبب القيء الجاف بشعوري بالألم في خاصرتي، وملأت الدموع عينيّ. بقيتُ واقفةً ومستندةً إلى الشجرة، وانتظرتُ انتهاء نوبات التشنج. لاحظتُ وجود الصراصير التي انطلقت في معزوفة ما بعد العاصفة، أزعجتني موسيقاها وكأنها حصى تدخل أذنيّ بقوة قبل أن تُكمل طريقها عبر دماغي.

وجدتُ الكيس على بعد أقل من ثلاثة أمتار من مكاني. ارتجفت يداي في محاولة مني للتمسّك بالمصباح بثبات. بدأتُ بالتذكر عندما رأيتُ الكيس ولاحظتُ أنّ مساحةً أكبر من النايلون قد انكشفت. أحاط خندق مائي بمحيط مكان الكيس، وتجمعت برك صغيرة في ثنايا الكيس المصنوع من النايلون.

لم أكن في حالة تسمح لي باستعادته فاكتفيتُ بالتحديق. أعرف أنّ مسرح الجريمة يجب أن يتم التعامل معه بطريقة صحيحة، لكنني خشيتُ أن يعبث أحد في هذا المكان، أو يعمد إلى إزالة البقايا قبل وصول وحدة استعادة مسرح الجريمة إلى المكان. رغبتُ أن أبكي من الإحباط.

إليك فكرة جيدة يا **بريناك**. ابكي، لعل أحدهم سيأتي لينقذك.

وقفتُ، مرتجفةً من البرد، أو من أمورٍ أخرى. حاولتُ أن أفكّر لكن خلايا دماغي لم تتعاون معي، إذ أغلقت أبوابها من دوني ورفضت كل النداءات. لم يبقَ إلا أن أتصل بها هاتفياً. نُحِّت هذه الفكرة.

تعرّفتُ على حدود الممر العشبي، فشققتُ طريقي من خلال الأشجار، أو هذا هو ما تمنيتُه على الأقل. لم أتذكر الطريق الذي سلكته عند الدخول، وهكذا لم يكن لدي سوى فكرةً غير واضحة عن طريق الخروج. بقيَ إحساسي بالاتجاهات مع ذاكرتي للأحداث القريبة. توقف المصباح عن العمل من دون إنذار، فوجدتُ نفسي في شبه ظلمة كاملة إلا من أضواء النجوم المتسلّلة من خلال الغيوم. لم تجدِ طريقة تحريكي للمصباح، ولا شتائمي.

"اللعنة!" حاولتُ على الأقل.

أصغيتُ جيداً لعلي أسمع شيئاً يدلّني إلى الاتجاه، لكنني لم أسمع سوى صوت الصراصير من كل الاتجاهات. أتتني أصوات النقنقة من حولي. لم أستطِع تحديد اتجاه هذه الأصوات.

حاولتُ أن أميّز الشجيرات الصغيرة من تلك الأكبر منها، وزحفتُ إلى الأمام في الاتجـــاه الذي كان يشير إليه وجهي. اكتشفتُ أنّ هذه الطريقة تعطي النتيجة ذاتهـــا مـــثل غيرها. تمسّكت الأغصان غير المرئية بشعري وملابسي، أما العرائش والنباتات الزاحفة فتشبثت بقدميّ.

ضللت الطريق يا **برينان**. أخذت الشجيرات تزداد كثافةً.

ترددتُ في تقرير أي طريق أتّبع عندما أحسستُ أنّ إحدى قدميّ نـــزلت في الهـــواء، وحـــادت عن التراب. أكملتُ طريقي فوجدتُ نفسي أهوي على يديّ وركـــبتيّ. علقت قدماي، وشعرت بشيء يشبه التراب الناعم على ركبتي المتقدمة. طـــار المـــصباح من يدي وأضاء ما إن اصطدم بالأرض. تدحرج المصباح، وأخذ يرســـل وهجـــاً شاحباً أصفر اللون باتجاهي. نظرتُ إلى الأسفل وشاهدتُ قدميّ تختفيان في فراغٍ ضيّقٍ ومعتم.

شـــعرتُ أنّ قلـــبي يكـــاد يقفز قفزاً. تشبثتُ بالتراب وحاولتُ الخروج، ثم تـــسلقتُ زاحفةً نحو الضوء، وتلويتُ على الجانبين مثلما يفعل سرطان يجري على شـــاطئ رملـــي. وجّهتُ المصباح نحو المكان حيث سقطت. رأيتُ حفرةً صغيرةً. فغـــرت الثغـــرة التي حُفرت حديثاً فاهها فبدت مثل جرحٍ غير ملتئمٍ في الأرض. وأحاط التراب الناعم بالحفرة، وتجمّع في تلة صغيرة وراءها.

ســـلّطتُ الضوء تجاه الفتحة. لم تكنْ فجوةً كبيرةً، ولعل عرضها لم يتجاوز ســـتين ســـنتمتراً، أما عرضها فقدّرته بتسعين سنتمتراً. دستُ بقدميّ على مكان قريب من الحافة أثناء تعثري، فتسبّبتُ بتساقط سيلٍ من التراب نحو أسفل الحفرة. بدا منظر حبيبات التراب مثل حبيبات العنب أثناء تساقطها من صندوق. انضمّت حبيبات التراب هذه إلى كومة التراب في أسفل الحفرة التي تجمّعت أثناء سقوطي.

حدّقتُ بتلة التراب هذه أثناء تجمعها أسفل الحفرة. لاحظتُ أمراً غريباً بشأن التـــراب، ثم تأكـــدتُ مما لاحظته. كان جافاً بالفعل. بدا الاستنتاج واضحاً حتى بالنـــسبة إلى عقلٍ مشوش: إما أن تكون هذه الحفرة قد غُطّيَت، وإما أن تكون قد حُفرت بعد سقوطِ المطر.

اجتاحـــتني رعـــشةٌ عفـــويةٌ، وأسرعتُ إلى وضع ذراعيّ فوق صدري طلباً للدفء. كنتُ ما أزال مبتلة، أما العاصفة فقد خلّفت وراءها هواءً بارداً. لم أشعر

بالــدفء بعــد تحريكــي لذراعي. أبعدتُ الضوء عن الحفرة، وأسدلتُ ذراعيّ، وعدّلتُ اتجاه حزمة الضوء. رحتُ أتساءل عن السبب الذي يدفع بشخصٍ ما...

أصاب السؤال الفعلي هدفه، وجعل معدتي ترتد مثلما يفعل مسدس من عيار 0.45. أي شــخص فعل ذلك؟ ومن أتى إلى هذا المكان كي يحفر، أو يُفرغ هذه الحفــرة من محتوياتها؟ وهل الفاعل، سواء كان رجلاً أو امرأة، موجود هنا الآن؟ دفعــتني هذه الفكرة بالذات إلى القيام برد فعل. أسرعتُ بالاستدارة 360 درجة. وشعرتُ بلهيب الألم يحتدم في رأسي، وتضاعفت دقات قلبي ثلاث مرات.

لم أتمكّن من تحديد الأمور التي كنتُ أتوقع رؤيتها. هل ينتظرني كلب مخيف مــن نــوع **دوبرمان**؟ أم أنّ **نورمان بايتس** هو من ينتظرني مع أمه؟ هل سيكون **هنيبعل ليكتر**؟ وهل يكون **جورج برنــز** معتمراً قبعة كرة القاعدة؟ لم أشاهد أياً مــنهم. وجــدتُ نفسي وحيدةً مع الأشجار والنباتات الزاحفة، وظلمة الليل التي تخترقها أضواء النجوم.

رأيتُ شيئاً وحيداً بفضل حزمة الضوء الدوارة، ولم يكن سوى الممر. تركتُ تلــك الحفــرة التي حُفرت حديثاً، وعدتُ مترنحةً باتجاه الكيس المدفون جزئياً في التراب. وضعتُ عليه غطاءً من أوراق الأشجار. أدركتُ أنّ هذا التمويه المرتجل لن يخدع الشخص الذي أحضره إلى هناك، لكنه قد يخفيه عن عيون الآخرين.

تــناولتُ علبة طارد الحشرات من جيبــي، ووضعتُها في فرع شجرة مجاورة لــتكون علامة، وذلك عندما فرغتُ من وضع غطاء الأرض هذا. سِرتُ في الممر ودســتُ علــى الحشائش والجذور، وبالكاد نجحتُ في عدم التعثر. شعرت وكأن ساقيّ مشلولتان بفعل العقاقير، لذلك تحركتُ بسرعة بطيئة.

علّقــتُ قفازيّ على فرع شجرة تقع على تقاطع الممر مع الطريق الترابي، ثم انــدفعتُ نحو البوابة. أحسستُ بأنني مريضة ومرهقة، كما أنني خشيت أن يُغمى علــيّ، وأن يــزول مفعول الأدرينالين، وعندها سأنهار كلياً. أردت أن أكون في مكان آخر إذا حدث هذا.

وجدتُ سيارتي **المازدا** العزيزة بانتظاري في المكان ذاته حيث تركتها. لم انظر يميــناً أو يــساراً. تعثرتُ في سيري عبر الشارع، ولم أكترث ما إذا كان أحدهم ينتظــرني. بحــثتُ من جيبٍ إلى جيب عن مفتاح سيارتي. وجدتُ حلقة المفاتيح،

ولعـــنتُ نفـــسي لأنني أحمل هذا العدد الكبير من المفاتيح في الحلقة ذاتها. رحتُ أرتعش، وانسابت الشتائم من فمي بصورةٍ عفوية، فأوقعتُ المفاتيح مرتين. سحبتُ مفتاح السيارة أخيراً وفتحتُ بابها، ثم حشرتُ نفسي وراء عجلة القيادة.

أقفلـــتُ الـــباب، وأحطتُ عجلة القيادة بذراعيّ، ثم أسندتُ رأسي عليها. شـــعرتُ برغبةٍ شديدةٍ في النوم والهروب من كل ما يحيط بي، وتجاوز كل الأمور. أدركـــتُ أنـــه ينبغـــي عليّ مقاومة هذا الدافع. ألا يُحتمل أن يكون شخصٌ ما ينتظرني، ويراقبني، كي يقرر تنفيذ شيء ما؟

ذكّـــرتُ نفـــسي أنّ لجوئي إلى الراحة في هذا المكان، أو إغماض عينيّ ولو للحظة واحدة، سيشكل غلطة كبيرة.

أجـــرى عقلي مسحاً عشوائياً. ظهر **جورج برنـــز** أمامي مجدداً وقال: "أنا أهتم بالمستقبل على الدوام، وأخطط لتمضية بقية حياتي في هذا المكان".

جلـــستُ بالوضعية المناسبة وأخفضتُ ذراعيّ حتى مستوى حضني. ساعدتني وخزة الألم على استعادة صفائي الذهني. لم أتقيأ، فاعتبرتُ ذلك تقدماً كبيراً.

"إذا أردتِ مـــتابعة حياتك يا **بريان**، فعليكِ أن تغادري هذا المكان بأسرع وقت ممكن".

بـــدا صـــوتي ثقيلاً في هذا الحيّز المغلق، لكن هذا ساعدني بدوره على توجيه انتباهـــي إلى الواقـــع الـــراهن. أدرتُ محرّك السيارة، ولاحظتُ أنّ الساعة تومض بالأرقام الخضراء تشير إلى الثانية والربع فجراً. تساءلتُ متى غادرتُ هذه السيارة يا ترى؟

لم تـــتوقف حالـــة الارتعاش عندي، ولهذا رفعتُ درجة الحرارة إلى حدودها القصوى، رغم أنني لم أكن متأكدة من أنّ ذلك سيساعدني. تسببت الرياح، وهواء اللـــيل، جـــزئياً بحالة البرد التي أشعر بها. شعرت ببرودة أكبر تمس روحي، وهي الـــبرودة التي لن يخفف منها هذا السخّان الآلي. انطلقتُ بالسيارة من دون أن انظر ورائي.

تـــركتُ الـــصابون ينساب على نهدَيّ، وأحطتهما بالصابون مرة بعد مرة، وأنعـــشتني رائحـــة الرغوة المحببة وساعدتني على إزالة آثار أحداث الليلة الماضية. رفعـــتُ رأســـي كي أواجه الرذاذ الذي أخذ يصدم وجهي قبل أن ينساب حول

جسدي. ستبرد المياه بعد وقت قريب. مضت عشرون دقيقةً على بداية حمامي هذا، وحاولتُ إبعاد أحاسيس البرودة، وإسكات الأصوات التي تضجّ في رأسي.

أفادت الحرارة، والبخار، ورائحة الياسمين في تهدئتي، وتخفيض درجة التوتر في عضلاتي، وأبعدت عني الشعور بالمرارة. لم ينجح كل هذا تماماً. إذ بقيتُ طيلة الوقت أصغي إلى صوت يقع خارج منطقة البخار التي تغلفني. انتظرتُ رنين الهاتف، وخشيتُ أن تفوتني مكالمة رايان، ولذلك أحضرتُ الهاتف إلى الحمّام.

سبق لي أن اتصلتُ بالمركز فور وصولي إلى المنزل. فعلتُ ذلك حتى قبل أن أخلع ثيابي المبتلة. بدت موظفة تحويل الاتصالات الهاتفية متشككة، وحتى إنها أظهرت ترددها في إزعاج رجل التحري في منتصف الليل. أصرّت على رفضها إعطائي رقم **رايان**. طلبتُ منها إعطائي رقمه لأنني نسيتُ بطاقته في مكان عملي. وقفتُ في غرفة المعيشة مرتجفة. لم تفارق الأصوات رأسي، أما معدتي فكانت تستعد لنوبة أخرى، لذلك لم أكن في مزاجٍ يسمح لي بالجدال. أقنعتها كلماتي، وكذلك نبرتي. عزمتُ على الاعتذار منها في الغد.

حدث ذلك منذ نصف ساعة. شعرتُ بالألم في مؤخر رأسي. بقيت كتلة الورم في مكانها. أحسستُ بوجودها تحت شعري المبتل، وبدت مثل بيضة مسلوقة إلى ما بعد حدها، لكنها ناعمة الملمس. نفّذتُ كل التعليمات التي تلقيتُها، وتفحصتُ كل أماكن الضربات في رأسي. تفحصتُ حدقتَيْ عينيّ، وأدرتُ رأسي بقوة ذات اليمين وذات اليسار، كما وخزت يديّ وقدميّ كي أختبر قوة الإحساس فيها. بدت كل الأعضاء في مكانها الصحيح، وتقوم بعملها بشكل سليم. إنّ الارتجاج الذي تعرضتُ له كان خفيفاً.

أوقفتُ المياه، وخرجت من دائرة الدوش. بقي الهاتف حيث تركته. ظل صامتاً وغير مكترث بي.

اللعنة! أين هو يا ترى؟

جفّفتُ جسدي، وارتديتُ عباءتي ولففتُ منشفة حول شعري، ثم ألقيتُ نظرةً على الآلة المجيبة كي أتأكد من عدم وصول أي مخابرة. لم أشاهد ضوءاً أحمر اللون. اللعنة! تناولتُ سماعة الهاتف ونقرتُ عليها. سمعتُ الإشارة التي تدل على أنّ الهاتف يعمل، لكن بالتأكيد لم يكن الهاتف معطلاً. شعرتُ بالتوتر، وهذا كل ما في الأمر.

اســـتلقيتُ على الأريكة ووضعتُ الهاتف على الطاولة الصغيرة. لا بد من أنه سيتـــصل قريباً، لذلك كانت محاولة استسلامي للنوم أمراً لا طائل منه. أغمضتُ عينيّ، وخططتُ كي أرتاح دقائق قليلة قبل أن أبدأ في تحضير شيء أتناوله. تجمّعت عـــوامل البرد، والإرهاق، والضربة التي تعرضت لها على رأسي، لتتحول إلى موجة من التعب خيّمت عليّ، ودفعتني إلى نومٍ عميقٍ لكنه مضطرب. شعرتُ وكأنني في حالة إغماء أكثر من كوني في حالة إغفاء.

وجدتُ نفسي خارج السياج وأنا أراقب أحد الأشخاص يحفر برفش ضخم. رأيـــتُ الفئران تملأ الرفش في كل مرة يرتفع فيها عن الأرض. رأيتُ الفئران تنتشر في كـــل مكان عندما تطلعتُ نـــزولاً. اضطررتُ إلى ركل الفئران كي أُبعدها عن قدميّ. بدا الشخص الذي يلوّح بالرفش نحيلاً، لكنه عندما التفتَ عرفت أنه **بيتي**. أشـــار نحـــوي وقال شيئاً، لكنني لم أستطِع فهم الكلمات التي نطق بها. بدأ الرجل بالصراخ، وبالإشارة نحوي. رأيتُ فمه المستدير، وتلك الدائرة السوداء التي أخذت تكبر وتكبر حتى أحاطت بوجهه، وحوّلته إلى قناع قبيح من أقنعة المهرّجين.

تراكـــضت الفئران فوق قدميّ. رأيتُ أحدها يجرّ معه رأس **إيزابيل غاغنون** وقد غرز أسنانه بشعرها، واستمر بسحب الرأس فوق العشب.

حاولـــتُ أن أركض، لكن ساقيّ لم تتحركا. غرقتُ في مكاني لأكتشف أنني كـــنتُ أقـــف وســـط مقبرة، وأخذت حبيبات التراب تتساقط من حولي. رأيتُ **شـــاربونيو وكلـــوديل** يحدقان بي. حاولتُ أن أتكلم، لكن الكلمات عجزت عن الخـــروج من فمي. أردتُهما أن يقوما برفعي إلى حيث يقفان. مددتُ يديّ نحوهما، لكنهما تجاهلاني.

انـــضم شخص ثالث إليهما فيما بعد. كان رجلاً يرتدي عباءةً طويلةً ويعتمر قبعةً غريبة الشكل. نظر إليّ وسألني إذا ما كنتُ أمتلك إذناً بالتواجد حيث أنا. لم أســـتطع الإجابـــة. أخبرني أنني أقف على أرضٍ تملكها دار العبادة، وأنه يجدر بي المغـــادرة. قال إنه لا يُسمح لأحد بالدخول إلا إذا كان يعمل لصالح دار العبادة. رفـــرفت عـــباءته مع الرياح، وخشيتُ أن تسقط قبعته في القبر. حاول الرجل أن يُمـــسك عباءته بإحدى يديه، بينما نقر على هاتفه المحمول باليد الثانية. بدأ هاتفه بالرنين، لكنه تجاهله. واستمر الهاتف بالرنين.

بدأ هاتفي الموجود على الطاولة الصغيرة قربي بالرنين أيضاً، وتمكنتُ في نهاية الأمــر مــن تمييز رناته هذه عن تلك التي سمعتُها في حلمي. استيقظتُ أخيراً رغماً عني، ومددتُ يدي إلى سماعة الهاتف.

قلتُ بصوتٍ مترنحٍ: "همم. همم".

"برينان؟"

تكلم الرجل بلغة إنكليزية، وبصوت خشنٍ. جهدتُ كثيراً كي أصحو جيداً.

"نعم؟" نظرتُ إلى معصمي لكن ساعة يدي لم تكن في مكانها.

"أنا **رايان**. هل هو أمرٌ هام".

"كـــم الـــساعة الآن؟" لم أعرف ما إذا كنتُ قد استسلمتُ للنوم لمدة خمس دقائق، أم خمس ساعات. أحسستُ أنّ وقتاً طويلاً قد مرّ.

"إنها الرابعة وخمس عشرة دقيقة فجراً".

"أعطِني دقيقة من فضلك".

وضــعتُ سماعــة الهاتف على الطاولة، وتوجهتُ، متعثرةً بخطواتي، نحو الحمام. سكبتُ الماء البارد على وجهي، وغنيتُ مقطعاً من أغنية **البحار السكّير** أثناء هرولتي في مكــاني. أعــدتُ لفَّ المنشفة حول رأسي، وأسرعتُ بالعودة لمكالمة **رايان**. لم أرغب بـــزيادة انـــــزعاجه إذا طالت فترة انتظاره لي، بل أكثر من ذلك، لم أرغب أن يبدو صوتي مترنحاً، أو شارداً. كان من الأفضل لي أن آخذ دقيقة من الزمن كي أبدو طبيعية.

"حسناً، أنا معكَ مجدداً. آسفة".

"من كان يغني؟"

"همم. خرجتُ إلى **سان لامبرت** هذه الليلة". بدأتُ حديثي معه، وأردتُ أن أخبره بما يكفي، لكنني لم أرغب أن أعطيه كل التفاصيل عند الساعة الرابعة والربع فجراً. "وجدتُ البقعة التي علّمها **سان جاك** بحرف X. يبدو أنّ الأرض ملك لدار العبادة".

"هل تتصلين بي عند الرابعة فجراً لتخبريني هذه المعلومة".

"وجدتُ جثةً. كانت متحلّلة جداً، واستنتجتُ من الرائحة أنها أصبحت مجرد هـــيكلٍ عظمي. يتعيّن علينا التواجد هناك على الفور، أي قبل أن يعثر أحد عليها، أو قبل أن تشرع كلاب الحي في تنظيم غداء احتفاليّ لها".

أخذتُ نفساً طويلاً وانتظرت.

"هل أنتِ مجنونة بالكامل؟"

لم أعــرف إن كــان يشير إلى ما اكتشفتُه، أو لأنني ذهبتُ إلى ذلك المكان بمفــردي. أدركتُ أنه محق بالنسبة للشق الثاني، وهكذا فضّلتُ التحدث عن الشق الأول.

"أعرف الجثة بمجرد اكتشافها".

مــرّت فتــرة صــمت طــويلة، سألني بعدها: "هل كانت مدفونةً، أم فوق الأرض؟"

"كانت مدفونةً، لكن على عمقٍ بسيطٍ جداً. الجزء الذي رأيته كان مكشوفاً، لكن المطر جعله يبدو بحالة أسوأ".

"هل أنتِ متأكدة من أنها ليست مجرد مقبرة تتعرض للخراب؟"

"وجــدتُ هذه الجثة في كيسٍ من النايلون". الأمر واضح: وُجدت هذه الجثة بمثل الحالة التي وُجدت بها **غاغنون وتروتيه**.

"اللعنة!" تمكنتُ من سماع إشعال عود ثقاب، ثم سمعتُ صوت إخراج نفسٍ، وهذا يعني أنّ سيجارةً قد أُشعلت.

"أتعتقد أنه يجب أن نتحرك الآن؟"

"مــستحيل". سمعــتُه يسحب نَفَساً آخر من سيجارة. "وماذا تعنين بنحن؟ تمتلكين سمعةً بالتحرك كما يحلو لك يا **برينان**، وهي السمعة التي لا تعجبني بشكلٍ خــاص. يُحــتمل أن يكــون موقفك الذي يقول اذهب إلى الجحيم! ناجحاً مع **كلــوديل**، لكنه غير ناجح معي. وإذا أردتِ في مرةٍ قادمة أن تعبثي بمسرح جريمة، فيتعــيّن علــيك أن تــسألي ما إذا كان أحدٌ ما في فريقٍ مكافحة الجنايات يرغب بمشاركتك. إننا ما زلنا نُدرج ذلك في برامج أعمالنا".

لم أتوقع منه أن يشكرني، لكنني لم أكن متحضرةً لسماع رد فعله العنيف. بدأ الــشعور بالغــضب يتزايد في صدري، وتصاعدت قوة الضربات التي أشعر بها في رأسي. انتظرتُ قليلاً، لكنه لم يتابع كلامه.

"أشكركِ على اتصالكِ بي بهذه السرعة".

"همم".

"أيـــن أنت؟" لو كان تفكيري طبيعياً لكنتُ أحجمت عن طرح هذا السؤال الذي ندمتُ فوراً على طرحه.

قال بعد فترة من الصمت: "مع صديقة".

يا للخطوة الجيدة يا **بريتان**. لا عجب إن كان قد تضايق من الاتصال.

"أعتقد أنّ شخصاً ما كان هناك هذه الليلة".

"ماذا؟"

"ظنـــنتُ أنني سمعتُ شيئاً ما عندما كنت أفحص البقايا المدفونة. تلقيتُ بعد ذلك ضربةً على رأسي أفقدتني الوعي. كانت العاصفة في أوجها عندها، لذلك لم أستطعِ التأكد مما حدث".

"هل تعرضتِ للأذى؟"

"لا".

مرّت فترة صمت أخرى وكدتُ أسمعه يشبع الأمور تفكيراً في رأسه.

"سوف أرسل فرقة من أجل الحفاظ على مكان الجريمة كما هو. سأرسل بعد ذلك فريق استعادة مسرح الجريمة إلى هناك. أتعتقدين أننا سنحتاج إلى الكلاب؟"

"رأيـــتُ كيـــساً واحداً فقط، لكن لا بد من وجود المزيد. يبدو لي أنّ هناك المزيد من الحُفَر في المكان. أعتقد أنها فكرة صائبة".

انتظرتُ سماع رد فعل، و لم أتلقَ شيئاً.

سألته: "متى ستأتي كي تصطحبني؟"

"لـــن آتي لأصطحبكِ يا ***دكتورة بريتان***. إنها جريمة قتلٍ في عالم الواقع، وهي تقع ضمن صلاحيات **فرقة مكافحة الجنايات**، وليست إحدى حلقات ***الجريمة التي كتبتها***".

شـــعرتُ بالغـــضب الشديد عند هذا الحد، كما أحسستُ بالألم في منطقة جبهتي، وكأنّ غمامةً من الحرارة تخيّم فوقها وتؤثر في أعماق دماغي.

"يمـــتلك منطقك هذا ثغرات أكثر مما هو موجود في **ترانس كندا**". شعرتُ بحـــنق شديد إزاءه. "قل لي شيئاً آخر. إنها كلماتك يا **رايان**. حسناً، فهمت كل شـــيء. أستطيع أن آخذك إلى الموقع مباشرة. يتعلق الأمر أيضاً ببقايا عظمية. أي بالعظام، التي هي حقل اختصاصي أنا، هذا إن لم أكن مخطئة".

بقـــي خـــط الهاتف صامتاً لفترةٍ طويلةٍ بحيث اعتقدتُ أنه قد قطع المكالمة. اكتفيتُ بالانتظار.

"سأمرّ عند الثامنة".

"سأكون جاهزة".

"برينان؟"

"نعم؟"

"أنصحكِ أن تستثمري بعض المال في شراء خوذة واقية".

هنا، انقطَع الخط فعلاً.

16

وفى **رايان** بوعده. أوقفنا السيارة وراء عربة استعادة مسرح الجريمة، وكانت الساعة تشير إلى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة. لم تبعد النقطة التي أوقفنا فيها السيارة سوى ثلاثة أمتار عن المكان الذي أوقفتُ فيه سيارتي الليلة السابقة. كان عالماً مختلفاً عن ذلك الذي تواجدتُ فيه قبل ساعات قليلة فقط. تألقت الشمس بأشعتها وضجّ الشارع بالحركة والنشاط. اصطفت السيارات، وعربات **الكروزر** التابعة للشرطة، على جانبي الرصيف، كما وقف ما لا يقل عن عشرين شخصاً يرتدون أزياءً عادية ورسميةً، بشكل مجموعات، يتحدثون في ما بينهم.

رأيتُ أفراداً تابعين **للشرطة القضائية وأمن كيبيك**، وأفراد شرطة آخرين من **سان لامبرت**، مبعثرين هنا وهناك، وارتدى كل واحدٍ منهم زياً مختلفاً، ووضع الجميع إشارات متنوعة على صدورهم. ذكّرتني هذه التجمعات بأسراب الطيور ذات الأنواع المختلفة التي تتشكل أحياناً قبل أن تنطلق بمهرجانات عفوية وتصفق بأجنحتها، ويروح كل طائر يعلن عن فصيلته عن طريق عرض ألوان ريشه، والخطوط البارزة على أجنحته.

رأيتُ امرأة تحمل حقيبة كتف كبيرة، وإلى جانبها شاب محمّل بكاميرات التصوير. انشغل الاثنان بالتدخين، واستندا إلى سطح سيارة **شيفي** بيضاء. إنه تجمّع من فصيلة أخرى: الصحافة. رأيتُ بعيداً كلباً ألمانياً، من نوع **شفرد**، فوق مساحة عشبية يشب قرب رجلٍ يرتدي بذلة رياضية، وأخذ يشمّ المكان الذي يقف فيه الرجلُ. واظب الكلب على الاستكشاف وصوّب أنفه باتجاه الأرض، ليعود ثانية

إلى مدرّبـــه، وأخذ يهزّ ذيله وأبقى رأسه مرفوعاً. بدا الكلب متحمساً للانطلاق، لكنه تحيّر بسبب التأخير في انطلاقته في مهمته.

قـــال **رايـــان**، بعد أن ركن السيارة، وفكّ حزام الأمان في مقعده: "يتواجد الفريق بأكمله هنا".

لم يعـــتذر مني على لهجته الخشنة على الهاتف، كما أنني لم أتوقع أن يقدم لي اعـــتذاراً كهذا. لا أتوقع أن يتصرف أي شخصٍ على طبيعته الحقيقية عند الساعة الرابعة فجراً. كان ودوداً جداً أثناء قيادته السيارة، وحتى إنه كاد أن يكون مرِحاً، حـــين أخذ يدلّني على المواقع التي وقعت فيها بعض الحوادث. كما روى لي بعض الأحداث التي تعرّض فيها للأخطاء والإحراج. أخبرني عن أحداث عنفٍ وقعت في هـــذه الأمـــاكن التي مررنا من أمامها. جرت إحدى هذه القصص في تلك البناية المـــؤلفة من ثلاثة طوابق، حيث هاجمت امرأة زوجها بمقلاة، ثم تحولت نحو رجال الـــشرطة. أخبرني أيضاً أنهم وجدوا رجلاً عارياً في مطعم **دجاج كنتكي المشوي (بولـــيت كنتكي فريتس)**. علق الرجل في أحد أنابيب التهوئة. انحصر حديثه معي في الإطـــار الـــذي يتبادله أفراد الشرطة في ما بينهم. رحتُ أتساءل ما إذا كانت خـــرائطهم الذهنية تستند إلى المواقع التي جرت فيها الحوادث المسجلة الواردة في تقارير الشرطة، بدلاً من أسماء الأنهر، والشوارع، وأرقام البنايات، التي نستخدمها نحن.

رأى **رايان برتران** فتوجّه نحوه. وكان الرجل يقف ضمن مجموعة تتألف من بـــيار **لامـــانش**، الضابط في **أمن كيبيك**، ورجلٍ أشقر الشعر، نحيل البنية، ويضع نظـــارة طـــيارٍ داكـــنة علـــى عينيه. تبعتُه عبر الشارع، وبحثتُ عن **كلوديل**، أو **شـــاربونيو**، بـــين الحشد. اعتقدت أنهما قد يكونان حاضرَين، رغم كون القضية تخص **أمن كيبيك**. رأيتُ أفراد هذه المجموعة هنا، لكنني لم ألمح أياً منهما.

لاحظـــت بعد اقترابنا من المكان، أنّ الرجل الذي يضع النظارة متوتر جداً. فلقـــد بقيت يداه في حركة دائمة، كما دأب على تحريك شاربه الرفيع فوق شفته العليا، وتلاعبت أصابعه بشعيرات شاربه القليلة، وأعادها إلى مكانها. لاحظتُ أيضاً جلده الباهت الذي لا تشوبه البثور. ارتدى الرجل سترةً واسعةً، وانتعل حذاءً عالياً أسود اللون. قدّرتُ أن يكون عمره خمسة وخمسين، أو خمسة وستين عاماً.

أحسستُ أنّ عينَي **لامانش** تنظران نحوي بعد أن انضممنا إلى المجموعة. أومأ باتجاهي، لكنه لم يقل شيئاً. بدأت الشكوك تتجمع في رأسي. فأنا وحدي تسببتُ بهذا العرض، وبقدوم كل هؤلاء الأشخاص إلى هذا المكان. ماذا لو لم يجدوا شيئاً؟ وماذا لو أقدم أحد الأشخاص على إزالة الكيس؟ وماذا سيحدث لو تبيّن أنّ المكان هـــو مجـــرد **مقبرة لعامة الناس**؟ كانت الليلة الماضية شديدة الظلمة، وقد تعرضتُ أثناءها للاعتداء. هل تخيّلتُ الكثير من الأمور؟ شعرتُ بتوتر في معدتي.

حـــيّانا **برتـــران**. وبدا، كعادته، نسخةً أقصر قليلاً عن عارض أزياء. اختار الرجل الألوان الأرضية الداكنة التي تصلح للنبش، وهي الألوان التي تتناسب مع بيئة الأرض، أي الظلال واللون البني، لكنها صُنعت بالتأكيد من أصباغٍ كيميائية.

ألقـــيتُ أنا و**رايان** التحية على الأشخاص الذين نعرفهم، ثم تقدّمنا من الرجل الذي يضع النظارة. قام **برتران** بتقديمنا إليه.

"**آندي. دكتورة**. هذا هو **بوارييه**. إنه يمثّل الدوقية".

"الأرشيدوقية".

"اعـــذريني. **الأرشـــيدوقية**، لأن هذه الأرض هي ملكٌ لدار العبادة". حرّك **برتران** إبهامه باتجاه السياج وراءه.

"**تمب برينان**". تبرعت بالتعريف عن نفسي، ومددت يدي للمصافحة.

ركّز **بواتييه** نظارته تجاهنا، وأمسك راحة يدي بقبضته الضعيفة التي تخلو من الحيوية. لو صنّفنا الناس بحسب قوة مصافحتهم، لكانَ حصل على درجة D سلباً. كانـــت أصـــابعه باردةً وهزيلةً، وبدت مثل جزرات بقيت في الثلاجة لمدة طويلة. قاومتُ دافعاً تولّد عندي كي أفرك أصابعي بسروالي الجينـــز.

كرّر الإجراء ذاته مع **رايان**، الذي لم تكشف ملامح وجهه عن أي تعبير. لاحظتُ أنّ البشاشة التي أظهرها هذا الصباح قد اختفت، لتحل الجدية مكانها. تحوّل الرجل إلى وضعية الشرطي. بدا **بوارييه** وكأنه يريد أن يقول شيئاً، لكنه غيّر رأيه عندما رأى وجه **رايان**، وزمّ شفتيه حتى أصبحتا خطاً مستقيماً. أدرك الرجل بطريقة ما، وبعد أن ساد الصمت، أنّ **رايان** هو الذي يمسك الآن بزمام الأمور.

سأل **رايان**: "هل دخل أحد حتى الآن؟"

أشار **برتران** إلى ضابط يرتدي زياً رسمياً يقف إلى يمينه. "لم يدخل أحد بعد. جـاء **كامبرون** عند الخامسة صباحاً. لم يدخل أي شخص إلى المكان، وكذلك لم يخـرج أحد. يقول **بوارييه** إنّ شخصين فقط يمتلكان حق الدخول إلى الأرض: هو والمـشرف على الأرض. وصل الرجل إلى الثمانينيات من عمره، واستمر يعمل في الأرض مـنذ أن جعلـت **مامي أيزنهاور** خصلات الشعر المنسدلة على الجبهة أمراً محبوباً". لفظ الرجل كلمة **أيزنهاور** بالفرنسية، فأعطت انطباعاً كوميدياً.

أعـاد **بوارييه** توجيه نظارته باتجاهي وقال: "من غير الممكن أن تكون البوابة مفتوحة. إنني أتأكد من إقفالها في كل مرة أحضر فيها إلى هنا".

سأل **رايان**: "ومتى تحضر إلى هذا المكان؟"

تحوّلت النظارة عني لتركّز على **رايان**. بقيت في مكانها ذاك ثلاث ثوانٍ كاملة قبل أن يجيب.

"مرة في الأسبوع على الأقل. تشعر دار العبادة بمسؤوليتها عن كل ممتلكاتها. إننا، ببساطة، لا..."

"ما هي طبيعة هذا المكان؟"

خـيّمت فتـرة من الصمت مجدداً: "يدعى **موناستير سان برنار. وقد** أغلق أبـوابه في العـام 1983. شـعرت دار العبادة أنّ أعداد رجال الدين فيه لا تبرّر استمراريته".

اسـتغربتُ الطريقة التي تحدّث فيها عن دار العبادة باعتبارها كائناً حياً يمتلك المـشاعر والإرادة. وجدتُ أنّ لغته الفرنسية غريبة بعض الشيء، وحتى إنها تختلف عـن اللهجـة الهادئة التي نشأتُ على سماعها. لم يكن الرجل **كيبيكياً**، لكنني لم أسـتطِع تحديد مكان سكنه من لهجته. لم تكن تلك اللهجة الفرنسية الأصيلة التي تخـرج من الحنجرة، أو تلك التي يسميها سكان أمريكا الشمالية اللهجة الباريسية. شككتُ أن يكون الرجل بلجيكياً، أو سويسرياً.

استأنف **رايان** الحديث: "وماذا يجري هنا؟"

مـرّت فترة صمت أخرى، وبدا لي أنّ الموجات الصوتية تقطع مسافة طويلة قبل أن تصل إلى متلقيها.

"لا شيء هذه الأيام".

توقف رجل الدين عن الكلام وتأوّه. لعله تذكر أياماً ماضيةً عرفت فيها دار العبادة ازدهاراً أكبر، أو أياماً شهدت فيها حركةً كثيفةً. ولربما أراد الرجل أن يجمّع أفكاره، وأن يكون دقيقاً في تصريحاته لرجال الشرطة. لاحظتُ أنّ نظارة الطيارين تخبّئ عينيه. أعتقد أن الرجل غير مؤهل بما يكفي كي يكون رجل دين، فهو يمتلك جلداً سليماً من البثور، ويرتدي سترةً جلديةً، وينتعل حذاءً رياضياً كالذي ينتعله سائقو الدراجات الهوائية.

تابع حديثه أخيراً: "إنني آتي هذه الأيام كي أتفقد الأرض، ويقوم المشرف على الأرض بالعناية بكل شيء".

انشغل **رايان** بتدوين ملاحظاته في دفترٍ صغير: "كل شيء؟"

"أعني الفرن، والأنابيب، وجرف الثلوج. إننا نعيش في مكانٍ بارد جداً". أشار **بواتييه** بإحدى ذراعيه وكأنه يريد أن يشمل المقاطعة بكاملها. "والنوافذ، كما أنّ الاولاد يحبون أحياناً إلقاء الأحجار". نظر إليّ: "بالإضافة إلى الأبواب والبوابات". إنه يتأكد من بقائها مقفلة.

"متى تفقّدتَ الأقفال آخر مرة؟"

"تفقدتُها نهار الأحد، عند الساعة السادسة مساءً. كانت كلها مقفلة".

فاجأني جوابه الواثق. لم يتوقف الرجل كي يفكّر في هذا السؤال. يُحتمل أن يكون **برتران** قد سبقنا إلى طرح السؤال، أو لعل **بواتييه** توقع طرحه، لكن السرعة التي أجاب فيها جعلت جوابه يبدو متعجلاً.

"هل لاحظتَ أمراً خارجاً عن المألوف؟"

"لا شيء".

"متى يأتي هذا المشرف، ما اسمه؟"

"**مسيو روي**".

"ومتى يأتي إلى هنا؟"

"إنه يأتي أيام الجمعة، إلا إذا كان لديه عملٌ خاصٌ يمنعه من المجيء إلى هنا".

لم يردّ **رايان**، لكنه تابع النظر إليه.

"... كي يقوم بأعمالٍ مثل جرف الثلج، أو إصلاح نافذة".

"أعـــتقد أنّ التحري **برتران** قد استجوبكَ بشأن احتمال قيام أحدهم بدفن جثث في هذه الأرض؟"

مـــرّت فتـــرة صمت. "لا. لا. لم يُدفن أحد في هذه الأرض". هزّ رأسه من جانـــب إلى آخـــر، ولاحظتُ أنّ نظارته الشمسية تحركت فوق أنفه. تحرك أحد قوسَي النظّارة من مكانه، أما إطارها فاستقر على زاوية عشرين درجة. بدا الرجل مثل إحدى سفن النقل تنتظر أن ترسو في المرفأ.

"لطالمـــا كـــان هذا المكان موناستير تابعاً لدار العبادة على الدوام، ولذلك لم يُدفن أي شخصٍ في هذه الأرض. سبق لي أن استدعيتُ موظفة الأرشيف وطلبتُ مـــنها أن تـــراجع السجلات كي نكون متأكدين". مرّر الرجل يديه الاثنتين فوق جبهته خلال حديثه، وعدّل وضع نظارته، فأصبحت في وضعها الصحيح.

"أنتَ تعرف سبب وجودنا هنا، أليس كذلك؟"

أومأ **بواربيه** فتحركت النظارة ثانيةً. بدأ في الكلام، لكنه غيّر رأيه، و لم يقل شيئاً.

أغلـــق **رايان** دفتر ملاحظاته الصغير ودسّه في جيبه. "هل تقترحين شيئاً كي ننجز المهمة؟" وجّه ذلك السؤال لي أنا.

"دعـــني آخذك إلى الداخل وأدلّك على ما اكتشفته بنفسي. أريدك أن تحضر كلـــبك كـــي نعرف ما إذا كان هناك المزيد من البقايا المدفونة". تمنيتُ أن يوحي صوتي بثقة أكبر مما شعرتُ به. اللعنة! ماذا لو لم يكن هناك المزيد؟

"حسناً".

مـــشى **رايان** نحو الرجل الذي يرتدي بذلة عمل. وقفز كلب **الشفرد** نحوه، ومـــرّغ أنفـــه على يده كي يلفت انتباهه. مرّر الرجل يده على رأس الكلب أثناء حديثه إلى صاحب الكلب. عاد الرجل للانضمام إلينا، وتقدم مجموعتنا حتى وصلنا إلى الـــبوابة. تفحصتُ المنطقة المحيطة بنا بكلِ عناية بحثاً عن أي علامات تدل على أنني تواجدتُ فيها الليلة الماضية، و لم أجد شيئاً.

انتظـــرنا عند البوابة ونظرنا إلى **بواربيه** أثناء تناوله مجموعة كبيرة من المفاتيح من جيبه كي يختار واحداً منها. أمسك بالقفل وسحبه، وكأنه يمتحن قوة عضلاته مـــع القـــضبان. أحدث القفل صوتاً ناعماً وسط هواء الصباح، وتطاير رذاذ من

الـــصدأ قـــبل أن يـــستقر على الأرض. هل أقفلته بنفسي قبل ساعات؟ لم أستطِع التذكر.

حرّر **بواريبه** السلسلة الحديدية، وحرّر القفل، ثم فتح البوابة على مصراعيها. أصدرت البوابة صريراً ناعماً. لم يشبه هذا الصرير ذلك الصوت المعدني الحاد الذي أذكره. تراجع قليلاً كي يُخلي الطريق لي، بينما اكتفى الجميع بالانتظار. لم يقل **لا مانش** أي كلمة حتى الآن.

رفعـــتُ حقيبتي قليلاً فوق كتفي، ومررتُ من أمام رجل الدين، ثم سِرتُ في الطريق غير المعبّد. بدت الأشجار ودودة في ضوء الصباح المنعش، واختفت العدائية مـــنها. أرسلت الشمس أشعتها الدافئة من خلال أوراق الأشجار العريضة وأوراق الـــصنوبر، كمـــا أنّ الهـــواء كان مثقلاً برائحة الصنوبر. ولّدت الروائح الممتزجة خـــيالاتٍ من المنازل المشيدة قرب البحيرات، والمخيمات الصيفية. خلت كل هذه الـــصور من خيالات الجثث والظلال الليلية. تحركتُ ببطء، وتفحصتُ كل شجرة وكل بوصةٍ من الأرض بحثاً عن الأغصان المتكسرة، أو عن نباتات في غير مكانها، أو حـــتى عـــن ترابٍ محفورٍ حديثاً، أو حتى عن شيء يدل على وجودٍ بشري في الأرض، ووجودي أنا بشكلٍ خاص.

تـــصاعدت درجة قلقي مع كل خطوة، وازدادت وتيرة نبضات قلبي. ماذا لو كـــنتُ أنا التي أقفلتُ البوابة؟ هل تواجد أحدٌ في هذا المكان بعدي؟ وماذا حصل بعد انصرافي؟

بـــدا المكـــان وكأنني لم أزره مطلقاً من قبل، لكنه كان مألوفاً بالنسبة إليّ، وكـــأنني قرأتُ عنه، أو رأيتُه في الصور. حاولتُ أن أجد موقع ذلك الطريق الضيّق عن طريق تقدير المسافة والزمن. تولّدت لديّ شكوكي الخاصة، وبدت الصور في ذهـــني مـــشوشة وغير منتظمة. بدا الأمر كله وكأنه حلمٌ لم أتذكره سوى بشكلٍ جزئـــي، أي أنـــني أتذكر الأحداث المهمة جيداً، لكن بقية التفاصيل مثل تراتبية الأحداث ومدتها فكانت غير واضحة. أردتُ أن أرى شيئاً يساعدني على التذكر، ورحتُ أصلّي.

استجاب الله لدعائي عن طريق رؤيتي للقفازين. نسيتُ أمر القفازين تماماً. شـــاهدتُهما هناك على الجهة اليسرى من الطريق غير المعبّد، وظهرت أشكال

ثـــلاث أصـــابع بيضاء اللون على مستوى العيون في مكانها فوق فرع شجرة. بحـــثتُ في الأشـــجار المجاورة، فظهر القفاز الآخر عالقاً على غصنٍ صغيرٍ من شـــجرة قيقب صغيرة تعلو حوالى مترٍ وعشرين سنتمتراً عن الأرض. التمعت صـــورةٌ في ذهني وهي صورتي عندما رحتُ أتحسّس بيدي في العتمة عن مكان مناســـب كي أدس قفازيّ فيه. هنأتُ نفسي على ميزة التخطيط للمستقبل التي أمتلكها، لكنني وبّخت نفسي من جهة التذكر. ظننتُ أنني وضعتُ القفازين في مكان أعلى. هل مررتُ في هذه الغابة بتجربة تغيير الأحجام التي مرّت بها **أليس** في بلاد العجائب.

تنقلتُ ببصري ما بين الشجرتين اللتين تحملان القفازين، والمتواجدتين بين ممـــرٍ غير واضح المعالم. بدت أهمية هاتين الشجرتين كبيرة جداً في هذه الأجمة، بحـــيث إنني لم أكن أستطيع تمييز هذا الممر من دون هذه الدلائل التي وضعتها. أظهر الممر في ضوء النهار تغيّراً بسيطاً في تشكيل مكونات الشجيرات، وبدت هذه النباتات أقل كثافةً، وأكثر تباعداً، على طول جانبَيه. لاحظتُ أنّ الغطاء النباتي لا يتداخل مع بعضه على طول خطٍ ضيّقٍ في هذا الممر. بدت الحشائش والشجيرات الصغيرة وحيدة ومعزولة عما يُحيط بها من حشائش، وهذا ما أظهر التـــراب تحت الأوراق اليابسة التي تواجدتُ عليها. كانت هذه كل الفروقات التي تميّز الممر.

فكّرتُ ملياً في هذه الأحجية أثناء عملي بطريقة الأطفال. ركّزتُ أنا **وغران** علـــى كل عناصر الأحجية، وبحثنا عن الموقع الصحيح، وانشغلت عيوننا وأذهاننا برصـــد أقل الفروقات في الكثافة والظلال. اعتمد نجاحنا على قدرتنا في رصد أدق التفـــصيلات في الألوان ونوعية الأوراق. تساءلتُ عن كيفية تمكّني من رصد هذا الممر في الظلمة.

تمكـــنتُ من سماع حفيف الأوراق، وتكسّر الأغصان ورائي. لم أتحدث عن القفازين، وتركتُ الموجودين يدهشون بمهاراتي الملاحية، حتى إنهم اعتبروني **بريينان** المستكـــشفة. رأيتُ علبة طارد الحشرات على بعد أذرعٍ قليلة. لم يكن مكان هذه العلـــبة مناســـباً لأن غطاءها البرتقالي الفاقع التمع مثل منارةٍ وسط اللون الأخضر المنتشر حولنا.

بقيت تلّتي المموهة. ظهر انتفاخٌ في الأرض تحت شجرة السنديان، لكنه كان مغطى بالأوراق المحاطة بالتراب. تمكنتُ من رؤية بعض الآثار التي تركتها أصابعي عـــندما حاولت تغطية الكيس المصنوع من النايلون. تبيّن لي أنّ محاولة التمويه التي قمتُ بها قد كشفت من المكان أكثر مما أخفته، لكن ذلك كان أفضل ما استطعتُ القيام به حينها.

ســبق لي أن كــشفتُ عدة جثث. تم الكشف عن هذه الجثث المخبأة نتيجة إخبار، أو عن طريق الصدفة. عمد المخبرون أحياناً إلى الوشاية بشركائهم. ويعمد الأولاد المندهــشون أحــياناً إلى الإبلاغ عن مكتشفاهم. كانوا يقولون: ***اشتممنا رائحـــة كريهة، وهكذا بدأنا بالبحث، وهذا ما وجدناه!*** بدا شعوري غريباً وأنا أتصرف مثلما يتصرف الأولاد.

أشرتُ إلى التلة المغطاة بأوراق الأشجار: "هناك".

سأل **رايان**: "هل أنتِ متأكدة؟"

اكتفيتُ بالنظر إليه في حين صمت الآخرون. وضعتُ حقيبتي أرضاً وتناولتُ مـــنها زوجاً جديداً من القفازات التي تُستخدم في الحديقة. سرتُ نحو تلة التراب وركّـــزتُ قدميّ جيداً كي أخففَ من الارتجاج. بدا تصرفي هذا سخيفاً بالنظر إلى مغامـــرتي اللـــيلة الفائتة، لكنني فضّلتُ الالتزام بالتقنيات المفترضة عند إنجاز هذا العمل.

جلستُ القرفصاء وبدأتُ في إزالة ما يكفي من الأوراق كي يظهر قسم صغير مـــن الكيس المصنوع من النايلون. بقيت محتويات الكيس مدفونةً في الأرض، ودلّ شكلها غير المنتظم على أنّ محتوياته بقيت سليمة. بدا أنّ أحداً لم يعبث بها. رأيتُ **بواربيه** عندما استدرتُ وهو يرسم إشارة الصليب على وجهه.

تحـــدث **رايان** مع **كامبرون**: "دعنا نأخذ بعض اللقطات كي نضعها في دليلنا السياحي".

عـــدتُ إلى حـــيث يقف الآخرون وانتظرتُ بصمت كي ينهي **كامبرون** عمله. أفرغ عدة عمله، وملأ لوحة استمارات، كما التقط صوراً للتلة الترابية والكيس من مسافات واتجاهات متعددة. أنـــزل الرجل آلة تصويره وتراجع إلى الوراء.

التفت **رايان** نحو **لامانش**: "دكتور؟"

نطق **لامانش** كلمته الأولى منذ وصولي: "**تمبرنس؟**"

تـــناولتُ مالجـــاً من الحقيبة، وعدت إلى التلة. أزلتُ الأوراق المتبقية وبدأتُ بكـــشف ما استطعتُ من الكيس. شعرتُ بأنني تذكرت شيئاً، حتى أنني استطعتُ رؤية الثقب الذي أحدثتُه بظفري.

اســـتخدمتُ المـــالج وأزلتُ التراب من فوق الكيس وحوله، وبدأتُ بكشف المـــزيد من محتويات الكيس. فاحت رائحة التراب المتعفن الذي أُزيل حديثاً وكأن رائحة جزء صغيرٍ من كل شيء كانت محتجزةً منذ دهور سحيقة، ثم أطلقها الجليد فجأة من قبضته المتجمدة.

سمعتُ أصواتاً انسابت من مهرجان تطبيق القانون الذي يدور في الشارع، لكـــن الأصوات الوحيدة التي كانت تُسمع في المكان الذي أعمل فيه أتت من الطيور، والحشرات، ومن أصوات المالج المتتابعة. تطايرت الأغصان في الهواء ثم ســـقطت وســـط النسمات. تميّزت حركتها هذه بأنها نسخةٌ أكثر هدوءاً من التراقص الذي نفذته في الليلة السابقة. إذ انشغل الناشطون في مسرح الليل في حـــركات تشبه حركات محاربي **الماساي** (في شرق أفريقيا) وتقافزوا، واندفعوا وكـــأنهم مـــنهمكون في معركة وهمية. أما العرض الصباحي، في المقابل، فكان **رقصة فالز تذكارية**. تحركت الظلال على الكيس، وعلى وجوه المجموعة الرزينة التي تراقب ظهوره. شاهدتُ أشكالاً كثيرة تتحرك، فبدت مثل مسرحية للدمى المتحركة.

تحـــولت تلـــة التراب إلى حفرةٍ في غضون خمس عشرة دقيقة فبرز أكثر من نـــصف الكيس. شككتُ أن تكون محتويات الكيس قد أعادت ترتيب نفسها أثناء اســـتمرار عملية التحلّل وتحرّر العظام من مسؤولياتها التشريحية، هذا إذا كان هناك من عظام.

ظنـــنت أنني قمت بإزالة ما يكفي من التراب كي أتمكّن من انتزاع الكيس. وضـــعتُ مالجـــي جانباً، أمسكتُ به وجذبته ببطء. لم يتزحزح. عاد إليّ الشعور الـــذي سيطر عليّ الليلة الماضية. هل أنّ أحداً أسفل الحفرة يُمسك الطرف الآخر من الكيس، ويتحداني في لعبة شدّ الحبال الكريهة؟

تولى **كامبرون** التصوير أثناء قيامي بالحفر. اقترب مني حتى أصبح ورائي كي يتحـــضّر من أجل التقاط صورة **كوداكروم** لحظة تحرّر الكيس. خطرت عبارة في ذهني: **تخليد لحظات حياتنا، وموتنا أيضاً**. رحت أفكّر بهذه العبارة.

فـــركتُ قفـــازيّ في ســـروالي الجينـــز، وأمسكتُ بالكيس في أقصى نقطة أســـتطيع الوصول إليها، ثم جذبتُه بشدة لفترة قصيرة. حاولتُ تحريك الكيس مرة أخرى، ورفضت الحفرة التخلي عمّا تخبّئه بسهولة، لكنني نجحتُ في التخفيف من شدة تمسكها بالكيس. شعرتُ أنّ الكيس قد تحرّك، وأنّ محتوياته قد غيّرت أماكنها قلـــيلاً. أخذتُ نَفَساً عميقاً، وجذبتُ الكيس نحوي ثانيةً، لكن بقوة أكبر. أردتُ انتـــزاع الكـــيس من مكانه، لكنني خشيتُ تمزّقه. تحرّر الكيس قليلاً قبل أن يحتل مكانه الجديد.

ركّـــزتُ، قدميّ وانطلقتُ أجذب من جديد، لكن خصمي الذي كان يرقد تحت الأرض تخلى عن هذه المبارزة. بدأ الكيس يتحرر من مكانه وينـــزلق. أعدتُ تركيز أصابعي حول الكيس الملتف. تراجعتُ ببطءٍ إلى الوراء خطوة خطوة إلى أن أخرجتُ الكيس من الحفرة.

أرخـــيتُ قبضتي عن الكيس ما إن خرج من حافة الحفرة، وتراجعتُ إلى الـــوراء. رحتُ أتساءل عما إذا كان هذا ليس سوى كيس نفايات عادي من الـــنوع الـــذي يوجد في كل مطبخٍ، ومرآب، في أمريكا الشمالية. بدا الكيس ســـليماً ومنـــتفخاً بمحتوياته، لكنه لم يكن ثقيلاً. لم تكن هذه بالعلامة المبشرة بالخير، أم هل إنّ العكس صحيح؟ هل سأكتشفُ وجود بقايا كلبٍ يعود لأحد الأشخاص فأشعرُ عندها بالمهانة، أم أنني سأجد بقايا جثةٍ بشريةٍ، فتظهر حينها صحة وجهة نظري؟

بـــدأ **كامـــبرون** عمله على الفور. وضع الرجل بطاقته، والتقط سلسلة من الصور. نـــزعتُ أحد قفازيّ، ثم تناولتُ سكّيني (من النوع الذي يستخدمه الجيش السويسري) من جيبـــي.

ركعـــتُ إلى جانب كيسي، بعد أن انتهى **كامبرون** من عمله. ارتجفت يداي قلـــيلاً، لكنني استطعتُ أخيراً أن أمدّ ظفري إلى داخل الهلال الصغير الذي أحدثه نصل السكين ووسّعته. التمع الفولاذ الذي لا يصدأ عندما انعكست أشعة الشمس

علـــيه. اخترتُ بقعةً في طرف الشق. أحسستُ أنّ خمسة أزواج من العيون تنصبّ عليّ.

نظـــرتُ صـــوب **لامـــانش.** لاحظتُ تغيّراً في تعابير وجهه عندما تحرّكت الظلال. تساءلتُ لبرهة قصيرة كيف يبدو وجهي الملطّخ في الضوء. أومأ **لامانش،** وما لبثتُ أن ضغطتُ على النصل.

تـــوقفت يـــدي عن عملها قبل أن أمزّق الكيس. حدث ذلك بفعل صوت امـــتلاك مفعول حبلٍ غير مرئي. سمع الجميع هذا الصوت على الفور، لكن **برترانَ** عبّر عما نفكّر به: "اللّعنة!"

17

بـــدا هذا الصوت المفاجئ مجموعةً غير متناسقة من الأصوات. تداخل صوت نـــباح كلـــب مسعورٍ مع أصوات بشرية شديدة الاهتياج. تصاعدت الصرخات المتـــسارعة والمتوتـــرة في اتجاهات متعاكسة. تبيّن لي أنّ هذا الضجيج يتصاعد من مكـــان ما داخل أراضي الموناستير، وإلى يسارنا. افترضتُ في البداية أنّ صائداً ليلياً قـــد عـــاد، وأنّ كـــل رجل شرطة في المقاطعة، وكلباً واحداً على الأقل من نوع **شفرد**، يطاردونه.

نظرتُ إلى **رايان** والآخرين. كانوا جامدين، مثلي، في أماكنهم. لفتني توقف **بواريـــيه** عن العبث بشاربه، لكنه وقف، وثبّت إحدى يديه فوق شفته العليا. قطع هـــذا الـــصمت صوت رجل يشق طريقه وسط الأشجار الكثيفة. التفتت رؤوس الموجـــودين بالتتابع، وكأنها تعمل عبر مفتاح تحكّم واحد. انطلق صوت ينادي من مكان ما بين الأشجار.

"**رايان**؟ هل أنتَ هناك؟"

"أنا هنا".

التفتنا جميعاً في اتجاه الصوت

"*Ciboire!*". تصاعدت أصوات وجلبةٌ أكثر.

ظهـــر ضابط يعمل في **أمن كيبيك** وهو يشق طريقه وسط الأغصان ويتمتم بـــصوت مـــسموع. لاحظتُ أنّ وجهه السمين قد احمّر، وأنّ تنفسه أصبح أكثر صـــخباً. بانـــت على جبهة الرجل حبيبات من العَرَق التي تسببت في جعل كتلة

الـــشعر، التي تحيط برأسه الذي غلب الصلع عليه، أكثر تسطحاً. وضع الرجل فور رؤيـــته لنا يداً على كل ركبة من ركبتيه، وانحنى قليلاً كي يستطيع التنفس بسهولة أكبر. تمكنتُ من رؤية بعض الخدوش حيث احتكّت الأغصان مع المنطقة المكشوفة من فروة رأسه.

نهـــض الـــرجل بعد قليل وحرّك إبهامه نحو الاتجاه الذي قدم منه، وقال لاهثاً بصوت أجش، يشبه صوت الهواء الذي يمرّ عبر **مصفاة** مسدودة: "أريدكَ أن تتوجه إلى هناك يا **رايان**. يتصرّف ذلك الكلب اللعين مثل رجلٍ تناول جرعة مفرطة من المخدرات".

تمكـــنتُ أن أرى **بواريبه** بطرف عيني، ولاحظتُ أنّ يده تحركت فوق جبهته قبل أن تنـــزلق نحو صدره. رسم الرجل إشارة الصليب مجدداً.

"ماذا؟" ارتفع حاجبا **رايان** من الدهشة.

"أخذه **دي سالفو** في جولة حول المكان بناءً على تعليماتك، فبدأ ذلك اللعين بالـــدوران حـــول تلك البقعة بالذات، وأخذ بالنباح وكأنه ظنّ أن **أدولف هتلر**، وجيشه الألماني بالكامل، مدفونون هناك". صمت قليلاً: "أصغِ إليه!"

"ثم ماذا؟"

"ثم مـــاذا؟ أوشك ذلك اللعين الصغير أن يقطع حبلاً من حباله الصوتية. وإذا لم تصل إلى هناك بالسرعة المناسبة فسيؤذي نفسه".

كتمتُ ابتسامةً لأن الصورة كانت مضحكةً جداً.

"قـــم بإشـــغاله عـــدة دقائق إضافية. أعطِه **ميلك بون**، أو قرص **فاليُوم** إذا اضطررت. يتعيّن علينا إنهاء أمرٍ هنا". نظر إلى ساعته: "عُد بعد عشر دقائق".

هزّ الضابط كتفيه، وأفلت الغصن الذي يمسكه بيده، ثم استدار كي ينصرف.

"آه، **بيكو**".

استدار صاحب الوجه السمين.

"وجدنا ممراً هنا".

أخـــذ **بيكو** يهسهس: "حسناً سأجرّب". أخذ يشق طريقه وسط الشجيرات نحـــو الممـــر الذي أشار إليه **رايان**، وتأكدتُ من أنه سيضلّ طريقه بعد أن يقطع خمسة عشر ذراعاً منه.

أضاف **رايان**: "آه، **بيكو**..."
نظر صاحب الوجه السمين إلينا ثانيةً.
"لا تدع **ران تان تان** يخرّب أي شيء".
تحوّل **رايان** نحوي مجدداً: "هل تحضّرين لحفلة ذكرى ميلاد يا **برينان؟**"
لم يكن **بيكو** قد ابتعد عنا كثيراً في سيره عندما شققتُ الكيس من طرفه إلى طرفه الآخر.
لم تتصاعد الرائحة بسرعة كما حدث في حالة **إيزابيل غاغنون**، بل تحررت الرائحة ببطء إلى خارج الكيس، لكنها فرضت نفسها أخيراً. تعرّف أنفي على رائحة التراب الرطب والنباتات المتعفنة بالإضافة إلى رائحة أخرى. لم تكن هذه رائحة العفونة النتنة، لكنها كانت رائحة أكثر بدائية، وأقرب إلى رائحة الموت والانقراض، وإعادة تدوير الحياة. سبق لي أن شممتُ هذه الرائحة، وعرفتُ من خلالها أنّ الكيس يحتوي شيئاً مات منذ زمن، وليس منذ مدة قريبة.
تمنيتُ، أثناء عملي على توسيع فتحة الكيس بيديّ اللتين غطيتهما بقفازين، ألا يحتوي الكيس على جثة كلب أو غزال. ارتجفت يداي مجدداً وارتعش النايلون الذي يغطيهما. أجل، لقد غيّرتُ رأيي، أتمنى أن يحتوي الكيس على بقايا كلبٍ أو غزال.
احتشد **رايان، وبرتران، ولامانش** من حولي عندما رفعتُ البلاستيك الممزق. وقف **بوارييه** جامداً مثل شاهد قبرٍ مسمرٍ في مكانه.
رأيتُ أولاً عظمة لوحة الكتف. لم تكن العظمة ذات دلالة كبيرة، لكنها كانت كافية لأتأكد من أنها لا تعود لطريدة صياد، أو لحيوان أليف. نظرتُ إلى **رايان** ولاحظتُ وجود تغضنات في زاويتَي عينيه، وتوترٍ في عضلات فكّيه.
"إنها عظمة بشرية".
ارتفعت يد **بوارييه** إلى جبهته كي يبدأ جولة جديدة حول رأسه.
أسرع **رايان** كي يتناول دفتر ملاحظاته، وقلّب ورقة منه. سألني: "ماذا لدينا هنا؟" كان صوته حاداً، تماماً مثل نصل السكّين التي استخدمتها لتوي.
نقلتُ العظام برفق وبدأتُ بالسرد: "أضلاع... عظام كتف... عظام ترقوة... فقرات... يبدو أنها كلها من عظام الصدر".
وجدتُ عظمة من الصدر فأضفتُ: "وعظمة قصّ".

بدأتُ أبحث بين العظام، وفتّشتُ عن المزيد من أجزاء الجثة. اكتفى الموجودون بالمراقبة صامتين. زحف عنكبوت كبير بني اللون فوق يدي ما إن وصلتُ في بحثي إلى أسفل الكيس، ثم أكمل سيره نحو ذراعي. تمكنتُ من رؤية عيونه الصغيرة ترتفع، وتختلس النظر، كي تبحث عن سبب هذا التطفل. بدت قوائمه المغطاة بالشعيرات خفيفةً ودقيقةً جداً. أحسستُ كأن منديلاً مطرزاً يحتك مع بشرتي. تراجعتُ مرتجفةً إلى الوراء، ورميتُ العنكبوت في الهواء.

انتصبتُ واقفةً وتراجعتُ قليلاً، ثم قلتُ: "هذا كل شيء". أخذت ركبتيّ بالارتجاف احتجاجاً: "إنه القسم الأعلى من الجذع، ولا وجود للذراعين". شعرتُ بالتنميل في جلدي، لكن ليس بسبب العنكبوت.

أسدلتُ ذراعيّ على جانبيّ. لم أشعر بالحبور بسبب صوابية رأيي، لكنني أشعر بخدر شديد، وكأنني أصبتُ بصدمة. أصيب كياني المعنوي بصدمة كبيرة، وكأنه علّق لوحةً تقول بأنه في فرصة الغداء. رحتُ **أفكّر** بأن الأمر حدثٌ مجدداً. مات شخصٌ آخر، لأن وحشاً يسرح طليقاً.

بدأ **رايان** يكتب في دفتر ملاحظاته. لاحظتُ أنّ أوتار عضلات عنقه قد انتفخت.

جاء صوت **بوارييه** أعلى بقليل من الصرير: "والآن ماذا؟"

قلتُ: "يتعيّن علينا الآن أن نجد البقية".

كان **كامبرون** منهمكاً بالتحضير كي يلتقط صوره عندما سمعنا صوت **بيكو** عائداً. أتى مرةً أخرى وسط الشجيرات. انضمّ إلينا ونظر إلى العظام، ثم أطلق آهةً هامسةً.

التفت **رايان** نحو **برتران**: "هل تستطيع الإشراف على الأمور هنا كي نستطيع تفقد الكلب؟"

أومأ **برتران**. بدا جسم **رايان** صلباً مثل أشجار الصنوبر التي تحيط بنا.

"دعونا نُرجع هذه العظام إلى الكيس، يستطيع فريق الاستعادة تفتيش المنطقة بكاملها. سأرسل الرجال بنفسي".

تركنا **برتران** و**كامبرون** وتبعنا **بيكو** نحو صوت النباح. بدا ذلك الحيوان مضطرباً.

جلستُ بعد مرور ثلاث ساعات على بقعة عشبية وانصرفتُ لتفحص محتويات أربعة أكياس تحتوي جثثاً. كانت الشمس عاليةً وسطَ السماء، وأرسلت أشعتها الحارة على كتفيّ، لكن حرارتها لم تكفِ لتدفئة البرودة التي شعرتُ بها في أعماقي. ربض الكلب قرب صاحبه على بعد نصف مترٍ من مكاني، وبسط رأسه فوق مخالبه البنية الضخمة بعد أن أنهى صباحاً مليئاً بالجهد.

تعودت الكلاب المدربة على نبش الجثث المخبأة مثلما تكشف الأنظمة التي تعمل بالأشعة تحت الحمراء الحرارة، وذلك لأنها تدربت على الاستجابة لرائحة أنسجة الجثث التي تحلّلت، أو تلك التي في طريقها للتحلّل. تستطيع هذه الكلاب كشف المكان الأصلي لهذه الجثث المتحلّلة حتى بعد أن يتم نقلها إلى أماكن أخرى. إنها الكلاب البوليسية للأموات. أدى هذا الكلب وظيفته على أحسن وجه، واستطاع كشف ثلاثة مواقع دفنٍ إضافية. أعلن بحماسة عن كل موقعٍ استطاع كشفه، واندفع بالنباح المسعور، والنهش، والدوران حوله. تساءلتُ عما إذا كانت جميع هذه الكلاب البوليسية تقوم بعملها بحماسةٍ كهذه.

احتاجت عملية نبش البقايا من العظام، وترتيبها، ووضعها في أكياس، ساعتين من الزمن. أنجزنا القيام بجردة أولية للعظام قبل نقلها ووضعها في أكياس، ثم أعددنا لائحة تضمّ تفاصيل أكثر سجّلنا فيها كل شظيةٍ من شظايا العظام.

اختلستُ نظرةً نحو الكلب الذي بدا متعباً، ولا بدّ من أنه يشعر بتعبٍ مماثلٍ للتعب الذي أشعر به أنا. لم يحرّك الكلب سوى عينيه اللتين دارت حدقتاهما البنّيتان مثلما تدور صحون الرادار. غيّر الكلب اتجاه نظراته من دون تحريك رأسه.

يحق للكلب أن يشعر بالإرهاق كما يحق لي. رفع رأسه أخيراً، فتدلى لسانه الطويل المرتعش والرفيع. أبقيتُ لساني داخل فمي، ثم عدت إلى جردة العظام.

"كم واحدة؟"

لم أسمعه يتقدم نحوي، لكنني عرفتُه من الصوت. تحضّرتُ للحديث مجدداً.

"بونجور، مسيو كلوديل، كيف حالك؟"

كرّر الرجل: "كم واحدة؟"

أجبتُ من دون أن أرفع بصري: "واحدة".

"هل من شيء مفقود؟"

أنهـــيتُ الكـــتابة، واستدرتُ كي انظر إليه. رأيتُه واقفاً مباعداً ما بين قدميه، وحـــاملاً سترته فوق ذراعه، وقد انشغل بإزالة ورق السيلوفان عن شطيرةٍ حصل عليها من آلة بيع.

اخـــتار **كلوديل،** مثل **برتران،** الأقمشة القطنية لقمصانه وسراويله، والكتان لـــستراته التي يرتديها. لاحظتُ أنه يفضّل اللون الأخضر من بين كل الألوان لأنه لونٌ يوحي بالتفاؤل. أما اللون الآخر المناقض فظهر في ربطة عنقه، التي نثرت لمسة من اللون البرتقالي هنا وهناك.

قـــال مع تطاير أجزاء من الخبز واللحم من فمه: "هل تستطيعين تحديد طبيعة ما وجدناه؟"

"أجل".

"أجل؟"

رغبتُ، بعد مرور أقل من ثلاثين ثانية على وصوله، أن أنتزع شطيرته من يده وأرمـــيها بعـــيداً. لم يـــستطع **كلوديل** أن يوحي لي بالارتياح في أوقات شعوري بالـــراحة والاسترخاء. افتقدتُ للأمرين معاً في هذا الوقت. شعرتُ بإرهاقٍ شديد، أي مثلما هي حال الكلب. فقدتُ الطاقة، أو الميل، للانخراط في أي لعبة.

"لديـــنا هيكل عظمي شبه كامل. يفتقد هذا الهيكل لأي أنسجة ليّنة. كانت الجـــثة مقطّعة، كما أنها وُضعت في أكياس نفايات، ودُفنت في أربعة مواقع منفصلة في تلـــك الأرض". أشرتُ باتجاه الأراضي التي يملكها الموناستير التابع لدار العبادة. "وجدتُ كيساً الليلة الماضية، لكن الكلب اكتشف الأكياس الثلاثة الأخرى".

تناول قضمةً أخرى، وحدّق في اتجاه الأشجار.

"هل من عظام مفقودة؟" ترافقت كلمة العظام مع قطع اللحم والجبن المتطايرة.

حـــدّقتُ فـــيه من دون أن أردّ عليه، لكنني تساءلتُ عن سبب اعتباري هذا الـــسؤال مزعجاً جداً. كانت هذه طريقة **كلوديل،** لكنني تصرّفتُ بحسب طريقة تصرّفه. تجاهلي السؤال يا **برينان.** هذا هو **كلوديل.** ينتمي هذا الرجل للزواحف، لـــذلك يتوقع المرء منه التنازل والغرور. يعرف أنكِ على حق، ولا بد من أنه سمع القصة في هذا الوقت. لن يقول **مبروك،** لأن هذه الكلمة تقضي عليه. سأمضي في التصرّف حسب طريقته هذه لأنها ناجحة تماماً.

عاد بانتباهه نحوي عندما لم أردّ عليه.

"هل تفتقد الجثة أي شيء؟"

"أجل".

وضـــعتُ الورقة التي تحتوي جردة العظام جانباً، ونظرتُ إليه بشكلٍ مباشر. نظر إليّ بدوره من دون أن يتوقف عن المضغ. تساءلتُ لبرهة عن سبب عدمِ وضعه للنظارة.

"الرأس".

توقف عن المضغ.

"ماذا؟"

"الرأس مفقود".

"وأين يكون؟"

"**مسيو كلوديل**، لو كنتُ أعرف مكانه لما اعتبرته مفقوداً".

شاهدتُ عضلات فكّه التي برزت قليلاً، ثم عادت كي تسترخي، لكن ليس نتيجة عملية المضغ.

"هل من شيء آخر؟"

"ماذا تقصد بشيء آخر؟"

"هل من جزءٍ مفقودٍ آخر؟"

"ما من شيءٍ هام".

راح عقلـــه يـــستوعب تلك الحقائق، بينما انشغلت أسنانه بقضم شطيرته. اســـتمر بالمضغ، وأطبق على هاتفه الخلوي فأصبح كتلةً دائريةً صغيرةً. وضع الكرة في جيبه، ومسح كل زاوية من زوايا فمه بسبابته.

قـــال بـــصيغةٍ أقرب إلى التصريح مما هي للسؤال: "لا أعتقد أنك ستخبرينني المزيد؟"

"عندما يتسنى لي الوقت كي أفحص..."

"أجل". قالها، واستدار، ثم انصرف.

رحـــتُ أصب اللعنات في سرّي، وأقفلتُ كيسَيْ الجثتين. رفع الكلب رأسه لـــدى سماعه صوت سحّابتَي الكيسَين. تبعتني عيناه عندما دسستُ لوح الكتابة في

حقيـــبتي، وأثناء عبوري الشارع كي ألتقي المشرف على المشرحة النحيل الخصر. أبلغـــتُه بأنني أنهيتُ عملي، وأنه يستطيع تحميل بقايا العظام، ثم طلبتُ منه الانتظار بعد ذلك.

رأيـــتُ **رايان وبرتران** يتحدثان مع **كلوديل وشاربونيو**. اجتمع **أمن كيبيك** مـــع **شرطة مونتريال**. جعلني الذعر الذي شعرتُ به أتشكك بحديثهم. ماذا كان **كلـــوديل** يقـــول لهـــم؟ هل كان الرجل يذّمني؟ أعرف أنّ معظم رجال الشرطة متعـــصبون لمنطقتهم، ويغارون على ميادين صلاحياتهم، ويحافظون على قضاياهم، كما أنهم يرغبون بالاحتفاظ بنقاط قوتهم. كان **كلوديل** أسوأ من الآخرين، لكنني تساءلتُ عن سبب كرهه لي بشكلٍ خاص.

انسَيْ كل شيء يا **برينان**. إنه مجرد نذل، وها أنت أحرجته في فنائه الخلفي، كمـــا أنـــك لـــست المفضّلة عنده. **أوقفي قلقك** بشأن المشاعر، وابدئي بالتفكير بمهمـــتك. لمَ تكوني، أنتِ الأخرى، يا **برينان** بريئة تماماً في أنانيتك في حقل العمل الجماعي.

توقـــف الحديث ما إن اقتربتُ منهم. خفّفت تعابير وجوههم من لهجتي التي خطّطتُ لها، لكنني نجحتُ مع ذلك في إخفاء انـــزعاجي.

قال **شاربونيو**: "مرحباً دكتورة".

أومأتُ، وابتسمتُ في وجهه.

سألتُه: "إذاً أين أصبحنا؟"

قـــال **رايـــان**: "غادر رئيسك منذ حوالى الساعة، وكذلك فعل ذلك الرجل الطيّب. يقوم فريق الاستعادة بإنهاء العمل".

"هل حدث أمرٌ ما؟"

هزّ رأسه.

"هل علمتَ شيئاً من خلال آلة كشف المعادن؟"

بـــدا **رايـــان** متضايقاً: "كشفت الآلة كل شيء له علاقة بالمعادن. آه! ماذا بشأنك؟"

"انتهيتُ من عملي. أبلغتُ العاملين في المشرحة بأنهم يستطيعون نقل العظام".

"يقول **كلوديل** إن الرأس مفقود".

"هذا صحيح. لم نجد الجمجمة، والفك، وفقرات الرقبة الأربع الأولى".

"وماذا يعني ذلك؟"

"يعـــني أنّ المجرم قطع رأس الضحية، ثم أخفاه في مكان ما. يُحتمل أن يكون قد دفنه هنا، لكن في مكان منفصل عن بقية أجزاء الجثة. تبدو هذه الأجزاء مبعثرة".

"إذاً، لدينا كيسٌ آخر هناك؟"

"يُحتمل ذلك، كما يُحتمل أن يكون القاتل قد تخلص منه في مكانٍ آخر".

"أين يكون ذلك المكان في رأيك؟"

"قـــد يكـــون النهر، أو في مرحاضٍ، أو في الفرن. كيف لي أن أعرف بحق الجحيم؟"

سأل **برتران**: "ولماذا يفعل ذلك؟"

"لعله فعل ذلك كي لا تتعرف الشرطة على هوية الضحية".

"وهل بالإمكان التعرف على هويتها؟"

"إنه أمر ممكن، لكن من الأسهل بكثير التعرف على الجثة انطلاقاً من الأسنان وسجلاتها، عدا عن ذلك، ترك القاتل اليدين لنا".

"وإذاً؟"

"يجري التخلص من اليدين عادةً عندما تقطّع الجثة منعاً للتعرّف عليها".

نظر إليّ بشرود.

"يسهل أخذ البصمات من الجثث المتحلّلة كثيراً طالما يتبقى بعض الأجزاء من الجلد سليمة. لديّ بصمات أُخذت من مومياء يبلغ عمرها خمسة آلاف عام".

قال **كلوديل** بجدية: "هل استطعت مقارنة البصمات؟"

أجبتُ بجدية مماثلة: "بصمات القاتل ليست مدرجة في السجلات الرسمية".

قال **برتران**: "لكنّ هذه ليست سوى عظام".

"لن يعرف القاتل هذا، ولن يكون متأكداً متى ستُكتشف الجثة". رحتُ أفكّر أنّ الأمـــر يشبه ما جرى مع **غاغنون**، لكن الفرق يكمن في أنه قام بدفن الضحية هذه المرة.

توقفتُ لبرهة من الزمن، ورحتُ أتخيّل القاتل وهو يطوف في الغابات المظلمة موزعاً الأكياس ومحتوياتها المريعة في أماكن مختلفة. هل قطّع القاتل الضحية في أحد

الأمكنة، وقام بتعبئة أجزائها في أكياس، ونقلها بالسيارة إلى هذا المكان؟ هل ركن سيارته في المكان ذاته الذي ركنتُ فيه سيارتي، أم أنه استطاع الدخول إلى الأرض المملـــوكة للموناستير التابع لدار العبادة بطريقة ما؟ وهل قام بالحفر أولاً، وخطّط موقع كل حفرة؟ أم أنه أقدم على نقل الأكياس التي تحتوي أجزاء الجثث على مدى أربـــع جولات بسيارته؟ وهل عملية تقطيع الأطراف ليست إلا محاولةً يائسةً بذلها من أجل إخفاء ولعٍ طاغٍ بالإجرام، أم أنه نفّذ الجريمة وقام بتشويه الجثة بدماء باردة؟

خطرت إمكانية مرعبة في ذهني. هل كان القاتل معي الليلة الفائتة؟ عدتُ إلى الحاضر.

"أو..."

نظر الجميع إليّ.

"أو أنّ الرأس ما زال بحوزته".

قال **كلوديل** ساخراً: "ما زال بحوزته!"

علّق **رايان**: "اللعنة!"

سأل **شاربونيو**: "مثلما حدث مع **دامر**؟"

هززتُ كتفي.

قـــال **رايان**: "أقترح أن نعيد **فانغ** كي يقوم بجولة أخرى. لم يحضروا الكلب إلى موقع وجود الجذع".

قلتُ: "صحيح. سيكون مسروراً بذلك".

سأل **شاربونيو**: "أتمانعين إذا راقبناه". نظر **كلوديل** تجاهه نظرة استهجان.

قلـــتُ: "لا مانع طالما تفكرون بأمور سارة. سأحضر الكلب. انتظروني عند البوابة".

بـــدأتُ بالابتعاد عن الرجال، لكنني سمعتُ كلمة "عاهرة" بصوت **كلوديل** الذي يخرج من الأنف. أقنعتُ نفسي أنه يقصد الكلب، أو الكلبة، من دون شك.

انتـــصب الكلب واقفاً على قائمتيه الأماميتين عندما اقتربتُ منه، وراح يلوّح بذيلـــه ببطء. نقّل نظره بيني وبين الرجل الذي يرتدي بذلة العمل الزرقاء، وكأنه يريد الحصول على إذنٍ كي يقترب من ذلك الزائر الغريب. تمكّنتُ من رؤية كلمة **دي سالفو** مختومة على البذلة.

"هل **فايدو** مستعد لجولة أخرى؟" سألتُ وأنا أمدُّ يدي نزولاً باتجاه الكلب. أومأ **دي سالفو** قليلاً، وما لبث الكلب أن قفز إلى الأمام، وراح يمرّغ أنفه بأصابعي.

"اسمها **مارغوت**". تكلّم الرجل بلغة إنكليزية، لكنه لفظ اسمها بالفرنسية.

جاء صوته خافتاً ومعتدلاً. تحرّك الرجل ببطء ملحوظ يتميز به كل الذين يمضون أيامهم مع الحيوانات. كان وجهه داكناً وتخترقه التغضنات العميقة. لاحظتُ أنّ مروحة من التشققات الصغيرة تنطلق من كل زاوية من زاويا عينيه. بدا الرجل أنه من النوع الذي يعيش خارج المنزل على الدوام.

"هل تفهم الكلبة الفرنسية أم الإنكليزية؟"

"إنها تفهم اللغتين معاً".

انحنيتُ على إحدى ركبتيّ كي أمسد منطقتَي ما خلف أذنيها: "مرحباً **مارغوت**. آسفة لأنني اعتبرتُك كلباً في السابق. إنه يوم عظيم أليس كذلك؟"

استعاد ذيل **مارغوت** سرعته السابقة. تراجعت عندما نهضتُ، ودارت دورةً كاملة، ثم جمُدت في مكانها، وراحت تتفحص وجهي بكل انتباه. حرّكت رأسها من جهةٍ إلى جهة، ولاحظتُ أنّ التغضن الموجود ما بين عينيها قد اتسع قبل أن يضيق ثانية.

مددتُ يدي كي أصافح **دي سالفو** وقلتُ: "**تمب برينان**".

شبك الرجل أحد طرفَي مقود **مارغوت** إلى خصره، وأمسك الطرف الآخر بيده، ومدّ يده الأخرى نحوي. شعرتُ بقوة يده فبدت مثل معدنٍ مطروقٍ بخشونتها. لم يسبق لي أن صافحتُ قبضةً بهذه القوة.

"دافيد دي سالفو".

"نعتقد أنه يوجد المزيد من العظام هناك يا **دايف**. أتعتقد أنّ **مارغوت** تستطيع كشفها في جولةٍ أخرى؟"

"انظري إليها".

رفعت **مارغوت** أذنيها ما إن سمعت اسمها، وأحنت رأسها إلى الأرض، وأخذت تزحف بعد أن رفعت وركيها، ثم نفذت سلسلة قفزات قصيرة في الهواء. أبقت عينيها في هذه الأثناء مركزةً على وجه **دي سالفو**.

"حسناً. ما هي المنطقة التي انتهيتَ من استكشافها حتى الآن؟"

"أنهينا استكشاف كامل مساحة الأرض ما عدا المنطقة التي كنتِ تعملين فيها".

"أيوجد احتمال بأنها فشلت في اكتشاف شيء ما؟"

هزّ الرجل رأسه: "لا. ليس هذه المرة. إنّ الأحوال الجوية مؤاتية، ودرجة الحرارة معتدلة بسبب الرطوبة الناتجة عن المطر. لدينا نسائم قوية، كما أنّ **مارغوت** في أحسن حالاتها".

بدأت تمرّغ أنفها على ركبته، فكافأها الرجل بأن مسّد ظهرها بيده.

"لا تترك **مارغوت** الكثير. لم تتدرّب على أي شيء عدا تتبع روائح الجثث، وهكذا فوجود الأشياء الأخرى لا يجعلها تخطئ".

تتعلم كلاب نبش الجثث تتبع روائح معينة، مثلما هي الحال مع كلاب اقتفاء الآثار. تعرف كلاب نبش الجثث رائحة الموت جيداً. تذكرتُ أحد الاجتماعات في الأكاديمية عندما قدّم أحد العارضين زجاجات تحتوي نماذج من روائح الجثث، أو ما يسمى عطر التحلّل. استخدم مدرب آخر من الذين أعرفهم سناً مقتلعاً ومخزناً في قارورة بلاستيكية حصل عليها من طبيب أسنانه.

"إنّ **مارغوت** هي من بين أفضل الكلاب التي عملتُ معها. ستكتشف أي عظام إضافية قد تكون موجودة هناك".

نظرتُ نحو الكلبة. بدا الرجل محقاً.

"حسناً. دعنا نأخذها إلى الموقع الأول".

أطلق **دي سالفو** عنان **مارغوت**، وهكذا قادتنا إلى البوابة التي انتظَرنا عندها رجال التحري الأربعة. سِرنا بمحاذاة الطريق الذي أصبح مألوفاً في هذا الوقت، وبقيت **مارغوت** في المقدمة تشدّ مقودها. راحت تشتّم طريقها أثناء تقدمها، وتستكشف كل الزوايا والشقوق بأنفها، أي بنفس الطريقة التي استخدمتُ فيها أنوار مصباحي. توقفت في بعض الأحيان كي تزيد من سرعة تنشّقها، ثم راحت تُخرج الهواء في نفثات كبيرة تسببت في تطاير الأوراق اليابسة حول أنفها. تابعت سيرها بعد أن ارتاحتْ للنتيجة.

توقفت الكلبة عندما تشعّبت الطريق إلى فرعين باتجاه الغابة.

"لا يبعد المكان الذي لم نستكشفه كثيراً عن هنا".

أشار **دي سالفو** إلى المكان الذي عثرت فيه على أول دفعة من العظام.

"سآخذها في جولة هنا قبل أن أوجهها نـزولاً. تستطيع أنً تشتم بطريقة أفضل هكذا. تعتقد عندها أنها قد اكتشفت شيئاً. سأتركها تتصرف بحسب طريقتها".

سألتُه: "هل ستنـزعج الكلبة إذا ذهبنا إلى تلك المنطقة؟"

"لا. إن رائحتكِ لا تعني شيئاً بالنسبة إليها".

تابعت الكلبة ومدربها السير لمسافة عشرة أذرع قبل أن يختفيا معاً عن ناظريّ في الغابة. سرتُ مع رجال التحري في الطريق الذي أصبح أكثر وضوحاً بسبب كثرة السير عليه. لاحظتُ أيضاً أنّ المكان الذي دُفنت العظام فيه أصبح بقعة صغيرة خالية من أوراق الأشجار بسبب كثرة الدوس فوقها، كما أنّ بعض الأغصان المتدلية فوقها قد قُطعت.

فغرت الفجوة المتروكة فاهها، وبدت داكنةً وفارغةً، مثل قبرٍ منهوب. بدت لي أنها أكبر بكثير مما كانت عليه عندما تركناها، كما أنّ الترابَ من حولها كان كثيفاً. لاحظتُ وجود تلة من التراب إلى جانب الحفرة، وظهرت مثل مخروطٍ ترابيٍّ ذي جوانب منحدرة ورأسٍ مقطوعٍ. لاحظتُ أنّ حبيبات التراب كانت منتظمة بشكلٍ غير عادي. نتجت هذه التلة عن غربلة التراب.

سمعنا نباحاً بعد مرور فترة تقل عن الدقائق الخمس.

سأل **كلوديل**: "أهو وراءنا؟"

قلتُ مصححةً: "تقصد هي".

فتح فمه، ثم ما لبث أن أقفله ثانية. تمكنتُ من رؤية شريانٍ ينبض في جبهته. وجّه **رايان** نظرةً نحوي. حسناً، ربما كنتُ أستفزه قليلاً.

مشينا بصمت نـزولاً في الطريق. كانت **مارغوت ودي سالفو** إلى يسارنا خارج الطريق يسيرانً وسط أوراق الأشجار. استطعنا رؤيتهما في غضون أقل من خمس دقائق. بدا جسم **مارغوت** مشدوداً أكثر من وتر كمان، وبرزت عضلات كتفيها، وضغط لجامها المصنوع من الجلد إلى صدرها. أبقت رأسها مرفوعاً إلى الأعلى، لكنها حرّكته من جهة إلى جهة لتفحص الهواء الآتي من كل الجهات، واختلج منخراها بشدة.

تــوقفت فجأة وجمُدت في مكانها. مدّت أذنيها، وارتعشت أطرافها. سمعتُ ضجيجاً في مكان ما في أعماقها. بدا الصوت خافتاً في البداية، ثم بدأ يتصاعد، وما لــبث أن تحوّل إلى ما يشبه زمجرةً ممتزجةً مع أنين، وسرعان ما أصبح بمثل حماسة الطقوس التي يمارسها النادبون في قبيلة بدائية. أحسستُ بشعيرات رقبتي ترتفع من مكانها، وبقشعريرة تخترق جسدي بكاملهِ.

نــــزل **دي سالفو** وأرخى المقود. أصرّت **مارغوت** على موقفها لبرهة من الزمن، وكأنها تؤكد صوابيته، وراحت تعدّل من اتجاهاتها. ثُبتت في مكان واحد في النهاية.

قال **كلوديل**: "ماذا حدث بحق الجحيم؟"

قال **رايان**: "أين؟"

علّق شاربونيو: "اللعنة!"

توقعنا أن تشتمّ الرائحة في موقع دفن العظام. ولكنها انطلقت، بدلاً من ذلك، بخط مستقيم عبر الطريق، واندفعت بين الأشجار التي تقع أسفل المكان الذي نقف فيه. راقبناها بصمت.

تقــدّمت **مارغــوت** حوالي المترين ثم توقفت، وأخفضت أنفها، واستنشقت مرات عديدة. وزفرت الهواء بشدة بعد ذلك، ثم انتقلت إلى يسارها وكرّرت هذه المــناورة. بقي جسمها مشدوداً، وكذلك كانت حال عضلاتها. بدأت الخيالات تتــزاحم في مخيلتي أثناء مراقبتي إياها. الهرب في العتمة، والسقطة الشديدة، ومضة البرق والحفرة الفارغة.

نجحـــت **مارغــوت** في جــذب انتباهي إليها. توقفت في أسفل شجرة صنوبر، وركّزت كل انتباهها على الأرض أمامها. أخفضت أنفها واستنشقت. لاحظتُ فجأةً أنّ الفــراء يرتفع على طول عمودها الفقري، وأنّ عضلاتها ترتعش، وكأن ذلك حصل بفعــل غريــزتها البدائية. رفعت **مارغوت** أنفها عالياً في الهواء، وزفرت آخر كمية من الهــواء، ثم انــدفعت في حــركة مسعورة. تحركت إلى الأمام، ثم رجعت إلى الوراء ووضعت ذيلها بين قائمتيها الخلفيتين. وأخذت بالزمجرة والعض في الأرض أمامها.

قـــال **دي سالفو** آمراً: "**مارغوت!** تعالي إلى هنا". اندفع من خلال الأغصان وأمسك بعنانها، ثم جرّها بعيداً عن مصدر هياجها.

لم أضطر إلى النظر، لأنني عرفتُ الأشياء التي وجدها، والأشياء التي لم تجدها.
تذكـــرتُ أنـــني حدّقت في تلة تراب جاف وحفرةٍ فارغة. هل حُفرت بقصد دفن شيء ما، أو بقصد نبش شيء ما؟ عرفتُ الآن.

اندفعت **مارغوت** بالنباح والزمجرة فوق الحفرة التي وقعتُ فيها الليلة الماضية. كانت ما تزال فارغة، لكن أنف الكلبة أنبأني بما سبق واحتوته.

18

أنـــا الآن على الشاطئ، انظر إلى الأمواج الهادرة. وتتهادى طيور الطيطوى علـــى قوائمها النحيلة، وتنساب طيور البجع مثل الطائرات الورقية، وتأخذ بطوي أجنحتها لتنطلق إلى البحر. انتقلتُ بذهني إلى **كارولاينا**، واستطعتُ أن أشمّ رائحة المـــستنقعات الداخلية المالحة، ورذاذ المحيط المالح، والرمال الرطبة، والسمك الملقى علـــى الشاطئ، والأعشاب البحرية الآخذة بالجفاف. رأيتُ في خيالي جزر **هاتيرا**، **وأوكـــراكوك**، **وبالـــد هـــيد**، في الـــشمال. أما إلى الجنوب فرأيت جزر **باولي**، **وســـوليفان**، **وكـــياوا**. أردتُ العودة إلى موطني، ولا يهمني في أي جزيرة أكون. أردتُ أن أتـــواجد بين أشجار البلح وزوارق صيد الروبيان، وأن أبتعد عن النساء المذبوحات، وعن أجزاء الجثث.

فـــتحتُ عينيّ ورأيتُ الحمائم تقف على تمثال **نورمان بيثيون**. بدأت السماء تكتسب اللون الرمادي، وبدأت أشعة الشمس بالمغادرة، بلونيها الزهري والأصفر، وبالاستـــسلام أمـــام جحافـــل الظلمة المتقدمة. أعلنت أضواء الشوارع ولافتات المحـــلات عن قدوم المساء بومضات من مصابيح النيون. تلاحقت أرتال السيارات، والعربات الرباعية الدفع، والتي تفرقت عند وصولها إلى مثلثٍ أخضر يفصل ما بين شارعَي **غاي** و**دي مايزونيف**.

تشاركتُ جلوسي على مقعدٍ مع رجلٍ يرتدي كنـــزة على الطراز الكندي. استرسل شعره، الذي لم يكن أشقرَ أو أبيضَ اللون، على كتفيه. أضاءت مصابيح الـــسيارات المـــارة ظهـــره، وبرزت هالة ضوء حول رأسه نتيجة لذلك، فبدا مثل

الـــزجاج المحفور. تماثل لون عيني الرجل مع لون سروال الجينـــز الذي غُسل ألف مرة. أحاط إطار أحمر عينيه اللتين تقاطرت من زاويتيهما قشرة صفراء. راح يلتقط القـــشرة بأصابعه البيضاء التي تبدو وكأنها من العجين، وتدلى صليب معدني بحجم راحة يدي من رقبته.

ذلك المساء، وصلتُ إلى المنـــزل متأخرةً، وشغّلتُ الآلة المجيبة، ثم استسلمت للنوم. تداخلت خيالات أشخاصٍ أعرفهم مع أشخاصٍ لم أعرفهم، ساروا جميعاً في اســـتعراضٍ من دون شعارات. شاهدتُ **رايان** يلاحق **غابي** بعد أن دخلت إلى بناية مسكونة. رأيتُ **بيتي** وهو يتعاون مع **كلوديل** على حفر حفرة في باحة البناية التي أســـكنها. شاهدتُ **كاتي** مستلقيةً على كيس بلاستيكي بنيّ اللون ملقىً على شرفة منـــــزلي البحري، وراحت تعرّض جسدها لأشعة الشمس الحارقة، ورفضت أن تستخدم المستحضر المخصص لوقاية الجلد. طاردني شخصٌ مخيفٌ على طول ضفة نهر **سان لوران**.

استيقظتُ مرات عديدة قبل أن أنهض أخيراً عند الساعة الثامنة مساءً. شعرتُ بألمٍ في رأسي، بالإضافة إلى الجوع. ومض ضوءٌ أحمر اللون على الجدار القريب من جهـــاز الهاتف. ظل اللون الأحمر الخافت يومض، ويومض، ويومض. اقتربتُ من الجهـــاز فوجدتُ أنّ الآلة المجيبة قد تلقت ثلاث رسائل. انحنيتُ وضغطتُ على زر التشغيل.

أبلغني **بيتي** أنه يدرس عرضاً للعمل في مكتب محاماة في **سان دييغو**. يا للخبر العظـــيم! قالت **كاتي** إنها تفكّر في ترك المدرسة. رائع! أما المتّصل الثالث فلم يترك رسالة. شعرتُ بالارتياح لأن اتصاله لم يحمل أخباراً سيئةً. لم تصلني أي أخبار من **غابي** مع ذلك. عظيم!

لم تفلـــح محادثتي مع **كاتي**، التي استمرت عشرين دقيقة، في تهدئة مشاعري. كانت مؤدبة، لكنها لم تلتزم بأي وعد. قالت لي أخيراً، وبعد أن مرّت فترة صمت طويلة، "سأكلمك في ما بعد". سمعتُ نغمة الخط الهاتفي بعد ذلك. أغمضتُ عينيّ ووقفتُ ساكنةً تماماً. برزت في مخيلتي صورة **كاتي** عندما كانت في الثالثة عشرة من عمـــرها. اعـــتادت أن تقرّب رأسها حينها من **أبالوزا** إلى درجة أنّ أذنها التصقت بأذنـــه، كما أنّ شعرها الأشقر اختلط مع شعر رقبته الداكن. كنتُ قد ذهبتُ في

ذلك النهار برفقة **بيتي** كي نـــزورها في المعسكر. أضاء وجهها بالبِشر عند رؤيتها لـــنا، وسارعت إلى ترك الحصان كي تغمرني بذراعيها. كنا قريبتين جداً من بعضنا بعـــضاً عـــندها. أيـــن ذهبت كل تلك الحميمية التي جمعت بيننا ذات يوم؟ لماذا أصـــبحت تعيـــسةً هكذا؟ ولماذا ترغب بترك المدرسة؟ وهل انفصالي عن **بيتي** هو السبب؟ هل تقع الملامة علينا؟

آلمـــني ذلك الشعور بعدم كفايتنا كوالدين، فجرّبت الاتصال بشقة **غابي**. لا جواب. تذكرتُ ذات مرة أنها اختفت لمدة عشرة أيام. قلقتُ عليها كثيراً في ذلك الوقت. ولكن تبيّن لي أنها ذهبت في عزلة كي تكتشف ذاتها الداخلية. لعلها قطعت اتصالها بي نظراً لرغبتها بمعاودة الاتصال بذاتها الداخلية.

تناولتُ حبّتي **تيلينول** كي أخفف الألم في رأسي، كما أسكتُّ جوعي بوجبة #4 في مطعـــم **ســـنغافورة**، لكن لم ينجح أي شيء في القضاء على السخط الذي شعرتُ به. لم تُفلح حمامات المتنـــزه، ولا الغرباء الذين يجلسون على المقاعد هناك، في إبعـــاد ذهني عن المواضيع التي تلّح عليه على الدوام. تصادمت الأسئلة في رأسي كما تتصادم دفاعات السيارات. مَن كان هذا القاتل؟ وكيف يختار ضحاياه؟ وهل يعرفنه يا ترى؟ وهل سبق له أن اكتسب ثقتهنّ، واستطاع بهذه الطريقة أن يتسلل إلى بـــيوتهنّ؟ قُتلت **آدكينـــز** في منـــزلها، لكن ماذا بشأن **تروتييه وغاغنون**؟ أين قُتلتا؟ هل حدث ذلك في مكان مخطط له سلفاً؟ وهل أنّ ذلك المكان مجهز بوسائل القتل والتشويه؟ وكيف شقّ القاتل طريقه؟ وهل كان **سان جاك** بذاته؟

حـــدّقتُ بالحمائم من دون أن أراها. تصوّرتُ الضحايا، وتخيّلتُ رعبهنّ. لم تـــتعدَ **شانتال تروتييه** السادسة عشرة من عمرها. هل هدّدها بحد السكين؟ ومتى أدركـــت أنهـــا ستموت؟ هل رجته أن لا يؤذيها؟ وهل توسلّت إليه الإبقاء على حـــياتها؟ بـــرزت أمامـــي صورة **كاتي**، وبنات الآخرين اللواتي يشبهنها. شعرتُ بالتعاطف معهنّ إلى حدّ الألم.

عدت إلى التركيز على حاضري. أنهض صباحاً وأتوجه إلى مختبري، وأفحص العظـــام المكتـــشَفة. و**كلوديل**، ذلك الشخص الذي أجدني مضطرة للتعامل معه. تذكرتُ الخدوش الموجودة على وجهي. تذكرتُ أيضاً أنّ طموح **كاتي** ينحصر في أن تـــصبح مـــشجعة لأحد فرق كرة السلة الأميركية، ولم تفلح محاولاتي المتكررة

لردعها عن ذلك. أعرف أن **بيتي** قد يتوجه نحو الساحل. شعرتُ برغبة شديدة في الارتباط عاطفياً، مثل **مادونا**، من دون أن يلوح أي شريك لي في الأفق. أين **غابي** بحق ***الجحيم***؟

"وجـــدتُها". قلتُها، وجفلت الحمائم بسببها، وكذلك الرجل الجالس بجانبي. عرفتُ ما يتعيّن عليّ عمله.

سرتُ نحو منـــزلي، وتوجهتُ نحو المرآب مباشرةً، ثم قدتُ سيارتي إلى ***كاري ســان لوي***. ركنتُ سيارتي في شارع **هنري – جوليان**، ثم سرتُ في المنعطف نحو شقة **غابي**. تجعلني البناية التي تسكنها أفكّر في **بيت أحلام باربي**. عاد فكري الليلة نحو **لويس كارول**، وكدتُ أبتسم.

رأيتُ مصباحاً كهربائياً وحيداً ينير الشرفة المليئة بالخزام، والتي انتشرت ظلال أزهار **البيتونيا** فيها. حدّقت بي مرايا النوافذ، وكأنها تريد أن تقول لي: "إن **أليس** ليست في المنـــزل".

ضـــغطتُ على زرّ الشقة رقم 3. لا جواب. ضغطتُ ثانية. صمتٌ. جرّبتُ الـــشقة رقم 1، ثم رقم 2، وبعد ذلك رقم 4. لا جواب. يظهر أن **وندرلاند** (عالم الغرائب) قد أغلقت أبوابها هذه الليلة.

درتُ حـــول المرآب بحثاً عن سيارة **غابي**. لم أجدها في المكان. قدتُ سيارتي جنوباً من دون أن أخطط لوجهة سيري، ثم انعطفتُ شرقاً نحو **ماين**.

مرّت عشرون دقيقة محبطة بحثتُ خلالها عن مكان أركن فيه سيارتي. تركتُها أخـــيراً في ممرٍ غير معبّد يؤدي إلى **سان لوران**. امتلأ هذا الممر بقناني شراب الشعير الفارغـــة، وبـــرائحة الـــبول الكريهة. لاحظتُ كثرة أكوام النفايات، كما سمعتُ ضـــجيج أصـــوات الموسيقى من خلال قرميد أحد المنازل إلى يساري. يذكّر هذا المكـــان بدعايـــة لأحد أنظمة أمن السيارات الشائعة، والمعروف باسم **كلوب**. لم أركّب هذا النظام في سيارتي **المازدا**، التي عهدتُ بها إلى أحد مواقف السيارات، ثم انضممتُ إلى حشد الناس في الشارع.

تـــسكن جماعات متنافرة من الناس منطقة **ماين حيث تتخذ** كل جماعة فيها مـــوقعاً خاصاً بها يجاور الجماعة الأخرى. تنشط بعض هذه الجماعات في النهار، بينما لا تنشط جماعات أخرى إلا في الليل فقط.

تـــشهد مـــنطقة **ماين** نشاط العاملين في تسليم البضائع، وأصحاب المحلات، والطـــلاب، وســـيدات البيوت، من ساعات الفجر وحتى الغسق. تُسمع في هذه الأوقات أصوات التجار واللاهين. تناهت روائح طيبة تدل على الأطعمة: السمك الطـــازج في **والـــدمان**، واللحـــم المدخّن في **شوارتز**، التفاح والفريز في **وارشو**، والأطعمة المشوية في **لا بولانجيري بولونايز**.

يخلـــي جمهـــور النهار الأرصفة لصالح نوعٍ آخر من المخلوقات، وذلك عند اســـتطالة الظلال وظهور أضواء الشوارع والحانات، وعندما تُقفل المتاجر والمطاعم وتفتح النوادي الليلية. بعض هؤلاء الأفراد غير خطرين من أمثال السوّاح، وطلاب الجامعات، الذين يأتون من أجل الحصول على شرابٍ رخيصٍ، ومغامراتٍ رخيصة. يـــتألف بعض هؤلاء المارة من النوع الأخطر: القوادون، والتجار، وبناتُ الهوى، ومدمـــنو العقـــاقير غـــير القانونـــية. يجتمع في هذا الوقت المستغِلّون والمستغَلّون، المفترِسون والمفترَسون في حلقة الغذاء الدائرة في هذه المأساة الإنسانية.

امـــتلك أســـياد الليل زمام الأمور بالكامل عند الساعة الحادية عشرة وخمس عـــشرة دقـــيقة. امتلأت الشوارع، واكتظت الملاهي والحانات الرخيصة بروّادها. سرتُ نحو **سانت كاثرين**، ووقفتُ عند الزاوية، وأدرتُ ظهري لمقاطعة **لابيل**. بدا لي أنّ مكاني هذا هو نقطة انطلاق مناسبة. دخلتُ، وسرتُ من أمام مركز الهاتف العمومي ذاته الذي أجرت منه **غابي** اتصالها اليائس معي.

فاحـــت رائحـــة محلول الصنوبر، والدهن، والبصل المقلي جيداً. كان الوقت متأخـــراً جـــداً على الغداء، وباكراً جداً على بدء النشاطات التي تعقب حفلات الشراب الصاخبة. لاحظتُ أن أربع حجرات **فقط** كانت مشغولة.

شـــاهدتُ شـــابين حلقا شعرهما على طريقة **البانكي** وهما يحدقان ببؤسٍ في بعـــضهما بعـــضاً فوق طبقين نصف ممتلئين من الفلفل الحار. كان شعرهما الأسود الفـــاحم والـــشائك متماثلاً، وكأنهما تقاسما تحمّل كلفة شامبو **الكلايرول**. وضع الاثـــنان كمية من الجلد المرصع على رأسيهما تكفي متجراً متخصصاً في بيع لوازم الكلاب والدرّاجين.

رأيـــتُ امـــرأةً تتميّـــز بذراعيها النحيلتين وشعرها المرفوع. انشغلت المرأة بالـــتدخين وشـــرب القهوة في حجرة موجودة في مؤخر القاعة. ارتدت كنـــزةً

واســـعةً حمراء اللون، بالإضافة إلى ما كانت تسميه والدتي سروال **كابري**. أعتقد أنها اتخذت هذا المظهر منذ أن تركت المدرسة كي تنضم إلى حملة المجهود الحربي.

ارتـــشفت المـــرأة آخـــر جـــرعة قهوة في كوبها، وأخذت نفساً طويلاً من ســـيجارتها، ثم أطفأت عقب سيجارتها في صحن معدني صغير استُخدم كمنفضة. راحت عيناها المطليتان بالألوان تجول بتكاسل في أنحاء الغرفة. لم تتوقع المرأة بالفعل أن تجـــد شريكاً لها، لكنها كانت مستعدة للتحرك عند الحاجة. أظهر وجهها نظرة الغـــم التي تظهر على وجه شخصٍ اعتاد التجوال في الشوارع منذ مدة طويلة. لم تعـــد هـــذه المـــرأة قادرةً على التنافس مع الشابات الأصغر سناً منها، لكن لعلها تخصّصت في مغامرات الممرات السريعة، ونشاطات المقاعد الخلفية. توفّر هذه المرأة متعة في أوقات الليالي المتأخرة بأسعار تنافسية. رفعت الكنـــزة عن صدرها الهزيل، وتـــناولت فاتـــورتها، ثم مـــشت نحو المكتب. عادت **روزي رايفتر** للانطلاق في الشوارع مجدداً.

جلـــس ثلاثـــة شبان في حجرة تقع قرب المدخل. تمدّد أحدهم على طاولة، وأحاط رأسه بإحدى ذراعيه، بينما اختفت الثانية في حضنه. ارتدى الشبان الثلاثة الكنـــزات، وسراويل الجينـــز القصيرة، واعتمروا قبعات كرة القاعدة. وجّه اثنان مـــنهم الجـــزء البارز من قبعتيهما إلى جهة الخلف، بينما تحدّى الثالث اتجاه الموضة فوضع الجزء البارز من قبعته من جهة جبهته. انهمك الشابان الجالسان إلى اليمين في الـــتهام شطيرتي جبن، وبدا أنهما لا يكترثان برفيقهما. افترضتُ أنهما في السادسة عشرة من عمرهما.

لم يظهر أي مشرف آخر في المكان غير ناذرة عفة. لم تظهر **غابي** أبداً.

تـــركتُ المطعـــم كَـــي أبحـــث في طرفَي شارع **سانت كاثرين**. بدأ سائقو الـــدراجات بالتوافد إلى هذا الشارع، وشاهدتُ أعداداً كبيرة من درّاجات **هارلي وياماها** مركونةً على جانبَي الشارع الذي يمتد إلى جهة الشرق. تجمّع مالكو هذه الدراجات بشكل جماعات متعددة، ولاحظتُ أنهم ارتدوا سترات جلديةٍ، وانتعلوا أحذيةً عاليةً رغم المساء الدافئ.

جلـــست رفـــيقات هـــؤلاء وراء الشبان، أو تحلّقنَ بشكل مجموعات لتبادل الأحاديـــث في ما بينهنّ. ذكّرني منظرهنّ بأعوامي أثناء دراستي الثانوية. اختارت

النساء عالماً من العنف والسيطرة الذكورية. تُساق هذه الجماعة من النساء كما تُساق قطعان القردة. ويتعرضنَ لأشياء أسوأ من هذا، إذ يتم إجبار الشابات على الانغماس في عالم لا أخلاقي، وتوشم أجسادهنّ ويُحرقن، كما يتعرضن إلى الضرب والقتل. ومع ذلك، تتمسك الشابات بالبقاء في هذا العالم. يصعب علينا تصوّر ما الذي كانت عليه حياقمنّ السابقة، إذا ما اعتبرن أنّ هذا العالم يمثّل تحسناً في طريقة معيشتهنّ.

تفحصّتُ المنطقة الواقعة إلى الغرب من **سان لوران**. رأيتُ ما كنتُ أبحث عنه. وقفت بنتا ليل تتسكعان وتدخنان وتلهوان مع الناس خارج **الغرانادا**. عرفتُ **بواريت** من بينهما، لكنني لم أتأكد من هوية الفتاة الأخرى.

قاومتُ دافعاً نشأ عندي كي أتخلى عن مهمتي هذه، وأتوجه بدلاً من ذلك إلى منزلي مباشرة. هل يُحتمل أن أكون قد أخطأت في اختيار ملابسي؟ اخترتُ أن أرتدي كنزةً، وسروالاً من الجينز، وأن أنتعل صندلاً، وتمنيتُ أن لا تُعتبر ملابسي هذه موحيةً، لكنني لم أكن متأكدة. لم يسبق لي أن قمتُ بهذا النوع من العمل الميداني.

كفّي عن هذا التردد يا **برينان** لأنك تخدعين نفسك. اقتحمي المكان، فأسوأ ما يُمكن أن يحدث لك هو أن تتعرضي للهجوم، وعندها لَن تكون المرة الأولى.

تقدمتُ في سيري ووقفتُ أمام المرأتين.

"***بونجور***". بدا صوتي مرتعشاً، وخرج أشبه بصوت شريط تسجيل يتحرك بسرعة أكبر من معدلها الطبيعي. تضايقتُ من نفسي، وسعلتُ كي أغطي قلقي.

توقفت المرأتان عن تبادل الحديث وحدّقتا بي مطولاً كما لو أنهما تتفحصان حشرةً غريبةً، أو شيئاً دخل في أنفيهما. لم تتكلما، كما خلا وجهاهما من كل تعبير أو عاطفة.

غيّرت **بواريت** وقفتها، وتحركت قليلاً إلى الأمام. ارتدت الكنزة القصيرة السوداء اللون ذاتها التي كانت ترتديها في المرة السابقة. أحاطت خصرها بذراعها، وأسندت مرفق يدها الأخرى عليها. راقبتني من خلف عينيها المحجوبتين. سحبت نَفَساً كبيراً من سيجارتها، وأدخلت الدخان إلى أعماق رئتيها، ثم قلبت شفتها السفلى، ودفعت الدخان بقوة إلى الأعلى. بدا الدخان

مثل سحابة إزاء أضواء النيون المتوهجة الصادرة عن لافتة الفندق. نثرت أضواء اللوحة المضيئة أنواراً وامضة من اللونين الأحمر والأزرق على جلدها الذي يشبه لون الكاكاو. أزاحت بصرها عني من دون أن تتلفظ بأي كلمة، وعادت لتنظر إلى المارة على الرصيف.

"ماذا تريدين يا عزيزتي؟"

جاء صوت ابنة الشارع هذه عميقاً وخشناً بعض الشيء، وكأن الكلمات التي نطقت بها جاءت نتيجة جزئيات صوتية مليئة بفجوات تطفو من بينها. خاطبتني بالإنكليزية، وبإيقاعٍ ذكّرني بسويقّات السّنابل، وتجمعاتّ أشجار السرو، وبالفِرَق التي تعزف موسيقى الجاز. تذكرتُ أصوات الحشرات الطائرة التي تسرح في ليالي الصيف. بدت لي أنها أكبر سناً من **بواريت**.

"أنا صديقة **غابرييل ماكولاي**. أحاول أن أجدها".

هزّت رأسها. عجزت عن التمييز ما إذا كانت حركتها هذه تعني أنها لا تعرف **غابي**، أو أنها لا ترغب في إجابتي.

"إنها عالمة أنثروبولوجيا، وهي تعمل هنا".

"كلنا نعمل هنا يا عزيزتي".

أطلقت **بواريت** شخرةً، وغيّرت وقفتها. نظرتُ إليها. كانت ترتدي سروالاً قصيراً، وحمالة صدرٍ مصنوعة من الفينيل الأسود اللامع. وثقت أنها تعرف **غابي**، لأنها كانت من ضمن النساء اللواتي رأيتهن في تلك الليلة، كما أنّ **غابي** دلّتني. بدت لي أصغر سناً عندما شاهدتُها عن قرب، لكنني ركّزتُ أكثر على رفيقتها.

تابعتُ حديثي: "**غابي** امرأة سمينة نوعاً ما، وهي في مثل سنّي تقريباً، وجدائلها..." توقفتُ قليلاً هنا كي أتذكر اللون، "حمراء".

لقيتُ لامبالاة واضحة.

"كما أنها تضع حلقةً في أنفها".

لقيتُ صمتاً يماثل صمت جدارٍ من أحجار القرميد.

"لم أستطِع الاتصال بها منذ مدّة. أعتقد أنّ هاتفها معطّل، لذلك قلقتُ عليها قليلاً. تعرفانها بالتأكيد".

شدّدتُ على الضمير العائد لها ظناً مني أنني سألقى بعض التجاوب الناتج عن تشابه اللهجات. ولكنني لم ألقَ سوى وحدة الموقف التي تتميز بها فتيات الولايات الجنوبية.

هـــزّت **لويزيانا** كتفيها على طريقة سكان **لويزيانا الفرنسية**. حرّكت المرأة كتفيها أكثر مما حرّكت يديها.

لا يـــستغرب المرء تصرف فتيات الولايات الجنوبية. لم يعطِ هذا الموقف أي نتـــيجة، لذلك بدأتُ بفهم ما كانت تقوله **غابي** لي. لا ينبغي علىَ المرء أن يطرح الأسئلة في **ماين**.

"إذا التقيتما بها، هل ستبلغانها أنّ **تمب** تبحث عنها؟"

"إنه اسم جنوبي يا عزيزتي، أليس كذلك؟"

دسّـــت ظفراً طويلاً مطلياً بالأحمر في شعرها، وراحت تمرّر طرفه فوق فروة رأسها. بدت كتلة شعرها متماسكة بحيث تستطيع الصمود في وجه إعصار. تحرّك شعرها كتلة واحدة، مما أوجد لديّ الانطباع بأن شكل رأسها يتغيّر.

"ليس تماماً. هل تستطيعان أن تقترحا عليّ أي مكان أستطيع إيجادها فيه؟"

تلقيتُ هزة كتف أخرى. سحبت ظفرها وتفحصته قليلاً.

تناولتُ بطاقةً منٍ البطاقات التي أضعها عادةً في جيبـــي الخلفي.

"تستطيعان الاتصال بي على هذا الرقم إذا تذكرتما شيئاً". رأيتُ **بواريت** وأنا أبتعد عنهما وهي تتقدم كي تأخذ البطاقة.

فـــشلت عـــدة محـــاولات قمتُ بها مع بعض المارة في أرصفة شارع **سانت كاثـــرين** في إعطائـــي أي نتيجة. وتراوحت ردود أفعالهم ما بين عدم الاكتراث والازدراء الممـــزوج مع الشك وعدم الثقة. لم أحصل على معلومات. إذ لم يعترف أحدٌ بأنه رآها، حتى ولو سبق له أن شاهدها.

تـــنقلتُ مـــا بـــين حانة وحانة، وتحركتُ ما بين كل الأماكن الرخيصة التي يقـــصدها روّاد الليل. لاحظتُ أنّ جميع هذه الأماكن هي من بنات أفكار مهندس داخلي مزيّف. كانت الأسقف منخفضة، أما الجدران فمشيّدة بأحجار ذات نوعية رديئة. طُليت جميع هذه الجدران برسوم **داي – غلو**، أو غُطّيت بالقصب المزيّف، أو بالخـــشب الرخيص. وجدتها كلها قاتمة ورطبة تفوح منها رائحة شراب الشعير

المتعفنة، والدخان، والعرق البشري. وجدتُ أرضيات الحانات الأفضل حالاً جافة، وكانت حماماها نظيفة.

لاحظتُ منصات على شيء من الارتفاع في بعض الحانات. إذ تعتاد الراقصات على التلوّي والزحف فوق هذه المنصات. وتلتمع أسنانهنّ، وسروايلهن القصيرة، إزاء الأنوار السوداء، بينما يظهر الملل من وجوههنّ الجامدة. رأيت الرجال الذين يرتدون قمصاناً واسعةً، والذين برزت شعيرات لحاهم قليلاً، يتناولون شراب الشعير من الزجاجات أثناء مشاهدتهم للراقصات. وأخذت سيدات المجتمع الزائفات بتناول الشراب الفرنسي الرخيص الثمن، أو المشروبات الغازية، كي يظهرن بمظهر النساء الثريات، وقد تصنّعنَ الابتسام للرجال الذين يعبرون من أمامهنّ أملاً في اجتذابهم. قصدت النساء الإغراء، لكن التعب هو الذي ظهر على وجوههنّ.

اكتشفتُ أنّ الأكثر تعاسةً بينهنّ هنّ النساء اللواتي يعبرن حدود عالم التجارة بالأجساد، أي اللواتي يقفن عند خط البداية، أو عند خط النهاية. رأيتُ بعضهنّ صغيرات في السن، وبعضهنّ الآخر بالكاد وصلنَ إلى سن البلوغ. خرجت بعض الفتيات بحثاً عن المرح والكسب السريع، وهربت أخريات من جحيم منازلهنّ. امتلكت قصصهنّ موضوعاً مشتركاً. يقول لسان حالهنّ: تحرّكي قدر ما تريدين كي تجمعي ثروة، ثم انطلقي في حياة محترمة. تصل المغامرات والهاربات بالباص من **سانت تيريزا، وفال دي أور**، أو من **فالي فيلد وبوان دو لاك**. أتينَ بشعرهنّ اللامع ووجوههنّ النضرة، وقد امتلأنَ ثقة بقوهّنّ، ووثقنَ بقدرهّنّ على التحكم بالمستقبل. كانت العقاقير غير القانونية مجرد مغامرة مرحة بالنسبة إليهنّ. تعجز هؤلاء الفتيات عن إدراك أنّ هاتين الآفتين هما أول خطوتينٍ من الخطوات المؤدية إلى اليأس، والذي يستمر بالتزايد حتى لا يتبقى أي حل أمام الفتاة إلا السقوط المريع.

بقيت الفتيات اللواتي أسعفهنّ الحظ وكبرنَ بالسن. لم تتمكن غير الفتيات الحذرات حقاً، والقويات بشكل استثنائي، من جني ثروة معقولة ومغادرة هذا العالم. أما المريضات والضعيفات منهنّ فأدركهنّ الموت. تمكنت الفتيات القويات الأجسام، لكن الضعيفات الإرادة من الصمود، ولقد عرفنَ مستقبلهنّ وقبلنَه.

ستموت هؤلاء الفتيات في الشوارع لأنهنّ لا يجدنَ أي شيء آخر، أو لأنهنّ أحببنَ أحـــد الـــرجال، أو خشينَه، إلى حدٍّ يكفي لبيعه أجسادهنّ، أو شراء ما يبيعه من عقاقير غير قانونية، أو بسبب احتياجهنّ للطعام، أو مكانٍ للمبيت.

توجهتُ إلى اللواتي دخلنَ حديثاً في هذا السلك، أوْ اللواتي على وشك تركه. وتجنـــبتُ الحـــديث مـــع الجيل المُسن، واللواتي اكتسبنَ صلابة وقوة من الشارع، واللـــواتي يـــستطعنَ الدفاع عن الأماكن التي يتواجدنَ بها، بنفس قوة خضوعهنّ لقـــوّاديهنّ. افترضت أنّ الفتيات الصغيرات في السن، والبسيطات، واللواتي يتمتعنَ بقدرٍ من التحدي، هنّ أكثر انفتاحاً. ولكن اكتشفتُ بأنني مخطئة. فلقد ابتعدنَ عني كلمـــا دخلـــتُ حانةً بعد حانة، وتركنَ أسئلتي تتلاشى في الهواء المليء بالدخان. احترمت الفتيات قانون الصمت، وعدم السماح للغرباء بالدخول.

شـــعرتُ بالإجهاد الشديد بحلول الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة. فاحت رائحـــة دخان السجائر والعقاقير غير القانونية من شعري وثيابي، أما حذائي فتشبّع بـــرائحة شـــراب الشعير. شربتُ ما يكفي من **السبرايت** الذي يمكنني من عبور صـــحراء **كالاهاري**، لكنّ عينيّ امتلأتا بالحصى الدقيق. استسلمتُ بعد أن تركتُ المزيد من المجانين الموزعين في الحانات، وغادرتُ المكان.

19

إمـــتلأ الهـــواء بـــرطوبة تشبه الندى في تكوينها. وارتفع الضباب من النهر، والتمعت في الجو حبيبات دقيقة جداً مثلما تلتمع أضواء مصابيح الشوارع. شعرتُ بالـــراحة نتـــيجة برودة الجو ورطوبته التي تصدم بشرتي. ذكّرتني وخزة الألم التي شـــعرت بها ما بين رقبتي وكتفي بأنني أجهدتُ نفسي لساعات طويلة. أحسستُ بـــرغبة في الهروب، ولعلني كنت أهرب فعلاً عن طريق البحث الذي قمتُ به عن **غابي**، ولعل هذا البحث هو الذي سبّب لي التوتر. تعودت الاقتراب من عالم بنات الهـــوى، وكذلك تعودت على رفضهن التحدث معي، مثلما اعتدن تجنب سيارات الشرطة، والمتطفلين بشكلٍ غريزي.

أجهـــدتني المعـــركة الدائرة في داخلي أكثر من أي شيء آخر. أمضيتُ أربع ساعات في محاولة إبعاد حبيب قديم، وهو الحبيب الذي لم أستطع أبداً التخلص من حـــبّه. حـــدّقتُ طيلة الليل بإغراء الوهج الكستنائي اللون الذي يتميز به **شراب الـــسكوتش** مـــع الـــثلج، وبـــشراب الشعير الكهرماني اللون، الذي ينساب من الـــزجاجات إلى الحناجر. تمكنتُ من تنشق رائحة حبيبـــي الذي يتألق وجهه مثل ضوء القمر، ورأيتُ وهجه في العيون المحيطة بي. أحببتُه ذات مرة. يا الله! ما زلت أحـــبه، لكن ذلك السحر الفتّان قد يكون قاتلاً. إن العبث من جهتي، مهما كان قلـــيلاً، مـــن شأنه أن يجعل هذا العشق القديم يسيطر عليّ من جديد. ابتعدتُ عن العـــبث لهـــذا السبب، ببطء وتصميم. لا يمكننا أبداً أن نصبح صديقين، لأننا كنا حبيبين ذات مرة. التقينا هذه الليلة، وكدنا أن نتعانق.

أخـــذتُ نَفَساً عميقاً. كان الهواء مشبعاً برائحة زيوت المحركات، والإسمنت الـــرطب، والخمـــيرة المتصاعدة من مصنع **مولسون للشراب**. كان شارع **سانت كاثرين** خالياً تقريباً. مرّ رجلٌ مسنٌ يعتمر قبعةً صوفية على رأسه، ويرتدي معطفاً سمـــيكاً أمـــام واجهة متجر، ومشى كلب هجين قذر إلى جانبه. رأيتُ كلباً آخر يفـــتش في كومة النفايات الموجودة في النهاية البعيدة من الشارع. أعتقد أنّ شارع **ماين** يمتلك فريقاً ثالثاً من الرواد.

شـــعرتُ بالإحباط والإجهاد، فتوجهتُ نحو **سان لوران**. بذلتُ جهدي كي أجـــد **غـــابي**، لكن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا مستعدين لمساعدتي على الوصول إليها. تبيّن لي أنّ هذا الملهى مقفلٌ، تماماً مثل ملهى **جونيور ليغ**.

مـــررتُ من أمام **ماي كينه**. وُضعت لوحة فوق النافذة تعلن عن **مأكولات فييتنامية** أعلنت أنها متوفرة طيلة الليل. نظرتُ من خلال الزجاج الوسخ بقليلٍ من الاهـــتمام، ثم تـــوقفت. فلقد رأيتُ رفيقة **بواريت** جالسةً في حجرة خلفية. بقي شعرها المرفوع جامداً بشكل معبد بوذي. راقبتُها فترةً من الزمن.

وضـــعت في طبقها قطعة **أومليت** في صلصة حمراء بلون الكرز، ثم رفعتها إلى فمهـــا وبدأت بتذوقها. تفحصت **الأومليت** بعد قليل، ثم أجهزت عليها بأسنانها الأمامية. وضعت بعد قليل قطعةً أخرى وكررت العملية ببطء. رحتُ أتساءل عن عدد المرات التي فعلت فيها ذلك.

لا تدخلي. نعم ادخلي. تأخر الوقت. اللعنة! جرّبي مرةً أخيرة. دفعتُ الباب ودخلت.

"مرحباً".

ارتجفت يدها عندما سمعت صوتي. بدت منذهلة في البداية، ثمّ استرخت قليلاً عندما تذكرت أنها رأتني من قبل.

"مرحباً عزيزتي. ألم تعودي إلى المنـــزل بعد؟" عادت إلى وجبتها بعد ذلك.

"هل تسمحين لي بالجلوس؟"

"كما تشائين. أنتِ لا تعملين في منطقتي، يا حلوة. لا أمتلك أي شيء ضدك".

دخلـــت إلى الحجرة. تبيّن لي أنها أكبر سناً مما توقعت، وقد تكون في أواخر الثلاثينيات من عمرها، أو في أوائل الأربعينيات. لاحظتُ أنّ الجلد في منطقة عنقها

وجبهتها مشدودٌ، وأن لا وجود للترهل تحت عينيها، لكنني استطعتُ تحت أضواء الفلوريـــسنت القوية أن أرى تغضنات دقيقة تنطلق من شفتيها. لاحظتُ أنّ خط فكّها قد بدأ بالارتخاء.

أحـــضر الـــنادل لائحة الأطعمة فطلبتُ **حساء التونكينواز**. لم أكن جائعة، لكنني أردتُ أن أختلق عذراً للبقاء.

"هل وجدتِ صديقتكِ يا عزيزتي؟" تناولت كوب قهوتها، فطقطقت الأساور البلاســـتيكية الـــتي تحملها في معصمها. تمكنتُ من رؤية آثار ندوبٍ تخترق الجهة الداخلية من مرفقها.

"كلا".

انتظـــرنا قلـــيلاً ريثما أحضر لنا صبيّ آسيويّ، في الخامسة عشرة من عمره تقريباً، المياه ومنديلاً ورقياً.

"**أُدعى تمب برينان**".

"تذكرتكِ. أنا **جويل تامبو**، بنت الهوى". تناولت قضمة من طعامها ثانية.

"**آنسة تامبو**. أنا..."

"تستطيعين مناداتي **جويل**، يا عزيزتي".

"جـــويل. أمـــضيتُ أربع ساعات كي أعرف ما إذا كانت صديقتي بخير. لم يعتـــرف أحـــد بأنه سمع اسمها على الإطلاق. دأبت **غابي** على المجيء إلى هنا منذ ***أعوام***، ولهذا أنا متأكدة من أنهم يعرفون عمن أتحدث".

"يُحـــتمل أنهـــم يعرفونها يا عزيزتي، لكنهم لا يعرفون سبب سؤالك عنها".

وضعت الطبق على الطاولة، واحتست من كوب قهوتها، فأصدرت صوتاً خفيفاً.

"أعطيتُك بطاقتي. أنا لا أخفي شخصيتي".

حـــدّقت بي لبرهة. امتلأت الحجرة الصغيرة برائحة العطر، والدخان، والشعر غير المغسول. بدت المنطقة المحيطة بعنقها ملطخة بمساحيق التجميل.

"هـــل أنتِ الآنسة ***الشخص الذي تقول عنه البطاقة إنه يدعى تمب برينان***؟ هـــل تطـــاردين أحداً؟ وهل تسعين لإثارة ضجيج من نوعٍ آخر؟ أم أنك تمتلئين حقـــداً؟" رفعـــت أثناء كلامها شيئاً يشبه المخلب الطويل الأحمر اللون من كوبها، ووجّهته نحوي، وكأنها تشير إلى كافة الاحتمالات.

"هل أبدو وكأنني أمثّل تهديداً ضد **غابي**؟"

"رآكِ الجمـــيع يـــا عزيـــزتي هنا مرتديةً كنـــزة **شارلوت هورنيت**، ومنتعلةً صـــندل **يـــوبي**، كما أنك تطرحينَ الكثير من الأسئلة، وتحاولين حمل فتاة ما كي تعطـــيكِ ما لديها. لن تنجحي في مسعاك أبداً. لا يعرف الناس هنا كيفيةً التعامل معك".

أحضر النادل حسائي. جلسنا بصمت، ووضعتُ مكعبات صغيرة من الليمون الحـــامض في طبقـــي، ثم أضفت بعض الفلفل الأحمر مستخدمةً ملعقة صغيرة من الخزف الصيني. راقبتُ **جويل** أثناء تناولي لطعامي، وهي تلتهم ما تبقى لها من طبق **الأومليت**، وعندما انتهت قرّبت كوب قهوتها ووضعته أمامها مباشرة.

"أنت محقة. ما كان يجدر بي استخدام هذه الطريقة الهجومية مع الناس وطرحٍ الأسئلة عليهم بهذه الطريقة. إنني قلقة على **غابي**، هذا كل شيء. اتصلتُ بها أولاً، ثم قـــصدتُ منـــزلها. اتصلتُ بها في الجامعة. لا يبدو أنّ أحداً يعرف أين هي. لم تتعوّد الغياب لهذه المدة الطويلة".

تناولتُ ملعقة من الحساء. اكتشفتُ أنّ مذاقها أفضل مما توقعت.

"ماذا تعمل صديقتك **غابي**؟"

"إنهـــا عالمة أنثروبولوجيا، وهي تقوم بأبحاث عن الناس، كما أنها تهتم بالناس الذين يعيشون في هذا المكان بشكلٍ خاص".

"تتحدثين عن النضوج في **ماين**".

استرســـلت بالـــضحك بيـــنها وبين نفسها، وراحت تراقب رد فعلي على اقتباســـها مـــن **مارغريت ميد**. لم أظهِر أيّ ردّ فعل، لكنني بدأتُ أدرك أنّ **جويل تامبو** ليست تلك الدمية. أحسستُ أنني أتعرّض لاختبار.

"لعلها لا تريد أن يعرف أحد بمكانها في الوقت الحالي".

يمكنك أن تفتحي دفاتر امتحاناتك.

"يُحتمل ذلك".

"إذاً ما المشكلة في ذلك؟"

يمكنك الآن أن تحضّري أقلامك.

"بدت مضطربة جداً في آخر مرة التقينا فيها. كانت خائفة تقريباً".

"مضطربة لأي سبب يا حلوتي؟"
هل تحضّرت تماماً؟
"اعتقدت أنَّ شخصاً ما يلاحقها. قالت إنه رجلٌ غريب الأطوار".
"يوجد كثير من الأشخاص الذين يتميزون بأطوارٍ غريبةٍ يا عزيزتي".
حسناً أيتها الحسناء، ابدئي الآن.

أخبرتها القصة بكاملها. حرّكت كوب قهوتها أثناء إصغائها للقصة، وراحت تحدّق بالسائل البني المائل إلى الأسود وكأنها تنتظر إجابتي. أشارت بعد ذلك للنادل بأنها تريد كوباً جديداً. جلستُ صامتةً منتظرةً درجة **التقدير** التي ستعطيني إياها.

"لا أعـــرف اسمـــه، لكنني أعتقد أنني أعرف عمن تتحدثين. إنه شخص نحيل ومتأنق، ويشبه اليرقة. إنه غريب الأطوار فعلاً، ولا أعتقد أنّ غرابة أطواره تعود إلى سببٍ بسيط. أعتقد مع ذلك بأنه ليس خطِراً. أشك في أنه يستطيع قراءة الملصقات على زجاجةٍ صلصة البندورة".

نجحتُ في الامتحان.

"معظمنا يتجنبه".

"لماذا؟"

"أنـــا أنقـــل مـــا يتردد في الشارع لأنني لا أتعامل معه. يجعلني الرجل أشعر بالقـــشعريرة، وكـــأنني أشاهد تمساحاً يزحف في الوحل". كشّرت قليلاً وهزّت كتفيها، "يقولون إنّ الرجل يمتلك رغبات غريبة".

"غريبة؟"

وضعت كوبها على الطاولة، ونظرت إليَّ كي تقيّمني من جديد.
"لا يطلب الرجل منا سوى الرفقة، لكنه يدفع لقاء ذلك".
غرفت بعض المعكرونة وانتظرت.

"ترافقه فتاة تدعى **جولي**، لأن الأخريات يرفضن الخروج معه، لا تملك الفتاة ذكـــاءً كـــبيراً، لكن ذلك أمرٌ آخر. أخبرتني أنّ العرض ذاته يتكرر في كلّ مرة. يذهبان إلى الغرفة، فيشرع رجلنا هذا في إحضار كيس ورقيّ يحتوي ثوب نومٍ. لا يمـــتاز هذا الثوب بشيء غريب، لكنه محزّم مثل بقية الأثواب. يراقبها الرجل وهي ترتديه، ثم يطلب منها الاستلقاء في السرير. إنه أمرٌ عادي حتى الآن. ينتقل الرجل

بعـــد ذلك إلى تمسيد الثوب بإحدى يديه، ويضع يده الأخرى على أماكن حساسة عـــنده. يـــشعر الرجل بإثارة شديدة، ويروح يئن ويتأوه، وكأنه في قمة إبداعه. يطلـــب منها بعد ذلك أن تخلع ثوب النوم، ويشكرها، ويدفع لها، ثم يغادر. تعتقد **جولي** أنها تجني أموالاً سهلة بهذه الطريقة".

"ما الذي يجعلك تعتقدين أنّ الرجل نفسه هو الذي يزعج صديقتي؟"

"شـــاهدته **جولي** ذات يوم عندما كان يضع الثوب في الكيس. ولاحظت وجود قبـــضة سكّين كبيرة فيه. أبلغته أنه إذا كان راعي البقر يرغب بالمزيد من المتعة فإنّ عليه الـــتخلّص مـــن السكّين. قال إنه سيف الحق الخاص به، أو شيئاً غريباً من هذا القبيل يتعلّق بالسكّين، وبروحه، وبالتوازن البيئي، وتفاهات مثل هذه. أخافها الرجل كثيراً".

"ثم ماذا؟"

هزّت كتفيها مجدداً.

"هل ما زال يتردد إلى هذه المنطقة؟"

"لم أرَه مـــنذ مـــدة، لكـــن هذا لا يعني شيئاً بالضرورة. لم أكن أراه بشكلٍ منتظمٍ. يظهر الرجل تارةً ويختفي طوراً".

"هل سبق وتحدثتِ معه ذات مرة؟"

"تحدّثـــنا كلنا معه أيتها الحلوة. يبدو الرجل مضجراً ومزعجاً عندما يأتي إلى هنا. استنتجتُ بأنّ شخصيته مثل اليرقة بسبب ما لاحظتُه **فيه**".

غرفت المزيد من المعكرونة: "هل سبق أن رأيتِه مع **ماغي**؟"

استرخت في جلستها وضحكت: "سؤال رائع يا حلوتي".

"أين أستطيع أن أجده؟"

"لا أعرف مطلقاً. انتظري قليلاً، سيظهر ذات يوم".

"وماذا بشأن **جولي**؟"

"إنهـــا مـــنطقة تجارة حرة يا عزيزتي. تأتي الفتيات ويذهبن، لكنني لا أحتفظ بسجلات عنهنّ".

تفحّصتُ قطع المعكرونة في أسفل الطبق، ثم نظرتُ إلى **جويل**. رفعتُ الغطاء قلـــيلاً، فاختلست نظرة إلى الداخل. تساءلتُ إن كنت أستطيع رفع الغطاء أكثر. جازفتُ ورفعتُ الغطاء.

"هـــناك احتمال بوجود قاتل تسلسلي يسرح في هذا المكان يا **جويل**. هناك شخص يقتل النساء ويقطّعهنّ".

لم تتغيّـــر تعابير وجهها مطلقاً. نظرت إليَّ بوجه جامد كالصخر. إما أنها لم تفهمني، وإما أن أفكار العنف، والألم، وحتى الموت، قد أرعبتها. يُحتمل أيضاً أن تكـــون قد تظاهرت باللامبالاة، ووضعت قناعاً كي تُخفي الخوف الذي يصعب التعبير عنه بالكلام. افترضتُ أنّ الاحتمال الأخير هو الصحيح.

"هل صديقتي في خطر يا **جويل**؟"

حدّقنا في عيون بعضنا بعضاً لفترةٍ من الوقت.

"وهل هي أنثى يا عزيزتي؟"

قـــدتُ ســـيارتي في طريقي إلى المنـــزل. وتركتُ أفكاري تسرح على هواها، وهكـــذا أعطـــيتُ انتباهاً قليلاً للقيادة. كان شارع **دي مايزونيف** مهجوراً. سلّطت مصابيح السيارات أنوارها على منـــزل فارغ. رأيتُ، فجأة، زوجاً من أنوار السيارات ينعكس في مرآة سيارتي الخلفية. توجستُ شراً من هذه الأنوار على الفور.

عـــبرتُ **شـــارع بيل**، ثم انحرفتُ إلى اليمين كي أفسح المجال لمرور السيارة. بقـــيت الأنوار تتحرك ورائي، لذلك عدتُ للسير في الخط الداخلي. تبعني السائق، لكنه شغّل الضوء العالي.

"مغفّل".

زدتُ السرعة، لكن السيارة بقيت تلاحقني.

شـــعرتُ بوخزةٍ من الخوف، فلعل الرجل ليس مجرّد سكّير. حدّقتُ في المرآة الخلفـــية وحاولتُ أن أتعرّف على هوية السائق. لم أستطِع رؤية أي شيء عدا ظلٍ داكنٍ، لكنه بدا كبيراً. هل هو رجل؟ لا أستطيع أن أتأكد. كانت الأضواء تُعمي الأبصار، أما السيارة فلم أتمكّن من تحديد نوعها.

أمـــسكتُ عجلة القيادة بإحكام وعبرتُ شارع **غاي**، ثم انعطفتُ إلى اليسار. تجاهلتُ الأنوار الحمراء واندفعتُ بسيارتي في الشارع الذي أسكن فيه، ثم توجهتُ بها نحو مرآب البناية التي أسكنها.

انتظـــرتُ قليلاً حتى تنتهي عملية انغلاق الباب الكهربائي. أغلقتُه بالمزلاج، وجهـــزّتُ المفاتيح. أصغيتُ جيداً كي أتأكد من سماعي وقع أقدامٍ. لم يتبعني أحد،

لكـــن مـــا إن دخلتُ إلى رواق الطابق الأول من البناية، حتى اختلستُ نظرةً من خـــلال الستائر. رأيتُ سيارةً متوقفةً على رصيف الجهة البعيدة عني من الشارع، لكـــن أضواءها بقيت مشتعلة. رأيتُ ظلاً معتماً للسائق من زاوية جانبية. هل هي السيارة ذاتها؟ لست واثقةً مما إذا كنت قد فقدتُ أثرها.

وجـــدتُ نفـــسي مستلقيةً حتى بعد مرور ثلاثين دقيقة، وأنا أحدّق بستائر الظلمـــة المخـــيّمة خـــارج نافذتي أثناء تغيّرها من اللون الأسود الفاحم إلى اللون الرمادي الحزين. أخذ **بيردي** يخرخر قرب الجهة الخلفية من ركبتي. شعرتُ بإجهادٍ كـــبير. خلعتُ ثيابي وخلدتُ للنوم متجاهلةً الروتين المعتاد، مع أنّ ذلك ليس من عادتي. إنني التزم، عادةً، بنظامٍ صارمٍ في ما يتعلق بأسناني وزينتي، لكنني أهملته هذه الليلة.

20

إنّ يــوم الأربعاء هو يوم جمع النفايات في منطقتي السكنية. استسلمتُ للنوم رغم صوت شاحنة جمع النفايات وتعقيمها. غفوتُ رغم وكزات **بيردي** المتكررة، ورغم رنين الهاتف ثلاث مرات.

اســتيقظتُ عند الساعة العاشرة وخمس عشرة دقيقة وأنا أشعر بكسلٍ كبير، وبــألمٍ في الــرأس. لم أعد ابنة الرابعة والعشرين. فرض السهر الطويل على مدى الأعوام آثاره عليّ، لكنني وجدتُ صعوبة كبيرة في الاعتراف بهذه الآثار.

فاحــت رائحة الدخان من شعري، ومن جلدي، وحتى من وسادتي وأغطية سريري. جمعتُ كل البياضات، وثيابي، ووضعتها في غسّالة الثياب، أخذتُ حماماً طــويلاً، واستمتعتُ برغوة الصابون وفقاقيعه. رنّ الهاتف عندما شرعتُ في وضع زبدة الفستق فوق قطعة **كرواسان**.

انساب صوت **لامانش** عبر سماعة الهاتف: "**تمبرنس؟**"

"أجل".

"كنت أحاول الاتصال بك".

تطلعتُ نحو الآلة المجيبة في هاتفي. سجّلت الآلة وصول ثلاث رسائل.

"آسفة".

"***وي***. هل سنراكِ هذا اليوم؟ اتصل بكِ ***المسيو*** **رايان**".

"سأكون هناك في غضون ساعة".

"حسناً".

شغّلتُ الآلة كي أسمع الرسائل المسجلة.

أتـــت الرســـالة الأولى مـــن طالب جامعي يائس. وأتت الرسالة الثانية من **لامانش**. أما الثالثة فكانت اتصالاً مقطوعاً. لم أكن في مزاجٍ يسمح لي بالتفكير في مـــشاكل الطلبة، لذلك حاولتُ الاتصال **بغابي**. لا جواب. طلبتُ رقم **كاتي**، لكن الآلة المجيبة هي التي ردّت.

"اترك رسالة قصيرة مثل هذه". جاء طلب الآلة مرحاً. تركتُ الرسالة، لكن من دون مرح.

وصلتُ إلى المختبر بعد مرور عشرين دقيقة. وضعتُ حقيبتي الصغيرة في دُرج المكـــتب. تجاهلتُ الأوراق الزهرية اللون التي انتشرت على مكتبي، ونـــزلتُ على الفور إلى الطابق السفلي حيث المشرحة.

يأتي الأموات إلى المشرحة أولاً. يُسجّلون أولاً ثم يُنقلون إلى مقصورات مبردة حـــتى تعيّن **مختبرات الطب الشرعي** طبيباً مختصاً بعلم الأمراض لمعاينة الجثث. تدلّ ألوان الأرضية على الهيئة التي لها صلاحية الإشراف على الجثة. تبدأ المشرحة بغرَف التـــشريح. تتوقف الأرضية الحمراء لكل مشرحة عند عتبة قاعة التشريح. يُشرف ضـــابط تحقـــيقٍ على المشرحة، أما **مختبرات الطب الشرعي** فتشرف على العاملين فـــيها. تـــدل الأرضية الحمراء على مجال صلاحية ضابط التحقيق. وتدل الأرضية الرمادية على مجال صلاحية **مختبرات الطب الشرعي**. اعتدتُ أن أجري اختباراتي الأولية في إحدى غرف التشريح الأربع. تُرسل العظام بعد ذلك إلى **مختبر الأنسجة** للتنظيف النهائي.

كان **لامانش** منهمكاً بفتح شقٍ على شكل حرف Y في صدر طفلةٍ رضيعة. ظهرت كتفاها الصغيرتان على وسادةٍ مطاطية، بينما أُسدلت ذراعاها على جانبيها فبدت وكأنها تقوم بدور ملاك الثلج. نظرتُ إلى **لامانش**.

قال لي بصوت مرتعشٍ: "***Secouée***".

رأيتُ **ناتالي آيرز** منحنية فوق جثة أخرى مجهزة للتشريح، بينما انهمكت **ليـــزا** في رفـــع درعٍ صدريٍّ عن رجلٍ في مقتبل العمر. برزت عيناه المنتفختان بلـــونٍ أرجـــواني من تحت شعره الكثيف الأحمر اللون. تمكنتُ من رؤية فجوةٍ صغيرةٍ وداكنةٍ في جبهته اليمنى. إنها حالة انتحار. رأيتُ ناتالي التي بدأت العملَ

حديثاً في **مختبرات الطب الشرعي**، لكنها لم تأخذ على عاتقها أي جريمة قتل حتى الآن.

وضع **دانيال** المبضع الذي كان يسنّه على الطاولة: "أتريدين عظام **سان لامبرت**؟"

"ضعها من فضلك على الطاولة رقم 4".

أومأ قبل أن يختفي في غرفة المشرحة.

استغرق تشريح العظام فترة أربع ساعات. تأكدتُ في نهايتها من صحة انطباعي الأولي بأنّ هذه البقايا تعود إلى الشخص ذاته، وبالتحديد إلى أنثى بيضاء في حوالى الثلاثين من عمرها. لاحظتُ أنّ العظام تمتلك القليل من الأنسجة الليّنة، لكنها كانت في حالة سليمة، حتى أنها احتوت القليل من الدهن. ماتت المرأة منذ فترة تتراوح ما بين العامين والخمسة أعوام. لاحظتُ أمراً غريباً تمثّل في وجود قوسٍ ملتحمٍ في فقرتها القطنية الخامسة. يصعب التعرّف على هوية صاحب الجثة من دون وجود الرأس.

طلبتُ من **دانيال** أن ينقل العظام إلى مختبر تحليل الأنسجة، وأن يقوم بغسلها، ثم توجهتُ إلى الطابق العلوي. زادت سماكة الأوراق الزهرية اللون على طاولة مكتبي. اتصلتُ ببرايان وزوّدتُه بتلخيصٍ عما اكتشفته. قال لي إنه يعالج تقارير قضايا الأشخاص المفقودين الآتية من مراكز شرطة **سان لامبرت**.

وصلتني إحدى المكالمات من **آرون كالفرت** الذي يعمل في **نورمان، أوكلاهوما**. أتت المكالمة يوم أمس. اتصلتُ به فتلقيتُ رداً من صوت عذب أبلغني أنه بعيد عن مكتبه. أكدت لي صاحبة الصوت بأنها آسفة جداً، وأضافت أنها ستبلغه رسالتي. تأثرتُ بلطفها المهني. أجّلتُ الرد على الرسائل الأخرى، وانصرفتُ كي أرى **لوسي دومون**.

امتلأ مكتب **لوسي** بأجهزة موصولة مع الكمبيوتر، والطابعات، وأجهزة متنوعة أخرى. تسلقت الأسلاك الجدران قبل أن تختفي في السقف، أو جُمعت في حزَمٍ تواجدت فوق الأرضية. رأيتُ أكداس التقارير المطبوعة على الرفوف وعلى الخزائن، وانتشرت مثل تراب السيل الذي يبحث عن أكثر النقاط انخفاضاً.

تقـــع طاولـــة مكـــتب **لوسي** قبالة الباب مباشرة، وتتواجد مجموعة خزائن وتجهيـــزات بـــشكل حرف U وراءها. رأيتُها تتنقل من موقعٍ إلى موقعٍ، وانشغل حذاؤها الرياضي الذي تنتعله في دفع كرسيّها عبر الأرضية الرمادية. لم يسبق لي أن رأيـــتُ وجه **لوسي**، لأنني كنت أرى الجزء الخلفي من رأسها وراء شاشة تومض باللون الأخضر.

تـــضم الدائرة التي تقع وراء **لوسي** هذه الأيام خمسة يابانيين يرتدون بذلات عمـــل. شـــكّل هؤلاء حلقةً حول **لوسي**. اعتاد هؤلاء على إسدال أيديهم على جوانبهم، والإيماء بجدية، كلما أشارت إلى شيء ما على الشاشة قبل أن تشرح لهم أهميته. لعنتُ توقيت زيارتي، وتوجهتُ إلى مختبر الأنسجة.

وصل هيكل **سان لامبرت** من المشرحة قبل وقتٍ قصير. رحتُ أحلّل الحزوز بالطـــريقة ذاتهـــا الـــتي اتّبعتها مع **تروتييه وغاغنون**. دوّنتُ أوصاف كل علامة وموقعها، حتى إنني رسمتُ شكلها بعد أن قمت بقياسها. رسمتُ أيضاً آثار بداياتٍ النشر الزائفة. دلّت الجروح والأخاديد الدقيقة على استخدام السكاكين والمناشير، أي تمامـــاً مـــثلما كانت عليه الحالتان السابقتان. ظهرت التفاصيل المجهرية بشكلٍ مشابه، أما مواقع الحزوز فكانت متطابقة تقريباً مع الحالات السابقة أيضاً.

نُـــشرت يدا المرأة في منطقة المعصم، وفُصلت الأطراف الباقية عند المفاصل. لاحظـــتُ أنّ بطنها قد جُرح في خط المنتصف تقريباً، وكان عميقاً بما يكفي كي يترك أثراً على العمود الفقري. كانت الجمجمة والقسم الأعلى من العنق مفقودين، لكن العلامات التي رأيتُها على الفقرة العنقية السادسة دلت على أنها ذُبحت في خط منتصف الرقبة. بدا الرجل مصراً على اتّباع الطريقة ذاتها.

أعـــدتُ وضع العظام في الصندوق، وجمعتُ أوراق ملاحظاتي، ثم عدتُ إلى مكتبي. عرّجت على الرواق كي أتأكد ما إذا كانت **لوسي** قد فرغت من عملها. لم أجـــد أثراً لها، أو لليابانيين المتأنقين. تركتُ ورقة مراسلات على أحد أجهزتها. أردتُها أن تشكرني على إعطائها فرصةً للاستراحة.

اتصل بي **كالفرت** أثناء غيابي. لم يكن ذلك بالشيء الغريب. ظهرت **لوسي** علـــى باب مكتبي، وشبكت يديها أمامها بشدة، في الوقت الذي شرعتُ فيه بنقر أرقام هاتفه.

سألتني بالفرنسية بعد أن رسمت ابتسامةً سريعةً على شفتيها: "هل تركتِ رسالة في مكتبي يا **برينان**؟"

بدت نحيلةً جداً بشعرها الأجعد الذي أضاف سنتيمترات قليلة إلى جمجمتها. ظهرت نظارتها كبيرة جداً بسبب قلة كثافة شعرها وجلدها الشاحب، فبدت أقرب إلى مانيكان في متاجر الثياب المخصصة للقياسات الكبيرة.

نهضتُ وقدمتُ كرسياً لها: "نعم يا لوسي، شكراً على مجيئك".

وضعت قدميها الواحدة خلف الأخرى وراء قائمة الكرسي الذي استرخت عليه. بدت لي مثل الهرة التي تندس في وسادة.

"هل اضطررتِ للقيام بمهمة سياحية؟"

انتزعت ابتسامة، ثم أصبح وجهها خالياً من كل التعابير.

"هل انشغلتِ مع السادة اليابانيين".

"نعم. إنهم يعملون في مختبر كشف الجرائم في **كوبي**. يختص معظمهم في الكيمياء، لكنني لم أتضايق منهم".

قلت لها: "لستُ متأكدة ما إذا كنتِ تستطيعين مساعدتي، لكنني أردت أن أسألك".

ركّزت عدستَيها على صفٍ من الجماجم التي احتفظتُ بها على الرف الموجود وراء طاولة مكتبي.

شرحتُ لها: "إنها للمقارنة".

"وهل هي جماجم حقيقية؟"

"نعم، إنها جماجم حقيقية".

نقّلت بصرها واستطعتُ أن أرى نسخة مشوهة من صورتي في كل عدسة زهرية اللون. ارتعشت زاويتا شفتيها قبل أن تستقرّا ثانية. ظهرت ابتسامتها ثم اختفت مثل ضوء مصباحٍ كهربائيٍّ يشكو من سوءٍ في التوصيل. ذكّرني هذا المنظر بمصباحي الكهربائي في الغابة.

شرحتُ لها ما أريده. رفعت رأسها عندما انتهيت، وراحت تنظر نحو الأعلى، وكأن الجواب يكمن في السقف. أخذت وقتها، بينما رحتُ أستمع إلى أزيز طابعة في مكانٍ ما من القاعة.

"لا تــضمّ التقاريــر أي شــيء قبل 1985، أعرف ذلك". لاحظتُ بعض الارتعاش في وجهها. بدا أنه يومض، ويومض.

"أعرف أنّ الأمر غريب بعض الشيء، لكن حاولي أن تفعلي شيئاً".

"هل تخصّ هذه **كيبيك سيتي**، أيضاً".

"لا، حتى الآن، إنها قضايا **مختبرات الطب الشرعي**".

أومأت وابتسمت، ثم غادرت. رنّ الهاتف بعد مغادرتها مباشرة. جاء الاتصال من رايان هذه المرة.

"ما رأيك بشخصٍ أصغر سناً؟"

"أتقصد أَصغر بكثيرٍ؟"

"السابعة عشرة مثلاً".

"لا".

"لعله شخص يتميّز بنوعٍ من..."

"لا".

مرّت فترة صمت.

"لديّ شخصٌ في السابعة والستين من العمر".

"**رايـــان**، لا تنتمـــي هـــذه المـــرأة إلى مجموعة **كليراسيل**، ولا إلى مجموعة **غيريتول**".

تابـــع كلامه بثبات يشبه إشارةً مضاءةً: "ماذا لو كانت تعاني من مشاكل في العظام، أو ما يشبه ذلك؟ قرأتُ ذات مرة عن..."

"**رايان**. كانت المرأة ما بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين من عمرها".

"صحيح".

"ويُحتمل أنها فُقدت ما بين العامين 1989 و1992".

"هذا ما قلته لي".

"آه. هناك أَمرٌ آخر. يُحتمل أن تكون المرأة أماً لأولاد".

"ماذا؟"

"وجدتُ بعض التقوّسات على سطح العظام العانية من الداخل. ابدأ بالبحث عن والدة".

"شكراً".

رنّ الهاتف مجدداً بعد وقتٍ أقصر من الوقت الذي يستغرقه نقر الرقم ثانيةً.

"**رايان**، أنا".

"هذه أنا يا أمي".

"مرحباً يا عزيزتي. كيف حالك؟"

"أنا بخير يا أمي". مرّت فترة صمت. "هل تضايقتِ من محادثتنا الليلة الماضية؟"

"بالطبع لا يا **كاتي**. إنني قلقة بشأنك".

مرّت فترة صمت طويلة.

"إذاً، ما الجديد لديك؟ لم نتحدث جدياً عن مشاريعك لهذا الصيف". أردتُ أن أقول لها أشياء كثيرة، لكنني تركتُ لها متابعة الحديث.

"ليس لديّ الكثير منها. إنّ **شارلوت** مملة كما كانت دائماً، ولا يمكننا القيام بأي شيء".

حسناً. إنّ موقفها هذا هو مظهر آخر من مظاهر سلبيات المراهقة. كان هذا آخر ما أحتاجُه. حاولتُ أن أسيطر على قلقي.

"كيف هي الحال في وظيفتك؟"

"إنهـــا على ما يرام. أتلقى بقشيشاً جيداً. حصلتُ على أربعة وتسعين دولاراً الليلة الماضية".

"عظيم".

"إنني أحصل على ساعات عملٍ كثيرة".

"رائع".

"أريد أن أترك هذه الوظيفة".

فضّلتُ أن أنتظر.

انتظرت هي الأخرى.

"ســـتحتاجين للمـــال يا **كاتي** من أجل متابعة دراستك الجامعية". أرجوك يا **كاتي**، لا تتلاعبي بحياتك.

"سبق لي أن أخبرتك، لا أريد العودة إلى الدراسة فوراً. أفكّر في ترك الجامعة مدة عام كي أعمل".

عدنا مجدداً. أدركتُ ماذا سيحصل، لذلك بدأتُ هجومي.

"ناقـــشنا ذلك في الماضي يا عزيزتي. لماذا لا تجرّبين **جامعة ماك جيل**، هذا إذا كنتِ لا تحبين **جامعة فرجينيا**؟ لماذا لا تأتين للإقامة عندي لأسابيع عديدة. لماذا لا تأتين وتجربين؟" هيا، تحدثي بسرعة أيتها الوالدة. "نستطيع ترتيب إجازة. ما رأيك لو نذهب بالسيارة إلى **ماريتايمز**، ونتسكّع في **نوفا سكوشيا** لعدة أيام؟" يا الله! عما أتحدث؟ كيف بإمكاني ترتيب كل ذلك؟ لا يهم، لأن الأولوية هي لابنتي.

لم تردّ عليّ.

"أنتِ لا تفعلين ذلك بسبب العلامات، أليس كذلك؟"

"لا، لا. كانت علاماتي على ما يرام".

"إذاً تستطيعين تحويل أرصدتك الدراسية. نستطيع..."

"أريد الذهاب إلى **أوروبا**".

"أوروبا؟"

"أعني إلى إيطاليا".

"إيطاليا؟"

لم يصعب عليّ معرفة السبب.

"هل هو المكان الذي سيلعب فيه **ماكس**؟"

ردّت بلهجة دفاعية: "أجل، وإذاً؟"

"وإذاً؟"

"سيتقاضى مبلغاً من المال أكثر بكثير مما يدفع له فريق **الهورنيت**".

لم أقل شيئاً.

"وسيعطونه منـــزلاً".

لم أعلّق بشيء.

"وسيارة **فيراري**".

لم أقل شيئاً.

"هذا وسيعفى من الضرائب". أصبحت لهجتها أكثر هجومية.

"إنهـــا أخبار رائعة عن **ماكس** يا **كاتي**. إنه يمارس الرياضة التي يحبها، ويحصل على أجرٍ كبيرٍ مقابل ذلك. ماذا بشأنكِ أنتِ؟"

"يريدني **ماكس** أن آتي معه".

"يبلغ **ماكس** الرابعة والعشرين من العمر، ويحمل شهادةً جامعيةً. أما أنت فتبلغين التاسعة عشرة، لم تنهي سوى عامٍ جامعيٍّ واحدٍ".

أحسّت بالانـزعاج في صوتي.

"تزوجتِ أنت عندما كنتِ في التاسعة عشرة من عمرك".

"تزوجت؟" أَحسستُ بتوترٍ في معدتي.

"حسناً، لقد تزوجتُ فعلاً".

كانت محقة في كلامها هذا. توقفتُ عن الرد من شدة قلقي عليها، لكنني أدركتُ أنني عاجزة عن فعل أي شيء.

"سبق أن قلتُ لكِ إننا لن نتزوج".

جلسنا بصمتٍ مطبقٍ، هي في **شارلوت** وأنا في **مونتريال**، لمدةٍ حسبناها دهراً من الزمن.

"هل ستفكرين بالمجيء إلى هنا يا **كاتي**؟"

"حسناً".

"عديني أن لا تفعلي شيئاً قبل أن تتحدثي معي".

مرّت فترة صمت أخرى.

"كاتي؟"

"نعم أمي".

"أنا أحبك يا عزيزتي".

"أحبك أنا أيضاً".

"بلّغي سلامي إلى والدك".

"حسناً، سأفعل".

أنهيتُ الاتصال بيد مرتجفة. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ أدركتُ أنّ فهمَ العظام أسهل بكثير من فهم الأولاد. حضّرتُ كوباً من القهوة، ثم عدتُ إلى الهاتف.

"دكتور كالفرت من فضلك".

"هل لي أن أسأل من المتصل؟" أخبرتها. "انتظري دقيقة من فضلك". وضعتني في حالة انتظار.

"كيف حالك يا **تمب**؟ أنتِ تمضين وقتاً على الهاتف وكأنك مندوبة مبيعات MCI. يــصعب على المرء إيجادكِ في المكتب". تجاهل الرجل فترات عملي النهارية والمسائية.

صحتُ به: "أنا آسفة يا **آرون**. تعتزم ابنتي ترك الدراسة، والهرب مع لاعب كرة سلة".

"هل يستطيع اللعب على يساره، أو تنفيذ تسديدة ثلاثية النقاط؟"

"أعتقد ذلك".

"إذاً دعيها تذهب".

"يا للغرابة!"

"لــيس الأمــر مــستغرباً بالنسبة إلى شخصٍ يستطيع اللعب إلى يساره، أو التسديد من خارج القوس الدائري. إنه مثل المال الذي يودَع في المصرف".

"لدي حالة تقطيع أطراف أخرى يا **آرون**". سبق لي أن اتصلت **بآرون** مرات عديدة من قبل كي أخبره عن القضايا التي أعمل عليها. اعتدنا على تبادل الأفكار في ما بيننا.

سمعتُه يقهقه: "لعلك لا تمتلكين بنادق، لكنك تحبين التقطيع فعلاً".

"أجل. أعتقد أنّ هذا المريض عقلياً قد قطّع عدة ضحايا. اختارهنّ جميعاً من النــساء، وفي مــا عــدا ذلك ليس لدينا أي رابط بين هذه الجرائم عدا عن آثار التقطيع. أعتقد أنّ هذه الجرائم هامة".

"هل هي تسلسلية، أم جماعية؟"

"إنها تسلسلية".

فكّر في ما قلته لبرهة: "إذاً أخبريني".

وصفتُ له الحزوز ونهايات التقطيع التي ظهرت على عظام الذراعين. قاطعني **آرون** مرات عديدة كي يطرح أسئلته، أو ليجعلني أبطئ من سرعة سردي. تخيلتُه وهو يدوّن ملاحظاته، وتصورتُ جسده الطويل والنحيل منكباً على ورقة تافهة أو مــرمية، وباحثاً عن أي فراغٍ فيها مهما كان صغيراً. يبدو الرجل في التسعين من عمــره بسبب وجهه المتجهم والداكن، وعينيه اللتين تشبهان عيون الهنود الحمر، رغم أنه لم يتجاوز الثانية والأربعين من العمر. ظل دائماً على هذه الحال، كما أنّ

إبداعـــه كان محدوداً كما هي حال صحراء **غوبي**، لكن حجم قلبه يقارب حجم هذه الصحراء.

سألني بكل جدية: "هل وجدتِ الكثير من بدايات النشر الزائفة؟"

"كلا. إنها بالغة السطحية".

"هل الخطوط المتوافقة واضحة؟"

"إنها واضحة جداً".

"هل وجدتِ انحرافاً للنصل في الحزوز؟"

"آه. ها. نعم".

"هل أنتِ واثقة من قياسات المسافة بين الأسنان؟"

"أجـــل. إنّ الخـــدوش متمايـــزة في أماكن عديدة، وكذلك وجدتُ بعض الأماكن المنعزلة".

"ولولاها لكانت المسطحات مستوية جداً".

"نعم. يتّضح هذا كثيراً في البصمات".

تمـــتم، وكأنـــه يـــتحدث مع نفسه أكثر مما يتحدث معي: "هل من نهاياتٍ لعمليات القطع".

"وجدتُ الكثير منها".

مرّت فترة صمت طويلة استغلها الرجل كي يستوعب المعلومات التي أعطيته إياهـــا لتوي ويرتّب الاحتمالات في ذهنه. راقبتُ بعض الأشخاص الذين مرّوا من أمـــام باب مكتبي، وسمعتُ رنين أجهزة الهاتف، كما عادت الحيوية إلى الطابعات لفترةٍ قبل أن تستكين ثانية. استدرتُ في مقعدي وحدّقتُ في المنظر خارج مكتبي. سارت صفوف السيارات عبر جسر **جاك - كارتييه**، وشاهدتُ من بينها سيارات **التويوتا والفورد** الصغيرة الحجم. بدأت الدقائق تمرّ في النهاية.

"أشـــعر وكأنني آخر من يعلم هنا يا **تمب**. لا أعرف كيف تحملينني على فعل هذا، لكن ها أنا هنا".

استدرتُ ثانيةً، وأسندتُ مرفقيّ على طاولة مكتبي.

"أراهـــن أنه ليس منشاراً آلياً. يبدو أنه منشار يدوي متخصص، ولعله منشار مطبخ من نوعٍ ما".

أجـــل! صفعتُ يدي على سطح الطاولة، ورفعتُ قبضةً مطبقةً، ثم أنـــزلتُها بحدّة مثلما يفعل مهندس يستخدم صفّارته. تابعت الأوراق الزهرية اللون ارتفاعها، ثم ما لبثت أن بدأت بالانسياب إلى الأسفل.

تابـــع **آرون** حديثه رغم رد فعلي: "تبدو الحزوز كبيرةً جداً لتكون ناتجة عن منـــشارٍ قوســـيٍّ ذي أسنان دقيقة، أو سكّينٍ مسننة. يبدو أنّ هناك الكثير من آثار الأسنانٍ. أشكُّ، مع وجود كلٍ أشكال المنخفضات هذه، في أنك تتحدثين عن أي نـــوعٍ من المقاطع العرضية. إذاً لا بد من أنّ إزميلاً قد استُخدم. أعتقد انطلاقاً مما شاهدته أنّ الأداة المستخدمة هي سكين مطبخ، أو منشارٌ يُستخدم من أجل تقطيع اللحم".

"وكيف تبدو هذه الأداة؟"

"إنها نوع من مناشير الحديد الكبيرة، ذات الأسنان المتباعدة كي لا تعلق أثناء عملـــية النشر. هذا هو سبب وجود الكثير من الأماكن المنعزلة التي يمكن وصفها بـــبدايات نشرٍ زائفة. تتواجد عادةً الكثير من الانحرافات، لكن النصل يحفر خلال العظم بسهولةٍ، وتكوّن الحزوز نظيفة وواضحة تماماً. إنها مناشير صغيرة وفعالة. إنها تقطع من خلال العظام، والغضاريف، والأربطة، وأي شيء آخر".

"هل هناك أمورٌ تتوافق مع هذا النمط".

"حـــسناً. هـــناك دائماً احتمال بوجود أمور لا تتناسب مع النمط المعتاد. لا تـــستطيع هـــذه المناشير قراءة الكتب كما تعرفين، لكنني لا أستطيع التفكير الآن، وبشكل مرتجل، بشيء يتطابق مع كل ما أخبرتني إياه".

"أنـــتَ رائعٌ! وهذا هو بالضبط ما كنت أفكّر فيه، لكنني أردتُ سماعه منك. **آرون**، لا أستطيع أن أعبّر لك عن مقدار تقديري لك في تقديمك هذه الخدمة لي".

"آه".

"هل تريد رؤية الصور والآثار؟"

"بالتأكيد".

"سأرسلها لك غداً".

تمثّل المناشير الولع الثاني في الأهمية عند **آرون**. أقدم الرجل على تصنيف كل الأوصـــاف المكـــتوبة والمصورة للميزات التي تتركها المناشير المعروفة على العظام،

كما أنه أمضى ساعاتٍ طويلةً منكباً على دراسة الحالات التي تُرسل إلى مختبره من كل أنحاء العالم.

استنتجتُ من حركة تنفسه أنه يمتلك المزيد ليقوله. جمعتُ بعض الأوراق الزهرية اللون أثناء انتظاري له كي يُكمل حديثه.

"هل قلتِ إنّ العظام الوحيدة والمقطوعة بالكامل هي عظام الأذرع السفلية؟"

"أجل".

"ووصلت عملية القطع إلى العظام في الأطراف الأخرى؟"

"أجل".

"وهل كانت مفصولة بشكلٍ دقيقٍ؟"

"كانت في غاية الدقة".

"همم".

توقفتُ عن جمع المزيد من الأوراق الزهرية اللون: "ماذا؟"

قال ببراءة: "ماذا؟"

"عندما تقول **همم** بهذه الطريقة فإنها تعني شيئاً ما".

"لعله ترابطٌ مثير للاهتمام".

"والذي هو؟"

"يستخدم الرجل منشار طهاة، وهو يشرع بتقطيع الجثة كما لو أنه يعرف ماذا يفعل. إنه يعرف أماكن تواجد العظام وكيفية الوصول إليها، ويقوم بهذا العمل بنفس الطريقة في كل مرة".

"أجل. لقد فكّرتُ في هذا".

مرّت عدة ثوان.

"إنه ينزع الأيدي نزعاً. ماذا تقول في ذلك؟"

"يوجّه هذا السؤال **يا دكتورة برينان** إلى عالم نفسٍ، وليس إلى رجلٍ يختص بالمناشير".

وافقتُه رأيه، لذلك غيّرتُ الموضوع: "كيف هي حال الفتيات؟"

بقي **آرون** من دون زواج، ولم يسبق لي أن رأيتُه مع فتاة على مدى الأعوام العشرين التي عرفته خلالها. تُعتبر الخيل أولى اهتماماته. إذ يُتابع الرجل سباقات

الخـــيل أينما كانت، سواء في **تولسا**، أو في **شيكاغو**، أو **لويزفيل**، أو **أوكلاهوما سيتي**.

"إنها مثيرةٌ جداً. حصلت على حصان في الخريف الماضي. تتصرف السيدات (المهور) وكأنها في سنتها الأولى منذ ذلك الحين".

تبادلـــنا أخـــبارنا الحياتية، وأخبار أصدقائنا المشتركين. اتفقنا على اللقاء في اجتماع الأكاديمية الذي يُعقد في شباط المقبل.

"حسناً، لعل حسن الحظ هو الذي سيوقع بهذا الرجل يا **تمب**".

"شكراً".

أشـــارت عقـــارب ســـاعتي إلى الرابعة والدقيقة الأربعين. سكنت المكاتب والأروقة من حولي مجدداً، ولهذا أجفلْتُ عند سماعي رنين الهاتف.

هل حدث ذلك نتيجة إفراطي في شرب القهوة؟

لاحظتُ، عندما أجبت، أن السمّاعة ما تزال دافئة إزاء أذني.

"رأيتكِ الليلة الماضية".

"غابي؟"

"لا تفعلي ذلك مجدداً يا **تمب**".

"أين أنتِ يا **غابي**؟"

"إنك تزيدين الأمور سوءاً".

"اللعنة، لا تعبثي معي هكذا يا **غابي**! أين أنتِ؟ وماذا يجري؟"

"لا تهتمي لذلك. لا أستطيع رؤيتكِ في هذا الوقت".

لم أستطعِ التصديق بأنها تفعل هذا مجدداً. شعرتُ بالغضب الشديد يتصاعد في صدري.

"ابقَي بعيدةً عني يا **تمب**. ابقَي بعيدةً عن..."

أعـــادت وقاحة **غابي** الأنانية إشعال غضبي الذي لم يكد يهدأ. انطلق غضبي هذا مع الغرور الذي يتميّز به **كلوديل**، والوحشية التي يتميّز بها ذلك القاتل المريض نفـــسياً، بالإضافة إلى مغامرات المراهقة عند **كاتي**. انفجرت نيران غضبي فغمرت **غابي** في طريقها.

أمسكتُ بسماعة الهاتف بشدةٍ كادت تكسر المادة البلاستيكية التي تحتويها،

وصرختُ فيها: "من تظنين نفسكِ بحق الجحيم؟"

"حسناً، سأتركك وشأنكِ! سأتركك وشأنكِ! لا أدري ما هي لعبتكِ القذرة التافهة التي تلعبينها يا **غابي**؟ لكنني سأتركك! سأتركك! انتهت اللعبة، وانتهى معها كل شيء! لا أستطيع احتمال ازدواجية شخصيتكِ بعد الآن! ولا أحتمل ذعركِ! ولن ألعب، وأكرّر لن ألعب، لعبة **المنتقم المقنّع** لفتياتكِ وسط كل هذه الكآبة!"

توتر كل عصبون في جسمي، كما يحدث عندما تضع جهازاً كهربائياً يتحمّل 110 فولت في مقبس يحمل قوة 220 فولت. راح صدري يعلو ويهبط، كما تمكنتُ من الإحساس بالدموع وراء عينيّ. إنه المزاج الذي تشعرين به يا **تمب**.

قطعت **غابي** الاتصال، فتناهت إلى مسامعي نغمة الخط الهاتفي.

جلستُ فترةً من الزمن، ومن دون أن أفكّر بشيء. شعرتُ بدوخة في رأسي.

وضعتُ، ببطء، سماعة الهاتف. أغمضتُ عينيّ، وسمعتُ حفيفاً الأوراق، ثم اتخذتُ قراراً. أخذتُ أدندن بصوتٍ مبحوحٍ نغمة:

هوجمت بقوة في باتون روج...

21

راحت قطرات المطر تنقر على زجاج نوافذ شقتي بثبات عند الساعة السادسة صباحاً. وأحدثت السيارات التي انطلقت في جولاتها الصباحية الباكرة أصواتاً ناعمةً. تمكنتُ من رؤية انبلاج فجر يوم جديد للمرة الثالثة خلال أيامٍ معدودات، وهي مناسبةٌ أحتفل بها بالحماسة ذاتها التي يغتنم بها **جو مونتانا** فرصة هجومٍ كاسحٍ. لا أستطيع الزعم أنني من النوع الذي ينام أثناء النهار، لكنني لست من بين الذين ينهضون باكراً. تمكّنتُ من رؤية شروق الشمس ثلاث مرات هذا الأسبوع. حدث ذلك لمرتين وأنا أوشك على الاستسلام للنوم، أما المرة الثالثة فحدثت اليوم عندما نهضتُ بعد أن أمضيتُ إحدى عشرة ساعةً في السرير. لم أشعر بالنعاس، ولا بالراحة أيضاً.

توجهتُ إلى المنزل بعد أن تلقيتُ مكالمة **غابي**، ثم خرجتُ كي أتناول العشاء. تألف عشائي هذه المرة من دجاجة مشوية، وبطاطا مهروسة أعيد تشبيعها بالمياه، وبعض المرق المصنّع، وحساء مع كوز الذرة، بالإضافة إلى فطيرة تفاح منقوعة. شكراً، أيها **الكولونيل**. أتبعتُ العشاء بحمامٍ ساخنٍ، كما انشغلتُ بتنظيف الخدوش في خدّي الأيمن. لم تفدني هذه الجراحة التجميلية البسيطة التي أجريتها، لأنني ما زلت أبدو وكأن أحداً أقدم على جرّي. شاهدتُ عند السابعة الألعاب الدولية، ثم غفوتُ أثناء مشاهدتي المباريات.

شغّلتُ جهاز الكمبيوتر. لا فرق إن كانت الساعة السادسة صباحاً، أم السادسة من بعد الظهر، فهذا الجهاز يبقى مستعداً للعمل على الدوام. بعثتُ

برسالة إلى **كاتي** عبر نظام البريد الإلكتروني في **ماك جيل** تصل إلى عنواني في جامعة **كارولاينا الشمالية – شارلوت**. تستطيع **كاتي** الوصول إلى هذه الرسالة بواسطة جهاز الكمبيوتر المحمول والمودم، ولذلك فهي تستطيع الرد من غرفة نومها. **ياهوو!** لماذا لا يستفيد الجميع من الإنترنت؟

ومض المؤشر في وجهي، وأصرّ على عدم وجود شيء في الملف الذي أنشأته. كان على حق، لأن الجدول الذي بدأته على الورق اشتمل على عناوين الأعمدة فقط، ولم يشتمل على أي محتويات. متى بدأتُ في تكوين هذا الجدول؟ حدث ذلك في يوم التظاهرة، أي قبل أسبوع واحد فقط، لكن هذا الأسبوع بدا وكأنه أعوام عديدة. مضى ثلاثون يوماً، أي أربعة أسابيع، منذ اليوم الذي اكتُشفت فيه جثة **إيزابيل غاغنون**، كما مرّ أسبوع واحد على جريمة قتل **مارغريت آدكينز**.

ماذا أنجزنا منذ ذلك الوقت في ما عدا اكتشاف جثة أخرى؟ أسفرت حملة تفتيش قامت بها الشرطة في شقة تقع في **شارع برغر** عن التأكد من أنّ شاغلتها لم تعُدْ إليها. يا للمفاجأة الكبيرة! لم تُسفر الحملة عن الكشف عن أي أمر مفيد، كما لم تتوفر لدينا أي أدلة عن هوية رجال **سان جاك** الكثيرين، بالإضافة إلى عدم تمكننا من تحديد هوية آخر جثة مكتشفة. ولم يتوصل **كلوديل** بعد إلى ملاحظة الترابط الموجود بين هذه القضايا. واعتبرني **رايان** مجرد **هاوية**. يا ليومي السعيد!

عدتُ إلى الجدول. وسّعتُ المساحة المخصصة للأعمدة. اشتملت العناوين على **الصفات الجسدية. الموقع. ترتيبات السكن. الوظائف. الأصدقاء. أفراد العائلة. تواريخ الولادة. تواريخ الاكتشاف. الأوقات. الأماكن**. أدخلتُ كل المعطيات التي فكّرت فيها، والتي يُحتمل أن تشكّل رابطاً. أدخلت في أقصى اليسار أربعة عناوين أفقية: **آدكينز، غاغنون، تروتييه، و*مجهول***. سأستبدل تسمية **مجهول** بالاسم الذي سأتوصل إليه بعد انتهائي من العظام التي اكتُشفت في **سان لامبرت**. أقفلتُ الملف عند السابعة والنصف، ووضعت الكمبيوتر المحمول في حقيبته، ثم تحضّرتُ للانطلاق إلى العمل.

تميّزت حركة السير بالازدحام لذلك فضّلت المرور عبر نفق **فيل – ماري**. احتلت الغيوم صفحة السماء فأصبح جو المدينة داكناً مع أنّ الصباح أعلن عن

قدومـــه. لاحظتُ أنّ الشوارع مغطاة بلمعان جرّاء الرطوبة، لذلك عكست أنوار فرامل السيارات في ساعة الازدحام الصباحية هذه.

أحـــدثت مسّاحتا الزجاج الأمامي إيقاعاً رتيباً، ورسمتا عليه رقعتين من المياه بـــشكل مروحتين. انحنيتُ إلى الأمام ورحتُ أحرّك رأسي مثل سلحفاة مخدرة كي أبحـــث عـــن بقعة صافية بين المياه المنهمرة على الزجاج الأمامي. أقنعتُ نفسي أنّ الـــوقت قـــد حان كي أشتري مسّاحتين جديدتين، مع أنني لن أنفّذ هذه الخطوة. استغرقني الأمر نصف ساعة كي أصل إلى المختبرات.

أردتُ الحصول على الملفات المناسبة، واستخراج دقائق التفاصيل، كي أدخلها في الجدول الذي أعددته على جهاز الكمبيوتر، لكنني وجدتُ طلبين على طاولتي. وُجـــد طفل صغير في متنـــزه بلدي، وكانت جثته الصغيرة محشورة بين الصخور المحـــيطة بمجرى نهر. تقول ورقة ملاحظات **لامانش** إنّ أنسجة الجثة كانت جافة، كما أنّ الأعضاء الداخلية كانت مشوهة ولا يمكن التعرّف عليها، لكن في ما عدا ذلـــك كانت الجثة محفوظة جيداً. أراد الحصول على رأيي في ما يتعلق بعمر ذلك الرضيع. لن يستغرقني هذا وقتاً طويلاً.

ألقـــيتُ نظـــرة على تقرير الشرطة المرفق بالنموذج الآخر. ***عظامٌ وُجدت في الغابـــات***. إنهـــا أكثر القضايا التي أعمل عليها. تحتمل هذه القضايا أن تكون أي شيء: من جريمة قتل باستخدام فؤوسٍ متعددة، أو أن تكون هرةً ميتة.

اتـــصلتُ **بدينيـــز** وطلبتُ منه إحضارَ صور الأشعة للرضيع، ثم نـــزلتُ إلى الطابـــق الـــسفلي كي ألقي نظرةً على العظام. أحضرت **ليزا** صندوقاً كرتونياً من المشرحة ووضعتهُ على الطاولة.

"هل هي كل العظام؟"

"هذه هي كل العظام".

ناولـــتني قفّازين، ثم أحضرت كميةً من الطين الصلب من الصندوق. برزت العظام من هذه الكتلة. حاولتُ أن أجسّ التراب، لكنه كان قاسياً مثل الإسمنت.

"دعـــونا نلقـــي نظرة على الصور وصور الأشعة، ثم نضع هذه الأخيرة فوق الـــشاشة ونغطـــسها بعـــد ذلك. استخدمي قواطع كي تبقى كل أجزاء العظام منفصلة. سأعود بعد نهاية الاجتماع".

يجتمع الأطباء الأربعة الأخصائيون بالأمراض، الذين يعملون في **مختبرات الطب الشرعي**، مع **لامانش** كل صباح من أجل مراجعة الحالات، وتسلّم مهمات التشريح. اعتدتُ على المشاركة في هذه الاجتماعات عندما أكون موجودة. وجدتُ، عند صعودي إلى الطابق العلوي، **لامانش، وناتالي آيرز، وجان بيليتييه، ومارك بيرغيرون**، متحلقين حول طاولة الاجتماعات الصغيرة الموجودة في مكتب **لامانش**. عرفتُ من لوحة النشاطات الموجودة في الرواق أنّ **مارسيل مورين** موجودة في المحكمة، وأن **إميلي سانتانجيلو** قد أخذت يوم عطلة شخصية لها.

تحرك الجّميع في مقاعدهم كي يفسحوا المجال لي، ثم قدموا لي كرسياً. تبادلنا تحيات الصباح المعتادة.

سألتُ: "**مارك**، لماذا أنت هنا، واليوم هو يوم خميس؟"

"إنّ يوم غد هو يوم عطلة".

نسيتُ تماماً أمر ذكرى كندا.

سألني **بيليتييه** من دون أن تظهر أي تعابير على ملامح وجهه: "هل ستشاركين في الاستعراض؟" تحمل لغته الفرنسية لهجة ريف **كيبيك**، وهو الأمر الذي صعّب عليّ كثيراً فهم كلماته. بقيتُ أشهراً عديدة من دون أن أفهم كلماته بالمرة، ولذلك لم أنتبه لتعليقاته الساخرة. تمكنتُ بعد مرور أربعة أعوام من فهم معظم ما يقوله. و لم أجد صعوبةً هذا الصباح في فهم مغزى تعليقه.

"أعتقد أنني لن أشارك في هذا الاستعراض".

"تستطيعين طلاء وجهك في إحدى المقصورات. سيكون الأمر أسهل بكثير".

ترددت القهقهات من حولي.

"أو لعلكِ ستضعين وشماً، لأنه قد يكون أسهل بكثير".

"إنه أمرٌ مَسلٍ جداً".

تظاهرتُ بالبراءة، ورفعتُ حاجبيّ، وكتفيّ، وراحتَي يديّ. ماذا يحدث؟ استرخى الرجل في مقعده، وأمسكت أصابعه الصفراء بشدة بسيجارته الخالية من المرشح، والتي لم يتبقَ منها سوى خمسة سنتمترات، ثم استنشق بعمق. سبق لأحدهم أن أخبرني ذات يوم أنّ **بيليتييه** لم يرتحل خارج **مقاطعة كيبيك** أبداً، وهو الذي بلغ الرابعة والستين من عمره.

بـــدأ **لامانش** الحديث أثناء توزيعه لائحة الحالات لذلك اليوم: "لدينا ثلاث حالات فقط تستدعي التشريح".

مـــدّ **بيليتييه** يده كي يتناول ورقته، وراحت أسنانه الصناعية تطقطق عندما تكلّم: "إنه الهدوء الذي يسبق يوم العطلة. سنكون أكثر انشغالاً بعدها".

أمـــسك **لامـــانش** قلمه المؤشّر: "أجل، وعلى الأقل هناك برودة الطقس التي أظن أنها أمرٌ مساعدٌ لنا".

بـــدأ بسرد برنامج ذلك اليوم المحزن، وزوّدنا بتفاصيل إضافية عن كل حالة. تحـــدث عن حالة انتحار بغاز أول أوكسيد الكربون، وعن رجلٍ عجوزٍ وُجد ميتاً في سريره، وأخيراً عن طفلٍ رضيعٍ أُلقي به في متنـــزه.

قلّـــب **لامانش** أوراق تقرير الشرطة: "تبدو حالة الانتحار واضحة. إنه ذكر أبيض... يبلغ السابعة والعشرين من عمره... وُجد في سيارته المركونة في مرآبه... كان خزّان الوقود خالياً، ومفتاح المحرّك في مكانه، وفي وضع ***شغّل***.

وضـــع الـــرجل عدة صورٍ فورية على الطاولة. أظهرت الصور سيارة **فورد** بلونها الأزرق. ظهرت السيارة وسط مرآب يتسع لسيارةٍ واحدة. ظهر أيضاً أنبوب متحـــرك ومـــرِن، ومن النوع الذي يُستخدم في نشّافات الثياب، معلّقاً في أنبوب العادم ويصل حتى نافذة السيارة الخلفية اليمنى. تابع **لامانش** قراءته للتقرير.

نظـــر إلى **ناتـــالي**: "يمتلك الرجل سجلاً من الاكتئاب... وُجدت معه رسالة وداع". نظر إلى **ناتالي**: **"دكتورة آيرز؟"**

أومـــأت، ثم تناولت الأوراق. أشار **لامانش** بكلمة **آيرز** بالحبر الأحمر على اللائحة الأساسية، ثم تناول المجموعة التالية من النماذج.

"الحالـــة رقـــم 26742 هـــو ذكر أبيض... العمر سبعة وثمانون عاماً... داء السكري تحت السيطرة". قرأ خلاصة التقرير بعينيه قارئاً المعطيات ذات الصلة. "لم يُـــشاهد لأيـــام عديدة... وجدته شقيقته... لا توجد علامات تدل على تعرضه لـــضربةٍ ما". تابع القراءة لنفسه لثوانٍ قليلة. "الأمر المستغرب هو وجود فترة تأخير مـــا بـــين الـــوقت الذي وجدَته فيه شقيقته، وبين وقت طلبها المساعدة. يبدو أنّ السيدة قد أنهت بعض أعمال التنظيف المنـــزلية في هذا الوقت". رفع رأسه قليلاً: **"دكتور بيليتييه؟"**

هــزّ **بيليتيــيه** كتفــيه، ومدّ يده. وضع **لامانش** كلمة **بيليتييه** مختصرة على لائحــته، ثم ناولــه النماذج. أُرفقت النماذج بكيسٍ مليءٍ بوصفات طبية، وأدوية أخــرى لا تحتاج إلى وصفات. تناول **بيليتييه** هذه الأغراض، وردّ بلباقة، لكنني لم أفهم ما قاله.

تحــوّل انتباهي نحو كدسة الصور الفورية التي أُرفقت مع أوراق حالة الطفل. أُخــذت الصور من زوايا متعددة أظهرت جدولاً ضحلاً. استلقت جثة صغيرة بين الصخور، وبدت العضلات الصغيرة منكمشة، أما جلده فبدا شاحباً مثل قطعة جلد قديمــة. طافت خصلة شعرٍ صغيرةٍ حول رأسه، بينما أحاطت خصلةٌ أخرى بجفنيهً الــزرقَاوين الــشاحبين. ظَهــرتً أصابع الطفل مبسوطة ومنفرجة، وكأنه يطلب الــنجدة، أو كأنه يبحث عن شيء كي يتعلّق به. كان عارياً، وظهر نصفه داخل الكــيس مــن النايلون الأخضر الداكن، ونصفه خارج الكيس. بدا الطفل وكأنه فرعونٌ مصغّر، لكنه مكشوفٌ ومتروك. يا الله، كم أصبحتُ أكره الأكياس بشدة!

عــدتُ كــي أتفحّــص الصور المنشورة على الطاولة. وأصغيتُ جيداً إلى **لامــانش**. فرغ الرجل لتوّه من سرد ملخصه، وبدأ بكتابة كلمة **لامانش** مختصرة علــى الجدول الأساسي. سيُجري الرجل هذا التشريح بنفسه، وسأقوم أنا بمحاولة تــضييق مجال العمر عن طريق إجراء تقييمٍ لتطوّر نمو العظام. سيحاول **بيرغيرون** بــدوره إجراء تقييمٍ للأسنان. أومأ جميع الجالسين. انتهى الاجتماع بعد ان انتهت مواضيع النقاش.

أحــضرتُ كوب قهوة لنفسي، وعدتُ إلى مكتبي. وجدتُ على طاولتي مظــروفاً بنــياً كــبير الحجم. فتحتُه، وتناولتُ أولى صور الأشعة التي أُخذت للطفــل، ووضــعتُها أمــام لوحة الضوء. سحبتُ نموذجاً من الدُرْج وبدأتُ فحــصي. وجدتُ رسغين فقط في كل يد. لم أجد أي أغطية في نهايات عظام الأصــابع. نظرتُ إلى أسفل الذراعين. لم أجد أي غطاء على عظمتَي الكعبرة. انتهــيتُ من فحص القسم الأعلى من الجثة. وضعتُ لائحةً على جدول جردة العناصــر العظمية الموجودة، ودوّنتُ ملاحظات حول تلك التي لم تتكوّن بعد. فعلــتُ الــشيء ذاته للجزء السفلي من الجثة. وتنقلتُ ما بين فيلم وفيلم كي أتأكد من دقة ملاحظاتي. بردت قهوتي.

وُلـــد ذلك الطفل بهيكلٍ عظميٍّ غير مكتمل. لاحظتُ أنّ بعض العظام، مثل رســـغي الـــيدين كانت غير متكونة منذ الولادة، وكان من المفترض أن تظهر بعد أشهر، أو حتى أعوام. افتقدت بعض العظام الأخرى إلى المقابض والحواف التي من شأنها أن تعطي هذه العظام شكلها النهائي. تظهر الأجزاء المفقودة في تتابع متوقع، وهو الأمر الذي يسمح بإعطاء تقديرات دقيقة بالنسبة للأطفال حديثي الولادة. لم يعش هذا الطفل الرضيع أكثر من سبعة أشهر.

دوّنـــتُ ملخصاً لكل استنتاجاتي على نموذج آخر، ووضعتُ كل الأوراق في مظـــروف ملفـــات أصفر اللون، ثم وضعتُه فوق كدسة الأوراق المنتهية الأخرى. ستعود هذه الأوراق إليّ مرفقة بتقرير مطبوع بحسب الطريقة التي أفضلها، ومرفقة بكل الرسومات ووسائل الإيضاح. تُطبع هذه الأوراق على نسختين وترتب جيداً. ستفيدني هذه الأوراق في صقل لغتي الفرنسية. قدّمتُ تقريراً شفهياً إلى **لامانش** ثم انتقلتُ إلى أوراقي الأخرى.

لم تتغير صلابة التراب كثيراً، لكنه لانَ بما يسمح لي بتفحص محتوياته. مرّت خمـــس عشرة دقيقة على هذه الأحجية: ثماني فقرات، وسبع شظايا عظمية طويلة، بالإضـــافة إلى ثـــلاث شظايا من الحوض. أظهرت كلها دلائل على وجود عملية تقطـــيع. أمضيتُ ثلاثين دقيقة في غسل هذه الفوضى وتنظيمها، ثم نظفتُ المكان ودوّنـــتُ عدة ملاحظات. طلبتُ من **ليزا**، عندما توجهت إلى الطابق العلوي، أن تـــصوّر أجـــزاء العظام للضحايا الثلاث: غزالان من ذوي الذيل الأبيض، وكلبٌ متوسط الحجم. ملأتُ نموذج تقرير آخر، ووضعتُ مظروفه فوق التقارير السابقة. إنها حالةٌ غريبةٌ، لكنها ليست مشكلةً جنائيةً.

تـــركت **لوسي** رسالةً على طاولتي، لذلك قصدتُها في مكتبها. وجدتُها وقد أدارت ظهـــرها للـــباب، وراحت تنقّل نظرها ما بين شاشة الكمبيوتر، والملف. أخـــذت تطبع بيد، بينما وضعت اليد الثانية في الملف كي تحافظ على المكان الذي وصلت إليه، وراحت سبابتها تتحرك ببطء بين سطر وسطر.

قلتُ: "استلمتُ مذكرتكِ".

رفعت إصبعها، وطبعت عدة أحرفٍ أخرى، ثم وضعت مسطرةً فوق الملف. استدارت، واندفعت بحركةٍ واحدةٍ ثم تقدمت نحو طاولتها.

"تمكنتُ من الحصول على ما طلبتِه مني. تقريباً".

فتّشت في كدسة من الورق، ثم انتقلت إلى كدسة أخرى، ثم ما لبثت أن عادت إلى الأولى. سحبت أخيراً رزمةً صغيرةً من الأوراق مدبسةً من طرفها، وقلّبت عدة صفحات، ثم أعطتني المجموعة.

"لم أجد شيئاً قبل عام 1988".

قلّبتُ الأوراق، وشعرتُ بالإحباط. لماذا كل هذه الحالات؟

"حاولتُ أولاً الحصول على الحالات التي تحمل كلمتها المفتاح **تقطيع**. تألفت اللائحة الأولى من هذه الحالات، وهي اللائحة الأكبر. حصلتُ على أسماء كل الأشخاص الذين ألقوا بأنفسهم أمام القطارات، أو سقطوا على ماكيناتٍ كبيرة، أي الذين قُطعت أطرافهم. لا أعتقد أنكِ تريدين هذه اللائحة".

كانت على حق. بدا أنّ هذه اللائحة تضم كل الحالات التي قُطعت فيها ذراعٌ، أو ساقٌ، أو إصبعٌ، عند الوفاة، أو في وقت قريب منها.

"جرّبتُ بعد ذلك إضافة كلمة **عمداً**، وذلكَ من أجل حصر الخيارات بالحالات التي تم التقطيع فيها عمداً".

نظرتُ إليها.

"لم أحصل على شيء".

"لا شيء بتاتاً؟"

"لكن ذلك لا يعني أنه لا وجود لمثل هذه الحالات".

"وكيف ذلك؟"

"إنني لا أُدخل هذه المعطيات. عمدنا في العامين الماضيين إلى تخصيص ميزانية خاصة من أجل استئجار عمال بدوامٍ جزئيٍّ من أجل إدخال المعطيات الماضية في الإنترنت، وفي أسرع وقت ممكن". صدرت عنها آهة ساخطة، وهزّت رأسها: "تلكأت الوزارة في مكننة معلوماتها، لكنها الآن تريد تحديث معلوماتها في أسرع وقت ممكن. يمتلك المولجون بإدخال المعطيات قواعدهم المعيارية بالنسبة للمعلومات الأساسية: **تاريخ الولادة، تاريخ الوفاة، سبب الوفاة**، وهكذا دواليك. إنهم يستصعبون أموراً غريبة، وأي أشياء لا تحدث إلا نادراً فقط، ولذلك فهم يعملون وحدهم، ويضعون قواعدهم الخاصة بهم".

"كما في حالة تقطيع الأطراف".

"صحيح، لأن أحدهم قد يسميها بتراً، ثم يأتي شخصٌ آخر ويستخدم عبارة فصل الأعضاء، لكنهم عادةً ما يستخدمون الكلمة ذاتها التي يستخدمها الأطباء في تقاريرهم. ويُحتمل أن يستخدموا عبارةً مثل **قطع**، أو **نشر**".

عدتُ كي أتفحص اللوائح، لكنني شعرتُ بالإحباط.

"جــرّبتُ كــل هذه التعابير، بالإضافة إلى بعض التعابير الأخرى. ولكن، لم أحصل على شيء".

فعلنا كل ما بوسعنا في ما يتعلق بهذه الفكرة.

"نجحــت كلمــة **تــشويه** في تكوين لائحة طويلة". انتظرتني وأنا أتفحص الصفحة الثانية. "بدت الكلمة أسوأ من كلمة **فصل الأعضاء**".

"جــرّبتُ بعــد ذلك **فصل الأعضاء** مترافقة مع تحديد كلمة **ما بعد الوفاة**، وذلــك كي أختار الحالات التي..." رفعت هنا راحتَي يديها نحو الأعلى، ورسمت حــركة تشبه الخدش مستخدمةً أصابعها، وكأنها تريد أن ترسم الكلمة في الهواء، "حدثت فيها الحالة بعد الموت".

نظرتُ إليها بأمل.

"لم أحصل إلا على اسم رجلٍ بُتر عضوه التناسلي".

"أخذ الكمبيوتر عبارتك حرفياً".

"هاه؟"

"لا تهتمي". لم أستطِع، مجدداً، تمرير نكتة.

"جــرّبتُ بعــد ذلك كلمة **تشويه،** مترافقة مع تحديد كلمة **ما بعد الوفاة،** و..." انحــنت فوق الطاولة كي تعرض أمامي آخر الأوراق المطبوعة. "**بانغو!** هل هذه هي الكلمة التي تستخدمينها؟"

"إنها كلمة **بنغو** في الواقع".

"**بــنغو!** قــد تكــون هــذه هــي القائمة التي تبحثين عنها. تستطيعين تجاهــل بعــضها، من أمثال الذين يتعاطون العقاقير غير القانونية ويستخدمون الحــوامض". أشــارت بيدها إلى عدة أسطر وضعت خطوطاً تحتها. "لعلكِ لا تريدينها".

أومأتُ بشرود، بينما استغرقتُ بتأمل الصفحة الثالثة. وردت اثنتا عشرة حالة في هذه الصفحة، ولاحظتُ أنها وضعت خطوطاً اخترقت ثلاثة أسطر منها.

"لكنني أعتقد أنّ بعضاً من الحالات الأخرى قد يهمك".

بالكـــاد سمعتُها. تنقلت عيناي بين أسطر هذه اللائحة، لكنهما تسمرتا الآن علـــى الاسم السادس الموجود أسفل الصفحة. اخترقتني وخزةٌ من عدم الارتياح. أردتُ أن أعود إلى مكتبي على الفور.

قلتُ: "**لوسي**، هذا رائع، إنه حتى أفضل مما نظرتُ إليه".

"هل وجدت شيئاً تستفيدين منه؟"

أجبتُها محاولةً أن أبدو بحالتي العادية: "أجل. أجل، أعتقد ذلك".

"أتريدين أن أحصل على تفاصيل هذه الحالات؟"

"لا. شـــكراً لك. سأتفحص هذه الحالات بنفسي. أظن أنني سأدرس الملفات الكاملة لهذه الحالات". صلّيت في داخلي كي أكون مخطئة في ظنّي.

نـــــزعت نظّارتهـــا، وبدأت بتنظيف عدستيها بطرف بلوزتها. بدا منظرها ناقصاً، وغير ملائمٍ بطريقة ما، من دونها، فظهرت مثل **جون دنفر** بعد أن تحوّل إلى استخدام العدسات اللاصقة.

عادت إلى وضع نظّارتها ذات الإطار الزهري فوق أرنبة أنفها.

"سأخبرك، بالطبع، إذا ما استجدّ شيء".

سمعتُ أثناء انصرافي صوت دواليب كرسيها وهي تنـــزلق فوق البلاط.

وضعتُ اللائحة المطبوعة فوق طاولتي، وتفحصتُها ملياً. خلتُ أن اسماً واحداً في هـــذه الورقة يحدّق بي. **فرانسين موريسيت – شامبو. فرانسين موريسيت – شامبو**. كنت قد نسيت كل شيء عن هذه الفتاة. نصحتُ نفسي أن أبقى هادئة. لا تتسرعي باستنتاجاتك.

أجـــبرتُ نفسي على تفحص ملخص الحالات الأخرى. وجدتُ اسمَي **غاغني وفالنسيا** في تلك اللائحة، وهما من مروّجي العقاقير غير القانونية، ويتميزان بجشعٍ مـــاديٍّ شديد، أي مثلما كانت **شانتال تروتييه**. لاحظتُ أيضاً وجود اسم طالبة **هندوراســـية** تـــدرس بموجب منحة دراسية. أقدم زوجها على تصويب بندقية إلى وجههـــا، ثم ضـــغط على الزناد. وضعها الرجل في السيارة بعد ذلك، ونقلها من

أوهايــو إلى **كيبيك**، ثم قطع يديها، ثم ألقى جسدها الذي كاد يفتقد إلى الرأس في متنـــزه عمومي. حفر الرجل الأحرف الأولى لاسمه على ثدييها، في خطوة وداعية على ما يبدو. لم أتذكر الحالات الأربع الأخرى، لأنها جرت قبل أن أبدأ العمل في العام 1990. توجهتُ إلى حيث توجد الملفات الأساسية وسحبتها، وسحبت أيضاً ملف حالة **موريسيت – شامبو**.

وضـــعتُ كـــل الملفـــات بحسب الأرقام التي أُعطيت لها في **مختبرات العلوم الـــشرعية**، أي بحـــسب تـــرتيبها الزمني. اعتزمتُ أن أدرس هذه الحالات بطريقة منهجية، أي بحسب ترتيبها الزمني. خرقتُ هذا القرار ما إن اتخذته، وانتقيتُ ملف **موريسيت – شامبو**. تضاعف قلقي كثيراً بعد أن قرأتُ التفاصيل.

22

ضُــربت **فرانــسين موريسيت – شامبو** وتعرضت إلى إطلاق رصاصٍ حتى الموت في شهر كانون الثاني من عام 1993. شاهدها أحد جيرانها ذات صباحٍ تقوم بنـــزهة مـــع كلـــبها عـــند الساعة العاشرة. واكتشف زوجها جثتها في مطبخ منـــزلهما. وُجد كلبها في غرفة المعيشة، لكن لم يُعثر على رأسها.

تذكرتُ تلك الحالة مع العلم بأنني لم أشارك في التحقيقات التي جرت بشأنها. اعـــتدتُ أن أحضر إلى المختبرات في ذلك الشتاء عن طريق الجو، وأقضي أسبوعاً فـــيها كل ستة أسابيع. تخاصمتُ حينها كثيراً، وباستمرار، مع **بيتي**، ولهذا وافقتُ علـــى تمضية صيف عام 1993 بأكمله في **كيبيك**، على أمل أن تساهم فترة ثلاثة أشهر من البعد في إعادة الحيوية إلى زواجنا. حسناً، ما تزال وحشية ذلك الاعتداء الـــذي وقع على **موريسيت – شامبو** تصدمني الآن كما صدمتني وقت حدوثها. أعادت صور مسرح الجريمة هذه المشاعر إلى ذهني.

رأيت نصف جثتها مستلقيةً تحت طاولة خشبية صغيرة، ولاحظت أنّ ذراعيها وســـاقيها في وضعية متباعدة. شاهدتُ ثوبها الداخلي ممدوداً بين ركبتيها. وأحاط بحـــر من الدماء بجثتها، وظهر نمط الأرضية المشمعة تحت منطقة جريانه. انتشرت البقع الداكنة على الجدران وأسطح الطاولات، وبدا أنّ قوائم كرسي مقلوب تشير إليها، وكأنها تريد أن تقول **أنت هنا**.

بدت جثّتها البيضاء وكأنها شبح إزاء الخلفية القرمزية. أحاط خط رفيع ملتوٍ فـــوق بطـــن الـــضحية. لاحظتُ وجود ما يشبه ضحكة وجهٍ سعيدٍ فوق منطقة

عانـــتها. شُـــقّت الـــضحية بدءاً من هذا الجرح وصعوداً حتى عظمة القصّ، أما أحـــشاؤها فبرزت من تلك الفتحة. لاحظتُ أنّ مقبض سكّين مطبخ كان بالكاد مـــرئياً في قمة المثلث الذي تألّف عند ساقيها. استقرت يدها اليمنى على بعد مترٍ ونـــصف منها، وبالتحديد ما بين طاولة عملها وحوض غسل الأطباق. كانت في السابعة والأربعين من عمرها.

همستُ بصوت خافت: "يا الله!"

انهمكـــتُ بتقلّـــيب أوراق تقرير التشريح عندما ظهر **شاربونيو** عند الباب. خمّـــنتُ أنّ مـــزاجه لم يكن على ما يرام. بدت عيناه محمرّتين، و لم يكترث بإلقاء التحية. دخل الرجل من دون طلب إذن، واتخذ كرسياً له مقابل طاولتي.

شعرتُ وقتياً، وأنا أراقبه، بإحساسٍ غامرٍ بالخسارة. مشيتُه المتثاقلة، وحركاته الـــتي تفتقد إلى التركيز، لكن ضخامته، وحدها، لمست وتراً حساساً عندي لطالما ظننتُ أنني تخلصتُ منه؛ أو أنه تخلّص مني، لا فرق.

رأيتُ **بيتي** قبالتي لبرهة قصيرة، وراح ذهني يرجع، مسرعاً، بالزمن إلى الوراء. تذكـــرتُ جـــسده الـــرائع الذي كان يمتلكه. لست واثقةً مما إذا كان حجمه هو السبب، أم الطريقة المسترخية التي كان يحركّ جسده فيها. أم لعل السبب يرجع إلى افتتانه بي. بدا لي وقتها أنّ هذا الافتتان حقيقي، لم أستطِع أن أشعر بالاكتفاء منه. امتلكتُ الكثير من الخيالات في ذلك الوقت، وكانت خيالات رائعة بالفعل، لكن خيالاتي هذه شملت **بيتي** منذ تلك اللحظة التي رأيته فيها واقفاً، تحت المطر، خارج مكتبة كلية القانون. أعتقد أنني أشعر الآن بلذة خيالات مثل هذه. يا الله يا **برينان!** لماذا لا تستطيعين استعادة السيطرة على ذاتك. عدتُ إلى الحاضر.

انتظرتُ **شاربونيو** كي يبدأ حديثه، لكنه كان منشغلاً بالنظر إلى يديه.

تكلّـــم بالإنكليزية هذه المرة: "يبدو زميلي وغداً في بعض الأحيان، لكنه ليس رجلاً سيئاً".

لم أردّ عليه، لكنني لاحظتُ أنّ عرض حواشي سرواله يبلغ عشرة سنتمترات، كما لاحظتُ أنها مخاطةٌ باليد، ورحتُ أتساءل عما إذا كان قد قام بالمهمة بنفسه.

"إنه... فريد في طريقة تصرفه، لكنه لا يحب التغيير".

"أجل".

لم ينظر إليّ مباشرة، لكنني شعرتُ بالقلق.

قلت كي أحثه على متابعة الحديث: "ثمّ..."

جلس مسترخياً على كرسيه، وما لبث أن دسّ ظفره في فمه، لكنه استمر بتفادي النظر إلى عينيّ. انساب صوت **روك فواسين** الناعم من أحد أجهزة الراديو في مكانٍ ما من القاعة، وهو يتغنى **بهيلين**.

"يقول إنه بصدد التقدّم بشكوى". أسدل يديه على جانبيه، وتحوّل بنظره نحو النافذة.

حاولتُ الإبقاء على الهدوء في صوتي: "شكوى؟"

"سيقدمها ضد الوزير، والمدير، و**لامانش**. وصل به الأمر إلى حدّ دراسة سجلّكِ المهني".

"وما هي الأشياء التي تجعل المسيو **كلوديل** غير سعيد هكذا". نصحتُ نفسي أن أبقى هادئة.

"يقول إنك تتعدين حدودكِ، وتتدخلين في شؤونٍ لا علاقة لكِ بها، وهكذا فإنكِ تعيقين التحقيقات التي يقوم بها". راح يحدّق في ضوءِ الشمس الساطع.

شعرتُ بتوتر عضلات معدتي، وبالحرقة تتحرّك صعوداً.

قلتُ بصوت بارد: "تابِع".

"إنه يعتقد أنكِ..." ارتبك الرجل في بحثه عن الكلمة المناسبة، ولا شك في أنه كان يبحث عن كلمة بديلة عن الكلمة التي استخدمها **كلوديل** بالفعل. "... تبالغين".

"وماذا تعني هذه الكلمة بالضبط؟"

استمر الرجل في تجنّب النظر إلى عينيّ مباشرة.

"يقول إنك تحاولين جعل قضية **غاغنون** تبدو أكبر من حقيقتها، وتتوهمين وجود أشياء غير موجودة. يقول أيضاً إنك تحاولين تحويل جريمةٍ بسيطةٍ إلى عراضةٍ نفسية".

قلت بصوت مرتعش: "ولماذا أفعل كل هذه الأمور".

"اللعنة يا **برينان!** لم أقل هذا الكلام بنفسي. لا أعرف". التقت عيناه بعينيّ للمرة الأولى. بدا الرجل تعيساً. أدركتُ أنه لا يريد التواجد في هذا المكان.

حـــدّقتُ فيه بدوري من دون أن أراه بالفعل، لكنني استغليتُ هذه الفترة من أجـــل إخماد النداء الذي تصاعد في داخلي طلباً للأدرينالين. تكوّنت عندي فكرة عـــن نوع التحقيق الذي تتسبب فيه رسالة مثل هذه، وأعرف أن هذا التحقيق لن ينـــتج عنه خيرٌ. تابعتُ بنفسي التحقيق برسائل كهذه عندما كنت أشارك في لجان التحقيق التأديبية. لم ترق لي هذه التحقيقات مطلقاً. لم ينبس أحدنا ببنت شفة.

راح جهاز الراديو يدندن: "أجّن بك عندما تفعلين هذا يا **هيلين**".

قلـــتُ في نفـــسي، لا تقتلـــي الرسول يا **بريتان**. تحولتُ ببصري نحو الملف الموجـــود فـــوق طاولتي. رأيتُ هناك دزينة صور لامعة لجثة بلون الحليب. تأملتُ الصور، ثم نظرتُ إلى **شاربونيو**. لم أرغب أن أبدأ بتفحص الصور في ذلك الوقت، ولم أشعر أنني مستعدة لرؤيتها بعد، لكن **كلوديل** كان يضغط عليّ. ما الفرق على أي حال، فالأمور لا يمكن أن تكون أسوأ.

"هل تتذكر يا مسيو شاربونيو امرأة تدعى فرانسين موريسيت - شامبو؟"

" **موريـــسيت - شـــامبو**". كرّر الاسم مرّات عديدة باحثاً عنه في ذاكرته: "كان ذلك منذ أعوام عديدة، أليس كذلك؟"

ناولـــته الصور: "حدث ذلك منذ عامين تقريباً، أي في شهر كانون الثاني من عام 1993".

بدأ يقلّب الصور، وراح يومئ علامة تذكّره إياها: "أجل، تذكرتها. ماذا إذاً؟"

"فكّر يا **شاربونيو**. ماذا تتذكر عن هذه القضية؟"

" لم نقبض أبداً على ذلك النذل الذي نفّذ تلك الجريمة".

"وماذا أيضاً؟"

"قولي، يا **بريتان**، بأنك لا تحاولين إدخال هذه الجريمة أيضاً في لائحتك".

تأمل الصوَر مجدداً، لكن إيماءاته تحولّت إلى حركة النفي.

"مـــستحيل. أُطلقـــت النار على هذه الضحية، لذلك فإنها لا تتوافق مع نمط الجرائم الأخرى".

"كانت مسنّة قليلاً. أظن أنها كانت في السابعة والأربعين من عمرها".

حدّقتُ فيه ببرودة ظاهرة.

راح يتمتم بعد أن احمرّ خدّاه: "أعني أنها كانت أكبر من الأخريات".

"غرز قاتل **موريسيت – شامبو** سكيناً في مهبلها، وجاء في تقرير الشرطة أنها نـــزفت بشدة".

أعطيته وقتاً كي يستوعب هذه المعلومات.

"كانت ما تزال حيّة عندما طعنها".

أومـــأ. لم أكن بحاجة كي أشرح له أنّ الجرح الذي يحدث بعد الوفاة يتسبب بنـــــزف أقل بكثير، وذلك بسبب توقف القلب عن الضخ، وغياب ضغط الدم، لكن **فرانسين موريسيت – شامبو** نـــزفت بغزارة.

"استُخدم تمثال معدني في حالة **مارغريت آدكينـــز**، وكانت ما تزال حيةً أيضاً".

استدرتُ إلى الخلف بصمت، وسحبتُ ملفّ **غاغنون**. تناولتُ صور مسرح الجريمة ونشرتُها أمامه. ظهر الجذع مستلقياً فوق كيس من النايلون وانتشرت فوقه ظـــلال شمس الرابعة من بعد الظهر. لم يحرّك أحد شيئاً غير أوراق الأشجار. ظهر **الغطّاس** (المطبة) في مكانه، واحتضن الجزء المطاطي منها عظام العانة، وبدا مقبضها غارزاً باتجاه رقبة الجثة المقطوعة الرأس.

"أعـــتقد أنّ قاتل **غاغنون** قد دفع ذلك **الغطّاس** داخلها بقوةٍ تكفي كي يشق المقبض طريقه من خلال بطنها، ويُكمل نحو حجابها الحاجز".

تأمل الصور لمدة طويلة.

تابعتُ الموضوع: "هناك نمط واحد يجمع الضحايا الثلاث: عملية إدخال أداة غريبة بالقوة بينما تكون الضحية ما تزال على قيد الحياة، وكذلك تشويه الجثة بعد حـــصول الـــوفاة. هـــل ذلك هو مجرد مصادفة يا **سيّد شاربونيو**؟ وكم هو عدد الساديين الذين يسرحون ويمرحون هنا يا **سيد شاربونيو؟**"

مـــرّر أصابعه من خلال الخصلة المنسدلة على جبهته، ثم راح ينقر على ذراع الكرسي الذي يجلس عليه.

"لماذا لم تخبرينا من قبل؟"

"لاحظـــتُ لتوي التشابه الذي تحمله قضية **موريسيت – شامبو** مع القضايا الأخـــرى. لم تشكّل قضيتَي **آدكينـــز وغاغنون** وحدهما دليلاً كافياً على وجود ذلك النمط من الجريمة".

"وماذا قال لكِ **رايان؟**"

"لم أخبره بعد".

مـــرّرتُ إصـــبعي عفـــوياً على خدّي. واكتشفت أنني ما زلت أبدو وكأنني تلقيتُ لكمةً فنيةً قاضيةً من **جورج فورمان**.

قال بصوتٍ متوترٍ: "اللعنة!"

"ماذا؟"

"أظن أنني أميل إلى الموافقة على ما تقولينه. سيكرهني **كلوديل** كثيراً من أجل ذلك". تابع النقر على ذراع الكرسي: "ماذا لديك بعد؟"

"تتـــشابه آثار المنشار مع نمط التقطيع، بشكل كلي تقريباً، في حالتَي **غاغنون وتروتييه**".

"أجل. أخبرنا **رايان** بذلك".

"وماذا بشأن الضحية المجهولة الهوية في **سان لامبرت**؟".

قال بعفوية: "أيوجد ضحية خامسة؟ هذا يكفي".

"إنك سريع جداً".

عاود النقر: "شكراً. هل تمكنتِ من التعرف على هويتها؟"

هززتُ رأسي بالنفي: "يعمل **رايان** على تحديد هويتها".

مـــرّر يده الثخينة فوق رأسه. لاحظتُ أنّ مفاصل يده مغطاة ببقع من الشعر الأبيض، وهي نسخ مصغرة من شعره الغزير الموجود فوق رأسه.

"إذاً ماذا تقولين عن اختيار الضحايا؟"

رفعتُ راحة يدي: "إنّ كل الضحايا هنّ من الإناث".

"عظيم. ماذا بشأن الأعمار؟"

"تتراوح أعمار الضحايا ما بين السادسة عشرة والسابعة والأربعين".

"وماذا بشأن بنيتهنّ الجسدية".

"تتفاوت هذه كثيراً".

"وماذا عن أماكن السكن؟"

"إنها تتوزع على كل الأماكن".

"إذاً مـــاذا كان هدف ذلك النذل المجنون؟ وكيف كان مظهر الضحايا؟ وما هي الأحذية التي كنّ ينتعلنها؟ والأماكن التي كنّ يتسوقن فيها؟"

اكتفيتُ بالصمت.

"هل اكتشفتِ شيئاً مشتركاً بين الضحايا الخمس؟"

"ضربهنّ أحد الأنذال ضرباً مبرحاً، ثم أقدم على قتلهن".

انحنى إلى الأمام ووضع يده على ركبتيه، ثم تأوه: "حسناً. سينفجر **كلوديل** غضباً من هذه الأخبار".

اتصلتُ **برايان** عندما غادر **شاربونيو**. لم أجده في المكتب، وكذلك الأمر مع **برتران**، وهكذا تركتُ رسالة لهما. تفحصتُ الملفات الأخرى، لكنني لم أجدها مهمة. تضمنت الملفات قضية تاجرَي عقاقير غير قانونية قتلهما أحد شركائهما السابقين، ثم قام بنشر جثتيهما. اشتملت الملفات أيضاً على قضية رجل قُتل على يد ابن شقيقه، الذي قطّعه مستخدماً منشاراً آلياً، ثم خزّنه بعد ذلك في ثلاجة الطابق السفلي في منزله. أسفر انقطاع في التيار الكهربائي عن إثارة انتباه بقية أفراد العائلة. وردت قضية أخرى تحدثت عن اكتشاف جذع فتاة في كيسٍ يُستخدم في لعبة الهوكي، أما الرأس والذراعان فوُجدا في أسفل مجرى النّهر. أُدينَ الزوج في هذه الجريمة.

أغلقتُ آخر ملف، فأدركتُ فجأة أنني جائعة. نظرتُ إلى عقارب الساعة التي أشارت إلى السّاعة 1:50. لم أستغرب شعوري بالجوع في هذه الساعة. اشتريتُ قطعة من اللحم، والجبن، وعلبة من مشروب **الكولا** المخصص للحمية، من المطعم الصغير الموجود في الطابق الثامن من المبنى. أمرتُ نفسي بأخذ فترة استراحة. تجاهلتُ هذا الأمر، وحاولتُ الاتصال **برايان** مجدداً، لكنه كان لا يزال خارج مكتبه. عدتُ إلى استراحتي، وبدأتُ بقضم شطيرتي، ثم سمحتُ لأفكاري بالانطلاق. فكّرتُ بالاتصال **بغابي**. لا. مستحيل. ماذا بشأن **كلوديل**؟ حرّمتُ على نفسي الاتصال به. أين **سان جاك**؟ وهل ما زال طليقاً؟

آه. **كاتي**. كيف سأتمكن من الاتصال بها؟ لا يمكنني ذلك في الوقت الحاضر. عدتُ بأفكاري - عفوياً - إلى **بيتي**، وما لبثتُ أن شعرت بارتباك معتاد في معدتي. هل ما زلتُ أتذكر ارتعاشة الجلد، والدماء المتدفقة في الشرايين، والدِّفء الذي شعرت به إزاءه. أجل، كنت أشعر بالإثارة حينها، وأعتقد، يا **برينان** أنكِ تشعرين بالإثارة ليس إلا. تناولتُ قضمةً أخرى من شطيرتي.

تذكّرت أيضاً **بيتي** الآخر، وعادت إلى خاطري ذكرى الليالي الغاضبة، وتلك الأوقات التي تناولتُ فيها عشائي وحيدةً. تذكرتُ أيضاً ستار الاستياء الذي خيّم علــيّ وقضى على كل أثرٍ للرغبة عندي. تناولتُ رشفةً أخرى من **كولا** الحمية. لمــاذا أستمرّ بالتفكير في **بيتي** هكذا؟ هل من فرصةٍ كي نلتقي ثانيةً... لا. شكراً **آنسة سترايسند.**

لم تفــدني جــرعة الاســترخاء في شـــيء. أعدتُ قراءة تقرير **لوسي** ثانية، وحرصتُ على ألا ألوّثه بالخردل. راجعتُ الصفحة الثالثة من التقرير، وحاولتُ أن أقرأ الأسطر التي شطبتها **لوسي**، لكن خط قلم الرصاص منعني من ذلك. أقدمتُ، وبدافــعٍ مـــن الفضول، على محو الأسطر التي خطتها، ثم قرأتُ الأسطر. اشتملت حالتان منها على جثتين حُشرتا في برميلين ثم غُمرتا بسائل حامضي. شكّلت هاتان القضيتان تطوراً هاماً في طريقة الحرق بالمواد غير القانونية التي تلاقي شعبيةً متزايدةً.

حيّرتني الحالة الثالثة. يدل رقم **مختبرات العلوم القضائية** الذي أُعطي لها على أنها حدثت في العام 1990، وأنّ **بيليتييه** كان الطبيب الذي فحصها. لم يُعيّن قاضٍ جنائيّ لهذه القضية. جاء في خانة الاسم: **سينج.** وُجدت الخانات المخصصة لتاريخ الـــولادة، وتاريخ التشريح، وسبب الوفاة، فارغةً كلها. لا بد أنّ عبارة **تقطيع/ما بعد الوفاة**، هي التي جعلت الحاسوب يُدخلها في لائحة **لوسي.**

أنهـــيتُ **الكرواســـان**، فأســـرعتُ بالعودة إلى الملفات الأساسية، وسحبتُ المظـــروف الـــذي احتوى ثلاثة أشياء: تقرير الشرطة عن الحادث، رأي الطبيب المختص والمؤلف من صفحة واحدة، ومظروف يضمّ الصور. بدأتُ أقلّب الصور، وقرأتُ التقارير، ثم مضيتُ كي أبحث عن **بيليتييه.**

قلتُ للشخص الذي أدار ظهره إلى باب مكتبه: "أريد أن أتحدث معك لدقيقة واحدة. أتسمح؟"

تراجع عن المجهر ممسكاً نظارته بيدٍ، والقلم باليد الأخرى. وضع نظارته ثنائية البؤرة، وقال يحثّني: "ادخلي، ادخلي".

يمـــتلك مكـــتبي نافذةً واسعةً، أما مكتبه فيتميز بالاتساع. مشى عبر مكتبه وأشـــار إلى كرسي من اثنين يحيطان بطاولة صغيرة تحاذي طاولة مكتبه. اتّجه نحو معطـــف مختـــبره، وتناول علبة من سجائر **دو مورييه** ثم قدّمها لي. هززتُ رأسي.

تكـــرّر هـــذا الأمر ألف مرة. يعرف الرجل أنني لا أدخّن، لكنه يصر على تقديم السجائر لي. يمتلك الرجل أسلوبه الخاص، مثل **كلوديل** تماماً.

قال لي وهو يُشعل سيجارته: "ماذا أفعل كي أساعدكِ؟"

"إنني مهتمة بشأن قضية من قضاياك القديمة. إنها تعود إلى العام 1990".

"آه، يـــا إلهي، هل أستطيع أن أتذكر قضية بهذا القدم؟ بالكاد أستطيع تذكّر عنواني الخاص في بعض الأحيان". انحنى إلى الأمام ووضع راحة يده على فمه، لكن الـــدهاء بـــدا علـــى محـــياه. "أكتبه أحياناً على علبة الكبريت، وذلك على سبيل الاحتياط".

ضحكنا سوياً: "**دكتور بيليتييه**. أعتقد أنك تتذكر كل شيء، تقريباً، ترغب بتذكره".

هزّ كتفيه ورأسه، وبدت البراءة التامة على محيّاه.

"أحـــضرتُ الملف معي على أي حال". رفعتُ الملّف إلى الأعلى، ثم فتحته. "يقول تقرير الشرطة إنّ البقايا وُجدت في كيسٍ من أكياس النادي الرياضي. وُجد الكـــيس وراء **محطة فوياجر للباصات**. فتحه **وينو** ظناً منه أنه سيعثر على صاحب الكيس".

قـــال **بيليتيـــيه**: "معك حق. إنّ عدد هؤلاء الأشخاص كبير جداً إلى درجة تؤهلهم لتشكيل منظمتهم الأخوية الخاصة بهم".

" لم تعجبه الرائحة على أي حال. قال..." تصفحتُ تقرير الحادث كي أجد العـــبارة المناسبة. "**تصاعدت رائحة شيطانية من ذلك الكيس وأحاطت بي تماماً**. انتهى الاقتباس".

قـــال **بيليتيـــيه**: "إنه اقتباسٌ شعريٌّ أحبه كثيراً. أتساءل عما عساه يقول عن سروالي القصير".

تجاهلـــتُ كلماته وتابعتُ القراءة: "أخذ الكيس، وسلّمه إلى البواب، فأسرع هـــذا الأخير لاستدعاء الشرطة. وجدت الشرطة مجموعة من أجزاء الجثة، وكانت كلها ملفوفة بنوعٍ من أنواع أقمشة الطاولات".

مـــدّ إحـــدى أصابعه الصفراء اللون وقال: "آه، ***وي***. أتذكر تلك الحالة. يا لفظاعتها ووحشيتها!" بدا عليه التأثر نتيجة الوصف الذي أعطاه للجريمة.

"دكتور بيليتييه؟"
"إنها قضية قرد المحطة".
"إذاً، هل قرأتُ تقريرك بشكل صحيح؟"
رفع حاجبيه متسائلاً.
"هل كان قرداً بالفعل؟"
أومأ بجدية: "إنه قرد **كبوشي**".
"ولماذا أحضروه إلى هنا".
"كان ميتاً".

يستطيع كل شخص أن يكون كوميدياً عندما يريد: "نعم، ولكن لماذا اعتُبرت قضية تستدعي محققاً جنائياً؟"

أظن أنّ النظرة التي ارتسمت على وجهي قد استدعت جواباً صريحاً: "كانت محتويات الكيس صغيرة على أي حال، كما أنّ أحداً قد أقدم على انتزاع الجلد منها ثم قطّعها تقطيعاً. اللعنة! كان بإمكانها أن تكون أي شيء. ظنّت الشرطة أنها قد تكون جنيناً، أو مخلوقاً حديث الولادة، ولهذا أرسلوها لنا".

"هل لاحظتَ شيئاً غريباً في هذه القضية؟" سألتُه من دون أن أعرف الأشياء التي أريد الوصول إليها.

"لا. كان مجرد قرد من القردة المقطّعة". ارتعشت زاويتا فمه قليلاً.

"حسناً". يا لغباوة سؤالي. "هل لفت نظرك أي شيء غريب في طريقة تقطيع القرد؟"

"لا، لأن طريقة تقطيع القردة تتشابه في معظم الأحيان؟"
لم أحصل على نتيجة من كل ذلك.
"هل عرفتم من هو صاحب القرد؟"

"عرفناه في الواقع. ظهرت أوصاف القرد في الجريدة، كما أنّ رجلاً اتصل بنا من الجامعة".

"أتعني **جامعة كيبيك ومونتريال؟**"

"أجل، أظن ذلك. قال إنه عالم أحياء، أو عالِم حيوانات. إنه **أنكلوفوني** (يتكلم الإنجليزية). آه. انتظري".

اتّجــه **بيليتيـــيه** نحــو دُرج طاولته، وبحث بين محتوياته، ثم سحب رزمةً من بطاقات التعريف المربوطة برباط مطاطي. نــزع الرباط، وبدأ يقلّب البطاقات، ثم ناولني إحداها.

"إنه هو. رأيته عندما جاء ليتعرف على الجثة".

جــاء في الــبطاقة: **باركــر تي. بايلي، دكتوراة فلسفة، أستاذ مادة علم الأحــياء**. أعطانــا الرجل عنوان بريده الإلكتروني، ورقم هاتفه، وأرقام الفاكس، بالإضافة إلى عنوانه.

سألته: "ما هي قصته؟"

"يحتفظ ذلك السيّد بالقردة في الجامعة ويُجري الأبحاث عليها. حضر في أحد الأيام ووجد أحد رعاياه مفقوداً".

"هل سُرق؟"

"سُــرق، أم حُرّر، أم هرب، من يدري؟ اعتُبر هذا القرد غائباً من دون إذن". بدا ذلك التعبير غريباً بعض الشيء عندما لفظه بالفرنسية.

"هــل قــرأ الرجل عن ذلك القرد الميت في الصحف، ثم اتصل بك على الفور؟"

"هذا صحيح".

"وماذا حدث له؟"

"أتعنين ماذا حدث للقرد؟"

أومأتُ.

"سلّمناه إلى..." نظر في البطاقة.

أكملتُ عنه: "الدكتور بايلي".

"***وي. ما من*** أقارب للضحية، وعلى الأقل ليس في **كيبيك**". قالها من دون أن يرتعش.

"نعم، فهمت".

نظــرتُ إلى الــبطاقة مجــدداً. قال لي الجزء الأيسر من دماغي: لا أظن أنها معلومات مهمة، لكنني سمعتُ نفسي وأنا أطرح السؤال: "أيمكنني الاحتفاظ بهذه؟"

"بالطبع".

وضـــعتُ مصيدتي بنفسي: "لدي سؤال آخر. من أين أتت تسمية **قضية قرد المحطة؟**"

بدت المفاجأة على وجهه عندما أجابني: "حسناً، هكذا كانت".

"كانت ماذا؟"

"القرد. والمحطة".

"حسناً، فهمت".

"كان هناك بالذات".

"أين؟"

"في المحطة، أي محطة الباصات".

توجد بعض الأشياء التي تقبل الترجمة، مع الأسف.

انهمكـــتُ لبقـــية ذلـــك المساء في استخلاص التفاصيل من الملفات الأربعة الأساســية وأدخلــتُها في الملـــف الـــذي استحدثته في حاسوبي المحمول. أدخلتُ التفاصـــيل التالـــية: **لون الشعر، العينان، لون البشرة، الطول، الدِّين، الأسماء، الـــتواريخ، الأمـــاكن، علامات البروج**. أدخلتُ أي شيء، وكل شيء خطر في ذهـــني. شغّلتُ الجهاز بحماسة كبيرة، وصمّمتُ على متابعة البحث عن أي روابط في مـــا بعد، ولعلني اعتقدتُ أنّ الأنماط ستظهر بنفسها، أو أنّ مكونات المعطيات المـــتداخلة سوف تنجذب إلى بعضها بعضاً، أي مثلما تفعل الببتيدات العصبية في مواقع انتقالها الجديدة. ولعلني أحتاج إلى مهمة روتينية تشغل ذهني، أو إلى أحجية توهمني بأنني أحرز تقدماً ما.

حاولتُ الاتصال **برايان** مجدداً عند الساعة الرابعة وخمس عشرة دقيقة. لم يكن في مكتبه، لكن عاملة الهاتف قالت لي إنها ربما رأته، ولذلك بدأت البحث عنه، وإن بتردد. انتظرتُ الرد، لكنّ عينيّ تعلقتا في ملفّ القرد. شعرتُ بالسأم، لـــذلك اســـتخرجتُ مجموعة الصور. وجدتُ مجموعتين منها. كانت المجموعة الأولى صـــوراً فوريةً، أما المجموعة الثانية فتألّفت من صور ملونة بقياس 12 × 17 ســـنتمتراً. عـــادت موظفة الهاتف لتقول لي إنّ **رايان** ليس موجوداً في كل المكاتب التي اتصلت بها. قالت لي، بعد أن تأوهت، إنها ستحاول إيجاده في غرفة الاستراحة.

تفحصتُ الصور الفورية. اتضح لي أنها أُخذت عندما وصلت البقايا إلى المشرحة. رأيتُ صور كيس من النايلون بلون أرجواني وأسود. أظهرت إحدى الصور الكيس مقفلاً، بينما ظهر مفتوحاً في صورة أخرى مع حزمة في داخله. أما الصور القليلة التالية فأظهرت الحزمة فوق طاولة التشريح، قبل فكّها وبعده.

أظهرت الصور الست التالية أجزاء الجثة. أظهر مقياس بطاقة التعريف أنّ صاحب الجثة أصغر بكثير من جنين كامل، أو طفل حديث الولادة. بدا التشويه واضحاً في هذه الصور.أخذ اللحم يميل إلى اللون الأسود، كما بدا ملوثاً بشيء يشبه **التابيوكا** الفاسدة. أعتقد أنني أستطيع التعرف على الرأس، والجذع، والأطراف، لكنني لم أستطِع التعرّف على أي أجزاءٍ أخرى. لاحظتُ أنّ الصور مأخوذة من مسافة بعيدة، لذلك كانت التفاصيل غيرَ واضحة. نظرت إلى الصور من زوايا عديدة، لكنّ من دونٍ أن أعرف المزيد.

عادت موظفة الهاتف لتقول لي بلهجة قاطعة هذه المرة إنّ **رايان** ليس موجوداً، وإنه يتعيّن عليّ أن أحاول الاتصال به في اليوم التالي. تركتُ رسالة أخرى، وقطعتُ الاتصال، فحرمتُها بذلك من المجادلة التي حضّرتها.

التُقطت الصور الملونة، التي هي بمقاس 12 × 17 سنتمتراً، بعد انتهاء عملية التنظيف. ظهرت في هذه الصور التفاصيل التي عجزت صور **البولارويد** الفورية عن كشفها. بدت الجثة الصغيرة مسلوخة ومقطعة. رتّب المصوّر، ولعله كان **دينيز**، هذه الأجزاء في وضعها التشريحي الصحيح، ثم صوّر كلاً منها على حدة.

لاحظتُ أثناء تقليبي الصور أنّ تلك الأجزاء المقطعة بدت مثل الأرنب الذي اقترب من المرحلة الأخيرة في عملية طهوه، في ما عدا أمراً واحداً. أظهرت الصورة الخامسة ذراعاً صغيرة تنتهي بأربعة أصابع سليمة، وإبهامٍ ملتفٍ على راحة يدٍ رقيقة.

ركّزت الصورتان الأخيرتان على الرأس. ومن دون الجلد والشعر اللذين يحيطان بالرأس، بدا الرأس بدائياً مثل الجنين الذي انتُزع من حبله السري، أي أنه كان عارياً وضعيفاً. كانت جمجمته بحجم البرتقالة. لاحظتُ أنّ الرأس مفلطح، أما ملامحه فكانت شبيهة بالملامح البشرية، ولم يتطلب الأمر **جاين غودال** كي يعرف المرء أنه ليس مخلوقاً بشرياً. تضمن الفم الأسنان جميعها، بما فيها الأضراس. رحتُ

أعدّها. وجدتُ ثلاثة أسنان ما قبل الطواحن في كل ربع دائرة. أتى قرد المحطة هذا من أمريكا الجنوبية.

أقـــنعتُ نفسي أنها مجرد قضية أخرى من قضايا حوادث الحيوانات، ثم أعدتُ الـــصور إلى مظروفها. كنا نتفحص هذه الصور من وقتٍ إلى آخر لأن هذه البقايا اعتُـــبرت بشرية. اشتملت بعض البقايا الأخرى على مخالب دب سلخها الصيادون وتركوها خلفهم، بالإضافة إلى بقايا الخنازير والماعز التي تُذبح، وتلك الأجزاء غير المرغوبة والتي رُميت على جوانب الطرقات، والكلاب والهررة التي تُلقى في مجارى الأنهر بعد أن تعذّب. دُهشت كثيراً للوحشية التي تُعامل بها الحيوانات الأليفة، و لم أتعود عليها مطلقاً.

لمـــاذا أهتم إذاً بهذه القضية؟ ألقيتُ نظرة أخرى على صور 12 × 17. حسناً. تعـــرّض القـــرد للتقطـــيع. ومـــاذا في ذلك؟ مرّت معي حالات كثيرة من جثث الحـــيوانات المقطّعـــة. هل يعمد أحد الأنذال إلى تسلية نفسه بتعذيب الحيوانات وقتلها؟ هل هو أحد الطلبة الذين صدمته علاماته المنخفضة؟

توقفتُ عند الصورة الخامسة، وتسمّرت عيناي على محتواها الباهت. توترت عضلات معدتي مجدداً. حدّقتُ بالصورة، ثم هرعتُ باتّجاه الهاتف.

23

لـــيس هناك مكان أكثر وحشة من غرفة صف دراسي خالٍ من الطلاب بعد أوقات الدوام الدراسي. يذكرني هذا بالمشهد الذي يخيّم بعد إلقاء قنبلة نيوترونية. تلــتمع الأنوار، وتتدافع مياه النوافير بحسب برمجتها، كما تتوهج شاشات أجهزة الكمبيوتر بشكل مخيف. لا يُشاهد عندها أحدٌ يطفئ عطشه، ولا طلاب يُهرعون إلى صفوفهم، ولا أحد ينقر على لوحةِ مفاتيح.

جلستُ على أحد الكراسي القابلة للطي، والتي تتواجد خارج مكتب **باركر بايلـــي**، الذي يقع في **جامعة كيبيك ومونتريال**. توجهتُ إلى النادي الرياضي بعد مغـــادرتي للمختـــبرات، واشتريتُ بعض البقالة من **بروفيغو**، ثم تناولتُ وجبةً من المعكرونة من صلصة الأصداف. كانت وجبةً لا بأس بها نظراً لضيق وقتي، والحالة التي كنت فيها. دُهش **بيردي من** سرعتي ونفاد صبري.

إن وصفي **كلية علوم الأحياء** بالهادئة يشبه القول إنّ **الكوارك** صغير. رأيتُ كـــل بـــاب على طول الرواق وعرضه مغلقاً. تتبعتُ لوحات الإعلانات، وقرأتُ كتّيـــبات المتخـــرّجين في الكلية بالإضافة إلى بلاغات الأعمال الميدانية في الكلية، وعـــروض الطباعة أو التعليم، وإعلانات المحاضرين الضيوف. قرأتُ كل تلك المواد مرتين.

نظـــرتُ إلى ســـاعتي للمرة المليون؛ أشارت عقاربها إلى الساعة 9:12 مساءً. يُفتـــرض به أن يكون قد وصل في هذا الوقت، لأن صفّه ينتهي عند التاسعة، وهذا علـــى الأقـــل هو ما أخبرتني به مساعدته. نهضتُ من مكاني وبدأت أذرع الرواق

ذهاباً وإياباً، لأن ذلك هو الخيار الوحيد المتاح أمام الذين يُفرض بهم الإنتظار.
9:14. اللعنة!

يئستُ من قدومه عند الساعة 9:30. ولكنني سمعتُ صوت باب يُفتح في مكان ما، في الوقت ذاته الذي علّقتُ فيه حقيبتي الصغيرة على كتفي. لم تمر لحظة من الزمن قبل أن يظهر من زاوية الرواق رجلٌ يحمل كدسة ضخمة من دفاتر المختبرات. دأب الرجل على تعديل وضعية كتفيه كي يمنع الدفاتر من السقوط. بدا منظر سترته التي يرتديها وكأنه وصل من إيرلندا قبل زمن مجاعة البطاطا. خمّنتُ أنه في بداية الأربعينيات من عمره.

توقف الرجل عندما رآني، لكن ملامح وجهه لم تتغيّر. بدأتُ بالتعريف عن نفسي في اللحظة ذاتها التي أوقع فيها دفتر ملاحظات على الأرض. اندفع كلانا نحو الدفتر، لكنها لم تكن خطوةً موفقةً من جانبه. فقد سقطت معظم دفاتر الكدسة، وتبعثرت فوق أرضية المكان، مثلما ينتشر نثار حفلة من حفلات رأس السنة. تعاونّا على جمع الدفاتر لدقائق عديدة، عمد بعدها إلى فتح باب مكتبه، ثم وضع الدفاتر على طاولة مكتبه.

قال بلهجة فرنسية ثقيلة: "آسف. أنا..."

أجبته بالإنكليزية: "لا بأس، لا بد أنني أجفلتك".

"أجل. كلا. كان يجدر بي إحضار الدفاتر على دفعتين. يحدث هذا كثيراً". لاحظتُ أنّ لغته الإنكليزية ليست أميركية.

"هل هذه دفاتر مختبر؟"

"أجل. أعطيتُ لتوي درساً في المنهجية السلوكية".

ظهرت على الرجل ظلال شمس **آوتر بانكس** الغاربة. رأيتُ جلده الذي اكتسب اللون الزهري الشاحب، وخدّيه اللذين استعارا لون توت العلّيق، وشعره الذي أخذ لون البسكويت الهش بالفانيلا. أما شاربه ورموش عينيه فاكتسبت لون الكهرمان. بدا الرجل وكأنه تعرّض للاحتراق، وليس كرجلٍ اكتسب سمرته عن طريق التعرض للشمس.

"يا للروعة!"

"أتمنى لو أنّ آخرين يعتبرونها كذلك. هل أستطيع..."

فتحتُ حقيبتي الصغيرة، وتناولتُ بطاقةً منها، ثم أعطيتُه إياها: "أنا **تمب بريننان**. قالت لي مساعدتك إنني أستطيع أن ألتقيك في هذا الوقت".

شرحتُ له أهداف زيارتي أثناء انشغاله بقراءة البطاقة.

"أجل، تذكرت. أكره خسارة القردة. أزعجني الأمر كثيراً في ذلك الوقت". أضاف فجأةً: "أتحبين أن تجلسي".

لم ينتظر إجابتي، فأسرع بنقل كل الأشياء الموجودة فوق كرسي الفينيل الأخضر، وجمعها على أرضية المكتب. اختلستُ نظرة من حولي. جعلني مكتبه الصغير أعتبر مكتبي بمثابة **ملعب اليانكي**.

امتلأت الجدران بصور الحيوانات: أسماك أبو شوكة، طيور الفرّي، والسعادين، والخنازير، وحتى آكل النمل. لم تغِب عن الجدران صور طيور التدرج. ذكّرني هذا المنظر بمكتب أحد المعجبين الذي يعرض صور المشاهير الذين يعرفهم مثلما يعرض الجوائز التي حصل عليها، لكن مع فرقٍ واحد وهو أنها غير موقّعة.

جلس وراء طاولته ممدداً قدميه فوق درجٍ مفتوحٍ، بينما جلستُ أنا على كرسي أَخلاه الرجل من الأشياء التي كانت موضوعة فوقه للتو.

"أجل. ضايقني الأمر كثيراً". كرّر القول قبل أن يغيّر الموضوع على نحو مفاجئ. "هل تعملين في حقل علوم الإنسان؟"

"آه. همم".

"هل تعملين في مجال **الرئيسات**؟"

"لا. عملت في هذا المجال في الماضي، لكن ليس الآن. أعمل هذه الأيام في **كلية الأنثروبولوجيا، في جامعة كارولاينا الشمالية في شارلوت**. أدرّس من وقت إلى آخر مادة بيولوجيا **الرئيسات** وسلوكها، لكنني لست معنيةً في الواقع في ذلك الحقل. إنني منشغلة كثيراً في مجال الأبحاث الجنائية، وتقديم الاستشارات".

لوّح بالبطاقة: "حسناً. ما هي علاقتك إذاً **بالرئيسات؟**"

بدأتُ أتساءل عمن يُجري المقابلة مع الآخر: "كنتُ منشغلة في مسألة ترقق العظام، وعلى الأخص العلاقة القائمة ما بين السلوك الاجتماعي وعملية المرض. عملنا مع أنواع عديدة من نماذج الحيوانات، وعلى الأخص قردة **الريسس**، وعملنا على المجموعات الاجتماعية، وكوّنا ظروف إجهادٍ لها، ثم راقبنا مقدار فقدان العظام".

"هل أجريتم أي أبحاث في البرّية؟"

"عملنا في بعض الجزر التي تُعتبر مستوطنات لهذه الحيوانات".

تقوّس الحاجبان الكهرمانيان من شدة الاهتمام: "آه؟"

"عملنا في **كايو سانتياغو** في البرتغال، كما أعطيتُ صفوف دراسة ميدانية في **جزيـــرة مورغان** التي تقع قبالة ساحل **كارولينا الجنوبية**، وذلك على مدى أعوام عديدة".

"قردة الريسس؟"

"أجل يا **دكتور بايلي**. إنني أتساءل عما إذا كانت لديك معلومات عن ذلك القرد الذي اختفى من مركزك".

تجاهـــل انتقالي الفج من موضوعٍ إلى آخر: "وكيف انتقلتِ من دراسة عظام القردة إلى دراسة الجثث؟"

"يجمع بينهما علم الأحياء العظمي".

"أجل. صحيح".

وماذا بشأن القرد؟"

"آه، القـــرد. لا أمتلك الكثير من المعلومات عنه". فرك فردتَي حذائه **النايكي** ببعـــضهما، وانحنى إلى الأمام ثم أمسك بشيء ما. "أتيتُ ذات يوم فوجدتُ القفص فارغـــاً. ظننتُ أنّ أحداً ما قد نسي إحكام إغلاق الباب بالقفل، وأنّ **إلساء**، أي القـــردة، قـــد سمحت لنفسها بمغادرة القفص. لا يُعتبر ذلك تصرفاً غريباً من قبل الحيوانات كما تعرفين. كانت في غاية الذكاء والدقة، وتمتلك مهارةً يدويةً عاليةً، وتتميّـــز بيدينٍ صغيرتين ورائعتين. فتّشنا المكان على أي حال، وأعلمنا فريق الأمن في حرم الكلية، وقفزنا فوق كل الأسيجة. رأيتُ المقالة في الصحيفة بعد ذلك. أما بقية التفاصيل فهي معروفة".

"وماذا كنتَ تفعل بها؟"

"لم تكـــن **إلـــسا** من ضمن مشروعي أنا في الواقع. كان أحد طلبة صفوف التخـــرج يعمـــل معهـــا. أنـــا مهتم بأنظمة الاتصالات بين الحيوانات على وجه الخـــصوص، ولكـــن ليس بالتحديد. إنني أدرس **الفيرومونات**، والإشارات العائدة لحاسة الشم".

استنتجتُ من التغيّر الذي طرأ على لهجته، والسرعة التي طرأت على إيقاع كلماته، أنه قد أعطى هذا الملخّص من قبل. انطلق في هذه الثرثرة التي يسميها **بحث**، وهي الرمز الشفهي المجرد الذي يستخدمه العلماء للاستهلاك العام. يرتكز **البحث** على قاعدة **خذ الأمور ببساطة أيها الغبي**. ويتم تداول مثل هذه الأبحاث في حفلات الكوكتيل، ومع جامعي التبرعات، والاجتماعات، وفي المناسبات الاجتماعية. يمتلك كل واحد منا بحثه الخاص به. وجدتُ نفسي وأنا أستمع إلى بحثه.

سئمتُ من الاستماع إليه: "ماذا كان المشروع إذاً؟"

ندّت عنه ابتسامة ساخرة وهزّ رأسه: "اللغة، وبالتحديد اكتساب اللغة عند **رئيسات العالم الجديد**. أخذت القردة اسمها من الأحرف الأولى للمشروع. اكتساب اللغة عند السعادين الأميركية. **إلسا**. كانت **ماري – ليز** ستكون مثيلة **بيتي باترسون** في **كيبيك**، أما **إلسا** فكان مقدراً لها أن تكون مثيلة قردة **كوكو** الموجودة في أمريكا الجنوبية". وضع الرجل قلماً فوق رأسه، وأصدر صوت استهجان، ثم أسقط ذراعه بشدة. أصدرت ذراعه صوتاً شديداً عندما ارتطمت بالطاولة. تفحصتُ وجهه. بدا لي إما متعباً أو محبطاً. لم أستطِع أن أتأكد بالضبط.

"ماري – ليز؟"

"إنها تلميذتي".

"وهل كانت تحرز نجاحاً؟"

"من يدري؟ لم يتوفر لها الوقت الكافي في الواقع. اختفت القردة بعد مضي خمسة أشهر على بداية المشروع". أبدى الرجل المزيد من السخرية. "وتبعتها **ماري – ليز** بعد ذلك بوقت قصير".

"هل تركت الكلية؟"

أومأ.

"هل تعرف لماذا؟"

صمت لفترة طويلة قبل أن يبدأ بالإجابة: "كانت **ماري – ليز** طالبة ممتازة. تعيّن عليها، بالطبع، أن تبدأ مشروعها من جديد، لكنني لا أشك في أنها كانت قادرة على إنهاء دراسة الماجستير. كانت تحب موضوع عملها. أجل، تأثرت كثيراً عندما قُتلت القردة، لكن لا أظن أنّ هذا هو كل شيء".

"إذاً ما هي الحقيقة؟"

أخذ يرسم مثلثات صغيرة على أحد دفاتر مختبره. تركتُه يأخذ وقته.

"كـــان عندها هذا الصديق. ضايقها الرجل بشأن وجودها في الكلية. ضغط عليها كي تترك الدراسة. تحدثت معي بهذا الموضوع مرة أو مرتين، لكنني أظن أنّ ضـــغط الرجل قد فعل فعله أخيراً. التقيته في عدة حفلات. أعتقد أنّ الرجل مخيف بعض الشيء".

"وكيف هذا؟"

"أنا... لا أعرف. ربما كان الرجل غير اجتماعي بالمرة، أو ساخراً، أو عدائياً، أو فجاً. بدا لي وكأنه لم يستوعب المهارات البشرية... الغريزية. ذكّرني دائماً بقرد **هارلـــو**. أتعـــرفين، بـــدا لي أنه نشأ في مكانٍ معزولٍ ولم يتعلّم كيفية التعاطي مع الآخرين. اعتاد الرجل أن يغمز بعينيه كلما حدّثه الآخرون بشيء. أحسستُ أنني أكرهه حقاً".

"هل شككتَ به في يومٍ من الأيام؟ أعني احتمال أن يكون قد قتل **إلسا** كي يخرّب البحث الذي تقوم به **ماري – ليز**، وكي يحملها على ترك الكلية".

استـــنتجتُ مـــن صمته أنه فعل هذا. قال لي فجأة: "كان من المفترض به أن يكون في **تورنتو** في ذلك الوقت".

"وهل يستطيع إثبات غيابه هذا؟"

"صدّقته **ماري – ليز** عندها، أما نحن فلم نتابع هذا الموضوع. وما الفائدة في ذلك بعد أن ماتت **إلسا**؟"

لم أعـــرف كيف أطرح عليه سؤالي التالي: "هل سبق لكَ أن قرأتَ ما دوّنته **ماري – ليز** من ملاحظاتٍ حول مشروعها؟"

توقف عن التلهي برسم المثلثات، ونظر إليّ بحدة: "ماذا تعنين؟"

"أيـــوجد احتمال أنها رغبت بالتستر على شيء ما؟ وهل تكوّن عندها سبب ما للتخلص من مشروعها؟"

"لا. بالتأكيد لا". أحسستُ بثقةٍ كبيرةٍ في صوته، لكن الحال لم تكن كذلك مع عينيه.

"هل تتصل بك من حينٍ إلى آخر؟"

"لا".

"وهل يحدث هذا كثيراً؟"

"بعضهم يتصل، وبعضهم لا يتصل". زادت سرعة انتشار المثلثات.

غيّرت أسلوبي معه: "من غيرها يستطيع الوصول إلى... هل هو مختبر؟"

"إنه مختبر صغير. إننا نحتفظ فيه ببعض النـــزلاء من الحيوانات، لكننا لا نمتلك مساحةً كبيرةً لها. يتعيّن علينا إبقاء كل فصيلة في غرفة منفصلة كما تعرفين".

"أوه؟"

"أجـــل. يفـــرض CCAC تعلـــيمات محـــددةً للتحكم بالحرارة، والمساحة، والوجبات الغذائية، والمؤشرات السلوكية إلى ما هنالك".

"CCAC؟"

"إنـــه **المجلس الكندي للعناية بالحيوانات**. ينشر المجلس دليلاً مخصصاً بالعناية بالحيوانات وإجراء التجارب عليها. إنه الدليل الذي يضطر كل من يجري أبحاثاً عن الحـــيوانات أن يلتـــزم به: العلماء، والمربّون، والعاملون في هذه المهنة. يغطي هذا الدليل صحة العاملين مع الحيوانات وتعليمات الأمان المتعلقة بهم".

"وماذا بشأن الأمن؟"

"أوه نعم. إنّ التعليمات محددة جداً".

"ما هي إجراءات الأمن التي تتبعونها؟"

"إنني أعمل مع **أبو شوكة** في الوقت الحالي. إنها نوعٌ من الأسماك".

استدار في كرسيه، وأشار بقلمه إلى صورة الأسماك المعلقة على الجدار.

"إنهـــا لا تتطلب الكثير من الاهتمام. يعتني بعض زملائي بفئران المختبرات، لأنهـــا لا تـــتطلب اهـــتماماً كبيراً هي الأخرى. لا تهتم جمعيات الرفق بالحيوانات بالأسماك والقوارض عادةً".

ارتسمت على وجهه تعابير تستحق نيل كأس العالم في السخرية.

"كانت **إلسا** الوحيدة بين الحيوانات اللبونة الأخرى التي نحتفظ بها، وهكذا لم تكـــن إجراءات الأمن صارمة كثيراً. امتلكت **إلسا** غرفةً صغيرةً خاصةً بها، والتي كانـــت محتجـــزة فيها على الدوام. داومنا على إقفال قفصها بالطبع، وكذلك كنا نقفل باب المختبر الخارجي".

توقف عن الكلام.

"فكّـــرتُ كـــثيراً في هذا الموضوع. لم أستطِع أن أتذكّر من هو آخر شخصٍ غـــادر المكـــان في تلك الليلة. لم يكن عندي صفٌ ليلي عندها، لهذا لا أعتقد أنني تأخـــرتُ تلـــك اللـــيلة. ربما قام أحد طلاب السنة النهائية بتفحص الأقفال، لأن مـــساعدتي لا تُقـــدم على تفحص تلك الأبواب إلا إذا طلبتُ منها ذلك تحديداً".

توقّف قليلاً ثم تابع:

"أفتـــرض أنّ أحـــد الغـــرباء قد دخل، كما أنه ليس من المستحيل أن يترك أحـــدهم الأبـــواب غـــير مقفلة. وأعتقد أنّ بعض الطلاب يُعتمد عليهم أكثر من الآخرين".

"ماذا بشأن القفص؟"

"لم يكـــن القفـــص قوياً بما فيه الكفاية، لأنه مقفلٌ بقفلٍ واحدٍ فقط. لم نجد ذلك القفل مطلقاً. أفترض أنه ربما نُشر بمنشار".

حاولـــتُ أن أنتقل بالحديث إلى الموضوع التالي، ولكن بحذر: "أين وُجدت الأجزاء المفقودة؟"

"الأجزاء المفقودة؟"

"كانـــت **إلسا**". رحتُ أفكّر هنا بالكلمة المناسبة. حافظي على الهدوء أيتها الغبية. "مقطّعة. لم تكن بعض أجزائها في الحزمة التي اكتُشفت. أتساءل إن كانت بعض هذه الأجزاء قد وُجدت هنا".

بدا وجهه الشاحب مذهولاً: "أجزاء مثل ماذا؟ ما هي الأجزاء التي فُقدت؟"

"يـــدها الـــيمنى يا **دكتور بايلي**. قُطعت يدها اليمنى عند المعصم، ولم تكن موجودة".

لم أجـــد سبباً كي أخبره عن النساء اللواتي عانين من التعذيب ذاته، ولا عن السبب الحقيقي الذي حضرت من أجله إلى هذا المكان.

بقـــي صامتاً، وشبك أصابعه وراء رأسه، ثم ركّز نظره على شيء ما فوقي. اصـــطبغ خـــدّاه بلون توت العليق، وامتد هذا اللون نحو **الروبارب**. سمعت جهاز راديو صغير يدندن بهدوء في مكان ما في خزانته.

كسرتُ نطاق الصمت بعد فترةٍ خلتها عقداً من الأعوام.

"فكّر بما حدث وقُل لي ماذا تعتقد أنه حدث؟"

لم يـــردّ عليّ فوراً، لكنه نطق عندما خلتُ أنه لن يفعل ذلك أبداً: "أظن أنّ الفاعل هو أحد أشكال الحياة المتحولة المنتشرة في هذا الحرم".

ظنـــنتُ أنه انتهى من كلامه. زاد تنفسه عمقاً في صدره، لكنه أضاف شيئاً بصوت يشبه الهمس، لكنني لم أفهمه.

قلتُ: "آسفة؟"

"تستحق **ماري – ليز** شيئاً أفضل".

أدركـــتُ أنه من المستغرب أن يقول شيئاً كهذا. رحتُ أفكر أن **إلسا** أيضاً تـــستحقّ شـــيئاً أفـــضل، لكنني لم أقل شيئاً. كسر رنين الجرس الصمت على نحو مفاجـــئ، وســـرى عبر جسدي تيار اخترق كل عصبٍ من أعصابي. نظرتُ إلى ساعتي التي أشارت عقاربها إلى الساعة 10:00 مساءً.

تجاهلـــتُ ســـؤاله عـــن سبب اهتمامي بقضية قردة ماتت منذ أربعة أعوام. شـــكرتُه على استماعه لي وطلبتُ منه أن يتصل بي إذا وجد ذلك ضرورياً. تركتُه جالـــساً هـــناك وقد أعاد تركيزه على ذلك الشيء الذي كان يطير فوق رأسي. افترضتُ أنه يحدّق في الزمن، وليس في الفضاء.

لم تكن هذه المنطقة مألوفة بالنسبة لي، لكنني اكتشفتُ أنني ركنتُ سيارتي في الممـــر ذاته الذي استخدمته في تلك الليلة التي سِرتُ فيها في شارع **ماين**. أقنعتُ نفسي أن ألتزم بالأمور المفيدة، وبدأتُ أفكّر في تلك الفسحة وكأنها **غابي غروب العظـــيمة**. بدا الأمر وكأنه حدث منذ حقبةٍ بعيدةٍ، في حين أنه حدث منذ يومين فقط.

كان البرد أشد هذه المرة، كما تساقط مطر خفيف. أحكمتُ إغلاق سترتي، وسِرتُ عائدةً إلى سيارتي.

غادرتُ الجامعة، وقدتُ السيارة شمالاً في **شارع سان دينيز**. مررتُ من أمام مجمـــوعة من محلات الثياب والمطاعم الرائعة. يبدو **سان دينيز** وكأنه يقع على بعدٍ شاســـعٍ مـــن **شـــارع سان لوران**، مع أنه لا يبعد سوى **بلوكات** قليلة عن **سان لوران**. يُعرف **سان لوران** بأنه المكان الذي تقصده الشابات الثرّيات اللواتي يبحثن عن فستاتين رائعة، أو أقراطٍ فضيةٍ، أو عن شريك، أو حتى عن موقف سيارة لليلةٍ

واحدة. إنه شارع الأحلام الذي يتوافر في معظم المدن. تمتلك **مونتريال** اثنين منه: **كريسنت** للناطقين بالإنكليزية، **وسان دينيز** للناطقين بالفرنسية.

فكّـــرتُ **بإلساء** أثناء انتظاري الضوء الأخضر في **دي مايزونيف**. أظن أنّ **بايلي** على حق. تقع محطة الباصات على يميني، أي أنّ القاتل، كائناً من كان، لم يبتعد مسافة طويلةً قبل التخلص من الجثة. يدل هذا الأمر على أنّ الفاعل هو من سكان المنطقة.

شـــاهدتُ شخصين فتيّين يخرجان من محطة مترو **جامعة كيبيك ومونتريال**. ركـــضا تحـــت المطر وهما متمسكان ببعضهما بعضاً مثل زوجٍ من الجوارب خرج لتوه من النشّافة.

رحـــتُ أفكّر بأنّ الفاعل هو أحد الذين يترددون من وإلى أشغالهم. حسناً يا **برينان**، تناولي قرداً، واستقلِي المترو في طريق عودتكِ إلى المنـــزل، وأشبعيه ضرباً، ثم قطّعيه، وعودي به بعد ذلك إلى المترو، واتركيه بعد ذلك في محطة الباصات. يا له من تخطيط عظيم!

أضـــاء اللون الأخضر. عبرتُ **شارع سان دينيز**، وسرت غرباً في **شارع دي مايـــزونيف**، وشغلتُ فكري بمحادثتي مع **بايلي**. أزعجني شيء ما في هذا الرجل؟ هـــل أظهر عاطفة زائدة تجاه طالبته؟ هل أظهر القليل جداً من هذه العاطفة بالنسبة إلى القـــردة؟ ولماذا بدا شديد... ماذا؟ السلبية، تجاه مشروع **إلساء**؟ لماذا لا يعرف شيئاً عن اختفاء اليد؟ ألم يقل لي **بيليتييه** إنّ **بايلي** تفحص الجثة المشرّحة؟ أليس من المفترض أن يكون قد لاحظ اليد المفقودة؟ تسلّم هذا الرجل البقايا من المختبر.

"اللعنة!" قلتها بصوت عالٍ ورحت أُثقل ذهني بالتساؤلات.

الـــتفت إليّ رجلٌ يرتدي ثياباً من قطعة واحدة، وبدا عليه التوجس. لم يلبس الرجل قميصاً، كما أنه لم ينتعل حذاءً، ولاحظْتُ أنهً يحمل معه كيس تسوق بيديه الاثنـــتين لأن مقبضه المتمزق شكّل زوايا غريبة. ابتسمتُ كي أطمئنه، لكنهُ مشى بتثاقلٍ، وراح يهز رأسه آسفاً على حال البشرية والعالم.

رحـــتُ أوبّخ نفسي وأقول إنني مثل **كولومبو**، لكنني فاشلة. لم أسأل **بايلي** ماذا فعل بالجثة. يا للمهمة الناجحة!

انتهـــيتُ مـــن تأنيب نفسي، لكنني قررتُ استرضاءها بتقديم اقتراح تناول شطيرة نقانق.

قـــبلتُ بعـــد أن أدركتُ بأنني لن أكون قادرةً على النوم بأي حال. أستطيع بهذه الطريقة إلقاء اللوم على الطعام. توجهتُ إلى **شيان شود** الذي يقع في **سانت دومينيك**، وطلبتُ نقانق مع كافة التوابل، وبعض البطاطا المقلية، و**كوك** للحمية. أبلغني نادلٌ يشبه **جون بيلوشي** بشعره الكثيف ولهجته المشددة: "لا يوجد **كوك**. لدينا **بيبسي**". أدركتُ أنّ الحياة تقلّد الفن فعلاً.

تناولتُ طعامي في حجرة بلاستيكية مطلية باللونين الأحمر والأبيض، ورحتُ أتأمل إعلانـــات الـــسفريات التي تكاد تتقشر عن الجدران. فكّرتُ في أنّ هذه المناظر رائعة، ورحت أحدّق بالسماء الشديدة الزرقة، وبالأبنية المطلية بالكلس الذي يُبهر بياضه العيون في جـــزُر **بـــاروس**، **ســـانتوريني**، و**ميكونوس** اليونانية. أجل، إنها مناظر رائعة. بدأت السيارات باحتلال الأرصفة المبتلّة في الخارج. وعاد **شارع ماين** ليعجّ بالحياة ثانية.

وصل رجلٌ وأخذ بالتحدث إلى **بيلوشي** بصوت عال، وافترضتُ أنهما يتحدثان باليونانـــية. لاحظتُ أنّ ثيابه مبتلّة، كما أنّ رائحة الدُخان، والدهن، وتوابل لم أعرف مـــا هي، قد فاحت منها. انتشرت قطرات المياه على شعره الكثيف. ابتسم الرجل لي عـــندما نظرتُ إليه، ورفع حاجبه الكثيف، ثم مرّر لسانه ببطء على طول شفته العليا. أظـــن أنّ الـــرجل كـــان مستعداً كي يريني أنحاء أخرى من جسمه. جاريتُ مستوى نضوج الرجل قبل أن أحوّل انتباهي إلى المنظر خارج النافذة.

تمكـــنتُ مـــن رؤية صفّين من المحلات عبر الشارع من خلال زجاج النافذة المخطـــط بمياه المطر. بدت المحلات داكنةً وصامتةً عشية يوم العطلة. جاء في اللافتة فوق أحد هذه المحلات **لا كوردونيري لا فلاير**، وتساءلتُ عن السبب الذي يدعو صانع أحذية إلى إطلاق تسمية **الزهرة** على متجره.

رأيـــتُ لافـــتة المتجر الآخر: **لا بولانجيري نان**. تساءلتُ ما إذا كان هذا هو اسم الفرن، أو اسم المالك، أم أنه مجرد إعلان للخبز الهندي. استطعتُ أن أرى عبر الـــنوافذ رفوفاً فارغةً تستعد لاستقبال حمولتها الصباحية. هل يستمر الخبازون في عملهم أيام الأعياد؟

لا بوشـــيري ســـان دومينيك. بدت نوافذ هذا المتجر مغطاة بأخبار الجرائد الأسبوعية: **لا بين فرايز، بويف، أغنيو، بوليت، سوكيس؛ أي: الأرنب الطازج، لحم البقر، لحم الضأن، الدجاج، النقانق، والقرد.**

هكذا إذاً. دعنا ننطلق من هنا. وضعتُ الأوراق في صينية الورق التي احتوت النقانق. إننا نقضي على الأشجار من أجل صنع هذه الأشياء. أضفتُ علبة **البيبسي**، وألقيتُ كل هذه البقايا في سلة النفايات، ثم غادرتُ المكان.

وجدتُ السيارة في المكان الذي تركتها فيه، وفي الحالة التي كانت عليها حينها. شرعتُ في قيادة السيارة، بينما عاد ذهني للتفكير بالجرائم.

تغيّرت الصور في ذهني مع كل طرقةٍ من طرَقات مسّاحتي الزجاج. تخيلتُ ذراع **إلسا** المقطوعة. طرقة. تخيّلت يد **موريسيت – شامبو** المستلقية على أرضية مطبخها. طرقةٌ ثانية. بدت أمامي أربطة عضلات **شانتال تروتييه**. طرقةٌ ثالثة. ظهرت لي عظام أذرعٍ ذات نهاياتٍ مقطوعة بدقة. طرقةٌ رابعة.

هل هي اليد ذاتها في كلٍّ مرة؟ لا أستطيع أن أتذكر، لذلك ينبغي عليّ أن أتحقق من ذلك. لم يبلّغ عن اختفاء أي يدٍ بشرية. هل هي مجرد مصادفة؟ هل كان **كلوديل** على حق؟ أم هل أصابتني حالةٌ من الذعر؟ هل يُحتمل أن يكون خاطف **إلسا** قد اعتاد على جمع مخالب الحيوانات. وهل كان أحد معجبي **بو** المتحمسين؟ طرقةٌ خامسة. أو أنها...؟

وصلتُ إلى مرآب سيارتي عند الساعة الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة. شعرتُ أنني متعبة، لأنه مضت أكثر من ثماني عشرة ساعة على خروجي من المنزل. لن تستطيع النقانق أن تبقيني مستيقظة هذه الليلة.

لم ينتظرني **بيردي**. بل تكوّر على نفسه فوق كرسي خشبي هزّاز قرب الموقد، حسب عادته عندما يكون وحيداً. تطلع إلى الأعلى عندما دخلت، وراح يغمز بعينيه الصفراوين في اتجاهي.

"مرحباً يا **بيرد**. كيف كان الهر هذا اليوم؟" رحتُ أقلّد قرقرته، وأمسّد المنطقة الموجودة تحت ذقنه: "هل أقلقك شيء ما؟"

أغمض عينيه، ومدّ رقبته. إما أنه كان يتجاهل تمسيداتي، أو أنه يحثّني على متابعتها. تثاءب بشدة عندما سحبتُ يدي، وعاد إلى وضع ذقنه بين مخالبه، وراح يتأملني من تحت جفنيه المثقلين بالنعاس. توجهتُ إلى غرفة النوم وأنا أعلم أنه سيتبعني في النهاية. فككتُ مشابك شعري، وكوّمتُ ثيابي على الأرض، ثمّ رفعتُ أغطية السرير.

استسلمتُ لنوم عميق خالٍ من الأحلام على الفور. لم تظهر لي أي أشباح، ولا مسرحيات مخيفة. أحسستُ بثقل دافئ يضغط على ساقيّ. فعلمتُ أنّ **بيردي** قد انضمّ إليّ، لكنني تابعتُ النوم وسط الظلمة الحالكة.

تسارعت نبضات قلبي على نحو مفاجئ وانفتحت عيناي. وجدتُ نفسي مستيقظة بالكامل، وأحسستُ بالذعر من دون أن أعرف السبب. جاء التغيّر مفاجئاً، وتعيّن عليَّ أن أتكيّف.

خيّمت الظلمة الحالكة على الغرفة. أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة وسبع وعشرين دقيقة. لم يكن **بيردي** موجوداً. جلستُ في الظلمة وأمسكتُ أنفاسي. رحتُ أصغي السمع إلى أي حركة. لماذا أعلن جسدي حالة الطوارئ القصوى؟ هل سمعتُ شيئاً ما؟ ما هي النقطة المضيئة التي كشفها راداري الشخصي؟ وهل أرسلت مستقبلاتي الحسية إشارةً ما؟ أم أنّ **بيردي** سمع شيئاً؟ وأين هو قبل كل شيء؟ أعرف أنه ليس من عادته أن يتجوّل ليلاً.

استرخيتُ، وأصغيت السمع أكثر. لم أسمع غير صوت دقات قلبي وهي تضج في صدري. بدا المنزل صامتاً بشكلٍ مخيف.

سمعتُ الصوت بعد ذلك. كانت طرقةً خفيفةً، تبعتها خشخشةٌ معدنيةٌ خافتةٌ. انتظرتُ جامدةً في مكاني، وأمسكتُ أنفاسي. مرّت عشر لحظات، وخمس عشرة، ثم عشرين. تغيّر الرقم الوامض على شاشة الساعة. رحتُ أفكّر بأنني تخيّلتُ سماع الصوت، وفي هذه اللحظة بالذات سمعتُه ثانيةً. سمعتُ تلك الطرقة. سمعتُ خشخشة. أطبقت أضراسي الطاحنة على بعضها مثلما تفعل ملزمة من صنع **بلاك آند ديكر**، أما أصابعي فالتفّت على بعضها، وشكّلت قبضةً في كل يد.

هل يتواجد شخص ما في شقتي؟ تعودت على سماع الأصوات الروتينية في هذا المكان، لكن هذا الصوت بدا مختلفاً، وغريباً عن بقية الأصوات، وتأكدتُ من أنه خارج مجموعة الأصوات المعتادة.

رفعتُ أغطية السرير عني بصمت، ودفعتُ بساقيّ إلى خارج السرير. تذكّرتُ الهدوء الذي تميّزت به الليلة الماضية، وأسرعتُ إلى ارتداء بلوزتي وسروال الجينز. مشيتُ فوق سجادة الغرفة بهدوء.

تـــوقفتُ عند باب غرفة النوم كي انظر خلفي بحثاً عن سلاحٍ محتملٍ. لم أجد شيئاً. اختفى حتى ضوء القمر، لكن الضوء الصادر من مصابيح الشوارع تسلّل عبر نافذة غرفة النوم الأخرى، فأضاء الرواق جزئياً بوميض شاحب. تقدّمتُ إلى الأمام ومررتُ أمام الحمام ثمّ اتجهتُ نحو الرواق الذي ينتهي بأبواب تطل على فناء شقتي. مشيتُ قليلاً ثم توقفتُ كي أصغي، وأمسكتُ أنفاسي، وفتحتُ عينيّ جيداً. سمعتُ الـــصوت مجـــدداً عند مدخل المطبخ. جاء صوت الطرقة أولاً، ثم تبتعها أصوات الخشخشة. أتت هذه الأصوات من مكان ما قرب الأبواب الزجاجية.

اســـتدرتُ يميـــناً نحو المطبخ، ونظرتُ باتجاه الأبواب الزجاجية التي تقع على جهـــة باحـــة شـــقتي. لم أشـــاهد أي شـــيء متحرك. لعنتُ، بصمت، كرهي للمـــسدسات، وتفحصتُ المطبخ بكامله بحثاً عن سلاحٍ ما. لا أستطيع القول إنّ مطبخـــي ترســـانة ســـلاح. مرّرتُ يدي المرتعشة على الجدار وتحسستُ مقبض الـــسكين. اختـــرتُ سكيناً تُستخدم لتقطيع الخبز، ولففتُ أصابعي حول المقبض. وجّهتُ النصل إلى الخلف، ثم أسدلتُ ذراعيّ على طول امتدادهما.

تقـــدمتُ بقـــدمين حافيتين إلى مسافةٍ تكفيني كي أتطلع نحو غرفة الجلوس. وجدتُها مظلمة مثل غرفة النوم والمطبخ.

تمكنت من رؤية **بيردي** وسط هذه الظلمة. رأيته جالساً على بعد أقدام قليلة مـــن الأبـــواب. ركّز الهرّ عينيه على شيء ما خارج الزجاج. لاحظتُ أنه يحرّك طـــرف ذيله جيئةً وذهاباً بحركة دائرية مذعورة مشكلاً أقواساً صغيرة. بدا متوتراً مثل سهم يتهيأ للانطلاق.

تـــسبّب صـــوت الطرقة والخشخشة بهبوطٍ في نبض قلبي، وجمودٍ في حركة أنفاســـي. جـــاء الصوت من الخارج، وما لبثت أذنا **بيردي** أن أصبحتا في وضع أفقي.

وضعتني خطواتٌ مرتعبةٌ خمسٌ قرب **بيردي**. مددتُ يدي بشكلٍ عفوي كي أمـــسّد رأسه. فأجفل نتيجة هذه اللمسة التي لم يتوقعها، ثم انطلق عبر الغرفة بقوةٍ جعلـــت مخالبه تترك آثارها على السجادة. بدت هذه الآثار مثل فواصل سوداء في وســـط هـــذا الجو الكئيب. أعرف أنه لو كانت القطط تستطيع أن تصرخ، فإنّ **بيردي** كان سيفعل هذا.

وتّرت انطلاقته أعصابي بالكامل. أحسستُ بأنني مشلولة للحظة، وتسمّرتُ في مكاني مثل التمثال الموجود في **جزيرة إيستر**.

راح صوت الذعر يحثّني: افعلِي مثل ذلك الهر واخرجي من هنا!

رجعــــتُ خطـــوةً إلى الخلف. سمعتُ طرقةً، ثم خشخشةً. توقفتُ، وتمسّكتُ بالـــسكين وكأنها حبل نجاتي. مرّت فترة صمت وسط هذه الظلمة المخيّمة. **دا – دوم. دا – دوم**. أصـــغيتُ إلى دقات قلبي، وبحثتُ في أنحاء دماغي عن مساحةٍ فيه تستطيع التفكير بشكل سليم.

أبلغني ذلك الجزء من تفكيري أنه إذا كان هناك من شخصٍ في الشقة فلا بد أنه موجود خلفي. إنّ طريق هروبك هو إلى الأمام، وليس إلى الخلف. أما إذا كان هناك من شخصٍ في الخارج تماماً فيجب عليك ألا تمنحيه طريقاً للدخول.

دا – دوم. دا – دوم.

أقـــنعت نفسي أنّ الضجيج أتى من الخارج، وأنّ الصوت الذي سمعه **بيردي** أتى من الخارج أيضاً.

انظـــري. أسندي نفسكِ إلى الجدار الذي يقع إلى جوار الأبواب المشرفة على الباحة، ثم افتحي الستائر قليلاً بما يكفي لتنظري إلى الخارج، فلعلكِ تستطيعين رؤية شكلٍ ما في الظلمة المخيّمة.

إنه منطقٌ معقول.

تـــسلحتُ بـــسكيني الـــتي صنعتها شركة **شيكاغو كتلري**، ثم رفعتُ قدمي المـــسمّرة مـــن فـــوق السجادة، وتقدمتُ قليلاً إلى الأمام، ثم وصلتُ إلى الجدار. تنفستُ بعمق، وأزحت الستارة بوصات قليلة. بدت الأشكال في الباحة الخارجية غـــير محـــددة تمامـــاً، لكن المرء يستطيعُ تمييزها. ميّزتُ الشجرة، والمقعد، وبعض الشجيرات. لم ألمح أي شيء يتحرك، ما عدا الأغصان التي تحركها نسمات الهواء. بقـــيتُ في موقعي برهةً طويلةً. لم يتغيّر شيء. تقدمت إلى وسط الستائر واختبرتُ مقبض الباب. ووجدتُه ما زال مقفلاً.

بقيت السكّين جاهزةً في يدي. مشيتُ بمحاذاة الجدار نحو الباب الرئيسي للشقة. تـــوجهتُ نحو نظام الأمان. ومضَ ضوء الإنذار بصورة طبيعية، وهو الأمر الذي يدلّ على عدم حدوث عملية اختراق. وجدتُ نفسي ألمس زر الاختبار عفوياً.

قطـــع ضجيجٌ ما حبل الصمت، ورغم أنني توقعتُ حدوث صوتٍ كهذا، إلا أنني قفزتُ من مكاني. تحركت يدي مرتعشةً إلى الأعلى، وهكذا أصبحت السكّين في جهوزية كاملة.

صـــاح بي ذلك الجزء المنطقي من دماغي: **أيتها الغبية!** إنّ جهاز الأمان يعمل بصورة سليمة، و لم يخترقه أحد! والأبواب لم تُفتح! و لم يدخل أحدٌ إلى الشقة.

إذاً فالمقتـــحم مـــا زال في الخارج! أقنعتُ نفسي بهذا، لكنني كنت ما أزال أرتجف.

قال لي دماغي، نعم يُحتمل ذلك، لكن ذلك ليس بالأمر السيّئ. أضيئي بعض الأنوار، ثم أحدثي بعض الحركة، وعندها سيعمد أي متطفل إلى الهرب.

حاولـــتُ أن أبلـــع ريقي، لكنّ فمي كان جافاً. أظهرتُ دليلاً على شجاعتي عـــندما أضأتُ مصباح الرواق، ثم أتبعتُ ذلك بإضاءة كل الأنوار الموجودة ما بين الـــرواق وغرفة نومي. لم أجد أثراً لدخيلٍ في أي مكان من شقتي. وما إن جلستُ علـــى حافة سريري وأنا ممسكة بالسكّين حتى سمعتُ الصوت ثانية. كانت طرقةً مكبوتةً، ثم تبعتها خشخشة. قفزتُ، وكدتُ أجرح نفسي.

رحـــتُ أفكّر بعد أن تشجعتُ بقناعتي أنه ما من دخيلٍ في هذه الشقة. حسناً أيها النذل، دعني أمحك لمرة واحدة، وعندها سأتصل بالشرطة.

عدتُ إلى الأبواب الزجاجية المحاذية للباحة الجانبية، لكنني عدتُ مسرعةً هذه المـــرة. كانـــت الغـــرفة لا تزال مظلمة، أزحتُ طرف الستارة مجدداً ونظرتُ من خلالها، لكنني شعرت بشجاعة أكبر هذه المرة.

بقيَ المشهد كما هو. كانت الأشكال مألوفةً لدي وإن لم تكن واضحة، ولاحظـــتُ أنّ بعضها يتحرك مع الهواء. عادت أصوات الطَرَقات والخشخشة ثانية! أصغيتُ مجدداً ورحتُ أفكّر في أنّ الضجيج عاد من الأبواب، وليس من خارجها.

تذكـــرتُ وجـــود الضوء الكاشف في الباحة، وتحركتُ كي أجد المفتاح. لم يكـــن الوقت مناسباً للقلق بشأن إزعاج الجيران. انطلق الضوء الكاشف ينشر نوره في الـــباحة. عدتُ إلى طرف الستارة. لم يكن الضوء قوياً بما يكفي، لكن ظهرت ملامح الأشكال الموجودة في الباحة بشكلٍ كافٍ.

توقف المطر عن الهطول، لكن الهواء تحرّك. تراقصت غلالة من الضباب حول حـــزمة الــضوء الكاشف. أصغيتُ لبرهة. لم يحدث شيء. تفحصتُ مجال الرؤية المــتاح لـــدي مرات عديدة. لم أجد شيئاً. عطلتُ عمل جهاز الأمان من دون أن أفكّر بالأمر، وفتحتُ الباب الزجاجي، ثم مددتُ رأسي إلى الخارج.

شاهدتُ إلى يساري شجرة **التنوب** بمحاذاة الجدار. لم يتداخل أي شكلٍ آخر مع أغصانها. هبّت الرياح قليلاً، فتحركت الأغصان. سمعتُ طرقةً، ثم جاء صوت الخشخشة. اخترقتني موجة جديدة من الرعب.

تطلعـــتُ ناحية البوابة. إنها الناحية التي تصدر الأصوات من جهتها. تحركتُ بـــصري ناحيـــتها في الـــوقت المناسب كي ألمح حركة صغيرة قبل أن تستقر في مكانهـــا. تـــسمّرتُ في مكاني كي أراقب ما يجري. هبّت الرياح ثانية فتحركت البوابة قليلاً في النطاق الذي يسمح مزلاجها بذلك. سمعتُ طرقةً، ثم خشخشةً.

شعرتُ بالكدر، لكنني خرجتُ إلى الباحة وتوجهتُ مباشرةً نحو البوابة. لماذا لم أنتـــبه لهـــذا الصوت من قبل؟ أجفلتُ ثانيةً. لم أشاهد أي أثرٍ للقفل. إنّ القفل الذي يمنع حركة المزلاج لم يكن موجوداً. هل أهمل **ونستون** إعادته إلى مكانه بعد أن فرغ من جزّ العشب؟ لا بد أنّ ذلك هو الذي حدث.

دفعـــتُ الـــبوابة بقوة من أجل إعادة المزلاج الذي يضغط على البوابة ويمنع تحـــركها من مكانها، ثم استدرتُ نحو الباب. سمعتُ عندها صوتاً آخر، لكنه كان أكثر دقةً، وكبتاً.

نظـــرتُ نحو مصدر الصوت فرأيت شيئاً غريباً في حديقة أعشابي. بدا ذلك الـــشيء مـــثل ثمرة قرعٍ بارزةٍ من الأرض، ومرفوعة على عصا. عرفتُ عندها أنّ الخشخشة الخفيفة تصدر عن الغطاء البلاستيكي عندماً يحركّه الهواء.

تملّكـــني إدراك مخـــيفٌ لمـــا يجـــري. أحسستُ بوجود شيء ما تحت الغطاء البلاســـتيكي، ومـــن دون أن أدرك سبب معرفتي. أخذت ساقاي بالارتعاش وأنا أمشي فوق العشب، وعندما رفعتُ الغطاء البلاستيكي إلى الأعلى.

اجتاحـــتني مـــوجة مـــن الغثـــيان لـــدى رؤية الشيء الموجود تحت الغطاء البلاســـتيكي. اســـتدرتُ كي أتقيأ. وضعتُ يدي فوق فمي، وعُدتُ مسرعةً إلى داخل الشقة. أغلقتُ الباب وأقفلتُه جيداً، ثم أعدتُ تشغيل جهاز الأمان.

انـــدفعتُ مـــسرعةً كي أطلب رقم هاتف، وأجبرت نفسي على نقر الأزرار الصحيحة. تلقيتُ رداً على المكالمة بعد الرنة الرابعة.

"تعالَ إلى هنا، رجاءً. تعالَ الآن وفوراًا!"

أجابني صوتٌ مترنح: "برينان؟ ما هذا..."

"تعالَ إلى هنا في هذه الدقيقة بالذات يا **رايان**! ***الآن!***"

24

شربتُ مقدار غالون من الشاي، وأنا جالسة على الكرسي الهزّاز الذي يجلس علـــيه **بـــيردي**، ورحتُ أراقب **رايان** بتكاسل. كان يجري مكالمته الثالثة، لكنها كانـــت مكالمـــةً شخصيةً هذه المرة، وراح يؤكد للشخص الآخر إنه سيبقى هنا لـــبعض الوقت. استنتجتُ من رد فعله أنّ المتلقي لم يكن سعيداً. يبدو أن الأمور ليست على ما يرام بينهما.

تمتلك الهستيريا بعض الفوائد. وصل **رايان** في غضون عشرين دقيقة، وأسرع إلى تفتـــيش الشقة والباحة، ثم اتصل بوحدة **شرطة مونتريال** من أجل تأمين وحدة دوريـــة تقوم بالإشراف على البناية. وضع **رايان** الكيس ومحتوياته المرعبة في كيس أكـــبر حجماً، وأقفله تماماً. وضع رايان الكيس بعد ذلك في زاوية من زوايا غرفة الطعـــام. قـــال لي إنه سينقله إلى المشرحة هذه الليلة، وأضاف أنَّ فريق الاستعادة سيأتي في الصباح. جلسنا في غرفة المعيشة نرتشف الشاي، لكنه أخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً ويتكلم في هذه الأثناء.

لم أســـتطِع التأكد من العنصر الذي ساهم في تهدئتي أكثر من غيره، **رايان** أم الشاي. لا أعتقد أنه الشاي. إنّ ما أردتُه فعلاً كان شراباً قوياً. لكن كلمة **أردت** ليست بالوصف المناسب في الحقيقة. **الاشتهاء** هي الكلمة التي تعطي المعنى الأوفى. أردتُ، في الواقـــع، أن أتناول عدة أنواع من المشروبات. غابت عني تلك الزجاجة الـــتي أستطيع أن أصبّ مشروبي منها. انسَيْ الأمر يا **برينان**، لأن الزجاجة مقفلة بإحكام وستبقى كذلك.

ارتشفتُ الشاي وراقبتُ **رايان** في الوقت نفسه. ارتدى سروالاً من الجينز وقميصاً من **الدينيم** الشاحب. يا له من خيار جيد. ملأ لونٌ أزرق عينيه، مثل ذلك الذي كان يلوّن الأفلام القديمة. أنهى مكالماته، ثم جلس.

رمى جهاز الهاتف على الأريكة، ومرّر يداً فوق وجهه: "هذا يكفي". بدا متعباً بشعره الأشعث، لكنني، أنا الأخرى، لم يكن مظهري مثل **كلوديا شيفر**.

رحتُ أتساءل عما كان يقصده بكلمته هذه.

قلتُ له: "أقدّر مجيئك، وأنا آسفة على إفراطي بالذعر". سبق لي أن قلتُ هذا، لكنني كررته.

"كلا لم تفرطي".

"عادةً أنا لا..."

"لا بأس. سنلقي القبض على هذا المعتوه".

"كان بإمكاني..."

انحنى إلى الأمام، وأسند مرفقيه على ركبتيه. أمسكت زرقة عينيه عينيّ، وأوقعتهما في الأسر. علقت كتلة كتانية صغيرة بأحد رموشه، فبدت مثل حبيبة طلعٍ تتعلق بالمدقة.

"الوضع خطيرٌ يا **برينان**. لدينا رجلٌ طليقٌ معتوهٌ عقلياً. إنه منحرفٌ من الناحية النفسية. يشبه هذا الرجل الفئران التي تحفر أنفاقاً تحت أكوام النفايات، وتتسلل من خلال أنابيب الصرف الصحي في هذه المدينة. إنه حيوانٌ مفترسٌ، ولا شك في أنّ وصلاته العصبية ليست في وضعها الطبيعي، ولذلك وضعَكِ في هذا الكابوس الذي يتخبّط فيه. ارتكب الرجل خطأً كبيراً، ولذلك سنجبره على الخروج إلى دائرة الضوء ونقبض عليه. إنّ هذا هو ما تفعلينه مع كل أنواع الحشرات".

أدهشني رد فعله القوي، لذلك لم أستطعِ التفكير بأي شيء أقوله. بدا لي أنّ الإشارة إلى استعاراته المتداخلة هي عمل غير حكيم.

اعتبرَ صمتي بمثابة تشكيك بما قاله.

"إنني أعني كل ما قلته يا **برينان**. إنّ هذا النذل لا يمتلك ذرةً من التفكير السليم، لذلك لا أنصحك أبداً أن تجازفي معه".

جعلـــني تعليقه أميل إلى الفظاظة، وهو ميلٌ لا يحتاج إلى الكثير من الجهد كي يظهر عندي. شعرتُ بالضعف وبالحاجة إلى الاعتماد على الآخرين إلى درجة أنني كرهتُ نفسي، ولهذا حوّلتُ الإحباط الذي شعرتُ به تجاهه.

صرختُ في وجهه: "أجازف؟"

"اللعنة يا **بريتان**، أنا لا أعني ما حدث هذه الليلة!"

عـــرف كلانـــا ما يقصده تماماً. كان محقاً، وهو الأمر الذي زاد من شعوري بالانـــــزعاج، وميلـــي إلى المشاكسة. حرّكتُ الشاي الذي بردَ في هذا الوقت، وحافظتُ على صمتي.

تابع **رايان** العزف على الوتر ذاته: "من الواضح أنّ هذا الحيوان كان يطاردك. إنه يعرف أين تسكنين، ويعرف كذلك كيفية الدخول إلى شقتك".

" في الواقع، لم يدخل إلى الشقة".

"خبّأ الرجل رأساً بشرياً في حديقتك الخلفية!"

شـــعرتُ أنّ الهـــدوء الـــذي كنت أشعر به قد تصدّع. صرختُ في وجهه: "أعرف ذلك!"

اتجهـــت عيـــناي إلى زاوية غرفة الطعام. تواجد في تلك الزاوية ذلك الشيء الـــذي وجدناه في الحديقة. حافظ على صمته، ولم يتحرك. إنه التحفة التي تنتظر متابعة العمل بها. كان يُمكن أن تكون أي شيء، كرة طائرة على سبيل المثال، أو أي كرة أخرى، أو رأس من الشمّام ربما. بدا ذلك الشيء المستدير بريئاً في كيسه الأسود اللامع الذي وضعه **رايان** في كيس بلاستيكي شفاف.

حـــدّقتُ فـــيه، فتراقـــصت في ذهني صور محتوياته المرعبة. رأيتُ الجمجمة المـــزروعة في الأرض فـــوق رقبة هزيلة. رأيتُ محجرين فارغين يحدقان إلى الأمام، وذلك الوميض الزهري اللون الذي ينعكس على أسنان بيضاء ملأت الفم المفتوح. تخـــيّلتُ ذلـــك الدخيل وهو ينشر القفل، ثم يعبر الباحة بكل جرأة كي يخبئ تحفته التذكارية المرعبة.

كـــرّرتُ القـــول: "أعرف ذلك. أنتَ على حق. يتعيّن عليّ أن أكون أكثر حذراً".

حرّكتُ الشاي في كوبي مجدداً، وبحثتُ في أوراقه عن الأجوبة التي أحتاج إليها.

"أتريد كوباً من الشاي؟"

"لا. أنا على ما يرام هكذا. سأتحقق من وصول وحدة الدورية".

تـــوجّه إلى آخر الشقة، فانصرفتُ إلى إعداد كوبٍ آخر من الشاي لنفسي. كنتُ ما أزال في المطبخ عندما عاد.

"رأيـــتُ وحــــدة دورية متوقفة في الجهة المقابلة من الشارع. ستعود وحدةٌ أخــــرى بعد قليل. سأتحدث معهم قبل انصرافي. يتعيّن أن لا يقترب أحد من هذه البناية من دون معرفة الشرطة".

ارتشفتُ جرعة من الشاي، ثم استندتُ إلى الطاولة: "شكراً".

تناول **رايان** علبة سجائر **دو مورييه**، ورفع حاجبه في اتجاهي.

"بالتأكيد".

لا أحـــب أن يدخن أحد في شقتي، لكن لعل الرجل متضايقٌ من وجوده في شقتي. إنّ **الحياة هي فن التسوية**. فكّرتُ في البحث عن منفضة السجائر الوحيدة الموجودة في شقتي، لكنني لم أفعل ذلك. تابعَ التدخين، وتابعتُ أنا ارتشاف الشاي بصمت. استندتُ إلى الطاولة، واستغرق كلانا في التفكير. لم يُسمع في الشقة غير همهمة البرّاد.

"أتعــرف، لم تــرعبني الجمجمـــة، لأنني تعوّدت على رؤيتها. كانت هذه خارج... السياق".

"أجل".

"إنهــا أمرٌ معتاد. أعرف ذلك، لكنني أشعر بالإهانة. أشعر وكأن مخلوقاً غريباً قد اخترق فضائي الشخصي، ثم انصرف بعد ذلك عندما فقد اهتمامه بكل شيء".

أمـــسكتُ بالكـــوب بشدة، وامتلكني شعور بالضعف، لكنني كرهتُ هذا الشعور. شعرتُ بالغباء أيضاً. لا بد أن يكون قد سمع شيئاً من هذا الحديث مرات عديدة، لكنه لم يقل إنّ ذلك قد حدث.

"أتعتقد أنه **سان جاك**؟"

نظر إليّ، ثم نفض رماد سيجارته في حوض غسيل الأطباق.

عاد كي يستند إلى الطاولة، وأخذ نفساً عميقاً من سيجارته. مدّ رجليه حتى كادتا تلامسان البرّاد.

"لا أعـــرف. إننا لا نستطيع حتى أن نحدد هوية الرجل الذي قمنا بملاحقته، لأن **سان جاك** هو اسم مستعار ربما. لا أعتقد أنّ النذل الذي يستخدم هذا الاسم، كائـــناً مـــن كان، يعيش في هذه المنطقة. تبيّن لنا أن صاحبة الشقة لم تره سوى مرتين، كما أننا راقبنا المكان لمدة أسبوع كامل، ولم نشاهد أحداً يدخل الشقة أو يخرج منها.

همم. اسحب الدخان يا **رايان**، ثم أخرِجه، وشاهد دوّاماته.

"احتفظ الرجل بصورتي بين مجموعته. اقتطعها وعَلّمها".

"أجل".

"كن صريحاً معي".

صمت لدقيقة، قال لي بعد ذلك: "سيكون الرجل فريستي، وهذه المصادفات غير محتملة أبداً".

أعـــرف ذلك، لكنني لا أريد أن أسمعها منه، حتى إنني لا أرغب بالتفكير في المعنى الذي تحمله. أشرتُ نحو الجمجمة.

"أهي تابعة للجثة التي وجدناها في **سان لامبرت؟"**

"واو. إنها موطنك".

أخـــذَ نفساً أخيراً، ثم سكب مياهاً باردةً على عقب سيجارته، ثم نظر حوله كـــي يجـــد مكاناً كي يتخلّص منها. أزحتُ الطاولة وفتحتُ خزانةً تحتوي كيس نفايات. وضعتُ يدي على ساعده ما إن نهض.

"**رايـــان**، أتعتقد أنني مجنونة؟ أتعتقد أنّ فكرة القاتل التسلسلي هي من بنات أفكاري؟"

انتصب واقفاً ثم ركّز عينيه عليّ.

"لا أعـــرف. إنني فعلاً لا أعرف، لعلك مصيبة. قد تكونين على حق. لدينا أربـــع ضـــحايا من النساء على مدى عامين. تعرضن جميعاً لتقطيع الأطراف، أو التـــشويه، أو كـــلا الأمرين. يُحتمل وجود ضحية خامسة أيضاً، والتي تعرضت لتشويهات مماثلة. لاحظنا إدخال الأداة، لكن هذا هو كل شيء. إننا لا نمتلك أي رابـــط إضافي لغاية الآن، لكن يُحتمل وجود رابط يجمع بين هذه الجرائم، وقد لا يكـــون هـــذا الرابط موجوداً. ويُحتمل وجود الكثيرين من هؤلاء الساديين الذين

يعملـــون بشكل منفصل. يبقى احتمال أن يكون **سان جاك** هو من قام بكل هذه الجـــرائم، ولعله يحب جمع قصص عن تعذيب الآخرين. يُحتمل أن يكون شخصٌ واحـــدٌ قد نفذها، لكنه مجرم غير **سان جاك**. ويُحتمل أن يكون ذلك الوغد يخطط لخطوته التالية في هذه الأثناء، وأن يزرع جمجمةً أخرى في حديقتك الخلفية، وربما الأمر ليس كذلك. لا أعرف، لكنني أعرف أنّ أحد المعتوهين قد أخفى جمجمة بين أزهـــار البيتونيا في حديقتك. اسمعي، لا أريدكِ أن تجازفي بشيء. أريدكِ أن تعديني أن تكوني حذرة. لا تقومي بأي مغامرات".

عاد ليمارس دوره الأبوي. وعدته: "لا تقلق".

"ماذا؟" كان صوته حاداً بما يكفي كي أتوقف عن إبداء ملاحظات تافهة.

"ماذا تريدني أن أفعل بالضبط؟"

"لا تقدمـــي على مغامرات سرية في الوقت الحاضر". أشار بإبهامه إلى الكيس الذي يحتوي الدليل. "أبلِغيني عمنً يكون هناك".

نظر إلى ساعته.

"يا الله! إنها الثالثة وخمس عشرة دقيقة. هل ستكونين بخير؟"

"أجل. شكراً لمجيئك".

"على الرحب والسعة".

تفحـــص الهاتـــف ونظام الأمان، للمرة الثانية، ثم تناول الكيس البلاستيكي. رافقتُه إلى خارج الشقة. وقفتُ أراقب مغادرته، ولم يسعني إلا أن ألاحظ أنّ عينيه ليستا الميزة الوحيدة حسبما يُظهر الجينـــز الذي يرتديه. ما هذا يا **برينان!** هل هذا التفكير هو نتيجة الإفراط في شرب الشاي، أم نتيجة الإقلال من شيء آخر.

عاد الكابوس مجدداً عند الساعة الرابعة وسبع وعشرين دقيقة بالضبط. ظننتُ في الـــبداية أنني أحلم بالأحداث التي جرت في السابق. لكنني لم أستسلم للنوم في الواقـــع. استلقيتُ هناك، وحثثتُ نفسي على الاسترخاء، ثم سمحتُ لأفكاري أن تتفـــرق وتتلاقـــى ثانية، أي مثلما تفعل الأشكال في جهاز **المشكال**. لاحظتُ أنّ الـــصوت الذي أسمعه في هذه الأثناء كان حقيقياً بما يكفي. تمكنتُ من تمييز طبيعة هذا الصوت، وماذا يعني. سمعتُ أزيز نظام الأمان، فاستنتجتُ أنّ باباً، أو نافذةً قد فُتحت. عاد ذلك الدخيل، واقتحم شقتي.

تـــصاعدت ضـــربات قلبي إلى رقم قياسي، وشعرتُ بعودة الرعب وسيطرته علـــيّ. كان خانقاً في البداية، ثم أصبح مسبباً للشلل، وما لبث أن تسبب بانسياب دفعـــة مـــن **الأدرينالين** جعلتني يقظةً، لكن متشككة. ما العمل؟ هل أواجهه؟ هل أهـــربُ؟ تمـــسكت أصابعي بطرف غطاء السرير، وتقافزت أفكاري في اتجاهات مختلفة. كيف استطاع هذا الرجل المرور عبر وحدات الشرطة؟ في أي غرفةٍ يتواجد الـــرجل؟ أين السكّين؟ بقيت على طاولة المطبخ! استلقيتُ هناك، جامدةً، ورحتُ أفكّر بالخيارات المتاحة أمامي. سبق **لرايان** أن تفحص أجهزة الهاتف، لكنني أردتُ أن لا يزعجني أحد في نومي، لذلك نـــزعتُ قابس الهاتف الموجود في غرفة النوم. هل أستطيع أن أجد سلك الهاتف، وأن أكتشف مكان وجود القابس، وأن أجري مكالمـــة قـــبل أن يسيطر هذا الدخيل عليّ؟ أين حدّد **رايان** مكان وجود سيارات الـــشرطة؟ وهـــل يستطيع رجال الشرطة سماعي، والتحرك في الوقت المناسب، إذا فتحتُ نافذة غرفة النوم، وبدأتُ بالصراخ؟

أصـــغيت السمع كي أسمع كل حركةٍ تجري في الظلمة التي تحيط بي. مهلاً! سمعـــتُ طـــرقةً خفيفةً. هل كانت في ردهة المدخل؟ أمسكتُ أنفاسي. انغرزت أسناني في شفتي السفلى.

سمعتُ صوت احتكاك شيءٍ ما مع البلاط. هل كان هذا الصوت قرب ردهة المدخل. هل **بيردي**؟ لا، لأن الصوت نتج عن شيءٍ ثقيل. هل عدنا مجدداً؟ سمعتُ صـــوت احـــتكاك خفيف، وبدا أنه صوت احتكاكٍ مع الجدار، وليس مع أرضية المنـــزل. أدركـــتُ أنّ مصدر الصوت هو أعلى من الارتفاع الذي يستطيع الهر الوصول إليه.

قفـــزت إلى ذهني صورة من تلك الصور التي يختزنها من أفريقيا. كانت جولةً ليلـــيةً في **أمبوشـــيلي**. شـــاهدتُ نمراً وقد جمُد أمام أنوار الجيب الساطعة. جثمَ، وتوترت عضلاته، وراح أنفه يعب هواء الليل، ثم اقتربَ، بصمت، من غزالةٍ تجهل ما ينتظرها. هل إنّ ذلك الرجل الذي يلاحقني يسيطر على الظلمة مثل أنوارٍ ذلك الجيب؟ وهل يخطط لأفضل طريق له كي يصل إلى غرفة نومي؟ هل ينشغل الرجل بقطـــع الطرقات المحتملة لهروبي؟ وماذا يفعل في شقتي؟ ولماذا عاد؟ ماذا يتعيّن عليّ أن أفعل؟ هل ينبغي عليّ فعل أي شيء؟ لا تستلقي هنا مكتفية بالانتظار. افعلي شيئاً!

الهاتف! سأحاول الوصول إلى الهاتف. يتواجد أفراد الشرطة خارج شقتي مباشرة، ولا بد أنّ رسالة الاستغاثة ستصلهم. هل أستطيع إرسالها من دون كشف موقعي؟ وهل يمتلك هذا الأمر أهمية؟

رفعتُ الأغطية ببطء وزحفتُ على ظهري بهدوء. بدا حفيف الأغطية بمثابة صوت الرعد في أذنيّ.

سمعتُ حفيفاً على الجدار للمرة الثانية. جاء أقوى هذه المرة، وأقرب. بدا الأمر وكأن ذلك الدخيل قد أصبح أكثر ثقةً بنفسه، وأقل ميلاً نحو الحذر.

توترت كل عضلة في جسدي، وكل وترٍ من أوتار هذه العضلات، لكنني تابعتُ الزحف نحو الجهة اليسرى من السرير. منعتني الظلمة الحالكة من تحديد اتجاهاتي. تساءلتُ لماذا أسدلتُ الستائر؟ لماذا نزعتُ قابس الهاتف؟ كي أستطيع النوم لفترةٍ أطول؟ غبية! غبية! جدي السلك، وجدي القابس، ثم اطلبي الرقم 911 في الظلمة. أجريتُ جردةً في ذهني لكلِ الأشياء الموجودة على الطاولة قرب سريري، ورسمتُ المسار الذي ستأخذه يدي. لا بد أن أنزلق إلى الأرض كي أصل إلى قابس الهاتف.

استندتُ على مرفقيّ كي أرفع جسدي إلى جهة اليسار من السرير. راحت عيناي تبحثان في الظلمة، لكن الظلمة كانت شديدة بحيث يصعب تمييز كل معالم الغرفة ما عدا بابها. كان الباب مضاءً بنورٍ خافتٍ صادرٍ عن جهازٍ يحتوي شاشة وامضة. لم أشاهد ظلالاً على الباب.

تشجعتُ قليلاً ورفعتُ ساقي اليسرى عن السرير، ورحتُ أتحسس الأرضية ببطء، ومن دون أن أرى شيئاً عليها. رأيتُ ظلاً يعبر الباب. جمُدت رجلي في الهواء، وأُصيبت عضلاتي بشلل تام.

رحتُ أفكّر في أنّ هذه هي النهاية. أنا هنا في سريري، وحيدةً، مع أنّ أربعة من رجال الشرطة يتواجدون في الخارج، لكنهم غافلون عما يجري. تخيّلتُ النساء الأخريات، عظامهنّ، وجوههنّ، وأجسادهن التي أُفرغت من أحشائها. تخيّلت **الغطّاس** (المطبة)، والتمثال. لا! صرخ صوت داخل رأسي. ليس أنا، رجاءً. ليس أنا. كم من الصرخات أستطيع أن أُطلق قبل أن يصل القاتل إليّ؟ هل سيُسكت هذه الصرخات بضربةٍ واحدة من نصل سكينه يوجهها إلى رقبتي؟ هل ستكفي هذه الضربة كي تثير انتباه رجال الشرطة؟

راحت عيناي تجولان في الغرفة جيئةً وذهاباً. ارتعبت هاتان العينان مثل عينَي حيوان علق في مصيدة. رأيتُ كتلة مظلمة تملأ مدخل الغرفة. كان شكلاً بشرياً. جمُدتُ في مكاني صامتةً، وغير قادرةٍ على الحراك، وعاجزةً حتى عن إطلاق صرخاتي الأخيرة.

تردد ذلك الشخص، وبدا غير واثق من خطوته التالية. لم أتمكن من رؤية ملامح وجهه، لأن كل ما شاهدته كان خيالاً ملأ مدخل الغرفة، مدخلها الوحيد، ومخرجها الوحيد. يا الله! لماذا لا أحتفظ بمسدسٍ في غرفتي؟

مرّت الثواني. أيُحتمل أن لا يرى ذلك الشخص شكلي الممدّد على حافة السرير؟ أيُحتمل أنّ الغرفة بدت، من مدخلها، فارغة؟ هل يحتفظ الرجل بمصباح؟ هل سيقترب من مفتاح النور في الغرفة؟

تخلّص دماغي من الشلل الذي أصابه. ماذا يعلّمون في صفوف فن الدفاع عن النفس؟ اهرب إذا استطعت. لا أقدر. واجِه قدر المستطاع إذا وجدتَ نفسك في الزاوية. الجأ إلى العضّ. افقأ عين خصمك. ارفس. أنزل الأذى بخصمك! القاعدة الأولى: لا تدع خصمك يسيطر عليك! القاعدة الثانية: لا تدعه يطرحك أرضاً! أجل. عليكَ أن تفاجئه. هل سيتمكن رجال الشرطة من إنقاذي إذا ما استطعتُ أن أصل إلى الباب الخارجي؟

وجدت ساقي اليسرى مكانها على أرض الغرفة. ما زلتُ مستلقيةً على ظهري. حرّكتُ ساقي اليمنى نحو حافة السرير، لكن ببطء شديد، أي مسافة ميليميتر وراء آخر، وارتكزتُ على ردفيَّ في حركتي هذه. كانت قدماي قد وصلتا إلى الأرض عندما أقدم ذلك الشخص على حركة مفاجئة. أعمت عينيّ موجة من الضوء.

انتقلت يداي بسرعة البرق إلى عينيّ. اندفعتُ إلى الأمام في جهد يائسٍ مني كي أصدم ذلك الشخص وأدفعه جانباً، وهو الأمر الذي يسمح لي بالهرب من غرفة النوم. اصطدمت قدمي اليمنى بغطاء السرير ووجدتُ نفسي أسقط على السجادة. تدحرجتُ بسرعة ناحية اليسار، ثم نهضتُ مستندةً على ركبتيّ، واستدرتُ كي أواجه الشخص الذي يهاجمني. القاعدة الثالثة: لا تدر ظهرك مطلقاً للشخص الذي يهاجمك. بقي ذلك الشخص في الجهة البعيدة من الغرفة. وضع يده

علـــى مفتاح النور. لم أميّز وجهه إلا الآن. أعتقد أنّ اضطراباً داخلياً ما، لم أستطِع فهـــم حقيقته، تسبّب بتشوّش ملامح هذا الوجه عندي. إنه وجهٌ أعرفه جيداً. أما وجهي فتقلبت تعابيره كثيراً: الرعب، الإدراك، والتشوّش. التقت عيوننا لفترة من الزمن. لم يتحرك أحدٌ منا. لم يكلّم أحدنا الآخر. حدّق كل واحدٍ منا بالآخرٍ عبر فضاء غرفة نومي.

صرختُ.

"ســـحقاً لكِ يا **غابي**! أيتها الساقطة الغبية! ماذا تفعلين هنا؟ ماذا فعلتُ لك؟ أيتها الساقطة! أيتهاَ الساقطة اللعينة!"

جلـــستُ، ووضعتُ يديّ على فخذيّ، و لم أبذل أي جهد للتحكم بدموعي التي أغرقت وجهي، أو بالتنهدات التي أنهكت جسدي.

25

راح كياني يهتز بكامله، وانطلقتُ بالنشيج والصراخ. لم يكن لكلماتي الكثير من المعاني، لكنها أصبحت متفككة عندما تداخلت مع تنهداتي. أدركتُ أنّ الصوت هو صوتي، لكنني لم أمتلك القدرة على التحكم فيه. انفلتت من فمي الكلمات التي تخلو من المعاني، بينما استمر جسدي بالصراخ والنشيج.

تغلّب النشيج على الصراخ، وتراجع ليتحول إلى أصوات مكتومة. انطلقت مني آخر ارتعاشة، فتوقفتُ عن الاهتزاز وركزتُ على **غابي**، ووجدتُها تبكي هي الأخرى.

وقفت في الغرفة ممسكةً بمفتاح النور بإحدى يديها، بينما ضغطت يدها الأخرى على صدرها. ارتعشت أصابعها فانفرجت، ثم انقبضت ثانية. راح صدرها يعلو ويهبط مع كل نَفَسٍ أخذته، وانسابت دموعها على وجهها. بكت بصمت، وبدت جامدةً في مكانها، ولم يتحرك فيها سوى يدها الضاغطة على صدرها.

"**غابي**؟" خانني صوتي للحظة ثم عاد. "... لماذا؟"

أومأت بشدة بينما راحت جدائل شعرها تتمايل حول وجهها الشاحب. أخذت تُصدر أصوات نحيبٍ قصيرة، وكأنها تحاول أن تعيد دموعها إلى أماكنها. بدا لي أنها عاجزة عن الكلام.

رحتُ أهمس بانضباط: "يا إلهي. **غابي**! هل جننتِ؟ ماذا تفعلين هنا؟ لماذا لم تتصلي بي؟"

بدا لي أنها تفكّر بسؤالي الثاني، لكنها حاولت الإجابة عن سؤالي الأول.

"شعرتُ أنني بحاجة... للتحدث معك".

حـــدّقتُ فـــيها. بحثتُ عن هذه المرأة للأسابيع الثلاثة الماضية، لكنها تجنّبتني. اقتحمت منـــزلي عند الرابعة والنصف صباحاً، وجعلتني أشعر أنني كبرتُ عقداً من الزمن على الأقل.

"كيف دخلتِ إلى شقتي؟"

"أحـــتفظ بمفتاحٍ". أصدرتُ المزيد من الأصوات، لكنها أصبحت أهدأ وأبطأ الآن. "من الصيف الماضي".

أزاحت يدها المرتعشة عن مفتاح النور، وأبرزت لي مفتاحاً معلقاً بسلسلة.

شـــعرتُ بغضبٍ شديدٍ يتصاعد من أعماقي، لكن الإجهاد الذي شعرت به جعلني أسيطر عليه.

"ليس الليلة يا **غابي**".

"**تمب**، أنا..."

رمقـــتُها بنظـــرة قصدتُ منها أن أبقيها جامدةً في مكانها مجدداً. حدّقت بي بحزن، من دون أن تفهمَ ما يجري.

"**تمب**، لا أستطيع أن أذهب إلى منـــزلي".

بدت عيناها داكنتين ومستديرتين، أما جسمها فكان جامداً. وقفت مثل ظبية فُـــصلت عن قطيعها وحُشرت في الزاوية. بدت لي ظبيةً كبيرةً جداً، لكنها مرتعبة مع ذلك.

وقفـــتُ من دون أن أنطق بكلمة، وتوجهتُ إلى الخزانة، وتناولتُ منها بعض المناشف والبياضات، ثمّ وضعتُها في غرفة نوم الضيوف.

"سنتحدث في الصباح يا **غابي**".

"**تمب**، أنا..."

"قلتُ لك إننا سنتحدث في الصباح".

بـــدا لي أنـــني سمعتها تطلب رقماً على الهاتف بينما كنت أستعد للاستسلام للنوم. لا يهم، سنتحدث غداً.

تحدثـــنا بالفعل. تحدثنا لساعات وساعات. تحدثنا ونحن نتناول رقائق الذرة، والـــسباغيتي. ارتشفنا أكواباً لا حصر لها من **الكابوتشينو**. تحدثنا ونحن مستلقيتان

على الأريكة، وخلال جولات طويلة في شارع **سانت كاثرين**. انطلقت الكلمات كالسيل، لكن معظمها جاء من **غابي**. اقتنعتُ في البداية بأنها جاءت غير مترابطة، لكنني لم أعد متأكدة من ذلك مساء الأحد.

وصـــل فـــريق استعادة الأدلة في وقت متأخر من مساء الجمعة. أبدى الفريق احتراماً كبيراً لي لأنه اتصل قبل وصول أفراده. وصلوا من دون مظاهر استعراضية، وعملـــوا بطـــريقة سريعة وفعالة. تقبّل هؤلاء وجود **غابي** باعتباره تطوراً طبيعياً. واعتـــبروها صديقتي التي تقوم بتسليتي بعد ليلة رعب. أبلغتُ **غابي** أن رجلاً اقتحم حديقتي وأبقى فيها رأساً بمثابة تذكار. قالت لي إنها تمتلك ما يكفي من أمور تشغل تفكيرهـــا. غـــادر الفريق بعد أن شجّعنا بكلماته: "لا تقلقي يا **دكتورة برينان**. سنلقي القبض على ذلك النذل. تستطيعين البقاء هنا".

كانت حالة **غابي** فظيعة مثل حالتي. تحوّل الرجل الذي كان مخبراً لها إلى رجلٍ يلاحقها. لاحَقها في كل مكان. رأته أكثر من مرة على مقعد في المتنـــزه. لاحَقها بعـــد ذلـــك مـــرات أخرى في الشارع. جال الرجل ليلاً في شارع **سان لوران**، وتـــواجد في كـــل الأمكنة رغم أنها ترفض التحدث إليه. بقي الرجل على مسافة معقـــولةٍ منها، لكن عينيه استمرتا بمراقبتها على الدوام. ظنّت مرتين أنه موجود في شقتها.

قلـــت لهُـــا: "**غابي**، هل أنتِ متأكدة؟" عنيت أن أقول هل فقدتِ عقلكِ يا **غابي**؟

"هل أخذ أي شيء؟"

"لا، على الأقل لا أظن ذلك. لم ألاحظ فقدان أي شيء، لكنني أعلم أنه فتّش في أغراضـــي. تعرفين كيف تجري الأمور. لم يُفقد أي شيء، لكن الأشياء لم تكن في مكانها تماماً، ولعل أحداً قد حرّكها من أماكنها"

"لماذا لم تردّي على مكالماتي؟"

"تـــوقفتُ عـــن الردّ على الهاتف. رنّ عشرات المرات في اليوم، و لم يردّ عليّ أحـــدٌ في الطرف الآخر من الخط. حصل الأمر ذاته مع الآلة المجيبة، وسمعتُ صوت المكالمات المقطوعة. توقفتُ عن استخدام الهاتف لهذا السبب".

"لماذا لم تتصلي بي؟"

"أتّـــصل لأقول ماذا؟ هل أقول لك إنني أتعرّض للملاحقة؟ أم أنني جعلتُ من نفـــسي ضحيةً؟ أم أنني لا أمتلك زمام السيطرة على حياتي؟ ظننتُ أنني إذا عاملته وكأنـــه الـــدودة التي يشبهها، فإنه سيتوقف عن ملاحقتي. تمنيتُ أن يزحف بعيداً ويتحوّل مزاجه إلى مكانٍ آخر".

بدت عيناها معذبتين.

"أعـــرف ما ستقولينه. ستخبرينني بأنك فقدتِ السيطرة على نفسكِ يا **غابي**. سمحتِ لذعركِ أن يتحكّم بك يا **غابي**. أنتِ تحتاجين للمساعدة!"

شَـــعرتُ بالذنب عندما تذكرت أنني قطعتُ مكالمتي معها آخر مرة. كانت محقة.

"كان بإمكانك الاتصال بالشرطة التي ستوفر الحماية لك". لم أصدّق كلماتي هذه، حتى وأنا أقولها.

"أنتِ محقة". أخبرتني بعد ذلك عما حدث ليلة الخميس.

"وصَـــلتُ إلى المنـــزل عند الساعة 3:30 **فجراً**. لاحظتُ فوراً أنّ شخصاً ما قـــد اقتحم شقتي. سبق لي أن استخدمتُ تلك الحيلة القديمة، أي وضع خيطٍ فوق القفل. حسناً، شعرتُ بالتوتر الشديد عندما لاحظتُ أنه اختفى كلياً. كان مزاجي قـــد تحـــسّن كـــثيراً لأنني لم أرَ ذلك السافل طيلة الليل. أقدمتُ أيضاً على تغيير الأقفال، وهو الأمر الذي أعطاني شعوراً بالأمان في شقتي، ولربما للمرة الأولى منذ أشـــهرٍ عديدة. شعرتُ أنني محطمةٌ بالفعل عندما رأيتُ الخيط ملقى على الأرض. و لم أرغب أن أصدّق بأنه دخل شقتي مجدداً. لم أعرف عندها ما إذا كان ما زال داخل الشقة، و لم أرغب بالتحقق من هذا الأمر. أقفلتُ الباب وأتيتُ فوراً إلى هنا".

أخـــبرتني شيئاً فشيئاً عن الأسابيع الثلاثة الماضية، وعدّدت لي الأحداث كما خطرت في بالها. بدأ عقلي بإعادة ترتيب الأحداث بحسب تسلسلها الزمني، وذلك عندما كشفت روايتها عما حدث في عطلة نهاية الأسبوع. لاحظتُ وجود نمطٍ من الـــوقاحة المتـــزايدة عند ذلك الرجل رغم عدم إظهاره عدوانية مفرطة من جانبه. بدأتُ أتقاسم مخاوفي وإياها مع حلول صباح الأحد.

قررنا أن تسكن **غابي** معي في الوقت الحاضر، مع عدم تأكدي من كفاية منـــــزلي بالنـــسبة للأمان. سبق أن اتصل **رايان** بي في وقتٍ متأخرٍ من مساء

الجمعة وأخبرني أنّ وحدةً من دورية لرجال الشرطة ستلازم شقتي حتى يوم الاثنين. تبادلنا التحيات مع الرجال كلما كنا ننطلق في جولاتنا. ظنّت **غابي** أنهم يرابطون هنا بسبب ذلك الرجل الذي اقتحم حديقتي. لم أحاول أن أغيّر معلوماتها. أردتُ أن أعطيها المزيد من الإحساس بالأمان، لا أن أقضي على هذا الإحساس.

اقترحتُ عليها أن نُعلم الشرطة عن ذلك الشخص الذي يلاحقها، لكنها رفضت الفكرة بإصرار. قالت إنها تخشى أن يؤثر تدخل رجال الشرطة على الفتيات اللواتي تجري بحثها عليهنّ. قالت لي أيضاً إنها تخشى أن تخسر ثقتهنّ بها، وأن لا تعود قادرة على التحدث معهنّ. وافقتُ على كلامها هذا، وإن بتردد.

تركتُها صبيحة يوم الاثنين وتوجهتُ إلى عملي. سبق أن أخبرتني أنها تريد إحضار بعض الأغراض من شقتها. قبلت الابتعاد عن **شارع ماين** مؤقتاً، وأبلغتني أنها تريد قضاء بعض الوقت في الكتابة، ولهذا فإنها تحتاج إلى جهاز حاسوبها المحمول، وإلى ملفاتها.

وصلتُ إلى مكتبي بعد أن تعدت عقارب الساعة التاسعة صباحاً. سبَقَني اتصال **رايان**. وقد جاء في رسالته المكتوبة: "حصلتُ على الاسم. **آي آر**". لم يكن في مكتبه عندما اتصلتُ به، ثم توجهتُ إلى مختبر الأنسجة كي أعرف ما استجد بالتحفة التذكارية التي وُجدت في حديقتي.

وجدتُها موضوعةً على الطاولة بعد انتهاء عملية تنظيفها والتأشير عليها. علمتُ أنّ غليَها لم يكن ضرورياً بسبب عدم وجود الأنسجة الليّنة فيها. بدت مثل آلاف الجماجم الأخرى مع محجرَي عينيها الفارغين، ورقم مختبرات LML المكتوب بوضوحٍ عليها. حدّقتُ فيها وتذكرتُ الرعب الذي سببته لي قبل ليالٍ ثلاث.

صحتُ في المختبر الفارغ: "الموقع. الموقع. الموقع".

"عذراً؟"

لم أسمع وقع خطوات **دينيز** عند دخوله.

"أخبرني عن أهميته أحد سماسرة الأراضي ذات مرة".

"وي؟"

"إنّ ما يحدّد ردّ فعلنا على الأشياء هو مكانها أكثر من طبيعتها".

بدت ملامح وجهه خالية من التعابير.

"لا تكترث بما قلته الآن. أعتقد أنكَ أخذتَ نماذج للتربة قبل أن تغسل هذه؟"

رفع قارورتين من البلاستيك وقال: "**وي**".

"دعنا نتفحصهما".

أومأ.

"هل أجريتم صور الأشعة السينية؟"

"**وي**. أعطيتُ الدكتور **بيرغيرون** الصور التي تُظهر الجمجمة من زوايا مختلفة".

"هل يُعقل أن يتواجد هنا يوم الإثنين؟"

"قال إنه يريد أخذ إجازة لمدة أسبوعين، لذلك حضر كي يُنهي بعض التقارير".

"إنه يوم حظنا". وضعتُ الجمجمة في حوضٍ بلاستيكيٌّ. "يعتقد **رايان** أنه عثر على اسم".

تقوّس حاجباه: "آه، *وي؟*"

"لا بد أنه نهض مع العصافير هذا اليوم. تلقى موظف الخدمة الليلية رسالته".

"هل حصل على اسمٍ لصاحب هيكل عظام **سان لامبرت**، أو لصاحب هذه؟"

أشار إلى الجمجمة. لا بد أنّ القصة قد انتشرت الآن.

"لعله حصل على الاسمين معاً. سأعلمك بذلك".

توجهتُ إلى مكتبي، لكنني مررتُ بمكتب **بيرغيرون** في طريقي. قال لي إنه تكلّم مع **رايان**. تمكّن رجل التحري من العثور على اسم رجلٍ مفقودٍ يحمل من المعطيات ما يكفي لطلب إجراء تفويض من قاضي التحقيق يسمح بتفحص سجلات ما قبل الوفاة. وأضاف إنه في طريقه إلى هنا.

"هل عرفت أي شيء عنها؟"

"لا أعرف شيئاً".

"سأنتهي من الجمجمة قبل حلول فترة الغداء. تعال إلى هنا إذا اضطررت".

أمضيتُ الساعتين التاليتين في إجراء تقييم لجنس صاحب الجمجمة وعرقه. تفحصتُ ملامح الوجه، وقحف الدماغ، وأخذتُ بعض القياسات، وأدخلتُ بعض الدالات التمييزية في حاسوبي. توافقت حساباتنا. تعود الجمجمة لأنثى بيضاء، مثلما هي الحال مع صاحبة هيكل **سان لامبرت**.

بقيت مسألة العمر محيّرة. تعيّن عليّ إغلاق الدرزات الدماغية، وهو إجراء عام، لكنه غير موثوق به يهدف إلى تقييم العمر. لا يستطيع الحاسوب المساعدة في هذا الأمر. قدّرتُ أن تكون هذه الفتاة في أواخر العشرينيات، أو أواسط الثلاثينيات من عمرها عندما ماتت. أو لعلها وصلت إلى سن الأربعين. تتوافق هذه التقديرات، مجدداً، مع العظام التي وجدناها في **سان لامبرت**.

تفحصتُ نقاط التطابق الأخرى: الحجم الإجمالي، متانة الأربطة العضلية، درجة التغيّر في المفاصل، حالة العظام وحالة الحفظ. تطابقت كل المعطيات. اقتنعتُ الآن أنه الرأس المفقود في الهيكل العظمي الذي وُجد في **موناستير سان برنارد**، لكنني احتجتُ المزيد من القرائن. قلبتُ الجمجمة بعد ذلك وأخذتُ في تفحص قاعدة الجمجمة.

تفحصت العظمة القذالية، واقتربتُ من النقطة التي ترتكز الجمجمة عليها في العمود الفقري. لاحظتُ وجود سلسلة من الحزوز. بدت هذه بشكل الحرف V في مقطعها العرضي، وظهرت من الأعلى إلى الأسفل بحسب تضاريس شكل العظمة. وبدت هذه الحزوز تحت الضوء الكاشف مشابهة للعلامات التي لاحظتُها في العظام الطويلة. أردتُ أن أتأكد أكثر.

عدتُ بالجمجمة إلى مختبر الأنسجة، ووضعتُها قرب المجهر، ثم جلبتُ الهيكل الذي يخلو من الرأس. أحضرتُ الفقرة العنقية السادسة، ووضعتُها تحت المجهر، ثم أعدتُ فحص الشقوق التي دونتُ تفاصيلها في الأسبوع الماضي. تحوّلتُ بعد ذلك إلى الجمجمة، وركّزتُ على الشقوق الكبيرة، ثم دوّنتُ عرضها وقاعدتها. بدت لي

هـــذه العلامـــات متطابقة، أما التضاريس وأبعاد المقاطع العرضية فتطابقت بشكلٍ كامل.

"غرايس داماس".

أطفأتُ ضوء الألياف البصرية، واستدرتُ ناحية الصوت.

"ماذا؟"

كرّر **بيرغيرون**: "**غرايس داماس**. العمر اثنان وثلاثون عاماً. يقول **رايان** إنها فُقدت في شهر شباط من عام 1992".

بدأتُ بإجراء بعض الحسابات. مرّ عامان وأربعة أشهر: "تتوافق الأوقات. هل من أمرٍ آخر".

"لم أسأل في الواقع. قال **رايان** إنه سيمّر بنا بعد فترة الغداء. إنه منشغلٌ بتتبع أمرٍ آخر".

"هل يعرف أننا تأكدنا من هوية الضحية؟"

نظر إلى العظام: "ليس بعد، لأنني انتهيتُ لتوي. هل من أمر آخر؟"

"إنهما يتطابقان. أريد أن أعرف ماذا يقول العاملون في قسم الأدلة عن عيّنات الأتـــربة. هل نستطيع الحصول على توصيف لغبار الطلع؟ لكنني مقتنعة، لأنه حتى علامـــات الـــشقوق متشابهة. أتمنى لو كان بإمكاني أن أحصل على الفقرة العنقية العليا، لكن ذلك ليس بالأمر الهام".

غرايس داماس. ظل هذا الاسم يتردد في رأسي طيلة فترة الغداء. **غرايس دامـــاس**. الضحية رقم خمسة. أو هل كانت فعلاً كذلك؟ كم ضحية جديدة سنكتـــشف؟ ترسّـــخ كـــل اســـم في رأسي مثلما توسم البقرات الصغيرات. **موريـــسيت شـــامبو**. **تروتييه**. **غاغنون**. **آدكينـــز**. أُضيف الآن اسم آخر. **داماس**.

وصل **رايان** إلى مكتبي عند الواحدة والنصف. قال لي إن **بيرغيرون** أعطاه رأيـــاً إيجابـــياً بشأن الجمجمة. أبلغتُه أنّ هذا ينطبق على بقية الهيكل العظمي أيضاً.

سألتُه: "ماذا تعرف عنها؟"

"كانت في الثانية والثلاثين من العمر، ولديها ثلاثة أولاد".

"يا الله!"

"كانـــت أماً صالحةً وزوجةً مخلصةً، وناشطةً في دار العبادة". نظر في أوراقه: "يقـــع منـــــزلها في ســـان **ديميتريوس**، مقابل **هتشيسون**، وقرب **أفنيو دو بارك وفايـــرمون**. اصـــطحبت أولادها إلى المدرسة ذات يوم، و لم يرَها أحد منذ ذلك الحين".

"ألديها زوج؟"

"تبدو حرة".

"ألديها صديق؟"

هـــزّ كتفـــيه: "إنها عائلة يونانية محافظة جداً. لا يمكن أن تكون هذه الأمور صـــحيحة إذا لم تتحدث عنها. كرّست تلك الفتاة الطيبة حياتها لزوجها. أقامت العائلـــة مقامـــاً لها في غرفة المعيشة". هزّ كتفيه مرة أخرى. "لعلها كانت ورعة، ولعلـــها لم تكن كذلك. لن نتمكن من معرفة ذلك من **ماما** أو **حبي**. يشبه الأمر التحدث مع أصداف البحر. سبق لك أن ذكرت عمليات الاحتيال، إنهم يدخلون فجأة ويضربون".

أخبرتُه عن آثار الحزوز.

"مثلما هي الحال مع **تروتييه وغاغنون**".

"همم".

"قُطعـــت يداها الاثنتان، كما حدث مع **غاغنون**، أما في حالة **موريسيت – شامبو**، **وتروتييه** فلم تُقطع سوى يدٍ واحدةٍ لكلٍ منهما".

"همم".

شغّلتُ الحاسوب عند مغادرته، وفتحتُ الجدول الذي بدأتُ بإعداده. محوتُ كلمـــة ***مجهـــول*** من عمود الاسم وطبعتُ مكانه **غرايس داماس**، ثم أدخلتُ تلك المعطيات القليلة التي أعطاني إياها **رايان**. أعددتُ ملفاً ثانياً لخصتُ فيه الأشياء التي أعرفها عن كل امرأة، ورتّبتُها بحسب تاريخ الوفاة.

اخـــتفت **غـــرايس داماس** في شهر شباط من العام 1992. كانت في الثانية والـــثلاثين مـــن عمـــرها، متزوجة، وأمًّا لثلاثة أطفال. عاشت **غرايس** في الجزء الـــشمالي الشرقي القريب من المدينة، وفي منطقة تُدعى **بارك اكستنشن**. وُجدت

جثـــتها مشوهة ومدفونة في قبرٍ ضحلٍ في موناستير **سان برنار** الذي يقع في **سان لامـــبرت**. وُجـــدت هذه الجثة في شهر حزيران من العام 1994. ظهر رأسها في حديقتي بعد أيامٍ عديدة. لم يُعرف سبب وفاتها بعد.

تعرضت **فرانسينٍ موريسيت شامبو** للضرب، وأُطلق الرصاص عليها في شهر كانـــون الـــثاني من العام 1993. كانت في السابعة والأربعين من عمرها حينها. وُجـــدت جثـــتها بعـــد مرور أقل من ساعتين في الجزء الجنوبي من وسط المدينة، وكانت في الشقة التي تعيش فيها مع زوجها. شقّ القاتل بطنها، وقطع يدها اليمنى، ثم أدخل سكيناً في مهبلها.

اخـــتفت **شانتال تروتييه** في شهر تشرين الأول من العام 1993، وكانت في الـــسادسة عـــشرة من عمرها. عاشت الفتاة مع والدها في مكانٍ ناءٍ من الجزيرة، وبالـــتحديد في ناحـــية الـــبحيرة من **سانت – آن – دي بيليفٍ**. تًعرضت الفتاة للـــضرب وخُـــنقت، ثم قُطعت أطرافها. وُجدت جثتها بعد مرور يومين في **سان جيروم**.

اختفت **إيزابيل غاغنون** في شهر نيسان من العام 1994. عاشت **إيزابيل** مع شقيقها في **سان إدوارد**. وُجدت جثتها المشوهة في أرضٍ تخص **لا غراند سيمينايرِ** في وســـط المدينة. لم تحدد أسباب الوفاة، لكن العلامات التي ظهرت على عظامها دلّـــت علـــى أنها تعرضت للتشويه، وأنّ القاتل قد شقّ بطنها. قطع قاتلها يديها، وأدخل غطاساً في مهبلها. كانت الضحية في الثالثة والعشرين من عمرها.

قُـــتلت **مارغريت آدكينـــز** في 23 تموز، قبل نحو أسبوع. كانت المغدورة في الرابعة والعشرين من عمرها. سكنت مارغريت مع ابنها، وعاشت معه في منـــزل الـــرجل الـــذي تزوجته مدنياً. تعرضت الضحية للضرب حتى الموت، وشق القاتل بطنها، وقطع أحد ثدييها وحشره في فمها. أقدم القاتل بعد ذلك على إدخال تمثالٍ معدني صغير في مهبلها.

كـــان كلوديل على حق، لأنني لم ألاحظ نمط MO. تعرضت كل الضحايا للـــضرب، لكـــن **موريـــسيت – شامبو** تعرضت لإطلاق الرصاص عليها أيضاً. تعرضـــت **تروتييه** للخنق، أما **آدكينـــز** فضُربت بشدة، لكننا لم نتمكن بعد من تحديد سبب وفاة **داماس وغاغنون**.

راجعتُ مرةً بعد أخرى كل الأمور التي خضعت لها كل واحدة من الضحايا. لاحظـــتُ اخـــتلافاً بينها، لكن كل واحدة منهن حملت مغزى معيناً. تلخص هذا المغـــزى بالوحـــشية الـــسادية والتشويه. أعتقد أنّ كل هذه الأعمال تحمل بصمة الـــشخص ذاته، أو بالأحرى الوحش ذاته. تعرضت **داماس**، **غاغنون**، و**تروتييه**، للتقطـــيع والتـــشويه، ووُضعت جثثهنّ في أكياسٍ من النايلون. شُقّت بطونهنّ. أما **غاغنون** و**تروتييه** فقد قُطعتَ أيديهما، بينما طُعنتَ **موريسيت – شامبو** وقُطعت يـــدٌ واحـــدةٌ مـــن يديها، لكنها لم تتعرّض للتشويه. عانت كل من **آدكينـــز**، و**غاغـــنون**، و**موريسيت – شامبو** من حشر أدوات غريبة في أعضائهن التناسلية، لكن لم تتعرّض الأخريات لهذا المصير. لاحظتُ أنّ أَحد نهدَي **آدكينـــز** قد قُطع. لم تتعرض الضحايا الأخريات لتشويه من هذا النوع. أم هل شُوِّهن بهذه الطريقة؟ لم أجد كثيرات مثل **داماس وغاغنونٍ** كي نصل إلى هذا الاستنتاج.

تسمّر نظري على الشاشة. رحتُ أُقنع نفسي أنه لا بد أن يكون الجواب هـــنا، لكن لماذا لا ألاحظه؟ ما هو هذا الرابط الذي يجمع بين الضحايا؟ ولماذا هـــؤلاء النساء بالذات؟ تتراوح أعمارهن صعوداً ونـــزولاً في الجدول البياني. إذاً، لـــيس العمر هو العنصر المشترك، وكل الضحايا من البِيض. يا للمفارقة، فهـــذه هـــي **كندا** التي تضم الناطقين بالفرنسية، والإنكليزية، وكل الناطقين باللغـــات الأخـــرى. تضم **كندا** المتزوجين والعازبين، والذين ارتبطوا حسب القانـــون المـــدني. هـــل أختـــارُ فئاتٍ أخرى. لماذا لا أحاولُ التفكير بالمناطق الجغرافية؟

أحـــضرتُ خـــريطة، وعيّنتُ عليها أمكنة اكتشاف كل جثة من الجثث. لم أستنتج شيئاً، تماماً مثلما حدث معي عندما تحادثتُ مع **رايان**. تناثرتً أمامي خمس نقاط على الخريطة. جرّبتُ تعيين أماكن سكن الضحايا. بدت الدبابيس الملونة التي استخدمتها مثل لوحة تجريدية. لم يظهر أي نمط عليها.

مـــاذا توقعتِ يا **برينان**؟ هل توقعتِ رؤيةً سهم يشير باتجاه **شيربروك**؟ انسَيْ أمر الأمكنة. حاولي التركيز على الأزمنة.

نظـــرتُ إلى التواريخ. **داماس** كانت الأولى، وهي التي ماتت في وقتٍ مبكر مـــن العـــام 1992. رحتُ أحسب في ذهني. فصل أحد عشر شهراً ما بينَ مقتلِ

دامـــاس ومقـــتل **موريسيت – شامبو**. قُتلت **تروتييه** بعد ذلك بتسعة أشهر، وما لبثت **غاغنون** أن قُتلت بعد ستة أشهر. قُتلت **آدكينـــز** بعد مرور شهرين.

لاحظـــتُ تقلص الفترات الفاصلة بين جريمة وأخرى، وهذا يّدل على أمرين: إمـــا أنّ القاتل أصبح أكثر وقاحةً، أو أنّ تعطشه ً للدماء قد ازداد كثيراً. أخذ قلبي يخفـــق بـــشدة أكبر داخل أضلعي عندما رحتُ أفكّر بمغزى ملاحظتي. مرّ أسبوع على مقتل **مارغريت آدكينـــز**.

26

شـــعرتُ أنـــني ســـجينة جسدي، وملأني القلق والشعور بالإحباط. أقلقتني الخـــيالات الـــتي ملأت رأسي، لكنني لم أستطِع طردها. راقبت أحد أغلفة الحلوى الذي حملته هبّات رياح متغيرة الاتجاهات إلى نافذتي.

رحـــتُ أوبّـــخ نفسي، ليست **قطعة الورق تلك** إلا أنتِ يا **بريتان**. أنتِ لا تـــستطيعين الـــتحكّم بمصيرك، دعكِ من مصائر الآخرين. لم يظهر أي أمرٍ جديـــد بخصوص **سان جاك**، ولَم تعرفي شيئاً عن الشخص الذي خبّأ الجمجمة في فـــنائك الخلفـــي. ما تزال قضية **غابي** الغامضة كما هي، ويُحتمل أن يكون **كلـــوديل** يتهـــيأ لتقديم شكوى ضدكِ. وها هي ابنتك تستعد لترك المدرسة، كمـــا أنّ خمـــساً من النساء القتيلات يتابعن الحياة داخل رأسكِ، ويُحتمل أن تنـــضم ضحية سادسة أو سابعة إليهنّ إذا ما استمر مسار **تحقيقاتك على هذه** الوتيرة.

نظـــرتُ إلى ساعتي التي أشارت إلى 2:15 من بعد الظهر. لا أستطيع البقاء في مكتبي دقيقةً أخرى. يتعيّن عليّ القيام بأمرٍ ما.

لكن، ما هو هذا الأمر؟

ألقيتُ نظرةً على التقرير الذي أعده **رايان** عن الحادث، وما لبثت أن تكونت فكرةٌ معينة في رأسي.

قلتُ في نفسي أنه سيجن جنونهم.

أجل.

تفحصتُ التقرير. كان العنوان موجوداً فيه. فتحتُ الجدول الذي أعددتُه في حاسوبي المحمول. ضمّ الجدول كل العناوين مع أرقام الهواتف.

أليس من الأفضل لي أن أتوجه إلى النادي الرياضي كي أتخلص من كل مشاعر الإحباط عندي.

أجل.

لن تساعد أعمال التحري الفردية التي أقوم بها في تحسين وضعي مع **كلوديل**.

كلا.

ويُحتمل أنكِ تجازفين بخسارة دعم **رايان** لكِ.

هذا صحيح...

لكنه صعب جداً.

طبعتُ الجدول الموجود على شاشة الحاسوب، واخترتُ رقم هاتف، ثم اتصلتُ. أجابني رجل بعد الرنة الثالثة. فوجئ الرجل لكنه وافق على الاجتماعٍ بي. تناولتُ حقيبتي الصغيرة ثم انطلقتُ إلى أجواء ذلك اليوم الصيفي.

كان الطقس حاراً، وتشبّع الهواء برطوبة عالية، بحيث تترك الأصابعُ آثارها فيه. عكست الرطوبة أشعة الشمس، فانتشرت أشعتها في كل الأنحاء، وشكّلت غطاءً على كل شيء. قدتُ سيارتي في اتجاه منزل **فرانسين موريسيت – شامبو** وزوجها. اخترتُ أن أبدأ بقضيتها بسبب قرب منزلها من مكان سكني. عاشت تلك المرأة في المنطقة السفلى من وسط المدينة، أي أنّ منزلها لا يبعد أكثر من مسيرة عشر دقائق عن منزلي، لذلك سأكون قرب شقتي إذا ما فشلتُ في مسعاي هذا.

عثرتُ على المنزل فأوقفتُ سيارتي. اصطفّت في هذه المنطقة المنازل الريفية الطراز، والمشيدة بأحجارٍ قرميدية حمراء، ولاحظتُ شرفاتها الحديدية، ومرائب السيارات المبنية تحت الأرض، والأبواب الحديدية الملونة لهذه المنازل.

لا يمتلك هذا الحي اسماً، بعكس بقية الأحياء في **مونتريال**. امتدت يد العمران المدنيّ إلى **الباحات الكندية الوطنية**، فتحولت الطرقات والمستودعات إلى أماكن سكنية، وأماكن شيّ اللحم، وظهرت شتلات البندورة فيها. أحاطت الأحياء النظيفة التي يسكنها أبناء الطبقة الوسطى بهذا الحي، لكنها عانت من أزمة هوية.

كانـــت هـــذه الأحـــياء قـــريبة جداً من مركز المدينة لذلك يصعب اعتبارها من الضواحي فعلياً، لكنها تتواجد خارج الدائرة التي تحدد وسط المدينة العصري. إنها ليست أحياء قديمة، وليست أحياء جديدة، لكنها عملية ومناسبة للسكن، رغم أنها تفتقد لوجود الأشجار.

قـــرعتُ الجرس وانتظرت. ملأت رائحة العشب الذي جُزّ حديثاً، والقمامة، الهواء الحار. رأيتُ على مسافة قريبة مني رشّاشة مياه ترش المياه على مساحة عشبية صـــغيرة جداً. سمعتُ أيضاً صوتَ مضخة هواء مركزية، وهو الصوت الذي طغى على صوت رشاشة المياه الرتيبة.

ظننتُ أنّ طفل **جيربو** قد كبُر حينما فُتِح الباب. كان شعره الأشقر يتراجع، وقـــد التفّت كتلة شعره الوسطى فوق جبهته. لاحظتُ أنّ خدّيه وذقنه مستديرة وأنهـــا سميـــنة بعض الشيء، أما أنفه فكان قصيراً وبارزاً إلى الأعلى. كان جسمه ضـــخماً. لم يـــصبح سميناً بعد، إلا أنه أسرع حثيثاً في هذا الاتجاه. أما والده فقد ارتدى سروالاً من الجينـــز وكنـــزة، رغم أنّ درجة الحرارة بلغت تسعين درجة.

"مسيو شامبو، أنا..."

فتح الباب على مصراعيه ثم تراجع قليلاً. تجاهل الرجل البطاقة التي قدّمتها له، والـــتي تسمح لي بالتفتيش. سرت وراءه عبر قاعة ضيقة، ثم وصلنا إلى غرفة معيشة ضـــيقة. رأيتُ أحواض سمك بمحاذاة أحد الجدران بينما انتصبت أكوامارين كئيبة وســـط الغـــرفة. رأيـــتُ في الجهة الأخرى من الغرفة طاولةً طويلةً وُضعت عليها أصدافٌ صغيرةٌ، وعلبٌ من الأطعمة، وبعض المعدات المخصصة للأسماك. انفتحت أبـــواب ذات فـــتحات كثيرة على المطبخ. نظرتُ بعيداً ما إن رأيتُ حوض جلي الأطباق.

أزال **المـــسيو شـــامبو** الأغراض عن مساحةٍ من الكنبة، وأشار لي بضرورة الجلوس. جلس الرجل على مقعد متحرك.

بـــدأتُ مجدداً: "مسيو شامبو. أنا الدكتورة برينان، وأعمل في مختبرات العلوم القضائية".

توقفتُ عند هذا الحد على أمل تجنب تقديم المزيد من التفسيرات بشأن دوري المحدد في التحقيقات، والواقع هو أنه لا دور لي إطلاقاً فيها.

"هــل توصـلتم إلى نتيجة؟ أنا... لقد مرّ وقتٌ طويلٌ بحيث لم أعد أسمح لنفـسي بالتفكير في الموضوع". وجّه نظره نحو الأرضية الخشبية قبل أن يتابع: "مرّ عام ونصف على وفاة **فرانسين**، لكن **رجالكم** لم يتصلوا بي منذ أكثر من عام".

رحتُ أتساءل أين يضعني في قائمة **رجالكم**.

"سـبق لي أن أجـبتُ عـن الكثير من الأسئلة، وتحدثتُ مع كثيرين. المحقق الجنائـي. رجـال الشرطة. الصحافة. استأجرتُ محققاً خاصاً بي. أردتُ فعلاً أن أقـبض علـى هذا الرجل، لكنني فشلت. لم ينجحوا في العثور على دليلٍ واحد. اسـتطعنا تحديد مجال الوقت الذي قُتلت فيه حتى حدود الساعة كما تعرفين. قالَ المحقق إنها ما تزال ساخنة. أقدم هذا المعتوه على قتل زوجتي، والهرب، ثم الاختفاء مـن دون أن يترك أثراً". هزّ رأسه في حركةٍ تدل على عدم التصديق. "هل عثرتم على أي شيء جديد؟"

لمحـتُ في عينـيه مـزيجاً من الألم والأمل. فاخترقتني وخزةٌ من الشعور بالذنب.

"لا، **مسيو شامبو**، لم نجد شيئاً في الواقع". ما عدا أربع نساء أخريات قتلهنّ ذلـك الحيوان ذاته. "أردتُ فقط أن أراجع بعض التفاصيل، وأن أتأكد من أننا لم نهمل أي شيء".

تلاشـى الأمل ليحل عدم الاكتراث مكانه. استرخى الرجل في مكانه، وعاد إلى حالة الانتظار.

"هل كانت زوجتك أخصائية تغذية؟"

أومأ.

"أين كانت تعمل؟"

"عملـت في أمكـنة كثيرة في الواقع. كانت تتلقى راتبها من MAS، لكنها كانت تستطيع الانتقال إلى أيٍ مكان في أي وقتٍ من الأوقات".

"وما هي MAS؟"

"**إنها وزارة الشؤون الاجتماعية**".

"هل كانت تتنقل كثيراً أثناء عملها؟"

"كانـــت وظيفـــتها بالإجمال ترتكز على تقديم الاستشارات للتعاونيات الغذائية، وجماعات المهاجرين، وتقديم النصائح حول كيفية شراء المواد الغذائية. قدّمت النصائح لجماعات المهاجرين حول كيفية إنشاء المطابخ الجماعية، ثم علّمتهم تحضير المأكولات الـــتي يحـــبونها، والتي تكون صحيةً ورخيصةً في الوقت نفسه. كانت تساعدهم على إحضار الحبوب واللحوم وبقية اللوازم. اعتادت أن تشتريها لهم بكميات كبيرة. كانت تزور المطابخ على الدوام كي تتأكد أنّ هذه المطابخ تعمل على ما يرام".

"أين تقع هذه المطابخ المشتركة؟"

"إنها تنتشر في كل الأمكنة: **بارك إكستنشن**. **كوت دي نايج**. **سان هنري**. **ليتل بوروندي**".

"منذ متى عملت في **وزارة الشؤون الاجتماعية؟**"

"عملـــت طيلة ستة أو سبعة أعوام، وعملت قبل ذلك في **مونتريال جنرال**. كانت تعمل لساعات طوال".

"هل كانت تستمتع بعملها؟"

"أوه. أجل. كانت تحب عملها كثيراً". علقت الكلمات في حنجرته.

"هل كانت ساعات عملها غير منتظمة؟"

"كـــلا. كانت تعمل على الدوام، أي في أوقات الصباح، والمساء، وعطلات نهايـــة الأســـبوع، وأينما وُجدت مشكلة فإنّ **فرانسين** كانت جاهزة كي تحلّها". توترت عضلات فكّه، ثم استرخت.

"هل كنت تتشاجر مع زوجتك بشأن أمور عملها؟"

صمت لبرهة ثم قال: "أردتُ أن أراها أكثر. يا ليتها بقيت في المستشفى!"

"ما هي مهنتك **مسيو شامبو**؟"

"أنـــا مهندس، وأبني المنازل، لكن يبدو أنّ أحداً لا يريد أن يبني منازل هذه الأيـــام". ابتسم ابتسامةً خالية من المرح. مال برأسه قليلاً: "تقلص عملي كثيراً". استخدمَ هنا تعبيراً إنكليزياً.

"أنا آسفة. هل كنت تعلم بالوجهة التي قصدتها زوجتك يوم مقتلها؟"

هـــزّ رأســـه: "لم نـــرَ بعضنا كثيراً في ذلك الأسبوع. احترق أحد مطابخها فلازمـــت المكان نهاراً وليلاً. يُحتمل أنها عادت إلى هناك ذلك اليوم، كما يُحتمل

أنها توجهت إلى مطبخ آخر. لم تحتفظ بأي نوع من أنواع اليوميات أو السجلات على حدّ علمي. لم يجدوا مفكرةً في مكتبها، ولم أعثر على واحدة هنا أبداً. قالت إنها تريد أن تقصّ شعرها. اللعنة! قد تكون توجهت إلى أحد الصالونات".

نظر إليَّ، فبدا الألم في عينيه.

"أتعلمين ماذا يعني هذا؟ إنني لا أعلم ماذا كانت تخطط زوجتي للقيام به يوم مقتلها".

همهمت أصوات المياه الدائرة في الأحواض بصوت خافت قربنا.

"هل تحدثت أمامك عن أي شيء غريب؟ أو مكالماتٍ هاتفية غريبة؟ أو عن أي شخص غريب قرع بابها؟" فكّرتُ في غابي. "أو عن شخصٍ ما في الشارع؟"

هزّ رأسه مجدداً.

"هل كانت لتتحدث أمامك عن هؤلاء؟"

"ربما كانت لتفعل ذلك لو أننا تبادلنا الحديث. لم يتسنَ لنا الوقت كي نتبادل الأحاديث في الأيام القليلة الماضية".

جرّبتُ طريقة جديدة.

"كنا في شهر كانون الثاني حينها، وكان الطقس بارداً، لذلك كانت الأبواب والنوافذ مقفلة. هل اعتادت زوجتك إقفالها بإحكام؟"

"نعم. لم تحب العيش أبداً في هذا المنزل، لأنها لا تحب السكن في مكان يطل على الشارع. حاولتُ أن أقنعها كي نشتري هذا المنزل، لكنها فضّلت السكن في البنايات العالية التي تمتلك أنظمتها الأمنية الخاصة بها، بالإضافة إلى الحرس. لدينا العديد من الأشخاص المبتذلين هنا، لذلك كانت تشعر بالتوتر على الدوام، وهذا هو السبب الذي دفعنا إلى التفكير بترك المنزل. أحبّت المنازل الرحبة، والباحات الخلفية الملحقة فيها. لم تعتد أبداً على التواجد في هذا المكان. أخذها عملها إلى بعض المناطق الصعبة، وعندما كانت تعود إلى المنزل كانت تحب أن تشعر بالأمان. أحبت أتكون وحيدة. هذا ما قالته لي. وحيدة ومنعزلة، كما تعلمين."

أجل. أوه، نعم.

"متى رأيت زوجتك لآخر مرة، **مسيو شامبو**؟"

تنفس بعمق، وزفر. "قُتلت يوم الخميس. عملت لوقتٍ متأخرٍ في الليلة السابقة بسبب النيران، ولهذا كنتُ في السرير عندما عادت".

أحنى رأسه، وأخذ يتحدث للأرضية الخشبية مجدداً. ظهرت بقعة من الأوعية الدموية الدقيقة على كل خد من خديه.

"أوت إلى السرير مثقلةً بأخبار يوم عملها، وحاولت أن تخبرني أين كانت، وماذا فعلت. لم أرغب بسماع قصصها".

لاحظتُ أنّ صدره يعلو ويهبط تحت كنزته.

"نهضت باكراً في اليوم التالي، وغادرت المنزل. لم أودّعها حتى".

لبثنا صامتَين لبرهة.

"هذا ما فعلته، وليس هناك من شيء يغيّر هذا الأمر. لم أحصل على فرصة أخرى". رفع عينيه، وحدّق في لون الأحواض الفيروزي. "استأتُ لأنها تعمل في حين عجزتُ أنا عن العمل، ولهذا استبعدتُها. وأنا أتعايش الآن مع ما فعلته".

إلتفتَ نحوي قبل أن أستطيع التفكير برد مناسب. بدا وجهه متوتراً، وجاء صوته أقسى مما كان.

"ذهبتُ كي أرى زوج شقيقتي. قال إنّ بحوزته بعض عروض العمل لي. بقيتُ معه طيلة فترة الصباح، وسكرتُ ورجعتُ إلى المنزل حوالى الظهيرة. وجدتُها مقتولة. أجرت الشرطة تحقيقاتها حول هذا الموضوع".

"**مسيو شامبو**، أنا لا أقول إنك..."

"لا أرى أنّ حديثنا سيوصلنا إلى معلومات جديدة. إننا نقوم بإعادة صياغة الكلمات القديمة فقط."

وقف. صرفني الرجل بكل بساطة.

"آسفة لأنني أثرتُ أمامك ذكريات مؤلمة".

تفحّصني من دون أن يعلّق، ثم مشى تجاه الردهة. تبعتُه.

"شكراً على وقتك، **مسيو شامبو**". ناولتُه بطاقتي. "إذا تذكرت أي شيء لاحقاً، فلا تتردد بالاتصال بي".

أومـــأ. رأيت أمامي ملامح رجلٍ مرّ بكارثة، وهو لا يستطيع نسيان أنّ آخر كلماتـــه وأفعالـــه تجاه زوجته التي أحبها كانت قليلة، وأبعد ما تكون عن وداعٍ مناسب. هل هناك من وداعٍ مناسبٍ إطلاقاً؟

شعرتُ أنّ عينيه مسمرّتان على ظهري عندما غادرت. شعرتُ ببرودة تخترق جسدي، رغم حرارة الطقس. أسرعتُ نحو سيارتي.

هـــزّتني المقابلة مع **شامبو**. طرحتُ على نفسي آلاف الأسئلة في طريقي إلى المنـــزل.

هل أمتلك الحق في إثارة آلام هذا الرجل مجدداً؟ تخيّلتُ عيني **شامبو**.

يا لذلك الألم! هل تسببت به أسئلتي التي فرضتُها عليه؟

كـــلا. لم أكـــن أنا التي تسببت بشعوره بالندم. كان **شامبو** رجلاً يعيش مع تأنيب ضمير تسبب به شخصياً.

تأنيب ضمير على ماذا؟ على إنـــزاله الأذى بزوجته؟

كلا. إنه لا يبدو من هذا النوع من الرجال.

هـــل يؤنبه ضميره لأنه تجاهلها، ولأنه تركها تعتقد أنها غير مهمة؟ هل الأمر بهذه البساطة. رفض أن يتحادث معها عشية موتها، وأدار ظهره لها، ثمّ استغرق في النوم. لم يودّعها في الصباح، أما الآن فلن تُسنح له هذه الفرصة مجدداً.

اتجهتُ شمالاً نحو **سان مارك** ودخلتُ في عتمة النفق. هل ستسفر تحقيقاتي عن شيء غير استعادة الذكريات التي تسبب الألم مجدداً؟

هل أستطيع المساعدة في هذه القضية حيث فشل جيشٌ من المختصين، أم أنني أنشغل في قضية مواجهة شخصية مع **كلوديل**؟

"لا!"

طرقتُ براحة يدي على عجلة القيادة.

رحـــت أفكّـــر بيني وبين نفسي، ***اللعنة! لا***. ليس هذا هو ما أهدف إليه! لم يقتـــنع أحد غيري بوجود قاتلٍ واحد، وأنه سيقتلُ ثانية. وإذا كنت أريد أن أمنع حدوث جريمة جديدة فيتعيّن عليّ إيجادُ حقائق إضافية.

خـــرجتُ من العتمة إلى ضوء النهار، لكن بدلاً من أن أتجه شرقاً نحو منـــزلي تـــوجهتُ نحو **سانت كاثرين**، وعدتُ كي أقود سيارتي في **20 غرباً**. يطلق سكان

هـــذه المنطقة اسم 2 و20 عليها، لكنني لم أجد شخصاً إلى الآن يستطيع أن يشرح لي معنى 2، أو مكان وجودها.

غـــادرتُ حـــدود المديـــنة، ورحتُ أعبّر عن نفاد صبري بطَرْقي على عجلة القيادة. أشارت الساعة إلى الثالثة والنصف، وبدأت السيارات تزدحم حتى وصلت إلى تقاطع **توركو**. يا للتوقيت السيئ الذي اخترته.

وجـــدتُ **جنيفياف تروتييه** وهي منهمكة بانتزاع الحشائش الضارة من بين شـــتلات البندورة بعد خمس وأربعين دقيقة. كانت في الحديقة الخلفية لمنـــزلها ذي اللـــون الأخضر الشاحب، والذي عاشت فيه مع ابنتها. تطلعت إلى الأعلى عندما قـــدتُ الـــسيارة في الطريق الذي يؤدي إلى بيتها، ثم راحت تراقبني وأنا أعبر تلك المساحة العشبية.

"*وي؟*" قالتها بودية ظاهرة وانتصبت واقفة، ثم راحت تحدّق بي.

ارتدت المرأة سروالاً قصيراً أصفر اللون وصُديرة بدت كبيرة جداً على ثدييها الـــصغيرين. الـــتمعت حبيبات العرق على جسدها، ولفّت شعرها حول وجهها. كانت أصغر سناً مما توقعت.

شـــرحتُ لها من أكون، وسبب وجودي في منـــزلها. تحولت الودّية إلى تجهمٍ في الـــوجه. ترددت قليلاً، لكنها سرعان ما تركت المالج الذي في يدها، ثم نهضت، وفركت يديها كي تتخلص من التراب. فاحت رائحة البندورة الشديدة من حولنا.

"مـــن الأفـــضل أن نـــتوجه إلى الداخل". قالت لي بعد خفضت بصرها. لم تتساءل عن حقي في توجيه الأسئلة إليها، أي مثلما فعل **شامبو** تماماً.

بدأت بالسير عبر الباحة فتبعتُها، لكن سيطر عليّ شعوري أنني أكره الموضوع الـــذي أوشـــك أن أثـــيره. بـــدت ربطة تلك الحمالة واسعة جداً حول ظهرها، ولاحظتُ أنّ بعض الأعشاب تعلقت بالجهة الخلفية من ساقيها وقدميها.

الـــتمع مطـــبخها في أضـــواء فترة ما بعد الظهيرة، وشهدت الأواني الخزفية والأســـطح الخـــشبية على أعوام وأعوام من العناية. اصطفّت الأحواض الصغيرة المزروعة بنبتات **الكالانشو** على حواف النوافذ، لاحظتُ أنّ هذه الأحواض تحيط بهـــا أقمشة قطنية صفراء اللون. لاحظتُ أيضاً أنّ المقابض ذات اللون الأصفر تزيّن الخزائن والأدراج.

"حـــضّرتُ بعض الليموناضة". قالت ذلك وانصرفت إلى البدء بهذه المهمة. يبدو أنها تجد راحةً في قيامها بالأمور الروتينية.

جلستُ إلى الطاولة الخشبية اللامعة وراقبتُها عندما تناولت مكعبات الثلج من وعـــاءٍ بلاســـتيكيٍّ، لتـــضعها في الأكواب قبل أن تضيف الليموناضة. أحضرت الشرابَ وجلست قبالتي، لكنني لاحظتُ أنها تتجنب النظر في عينيّ.

قالت وهي تتأمل كوبها الذي يحتوي الليموناضة: "يصعب عليّ التحدث عن **شانتال**".

"أتفهّم هذا، وأنا آسفة لخسارتك إياها. كيف حالك؟"

"أجد أنّ بعض الأيام أسهل عليّ من غيرها".

كتّفت يديها، ورفعت كتفيها من تحت صديرتها.

"هل أتيتِ كي تخبريني شيئاً؟"

"أخشى أَن لا تكون هذه الحال **مدام تروتييه**، كما أنني لا أحمل أي أسئلة محـــددة لـــك. ظنـــنتُ أنكِ تذكّرتِ شيئاً، ولعله شيء ظننتِ أنه غير مهم في البداية".

بقيت عيناها مركزتين على الليموناضة. سمعتُ نباح كلبٍ في الخارج.

"هـــل حدث شيء معكِ منذ أن تحدث إليكِ رجال التحري آخر مرة؟ وهل تذكرتِ أي تفاصيل منذ اختفاء **شانتال**؟"

لم تجبني. كان الهواء في المطبخ حاراً وكثيفاً نتيجة الرطوبة الشديدة، وفاحت منه رائحة خفيفة لمطهّر برائحة الليمون.

"أعلـــم أنّ هذا هو أمر مرعب بالنسبة إليكِ، لكن إذا كنتِ تمتلكين أي أملٍ بالعثور على قاتل ابنتك، فإننا ما نـــزال بحاجةٍ إلى مساعدتك. هل يزعجك شيء؟ وهل فكّرتِ في شيء جديد؟"

"لقد تواجهنا".

وجدتُ الإحساس بالذنب مجدداً بسبب المسافة التي تفصل شخصاً عن آخر. لمستُ الرغبة باستعادة الكلمات التي قيلت، أو تغيير بعضها.

"رفضت أن تأكل. صرّحت لي أنها تزداد سمنةً".

سبق لي أن علمتُ بهذا من تقرير الشرطة حول الحادث.

"لم تكــــن سمينة أبداً. يا ليتك رأيتها. كانت جميلة، و لم تتعدَ السادسة عشرة مــــن عمرها". التقت عيناها بعينيّ أخيراً. لاحظتُ أنّ دمعةً نــــزلت من كل جفنٍ من جفنيها، ثم انسابت على كل خدّ من خدّيها. "مثلما تقول الأغنية الإنكليزية".

قلتُ بأقصى قدرٍ من الرقة: "أنا آسفة جداً". تسلّلت عبر شبكة النافذة رائحة شــــتلات **إبرة الراعي** بعد أن تركزت عليها أشعة الشمس. "هل شعرت **شانتال** بالتعاسة لسببٍ من الأسباب؟"

شدّت قبضتها على كوبها.

"هذا هو ما يصعّب الأمور. كانت طفلة هادئةً وسعيدةً، ومليئةً بالحيوية على الــــدوام. كانت تخطّط دائماً. لم يؤثر فيها حتى طلاقي. تلقت النبأ بهدوء، و لم يؤثّر فيها أبداً".

هل تقول الحقيقة، أم أنها تتوهم؟ تذكرتُ أنّ الزوجين **تروتييه** انفصلا عندما كانت **شانتال** في التاسعة من عمرها، كما أعرف أنّ والدها يعيش في مكانٍ ما من المدينة.

"هـــــلا تخبرينني عن الأسابيع القليلة الأخيرة في حياتها؟ هل غيّرت **شانتال** أي شــــيء في روتــــين حياتها؟ هل تلقت مكالماتٍ هاتفيةٍ غريبةٍ؟ وهل اكتسبت بعض الأصدقاء الجدد؟"

هزّت رأسها ببطء دلالةً على النفي المستمر. "لا".

"هل كانت تجد صعوبةً في اكتساب أصدقاء جدد؟"

"لا".

"هل كنتِ متضايقة من أحد أصدقائها؟"

"لا".

"هل كان لديها صديقٌ معينٌ؟"

"لا".

"هل واعدَت أحد الشبان؟"

"لا".

"هل كانت تواجه صعوبات في المدرسة؟"

"لا".

يـــا لهذا التحقيق البائس بتقنيته! كان يجدر بي أن أحمل الشاهدة على الكلام بدلاً مني.

"أخبريني عن ذلك اليوم. اليوم الذي اختفت فيه **شانتال**".

نظرت إليَّ، لكنني لم أستطِع فهم ما تقوله عيناها.

"أخبريني ماذا جرى في ذلك اليوم؟"

ارتـــشفت جـــرعةً مـــن الليموناضة وبلعتها بسرعة، ثم وضعت كوبها على الطاولة، وعن عمد.

"نهـــضنا عـــند حوالى السادسة، ثم حضّرنا الفطور سوياً". أمسكت بالكوب بـــشدة بحيث ظننتُ أنه سينكسر. "غادرت **شانتال** متوجهةً إلى المدرسة. ركبت القطار مع أصدقائها لأن مدرستها تقع في وسط المدينة. قالوا لي إنها حضرت جميع صفوفها، لكنها..."

تلاعبت نسائم الهواء بالقماش الذي يحيط بإطار النافذة.

"لم ترجع إلى المنـــزل أبداً".

"هل أعدّت خططاً خاصةً لذلك اليوم؟"

"لا".

"هل اعتادت التوجه إلى المنـــزل بعد انتهائها من المدرسة؟"

"كانت تفعل ذلك عادةً".

"هل انتظرتِ قدومها إلى المنـــزل في ذلك اليوم؟"

"لا. كان من المفترض أن تذهب لزيارة والدها".

"هل كانت تفعل ذلك مراراً؟"

"أجـــل. لماذا يتحتم عليّ الإجابة عن هذه الأسئلة مرّة بعد مرّة؟ ما الفائدة؟ أخـــبرتُ المحققـــين بكل هذه الأمور. لماذا يتحتم عليّ تكرار الأشياء ذاتها مرةً بعد مرة؟ إنّ تكرارها لا يفيد مطلقاً. لم تنفعنا حينها، ولن تفعل ذلك الآن".

تسمّرت عيناها على عينيّ، وبدا الألم فيهما بكل وضوح.

"أتعـــرفين؟ ملأتُ الكثير من نماذج البحث عن الأشخاص المفقودين، وأجبتُ عـــن الكـــثير مـــن الأسئلة، مع أنني أعرف أنّ **شانتال** قد ماتت. وجدوها أشلاءً مقطعةً، ومرميةً في أحد الأمكنة. **شبعت موتاً**".

أحـــنت رأسها واهتزّت كتفاها النحيلتان. كانت محقة. فبينما بحثتُ أنا عن معلـــومات جديـــدة، انصرفت هي للبحث عن طرائق كي تتخلص من حزنها عن طريق زرع شتلات البندورة والعيش. وأتيتُ أنا كي أجبرها على تذكّر آلامها.

كوني لطيفة يا **بريتان** وانصرفي.

"لا بـــأس، **مدام تروتييه**. إذا كنتِ لا تستطيعين تذكّر تفاصيل إضافية فلعلها ليست مهمة".

تـــركتُ بطـــاقتي، بالإضافة إلى الطلب المعتاد: اتصلي بي إذا تذكرت شيئاً. وشككتُ أن تفعل ذلك.

وجدتُ باب غرفة **غابي** مغلقاً عندما عدتُ إلى المنـــزل. كانت الغرفة ساكنة جـــداً. فكّـــرتُ في اختلاس نظرة، لكنني قاومتُ هذا الدافع. كانت حساسةً جداً بشأن احترام خصوصيتها. أويتُ إلى سريري وبدأتُ أقرأ، لكن كلمات **جنيفياف تروتييه** بقيت عالقةً في ذهني. **شبعت موتاً**. استخدم **شامبو** العبارة ذاتها. أجل، إنها الخامـــسة. هـــذه هـــي الحقيقة القاسية. أمتلكُ أفكاري أنا الأخرى التي لا تدعني أستريح، تماماً مثل **شامبو** و**تروتييه**.

27

استـــيقظتُ علـــى الأصوات المنبعثة من أخبار الصباح. إنه اليوم الخامس من تموز. تجاوزتُ ذكرى الاستقلال و لم أنتبه إليها. لم أحضّر فطيرةً بالتفاح، و لم أنشد **فلـــتعش النجوم والأشرطة إلى الأبد**، و لم أشعل المفرقعات. شعرتُ بالحزن لهذه الفكـــرة. يتعـــيّن على كل أميركي، وفي كل مكان على الكرة الأرضية، أن يقف ويتباهـــى يـــوم الرابع من تموز. سمحتُ لنفسي أن أتحوّل إلى متفرجة كندية على التراث الأميركي. حضّرتُ خططاً للذهاب إلى الميدان الرياضي في أقربِ فرصةٍ كي أحمّس أي فريق أميركي يلعب في هذه المدينة.

اســـتحممتُ، ثم حـــضّرتُ القهوة والخبز المحمّص. تفحصتُ مجلة ***الغازيت***. وجـــدتُ فيها أخباراً لا تحصى عن حالات الانفصال. ماذا سيحدث للاقتصاد؟ أو للمواطـــنين الأصـــليين؟ وماذا سيحدث للناطقين بالإنكليزية؟ جسّدت إعلانات الوظائـــف المطلوبة مخاوفي هذه. يبدو أنّ الجميع يعرضون ما لديهم للبيع، ولا أحد منهم يريد أن يشتري. لعله يجدر بي أن أعود إلى موطني، فما هي الأشياء التي أقوم بإنجازها هنا؟

بـــريينان. اهدئـــي يـــا **بريينان!** أنتِ متوترة هكذا لأنك مضطرة إلى إدخال سيارتكِ إلى مرآب الصيانة.

هـــذا صحيح. إنني أكره القيام بمهمات، وأكره تفاصيل العيش في هذه **الولاية – الأمـــة – التقنية**، وفي هذه الأعوام الأخيرة من الألفية الثانية. جواز السفر، رخصة القـــيادة، رخصة العمل، ضريبة الدخل، جرعات التلقيح، التنظيف على الناشف،

مواعـــيد العناية بالأسنان، البقع الملطخة. يُختصر شعاري بالتالي: أجّلي الأمور إلى أن تـــصلي إلى مـــرحلةٍ تجدين نفسكِ فيها مجبرةً على القيام بها. تحتاج سيارتي إلى عناية هذا اليوم.

إنـــني فـــتاةٌ أميركيةٌ في ما يتعلق بالسيارة. أشعر أنني غير كاملة، ومنعزلة عن العالم، وضعيفة، من دونها. ماذا أفعل إذا تحتّم عليّ الهرب في حال حصول اجتياح؟ ومـــاذا يحدث لو أنني اضطررتُ إلى مغادرة حفلة ما باكراً، أو إذا علقتُ في محطة مترو؟ وماذا يحدث لو أنني قررتُ الذهاب إلى الريفً؟ أو إذا اضطررتُ لنقل خزانة خشبية صغيرة؟ لا غنى لي عن السيارة. لكنني لست من النوع الذي يعشق سيارته عشقاً أعمى. أريد سيارة يعمل محركها عندما أدير مفتاح التشغيل فيها، وأن أستمر في ذلـــك لمـــدة عقدٍ من الزمن على الأقل، ومن دون أن يتطلب الأمر الكثير من الصيانة.

لم أسمع بعد أي صوت من غرفة **غابي**، إذاً لا بد أنها تستمتع بنومها. جهّزتُ أغراضي وغادرتُ المنـــزل.

عـــند التاســـعة أوصلتُ السيارة إلى المرآب، وأنا في محطة المترو. انتهت فترة الازدحـــام الصباحية، لذلك كانت عربة المترو شبه خالية. شعرتُ بالسأم. رحتُ أتأمـــل الإعلانات الكبيرة. هل يجدر بي مشاهدة مسرحية في **لا تياترو سان دينيز**؟ هل يجدر بي تحسين مهاراتي المهنية في **كلية أو سوليفان**. أم يتعيّن عليّ شراء ثياب من الجينـــز من محلات **غس**، وعطر **شانيل** من محلات **لا بايي**، وبعض الحاجيات الملونة من **بينيتون**؟

رحـــتُ أتفحص خريطة المترو. تقاطعت الخطوط الملونة فيها مثل توصيلات لـــوحة ذاكـــرة في جهـــاز حاسوب، في حين أشارت النقاط البيضاء إلى محطات التوقف.

تتـــبعتُ خط سيري الذي يسير شرقاً على طول الخط الأخضر الذي ينطلق من **غـــاي – كونكورديا** حتى يصل إلى **بابينيو**. أما الخط البرتقالي اللون فيسير حول الجبل علـــى محـــورٍ شماليٍّ – جنوبيٍّ على سفح الجبل الشرقي من الجبل، ثم يُكمل على المحور الشرقي – الغربي تحت الخط الأخضر، وينطلق بعد ذلك على المحور الشمالي – الجنوبي في الجهـــة الغربية من المدينة. أما بالنسبة للخط الأصفر فيغور تحت النهر، ليعود ويظهر

فـــوق **جزيـــرة ســـانت هيلانة**، ويُكمل حتى **لونغويل** الموجودة في ساحلها الجنوبي. لاحظتُ أنّ الخطّين البرتقالي والأصفر يتقاطعان مع الخط الأخضر في **بيري – أوكام**. بدت نقطة كبيرة في مكان التقاطع مما يعني أنها نقطة تحويل كبيرة.

همهـــم القطار عندما دخل في نفقٍ تحت الأرض. عددتُ المحطات التي توقف فيها القطار في خط سيري. عددتُ سبع نقاط منها.

عجباً يا **برينان**. أتريدين أن تغسلي يديك؟

تحركت عيناي شمالاً مع الخط البرتقالي، ورحتُ أتخيّل المناظر الطبيعية المتغيرة للمديـــنة. **بيري – أوكام**، **شيربروك**، **مون رويال**، وأخيراً **جان – تالون** بالقرب من **سان إدوارد**. سكنت **إيزابيل غاغنون** في ذلك الحي.

أوه؟

بحـــثتُ عن الحي الذي سكنت فيه **مارغريت آدكينـــز**. يقع هذا الحي على الخط الأخضر، لكن في أي محطة؟ **باي 11**. رحتُ أعد المحطات ابتداءً من **بيري – أوكام**. عددتُ ست محطات إلى الشرق منها.

ماذا بشأن **غاغنون**؟ عدتُ إلى الخط البرتقالي. عددتُ ست محطات.

دغدغتني عدة شعيرات خلف رقبتي.

جـــاء دور **موريـــسيت – شامبو**. عاشت على خط مترو **جورج – فانييه**، الخط البرتقالي، وعلى بُعد ست محطات إلى الغرب من **بيري – أوكام**.

يا إلهي!

ماذا بشأن **تروتييه**؟ لا. لا يمر خط المترو بشارع **سانت آن – بيليفيو**.

دامـــاس؟ إنهـــا تعـــيش في **بارك اكستنشن**، أي بالقرب من محطتَي **لورييه وروزمون**. إنهما المحطتان الثالثة والرابعة بعد **بيري – أوكام**.

حـــدّقتُ بالخريطة. عاشت ثلاث ضحايا على بعد ست محطات بالضبط من محطة **بيري – أوكام**. هل هذه محض مصادفة؟

سمعتُ صوتاً آلياً يقول: "**بابينيو**".

حملتُ أغراضي، وأسرعتُ إلى المنصة.

سمعـــتُ، بعد عشر دقائق، رنين الهاتف في الوقت نفسه الذي فتحتُ فيه باب مكتبي.

"دكتورة بريينان".

"ماذا تفعلين يا **بريينان** بحق الجحيم؟"

"صباح الخير يا **رايان**. هل أستطيع مساعدتك بشيء؟"

"يوشـــك **كلوديل** أن يهاجمني بسببك. قال إنك انطلقتِ في إزعاج عائلات الضحايا".

انتظرَني كي أقول شيئاً، لكنني لم أفعل.

"كنتُ أدافع عنكِ يا **بريينان** لأنني أحترمكِ. لكنني لا أفهم ماذا يجري هنا. إنّ تدخلكِ بهذا الشكل يؤذيني كثيراً في هذه الحالة".

لم أقـــل شيئاً يبدّد غضبه: "طرحتُ القليل من الأسئلة. إنّ طرح الأسئلة ليس ممنوعاً".

"لم تخـــبري أحـــداً، ولم تنسّقي مع أحد. خرجتِ من تلقاء نفسك لتطرقي أبواب الناس". سمعتُ صوت أنفاسه المتوترة في منخريه.

"اتصلتُ أولاً". لا ينطبق هذا في حالة **جنيفياف تروتييه**.

"لستِ محقّقة يا **بريينان**".

"لكنهم وافقوا على مقابلتي، والتحدث معي".

"هل تقومين بدور **مايكي سبيلاين**؟ إنّ ما تقومين به ليس من اختصاصك".

"إنني محققة لديها قرّاء كثيرون".

"يا إلهي يا **بريينان**، إنك تقومين بإلغاء دوري!"

سمعتُ ضجيجاً أحدثه رجالٌ على الطرف الآخر من الخط.

"اسمعـــي. لا تـــسيئي فهمي. أعتقد أنك قوية، لكن هذا لا يكفي. يستحق هؤلاء الناس شيئاً أفضل". جاءت كلماته أقسى من الصوان.

"أجل".

"إنّ **تروتييه** هي قضيتي أنا".

"ماذا حصل فعلاً في القضية التي تخصك؟"

"بريينان..."

"ماذا بشأن الأخريات؟ ماذا حدث لهنّ؟"

رحتُ أفكّر.

"لا تحتل هذه التحقيقات الأولوية عند أحد في الوقت الحاضر، يا **رايان.** قُتلت **فرانسين موريسيت – شامبو** منذ ما يزيد عن ثمانية عشر شهراً.

ومضت ثمانية أشهر على مقتل **تروتييه.** أمتلكُ قناعة راسخة بأنه يتعيّن القبض على القاتل كائناً من يكون. إني أهتم بالموضوع من هذه الزاوية، ولذلك أطرح بعض الأسئلة. وماذا يحدث؟ يطلبون مني الانصراف، لكنني أعتقد أنّ الاهتمام سيتراجع بهذه القضايا شيئاً فشيئاً إلى أن ينساها الجميع، لأن السيد **كلوديل** يعتقد أنني لا أستطيع المساعدة في شيء. ليست المرة الأولى التي تحصل فيها هذه الأمور".

" لم أطلب منك عدم التدخل".

"ماذا تقول يا **رايان؟"**

"أعرف أنّ **كلوديل** يريد تحجيمك، كما ترغبين أنتِ بتحجيمه. كنت سأفعل الشيء ذاته لو أنه هاجمني. إنّ كل ما أريده هو أن لا تفسدي قضيتي".

"وماذا تقصد بذلك؟"

أخذ وقتاً كبيراً قبل أن يردّ.

"لا أقول إنني لا أريد المعلومات التي تستطيعين الحصول عليها. أريد فقط أن تكون الأولويات واضحة".

لم يتكلم أحدنا لوقتٍ طويل. تنقّل الغضب في الاتجاهين.

"أعتقد أنني توصلتُ إلى شيء".

"ماذا؟" لم يتوقع شيئاً من هذا القبيل.

"توصلتُ إلى تحديد رابط ما يجمع بين تلك الجرائم".

"ماذا تقصدين؟" فقدَ صوته مقداراً كبيراً من الحدة.

لم أكن متأكدة مما أقصده. ربما أردتُ أن أحوّل أنظاره قليلاً عما أقوم به.

"دعنا نلتقي على الغداء".

"الأفضل أن يكون لديك شيء مهم". سكت قليلاً. "سأراك في الظهيرة في مطعم **أنطوان"**.

لم أجد قضايا جديدة على طاولة مكتبي، لحسن حظي، وهكذا تمكّنتُ من التركيز على عملي على الفور. لم تكتمل الصورة عندي بعد. هل يشكّل المترو الرابط الذي أبحث عنه.

شغّلتُ جهاز الحاسوب وفتحتُ الملف كي أتفحص العناوين. أجل، تمكنتُ من الحصول على محطات التوقف الصحيحة. تناولتُ خريطة وعيّنتُ المحطات مثلما فعلتُ أنا و**رايان** بالنسبة لمنازل الضحايا. شكّلت الدبابيس الثلاثة مثلثاً، تشكل محطة **بيري – أوكام** مركزه. عاشت كلٌ من **موريسيت – شامبو، وغاغنون، وآدكينز** على بعد ست محطات من تلك المحطة، كما أنّ شقة **سان جاك** تقع على بعد مسافة قصيرة منها.

هل هذا هو الرابط الذي أبحث عنه؟ يستطيع القاتل أن يركب القطار في محطة **بيري – أوكام**، ثم يختار ضحية تريد النزول بعد ست محطات توقف. ألم أقرأ مرةً عن هذا النوع من السلوك؟ يركّز المجرم على لونٍ معين، أو على رقمٍ، أو على سلسلة من التصرفات. يتبع الرجل نمطاً معيّناً لا يحيد عنه، ويبقى مسيطراً على أدق التفاصيل. أليس التخطيط الدقيق ميزةً أساسيةً ترافق القتلة التسلسليين؟ هل زاد رجلُنا من هذه الدقة؟ أيمكن أن يكون الرجل قاتلاً تسلسلياً يتميّز بنوعٍ من نمطٍ ما من أنماط السلوك الإجباري التي تنضوي تحته كل عمليات القتل؟

لكن ماذا بشأن **تروتييه وداماس**؟ لا يتفق قتلهما مع ذلك النمط، لأنه من غير المعقول أن يكون الأمر بهذه البساطة. حدّقتُ في الخريطة وتمنيتُ أن يظهر أمامي حلٌ ما. تزايد في أعماقي الشعور بأن شيئاً ما يكمن وراء جدار وعيي. أخذ هذا الإحساس يسيطر عليّ شيئاً فشيئاً. ماذا؟ كدتُ أن لا أسمع الطرقة.

"دكتورة برينان؟"

رأيتُ **لوسي دومون** واقفةً عند باب مكتبي. تستطيع **لوسي** أن تدخل إلى مكتبي ساعة تشاء.

"**إلسا!**"

نسيتُ كل ما يتعلّق بتلك القردة الصغيرة.

أجفلت **لوسي** مني، وراح جسدها يرتعش، فكادت أن تُسقِط التقرير المكتوب من يدها.

"أتريدين أن أعود في وقتٍ لاحقٍ؟"

بـــدأتُ بالـــبحث عن التقارير التي سبق **للوسي** أن أعطتني إياها. أجل، طبعاً يتعـــيّن أن لا أنـــسى محطة الباصات. إنها لا تبعد كثيراً عن محطة **بيري – أوكام**. عيّنتُ مكان **إلسا**. جاء مكانها في وسط المثلث تماماً.

هـــل هذا هو الحل الذي أبحث عنه؟ القردة؟ هل تتوافق معطياتها؟ وإذا كان الأمـــر كذلك، كيف؟ هل هي ضحية أخرى؟ هل كانت بمثابة تجربة؟ ماتت **إلسا** قبل عامين من مقتل **غرايس داماس**. ألم يسبق لي أن قرأتُ عن ذلك النمط أيضاً؟ هـــل تتحوّل أفكار المراهقة، وخيالاتها، إلى تعذيب الحيوانات قبل أن تأخذ شكل الاغتصاب والقتل؟ أليس هذا ما يدعى **متوالية دامر المرعبة**؟

تأوهـــتُ واسترخيتُ في جلستي. إذا كانت هذه هي المعلومات التي كان لا وعيي يحاول أن يبيّنها لي، فلا بد من أنّ **رايان** لن يكون مسروراً بها.

خـــرجتُ مـــن المكتب واتجهتُ نحو غرفة الملفات المركزية. اختفت **لوسي**. سأعتذر منها لاحقاً. فعلتُ هذا كثيراً معها في الآونة الأخيرة. عدتُ إلى مكتبي.

لم يحـــتوِ ملـــف **داماس** على الكثير من المعلومات في ما عدا التقرير. فتحتُ المغلف الذي يحمل اسم **آدكينـــز**، وبدأتُ أقلّب بين الأوراق. وجدتُ أنّ الأوراق كانـــت توثيقـــية بطبيعتها، وهي الأوراق التي سبق لي أن اطّلعتُ عليها مراراً. لم ألاحـــظ شـــيئاً جديداً. تحولتُ لتفحص ملفات كل من **غاغنون**، **وموريسيت – شامبو**، ثم ملف **تروتييه**.

أمـــضيتُ ساعة وأنا منكبة على الملفات. وجدتُ أمامي أحجية **غران** مجدداً. وجـــدتُ شذرات منفصلة من المعلومات. يتعيّن عليّ استيعاب هذه المعلومات كي يتولى ذهني معالجتها وترتيبها. لم أنجح في عملية ترتيب هذه المعلومات. حان وقت تناول القهوة.

أحضرتُ القهوة، وأحضرتُ معها نسخةً من عدد هذا الصباح من ***جورنال***. ارتـــشفتُ القهـــوة وبـــدأتُ بالقراءة. أعدتُ ترتيب المعلومات في ذهني. تنوعت الأخـــبار قليلاً عن ***غازيت*** الناطقة باللغة الإنكليزية، أما المقالات فاختلفت كثيراً. ماذا يسمي **هوغ ماكلينان** هذا الاختلاف؟ هل يدعوها **العزلتين**؟

اســـترخيتُ في جلـــستي. واجهتُ الوضع نفسه مجدداً. الحماسة اللاشعورية. أمتلكُ العناصر، لكن اللوحة لا تكتمل.

حسناً يا **بريتان**. كوني منهجية. بدأ شعورك هذا صبيحة هذا اليوم. ماذا كنتِ تفعلين؟ لم تفعلي الكثير. قرأتِ الصحيفة. أحضرتِ السيارة إلى المرآب. ركبتِ في المترو. راجعتِ الملفات.

إلسا؟ لم يكن عقلي راضياً. هناك المزيد من المعطيات.

هل هي السيارة؟

لا شيء.

هل هي الصحيفة؟

ربما.

قلّبتُ صفحاتها مجدداً. وجدتُ المواضيع ذاتها، والمقالات الافتتاحية ذاتها، والإعلانات المبوبة ذاتها.

توقفتُ بغتةً.

الإعلانات المبوبة. أين رأيتُ الإعلانات المبوبة؟ أين رأيتُ أكداساً من هذه الإعلانات.

سبق لي أن رأيتُها في غرفة **سان جاك**.

تفحصتُ هذه الإعلانات ببطء. الوظائف، الموجودات والمفقودات، مبيعات المرائب، الحيوانات الأليفة، العقارات.

العقارات؟ العقارات!

تناولتُ **ملف آدكينز**، وسحبتُ الصور الفوتوغرافية. أجل. إنها هناك. اللافتة المائلة الصدئة، والتي بالكاد تُرى في تلك الباحة المهملة. ***للبيع***. يعرض أحدهم منزله للبيع، وهو المنزل الذي يقع في البناية التي تسكنها **مارغريت آدكينز**.

ماذا يعني هذا؟

فكّري يا **بريتان**.

شامبو. ماذا قال الرجل؟ قال لي إنّ زوجته لا تحب العيش في تلك المنطقة، وهذا هو السبب الذي يدفعهم للمغادرة. أو لعله قال شيئاً من هذا القبيل.

هرعتُ إلى الهاتف. لم يجبني أحد.

ماذا بشأن **غاغنون**؟ ألا يستأجر شقيقها شقة؟ أم أنّ مالك البناية يعرضها للبيع.

تفحصتُ الصور. لم أجد لافتة. اللعنة!

حاولتُ الاتصال **بشامبو** مجدداً. ما من جواب.

اتصلتُ **بجنيفياف تروتييه**. تلقيتُ رداً بعد الرنة الثانية.

سمعتُ صوتاً مرحاً: "***بونجور***".

"مدام تروتييه؟"

"***وي***". قالتها بلهجة تساؤل.

"أنا الدكتورة **بريتان**. تحدثنا البارحة".

"***وي***". قالتها ببعض الخوف.

"أيمكنني أن أطرح سؤالاً واحداً عليك؟"

"***وي***". قالتها بلهجة عدم اكتراث.

"هل كان منـــزلكِ معروضاً للبيع عندما اختفت **شانتال؟**"

"عذراً؟"

"هل كنتِ تحاولين بيع منـــزلكِ في شهر تشرين الأول من العام الماضي؟"

"من أخبركَ بذلك؟"

"لم يخبرني أحد. كنت أتساءل فقط".

"لا. لا. عـــشتُ هـــنا منذ أن انفصلتُ عن زوجي. أنا لا أرغب بالمغادرة. **شانتال**... أنا... كان بيتنا".

"شكراً لك يا **مدام تروتييه**. أنا آسفة لأنني أزعجتك". خرقتُ، للمرة الثانية، السلام الذي عقدَته تلك السيدة مع ذكرياتها.

لن يوصلني هذا إلى أي مكان، ولعلها كانت فكرة غبية قبل كل شيء.

حاولتُ الاتصال **بشامبو**. أجابني صوت رجل في وقتٍ كنت أفكّر فيه بقطع الاتصال.

"***وي***".

"مسيو شامبو؟"

"لحظة واحدة من فضلك".

"وي".

"مسيو شامبو؟"

"وي".

فسّرتُ له من أكون وطرحتُ سؤالي. أجابني إيجاباً، وأضاف أهم حاولوا بيع ملكيتهم. وُضع الإعلان مع **ري ماكس**. قال لي إنه سحب الإعلان عندما قُتلت زوجته. قال إنه يعتقد أنّ الإعلان قد نُشر، لكنه ليس متأكداً. شكرتُه ثم قطعتُ الاتصال.

اتصالان من أصل خمسة. هناك احتمال بأن يكون **سان جاك** قد استخدم الإعلانات المبوبة.

اتصلتُ بفريق استعادة الأدلة. قالوا لي إنّ الأدلة التي جُمعت من **شارع بيرغر** موجودة في قسم الملكية.

نظرتُ إلى ساعتي التي أشارت عقارها إلى الحادية عشرة وخمسٍ وأربعين دقيقة. حان الوقت للالتقاء **برايان**. أعرف أنه لن يفعل شيئاً يؤذيني، لكنني أحتاج إلى المزيد من القرائن.

نشرتُ صور **غاغنون** مجدداً وتفحصتُها واحدةً تلو الأخرى. رأيتُها هذه المرة. أحضرتُ عدسةً مكبرةً، ورحتُ أحرّك العدسة حتى توضحت الصورة. انحنيتُ، ورحتُ أعدّل العدسة أكثر كي أتأكد.

"اللعنة!"

وضعتُ الصور في مغلفاها، وأدخلتُ المغلفات في حقيبتي، ثم هرعتُ نحو المطعم.

يقع مطعم **لا بارادي تروبيك** قبالة مبنى **أمن كيبيك** مباشرة. يقدّم هذا المطعم مأكولات متدنية النوعية، والخدمة فيه بطيئة، لكنه يكون مكتظاً على الدوام في وقت الظهيرة. يعود السبب في ذلك إلى الحيوية التي يتمتع بها صاحبه، **أنطوان جانفييه**. بادرني الرجل بتحيةٍ معتادة.

"آه **مدام**، تبدين منشرحة اليومَ؟ أجل! أنا سعيد جداً لرؤيتكِ بعد هذا الوقت الطويل". ظهرت السخرية على وجهه العاجي.

"أجل يا **أنطوان**، كنتُ مشغولة جداً". هذا صحيح في حدّ ذاته، لكن المأكولات الكاريبية لن تكون أبداً طبقي اليومي المفضل.

"آه. أنتِ تجهدين نفسك في عملك كثيراً. لدي اليوم بعض أنواع السمك الشهية. إنها طازجة، بالكاد ماتت، وما تزال مياه المحيط تقطر منها. ستأكلينها

وستشعرين بأنك في حال أفضل. أحتفظ بطاولة رائعة لكِ. إنها الأفضل في هذا المكان، كما أنّ أصدقاءك موجودون هنا".

أصدقائي؟ ومن يكون غيره.

"تعالي. تعالي. تعالي".

امتلأ المطعم بما يزيد عن مئة شخص، وكلهم يتعرقون، ويأكلون تحت مظلات ملونة. تبعتُ **أنطوان** عبر متاهة من الطاولات، وصعدتُ معه إلى منصة مرتفعة تقع في زاوية بعيدة من المطعم. جلس **رايان** في ظلال ستائر معلقة أرجوانية اللون تدلت أمام نافذة زائفة، ظهر منها رسم لمغيب الشمس. دارت مروحة السقف ببطء فوقه. انشغل **رايان** بالتحدث إلى رجلٍ يرتدي سترةً رياضيةً من الكتان. تمكنتُ من معرفة الرجل، رغم أنه يدير ظهره إليّ، بفضل تسريحة شعره وتجعداته المألوفة لديّ.

نهض **رايان** قليلاً عن كرسيّه: "**بريتان**". نظر إليّ محذراً بعينيه بعد أن لمح رد فعلي على وجود الرجل. أراد أن يقنعني بمساعدته.

"**الملازم أول في التحري رايان**". حسناً، من الأفضل أن يكون هذا الاجتماع مجدياً.

بقي **كلوديل** جالساً، لكنه أومأ.

جلستُ على الكرسي المجاور **لرايان**. ظهرت زوجة **أنطوان**، فتبادلنا وإياها التحيّات المعتادة، وطلب بعدها رجلا التحري شراب الشعير، بينما طلبتُ زجاجة **كوك** للحمية.

"إذاً. ما هو الاختراق الذي تمكنتِ من تحقيقه؟" لا يستطيع أحد مجاراة **كلوديل** في لهجته الساحرة مع الآخرين.

لعب **رايان** دور صانع السلام: "لماذا لا نطلب أطباقنا أولاً؟"

تبادلتُ مع **رايان** بعض الأفكار عن الطقس. اتفقنا على أنه دافئ. طلبتُ طبق السمك المميّز عندما عادت **جانين**. بينما طلب رجلا التحري أطباقاً من **جامايكا**. بدأتُ أشعر بأنني دخيلة.

قال الوسيط **رايان**: "إذاً، ماذا لديكِ من جديد؟"

"المترو".

"المترو؟"

"يضيّق المترو أعداد المشتبه بهم إلى أربعة ملايين شخص، ومليونين إذا اعتبرنا الذكور فقط".

"دعها تتكلّم يا **لوك**".

"ماذا بشأن المترو؟"

"سكنت **فرانسين موريسيت – شامبو** على بُعد ست محطات توقف من محطة **بيري – أوكام**".

"بدأنا نحقق تقدماً الآن".

سدّد **رايان** باتجاهه نظرةً حادةً، وبقوة تكفي لقطع الزجاج.

"وينطبق الأمر ذاته بالنسبة إلى **إيزابيلً غاغنون** و**مارغريت آدكينز**".

"همم".

لم يقل **كلوديل** شيئاً.

"أما **تروتييه** فسكنت بعيداً جداً عن المحطة".

"أجل، لكن **داماس** كانت قريبة جداً منها".

تقع شقة **سان جاك** على مسافة قريبة من المحطة.

تناولنا طعامنا بصمت لفترة من الوقت. كان السمك جافاً، أما الأرزّ والمقالي فكانت مشبعة بالدهون. يصعب أن تتآلف كل هذه المكونات.

"قد يكون الأمر أكثر تعقيداً من مجرد محطات توقف المترو".

"أوه؟"

"وضعت **فرانسين موريسيت – شامبو** وزوجها منزلهما في قائمة **ري ماكس** للمنازل المعروضة للبيع".

لم يعلّق أحدهما بشيء.

"كانت هناك لافتة خارج البناية التي تسكن فيها **مارغريت آدكينز**، وكانت لافتة **ري ماكس**".

انتظرني الرجلان كي أكمل. لم أفعل. فتحتُ حقيبتي الصغيرة وتناولتُ منها صوَر **غاغنون**، ثم نشرتُها على الطاولة. تناول **كلوديل** شيئاً من الموز المقليّ بشوكته.

أمســك **رايان** بصورةٍ وتفحصها، ثم نظر نحوي متسائلاً. أعطيتُه عدسةً مكــبرةً، وأشــرتُ إلى شيءٍ تصعب رؤيته في أقصى يسار الصورة. تفحصها لوقتٍ طويلٍ، ثم وضع الصورة والعدسة المكبرة على سطح الطاولة من دون أن يقولَ شيئاً.

نظّف **كلوديل** يديه، ورمى بالمنديل الورقي في صحنه. أمسك الصورة وكرّر مــا فعلــه **رايان**. برزت عضلات فكّيه عندما تعرف إلى ذلك الشيء. حدّق وقتاً طويلاً بالصورة، لكنه لم يقل شيئاً.

سأل **رايان**: "هل تشير إلى شقة أحد الجيران؟"

"يبدو ذلك".

"ري ماكس؟"

"أعــتقد هذا. يبدو هنا حرف **R** وقسماً من حرف **E**. أيمكننا أن نكبّر هذه الصورة".

"أعــتقد أنــه من السهل أن نتتبعها، ولا بد أنّ القائمة قد صدرت منذ أربعة أشهر. اللعنة، لا بد أنها ما تزال صالحة". انشغل **رايان** بتدوين الملاحظات.

"ماذا بشأن **داماس**؟"

"لا أعرف". لا أريد أن أزعج عائلة ضحيةٍ أخرى، لكنني لم أقل ذلك.

"وتروتييه؟"

"لا. ســبق لي أن تحدثتُ مع والدة **شانتال**. لا تريد بيع منــزلها، ولم تعرضه للبيع أبداً".

"قد يكون الوالد؟"

تطلعــنا صوب **كلوديل**. كان ينظر إليَّ، لكن صوته خلا هذه المرة من لهجة التنازل.

قال **رايان**: "ماذا؟"

"أمضت وقتاً كبيراً في منــزل والدها. أيعقل أن يكون الوالد هو الذي يريد البيع". هل بدأ **كلوديل** بالاقتناع مثلنا؟

قلّب المزيد من أوراق الملاحظات: "سأتحقق من ذلك".

قلتُ: "كانت ذاهبة إلى هناك في اليوم الذي قُتلت فيه".

"اعتادت أن تمكث عنده يومين في كل أسبوع". تغيّرت اللهجة من الازدراء إلى التعاون. هذا ما يسمى تقدماً.

"وأين يسكن؟"

"إنـــه يسكن في **ويست ماونت**. يمتلك الرجل منـــزلاً خاصاً به تقدّر قيمته بمليار دولار، في الجهة المقابلة من **شيربروك**".

حاولـــتُ أن أحدّد الموقع الذي يقع قرب منطقة وسط المدينة، وفي مكان لا يبعد كثيراً عن شقتي.

"هل يقع المنـــزل أعلى **الفورم** مباشرة؟"

"هذا صحيح".

"أي محطة مترو تقع قربه؟"

"لا بد أن تكون **آت واتر** التي تقع على مسافة قريبة من هناك".

نظـــر **رايان** إلى ساعته، ولوّح بيده كي يجذب انتباه **جانين**، ثم حرّك يده في الهواء وكأنه يوقّع. دفعنا ما يتوجب علينا، ثم أعطانا **أنطوان** قطع حلوى.

تـــناولتُ الخـــريطة ما إن وصلتُ إلى مكتبي، وحدّدتُ موقع محطة **آت واتر** عليها، ثم رحتُ أعدّ محطات التوقف التي تفصلها عن محطة **بيري – أوكام**. محطة، اثنـــتان، ثـــلاث، أربع، خمس، ست. رنّ الهاتف في الوقت الذي عزمت فيه على استخدامه.

28

بقي منـــزل **روبرت تروتييه** معروضاً ضمن قائمة المبيعات لمدة عام ونصف العام.

"أعتقد أنّ الأمور تجري ببطء في نطاق الأسعار هذا".

"لا أعرف يا **رايان**. لم أتوجه إلى هناك من قبل".

"رأيتُ إعلانات كهذه على شاشة التلفزيون".

"ري ماكس؟"

"أتعني الإعلانات؟"

"إنه يعتقد ذلك، ونحن نتفحص من جهتنا".

"هل اللافتة موجودة في الخارج؟"

"أجل".

سألتُ: "وماذا بشأن **داماس**؟"

عاشـــت **دامـــاس** مع زوجها، وثلاثة أولاد، مع والديه. امتلك **آل داماس** منـــزلهم منذ وقت طويلٍ. قالوا إنهم يريدون تمضية حياتهم فيه.

فكّرتُ في ذلك لبعض الوقت.

"بماذا تعمل **غرايس داماس؟**"

"ربّـــت أولاداً. وحاكـــت المفارش لدار العبادة، كما أنها تنقلّت في وظائف كثيرة بدوامٍ جزئيٌّ. هل أنتِ مستعدة لسماع ما سأقوله تالياً؟ عملت ذات مرة في ملحمة".

"رائع". من ذبح الجزّار إذاً؟

"هل هو الزوج؟"

"إنــه رجل أنيق، ويقود شاحنة". مرّت فترة صمت. "مثلما كان والده من قبله".

مرّت فترة صمت.

"أتعتقد أنّ هذا يعني شيئاً".

"أتعنين المترو أم اللوائح؟"

"أحدهما".

"اللعـــنة، يـــا **بريئان**، لا أعرف". مرّت فترة جديدة من الصمت. "أعطيني سيناريو".

جهدتُ كي أرسم هذا السيناريو.

"حسناً. يقرأ **سان جاك** إعلانات العقارات، يختار عنواناً. يمضي بعد ذلك في مـــراقبة المنـــــزل إلى أن يشاهد ضحيته. يمضي الرجل في مراقبتها، ثم يقبع منتظراً ضحيته، وينصب مصيدته".

"وما هو دور المترو هنا؟"

فكّري يا **بريئان**. "إنها لعبة مطاردة بالنسبة إليه، فهو يلعب دور الصياد الذي يـــبحث عن فريسة. اختار له مخبأً في شارع **بيرغو**. ما إن تمر الضحية حتى يُبرز لها الإعلانـــات المـــبوبة، ويتبعها، ثم يتقدم نحو فريسته. يستخدم الرجل مناطق صيدٍ خاصة به".

"أي محطة التوقف السادسة".

"ألديكَ فكرة أفضل؟"

"لكن لماذا إعلانات العقارات؟"

"لماذا؟ لأنها تقدّم أهدافاً سهلةً، مثل امرأة تقبع في منـــزلها وحدها. اعتقد الـــرجل أنّ الضحية تلازم المنـــزل الذي تريد بيعه، كي تُريه للشاري، أو لعله يتـــصل هاتفـــياً، وعلى أي حال فإنّ الإعلان سيعطيه إذناً بالدخول إلى بيوت ضحاياه".

"لكن لماذا وصل عدد الضحايا إلى ست؟"

"لا أعرف. يبدو الرجل مجنوناً".

يا للفكرة اللامعة يا **بريتان**.

"لا بد أنه يعرف المدينة جيداً".

راح يفكّر في ذلك.

"لعله عامل مترو؟"

"أم لعله سائق سيارة أجرة؟"

"أو لعله عامل مياه؟"

مرّت فترة من الصمت الذي يشوبه التوتر.

"**بريتان**، أنا..."

"لا".

مرّت فترة صمت.

"وُجـدت **غاغنون** في وسط المدينة **سنتر فيل**، أما **داماس** فوُجدت في **سان لامـبرت**، بيـنما عُثر على **تروتييه** في **سان جيروم**. كيف يستطيع صاحبنا فعل ذلك، إذا كان من الذين يستخدمون المترو كثيراً؟"

"لا أدري يـا **رايان**، لكن معظم الاحتمالات تشير إلى الإعلانات ومحطات توقف المترو. فكّر في المخبأ الذي اختاره **سان جاك**، أو أي نذل آخر، وهو المكان الـذي يقـع في محطة **بيري – أوكام**، وفي واقع جمعه للإعلاناتٍ المبوبة. يستأهل الأمر بعض المتابعة".

"أجل".

"لنبدأ بمجموعة **سان جاك** التي احتفظ بها".

"أجل".

خطرت فكرة أخرى في ذهني.

"مـا رأيـكَ لو نجمع بعض المعلومات عن حياته؟ لدينا بعض المعلومات التي نستطيع أن نبدأ بها".

"لكنها معلومات حديثة العهد كثيراً".

"ستساعدنا هذه المعلومات في مسعانا".

تمكنتُ من قراءة أفكاره عبر خط الهاتف.

"أســتطيع إخفــاء هــذا الأمر عن **كلوديل**، وأن أتحرى بصورة غير رسمية، وهكــذا أســتطيع أن أكتشف ما إذا كنا سنجني فائدة من متابعة البحث. نمتلك مسارح جرائم **موريسيت - شامبو وآدكينــز**، كما نعرف طريقة القتل، وكيفية التخلص من الجثة بالنسبة للأخريات. أعتقد أنهم سيتمكنون من الاستفادة من هذه المعلومات".

"أتتحدثين عن **كوانتيكو**؟"

"أجل".

أصــدر **رايان** صوت استهجان: "لكنهم يتلقّون دعماً يمكّنهم من تأجيل الرد على مكالمتك حتى نهاية هذا القرن".

"أعرف شخصاً هناك".

"أنــا متأكد من ذلك". تأوه. "لَم لا، لكن ذلك يبقى مجرد استفهام عند هذا الحــد. لا أريــدكِ أن تفعلــي أي شيء يلزمنا، لأن طلباً كهذا يتعيّن أن يأتي من **كلوديل**، أو مني".

وجــدتُ نفــسي بعــد مرور دقيقة من الزمن وأنا أنقر أرقام مفتاح منطقة **فيرجينــيا**. طلبتُ التحدث إلى **جون صامويل دوبزانسكي**. قالوا لي بعد قليل إنّ **السيد دوبزانسكي** ليس موجوداً، فتركتُ له رسالةً.

حاولــت الاتصال **بباركر بايلي**، فتلقّيت رسالة من مساعدةٍ أخرى، فتركتُ رسالةً أخرى.

أردتُ معــرفة المكــان الذي ستتناول **غابي** غداءها فيه. اتصلتُ بها فردّ عليّ صوتي أنا يطلب مني ترك رسالة.

اتصلتُ **بكاتي**. وتلقيتُ رداً بترك رسالة.

هل نسي الناس كيفية البقاء في مكان واحد؟

أمــضيت بقية المساء في الردّ على الرسائل، وفي تقديم المشورة للطلاب، والاســتماع إليهم. أردتُ التحدث إلى **دوبزانسكي**، كما أردتُ التحدث إلى **بايلــي**. راحت ساعةٌ ما تدق في رأسي. بدأ العد العكسي. كم سيمضي من الــوقت قــبل أن تــسقط ضحية جديدة؟ يئستُ مع حلول الساعة الخامسة وتوجهتُ إلى المنــزل.

وجـــدتُ أنّ الـــصمت المطبق يخيّم على المنـــزل. لم يكن **بيردي** موجوداً، وكذلك كانت الحال مع **غابي**.

"**غابي؟**" هل تغط في النوم؟

وجدتُ باب غرفة الضيوف ما زال مغلقاً، وسرعان ما شاهدتُ **بيردي** نائماً في سريري.

رحـــتُ أمـــسّد رأسه: "لا بد أنكما متعبان. **هووو**. حان الوقت كي أنظّف طبقك". فاحت الرائحة القوية من طبقه.

"لدي الكثير من الأمور تشغل رأسي يا **بيرد**. أنا آسفة".

لم أتلقَ رداً.

"أين غابي؟"

تلقيتُ نظرة شاردة تمدد الهر بعدها.

نظّفتُ طبق **بيردي** وملأتُه له، فأعرب عن امتنانه لي بأن شرع في استخدامه، لكن مخالبه تسببت بإهراق قسم من محتوياته على الأرض.

"هـــيا يـــا **بيرد**. حاوِل أن تتعلم إبقاء طعامك داخل الطبق. أعرف أنّ **غابي** ليـــست بالشريكة المثالية، لكن عليك أن تقوم بدورك". تطلعت إلى تلك الفوضى المـــؤلفة مـــن مجموعة مستحضرات التنظيف والتجميل التي تخصها. "أعتقد أنها لم تنظف سوى القليل".

تناولتُ علبة **كوك** للحمية، وارتديت سروالي القصير. لماذا لا أنوي أن أتناول الغداء في الخارج؟ أنا لا أمزح، سنخرج بالتأكيد.

ومـــضت الآلـــة المجيبة. وجدتُ رسالةً واحدة فقط. كانت رسالتي أنا عندما اتـــصلتُ عـــند حوالى الواحدة. ألم تسمع **غابي** رنين الهاتف؟ هل تجاهلته؟ ألعلها أقفلته؟ لربما كانت مريضة، أو أنها لم تكن هنا. توجهتُ نحو باب غرفتها.

"**غاب؟**"

طرقتُ الباب طرَقاتٍ خفيفةً.

"غابي؟"

طرقتُ الباب بقوة أكبر.

فتحتُ الباب وتطلّعتُ داخل الغرفة.

رأيـــتُ تلـــك الفوضـــى التي تميّز **غابي** في كل مكان. المجوهرات. الأوراق. الكـــتب. الثـــياب. شاهدتُ حمالة صدرٍ متدليةً خلف كرسي. تفحصتُ الخزانة. شاهدتُ الأحذية والصنادل مكومةً. لاحظتُ، وسط كل هذه الفوضى، أنّ أغطية السرير مرتّبةٌ بالشكل الصحيح. صعقتني هذه المفاجأة.

"يا للسافلة!"

اختار **بيردي** المرور بين ساقيّ.

"هل أمضت الليلة الماضية هنا أساساً؟"

تطلـــع الهر نحوي ثم قفز إلى السرير دار مرتين حوله ثم استقر. استلقيتُ قربه وما لبثت تلك الكتلة المعتادة أن ضغطت على بطني.

"هل فعَلَتْها مجدداً يا **بيرد**؟"

نشر مخالبه وبدأ يلعق.

"لم تكلّف نفسها عناء كتابة رسالة قصيرة".

ركّز **بيردي** على الأمكنة التي تفصلُ ما بين أصابع القدمين.

توجهتُ نحو غسّالة الأطباق كي أفرغها.

مـــرّت عشر دقائق قبل أن أهدأ بشكلٍ يمكّنني من طلب رقمها. لا إجابة. لم أفاجأ بالطبع. حاولتُ الاتصال بالجامعة. لا جواب.

مـــشيتُ نحـــو المطبخ. فتحتُ الثلاجة. أغلقتُها. ماذا بشأن طعام الغداء؟ فتحتُ الثلاجة مجدداً. تناولتُ علبة **كوك** للحمية. عدتُ كي أتجوّل في غرفة المعيشة. وضعتُ علبة **الكوك** الجديدة قرب العلبة التي جلبتها سابقاً، ثم شغّلتُ جهاز التلفزيون وتنقلتُ بـــين المحطات. اخترتُ مسرحيةً هزليةً مع علمي بأنني لن أشاهدها. تنقّل عقلي بسرعة مـــا بـــين الجرائم و**غابي**، والجمجمة التي وُجدت في حديقتي، ليعود إلى الجرائم مجدداً. عجزتُ عن التركيز على موضوع معيّن. وفّرَ التناغم القائم ما بين الحوار والضحكات المعلبة، خلفية الضجيج المناسبة فيما كانت أفكاري مثل الجزيئات الذرية.

شـــعرت بالغـــضب تجاه **غابي** وبالاستياء لأنني سمحتُ لها باستغلالي. شعرتُ بـــأنني مجـــروحة لأنها ستفعل هذا بي، وبالخشية على سلامتها. خفتُ كذلك من ظهـــور ضحية جديدة، وشعرتُ بخيبة الأمل تجاه عجزي. أحسستُ بأنني مجروحة عاطفياً، لكنني لم أستطِع التوقف عن لوم نفسي.

وقفتُ هناك لمدة طويلة عجزت عن تحديدها قبل أن ينطلق الهاتف بالرنين. أطلق صوت الرنين هذا **الأدرينالين** في شراييني وحرّره من مكان تخزينه.

هل هي غابي؟

"مرحباً".

تناهى إلى مسامعي صوت رجل: "أريد التحدث مع **تمب برينان** من فضلك". كان الصوت مألوفاً جداً بالنسبة لي، أي كما هي ذكريات أيام طفولتي التي قضيتها في الغرب الأوسط الأميركي.

"**جاي. أس**! أنا مسرورة لسماع صوتك!"

كان المتصل **جون صامويل دوبزانسكي**. إنه حبيَ الأول. عدتُ إلى أيام **كامب نورث وودس**. استمر غرامنا طيلة ذلك الصيف، والصيف التالي، وظل منتعشاً حتى سنتنا الجامعية الأولى في الكلية. توجهتُ جنوباً، بينما توجه **جاي. أس**. شمالاً. اخترتُ أن أتخصص في مادة **الأنثروبولوجيا**. تعرفتُ إلى **بيتي** في تلك الفترة. أما هو فتخصص في علم النفس، وتزوج ثم طلّق. فعل هذا مرّتين. اجتمعنا بعد أعوام عديدة في **الأكاديمية**. تخصص **جاي. أس** بعد ذلك في الجرائم الجنسية.

سأل: "هل يتملكك إحساس كامب نورث وودس؟"

"**إنه يملأ رأسي؟**" أكملتُ ذلك الشطر من أغنية المخيّم. ضحكنا سوياً.

"لم أكن متأكداً من أنكِ تريدينني أن أتصل بكِ في المنزل، لكنكِ تركتِ الرقم وتصوّرتُ أنني أستطيع المحاولة".

"أنا مسرورة لأنكَ اتصلت. شكراً لك". شكراً لك. شكراً لك. "أود استشارتكَ بقضيةٍ نواجهها هنا. هل أستطيع أن أطلب هذه الخدمة منك؟"

تظاهر أنه شعر بالإهانة: "متى ستتوقفين عن إثارة خيبة أملي فيكِ؟"

اعتدنا على تناول الطعام أثناء اجتماع **الأكاديمية**، وخيّمت علينا إمكانية التقارب بيننا في البداية. هل يجدر بنا العبث بذكريات أعوام مراهقتنا؟ هل ما زلنا نحمل معنا بقية من العواطف؟ لم نتلفظ بأي كلمة في هذا الاتجاه، فأخذت هذه الفكرة بالتلاشي عندنا شيئاً فشيئاً. أعتقد أنه من الأفضل أن نترك الماضي كما هو.

"مـــاذا حـــدث مـــع علاقـــتكَ العاطفية الجديدة التي أخبرتني عنها العام الماضي؟"

"لقد انتهت".

"آســـفة يا **جون صامويل**، لدينا هنا بعض الجرائم التي نظن أنها مترابطة. هل تستطيع أن تعطيني رأياً حول إمكانية وجود قاتل تسلسلي، إذا ما أعطيتكَ خلاصةً عن هذه الجرائم؟"

أسمعني عبارةً اعتدنا تبادلها في الماضي: "أستطيع إعطاء رأيي في أي شيء".

وصفتُ له جريمتَي **آدكينـــز وموريسيت – شامبو**، ولخّصتُ له الأشياء التي حـــدثت للضحايا. وصفتُ له كيفية اكتشاف بقية الجثث، والأمكنة التي وُجدت فيها، وكذلك التشويهات التي تعرضت لها. أضفتُ بعد ذلك نظرياتي الخاصة عن **المترو**، وإعلانات الصحف.

"أواجه صعوبة كبيرة في إقناع رجال الشرطة بوجود ترابط بين هذه القضايا. يقولـــون إنه لا وجود لنمط محدد، وأعتقد أنهم محقّون إلى حدٍّ ما. تختلف حالة كل ضـــحية من الضحايا، فإحداهنّ تعرضت لطلقٍ ناريٍّ، بينما الآخريات لم يتعرضن لإطـــلاق نـــار. ســـكنت الضحايا في أماكنٍ متفرقة. لا تبدو الأمور مترابطة مع بعضها".

"**واو. واو**. رويـــدك قليلاً، لأنك تخطئين في النظرة إلى هذا الأمر. بدايةً، إنّ معظم ما وصفتِه لي يتعلق بطريقة ارتكاب الجرائم".

"أجل".

"لا تسيئي فهمي. إنّ التشابه في طريقة ارتكاب الجرائم قد يكون مفيداً، لكن الاختلافات شائعة جداً. يستطيع المجرم أن يقيّد ضحيته ويشد وثاقها، ويفعل ذلك بواســـطة سلك الهاتف في إحدى المرات، ثم يعمد إلى إحضار حبله في المرة التالية. ويستطيع أن يطعن إحدى الضحايا ويجرحها، ثم يُطلق الرصاص على ضحيته التالية أو يخنقها. أو أنه يُقدم على السرقة من إحدى ضحاياه، ولا يفعل ذلك مع ضحيةٍ أخـــرى. أعطيتُك لمحةً عن أحد الرجال الذي استخدم نوعاً مختلفاً من السلاح مع كل ضحية. ألا زلتِ معي؟"

"أجل".

"إنّ طـريقة ارتكاب الجريمة عند أحد المجرمين ليست ثابتة. إنها تشبه أي أمرٍ آخـر في وجـود قوسٍ يتغيّر مع اكتسابه للخبرة. يتحسّن أداء هؤلاء الرجال مع الـتدرب على ارتكاب المزيد من الجرائم. إنهم يتعلمون الأشياء التي تنجح معهم، وتلـك التي لا تنجح، كما إنهم يحسنّون تقنياتهم أيضاً. يحدث هذا الأمر مع بعض هؤلاء أكثر من بعضهم الآخر بالطبع".

"يا للتحليل السليم!"

"توجد الكثير من الأحداث العشوائية التي تؤثر على ما يفعله هؤلاء المجرمون، وذلـك بغـض النظر عن الخطط التي يكونوا قد وضعوها بعناية. يُحتمل أن يرنّ الهاتـف، أو أن يظهر أحد الجيران، أو لعل أحد الحبال ينقطع. يتعيّن على المجرم أن يرتجل الحلول لهذه المفاجآت".

"فهمت".

"لا تـسيئي فهمـي. إنّ أنمـاط ارتكاب الجرائم قد تكون مفيدة، ونستطيع الإفادة منها في التحقيقات. إنّ التنوع في طريقة ارتكاب الجرائم قد لا يعني الشيء الكثير".

"وأنتَ، ماذا تستخدم؟"

"إنني أستخدم النمط المحدد".

"النمط المحدد؟"

"يُطلـق عليه بعض زملائي اسم **التوقيع**، أو بطاقة الزيارة، ولا تلاحظ إلا في بعض الجرائم. يطوّر معظم المجرمين طريقتهم الخاصة في ارتكاب الجرائم لأن إحدى خططهم قد نجحت مرات عديدة، لذلك فهم يرتاحون إليها، ثم يؤمنون أنها تقلّص مـن فرص القبض عليهم. يختلف الأمر مع بعض المجرمين الشرسين. يقود الغضب هؤلاء الأشخاص ويتركونه يصور لهم خيالات منوعة، ثم يلجؤون أخيراً إلى تنفيذ هـذه الخيالات. لا يكتفي هؤلاء بالعنف، لكنهم يخترعون طقوساً من أجل التعبير عن الغضب. تؤدي هذه الطقوس إلى القبض عليهم أحياناً".

"أيّ نوعٍ من الطقوس، أو الشعائر، التي تتحدث عنها؟"

"تـشتمل هذه الطقوس أحياناً على التحكم بالضحية، أو حتى إذلالها. أترين، ليـست الـضحية بحدّ ذاتها هي المهم في الأمر، فقد لا يحمل العمر، أو المظهر، أي

أهمـــية. المهم هنا هو التعبير عن الغضب. مرّ معي رجلٌ تراوحت أعمار ضحاياه ما بين السابعة والواحد والثمانين".

"إذاً ما هي الأمور التي تبحث عنها؟"

"إنـــني أبحث عن كيفية مواجهته لضحيته. هل يهاجمها؟ هل يستخدم طريقة الإيذاء اللفظي؟ وكيف يسيطر على ضحيته فور لقائه بها؟ هل يؤذيها في حميميتها الأنوثـــية؟ وهـــل يفعـــل ذلك قبل أن يقدم على قتلها، أو بعد ذلك؟ هل يعذّب ضـــحيته؟ وهل يقدم على تشويه جثتها؟ هل يترك شيئاً في مسرح الجريمة؟ أو هل يأخذ معه شيئاً؟"

"لكن ألا تؤثر بعض الأمور الطارئة وغير المتوقعة على هذه العوامل؟"

"إنهـــا تؤثر بالطبع، لكن الأمر الهام هنا هو أنه يُنفذ هذه الأمور بصفتها جزءاً من تنفيذ خيالاته، أي أنها الطقوس التي يبدّد غضبه بها، ولا يقوم بها فقط من أجل حمايته".

"إذاً، ماذا تظن؟ هل ما وصفته لك يمثل **توقيعاً** (تصرفات مميزة)؟"

"سأقول لكِ، لكن بشرط أن لا تعتبري ما أقوله كلاماً رسمياً".

"بالطبع".

"نعم، بالطبع".

بدأتُ بتدوين الملاحظات: "حقاً؟"

"أراهن بكل شيء".

"قـــل، وبكـــل صـــراحة يا **جاي أس**. أتعتقد أنّ الفاعل هو أحد الساديين المهووسين جنسياً؟"

سمعـــت خشخشةً عندما غيّر من وضعية سماعة الهاتف: "يتأثر بعض الساديين المهووســـين جنسياً بالألم الذي تبديه الضحية، لأنهم لا يكتفون بالقتل، بل يريدون تعذيب ضحاياهم. إنهم يشعرون بالإثارة الجنسية نتيجة لهذا الألم".

"ثم ماذا؟"

"يوحي النمط الذي تحدثتِ عنه بالإيجاب. يشيع إدخال أدوات في المهبل، أو في المـــستقيم، بين هؤلاء الرجال. هل كانت ضحاياك على قيد الحياة عند حدوث هذا الأمر؟"

"ضحية واحدة على الأقل كانت حية. يصعب أن أقرر ذلك بالنسبة لضحيتين أخريين بسبب تحلل جثتيهما".

"تبدو لي السادية الجنسية احتمالاً وارداً. يبقى السؤال الفعلي حول ما إذا كان القاتل يشعر بالإثارة الجنسية نتيجة أفعاله".

لم أستطِع الإجابة عن هذا السؤال. "لكننا لم نعثر على أي سائل منوي في أي ضحية".

"يبدو هذا الأمر هاماً، لكن ذلك لا يُلغي احتمال السادية الجنسية. مرّ معي رجل اعتاد الاستمناء في يد ضحيته التي يعمد إلى قطعها بعد ذلك، ثم يطحنها في الخلاّط. لم تُكتشف أي حيوانات منوية في مسارح جرائم مثل هذه".

"كيف ألقيتم القبض عليه؟"

"لم ينجح في تحقيق هدفه في إحدى المرات".

"تعرضت عندنا ثلاث نساء للتشويه. إننا متأكدون من هذه المعلومات".

"لعل ذلك يشكّل نمطاً، لكنه لا يشكّل برهاناً على وجود السادية الجنسية، إلا إذا حدثت قبل موت الضحية. يتميّز القَتَلة التسلسليّون، سواء أكانوا ساديين أم لا، بالخداع الشديد. إنهم يخططون بعناية شديدة لجرائمهم. إنّ التشويه الذي يحدث بعد الوفاة لا يعني بالضرورة وجود دافعٍ جنسيٍّ، أو ساديٍّ. يعمد بعضهم إلى تقطيع الجثة كي يسهل إخفاؤها".

"وماذا بشأن التشويه؟ واليدين؟"

"إنها الحالة ذاتها، والنمط ذاته، ونوع من أنواع الإفراط في القتل، لكنه قد يكون بدافعٍ جنسيٍّ، وقد لا يكون. يكون ذلك أحياناً بدافع جعل الضحية عاجزة. إنني ألاحظ بعض المؤشرات مع ذلك. تقولين إن القتلة لم يكونوا يعرفون ضحاياهنّ، اللواتي تعرضن للضرب بقسوة. عانت ثلاث من الضحايا من إدخال أدوات في أجسادهن، ولعل ذلك قد حدث قبل حصول الوفاة. إنّ هذه المصادفة مهمة جداً".

رحتُ أكتب بشغف.

"تحققي مما إذا كانت تلك الأدوات قد أُحضرت إلى مسرح الجريمة، أم أنها كانت هناك سلفاً. يُحتمل أن يكون ذلك جزءاً من **توقيع** هذا الرجل، مقابل القسوة الانتهازية".

دوّنتُ هذه الملاحظة ووضعتُ إشارةً عليها.

"هل هناك بعض المميزات الأخرى للسادية الجنسية؟"

"هناك نمط تنفيذ الجريمة، استخدام ذريعة لتحقيق اللقاء مع الضحية، والحاجة إلى التحكم بالضحية وإذلالها، بالإضافة إلى القسوة المفرطة، والإثارة الناتجة عن خوف الضحية وألمها، وكذلك الاحتفاظ بتذكارات من الضحية. إن..."

"ما هي آخر ميزةٍ ذكرتها؟" كنت أكتب بسرعة كبيرة بحيث إنّ يدي تشنجت.

"تذكارات".

"أي نوعٍ من التذكارات؟"

"أتحدث عن أشياء من مسرح الجريمة، وبعض الأجزاء من ثياب الضحية، أو مجوهراتها، أو أشياء من هذا القبيل".

"هل تتضمن هذه قصاصات الصحف؟"

"يحب ساديّو الجنس صحافتهم الخاصة".

"وهل يعمدون إلى تدوين السجلات؟"

"إنهم يحتفظون بالخرائط، واليوميات، والروزنامات، والرسومات، إلى ما هنالك. يستخدم بعضهم أشرطة التسجيل. إنهم لا يعتبرون أنّ القتل بحدّ ذاته هو حلمهم. إنّ المطاردة قبل الإمساك بالضحية وما يحدث بعد تنفيذ الجريمة يُمكن أن يكونا جزءاً مهماً من الإثارة".

"إذا كانوا ماهرين في تجنب إلقاء القبض عليهم، فلماذا يحتفظون بتلك الأشياء؟ ألا يشكل ذلك مخاطرة بالنسبة إليهم؟"

"يعتقد معظم المجرمين أنهم يتفوقون على رجال الشرطة، أي أنهم أذكى من أن يُلقى القبض عليهم".

"ماذا بشان أجزاء الجثة المقطعة؟"

"وماذا ***بشأن*** أجزاء الجثة المقطعة؟"

"وهل يحتفظون بها؟"

مرّت فترة صمت. "لا يشيع الأمر كثيراً، لكنه يحدث أحياناً".

"إذاً ما رأيك **بالمترو**، والإعلانات المبوبة؟"

"تكـــون التخـــيلات التي ينفذها هؤلاء الرجال مليئة بالتفاصيل في بعض الأحـــيان، ومحـــددة جـــداً. يحـــتاج بعضهم إلى أمكنة معينة، وتسلسلٍ معيّنٍ للأحـــداث. يـــتطلع بعض الساديين الجنسيين إلى ردود فعلٍ معينة من جانب الضحايا، وهكذا فهم يعمدون إلى تسجيل العملية بكاملها، ثمّ يُجبرون الضحية على قول أمورٍ معينة، والقيام بأفعالٍ محددة، وارتداء ملابس خاصة. تعرفين يا **تمب** إنّ هذه التصرفاتٍ ليست محصورةً بالساديين الجنسيين. إنها تميّز الكثير من الـــذين يعانون من اضطرابات شخصية. لا تحشري نفسك في زاوية الساديين الجنـــسيين. ينبغي عليك أن تبحثي عن التوقيع، وبطاقة الزيارة تلك التي تركها ذلـــك القاتـــل بالتحديد. إنها الطريقة التي تمسكينه بها بغض النظر عن كيفية تـــصنيف علماء النفس له. إنّ استخدام المترو وإعلانات الصحف قد يكون من ضمن خيالات ذلك الرجل".

"وما هو رأيك يا **جاي أس**، انطلاقاً مما أخبرتك إياه؟"

مرّت فترة صمت طويلة سمعتُ بعدها صوت زفير.

"أعـــتقد أنـــك تـــواجهين أمراً قذراً للغاية يا **تمب**: الغضب الشديد والعنف المتطرف. إن كانت هذه هي شخصية **سان جاك** فإنّ استخدامه لبطاقات ضحاياه المـــصرفية يقلقني. إما أن يكون الرجل شديد الغباء، والأمر لا يبدو كذلك بالنسبة لي، وإمـــا أنه أصبح شديد الإهمال لسببٍ ما. يُحتمل أنه تعرّض لضغوط مالية، أو أنـــه أصبح أكثر وقاحة. إنّ الجمجمة التيٍ وُجدت في حديقتك هي مؤشرٍ، وأعتقد أنـــه يبعث برسالة، أو أنها طريقة للتأنيب. يُحتمل أيضاً أنه يرغب في إلقاء القبض علـــيه في مرحلة معينة. لم يعجبني ما قلته لي بشأن استهدافك في القضية، ويبدو لي أنكِ مستهدفة بالفعل بسبب وجود الصورة، والجمجمة. أعتقد، استناداً إلى ما قلتِه لي، أنه يعاقبكِ".

أخبرتُه عن الليلة التي قضيتُها في المونَاستير، والسيارة التي لاحقتني.

"أســـتحلفكِ بالله يا **تمب** ألا تعبثي مع هذا المجرم إذا عاد للتركيز عليكِ. إنه رجل خطرٌ للغاية!"

"**جـــاي أس**. إذا كان المجرم هو الرجل نفسه الذي كان في أرض المونَاستير، فلماذا لم يقتلني في ذلك الوقت؟"

"تذكـــري ما قلته لكِ من قبل. يُحتمل أنه فوجئ بوجودكِ هناك، لذلك لم يكـــن جاهزاً كي يقتلك بالطريقة التي يحبها. لم يكن الرجل في وضع تحكم، ولعله لم يكن يحمل معه أدواته التي تعوّد عليها. أو ربما لأن غيابك عن الوعي حرمه من اللذة التي يشعر بها عندما يرى الخوف في عينَي ضحيته".

"أي أنه لم يكن يستطيع أن يرى شعائر الموت".

"بالضبط".

تحدثـــنا لفترة، وتكلمنا عن أمكنة أخرى، وعن الأصدقاء القدامى، وعن الأوقـــات مـــا قبل احتلال الجريمة جزءاً من حياتنا. أنهينا الاتصال بعد الثامنة بقليل.

اســـترخيتُ في مقعدي، وبسطتُ ذراعيّ وساقيّ، لكنني شعرتُ بالإرهاق. اســـتلقيتُ في مكـــاني لبعض الوقت. شعرتُ أنني دمية تتذكر ماضيها. تمكّن مني الجـــوع أخـــيراً فحملني على النهوض. توجهتُ إلى المطبخ، حيث قمتُ بتسخين صينية من **اللزانيا** وأجبرتُ نفسي على تناولها. أمضيتُ ساعةً من الوقت بعد ذلك في إعادة تجميع الملاحظات التي حصلتُ عليها من **جاي أس**. ظلت كلماته الأخيرة تتردد في ذهني.

"أخذت الفترات الزمنية تتقاصر".

أجل. عرفتُ هذا.

"إنه يرفع سقف الرهانات".

عرفتُ ذلك أيضاً.

"لعله وضعك نصب عينيه".

أويـــتُ إلى فراشي عند العاشرة. جلستُ في الظلمة وحدقتُ في السقف. شـــعرتُ أنني وحيدة، وأحسستُ بالتحسّر على نفسي. لماذا ألقي على نفسي تـــبعة موت الفتيات؟ هل يضعني أحدهم في بؤرة تركيز خيالاته المثيرة؟ لماذا لا يأخـــذ أحـــدٌ كلامـــي على محمل الجد؟ لماذا أتقدم في السن وأكتفي بتناول المأكولات المجمدة أمام برامج تلفزيونية لا أشاهدها بالفعل؟ عندما دسّ بيردي نفـــسه عـــند ركبتي شعرتُ بأن هذا الاحتكاك البسيط قد أطلق الدموع التي حبستُها منذ حديثي مع **جاي أس**. انهمرت دموعي على الوسادة التي اشتريتها

عندما كنتُ مع **بيتي** في **شارلوت**، أو بالأحرى التي اشتريتها بنفسي بينما وقف جانباً بصبر نافد.

لمـــاذاً فـــشل زواجي؟ لماذا أنام وحدي؟ ولماذا تبدو **كاتي** غير راضية؟ ولماذا تهملـــني أفضل صديقاتي مجدداً؟ أين هي يا ترى؟ لا. لن أفكّر في هذا الاحتمال. لا أعرف كم لبثتُ على هذه الحال، وأنا أشعر بالفراغ الذي يملأ حياتي، قبل أن أسمع صوت مفتاح **غابي**.

29

اتـــصلتُ **بـــرايان** في الـــصباح التالي ولخّصتُ له محادثتي مع **جاي أس**. مرّ أسبوع، ولم يحدث خلاله شيء.

استمر الطقس حاراً، وعملتُ نهاراً على إجراء الاختبارات على العظام. تبيّن لي أنّ بقايا العظام التي وُجدت في خزّانٍ وسخٍ في **كانكون** إنما تعود إلى سائحٍ فُقد مـــنذ تـــسعة أعوام. وتبيّن لي أيضاً أن العظامَ التي نبشتها الكلاب تعود إلى فتاةٍ في عمر المراهقة قُتلت بواسطة آلة حادة. واستنتجتُ أنّ الجثة التي وُجدت في صندوقٍ مقطـــوعة الـــيدين، إنمـــا تعود إلى ذكرٍ أبيض، وقدّرتُ عمر العظام ما بين خمسٍ وثلاثين وأربعين عاماً.

تـــرددتُ على مهرجانات **الجاز** في الليالي التالية، واختلطتُ بحشود الناس التي مـــلأت شارعَي **سانت كاثرين وجان مانس**. استمعتُ إلى فنانين من **البيرو** وإلى موســـيقاهم التي تُعتبر مزيجاً من آلات النفخ، وموسيقى الغابات المطرية. تنقلتُ ما بـــين **قـــصر الفنون ومجمّع المدارس**. استمتعتُ بأصوات الساكسوفون، وآلات الغيـــتار، والليـــالي الصيفية. تجولتُ ما بين **ديكسي لاند، وفيوجن، وآر آند بي، وكاليبـــسو**. صـــمّمتُ على عدم البحث عن **غابي**، ورفضتُ أن أشغل تفكيري بالنـــساء الـــضحايا. أصـــغيتُ إلى موســـيقى **السنغال، وكايب فيردي، وريو، ونيويورك**. نجحتُ في نسيان الضحايا الخمس، وإن لفترة محددة.

جاءني اتصال يوم الخميس. كان من **لامانش**. قال لي إنّ اجتماعاً سيُعقد يوم الثلاثاء. وأضاف أنه اجتماعٌ مهم، وطلب مني أن أحضره.

وصلتُ من دون أن أعرف ماذا ينتظرني، ولم أتوقع وجود الأشخاص الذين ألقيتُ التحية عليهم. وجدتُ **رايان، وبرتران، وكلوديل، وشاربونيو، ورجلَي تَحرٍّ من سان لامبرت**، جالسين قرب **لامانش**. أما مدير المختبرات، ويدعى **ستيفان باتينيو**، فجلس في الناحية البعيدة من الطاولة، وإلى يمينه جلس المدعي العام.

نهضوا جميعاً عندما وصلت، وهو الأمر الذي زاد من مستويات القلق الذي أشعر به. صافحتُ **باتينيو** والمدعي العام. واكتفى الآخرون بإيماءاتهم، وبدت وجوههم خالية من أي تعابير. حاولتُ أن أفهم ما توحي به عينا **رايان**، لكنّ عيوننا لم تلتقِ. جلستُ على الكرسي الوحيد الذي كان خالياً. أمسكتُ بالكرسي، فأحسستُ أنّ راحتَي يديّ مليئتان بالعرق، وسيطرت على كياني تلك العقدة المعهودة. هل عُقد الاجتماع من أجل بحث أمور تتعلق بي؟ وهل خصّص الاجتماع، تحديداً، من أجل مناقشة الاتهامات التي وجهها **كلوديل** إليّ؟

لم يضيّع **باتينيو** الوقت. قال لي إنه تم تأليف لجنة مهمتها النظر باحتمال وجود قاتلٍ تسلسليٍّ من كل النواحي، وسيتم بحث كل القضايا التي يُشتبه فيها، كما سيتم التحقق من كل دليل. قال إنه سيتم استدعاء كل الأشخاص الذين عُرف عنهم القيام بإساءات جنسية كي يُحقّق معهم. أضاف إنّ ستة من رجال التحري سوف يعملون بدوامٍ كاملٍ، وسيقوم **رايان** بالتنسيق في ما بينهم. قال أيضاً إنه يتعيّن عليّ متابعة عملي كالمعتاد، لكن يبقى عليّ العمل بصفتي عضواً غير رسمي في الفريق. علمتُ أنّ غرفة قد جهّزت في الطابق السفلي، وستوضع فيها كل الملفات، والمواد المتعلقة بالقضية. سيتم تفحص سبع قضايا، وستعقد اللجنة اجتماعها الأول هذا المساء، كما أنّ المسيو **غافرو**، ومكتب المدعي العام، سيبقيان على اطّلاع بكل تقدم يتم إحرازه.

سارت الأمور هكذا، وبكل بساطة. عدتُ إلى مكتبي وأنا أشعر بالذهول أكثر مما أشعر بالارتياح. لماذا؟ ومن هو الذي دفع الأمور في هذا الاتجاه؟ جادلتُ كثيراً دفاعاً عن نظرية القاتل التسلسلي، ولمدة شهرٍ تقريباً. ماذا حدث حتى اكتسبت هذه النظرية مصداقية؟ هل تحدث المجتمعون عن سبع قضايا؟ ما هي طبيعة القضيتين الأخريين يا ترى؟

لماذا السؤال يا **بربنان**؟ ستجدين الجواب عما قريب.

وهـــذا ما حصل بالفعل. دخلتُ غرفةً كبيرةً تقع في الطابق الثاني عند الساعة الـــواحدة والنصف. شكّلت أربع طاولات جزيرةً في وسط الغرفة. اصطفت ألواح إعـــلامٍ، مع ألواح الطباشير التابعة لها، على جوانب الجدران. تجمّع رجال التحري في آخر الغرفة، وبدا منظرهم وكأنهم مشترون أمام كشكٍ في معرضٍ تجاريٍّ. وقف الرجال أمام لوحة تحمل خرائط **مونتريال** والمترو المعتادة، وبرزت رؤوس الدبابيس الملونة من كل واحدة منها. ظهرت سبع لوحات إضافية، وبرز اسم امرأة وصورتها فـــوق كل لوحة. بدت خمسة أسماء مألوفةً لدي مثل أسماء أفراد عائلتي، أما الاسمان الباقيان فلا أعرفهما.

خـــصّني **كلوديل** بنصف لحظة من لقاء عيوننا، وألقى الآخرون التحية عليّ بكـــل مودة. تبادلنا التعليقات حول الطقس، ثم تقدمتُ نحو الطاولة. تناول **رايان** الأوراق الرسمية من رزمة في وسط الطاولة، ثم بدأ بالحديث مباشرة.

"نعرف جميعاً سبب وجودنا هنا، كما يعرف جميعكم كيفية القيام بمهماتكم. أريد التأكد من بضعة أمور في هذه المرحلة".

نقّل نظره من وجه إلى وجه، ثم أشار إلى رزمةٍ من المغلفات.

"أريد من كل واحد منكم أن يدرس هذه الملفات. تفحصوا كل ملف بعناية، واســـتوعبوا كـــل تفاصـــيل هـــذه الملفات. شرعنا في نقل المعلومات على جهاز الكمبيوتر، لكنها عملية بطيئة. سوف نستخدم الطريقة القديمة في الوقت الحاضر. وإذا وجدتم أي معلومات مهمة عن أي ضحية من الضحايا فاكتبوها على اللوحة العائدة لها".

أومأ الجميع.

"لديـــنا تقريـــر مطبوع ومحدث عن ذلك الاستعراض المنحرف الذي سيقام الـــيوم. قـــسّموا هذا التقرير، وتتبعوا هؤلاء الشبان، وجربوا أن تعرفوا أين كانوا يعربدون".

قال **شاربونيو**: "عادة ما يفعلون ذلك وهم يرتدون سراويلهم القصيرة".

"يجوز أن يكون أحدهم قد تعدى حدوده".

نظر **رايان** إلى كل واحد منا بدوره.

"مـــن المهم جداً أن نعمل كفريق واحد، وليس كأفراد منفصلين، أو أبطال. تحدثـــوا، وتبادلوا المعلومات، وتقاذفوا الأفكار في وجوه بعضكم بعضاً. هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكننا من القبض على ذلك النذل".

قال **كلوديل**: "هذا إذا كان هناك من وجود لذلك النذل".

"سنقوم بتنظيف المنطقة إذا لم يكن له من وجود، وسنلقي القبض على حفنة من الأنذال. لن نخسر شيئاً على أي حال".

زمّ **كلـــوديل** زاويتَي فمه ورسم سلسلة من الخطوط القصيرة والسريعة على لوحته.

تابـــع **رايـــان** حديثه: "من المهم أيضاً أن نهتم بالترتيبات الأمنية. لا أريد أن تحصل أي تسريبات".

قـــال **شـــاربونيو**: "هل سيقوم **باتينيو** بالإعلان عن مجموعتنا المدنية الصغيرة هذه؟"

"كلا. سنعمل بطريقة سرية نوعاً ما".

قـــال **شاربونيو**: "إذا عرف الناس بوجود القاتل التسلسلي فسيصابون بالهلع، وأنا مندهش لأنهم لم يشعروا هكذا من قبل".

"يـــبدو أنّ الـــصحافة لم تلاحظ الرابط ما بين هذه الجرائم، لكن لا تسألوني لمـــاذا. يـــريد **باتينيو** أن يُبقي الأمر هكذا في الوقت الحاضر، لكن الأمور قد تتغير لاحقاً".

قال **برتراند**: "تمتلك الصحافة ذاكرة مماثلة لذاكرة بعوضة".

"كلا. إنني أعني معدل الذكاء".

"لم يتمكن رجال الصحافة من تجاوز ذلك المعدل".

"حسناً. حسناً. دعونا نبدأ إذاً بالمعلومات التي نمتلكها".

لخّـــص **رايـــان** كل قضية من القضايا. أصغيتُ بصمت وأنا أسمع أفكاري، وحتى كلماتي، تملأ المكان وتأخذ مكانها في الأوراق القانونية. حسناً، كانت هناك بعض أفكار **دوبزانسكي** التي قمتُ بنقلها.

ترددت كلمات مثل تشويه، وإدخال أدوات في الأعضاء التناسلية، وإعلانات العقارات في الصحف، ومحطات توقف المترو. تبيّن أنّ أحدهم كان يستمع، وأكثر

مـــن ذلك، أحدهم كان يدقق. تبيّن لنا أيضاً أنّ الملحمة التي عملت فيها **غرايس دامـــاس** ذات مرة كانت قريبة من **سان لوران**، أي أنها تقع بالقرب من شقة **سان جـــاك**، وقريبة جداً من محطة مترو **بيري** – أوكام. قمنا بتعيين مكانها على اللوحة فجاءت متطابقة. جاءت في الترتيب الرابع من أصل خمسة، وهي التي رجّحت كفة الميزان، بالإضافة إلى **جاي أس**.

نجـــح **رايـــان** في إقناع **باتينيو** كي يقدّم طلباً رسمياً إلى **كوانتيكو**، كما وافق **جاي أس** على إعطاء قضايا **مونتريال** أولوية قصوى. تلقى الرجل سيلاً من رسائل الفاكس زوّدته بما يحتاجه، كما حصل **باتينيو** على ملخص سيرة عن الضحايا بعد ثلاثة أيام. أدى كل هذا النشاط إلى تحريك الأمور، لأن **باتينيو** قرر التحرك. بدأنا، هكذا، بعملنا كفريق.

شـــعرتُ بالارتـــياح، لكنني شعرتُ بالإهانة في نفس الوقت. استفاد هؤلاء الـــرجال من المجهود الذي قمت به، وتركوني كي أتابع جهدي هذا. خشيتُ عند انـــضمامي إلى هـــذا الاجـــتماع أن أتلقى لوماً شخصياً، لكنني لم أتوقع أبداً هذا الاعتـــراف الـــضمني بالمجهـــود المضني الذي بذلته. بذلتُ جهدي، مع ذلك، كي يتصف صوتي بالثبات من أجل إخفاء غضبي.

"إذاً، ما هي الأمور التي طلبت منا **كوانتيكو** أن نبحث عنها؟"

تناول **رايان** مغلفاً رفيعاً من رزمة المغلفات، وفتحه ثم بدأ بالقراءة.

"ذكـــر. أبـــيض. ناطق بالفرنسية. يُحتمل أنه لم يتابع دراسته بعد المستوى الثانوي، كما يُحتمل ارتكابه بعض المخالفات الجنسية..."

قال **برتران**: "ماذا تعني بالمخالفات؟"

"إنهـــا ممارســـات غير مشروعة، مثل التلصّص، والمكالمات الهاتفية البذيئة، أو الظهور بمظهر خليع".

قال **كلوديل**: "يا للألفاظ اللطيفة!"

ردّ **برتران**: "إنه شبه رجل".

أبدى **كلوديل وشاربونيو** استهجانهما.

قال **كلوديل**: "اللعنة!"

علّق **شاربونيو**: "إنه رجلي الذي أبحث عنه".

قال **كيترلينغ، سان لامبرت**: "من هو ذلك الرجل المزيّف بحق الجحيم؟"

"إنــه تلــك الدودة الصغيرة، يتسلّل إلى الشقق كي يسرق ثياب نوم إحدى السيدات، ويمزقها بعد ذلك. زاول الرجل هذه الممارسات لمدة خمسة أعوام".

انتقى **رايان** تلك العبارات من التقرير.

"إنــه يخطــط بعناية، ولعله يستخدم الخِدَع كي يقترب من ضحيته. ولربما يقترب من ضحيته من زاوية العقارات، ويُحتمل أنه متزوج..."

قال **روسو، سان لامبرت**: "وما هي دوافعه؟"

"إنــه من النوع المتربص، لأنه لا يستطيع جلب الضحايا إلى المنــزل حيث توجد الزوجة"

علّق **كلوديل**: "أو الوالدة".

عاد **رايان** ليقرأ من التقرير.

"لعله يختار مكاناً منعزلاً ويجهزه مقدماً".

قال **كيترلينغ، سان لامبرت**: "أتعني طابقاً سفلياً؟"

قــال **شاربونيو**: "اللعنة! أقدم **جيلبير** على رش ذلك المكان بمادة **اللومينول**. كان المكان سيشتعل مثل **تومورولاند (أرض الغد)** لو أريقت دماء هناك".

جــاء في التقريــر أيضاً: "يوحي العنف والقسوة المفرطان بوجود غضب شــديد. يُحــتمل وجود اتجاه نحو الانتقام. يُحتمل أيضاً وجود تخيلات سادية تــشتملُ على السيطرة، والإذلال، وإنــزال الألم في الضحية، أو الاختباء وراء غطاء ديني".

قال **روسو**: "وكيف هذا؟"

"يوحــي بــذلك التمثال الصغير، والتخلص من الجثث. وُجدت **تروتييه** في مدرسة خصوصية للبنات، وكذلك الحال مع **داماس**".

لم يتفوه أحد بأي كلمة في اللحظات القليلة التالية، لكن ساعة الحائط بقيت تــصدر طنيــنها الخافــت. سمعنا أصوات كعبين عاليين تقترب من غرفتنا. راح **كلوديل** يخط بقلمه خطوطاً قصيرةً تنم عن التوتر.

قال **كلوديل**: "محتمل... ممكن".

أزعجني إصراره على مقاومة نظرية القاتل الواحد.

قلت بسرعة: "من الممكن، والمحتمل أيضاً، أن تظهر أمامنا جريمة جديدة قريباً".

ظهر القناع القاسي المعتاد على وجه **كلوديل**، لكنه استمر بالتركيز على الورقة أمامه. توترت الخطوط الظاهرة على خدّيه، لكنه لم يقل شيئاً.

علت بعض الأصوات في الغرفة.

سألتُ بهدوء زائد: "هل يمتلك الدكتور **دوبجانسكي** توقعات على المدى الطويل؟"

"إنّ توقعاته تقتصر على المدى القصير". قال **رايان** وقد ظهرت علامات التجهم على محيّاه، وقبل أن يعود إلى قراءة ملخصات سيَر حياة الضحايا: "هناك علامات على فقدان السيطرة، وعلى الوقاحة المفرطة، كما يلاحظ تقاصر الفترات الفاصلة بين جريمة وأخرى". أغلق المغلف، ثم دفعه إلى مركز الطاولة. "سيرتكب القاتل جريمة ثانية".

ساد الصمت مجدداً.

نظر **رايان** إلى ساعته أخيراً، فحذا الجميع حذوه وكأننا مجموعة من الرجال الآليين.

"إذاً، دعونا نبدأ بدراسة هذه الملّفات. تستطيعون زيادة أي معلومات ناقصة إلى هذه الملفات. عمل **غوتييه** مع **شرطة مونتريال** يا **لوك** **وميشال**، وهكذا بوسعكم الحصول على معلومات إضافية من هذه الناحية".

أومأ كلٌّ من شاربونيو وكلوديل.

"تولى **أمن كيبيك** قضية **بيتري**. سأدقق في قضيتها شخصياً. أما القضايا الأخرى فهي أحدث، ولذلك أعتقد أنها غير ناقصة".

بدأتُ بقضيتَي **بيتري وغوتييه**، لأنه سبق لي أن عملتُ بالقضايا الخمس الأخرى. بقيت هذه الملفات مفتوحةً منذ العامين 1988 و1989، على التوالي.

كانت جثة **كونستانس بيتري** شبه عارية ومتحللة عندما اكتُشفت داخل منزلٍ مهجورٍ في **خاناوايك**، التي تُعتبر محمية هندية تقع في الجهة العليا من النهر الذي يمر في **مونتريال**. واكتُشفت جثة **ماري - كلود غوتييه** في مكان يقع خلف محطة **مترو فاندوم**، وهي نقطة تحويل للقطارات المتجهة إلى الضواحي الجنوبية من

المديـــنة. تعرضت كلتا المرأتين للضرب المبرح والوحشي، كما جُرحتا في منطقة العنق. كانـــت **غوتييه** في الثامنة والعشرين من عمرها، أما **بيتري** فكانت في الثانية والثلاثين من العمر. لم تتزوج أي واحدة منهما، كما عاشتا وحيدتين. تم استجواب المشتبه بهم كالعادة، وتم التحقق من الأدلة. وصل التحقيق إلى طريق مسدود في كلتا القضيتين.

أمضيتُ ثلاث ساعات أدقق في الملفات العائدة لهاتين القضيتين، ولاحظتُ أنّ المعلومات الواردة فيهما قليلة جداً مقارنةً بالقضايا الأخرى التي درستُها في الأسابيع الستة الماضية. كانت المرأتان من بنات الهوى. هل كان هذا سبب عدم التوسع في التحقـــيقات؟ هـــل تعرضت المرأتان إلى الاستغلال في حياتيهما، وإلى التجاهل في مـــوتهما؟ هـــل كانـــت هـــذه طريقة مناسبة للتخلص منهما؟ منعتُ نفسي من الاسترسال في التفكير بهذا الشكل.

تفحـــصتُ الـــصور العائلية لكل ضحية. لاحظتُ اختلافاً في الوجوه، لكن هذه الوجـــوه كانت متماثلة بطريقة ما. أحسستُ باللون الأبيض الشاحب، والإسراف في وضـــع مواد الزينة، والنظرة الباردة والشاردة. أعادتني التعابير التي ظهرت في وجهيهما إلى ذكـــريات ليلتي التي قضيتها في **ماين**، أي عندما نظرتُ عن قرب إلى الذين يملأون الـــشوارع. أحسستُ أنّ وجهَي الضحيتين ينطقان باللامبالاة، وباليأس. رأيتُ هذين الإحساسين بطريقة حية ومباشرة، أما هنا فأراهما بطريقة جامدة.

نـــشرتُ أمامي صور مسرح الجريمة، لكنني علمتُ مقدماً تفاصيل القصة التي ســـتنطق بهـــا هذه الصور. شاهدتُ في صور **بيتري**: الباحة، وغرفة النوم، والجثة. وشاهدتُ في صور **غوتييه**: المحطة، والغابة، والجثة. ظهر رأس **بيتري** شبه مقطوع. جُرحت عنق **غوتييه** أيضاً، وبدت عينها اليمنى مثل العجين. أدت وحشية الاعتداء على هاتين الضحيتين إلى أن تشملهما تحقيقاتنا.

قرأتُ تفاصيل عملية التشريح، وفحص السموم، وتقارير الشرطة. جزّأتُ كل عناصـــر المقـــابلات وملخـــصات المحققـــين. استخرجتُ كل تفاصيل تحركات الـــضحيتين، وكل تفاصيل حياتهما وموتهما. نقلتُ كل معلومة مهما كانت دقيقة إلى الجدول الأولي الذي أعددتُه في جهاز حاسوبي. لم أحصل على الكثير منها.

سمعـــتُ تحـــركات الرجال الآخرين يروحون ويجيئون، بالإضافة إلى أصوات تحـــريك الكراسي. سمعتُ أصوات مداعباتهم أيضاً، لكنني لم أركّز كثيراً على هذه

الأمور. أشارت عقارب الساعة إلى ما بعد الخامسة عندما أغلقت الملفات أخيراً. لم يبقَ من الرجال سوى **رايان**. رفعت رأسي فوجدته ينظر إليّ.

"أتريدين رؤية الغجر؟"

"عما تتحدث؟"

"سمعتُ أنك تحبين موسيقى الجاز".

"أجـــل، لكـــن المهرجان انتهى يا **رايان**". من أخبره يا ترى؟ وكيف؟ وهل كانت هذه طريقته في دعوتي إلى حضور مناسبة اجتماعية؟

"انتهـــى المهـــرجان حقـــاً، لكن لم تفرغ جعبة المدينة. سيقوم فريق **الغجر** بالعزف في **المرفأ القديم**. إنه فريق رائع".

"لا أظـــن أنني أستطيع الذهاب يا **رايان**". لكنني فكّرتُ بالذهاب **حقاً**. سبق لي أن فكّـــرتُ بالأمر في الواقع. رفضتُ الذهاب لهذا السبب. لا أستطيع الذهاب الآن، أو ليس قبل أن تنتهي التحقيقات، أو على الأقل ليس قبل أن يتمّ إلقاء القبض على ذلك الحيوان.

نظرت تلك العينان الساحرتان إليّ: "حسناً اقتنعتُ، لكن عليكِ أن تأكلي".

أصابَ في قوله هذا. لم تجتذبني فكرة تناول وجبة من طعامٍ مجمدٍ، ووحدي. كلا. لا أنوي أن أبدو أمام **كلوديل** بمظهر غير لائق.

"أعتقد أنه يُحتمل..."

"نستطيع استعراض بعض أفكارك هذه أثناء تناولنا وجبة من البيتزا".

"إذاً فهو اجتماع عمل".

"بالتأكيد".

سمعتُ بعض الضجيج.

هـــل حقـــاً أريد مناقشة القضايا؟ بالطبع. لكنني شككتُ في بعض تفاصيل القضيتين الإضافيتين. تساءلتُ عن مغزى تشكيل فريق العمل. أعطانا **رايان** الرواية الـــرسمية، لكن ما هي خفايا الأمور؟ هل هناك خيوط يتعيّن عليّ معرفتها؟ أم يجدر بي أن أتجنب بعض هذه الخيوط؟

سمعتُ الضجيج مرة أخرى.

هل يُقدم الآخرون على التفكير مرتين؟ بالطبع لا.

"بالتأكيد يا **رايان**. أين تريدنا أن نذهب؟"

هزّ كتفه: "هل يناسبكِ مطعم **آنجيلا**؟"

يقـــع ذلـــك المطعم بالقرب من شقتي. تذكرتُ المكالمة التي أجريتها الشهر الماضـــي عند الرابعة صباحاً، والصديق الذي أردتُه أن يكون معي. ها أنتِ تصابين بالـــرعب يا **بريتان**. يريد الرجل تناول وجبة **بيتزا**، وهو يعرف أنك تستطيعين أن تركني السيارة في منـــزلك.

"أيناسبكَ أنت؟"

"إنه على طريقي".

طريقه إلى ماذا؟ لم أساله.

"رائع، إذاً سأراكَ هناك بعد..." نظرتُ إلى ساعتي. "ثلاثين دقيقة؟"

وصـــلتُ إلى شـــقتي، وملأتُ طبق **بيردي**، لكنني امتنعتُ عن الوقوف أمام المرآة. لم أمشّط شعري، و لم أضع حمرةً على خدّي، لأنه غداء عمل.

احتسى رايان زجاجة من شراب الشعير البارد، بينما شربتُ أنا زجاجة **كوك للحمـــية** أثناء انتظارنا للوجبة الأساسية، وكانت الساعة تشير إلى السادسة وخمس عشرة دقيقة. لم يضف **رايان** جبن الماعز إلى طبقه.

"أخطأتَ في هذا".

"لا أحبه".

"أعتقد أنكَ متصلب قليلاً".

"إنني أعرف ماذا أريد".

تبادلـــنا بعـــض الأحاديث لفترةٍ من الزمن، ثم غيّرتُ الموضوع: "حدِّثني عن تينّك القضيتين الأخيرتين. لماذا تحققون في قضيتَي **بيتري وغوتييه**؟"

"طلب مني **باتينيو** أن أسترجع كل الجرائم العالقة في **أمن كيبيك**، والتي تتميّز بمواصـــفات معيـــنة. رجعتُ إلى عام 1985. ويتلخص النمط الذي نركّز عليه في الأمـــور التالية: الإناث، الإفراط في القتل، والتشويه. بحث **كلوديل** في كل قضايا **شرطة مونتريال**. طلبنا من مراكز الشرطة المحلية أن تفعل الأمر ذاته. ظهرت أمامنا هاتان القضيّتان حتى الآن".

"هل ركّزتم على المقاطعة فقط؟"

"ليس تماماً".

لبثـــنا صامتَين عندما وصلت النادلة، وعند تقطيعنا للبيتزا ووضعها في طبقينا. طلب **رايان** قطعةً أخرى من **بيل غويل**، في حين امتنعتُ عن طلب واحدةٍ لي. إنها غلطتكِ وحدك يا **برينان**.

"لَا تفكر َأبداً بلمس قطعتي".

"لا أحبها". جرع كوبه. "أتعرفين ماذا يسري داخل الماعز؟"

عرفتُ، لكنني لم أقل.

"ماذا عنيتَ بعبارة **ليس تماماً**؟"

"طلب مني **باتينيو** في البداية أن أفتّش في الجرائم التي حدثت داخل **مونتريال** وحـــولها. مـــا إن وصـــلت المعلومات حول الجرائم من **كوانتيكو** حتى أرسل إلى المدعـــي العـــام وصفاً تجميعياً مكوناً من معلوماتنا، والمعلومات التي لديه. أراد أن يعرف ما إذا كانت لدى **شرطة مونتريال** قضايا مماثلة".

"ثم ماذا حدث؟"

"كانت النتيجة سلبية. يبدو أنّ رجلنا هو من السكان المحليين".

تابعنا تناول الطعام بصمت لفترة من الوقت.

سألني أخيراً: "ماذا كانت حصتكِ من القضايا؟"

أخذتُ وقتي قبل إعطاء جوابي.

"أمضيتُ ثلاث ساعات فقط في دراسة الملفات الجديدة، لكن هذه الملفات لم تكن متوافقة بطريقة ما".

"أتعنين من وجهة نظر بنات الهوى؟"

"أجـــل، لكـــن بالإضـــافة إلى أمرٍ آخر. نعرف أنّ عملية القتل قد اتسمت بالعنف، ولا جدال في ذلك، إلا أنها شديدةٌ..."

كـــنت أحاول استخدام كلمة تختصر الأحاسيس التي شعرت بها طيلة المساء، لكـــنني لم أوفّـــق. وضعتُ قطعة بيتزا في طبقي، وراقبتُ قطع البندورة والأرضي شوكي أثناء تسربها من العجين.

"... التعقيد".

"معقدة؟"

"نعم، معقدة".

"يـــا إلهـــي يا **برينان**، ماذا تريدين؟ هل رأيتِ شقة آل **آدكينـــز**؟ أو شقة **موريسيت – شامبو**؟ بدت الشقتان مثل **الشجرة المجروحة**".

"إنها الركبة".

"ماذا؟"

"الركبة. إنها الركبة المجروحة".

"أتعنين الهنود؟"

أومأتُ.

"أنـــا لا أتحدث عن الدماء. بدا مسرحا الجريمة عند **بيتري وغوتييه**، مثل... مـــاذا؟" بحـــثتُ، مجدداً عن كلمة مناسبة. "فوضى، ومن دون تخطيط. أما بالنسبة للجـــرائم الأخـــرى فإنك تحس أنّ ذلكً الرجل كان يعرف ماذا يقوم به بالضبط. دخـــل إلى شققهنّ، وأحضر سلاحه الخاص، ثم أخذه معه. ولم يُعثر على سلاح في الأماكن الأخرى. هل هذا صحيح؟"

أومأ.

"وجد سكّين مع **غوتييه**".

"لم يُعثر على بصمات مع ذلك. يوحي هذا بوجود تخطيط مسبق".

"حدث ذلك في فصل الشتاء، ولعل القاتل قد وضع قفازين في يديه".

تجرعتُ ما بقي لي من زجاجة **الكوك**.

"بـــدت الجثـــتان وكأنهمـــا تركتا للتو، وبسرعة. كان وجه **غوتييه** موجهاً نحو الأرض، أمـــا **بيتري** فكانت ملقاةً على جانبها، كما أنّ ثيابها كانت ممزقة، أما سروالها فـــتجمع عند كاحليها. ألقِ نظرةً أخرى على صور **موريسيت – شامبو وآدكينـــز**. بـــدت الجثتان وكأنهما وضعتا عمداً على الحالة التي وجدتا فيها. وُضعت الجثتان على ظهـــريهما، مع إبعاد سيقانهنّ، وإسبال أذرعهنّ، أي تماماً مثل لعبتين، أو مثل راقصتي بالـــيه. يا إلهي. بدت **آدكينـــز** وكأنها كانت تدور حول نفسها. لم تكن ملابسهما ممزقة، بل كانت مفتوحة بعناية. بدا منظرهما وكأن القاتل تعمّد عرض ما فعله بهما".

لم يقـــل **رايان** شيئاً. ظهرت النادلة، وقالت إنها تريد أن تتأكد من استمتاعنا بوجبتنا. سألتنا إن كنا نريد أي شيء آخر، ثم سلّمتنا الفاتورة.

"أمـــتلك شـــعوراً آخـــر مع هاتين القضيتين الأخيرتين، فقد أكون مخطئة تماماً".

"يُفترض بنا أن نحسم هذا الأمر".

أمسك **رايان** بالفاتورة، ورفع يده في حركة تعني **لا تجادلي**. "سأدفع أنا هذه المرة، وتدفعين أنتِ في المرة القادمة".

أسكت اعتراضاتي عندما لمس شفتي العليا. راح يمرر سبابته حول زاويتَي فمي ببطء شديد، ثم رفعها أمام عينَيّ.

قال: "الماعز".

كان الأمر أهون عليّ لو غزا النمل المفترس وجهي.

وصـــلتُ إلى شـــقتي لأجدها فارغة. لم أتفاجأ، لكن قلقي على **غابي** ازداد كثيراً. تمنيتُ أن تظهر فجأة، وحتى من أجل أن تأخذ أغراضها.

استلقيتُ على الأريكة، وفتحتُ جهاز التلفزيون كي أشاهد ألعاب **إكسبو**. نجح **مارتينيز** في تسجيل نقطة في لعبة كرة القاعدة. أخذ المذيع يصرخ بجنون، لأن الرجوع إلى الهدّاف كان في غاية الصعوبة.

تابعـــتُ المشاهدة حتى تلاشى صوت المذيع وأصبح خافتاً، عندها حلّ مكانه الـــضجيج الذي ملأ رأسي. ما هو دور **بيتري وغوتييه** بما يجري؟ ماذا تعني كلمة **خاناواكـــي**؟ كانت **بيتري** من **الموهوك**، أما بقية الضحايا فكنّ من البيض. سبق للهـــنود أن تحصنوا في **جسر مرسييه** قبل أربعة أعوام، وجعلوا من حياة المارة على الجسر جحيماً مقيماً. وبقيت العلاقات ما بين المحمية الهندية وجيرانها فاترة أكثر مما هي ودية. هل لهذه الواقعة أهميتها؟

كانت **غوتييه وبيتري من** بنات الهوى. أوقِفَت **بيتري** مرات عديدة، لكن لم يكـــن لدى الضحايا الأخريات سجلات لدى الشرطة. هل يعني هذا شيئاً؟ لو أنّ اختيار الضحايا كان عشوائياً، فما هي هذه الصدفة التي جعلت ضحيّتين من أصل سبع من بنات الهوى؟

هل أثبت مسرحا جريمتي **موريسيت – شامبو وآدكينـــز** وجود تعمّد في التشويه؟ أم أنني أتوهم وجود هذا التعمد في عرض الجريمة؟ أم هل أنّ ذلك كان عَرَضياً؟

هـــل توجد زاوية دينية في الأمر؟ لم أتفحص هذه الناحية في الواقع، لكن إذا كان الأمر على هذا النحو، فما هو مغزى ذلك؟

استـــسلمتُ في نهايـــة الأمر إلى نومٍ مضطرب. رأيتُ نفسي في **ماين**، وشاهدتُ **غـــابي** تؤشـــر نحوي من نافذة غرفة تقع في الطابق العلوي لفندق مهمل. لاحظتُ أنّ غرفتها خافتة الأنوار، لكنني استطعتُ رؤية أشخاص يتحركون فيها. حاولتُ أن أعبر الـــشارع كي أصل إليها، لكن عدداً من النساء تجمعن خارج الفندق، وبدأن برشقي بالحجـــارة، وذلـــك ما إن بدأتُ بالتحرك. بدا الغضب على وجوههنّ. ظهر وجهٌ في الغرفة شبه المعتمة وراء **غابي**. عرفتُ صاحبته. إنها **كونستانس بيتري**. حاولت **بيتري** أن تضع شيئاً ما فوق رأس **غابي**، ولعله فستان أو ثوب نومٍ، أو ما شابه ذلك. قاومت **غابي** واستمرت تشير نحوي لكنها أصبحت يائسةً أكثر.

أصابني حجر في بطني، فسحبني بقوة نحو الحاضر. وجدتُ **بيردي** واقفاً على بطني وقد نشر ذيله في حالة استرخاء، أما عيناه فتسمرتا على وجهي.

"شكراً لك".

أزحتُه من فوقي، ونهضتُ جالسةً.

"ماذا يعني ذلك بحق الجحيم يا **بيرد؟**"

اعـــتدتُ أن لا تكـــون أحلامي بلا معنى محدد لها. وتعوّد لاوعيي أن ينتقي تجاربي التي مررتُ بها حديثاً ويلقيها في وجهي، لكنها عادةً ما كانت تأخذ شكل أحجـــية. ينـــتابني أحياناً شعور **آرثر** الذي يشعر بالإحباط نتيجة إجابات **ميريلين** الغامضة. آه لو تخبرني! فكّر يا **آرثر**. فكّر.

مـــاذا يعني الرشق بالحجارة؟ الأمر واضح: كرة **مارتينيز** الرأسية. ماذا بشأن **غابي**؟ الأمر واضحٌ أيضاً. بدأت وخزة من الخوف بالتشكّل عندي.

بنات الهوى. كانت **بيتري وغوتييه** بنتي هوى، لكنهما ماتتا. تعمل **غابي** مع بـــنات الهـــوى، وقـــد تعرضت للملاحقة. اختفت **غابي**. أيُعقل وجود رابط بين الأمرين؟ هل يُعقل أن تكون في ورطة؟

كـــلا. لقـــد استغلتكِ يا **بريئان**. فعلت ذلك مراراً بكِ، وأنتِ تقعين دائماً ضحية ألاعيبها.

رفض الخوف الذي يعتمل في داخلي أن يتقلّص.

ماذا بشأن الرجل الذي يلاحقها كظلها؟ بدت حينها أنها خائفة حقاً.

غادرت منـــزلي من دون أن تترك حتى رسالةً مختصرةً لي. يبدو أنها اضطرت للمغادرة بسرعة من دون أن تقول لي شيئاً.

ألا يمـــثّل ذلـــك ضغطاً كبيراً، حتى على امرأةٍ قويةٍ مثل **غابي**؟ ازداد الخوف الذي أشعر به في أعماقي.

"حسناً، دعينا نرى يا **دكتور ماكولاي**".

تـــوجهتُ نحو غرفة الضيوف وبحثت فيها. من أين أبدأ يا ترى؟ سبق لي أن جمعتُ أغراضها وكوّمتُها في أرضية الخزانة. لم أشعر برغبةٍ في تفتيشها.

تـــوجهتُ نحـــو كـــومة المهملات هذه. بدت هذه الكومة أقل إزعاجاً. وجدتُ مناديل ورقية، ومغلفات قطع الحلوى، ورقائق معدنية، وورقة مبيعات مـــن متجـــر **ليميته**، ووصلاً من آلة الصرّاف الآلي. وأخيراً ثلاث كراتٍ من الأوراق المجعدة.

فتحتُ الكرة ذات اللون الأصفر. وجدت على ورقةٍ مسطّرةٍ كتابةً بخط **غابي** جاء فيها:

"آسفة. لا أستطيع الاستمرار بهذا. لن أغفر لنفسي إذا..."

انتهت الكتابة عند هذا الحد. هل هذه هي مذكرة موجهة لي؟

فتحتُ كرة الأوراق الصفراء الثانية:

"لن أستسلم لهذه المضايقات. أنتَ تسبب لي الضيق بحيث..."

تـــوقفت مـــرة ثانية، أو أنّ أحداً أجبرها على التوقف. ماذا كانت تحاول أن تقول؟ ولمن توجّه كلماتها؟

كانت الكرة الأخرى بيضاء اللون، وأكبر حجماً. اخترقتني موجة من الخوف عـــندما فتحـــتها، وسرعان ما تلاشت كل المشاعر العدائية التي كانت تعتمل في ذهني. مسدتُ الورقة بيدين مرتعشتين وحدّقتُ فيها.

رأيتُ رسماً بقلم الرصاص. كان الشكل الذي توسط الورقة امرأة بشكل واضح. رُسم ثدياها وأعضاؤها التناسلية بتفصيلٍ دقيقٍ. أما الجذع، والذراعان، والـــساقان فقـــد رُسمت بشكلٍ غير دقيق، وبدا الوجه بيضاوياً، بينما ظهرت الظـــلال بـــشكلٍ غـــير واضح. بدا بطن المرأة مفتوحاً، وبرزت أحشاؤها منه

لتشكل دائرة حول الشكل الأساسي. رأيتُ كتابةً بخط يد شخصٍ غريبٍ جاء فيها:

"مهما كانت تحركاتك، ومهما كانت خطواتك التي تخطوها. لا تقطعني".

30

شعرتُ بقشعريرة من البرد تجتاح جسدي. أوه، حماك الله يا **غابي!** بأي ورطةٍ وقعـــت؟ أين أنت الآن؟ تطلعت إلى الفوضى المحيطة بي. هل هذه هي الفوضى التي اعتادت **غابي** أن تتركها وراءها، أم أنها نتيجة عملية فرار مفاجئة؟

أعدتُ قراءة المذكرات التي لم تجد من يكملها. إلى من كُتبت؟ هل كُتبت لي أنا؟ أم إلى الرجل الذي يلاحقها؟ لن أغفر لنفسي مطلقاً إذا ***ما حدث لها مكروه***؟ من يكون ذلك الرجل الذي يضايقها؟ نظرتُ إلى الرسم، وأحسستُ بالشعور ذاته الـــذي تملكني عندما نظرتُ إلى صور **مارغريت آدكينـــز** السينية. شعرت بنذير السوء. لا، ليس **غابي**.

اهدئي يا **برينان**. فكّري!

أسرعتُ إلى الهاتف. حاولتُ الاتصال بشقة **غابي**، ثم بمكتبها بعد ذلك. ردّت عليّ الآلة المجيبة، والبريد الصوتي. فليبارك الله العصر الإلكتروني!

فكّري.

أين يعيش والداها؟ هل يسكنان في **تروى ريفييه، 411**؟ وجدتُ اسم **ماكولاي، نـــيل** في الدلـــيل. سمعتُ صوت امرأة عجوز. ردّت عليّ بالفرنسية. قالت إنها سعيدة لـــسماع صوتي بعد مرور كل هذه المدّة الطويلة. سألتني عن أحوالي، وقالت لي إنها لم تتحدث مع **غابي** منذ أسابيع عديدة. أضافت أنّ هذا الانقطاع ليس مستغرباً.

هكـــذا هـــم الـــشباب، فهم مشغولون على الدوام. سألتني إن كانت هناك مشكلة ما. أكدتُ لها أنّ كل شيء على ما يرام. ووعدتُها بزيارة قريبة.

والآن ماذا؟ إنني لا أعرف أياً من أصدقاء **غابي** الحاليين.

هل أتصّل **برايان؟**

لا. إنه ليس وليّ أمرِك. وماذا ستقولين له على أي حال؟

اهدئي قليلاً. فكّري. أحضرتُ لنفسي علبة **كوك للحمية**. هل أفرطت في رد فعلـــي؟ عدتُ إلى غرفة الضيوف وتفحصتُ الرسم ثانية. هل أفرط في رد فعلي؟ اللعـــنة، إنني أتصرف دون المستوى المطلوب! بحثتُ عن رقم معيّن، وأسرعتُ إلى الهاتف، ثم طلبتُ الرقم.

"مرحباً".

جهدتُ كي أحافظ على ثبات صوتي: "مرحباً يا **جاي. أس. أنا تمب"**.

"يـــا إلهـــي! تتـــصلين مرتين في غضون أسبوعٍ واحدٍ. اعترفي، لا تستطيعين الابتعاد عني".

"مرّ أكثر من أسبوع واحد".

"إنـــني أعتـــبر المدة التي هي دون الشهر بمثابة دليلٍ على انجذابٍ لا يقاوم. ما عندك؟"

"**جاي. أس**. أنا..."

لاحـــظ الرجل ارتعاشاً في صوتي، فتغيّرت لهجته، وأظهر قلقاً حقيقياً مكان المداعبة.

"هل أنتِ بخير يا **تمب**؟ ما الأمر؟"

"إنهما القضيتان اللتان حدّثتك عنهما في الأسبوع الماضي".

"مـــاذا حدث؟ حضّرتُ على الفور ملخصاً عن حياة الرجل. أتمنى أن يكونوا قد أدركوا مدى نفوذك. هل تلقوا تقريري؟"

"أجـــل. لقـــد أحدثتَ فرقاً في الواقع. قرروا تشكيل فريق عمل. يسير عمل الفريق سيراً جيداً".

لم أعرف كيفية إخفاء قلقي على **غابي**، ولم أرغب في استغلال صداقتنا أكثر من ذلك.

"هل أستطيع أن أطرح عليك بضعة أسئلة أخرى؟ هناك أمرٌ آخر يقلقني، وأنا لا أعرف لماذا..."

"لماذا تترددين في طرح السؤال؟ اطرحيه على الفور".

من أين أبدأ؟ أما كان يجدر بي أن أحضّر لائحة بالأولويات. كانت حالة ذهني تشبه غرفة **غابي**، وتناثرت فيه الأفكار والصور عشوائياً.

"إنه أمرٌ آخر".

"أجل. قلتِ لي ذلك".

"أعتقد أنني مهتمة بمن تسميهم الذين يرتكبون مخالفاتٍ جنسيةٍ غير مشروعة".

"حسناً".

"هل يشتمل ذلك على ملاحقة امرأةٍ ما، أو الاتصال بها، ولكن من دون القيام بأي شيء بشكلٍ فاضحٍ؟"

"هذا أمرٌ محتملٌ".

هل أبدأ بالحديث عن الرسم؟

"أخبرتني في المرة الماضية أنّ الذين يرتكبون هذه المخالفات التي تتسم بالعنف يدوّنون سجلات خاصةً بهم؟ سجلات على شكل أشرطة ورسومات؟"

"هذا صحيحٌ".

"هل يحتفظ الذين يضايقون الآخرين بسجلاتهم هم أيضاً؟"

"يحتفظون بماذا؟"

"هل يرسمون رسوماتٍ معينةً أو أشياء مثل ذلك".

"يُحتمل هذا".

"أيمكن أن يوحي محتوى الرسومات بمستوى العنف الذي يستطيع ذلك الشخص أن يصل إليه".

"ليس بالضرورة. يُعتبر الرسم منفذاً للمشاعر بالنسبة لشخصٍ ما، أو طريقةً للتحرك، لكن من دون الانغماس في العنف. وقد يكون الرسم بالنسبة لشخصٍ آخر دافعاً للانطلاق، أو لإعادة تكوين ما فعله سابقاً".

رائع.

"وجدت رسماً يمثل امرأة شقَّ بطنها، وانتشرت أحشاؤها من حولها. ماذا يوحي هذا الرسم؟"

"لم تمتلك **فينوس دي ميلو** أي أذرع. ولم يحمل رسم **جاي. آي. جو** عضوه. ماذا تعني هذه الأشياء؟ الفن؟ أم وجود رقابة؟ أو هل يدل ذلك على الانحراف الجنسي؟ يصعب تحديد ذلك عن بعد".

مرّت فترة صمت. ماذا يجدر بي أن أخبره؟

سألني: "هل يعود هذا الرسم إلى مجموعة **سان جاك؟**"

"**لا**". سبق لي أن وجدتُ هذا الرسم في سلة مهملات غرفة الضيوف. "قلتَ لي سابقاً إنّ هؤلاء المنحرفين عادةً ما يصعّدون من مستوى عنفهم في العادة، صحيح".

"أجل. إنهم يبدأون عادةً في التلصّص، أو بالمكالمات الهاتفية البذيئة. يبقى بعضهم عند هذا المستوى، بينما يتحرك آخرون نحو مستويات أعلى: يكشف هؤلاء أنفسهم، ويأخذون بمطاردة ضحاياهم، وحتى إنهم يدخلون البيوت بالقوة. يختار الآخرون أن يتقدموا نحو الاغتصاب، وحتى الجريمة".

"هل يعني هذا أنّ بعض ساديي الجنس قد لا يلجأون إلى العنف بالفعل؟"

"ها قد عدنا للحديث عن قضية الساديين الجنسيين. سأعود إلى الإجابة عن سؤالك بنعم. يلجأ بعض الرجال إلى إظهار تخيلاتهم بطرائق أخرى. يستخدم بعضهم الأدوات الغريبة، أو الحيوانات، ومن غير المستغرب أن يجدوا شركاء متواطئين معهم".

"أتقول شركاء متواطئين؟"

"إنهم الشركاء الطائعون الذين يسمحون للآخر القيام بكل ما تستدعيه هذه الخيالات. يحدث ذلك على شكل خضوع، أو إذلال، أو حتى عبر التسبب بالألم. يُحتمل أن يكون ذلك الشريك زوجةً، أو صديقةً، أو إحدى النساء اللواتي يدفعن أموالاً".

"أتعني أنه من الممكن أن تكون الشريكة بنت هوىً؟"

"بالتأكيد. لا تمانع بنات الهوى، أو معظمهنّ على الأقل من القيام بدورٍ ضمن حدود معينة".

"وهل يؤدي هذا إلى إخماد نزعات معينة نحو العنف؟"

"يُحتمل هذا ما دامت تلك الشريكة تستمر في تأدية دورها. ينطبق الأمر ذاته على الزوجة أو الصديقة. أما حين تملّ الشريكة الطائعة، أو الخاضعة، من دورها

هـــذا، فإن الأمور تسوء. تقوم الشريكة، بدور كيس الملاكمة، ثم تنسحب فجأة، وحـــتى أنها قد تهدد بفضح العملية كلها. عندها، يشعر المنحرف بالغضب الشديد، ويقوم بقتلها. يكتشف الرجل أنه استمتع بعملية القتل، وهكذا يمضى لتنفيذ جريمته التالية".

قال الرجل شيئاً ضايقني.

"دعنا نعود بحديثنا قليلاً. ماذا قصدتَ بقولك أشياء غريبة؟"

"قـــصدتُ أشـــياءً مثل الصور، والألعاب، والملابس، أو أي شيء في الواقع. عالجـــتُ شخـــصاً اعتاد أن ينهال ضرباً على صورة مكبرة بحجم الإنسان الطبيعي تعود إلى **فليب ويلسون**".

"أكره طرح سؤال عن التفاصيل".

"قـــد يمتلك الرجل حقداً دفيناً ضد السود، والشاذين، والنساء. يحقق الرجل ثلاثة أهداف في كل مرة يتحرك فيها".

"بالطبع".

اســـتطعتُ أن أسمع أنغام ***شبح الأوبرا*** تتسلّل من مكان ما في الطرف الآخر من الخط.

"إذا أقـــدم شـــخص ما على هذا يا **جاي أس**. أعني إذا رسم صورةً، أو اســـتخدم لعبةً على سبيل المثال، فهل يعني ذلك وجود احتمال أن لا يلجأ إلى القتل أبداً؟"

"يُحـــتمل هـــذا، لكـــن مجدداً أقول لك أن أحداً لا يعلم كيف سيغيّر ذلك الشخص خطّه البياني، ويندفع في كسر ذلك الخط؟ يحدث أن تتمكن صورة عادية من إرضائه، لكن ذلك قد يتغيّر في أي لحظة".

"هل يستطيع ذلك الشخص أن يقوم بالأمرين معاً؟"

"أيّ أمرين؟"

"أعـــني أن يقلّـــب مزاجه فيقوم بقتل بعض الضحايا، بينما يكتفي بملاحقة ومضايقة أخريات؟"

"بالتأكـــيد. يعود أحد الأسباب إلى أنّ سلوك الضحية قد يغيّر المعادلة. يشعر ذلـــك الـــشخص بالإهانة، أو بالرفض من جانب شريكته. يُحتمل أن تقول هذه

الشريكة كلاماً غير مناسب، أو أن تتجه إلى اليسار بدل أن تتجه إلى اليمين، وليس من الضروري أن تعرف الضحية ما يفكّر فيه. يتعيّن أن لا تنسَي أنّ معظم القتلة التسلسليين لا يلتقون ضحاياهم في العادة. تنجح النساء في الإثارة عادة، لذلك فقد يعيّن دوراً معيناً لامرأة ما، ثم يختار دوراً مختلفاً لامرأة أخرى. يستطيع ذلك الشخص أن يحب زوجته، ثم يخرج كي يقتل. ويُحتمل أن يعتبر شخصاً غريباً فريسته، بينما يعامل شخصاً آخر باعتباره صديقاً".

"وهكذا، هل يتمكن أحدهم من العودة إلى طرائقه التي تتسم بميلٍ أقل إلى العنف، حتى ولو بدأ بالقتل في حالات معينة؟"

"يُحتمل ذلك".

"إذاً، أيُحتمل أن يُقدم أحد الأشخاص، الذي يُعتبر غريب الأطوار، على أمورٍ أشد خطورة؟"

"بالتأكيد".

"وهل يُحتمل أن يتصل أحدهم بضحيته، ثم يبدأ بملاحقتها، ثم يرسل إليها رسومات غريبة ليست بريئة بالضرورة، حتى ولو بقي بعيداً عنها؟"

"أنت تتحدثين عن **سان جاك**، أليس كذلك؟"

هل حَقاً كنتُ أتحدث عنه؟

"هل هو من النوع الذي يفعل هذا؟"

"لقد افترضتُ فقط أننا نتحدث عنه، أو عن أي شخصٍ آخر يحتفظ بشقة العرائس تلك".

تيقظي، ودعي التخيلات تتفتح...

"أصبح الأمر... شخصياً يا **جاي. أس**".

"ماذا تعنين؟"

أخبرته كل شيء، وحدّثته عن **غابي**، وخوفها، ومغادرتها المفاجئة، وعن غضبي الذي تحوّل الآن إلى خوف.

"اللعنة يا **برينان!** كيف تقحمين نفسك في هذه الأمور؟ اسمعي، يبدو لي أنّ هذا الرجل نذير شؤم. قد لا يكون **سان جاك** مسؤولاً عن لغز **غابي**، وقد يكون، لكن ذلك يبقى احتمالاً وارداً. يلاحق ذلك المجرم المفترض النساء، **وسان جاك**

يلاحـــق النساء فعلاً. إنه يرسم صوراً تمثّل نساءً منـــزوعة الأحشاء، وقد لا يكون متمتعاً بحياة جنسية طبيعية، لكنه يحمل سكيناً. يمضي **سان جاك**، أو كائناً من كان ذلـــك الـــوحش، في قتلِ النساء، ثم يقطعهنّ، أو يقوم بالتمثيل بهن. ما رأيكِ في ذلك".

حوّلي وجهك بعيداً عن ضوء النهار الساطع...

سألني **جاي. أس**: "متى انتبهت لذلك الرجل لأول مرة؟"

"لا أعرف".

"هل بدأ بملاحقتها قبل انكشاف هذا الأمر كله، أم بعده؟"

"لا أعرف".

"ماذا تعرفين عنه؟"

"لا أعرف الكثير. إنه يلازم بنات الهوى، ويدفع مالاً لقاء الحصول على متعته الجنـــسية، ثم يقوم بتمثيل الدور مع ثياب النوم الخاصة بضحيته. إنه يحمل سكيناً، ولذلك لا تستطيع معظم النسوة أن يفعلن أي شيء إزاءه".

"وهل هذا يسبب ارتياحاً بالنسبة إليكِ؟"

"كلا".

"أريدكِ أن تبلغي هذا إلى الرجال الذين تعملين معهم. دعيهم يتحروا عن هذا الأمـــر. تقولين إنّ **غابي** غريبة الأطوار، لذلك قد لا يكون اختفاؤها مقلقاً، وربما تكـــون قـــد غادرت من دون وجود سببٍ مهم. إنها صديقتك، كما أنك تلقيت تهديداً بدورك. الجمجمة، والرجل الذي لاحقكِ بالسيارة".

"يُحتمل ذلك".

"أقامت **غابي** معكِ، ثم اختفت فجأة. يستدعي ذلك تفحص الأمر".

"صـــحيح. سيقفز **كلوديل** على الفور ويقبض على الرجل الذي تعود سرقة ثياب النوم".

"الرجل الذي تعوّد سرقة ثياب النوم؟ لا بد أنك أمضيتِ وقتاً طويلاً جداً مع رجال الشرطة".

تـــوقفتُ عن الكلام قليلاً. كيف حصلتُ على هذه المعلومة؟ لعلي حصلتُ عليها من شبه الرجل ذاك.

"هـــناك رجـــل غـــريب الأطوار يقوم بدخول البيوت، ويسرق ثياب النوم ويطعنها، ثم يغادر المنـــزل. ثابر الرجل على هذه التصرفات أعوام عديدة. يطلقون عليه لقب شبه الرجل".

"إذا اســـتمر بالقيام بتلك الأفعال لأعوام عديدة فلا يعني ذلك أنه معتوه إلى هذه الدرجة".

"كـــلا. كلا. إننا نطلق عليه هذا اللقب بسبب ما يفعله بثياب النوم، وكأنه يطعن دمية".

هل يدّل هذا على أنّ الرجل مضطرب عصبياً، أم أنه شبه رجل، أو دمية.

تحسسني، المسني...

قـــال **جـــاي. أس** شيئاً، لكن ذهني شرد بسرعة **قياسية**. تخيّلتُ الدمية، وثـــوب الـــنوم، والسكين. تذكرتُ أنّ بنت هوى تدعى **جولي** تعودت العبث بـــثوب النوم، والرسم الذي يمثل مجزرةً، والذي حمل كلمات **لا تقطعني**. وماذا بـــشأن أقـــصوصات مقالات الجرائد التي وجدت في تلك الغرفة الموجودة في **شـــارع بيرغر**؟ وعلى الأخص تلك المقالة التي تتحدث عن دمية بثياب النوم، بيـــنما حملت مقالة أخرى صورتي المقتطعة التي حملت علامة X. تذكرتُ أيضاً تلك الجمجمة المسفّدة، والتي حدّقت بي من خلال شجيرات حديقتي، وكذلك وجه **غابي** الذي ينطق بالرعب عند الساعة الرابعة صباحاً، بالإضافة إلى الفوضى التي ظهرت في غرفة النوم.

ساعدني على عزف موسيقى الليل...

"يتعيّن عليّ إنهاء الاتصال يا **جاي. أس**".

"عديني **يا تمب** أنك ستفعلين ما سأقوله لك. يُحتمل أن يكون الأمر خطيراً، لكن قد يكون ذلك المعتوه هو الذي يدير ذلك الوكر الموجود في **شارع بيرغر**. قد يُقـــدم ذلك الرجل على قتلك. وإذا كان الأمر كذلك فأنتِ في خطرٍ كبير، لأنك تقفين في طريقه، ولذلك يعتبرك تهديداً له. إنه يمتلك صورتك، وقد يكون هو الذي وضع جمجمة **غرايس داماس** في حديقتك. إنه يعرف من تكونين، ويعرف كذلك أماكن تواجدك".

لم أكن أستمع إلى **جاي. أس**. بدأتُ بالتحرك ذهنياً سلفاً.

استغرقني عبور وسط المدينة ثلاثين دقيقة، ثم تابعتُ سيري نحو **شارع ماين** قبل أن أجد البقعة التي أبحث عنها. شاهدتُ أحد مدمني العقاقير غير القانونية جالساً ومستنداً إلى أحد الجدران، وكدتُ أن أدوس على رجليه الممدودتين، بينما انشغل بهزّ رأسه على أنغام موسيقى الغرب والريف الصاخبة، والتي تسلّلت عبر الجدار الحجري. ابتسم الرجل ورفع يده ملوحاً بإصبعٍ واحدٍ، ثم فتح راحة يده ومدّها باتجاهي.

فتشتُ في جيبي وأعطيته دولاراً كندياً واحداً. يُحتمل أن يعتني الرجل بسيارتي مقابل هذا الدولار.

يُعتبر **شارع ماين** تجمعاً غريباً من الأشخاص الذين يحبون التسكع في الليل، لكنني تمكنتُ من أن أشق طريقي من بينهم. شاهدتُ شحّاذين، وبنات هوى، ومدمني عقاقير غير قانونية، وسواحاً. تجمع بعض المحاسبين والباعة في مجموعاتٍ صغيرة، وبدا أنهم يستمتعون ويحتفلون. يبدو أنّ بعضهم اعتبر أنّ ما يجري هو مجردُ لهوٍ صاخبٍ، بينما تصرف بعضهم الآخر وكأن ما يجري ليس سوى واقعٍ يخلو من البهجة. رأيتُ لافتة جاء فيها: **أهلاً بكم في فندق سان لوران.**

جهّزتُ خطتي هذه المرة، أي أنني أتحرك الآن بشكلٍ يختلف عن زيارتي في المرة السابقة. سرتُ باتجاه **سانت كاثرين** على أمل العثور على **جويل تامبو**. لم يكن الأمر بهذه السهولة. لم تكن **جويل** جزءاً من مجموعة المحلات الموجودة خارج **فندق غرانادا.**

عبرتُ الشارع وتأملتُ النساء اللواتي كنّ موجودات هناك. لم تسارع إحداهنّ إلى رشقي بالحجارة. اعتبرتُ ذلك مؤشراً جيداً. ما هي الخطوة التالية الآن؟ كوّنتُ لنفسي فكرة كافية عمّا يتعيّن عليّ الامتناع عن فعله، وذلك منذ زيارتي الماضية إلى هذا المكان. لم يساعدني هذا في معرفة ما يجدر بي القيام بي.

تعوّدتُ أن ألتزم بقاعدة لطالما أفادتني كثيراً في الحياة. تقول القاعدة لا تفعل شيئاً **عندما تكون متشككاً.** إذا لم تكن متأكداً فلا تقتنع، ولا تعلّق، ولا تلتزم بشيء. الزم الهدوء. سبق لي أن ندمتُ كثيراً عندما خرقتُ هذا المبدأ. تذكرتُ ما حدث لي عندما ارتديتُ الفستان الأحمر بياقته المتجعدة. تذكرتُ أيضاً تلك الرسالة الغاضبة التي أرسلتها إلى نائب المستشار. قررتُ أن ألتزم بمبدئي هذه المرة.

وجـــدتُ حجـــراً إسمنتـــياً، لذا نظفته من قطع الزجاج المكسور، وجلست. نظرتُ باتجاه **غرانادا** وانتظرت. انتظرتُ حتى طال انتظاري.

دهـــشتُ لفتـــرة مـــن الـــزمن عندما سمعتُ من حولي شيئاً يشبه موسيقى المسلسلات التلفزيونية الّتي تماثل **ماين ترنـــز**. حان وقت منتصف الليل، ومرّ وقتٌ تعداه. أشارت عقارب ساعتي إلى الواحدة صباحاً. نظرتُ إليها ثانية فإذا بها تشير إلى الثانـــية. تحـــدّثت قصة المسلسل عن الإغراء والاستغلال. تذكرتُ مسلسلات مثل: **لماذا تسيئين إلى أطفالي، والشباب واليائسون**. سلّيت نفسي بألعابٍ ذهنيةٍ، وتصوّرت كل أنواع العناوين الرائعة.

حلّـــت الـــساعة الثالـــثة صباحاً، ففقدتُ الاهتمام بالقصة. شعرتُ بالتعب، وبالإحـــباط، والضجر. عرفتُ سلفاً أنّ عملية المراقبة ليست شيّقة، لكنني لم أكن متحضرة للخدر الذي سببته لي. شربتُ كمية قهوة كافية كي تملأ حوض أسماك، وحـــضّرتُ قـــوائم لا حصر لها في ذهني، وحضّرتُ رسائل عديدة عرفتُ أنني لن أكتـــبها، ولعـــبتُ لعـــبة **إحزر قصة حياة** عدد كبير من الناس الذين يعيشون في **كيبـــيك**. مـــرّ من أمامي جيئةً وذهاباً عدد كبير من بنات الهوى والقوّادين، لكن **جويل تامبو** لم تظهر أبداً.

نهضتُ وانثنيتُ إلى الوراء، وفكّرتُ في تمسيد جسدي الذي كاد يقترب من الخدر الكامل، لكنني قررتُ ألا أفعل. لن أجلس على حجرٍ إسمنتيٍّ في المرة القادمة، ولن أبقى مستيقظة طيلة الليل في انتظار بنت هوى قد تكونُ **ساسكاتون**.

شـــاهدتُ، ما إن تهيأتُ للتوجه نحو سيارتي، سيارة **بونتياك** ستايشن بيضاء اللـــون وهـــي تـــتقدم عند الناحية الثانية من الرصيف. خرجت سيدة ذات شعر برتقالي، وتبعها وجهٌ مألوف لامرأة ترتدي فستاناً ذا ظهرٍ عارٍ.

صـــفقت **جويل تامبو** باب سيارة **البونتياك**، ثم انحنت نحو نافذة السائق كي تقـــول له أمراً ما. بعد قليل، أسرعت السيارة مبتعدةً، وانضمّت **جويل** إلى امرأتين جالـــستين علـــى درج الفندق. بدت النساء مثل ثلاثيٍّ نسائيٍّ من سيّدات البيوت اللـــواتي يـــتجاذبن أطـــراف الحديث على شرفة أمام منـــزل يقع في الضواحي، وســـرعان مـــا تسارعت ضحكاتهن في هواء الصباح. وقفت **جويل** بعد برهة من الزمن، ورفعت تنورتها القصيرة، ثم تحركت مبتعدة.

بـــدأت الحركة تخف في **شارع ماين**، وبدأ الذين يبحثون عن مغامرات ليلية بالمغادرة، وظهر مكانهم عمّال التنظيفات. مشت **جويل** ببطء، وراحت تهزّ ردفيها بحركات متناسقة. عبرتُ الشارع ومشيتُ خلفها مباشرة.

"جويل؟"

التفـــتت، ورأيـــتُها ترســـم ابتسامةً متسائلةً على محياها. لم تتوقع رؤيتي أنا. تحـــركت عيناها لتتفحص وجهي بكامله، وبدت مندهشة، وخائبة. انتظرتُها كي تتذكرني.

"هل أنتِ **مارغريت ميد**؟"

قلتُ مبتسِمةً: "**تمب برينان**".

حـــرّكت يدها بطريقة أفقية، وكأنها ترسم عنواناً لكتاب، ثم تحدثت بلهجة إنكليزية جنوبية وبإيقاعٍ هادئ: "هل تعدّين بحثاً كي تنشريه في كتاب؟ هل عنوانه **امرأة ضائعة**، أو حياتي بين **بنات الهوى**؟"

ضحكتُ: "لعلي سأبيع كتاباً من هذا النوع. هل أستطيع أن أمشي معكِ؟"

هـــزّت كتفـــيها، وأخرجت نَفَساً عميقاً من رئتيها، ثم التفتت لتتابع مشيتها المتهادية البطيئة. تبعتُها.

"أما زلتِ تبحثين عن صديقتكِ يا عزيزتي؟"

"كـــنت آمـــل أن أجدكِ أنتِ في الواقع. لكنني لم أتوقع أن تتأخري إلى هذا الوقت".

"ما تزال الدار مفتوحة يا عزيزتي. أنا مضطرة أن أعمل كي أبقى في المهنة".

"صحيح".

مـــشينا عدة خطوات من دون أن نتبادل كلمةً واحدةً، لكن حذائي الرياضي أصدر أصواتاً تناغمت مع الأصوات المعدنية التي أصدرها حذاؤها.

"تـــوقفتُ عن البحث عن **غابي**. لا أعتقد أنها ترغب أن يجدها أحد. جاءت لـــزيارتي مـــنذ أسبوع، ثم غادرت مجدداً. أعتقد أنها ستظهر على نحوٍ مفاجئ في الوقت الذي يناسبها".

نظـــرتُ إليها كي أتبيّن رد فعلها. هزّت **جويل** كتفيها، لكنها لم تقل شيئاً. تحـــرّك شعرها اللامع مع الظلال أثناء سيرنا. شاهدنا بين الفينة والأخرى لوحات

نـــيون آخر المطاعم التي تقفل أبوابها، تُطفأ واحدة بعد أخرى. تحتفظ هذه المطاعم برائحة شراب الشعير ودخان السجائر ليلة أخرى.

"أود، في الحقيقة أن أتحدث مع **جولي**".

تـــوقفت **جويل** عن السير والتفتت نحوي. بدا وجهها متعباً، وكأن الليل قد أفـــرغه مـــن تعابيره، أو لعل الحياة هي التي فعلت ذلك. تناولت علبة من سجائر **بلايـــرز** مـــن أسفل شكل فتحة الفستان. أشعلت سيجارة، ونفخت دخانها نحو الأعلى.

"يجدر بكِ أن تتوجهي إلى منـــزلكِ يا حلوة".

"لماذا تقولين هذا؟"

"أنتِ ما تزالين مصرة على ملاحقة القتلة، أليس كذلك يا عزيزتي؟"

لم تكَن **جويل تامبو** غبية.

"أعتقد أنه لدينا قاتل هناك يا **جويل**".

"أتعتقدين أنّ راعي البقر ذاك يعبث مع **جولي**؟"

"أنا واثقة من رغبتي بالتحدث إليه".

ســـحبت نَفَساً آخر من سيجارتها، ثم عصرتها بظفرها الطويل المطلي باللون الأحمر، وراحت تراقب شرارالها تطفو فوق الرصيف.

"أخـــبرتكِ في المرة الماضية أنه يمتلك دماغاً صغيراً، وشخصية الضحية، لكنني أشكُ في أنه قتل أحداً".

سألتُها: "أتعرفين مكان تواجده؟"

"كلا. يندر تواجد هؤلاء البلهاء. أعتقد أن ذكاءهم محدود نوعاً ما؟"

"قلتِ إنّ هذا الرجل يُنذر بالسوء".

"لا تستطيعين سماع الكثير من الأخبار السارة هنا، يا عزيزتي".

"هل تواجد هنا في المدة الأخيرة؟"

راحـــت تتفحـــصني بـــتمعن، وحوّلت تركيزها إلى شيء آخر. بدا لي أنها تستعرض صورةً ما في ذهنها، أو أنها تذكّرت فكرةً ما لم أستطِع تحديدها. يبدو أنّ المزيد من الأخبار السيئة تقبع في انتظاري.

"أجل، لقد رأيتُه".

انتظـــرت قلـــيلاً. أخـــذت نَفَساً آخر من سيجارها، وراحت تراقب سيارة تتحرك ببطء في الشارع.

" لم أشاهد **جولي**".

ســـحبت نفساً آخر من سيجارها، وأغمضت عينيها، واحتفظت بالدخان في رئتيها، ثم نفخته إلى الأعلى.

"ولا صديقتك **غابي**".

لماذا لا أستغل الفرصة وأبذل المزيد من الضغط؟

"أتعتقدين أنني سأتمكن من إيجاده؟"

"أقول لك بصراحة يا عزيزتي إنك لا تستطيعين إيجاد شيء من دون خريطة".

أليس رائعاً أن يشعر الإنسان بالاحترام؟

أخذت **جويل** آخر نَفَسٍ لها من سيجارها ورَمَت بعقبها، ثم سحقتها بحذائها.

"هيا يا **مارغريت ميد**. دعينا نتأكد من حصولنا على بعض الأهداف".

31

ســـارت **جـــويل**، لكن بتصميمٍ هذه المرة. أحدث كعبًا حذائها قرقعة على الرصـــيف. لم أكـــن واثقةً من المكانَ الذي تقودني إليه، لكن لا بد أنه أفضل من مقعدي الإسمنتي.

سِـــرنا شرقاً وقطعنا شارعين، ثم غادرنا شارع **سانت كاثرين**، ومررنا وسط باحـــةٍ كـــبيرةٍ. مشت **جويل** بسرعة فبدت مثل تمثال من المشمش يتحرك وسط الظلمـــةٍ، بيـــنما تعثـــرتُ خلفها، وشققتُ طريقي وسط قطع الإسفلت، وعلب الألمنـــيوم، وقطـــع الـــزجاج المتناثرة، والخضار الفاسدة. كيف تستطيع أن تمشي بالكعب العالي؟

وصلنا إلى أقصى الشارع، وانعطفنا في ممر، ثم دخلنا إلى مبنى خشبي لا يحمل أي لافتة تشرح طبيعته. لاحظتُ أنّ النوافذ مطليةٌ باللون الأسود، وأنّ سلاسلِ من مـــصابيح أنوار الزينة توفّر الإضاءة الوحيدة، وهي الأضواء التي أضفت وهجاً أحمر اللـــون يذكّـــر بالألوان الموجودة في أحد المعارض. تساءلت ما إذا كان هذا الأمر مقصوداً. هل قُصد من ذلك إيقاظ سكان المبنى في وقتٍ متأخرٍ من الليل؟

رحـــتُ أتلفّـــت من حولي. احتاجت عيناي إلىً شيءٍ مِن التأقلم، لأن كمية الضوء الموجودة في الداخل تختلف بعض الشيء عن الخارج. التزم مهندس الديكور بموضـــوع ذكرى الخامس والعشرين من كانون الأول فاختار وضع ألواح كرتون بلون الصنوبر على الجدران، واختار وضع الفينيل على المقاعد، ثم زيّنها بإعلانات شـــراب الـــشعير. رأيتُ حجرات خشبية داكنة الألوان مصفوفة على طول أحد

الجدران، بينما اصطفت على طول الجدار الآخر صناديق شراب الشعير. ملأ دخان السجائر أنحاء الملهى، مع أنه كان شبه فارغ، وكذلك كان الهواء مثقلاً برائحة المشروبات الرخيصة، والقيء، والعرق، ورائحة دخان السجائر غير القانونية. فضّلتُ مقعدي الإسمنتي على تواجدي في هذا المكان.

تبادلت **جويل** والنادل إيماءات التحية. لاحظتُ أنّ جلده كان بلون القهوة التي مضى يوم واحد على تحضيرها، وأنّ حاجبيه كثيفان. راقب الرجل تحركاتنا من تحتهما.

سارت **جويل** على مهلٍ عبر الملهى، وتفحصت كل وجهٍ من وجوه الموجودين بعدم اكتراث ظاهر. ناداها أحد الرجال الجالسين على مقعدٍ في زاوية الملهى. لوّح الرجل بكوبٍ شراب الشعير الذي يحمله في يده، وأشارً إليها كي تنضم إليه. طيّرت **جويل** قبلة باتجاهه في الهواء، ثم لوّح لها ثانية.

ما إن مررنا أمام أول مقعد حتى امتدت يدٌ وأمسكت بمعصم **جويل**. استخدمت الفتاة يدها الأخرى كي تفكّ أصابع الرجل عن معصمها، وأعادت اليد إلى مكانها.

"المكان مقفل يا عزيزتي".

أدخلتُ يديّ في جيبيّ، لكنني أبقيتُ نظري مركزاً على ظهر **جويل**.

توقفت **جويل** عند ثالث مقعد، ووضعت ذراعيها على شكل متصالب، وهزّت رأسها ببطء.

قالت: "يا إلهي!" قرقعت لسانها على أسنانها العليا.

جلست الفتاة الوحيدة التي تشغل المقعد محدّقة بكوبٍ يحتوي سائلاً بني اللون، وأسندت مرفقيها إلى الطاولة، ثم أسندت خدّيها إلى قبضتَي يديها. لم أستطِع أن أرى سوى المنطقة العليا من رأسها. تدلى شعرها البني اللامع بصورةٍ غير متساوية على طول مفرقها الذي انتشرت عليه بقعٌ بيضاء، واسترسل متراخياً على كل جهةٍ من جهتَي وجهها.

قالت **جويل**: "**جولي**".

لم ترفع **جولي** وجهها.

طقطقت **جويل** بلسانها ثانية، ثم دخلت إلى الحجرة. تبعتُها وشعرتُ بالارتياح لذلك الغطاء، حتى ولو كان وضيعاً. لاحظتُ أنّ سطح الطاولة يلتمع نتيجة شيء

لم أرغب بتحديده. أسندت **جويل** مرفقها على زاوية الطاولة، وتراجعت، ثم راحت تمسح يدها. تناولت سيجارةً وأشعلتها. ثم أخرجت الدخان إلى الأعلى بشكل نافورة.

قالت بحدة أكبر: "**جولي**".

أمسكت **جولي** أنفاسها ورفعت ذقنها.

"**جولي**؟" كرّرت الفتاة لفظ اسمها. بدت وكأنها نهضت من نومها للتو.

أحسستُ بهبوطٍ في قلبي، بينما أطبقت أسناني على شفتي السفلى.

أوه، يا إلهي!

وجدتُ نفسي وأنا انظر إلى وجه لم يأخذ نصيبه من الحياة لأكثر من خمسة عشر عاماً. يمكننا وصف لون هذا الوجه بتنوعات مختلفة من اللون الرمادي. لاحظتُ الوجه الشاحب، والشفتين المفتوحتين، والعينين اللتين أبرزهما ألوان معتمة فبدتا مثل عيني شخصٍ حُرِم من ضوء الشمس لمدة طويلة.

حدّقت **جولي** بنا بشرود، وكأن صورتينا تتكوّنان ببطء في دماغها، أو أنّ عملية الإدراك هي عملية معقدة. وماذا بعد؟

قالت بالإنكليزية: "هل أستطيع أخذ واحدة يا **جويل**؟" مدّت يداً مرتعشة عبر الطاولة. بدت منطقة مرفقها من الداخل بلون أرجواني نتيجة انعكاس الوهج الخافت المنتشر في الغرفة. امتدّت شرايين شاحبة ورفيعة في معصمها.

أشعلت **جويل** سيجارة **بلاير** وناولتها إياها. سحبت جولي دخان سيجارتها إلى عمق رئتيها، واحتفظت به قليلاً، ثم نفخته باتجاه **جويل**.

قالت: "أجل. أوه أجل". علقت شذرةٌ صغيرةٌ من ورق السجائر في شفتها السفلى.

أغمضت عينيها. وسحبت الدخان مجدداً، ثم انغمست كلياً في طقوس التدخين. انتظرنا، وبدت **جولي** عاجزة تماماً عن القيام بعمل مزدوج.

نظرت **جويل** إليّ، لكني لم أستطع فهم ما تقوله عيناها.

"هل كنت تعملين يا حبيبتي **جولي**؟"

"قليلاً". سحبت نفَساً آخر من سيجارتها ونفثت سحابتين من الدخان من أنفها. راقبنا السحابتين الرماديتين أثناء تلاشيهما في الأضواء الحمراء.

بقيتُ أنا و**جويل** صامتتين أثناء انشغال **جولي** بتدخين سيجارتها. شككتُ أنها تتساءل عن أي شيء.

انتهت من التدخين بعد برهة من الزمن، وقذفت بعقبها بعيداً، ثم نظرت إلينا. أظن أنها بدأت تفكّر في مغزى وجودنا في هذا المكان.

قالــت: "لم أتناول الطعام هذا اليوم". لاحظتُ أنّ صوتها كان شارداً وفارغاً مثل عينيها تماماً.

نظــرتُ إلى **جويل**. هزّت كتفيها ومدت يدها كي تتناول سيجارةً أخرى. نظرتُ من حولي. لم أشاهد أي لوائح طعام ولا لوحات إعلانية في المكان.

"يقدمون شرائح اللحم هنا".

"أتحــبين تــناول واحــدةٍ منها". قلتُ ذلك من دون أن أحسب النقود التي بحوزتي.

"يقوم **بانكو** بتحضيرها".

"حسناً".

نهضت من مقعدها ثم نادت النادل.

"هــل أســتطيع الحصول على شريحة لحمٍ يا **بانكو**؟ مع الجبن، من فضلك". بدت مثل فتاة في السادسة من عمرها.

"ألديك كبسولة يا **جولي**".

قلتُ: "سأُحضر لك واحدة". مددتُ رأسي خارج الحجرة.

شاهدت **بانكو** مستنداً إلى حوض غسيل الأطباق في الملهى وواضعاً ذراعيه في شكل متصالب فوق صدره. بدت ذراعاه مثل أغصان شجرة **البابايا**.

سألني بطريقة استفزازية: "أتريدين واحدة فقط؟"

نظرتُ إلى **جويل**، فهزّت رأسها.

"أريد واحدة".

رجعتُ نحو الحجرة. شاهدتُ **جولي** بعد أن حشرت نفسها في الزاوية. أمسكت كوبها بيديها الاثنتين. رأيتُ فكّها مرتخياً، فبدا فمها مفتوحاً جزئياً، لكن شذرة الورق بقــيَت عالقــةً بشفتها السفلى. أردت إزالة هذه الشذرة، لكنها بدت فاقدة الوعي. سمعتُ أزيز جهاز المايكرويف، ثم ارتفع الصوت قليلاً. وانشغلت **جويل** بالتدخين.

أطلق جهاز المايكرويف أزيزاً أربع مرات، ثم ظهر **بانكو** حاملاً شريحة اللحم وهـــي تطلق بخارها من خلال غلافها البلاستيكي. وضعها أمام **جولي** وراح ينقّل بـــصره مـــا بـــين **جويل** وبيني. طلبتُ زجاجة **صودا كلوب**، لكن **جويل** هزت رأسها.

مـــزّقت **جولي** الغلاف البلاستيكي، ثم رفعت الشطيرة كي تتفحص محتوياتها. تناولت قضمةً منها بعد أن شعرت بالرضا عنها. أحضر **بانكو** الشراب الذي طلبتُه فاختلـــستُ نظـــرةً إلى ساعتي. أشارت عقاربها إلى الثالثة والعشرين دقيقة. بدأتُ بالاعتقاد أن **جويل** لن تقوى على الكلام ثانيةً.

"أين كنتِ تعملين يا حبيبتي؟"

قالت وسطَ تطاير اللحم والخبز من فمها: "أنا لا أعمل في مكانٍ محدد".

" لم أشاهدكِ منذ مدة".

"كنتُ مريضَة".

"هل تشعرين بتحسّن الآن؟"

"همم".

"هل تعملين في **ماين؟**"

"أحياناً".

قالت **جويل** بشيء من اللامبالاة: "هل ما تزالين تعبثين بثياب النوم؟"

"من تقصدين؟" مرّرت لسانها حول طرف شطيرتها، مثلما يفعل ولدٌ بمخروط من البوظة.

"أتكلم عن ذلك الشخص الذي يتسلح بالسكّين".

قالت بشرود: "سكّين؟"

"أتعرفين يا حبيبتي، يقوم ذلك الرجل الحقير بغرز سكّينه عندما تعرضين ثياب نوم إحدى النساء؟"

تـــباطأ مـــضغها في البداية، وما لبث أن توقف، لكنها لم تجِبني. بدا وجهها جامداً ومصقولاً مثل علبة معجون، وشاحباً، ومن دون إظهار أي تعابير.

سمعـــتُ صوت أظافر جويل عند احتكاكها بسطح الطاولة. قلتُ لها: "هيا يا حبيبتي، دعينا نسمي الأمور بأسمائها. أنتِ تعرفين عما أتكلم؟"

بلعت جولي ريقها، ورفعت رأسها، ثم أعادت انتباهها إلى شطيرتها.

"ماذا بشأنه؟" تناولت قضمة أخرى.

"إنني أتساءل فقط إذا ما كان يتردد إلى هذا المكان".

قالت بشيء من الاضطراب: "ومن تكون؟"

"إنها **تمب برينان**، صديقة **الدكتورة ماكولاي**. أنتِ تعرفينها يا حبيبتي، أليس كذلك؟"

"هـــل حدث شيء ما لهذا الرجل يا **جويل**؟ هل أصابه مرض الآيدز، أو ما يشبه ذلك؟"

بدا الأمر وكأن أحداً يستنطق **كرة الثمانية** السحرية. يستنتج المرء إذا طفت الأجوبة أنها عشوائية، وليست مرتبطة بأسئلة محددة.

"لا يا حبيبتي. إنني أتساءل فقط ما إذا كان ما زال يتردد إلى هنا".

التقت عيناي بعينَي **جولي**. بدت نظرات عينيها شاردة.

التمع ذقنها بالزيوت. سألتني: "أتعملين معها؟"

أجابـــت جويل بالنيابة عني: "شيء من هذا القبيل. إنها ترغب بالتحدث مع هذا الرجل الذي يحب العبث بثياب النوم".

"وبشأن ماذا؟"

قالت **جويل**: "تريد التحدث عن المواضيع المعتادة".

"هـــل هـــي صمّاء، أو خرساء أو ما شابه ذلك؟ لماذا لا تتحدث بالنيابة عن نفسها؟"

بدأتُ بالتحدث، لكن **جويل** أشارت لي بالصمت.

لم تظهـــر **جـــولي** وكأنهـــا تتوقع الحصول على إجابة. أنهت آخر قطعةٍ من شطيرتها، وما لبثت أن بدأت بلعق أصابعها الواحد بعد الآخر.

"وماذا بشأن ذلك الرجل؟ يا إلهي، لقد كان يتحدث عنها هو الآخر!"

اخترقتني موجة من الخوف.

اندفعتُ بالسؤال: "عمن كان يتحدث؟"

بـــدأت **جولي** بتفحّصي ملياً بفكّها المرتخي، وفمها نصف المفتوح، أي مثلما كان من قبل. بدت غير قادرةٍ - أو غير مستعدةٍ — على إبقاء فمها مغلقاً عندما لا

تكـــون منـــشغلة في تناول الطعام أو التحدث مع الآخرين. تمكنتُ من رؤية بقايا الطعام في أسنانها السفلى.

سألتني: "لماذا تريدين التحقيق مع هذا الرجل؟"

"أحقّق معه؟"

"إنه مصدر سعادتي الوحيد".

علّقت **جويل**: "لا تعتزم الدكتورة التحقيق مع أي شخص، إنها تريد التحدّث معه فقط".

ارتشفت **جويل** شرابها، فوجهّتُ إليها السؤال ثانيةً.

"ماذا تعنين بقولك **لقد كان يتحدث عنها هو الآخر**، يا **جولي**؟" بانت نظرةٌ تنمّ عن الحيرة على وجهها. بدت وكأنها نسيت الكلمات التي تلفّظت بها.

بدا التعب واضحاً في صوت **جويل**: "من هو ذلك الزبون الذي تتحدثين عنه يا **جولي**؟"

"أتعرفين، كانت تلك السيدة التي تتردد إلى هنا. إنها تبدو مثل الرجال، كما أنها تضع حلقةً في أنفها، ويبدو شعرها غريب الشكل؟" رفعت خصلةً من شعرها، ووضـــعتها خلـــف أذنها. "إنها لطيفة مع ذلك. اشترت لي الكعك مرات عديدة. أليست تلك هي السيدة التي تتحدث عنها؟"

تجاهلتُ نظرة **جويل** الغاضبة نحوي.

"وماذا كان يقول ذلك الرجل عنها؟"

"أعـــتقد أنه زجرها، أو فعل شيئاً من هذا القبيل. لا أعرف. أنا لا أصغي إلى هذه الأمور، وأتجاهلها كلها، وأُقفل على أذنيّ وفمي. هكذا أفضل".

"لكن هذا الرجل هو زبون دائم".

"إنه شبه زبون".

لم أســـتطِع منع نفسي من طرح السؤال: "هل يأتي في أوقات محددة؟" نظرت **جويل** إليّ، وأومأت، كأنها تريد أن تقول لي "حسناً، افعلي ما يحلو لكِ".

"مـــا هذا يا **جويل**؟ لماذا تطرح عليّ كل هذه الأسئلة؟" بدت مثل طفلةٍ مجدداً.

"تريد **تمب** أن تتحدث إليه. هذا كل شيء".

"لا أرغب أن يصاب الرجل بأذى. إنه بغيضٌ بعض الشيء، لكنه يدفع بانتظام، وأنا في حاجة ماسة إليه".

"أعرف ذلك يا حبيبتيً".

ارتشفت **جولي** آخر كميةٍ من مشروبها، ثم وضعت كوبها على الطاولة، لكنها تجنبت النظر إليّ مباشرة.

"لن أمتنع عن الالتقاء به، ولا يهمني ما يقوله الآخرون عنه. أجل، إنه غريب بعض الشيء، وماذا في ذلك؟ لن يُقدم الرجل على قتلي إن لم أعطِه أي شيء. اللعنة! لستُ مضطرةً إلى مطارحته الحب. ما عساي أفعل في أيام الخميس؟ هل أنتسبُ إلى صف تعليمي؟ أو هل أذهب إلى الأوبرا؟ هذا إذا لم أتصرّف مثلما تفعل أي بنت هوى أخرى".

كانت تلك هي المرة الأولى التي تُظهر فيها انفعالها، كما أظهرت الحماسة التي يُظهرها المراهقون. بدا تصرفها هذا مناقضاً تماماً لحالة عدم الاكتراث التي أبدتها سابقاً. تألمتُ لأجلها، لكنني خشيتُ على مصير **غابي**، و لم أستطِع التخفيف من هذا الشعور.

حاولتُ أن يأتي صوتي أكثر نعومةً: "هل رأيتِ **غابي** مؤخراً؟"

"ماذا؟"

"**الدكتورة ماكولاي**. هل رأيتِها مؤخراً؟"

تعمّقت الخطوط الموجودة بين عينيها، فتذكرت **مارغوت**، مع أن ذلك الراعي يمتلك ذاكرة أقوى بالنسبة للماضي القريب.

قالت **جويل** بتركيز زاد خطوط العمر الظاهرة على وجهها عمقاً: "تلك المرأة المسنّة التي تضع حلقةً في أنفها".

"أوه". أقفلت **جولي** فمها، ثم فتحته ثانية. "لا. كنت مريضة مؤخراً".

ابقَي هادئة يا **بريئان**. هل تستطيعين تحمّل المزيد؟

سألتُها: "هل تشعرين براحةٍ أكثر الآن؟"

هزّت كتفيها.

"هل ستكونين بخير؟"

أومأت.

"هل تحتاجين أي شيء آخر؟"

هزّت رأسها بالنفي.

لم أرغـــب بمضايقتها أكثر من ذلك، لكنني أردتُ معرفة المزيد: "هل تسكنين بالقرب من هنا؟"

قالت من دون أن تنظر إليّ: "أسكن في **مارسيلا**. أتعرفين المكان يا **جويل**، إنه في **سان دومينيك**؟ ينتهي معظمنا هناك".

أجل. حصلتُ على ما أريده، أو أنني كنت على وشك الحصول عليه.

عانـــت **جولي** كثيراً من شريحة اللحم التي أكلتها، ومن الشراب الذي شربته، ومـــن كـــل شيء آخر قد تكون أفرغته في جوفها. تلاشى كل أثرٍ للشجاعة التي أظهرتها سابقاً، وعادت حالة اللامبالاة لتسيطر عليها. فانـــزوت في زاوية الحجرة، وحـــدّقت بعينيها اللتين أخذتا شكل دائرتين داكنتين ومرسومتين على وجه تمثال شاحب. أغلقتهما، وأخذت نَفَساً عميقاً، ثم حشرت صدرها الذي تبرز العظام منه في سترتها القطنية.

تلاشـــى وهـــج أضواء الزينة فجأة. وملأ الملهى وهج أضواء الفلوريسنت، وانـــصرف **بانكو** بالاستعداد لإقفال المكان. توجّه الزبائن القلائل الذين كانوا لا يـــزالون في الملهى نحو الباب وهم يعربون عن تذمّرهم. دسّت **جويل** علبة سجائر **البلايـــر** في سترتها، وأشارت إلى أنها ستتبعهم. نظرتُ إلى ساعتي. أشارت عقاربها إلى الـــرابعة فجراً. نظرت إلى **جولي**، وسرعان ما اجتاح كياني، بقوةٍ كبيرة، ذلك الشعور بالذنب الذي كنت أحاول كبته طيلة الليل.

بـــدت **جولي** وسط الأضواء أقرب ما تكون إلى جثة، أو مثل شخصٍ يقترب بـــبطء من الموت. رغبتُ أن أتقدم منها وأضمّها بذراعيّ، وأن أحتضنها للحظة. رغـــبتُ حـــتى أن أصطحبها معي إلى منـــزلها في **بايكونـــزفيلد**، أو **دورفال**، أو شمالي **هاتلي**، أي حيث تعودت أن تتناول طعامها، أو أن تحضر الحفلات، وتشتري ســـراويلها المصنوعة من الجينـــز، مستعينةً بدليل **لاندس إند**. أدركتُ أن ذلك لن يحدث، وأكثر من ذلك، أيقنتُ أنّ اسمها سيأخذ طريقه إلى قوائم الإحصاء، أو إلى أقبية **البارثينياس** عاجلاً أم آجلاً.

دفعـــتُ الفاتورة، ثم غادرنا ذلك الملهى. امتلأ هواء الصباح البارد بالرطوبة حاملاً معه روائح النهر، ومصنع الشراب.

قالت **جويل**: "عمتما مساءً أيتها السيدتان. لا تبدآ بالرقص الآن".

حـــرّكت أصـــابعها، والتفـــتت، ثم سارت في الطريق محدثة أصواتاً بكعبَي حذائها. غادرت **جولي** في الاتجاه المعاكس من دون أن تنطق بكلمة. جذبتني فكرة التوجه إلى المنـــزل مثلما يفعل المغناطيس، لكن بقيَ عليّ الحصول على معلوماتٍ أخرى.

تـــوقفتُ قليلاً ونظرتُ إلى **جولي**. رأيتُها تنطلق مسرعةً في الممر. افترضتُ أنه يـــسهل عليّ اللحاق بها. كنتُ مخطئة، لأنها كانت قد اختفت في أحد المنعطفات عندما تطلعتُ إلى نهاية الممر، فوجدتُ نفسي مضطرةً إلى الركض كي ألحق بها.

اتّبعتُ مساراً متعرجاً، وعبرتُ مسافات كبيرة، ثم سلكتُ طرقات كثيرة كي أصـــل إلى منـــزل متواضع يتألف من ثلاثة طوابق يقع في **سان دومينيك**. تسلّقت الـــدرج، وبحثت عن مفتاح شقتها، ثم اختفت من خلال باب أخضر اللون تقشّر طـــلاؤه. شـــاهدتُ ســـتارة الباب البالية، وهي تتحرّك قبل أن تستقر غير متأثرة بالإغلاق العنيف للباب. أخذتُ رقم الشقة.

حـــسناً يا **برينان**. حان وقت النوم. وصلتُ إلى منـــزلي في غضون عشرين دقيقة.

تدثـــرتُ بأغطية السرير، بينما فضّل **بيردي** أن يستقر على ركبتي. فكّرتُ في وضـــع خطـــة في هذا الوقت. كان من السهل عليّ أن أفكّر بالأمور التي يجب أن أمتنع عن فعلها. يجدر بي ألا أتصّل **برايان**، وأن لا أُخيف **جولي**، وأن لا أنبّه ذلك الـــنذل الـــذي يتـــسلح بسكّين، ويتلاعب بثياب نوم السيدات. لكن يجدر بي أن أكتـــشف ما إذا كان ذلك الشخص هو **سان جاك** ذاته، وأن أعرف مكان سكنه، أو علـــى الأقـــل أيـــن يتخذ مخبأه. يتعيّن عليّ أيضاً العثور على شيء مؤكد، ثم الاتصال بالشرطة. ها أنتم هنا يا رجال، تعالوا، وداهِموا هذا المكان.

بدا الأمر، في البداية، في غاية البساطة.

32

مرّ يوم الأربعاء، وقد سيطر عليّ الشعور بالإنهاك الشديد. لم أخطّط للذهاب إلى المختـــبرات، لكن **لامانش** اتصل بي قائلاً إنه يريد إعداد تقرير. قررتُ البقاء في المختبرات بعد وصولي إليها. بدأتُ بالبحث في الصناديق القديمة، وهي عملية بطيئة ومـــزعجة، ووضـــعتُ جانباً كل الصناديق الذي يريد **دينيز** التخلص منها. أكره القـــيام بهذه المهمة التي أجّلتها منذ أشهر. بقيتُ هناك حتى الساعة الرابعة من بعد الظهر. وبعد وصولي إلى المنـــزل، تناولتُ عشاءً مبكراً، وأخذتُ حماماً طويلاً، ثم أويتُ إلى فراشي عند الثامنة مساءً.

تسلّلت أشعة الشمس عندما استيقظتُ من نومي صباح الخميس. أدركتُ أنّ الـــوقت قـــد تأخر. تمطيتُ، وتقلّبتُ في فراشي، ثم نظرت إلى الساعة التي أشـــارت عقارها إلى العاشرة وخمس وعشرين دقيقة. تمكنّتُ بهذا من تعويض بعـــض ساعات النوم التي فاتتني. قضى الجزء الأول من الخطة التي رسمتها بعدم الذهاب إلى العمل.

نهـــضتُ من السرير ببطء، وراجعتُ في ذهني قائمة بالأعمال التي أنوي القيام بهـــا. شـــعرتُ، ما إن فتحتُ عينيّ بأنني ممتلئة بالطاقة والحماسة مثل عدّاء يستعد للاشتراك في سباق الماراثون. أردتُ أن أسجّل رقماً قياسياً. اهدئي يا **بريننان**. يتعيّن عليكِ أن تشتركي بذكاء في هذا السباق.

تـــوجهتُ إلى المطبخ وحضّرتُ قهوتي، ثم قرأتُ ***الغازيت***. جاء في عدد ذلك الـــنهار أنّ ألـــوف البشر قد فرّوا من مناطق القتال في **رواندا**. جاء في ذلك العدد

أيضاً أنّ **الحزب الوطني الكيبيكي** يتقدم بعشر نقاط على **حزب الأحرار** بزعامة رئيس الوزراء **جونسون**، كما أنّ **فريق الإكسبو** قد خرج من المركز الأول من بطولة **الاتحاد الوطني**. وجاء في الأخبار أيضاً أنّ العمال سوف يعملون في ذكرى البناء السنوي. إنّ الأمر في غاية الجدية هنا، وأنا لم أستطِع أبداً أن أفهم مغزاه. نتمتع في هذه البلاد بأربعة أشهرٍ، أو خمسة، من الطقس الجميل تسمح لنا بالقيام بأعمال تشييد الأبنية، لكن البناء يتوقف لمدة أسبوعين في شهر تموز، وينصرف العمال لأخذ عطلة. يا للفكرة الرائعة!

تناولتُ كوب قهوتي الثاني، وانتهيتُ من قراءة الصحيفة. يبدو الأمر رائعاً حتى الآن. أستطيع الآن الانتقال إلى المرحلة الثانية، أي إلى نشاطات التسلية.

ارتديتُ سروالاً قصيراً وكنزةً، ثم توجهت إلى النادي الرياضي. أمضيتُ ثلاثين دقيقة فوق آلة **ستاير ماستر**، بالإضافة إلى جولة مع **نواتيلوس**. انتقلتُ بعد ذلك إلى **بروفيغو**، حيث اشتريتُ كميّات من البقالة تكفي **كليفلاند** بأكملها. عدتُ إلى المنزل، وأمضيتُ فترة المساء بكاملها في تنظيف المنزل، وتلميع الأثاث، وإزالة الغبار، والكناسة. فكّرتُ مرةً في تنظيف الثلاجة، لكنني قررت عدم المضي في تنفيذ هذا القرار، لأنه كان سيُتعبني كثيراً.

هدأت فورة التنظيف عندي عند الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم. امتلأ المكان بعلب المنظفات البخّاخة، وبعلب التلميع التي تفوح برائحة الليمون. أما طاولة غرفة الطعام فامتلأت بثيابي وكنزاتي التي تكفيني مدة شهر كامل. بدا مظهري، مقابل مجهود التنظيف الذي بذلته، وكأنني قد حضرت من عطلة تخييم استمرت أسابيع عديدة. تحضرتُ للخروج.

تميّز ذلك النهار بارتفاعٍ في درجة الرطوبة، ولم يكن المساء واعداً بالتحسّن. انتقيتُ سروالاً قصيراً وكنزةً غير اللذين كنت أرتديهما أثناء عملي، كما انتعلتُ حذاءً رياضياً قديماً بعض الشيء. رائع! لم تكن الثياب المثالية كي يرتديها المرء أثناء سيره في الشارع، لكنها الثياب المناسبة لشخصٍ يريد الطواف في **ماين** بحثاً عن مشروبات تروّح عنه، أو عن رفيقٍ يؤنسه في ذلك المساء، أو عن كلا الأمرين. رحتُ أستعرض الخطة في ذهني أثناء قيادتي السيارة في اتجاه **سان لوران**. كانت الخطوة التالية هي إيجاد **جولي**، وملاحقتها. أما الخطوة التي بعدها فكانت

إيجـــاد الـــرجل الذي يحب العبث بثياب النوم وملاحقته. قضت الخطة أن لا أدع أحداً يراني، هكذا، بكل بساطة.

قـــدتُ سيارتي عبر شارع **سانت كاثرين**، وتفحصتُ رصيفَي الشارع على الجانـــبين. رأيتُ عدداً قليلاً من النساء في أماكنهنّ في **غرانادا**، لكنني لم ألمح **جولي** أبداً. لم أتوقع أن تتواجد في وقتٍ مبكرٍ مثل هذا. أعطيتُ نفسي متسعاً من الوقت كي أصل إلى المكان.

صادفتني المشكلة الأولى عندما انعطفتُ إلى الطريق الذي أقصده. فظهرت أمامـــي امرأة ضخمة، وكأنها جنيّ هرب من قمقمه. وضعت تلك المرأة مواد تجمـــيل مـــن ماركـــة **تامي بايكر**، لكنها تميّزت بعنق يشبه رقبة كلبٍ كثيف الشعر. لم أستطِع أن أفهم كل الكلمات التي تفوّهت بها، لكنني فهمت ما تريد أن تقوله. تراجعتُ بسيارتي وقدتُها بحثاً عن مكان آخر كي أركن سيارتي فيه. عثرتُ على هذا المكان على بُعد ستة مجمعاتٍ شمالاً. يقع هذا المكان في شارع فرعي ضيّق تنتشر على جانبيه البيوت التي تضمّ ثلاث شقق. يا للمدينة الحارّة! وعلى الأخص صيفها. بدأت العيون المراقبة عملها في هذا الحيّ. لاحقتني عيون الـــرجال مـــن إحدى الشرفات، بينما لاحقتني عيونٌ أخرى من أمام مداخل البـــيوت. توقف الرجال عن متابعة أحاديثهم، بينما وضعوا زجاجات شراب الـــشعير على ركَبهم المتعرقة. هل هم عدائيون يا ترى؟ هل هم فضوليون؟ أم يتميـــزون بعدم الاكتراث؟ أم أنهم يكترثون كثيراً؟ لم أبقَ في المكان مدة تكفي للـــسماح لأي شـــخص بالاقتـــراب مني. أقفلتُ أبواب السيارة، ثم أسرعتُ بالابـــتعاد حتى نهاية **المجمع**. هل أفرطتُ بالعصبية؟ ربما، لكنني خشيتُ حدوث تعقيدات جديدة قد تعيق مهمتي.

شعرتُ بالارتياح عندما عبرتُ المنعطف واختلطتُ بحشد الناس الذي يسير في شـــارع **سان لوران**. أعلنت الساعة الموجودة في **لا بون ديلي** عن الثامنة وخمس عـــشرة دقيقة. اللعنة! أردتُ أن أتواجد في المكان في هذا الوقت بالذات. هل يجدر بي أن أعدّل خطتي؟ ماذا لو لم أستطِع الالتقاء بها؟

وصـــلتُ إلى **ســـانت كاثرين**، وعبرتُ **سان لوران**، وتفحصتُ الأشخاص المتواجدين أمام **غرانادا** مجدداً. لم أعثر على **جويل** أبداً. هل ستأتي إلى هنا في المقام

الأول؟ أي طــريق ستـــسلك؟ اللعنة! لماذا لم أحضر في وقتٍ أبكر؟ لا وقت لديّ الآن للتردد.

أســـرعتُ ناحـــية الشرق، ورحتُ أتفحص الوجوه التي تمرّ من أمامي على جهتَـــي الشارع، لكن أعداد المارة زادت كثيراً، وهذا ما صعّب عليّ كثيراً مهمة التعـــرّف عليها. توجهتُ شمالاً نحو باحة خالية، وتعمدتُ السير على الطريق ذاته الذي سارت عليه **جويل** قبل ليلتين من الآن. ترددتُ قليلاً لكنني مضيتُ، وراهنتُ مجدداً على أن **جولي** لن تنصرف باكراً.

وجدتُ نفسي بعد مضي دقائق قليلة وأنا أقف خلف عمود في أقصى شارع **سانت دومينيك**. كان الشارع مهجوراً وساكناً. لم يصدر عن المبنى الذي تسكن فـــيه **جـــولي** أي إشارات تدل على الحياة، فالنوافذ مظلمة، ومصباح المدخل غير مضاء، وقد بدا الطلاء متقشراً في أضواء الغسق في هذا الجو الحار المشبع بالرطوبة. ذكّرني هذا المنظر بصورٍ سبق لي أن رأيتها في **أبراج الصمت**. تحتفظ بعض طوائف الهـــنود في هذه الأبراج بمنصات يضعون أمواتهم عليها، ثم يتركون الطيور الكاسرة تقـــوم بعملـــها في تجريد العظام من اللحم. وجدتُ نفسي أرتعش وسط الحرارة المخيّمة.

مـــرّ الوقت متباطئاً، واكتفيتُ بالمراقبة لفترة. ظهرت امرأة مسنّة على مسافة بعيدةٍ مني. رأيتها تجرّ عربة مليئة بالأقمشة. جهدت المرأة كثيراً في جرّ حملها فوق الرصـــيف غير الممهد قبل أن تختفي في زاوية الشارع. بدأ الطنين المعدني لدواليب العـــربة بالتلاشـــي قبل أن يختفي تماماً. لم تتردد في الشارع أصوات تخترق النظام الصوتي غير المنتظم فيه.

نظـــرتُ إلى ســـاعتي التي أشارت إلى الثامنة والأربعين دقيقة. خيّمت الظلمة الـــتامة علـــى الشارع في هذا الوقت. كم من الوقت يجدر بي أن أنتظر؟ ماذا لو كانـــت قد غادرت بالفعل؟ هل يجدر بي أن أقرع الجرس؟ اللعنة! لماذا لم أحضر في الـــوقت المناســـب؟ لماذا لم أحضر في وقتٍ أبكر؟ يبدو أن خطتي بدأت تعاني من بعض العيوب.

مـــرّت فتـــرة أخرى من الوقت، ولعلها دقيقة. كنتُ قد بدأت أفكّر بمغادرة المكان حينما أضاء مصباح في غرفةٍ تقع في الطابق العلوي. ظهرت جولي بعد وقت

قليل. رأيتُها ترتدي تنورةً قصيرةً، وبلوزةً من دون أكمام، كما انتعلت حذاءً يصل إلى مستوى الركبة. بدت وجهها، ومنطقة وسط بطنها، وفخذاها، شديدة البياض حتى وسط ظل سقيفة المدخل. تراجعتُ قليلاً كي أقف وراء العمود.

تـــرددت قليلاً، ثم رفعت ذقنها، وغطت منطقة وسط بطنها بيديها. بدت لي وكأنهـــا تختبر برودة الليل. نـــزلت الدرج بعد ذلك، ومشت بسرعة كبيرة باتجاه **سانت كاثرين**. تبعتُها، وحاولتُ أن أبقيها في مجال نظري، ومن دونً أن تنتبه إلى وجودي.

فاجـــأتني عندما وصلت إلى المنعطف، أي عندما استدارت يساراً، فابتعدت بـــذلك عن **ماين**. لم تخطئي بالمجيء إلى **غرانادا** يا **بريرنان**، لكن إلى أين تتوجه هذه الفـــتاة الآن؟ شقّت **جولي** طريقها بسرعة بين المارة، وراحت شرائط حذائها العالي تـــتأرجح مع سرعة سيرها، لكنها لم تكترث للأصوات التي تشبه أصوات القطط والـــذئاب، بـــل توجّهت نحوها. عرفت الفتاة طريقة السير الفضلى بين الحشود، لذلك بذلتُ جهداً كبيراً كي ألحق بها.

قلّـــت كثافة المارة كلما اتجهنا ناحية الشرق، حتى وصلنا أخيراً إلى مكان لم يبقَ فيه أحد. عمدتُ إلى جعل المسافة الفاصلة بيننا أطول كلما خفّت أعداد المّارة على الرصيف، لكنني أدركتُ أنّ هذا الإجراء لم يكن ضرورياً، لأن **جولي** ركّزت على المكان الذي تقصده، و لم تكترث أبداً بالناس الذين يمشون على الرصيف.

لم يكـــن خلـــو الشارع من المارة هو التغيّر الوحيد الذي لاحظتُه، لأن الحي الـــذي وصـــلنا إلـــيه كان يتميّز بطابعٍ آخر. رأيتُ في **سانت كاثرين** الكثير من المـــتأنقين الـــذين يحلقون شعر رؤوسهم بالكامل، وبعض المدمنين الذين يرتدون سترات فضفاضة وسراويل جينـــز بألوان مختلفة...

تـــبعتُ **جولي** ومررتُ أمام عددٍ من المقاهي، ومحلات بيع الكتب، والمطاعم المتخصصة العائدة لجاليات معيّنة. اتجهت شمالاً آخر الأمر، ثم سارت شرقاً قبل أن تأخـــذ اتجـــاه الجـــنوب. وصلت إلى شارعٍ مقفلٍ يضم مجموعة من المستودعات، والأبنـــية الخـــشبية المهملة التي تغطي نوافذ بعضها الألواح المعدنية المضلّعة. بدت بعـــض هذه الأبنية وكأنها جُهّزت لتكون محلات تجارية على مستوى الشارع، مع أنهـــا تـــبدو وكأنهـــا لم تستقبل زبوناً واحداً منذ أعوام عديدة. رأيتُ أكداساً من

الأوراق، والعلب الفارغة، والزجاجات، ملقاة على الرصيف في الجانبين. بدا المكان وكأنه مجهّز للطيور، أو لأسماك القرش.

اتجهت **جولي** مباشرة نحو مدخل أحد أبنية هذه المجموعة. فتحت باباً زجاجياً قذراً تغطيه شبكة معدنية مزخرفة. تكلّمت قليلاً قبل أن تختفي في الداخل. تمكنتُ من رؤية وهج لافتة دعاية مضاءة لشراب الشعير من خلال نافذة موجودة إلى يميني. لاحظتُ أنّ النافذة محمية بشبكة حديدية. قرأتُ اللوحة المعدنيةً التي وُضعت فوق الباب والتي لم تزد عن كلمتين: **شراب الشّعير والشراب الفرنسي**.

والآن ماذا أفعل؟ هل هذا المكان هو بيت للمواعدة، يشتمل على غرفة خاصة في الطابق العلوي أو في الخلف؟ أم أنه ملهى يتفق الشريكان على الالتقاء فيه، ويغادران منه؟ تمنيتُ أن يكون هذا المكان هو مكان مغادرتهما معاً. أما لو غادر كل واحد منهما بمفرده، فمعنى ذلك أنهما أنهيا عملهما، وأن خطتي قد أُحبطت، وفي هذه الحالة لن أعرف من سألاحق.

عجزتُ عن الوقوف في الخارج والاكتفاء بالانتظار. هل أسير في ذلك الممر الضيّق؟ سرتُ من أمام ملهى شراب الشعير الذي دخلته **جولي**، ثم انحرفتُ تجاه بقعة مظلمة. كان ممراً بين محل حلاقة مهجور، وشركة تخزين. كان هذا الممر لا يتجاوز القدمين في العرض، لكنه مظلم مثل قبر.

تسارعت نبضات قلبي، لكنني حشرتُ نفسي مع الجدار في هذا الممر الضيّق. اختبأتُ وراء لوحة متشققة وصفراء تابعة لمحل الحلاقة ومتدلية فوق الممر. مرّت دقائق عديدة. كان الهواء ساكناً ومثقلاً، و لم أسمع أي حركة غير صوت تنفسي. أجفلتني حركة مفاجئة. لم أكن وحدي، جهّزتُ نفسي للفرار، لكن في هذه اللحظة بالذات سقطت أمام أقدامي كتلة صغيرة من النفايات قبل أن تتدحرج في هذا الممر الضيّق. شعرتُ بضيقٍ في صدري، واخترقت جسدي قشعريرة بردٍ من جديد رغم الحرارة.

اهدئي قليلاً يا **بريناn**. لعله أحد القوارض. هيا يا **جولي!**

كأن **جولي** سمعتني، لأنها ظهرت مجدداً متبوعةً برجلٍ يرتدي كنزةً داكنة اللون تحمل كلمات **جامعة مونتريال** على صدره المقوّس. احتضن الرجل كيساً ورقياً فوق ذراعه اليسرى.

ازدادت سرعة نبضات قلبي أكثر فأكثر. هل هذا هو الرجل الذي أبحث عنه؟ هـل هـو صاحب الوجه الذي تظهر صورة وجهه في البطاقة المصرفية؟ هل هو الـرجل الـذي كـان يركض في **شارع بيرغو**؟ جهدتُ كي أتعرّف على ملامح الـرجل، لكن الظلام الدامس منعني، كما أنه كان بعيداً عني. هل أستطيع التعرف علـى **سـان جـاك**، حتى ولو اقترب مني؟ أشكّ في ذلك. لم تكن معالم الصورة واضحة، كما أنّ الرجل الذي رأيته في الشقة كان سريعاً جداً.

نظر الرفيقان أمامهما مباشرة، لكنهما لم يتلامسا أو يتكلما. بدا الاثنان مثل حمامـتين عائدتين إلى مكانهما الأصلي، وسارا في الطريق الذي سبق لي أن سرتُ عليه مع **جولي**، لكنهما انحرفا في **سانت كاثرين**، حيث تابعا سيرهما جنوباً بدلاً من الـتوجه غرباً. انعطفا مرات عديدة، ثم تعرجا مع الشوارع التي تنتشر على جانبيها الشقق والمكاتب المهجورة. كانت الشوارع مظلمة وغير وديّة.

تخلّفـتُ عنهما بعض الشيء، وجهدتُ كي أسمع كل خربشة وصوت مهما كـان خافتاً، واحترستُ من أن يكشتفا وجودي خلفهما، لكن لم يكن هناك من شـيء يخفيني عن أنظارهما. أدركتُ أنني لن أجد لنفسي عذراً يبرّر وجودي في ما لـو التفتا وشاهداني، وكذلك لا توجد واجهات محلات كي أتطلع فيها، ولا أي مداخل يمكنني الدخول إليها، ولا حتى أي شيء يمكنني الاختباء خلفه، سواء أكان مادياً أم معنوياً. تمثّل خياري الوحيد في أن أستمر في المشي، مع الأمل أن أكتشف طـريقاً فـرعياً قـبل أن تتمكن **جولي** من التعرّف عليّ. لم يتلفتا خلفهما، لحسن حظي!

تابعـنا المسير خلال شبكة الطرقات والأزقة، وقد بدت الطرقات خاليةً من الـناس. مرّ رجلان في الاتجاه المعاكس في أحد الأماكن، وراحا يتجادلان بأصوات متوتـرة وقـوية. دعوتُ في داخلي كي لا تتطلع **جولي** ورفيقها نحو الرجلين. لم يفعـلا، بل بقيا يمشيان قبل أن يختفيا في أحد المنعطفات. أسرعتُ في سيري لأنني خشيتُ أن أفقد أثرهما في تلك الثواني التي يختفيان فيها عن أنظاري.

كانـت ظـنوني في محلها، لأنهما اختفيا ما إن دخلتُ في المنعطف. وجدت المكان هادئاً وخالياً.

اللعنة!

تفحصتُ الأبنية الموجودة على الجهتين، ورحتُ أنقّل بصري إلى الأعلى وإلى الأسفل، وإلى كل السلالم الحديدية، وتمعنتُ في كل مداخل البيوت. لم أجد شيئاً، ولا حتى أي علامةٍ على وجودهما.

اللعنة!

مشيتُ على الرصيف، وشعرتُ بالغضب من ذاتي لأنني فقدتُ أثرهما. كنت قد قطعتُ بعض المسافة في اتجاه الزاوية التالية عندما فُتح بابٌ. نظرتُ لأرى رفيق **جــولي** يظهر على إحدى الشرفات التي يحيط بها سياجٌ حديديٌ علاه الصدأ، والتي لا تبعد عن يميني سوى عشرين قدماً إلى الأمام. وقف الرجل على مستوى الكتف وقــد أدار ظهره إليّ، لكن كنـــزته بدت هي ذاتها. جمُدت في مكاني عاجزةً عن التفكير، أو القيام بأي حركة.

قذف الرجل شيئاً ما من فمه باتجاه الرصيف، ومسح فمه بظاهر يده، ثم عاد مجدداً إلى الداخل مغلقاً باب الشرفة وراءه، ومن دون أن ينتبه لوجودي.

وقفتُ حيث أنا شاعرةً بضعف شديد في ساقيّ، وعاجزةً تماماً عن الحركة.

يـــا للخطوة الرائعة يا **بريتان!** هل تشعرين بما يكفي من الرعب كي تسهمي في إنهاء هذه المسرحية؟ لَمَ لا تضيئين شعلة وتطلقين صفّارة الإنذار؟

كـــان المـــبنى الـــذي اختفى الرجل فيه يقع ضمن صف من الأبنية المتراصة، بشكلٍ بدت معه وكأنها تدعم بعضها بعضاً، وبحيث أن المجموعة بكاملها ستتداعى لـــو أن أحـــدها قد أُزيل. لاحظتُ أنّ لافتةً علّقت عرّفت المبنى باعتباره **لو سان فيتوس**، وعرضت **شققاً للسواح**. حسناً.

تُـــرى أيكون هذا المبنى منـــزله أم مجرّد مكانٍ لغرامياته؟ أجبرتُ نفسي على الانتظار فترةً أكبر.

بحثت مجدداً عن مكان أختبئ فيه. وجدتُ، مجدداً، مكاناً اعتبرته فجوةً تصلح كي أختبئ فيها في أقصى الشارع. عبرتُ الشارع ثانيةً وتأكدتُ أنه كذلك فعلاً. هل أسجّل تقدماً؟ لكن ربما كنت محظوظة فقط.

أخـــذتُ نَفَساً عميقاً، ودخلتُ إلى عتمة ذلك الممر الجديد. شعرتُ وكأنني أزحف إلى داخل مستوعب نفايات **دمبستر**. كان الهواء دافئاً ومثقلاً برائحة البول. تضايقتُ كثيراً من وجودي في هذا المكان.

وقفـــتُ في مساحة ضيّقة، فاضطررت إلى نقل مركز ثقلي من قدمٍ إلى قدم. مـــنعتُ نفـــسي من الاستناد إلى الجدار بسبب العناكب، والصراصير، التي كانت محتجزة قرب محل الحلاقة، أما الجلوس فكان أمراً غير وارد أبداً.

مـــرّ الوقت متباطئاً. لم تبرح عيناي **سان فيتوس**، لكن أفكاري ارتحلت إلى أمكـــنة أبعـــد بكـــثير. فكّرتُ في **كاتي**، كما فكّرتُ في **غابي**، بالإضافة إلى **سان فيـــتوس**. ما هو موقفه بشأن وكر الجرذان هذا الموجود على الجانب الآخر الذي سمّـــيَ باسمه؟ ألا يُطلق اسم **سان فيتوس** على أحد الأمراض؟ أم أن ذلك كان **سان آلمو**؟

فكّـــرتُ في **ســـان جاك**. كانت الصورة المثبتة في البطاقة المصرفية الآلية غير واضـــحة بـــشكلٍ لا يُمكن معه تمييز الوجه. كانت تلك السيدة المسنّة على حق عـــندما قالـــت إنّ والدته لن تعرفه من هذه الصورة. يستطيع الرجل أن يغيّر لون شعره، وأن يُطلق لحيته، كما أنه يستطيع وضع نظارة، كي لا يتعرّف عليه أحد.

شـــيّد **الإنكـــا** شبكة طرقات، واستطاع **هنيبعل** عبور جبال الألب. استولى **سيتي** على العرش، لكن أحداً لم يدخل شارع **سان فيتوس** و لم يخرج منه. حاولتُ عـــدم التفكير في الأمور التي كانت تحدث في إحدى الغرف التي يضمها. تمنيتُ أن يكون دوام هذا الرجل قصيراً. اهدئي يا **برينان**، هناك دائماً مرة أولى لكل شيء.

لم تكـــن هناك فرصة لهبوب نسمة هواء في هذه الفجوة الضيّقة، كما أنّ الجدران الحجرية احتفظت بالحرارة التي تجمّعت طيلة هذا اليوم. ازدادت لزوجة قميـــصي، فالتصقت بصدري. تصبّب العرق من شعر رأسي فأصبح لزجاً هو الآخـــر، وانفلـــتت بين الحين والآخر حبيبات العرق لتنساب على وجهي، أو رقبتي.

عـــدّلتُ وضعية وقفتي ورحتُ أفكّر. لم يكن الهواء صالحاً للتنفس. ومضت السماء ودمدمت قليلاً. هل السماء تتذمّر هي الأخرى؟ مرّت السيارات بين الحين والآخر، فكانت تضيء الشارع وتمضي لتعيده إلى أحضان الظلمة من جديد.

بدأت عوامل الحرارة والرائحة، والاحتجاز في هذا المكان الضيّق، تُثقل عليّ. شـــعرتُ بـــألمٍ بـــين عينيّ، أما حنجرتي فكانت تستعد للتقيؤ. فكّرتُ في تأجيله. جرّبتُ وضعية القرفصاء أيضاً.

فجأةً، ظهر جسمٌ **ما** فوقي! تفجّرت الأفكار في عقلي في أنحاء لا تحصى. هل الممر الذي احتميتُ فيه مفتوحٌ من خلفي في الناحية الأخرى؟ يا لغبائي! لم أحاول أن أبحث لنفسي عن طريقٍ للهروب!

أقحم الرجل نفسه في هذا الممر، وراح يتلمس شيئاً **ما** في خصره. نظرتُ نحو آخــر الممــر من خلفي، لكن الظلمة كانت حالكةً جداً. أدركتُ أنني وقعت في مصيدة!

بــدا الأمر وكأنه مسألة فيزيائية تتواجد فيها قوى متعادلة ومتعاكسة. نهضتُ بــسرعة، لكنني تعثرتُ بسبب ضعف ساقيّ. تراجع الرجل إلى الخلف هو الآخر، وبــدت مسحة من الصدمة على محيّاه. أدركتُ أنه آسيوي، رغم أنني لم أشاهد، بوضوحٍ، سوى أسنانه وعينيه اللتين بدت الدهشة عليهما، وسط كل هذه الظلال القاتمة.

ضغطتُ على الجدار طلباً للدعم والتغطية. نظر الرجل إليّ بطريقة غريبة، وهزّ رأســه وكأنه ارتبك، ثم ترنّح الرجل قليلاً قبل أن ينطلق في الحي منشغلاً بتسوية قميصه، وإقفال زمّام سترته.

تــسمّرتُ في مكاني لبرهةٍ قصيرةٍ، وحاولتُ تهدئة دقّات قلبي التي تسارعت بشكل خيالي.

هل كان الرجل مجرد مدمنٍ أراد أن يتبوّل فقط؟ اختفى الرجل عن أنظاري.

ماذا لو كان هو **سان جاك** بذاته؟

لم يكن الأمر كذلك.

لم تتركــي لنفــسك مخــرجاً يا **بريننان**، وهكذا تصرفتِ بغباوة، وقد يؤدي تصرفكِ هذا إلى هلاكك.

كان الرجل مدمناً فقط.

اذهــبي إلى المنــزل يا **بريننان**. أعتقد أن **جاي**. **أس**. على حق. اتركي الأمر لرجال الشرطة.

لكنهم لن يقوموا بالعمل الذي أقوم به.

إنها ليست مشكلتك أنتِ.

لكن **غابي** هي مشكلتي أنا.

أيُحتمل أن تكون في **سانت آديل**؟

هل يجدر بي أن أتوجه إلى هناك؟

تابعتُ مراقبتي بعد أن هدأتُ قليلاً. فكّرتُ أكثر **بسان فيتوس**، وتحديداً برقصة **سان فيتوس**. أجل، فقد لقيت هذه الرقصة انتشاراً واسعاً في القرن السادس عشر. شعر الناس عندها بالعصبية والتوتر، ثم بدأت أطرافهم بالارتعاش. ظنوا أنهم يعانون نوعاً من الهستيريا، لذلك قصدوا مكان سان فيتوس. لكن ماذا بشأن **سان أنطوني**؟ وماذا بشأن النيران؟ هل نتجت عن نوع من الفطريات في الحبوب. ألم تتسبب هذه في جعل الناس يتصرفون كالمجانين؟

فكّرتُ في المدن التي أحب أن أزورها. مدنٌ مثل **آبيلين**، **وبانكوك**، **وشيتاكونغ**. أحببتُ ذلك الاسم على الدوام: **شيتاكونغ**. أم لعلي سأذهب إلى **بنغلادش**. كنتُ ما أزال أفكّر في المدن التي يبدأ اسمها بحرف D عندما خرجت **جولي** من **سان فيتوس**، وسارت بهدوء في الشارع. بقيتُ في مكاني. لم تعد هذه الفتاة دليلي.

لم أجد نفسي مضطرة للبقاء في مكاني لوقتٍ طويلٍ، لأن فريستي قد غادرت المكان بدورها.

أفسحتُ المجال للرجل كي يبتعد عني قليلاً، ثم انطلقتُ في إثره. ذكّرتني حركاته بجرذ النفايات الذي سبق لي أن رأيته. انطلق الرجل بسرعة، وأحنى كتفيه، ثم مال برأسه، ولاحظتُ أنه يتمسك بشدة بالكيس، ويضغط به على صدره. لحقتُ بالرجل، وبدأ عقلي يقوم بمقارنة من يسرع الخطو أمامي بذلك الشخص الذي رأيتُه مندفعاً من تلك الغرفة الموجودة في **شارع بيرغر**. لم تكن المقارنة مناسبة، لأنني كدتُ أنسى ملامح ذلك الرجل، لكن **سان جاك** كان سريعاً جداً، كما أن ظهوره كان مباغتاً. ***يُحتمل*** أن يكون الرجل ذاته، لم أتمكن من النظر إليه جيداً في المرة الماضية. تأكدتُ – مع ذلك – من أنّ هذا الرجل لا يتحرك بسرعة تحرّك **سان جاك**.

شققتُ طريقي للمرة الثالثة خلال ثلاث ساعات وسط متاهة من الشوارع الفرعية غير المضاءة. لاحقتُ فريستي مقتربةً منها بقدر ما سمحت لي به شجاعتي. دعوت في سرّي كي لا يتوقف الرجل عند حانة أخرى كي يتناول كأساً من شراب الشعير. لم أعد قادرة على تمضية وقتٍ آخر في المراقبة.

اكتشفتُ أنّ قلقي لا أساس له، لأن الرجل انعطف مباشرةً في آخر الأمر نحو أحد المحلات المبنية بالحجر الرمادي اللون وذي مدخل مقوّس، وذلك بعد أن تعرّج خلال متاهة من الشوارع الفرعية، والممرات الجانبية. بدا المحل مشابهاً لمئات المحلات الـــتي مررتُ من أمامها هذه الليلة، لكنه لا يعاني من درجة الإهمال ذاتها التي تعاني منها تلك المحلات. لاحظتُ أنّ الأحجار أقل وساخةً، أما الدرج الحديدي الصدئ الذي يتصل بالأبواب فكان لا يتطلب الكثير من الطلاء.

تـــسلّق الـــرجل الدرج بسرعة، وتصاعدت في الهواء الأصوات المعدنية لوقع قدمـــيه، ثم اختفـــى من خلال باب منقوش ومزخرف. أضاء مصباحاً كهربائياً في الطابـــق الـــثاني في الوقت نفسه تقريباً. لاحظتُ أنّ النوافذ نصف مفتوحة، وأنّ الستائر معلقةٌ بإهمال ومن دون حياة. تحرّك خيال شخصٍ في أنحاء الغرفة، و لم يكن يحجب منظره عني سوى قماش الستائر المخرّم والشاحب.

عبرتُ الشارع وانتظرت. لم أحشر نفسي في ممرٍ ضيق هذه المرة.

بقي الرجل يتحرك جيئةً وذهاباً في الغرفة لفترةٍ من الزمن قبل أن يختفي.

انتظرت.

إنه هو يا **بريتان**. إنه هنا أمامك.

يُحتمل أنه أتى كي يزور شخصاً ما، ويعطيه شيئاً ما.

لقد أمسكتِ به يا **بريتان**. هيا انطلقي.

نظـــرتُ إلى ســـاعتي وقد أشارت إلى الحادية عشرة وعشرين دقيقة. ما زال الوقت مبكراً، وأستطيع الانتظار عشر دقائق أخرى.

اســـتغرق الأمر وقتاً أقل. عاد الشخص ليظهر من جديد، وفتح النوافذ على مصراعيها قبل أن يختفي ثانيةً. أظلمت الغرفة. هل حان وقت النوم؟

انتظـــرت خمـــس دقائـــق أخرى كي أتأكد أن أحداً لم يغادر المبنى، وعندها لن أحـــتاج إلى مزيدٍ من الإقناع. يستطيع **رايان** ورجاله أن يكملوا العمل من هذه النقطة. دوّنـــتُ العـــنوانَ وبـــدأت أسلك طريقي عائدة إلى السيارة، وتمنيت أن لا أتأخر في إيجادهـــا. مـــا زال الهواء مثقلاً بالرطوبة، وبقيت درجة الحرارة عالية، مثلما كانت في منتـــصف وقت الظهيرة. لم تحرّك أوراق الأشجار وستائر النوافذ ساكناً، وكأنها تنتظر أن تجـــف بعد غسلها. توهجت أضواء النيون في شارع **سان لوران** عبر أسطح المباني

المظلمة، وأرسلت أضواءها إلى متاهة الشوارع التي سلكتُها مسرعةً.

أشـــارت ساعة لوحة القيادة في سيارتي إلى منتصف الليل عندما وصلت إلى المرآب. إنني أحرز تقدماً. وصلت إلى منـــزلي قبيل الفجر.

لم أنتـــبه إلى ذلـــك الـــصوت في البداية. كنتُ قد وصلت إلى آخر المرآب، وبـــدأتُ بالـــبحث عن مفتاحي عندما انتبه عقلي الواعي أخيراً إلى ذلك الصوت. جمُـــدتُ في مكاني وأصغيتُ جيداً. كان صوتاً حاداً وعالياً يأتي من خلفي، وقرب مدخل السيارات بالتحديد.

مشيتُ في ذلك الاتجاه في محاولةٍ مني تحديد مصدر الصوت. توضحت طبيعة ذلك الصوت أكثر فأكثر، وأصبحتً النغمة مثل قرع طبول متقطع. اقتربتُ أكثر فأيقنتُ أنّ تلك الضجة إنما تأتي من باب يقع إلى يمين منصة وقوف السيارات. بدا الباب مغلقاً، لكن تبيّن لي أنّ القفل لم يكُن في مكانه تماماً، أي أنّ ذلك كان سبب تشغيل جهاز التنبيه.

دفعتُ الباب في البداية ثم سحبتُ مزلاج الأمان، ودفعتُ الباب فأقفل تماماً. توقـــف الـــصوت على الفور، وهكذا بدا المرآب هادئاً تماماً. صممتُ على لفت أنظار **ونستون** إلى هذا العطل الطارئ في ما بعد.

بـــدت شقتي باردةً ومنعشةً، بعد أن قضيتُ تلك الساعات الطويلة في أماكن ضيقة وقذرة. وقفتُ برهةً من الوقت في الردهة كي أسمح للهواء المبرد أن يمر فوق جلـــدي الحار. أصّر **بيردي** على المرور جيئةً وذهاباً ملامساً ساقي، ورافعاً ظهره، بالإضافة إلى إسماعي خرخرته في ترحيبه المعتاد بي. تطلعتُ إلى الأسفل. رأيتُ بضع شعرات بيضاء وناعمة تلتصق بساقيّ المتعرقتين. مسّدتُ رأسه، ووضعتُ الطعام في طـــبقه، ثم انـــصرفتُ كي أتفحص الرسائل التي تلقيتها. لم أجد في الجهاز سوى اتصال مقطوع. توجهتُ كي آخذ حمّامي المعتاد.

رحـــتُ أســـترجع أحـــداث تلك الأمسية في ذهني بينما كنتُ أضع رغوة الـــصابون علـــى جسمي مرةً بعد أخرى. سألتُ نفسي عن الأمور التي أنجزتُها. أصـــبحتُ أعرف الآن أين يعيش ذلك المهووس بثياب نوم **جولي**. افترضتُ، على الأقل، من يكون هذا الرجل، لأن اليوم هو يوم خميس. وماذا في ذلك؟ يُحتمل أن لا تكون لديه علاقة بالجرائم.

لم أستطِع أن أقنِع نفسي تماماً. لماذا؟ لماذا افترضتُ أنّ هذا الرجل متورط بالجرائم؟ ولماذا افترضتُ أنّ مهمة القبض عليه تقع على عاتقي وحدي؟ لماذا أخشى على **غابي** إلى هذه الدرجة؟ تأكدتُ على الأقل أن **جولي** بخير.

بقيتُ مشغولة البال حتى بعد أن انتهيتُ من حمّامي، وعرفتُ أنني لن أستطيع الاستسلام للنوم. توجهتُ إلى الثلاجة، وتناولتُ قطعةً من الجبن الطري، وجزءاً من ***توم دي شيفر دي سافوي***، وسكبتُ بعض شراب الزنجبيل. لففتُ جسمي بلحاف، وأسرعتُ كي أستلقي على الأريكة. قشّرتُ برتقالةً وأكلتُها مع الجبن. لم يستطِع **لترمان** الاستحواذ على انتباهي، لذلك عدتُ إلى التفكير في الأمور التي تشغل بالي.

لماذا قضيتُ الساعات الماضية محشورةً مع العناكب والجرذان، لمجرد مراقبة أحد الأشخاص الذين يمتلكون هواية رؤية بنات الهوى في ثياب النوم؟ لماذا لم أترك هذه المهمة لرجال الشرطة؟

عدتُ مجدداً إلى التفكير في هذه الأمور. لماذا لا أكتفي بإعطاء **رايان** المعلومات التي عرفتُها لتوي، وأطلب منه أن يتولى مهمة القبض على ذلك الرجل؟

يعود السبب إلى أنني أعتبر الأمر شخصياً بالنسبة لي، لكن ليس بالطريقة التي كنت أحاول إقناع نفسي بها. لا يقتصر الأمر على أنه تهديد تلقيته في حديقتي، أو أنه يهدد سلامتي أو سلامة **غابي**. يوجد سبب آخر يجعلني أتوجس من هذه القضايا، سببٌ أعمق وأكثر إثارةً للقلق. بدأتُ أعترف، شيئاً فشيئاً، بهذه الحقيقة، لنفسي، مع مرور الساعات.

تمثلت الحقيقة أمامي في أنني أصبحتُ أُخيف نفسي في هذه المدة الأخيرة. كنتُ أشاهد الموت العنيف كل يوم، وكل يوم كنت أسمع أنّ امرأة قتلها رجلٌ، وألقاها في أحد الأنهار، أو في إحدى الغابات، أو في مكبٍ للنفايات. كنت أتلقى أخباراً عن اكتشاف عظام مكسورة لأحد الأطفال في صندوق، أو في مجرى مياه، أو في كيس من النايلون. كنت أرفع هذه العظام، وأفحصها، وأرتّبها. كتبتُ التقارير، وأدليت بشهاداتي أمام المحاكم. لم أشعر بشيء في بعض الأحيان، واعتبرتُ أنّ ذلك هو جزءٌ من العقلية المهنية، أو ربما إنّ هذا الشعور هو جزء من عدم الاكتراث السريري (العيادي). واجهتُ الموت مراراً، وعن قرب، وخشيتُ

أحياناً أن أفقد إحساسي بمعناه. أدركتُ أنني لا أستطيع أن أشعر بالحزن على كل إنسان وصلت جثته إليّ. إنّ من شأن ذلك بالتأكيد استنفاد مخزون مشاعري. إنّ بعضاً من عدم الاكتراث المهني هو شيء ضروري من أجل القيام بالعمل، شرط أن لا يصل إلى درجة التخلي عن المشاعر بأكملها.

حرّك موت النساء شيئاً ما في داخلي. تألمتُ لخوفهنّ، وألمهنّ، وعجزهنّ عن مواجهة جنون المجرمين. شعرتُ بالغضب والاستياء، وبالحاجة إلى استئصال كل حيوانٍ مسؤولٍ عن مذبحة. شعرتُ مع هؤلاء الضحايا، أما رد فعلي على موتهنّ فكان بمثابة حبلٍ الحياة لمشاعري، ولإنسانيتي واحتفائي بالحياة. تمكنتُ من الشعور بهذه الأحاسيس، وشعرتُ بالرضا.

هذا هو الجانب الشخصي في الموضوع، وهذا هو السبب الذي يمنعني من التوقف عند هذا الحد. هذا هو السبب الذي دفعني إلى البحث في أراضي الموناستير، وفي الغابات، وفي الحانات، وفي الشوارع المتفرعة عن شارع **ماين**. نجحتُ في إقناع **رايان** بمتابعة هذه القضية. نجحتُ في إيجاد الرجل الذي تورطت **جولي** معه، وسأنجح في إيجاد **غابي**. يُحتمل أن يكون الأمران مرتبطين، ويُحتمل أن لا يكونا كذلك. لا يهم، لأنني سأنجح، بطريقة أو بأخرى، في القبض على ذلك النذل المسؤول عن إهراق الدماء الأنثوية. سأساعدُ أيضاً على سجنه، إلى الأبد.

33

تبيّن لي أن الشروع بالتحقيق كان أصعب مما ظننت. كان ذلك بسببي، وإن جزئياً.

شعرتُ، عند الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الجمعة، بألمٍ في رأسي ومعدتي، نتيجة عدد لا يحصى من أكواب القهوة التي تناولتها. انشغلنا في مناقشة الملفات لساعات عديدة. ولم يتوصل أحد لشيء مهم، وهكذا بقينا نناقش الأمور ذاتها مرةً بعد أخرى، ورحنا نغربل الكميات الهائلة من المعلومات المتوافرة لدينا، وبحثنا بيأس عن شيء جديد، ولم نجد إلا القليل.

عمل **برتران** من زاوية وسيط العقارات. إذ وضعت كل من **موريسيت – شامبو وآدكينز**، منزليهما في إعلانات بيع **ري ماكس**. وفعل جار **غاغنون** الشيء ذاته. إنها مؤسسة كبيرة وتمتلك ثلاثة مكاتب منفصلة، ولديها ثلاثة وكلاء منفصلين. لم يتذكر أحد أيّاً من هؤلاء الضحايا، أو حتى أي شيء عن ممتلكاتهنّ. لجأ والد **تروتييه** إلى استخدام **رويال ليباج**.

تبيّن أن صديق **بيتري** السابق مدمنٌ على العقاقير غير القانونية، وسبق أن قتل بنات هوى في **وينيبيغ**. يُحتمل أن تشكّل هذه المعلومة اختراقاً في التحقيق، ويُحتمل أن لا تشكّل. وقف **كلوديل** إلى جانب الاحتمال الأخير.

استمرّ التحقيق مع الرجال الذين يشتبه بقيامهم بانتهاكات لا أخلاقية، لكن لم يخرج التحقيق بنتيجة معهم. يا للمفاجأة الكبيرة!

وانطلقت فرقٌ من المحققين الرسميين تحقق في الأحياء المحيطة بمنزلَي **آدكينز وموريسيت – شامبو**. ولم تسفر التحقيقات عن شيء.

لم نجد أحداً نلتجئ إليه غير أنفسنا. كان الجو العام كئيباً، وافتقد **أفراد** الفريق للــصبر، وهكذا انتظرتُ دوري متحيّنة الفرصة المناسبة لي كي أبدأ الكلام. **أصغوا** إليّ بــأدب عـــندما أخـــبرهم عن وضع **غابي**، وعن ليلتي التي **قضيتها** في السيارة. وصفت لهم الرسمَ، ومحادثتي مع **جاي. آس**، ومراقبتي **لجولي**.

لم يــتقدّم أحد للكلام عندما انتهيت، لكن سبع نساء راقبنَ بصمت من فوق لـــوحات الإعلانات. راح قلم **كلوديل** يرسم خطوطاً وشبكات على الورق. بقيَ الرجل صامتاً ومنعزلاً طيلة المساء كما لو أنه كان منفصلاً عنا جميعاً. زادته روايتي تجهماً، بينما سيطر صوت ساعة الحائط الكهربائية الكبيرة على الغرفة.

بازززز.

سأل **برتران**: "أليس لديكِ فكرة ما إن كان هذا هو النذل ذاته الذي **لاحقناه في برغو؟**"

هززتُ رأسي بالنفي.

بازززز.

قال **كيترلينغ**: "أقترح أن نلقي القبض على ذلك النذل".

سأل **رايان**: "وبأي تهمة؟"

بازززز.

أجاب **شاربونيو**: "نستطيع أن نتوجه إلى هناك سعياً وراء القبض عليه. سنرى كيف سيواجه الضغط الذي سيصدر عنا".

قال **روسو**: "سيرتعب الرجل إذا كان هو ذاته الذي نبحث عنه. إنّ آخر ما نريده هو أن يرتعب، وأن يدفعه هذا لتفجير المكان بكامله".

ردّ **برتـــران**: "لا. إنّ آخر ما نتوقعه منه هو إدخال تمثال بلاستيكي في مكانٍ حساسٍ عند ضحية أخرى".

"ألا يُحتمل أن يكون الرجل مجرد تافه؟"

"أو يُحتمل أن يكون **بوندي** من نوعٍ آخر".

بازززز.

دارت المناقشات بهذه الطريقة، وتنقلّت ما بين الفرنسية والإنكليزية. وانتهى جميع الحاضرين برسم خطوطٍ تماثل تلك التي رسمها **كلوديل**.

بازززز.

وماذا بعد ذلك؟

سأل شاربونيو: "ما هو مدى موثوقية ***صاحبتك غابي؟***"

ترددتُ قليلاً. يمتلك ضوء النهار قدرةً على تلوين الأشياء بطريقة مختلفة. سبق لي أن أرسلتُ هؤلاء الرجال بمهمات ملاحقة من قبل، وما زلنا لا نعرف إن كانت مجرد مهمات فاشلة.

نظــر كلوديل إليّ فبدت عيناه باردتين مثل عيون الزواحف. شعرتُ بتوترٍ في معدتي. أعرف أنّ هذا الرجل يحتقرني، وكل ما يريده هو تدميري. ماذا كان يفعل مــن وراء ظهــري يا ترى؟ ومن يعرف إلى أين وصلت شكواه ضدي؟ وماذا لو كنتُ مخطئة بتفكيري هذا؟

أقــدمتُ في هذه اللحظة بالذات على شيء لن أتمكن من تغييره إلى الأبد. يُحــتمل أنــني لم أشــعر في أعماقــي بأن أمراً سيئاً قد يحدث **لغابي**، ولطالما اســتطاعت الوقــوف على قدميها من جديد. هل اخترتُ المسار الآمن. من يــدري؟ لم أُقــدم علــى تضخيم المخاطر المحدقة بسلامة صديقتي إلى مستوى الخطورة. تراجعتُ في النهاية.

"سبق لها أن اختفت عن الأنظار من قبل".

بازززز.

بازززز.

بازززز.

كان **رايان** أول من قدّم تعليقاً.

"هل اختفت من قبل بهذه الطريقة؟ ومن دون أن تترك أي كلمة؟"

أومأتُ موافقةً.

بازززز.

بازززز.

بازززز.

بدا التجهم على ملامح وجه **رايان**. "حسناً يا رجال. دعونا نحصل على اسمٍ محــدد، ونبحث في أمره. أريد أن يحدث هذا من دون ضجيج في هذه الأثناء. لا

نستطيع الحصول على تفويض بالتفتيش في هذه المرحلة على أي حال". التفت إلى **شاربونيو**: "**ميشال**".

أومأ **شاربونيو**. ناقشنا عدة نقاط أخرى، ثم جمعنا أوراقنا وأنهينا الاجتماع.

تساءلتُ دائماً، كلما تذكرتُ ذلك الاجتماع، إذا ما كان بمقدوري حينها تغيير مجرى الأحداث التي جرت لاحقاً. لماذا لم أعبّر عن قلقي على **غابي**؟ وهل مشاهدتي **لكلوديل** هي التي أجبرتني على اتخاذ هذا القرار؟ هل ضحّيتُ بحماستي التي شعرتُ بها في الليلة السابقة على مذبح الحذر المهني؟ هل خاطرتُ بسلامة **غابي**، بدل أن أضحّي بموقفي المهني؟ وهل كانت الأمور ستتغيّر لو أنّ تفتيشاً دقيقاً للمنطقة بكاملها قد أجريَ وقتها؟

توجهتُ إلى منزلي في تلك الليلة، وحضّرتُ لنفسي وجبةً نقلتها عن برامج التلفزيون، وكانت عبارةً عن شريحة لحمٍ على الطريقة السويسرية، على ما أعتقد. سمعتُ بعد قليل أزيز **المايكرويف**، فأسرعتُ إلى رفع ورق الألومينيوم عن الشريحة.

وقفتُ هناك لبرهةٍ من الزمن، ورحتُ أراقب هذا المرق المحضّر بطرائق كيميائية، وهو يتخثّر فوق البطاطا المهروسة بنفس الطريقة. شعرتُ بنغمات الوحدة والإحباط تتصاعد استعداداً لعزف مقدمتها. أستطيع أن أتناول ما حضّرته، وأن أقضي ليلةً أخرى في طرد الشياطين، لكن برفقة هرّي والمسرحيات الهزلية، أو أن أقضي هذه الليلة في قيادة الأوركسترا التي تعزف لي هذه الليلة.

"اللعنة! هل أنّ قائد الأوركسترا...؟"

رميتُ غدائي هذا في سلة النفايات، وهرعتُ إلى مطعم **شيز كاتسورا** الذي يقع في **شارع لو مونتان**. طلبتُ هناك طبق **سوشي**، وتبادلتُ بعض الأحاديث مع بائع بطاقات من **سودبوري**. رفضتُ دعوته لي، وسرعان ما غادرتُ المكان كي أحضر عرضاً متأخراً في قاعة سينما **لا فابورغ**.

كانت الساعة العاشرة والأربعين دقيقة حينما غادرتُ القاعة. دخلتُ المصعد كي أنزل إلى الطابق الأرضي. لاحظتُ أنّ مركز التسوّق الصغير شبه مهجور، وأنّ الباعة قد غادروا المكان بعد أن وضعوا سلعهم في عربات مغطاة. مررتُ أمام فرن الكعك، وكشك بيع اللبن الزبادي، وزاوية المأكولات اليابانية، ورأيتُ الرفوف والواجهات فارغةً ومصفوفةً خلف بوابات أمانٍ موصدةٍ

بإحكام. شاهدتُ صفوفاً مرتبةً من السكاكين والمناشير وراء علبٍ يستخدمها القصّابون.

كـان ذلـك الفيلم هو الشيء الذي أحتاجه بالضبط. شاهدتُ ضباعاً تغني، وسمعـتُ قـرع طـبولٍ إفريقيةٍ، وحكاية شبلٍ، أبعدت ذهني عن التفكير في هذه الجرائم لساعات عديدة.

نجحتِ في تنسيق كل هذه الأمور يا **بريينان. هاكونا ماتاتا.**

عـبرتُ شـارع **سـانت كاثرين**، ومشيتُ نحو منـزلي. ظلّ الطقس حاراً وشـديد الرطوبة. غلّف الضباب مصابيح الشوارع، وخيّم فوق الرصيف مثل بخار يتصاعد من حوض مياه ساخنة في ليلة شتوية باردة.

ما إن تجاوزت ردهة الدخول متوجهة إلى غرفتي، حتى رأيتُ المظروف. كان المظروف مدسوساً ما بين المقبض النحاسي وبين الإطار الخشبي للباب. فكّرتُ في البداية **بونستون**. هل يريد أن يصلح شيئاً، ولهذا يريد قطع التيار الكهربائي والمياه؟ لا، لم يكـن الأمـر كذلك، لأنه كان سيرسل مذكرة لي. هل هي شكوى ضد **بيردي**؟ هل هي رسالة من **غابي**؟

لم تكـن كذلك. لم تكن رسالةً على الإطلاق في واقع الأمر. تضمّن المغلف ورقتين استقرتا بصمت وفظاعة على سطح الطاولة. حدقتُ بهما، فتسارعت دقات قلبي، وارتعشت يداي. أدركتُ ماذا تعنيان، لكنني رفضتُ أن أصدّق.

تـضمّن المظروف بطاقة تعريف بلاستيكية. ذُكر في هذه البطاقة اسم غابي، وتاريخ مولدها، ورقم تأمينها الصحي بأحرف نافرة بيضاء اللون، بينما ظهر رسم مغـيب الشمس على أعلى الجهة اليسرى للبطاقة. بدت صورتها على أعلى يمينها، كمـا ظهـرت جدائل شعرها المتدلية، وبدا شيء ما فضيّ اللون في كل أذنٍ من أذنيها.

أمـا الـورقة الثانية فكانت عبارة عن أقصوصة مربعة بطول وعرض خمسة سـنتمترات مقـتطعة من خريطة بقياسٍ كبيرٍ للمدينة. كُتبت الأسماء على الخريطة بالفرنـسية وأظهرت الشوارع والحدائق الخضراء بلون معتاد. بحثتُ عن معالم، أو أسماء، قد تساعدني على تحديد الحي الذي تمثله الخريطة. وردت أسماء شارع **سانت هيلين**، وشارع **بوشامب**، وشارع **شامبلاين**. لا أعرف هذه الشوارع في الحقيقة.

يُحتمل أن تكون هذه المنطقة جزءاً من **مونتريال**، أو من أي مدينة أخرى في كندا، مــع العلــم أنني لم أمكث في **كيبيك** مدة كافية بعد تسمح لي بالتعرّف على هذه المــدن العديدة. لم تشتمل الخريطة على أسماء طرقات سريعة، أو معالم، تسمح لي بالتعرف على مواقع هذه الأسماء. فيما عدا واحدة على ما يبدو. ظهرت علامة X كبيرة، ومرسومة باللون الأسود، في مركز الخريطة.

حــدّقتُ، بينما أحسستُ بنوعٍ من الخدر الذي سيطر عليّ، بعلامة X هذه. بــدأت مشاهد فظيعة بالتكوّن في ذهني، لكنني حاولتُ طردها في محاولةٍ مني طرد التفسير المنطقي الوحيد المقبول الذي توحي به. كانت هذه عبارة عن خدعةٍ تماثل الجمجمــة التي زُرعت في حديقتي. يصرّ ذلك المعتوه على العبث معي، ولعلهً يريد أن يختبر قدرته على إنــزال الرعب في نفسي.

لا أعــرف كـــم من الوقت أمضيتُه وأنا انظر إلى وجه **غابي**. رحتُ أتذكر وجهها في الأماكن الأخرى التي رأيتُها فيها، وفي أزمنة أخرى. تذكرتُها ذات مرة عندما ارتدت قبعة مهرجٍ، وقناع وجه مليء بالحبور في ذكرى ميلاد **كاتي** الثالث. كان وجهها يسبح بالدموع حينما راحت تخبرني عن حادثة انتحار شقيقها.

ســاد الصمت الثقيل في المنــزل من حولي، وبدا لي أنّ العالم بأسره ساكنٌ تماماً. سيطرت عليّ الحقيقة المرعبة.

لم تكن هذه خدعةً كما ظننتُ في البداية. يا إلهي، يا إلهي القدير، ويا عزيزتي **غابي!** أنا آسفة جداً، آسفة جداً!

أجاب رايان بعد الرنة الثالثة.

همــستُ لــه: "لقد نال من **غابي**". تحولت مفاصل أصابع يدي التي أمسكت بسماعة الهاتف إلى اللون الأبيض. استخدمتُ إرادتي كي أسيطر على صوتي.

لم أستطع إخفاء الحقيقة عنه.

"مَن؟" سألني، وهو يحسّ بالرعب الذي أحاول أن أخفيه، ثم انتقل إلى صلب الموضوع مباشرةً.

"لا أعرف".

"أين هما؟"

"أنا... أنا لا أعرف".

سمعتُ صوت يدٍ تصفع وجهاً.

"ماذا لديك؟"

سمعني من دون مقاطعة.

"اللعنة!"

مرّت فترة صمت.

"حسناً. سآخذ الخريطة وأدرسها كي أتمكّن من تحديد الموقع، وسأُرسل فريقاً إلى ذلك الموقع".

قلتُ: "أستطيع أن أوصل الخريطة بنفسي".

"أعتقد أنه من الأفضل أن تبقَي حيث أنتِ. أريد إعادة وضع وحدة مراقبة في المبنى الذي تسكنين فيه".

قلتُ بحدّة: "لستُ الشخص الذي تُحدق به الأخطار. لقد نال ذلك الوغد من **غابي!** ويُحتمل أنه قد انتهى من قتلها!"

بدأ قناع رباطة الجأش عندي بالتداعي. جهدتُ كثيراً كي أسيطر على الارتعاش في يديّ.

"إنني أشعر، يا **برينان،** بالحنق إزاء ما أصاب صديقتك. إنني على استعداد لمساعدتها قدر استطاعتي. صدّقيني، لكن يبقى عليكِ استخدام ذكائك. لو أنّ ذلكَ المعتوه قد أخذ محفظتها فقط، فلربما تكون بخير أينما كانت. وإذا كان يحتجزها، ويريد منا أن نجدها فذلك يعني أنه تركها في أي ولاية يريدنا إيجادها فيها. لا نستطيع تغيير هذا الواقع. أقدم أحدهم في هذا الوقت على وضع رسالة على باب بيتك يا **برينان**. يعني هذا أنّ ذلك اللعين قد جاء إلى المبنى الذي تسكنين فيه. إنه يعرف سيارتك. وإذا كان الرجل هو القاتل بذاته فلن يتردد في إضافتك إلى لائحته. لا يقع احترام الحياة ضمن ميزات شخصيته، ويبدو أنه يركّز عليكِ الآن".

كان على حق في هذه النقطة.

"سأكلّف أحد الأشخاص بمراقبة الشخص الذي لحقتِ به".

تكلمتُ ببطء ونعومة: "عدني أن يتصل بي فريق تحديد الموقع عندما ينتهون من عملهم".

"**برينا...**"

لم يكن صوتي يتميّز بتلك النعومة عندما قاطعتُه: "هل هناك مشكلة؟"

كـــان سؤالاً غير منطقي بالمرة، حتى باعترافي أنا، لكن **رايان** أصبح أكثر حـــساسية إزاء خـــوفي المتزايد، أم أنه الحنق المتزايد؟ أم لعله لا يريد أن يتعامل معي.

"لا".

حصل **رايان** على المظروف عند منتصف الليل تقريباً. تلقيتُ اتصالاً بعد ذلك مـــن فـــريق تحديد المواقع بعد ساعة من الزمن. أبلغوني أنهم نجحوا في رفع بصمة واحـــدة من البطاقة. كانت بصمتي أنا. أضافوا إن علامة X تشير إلى قطعة أرضٍ مهجـــورة في **سانت لامبرت**. تلقيتُ اتصالاً ثانياً من **رايان** بعد ساعة من اتصال فـــريق تحديـــد المواقع. أبلغني أنّ فرقة من رجال الشرطة تتحقق من قطعة الأرض، وكـــل الأبنـــية المحيطة بها. لم يجدوا شيئاً. ورتّب **رايان** مسألة توجه فريق استعادة الأدلـــة إلى المكـــان في الصباح. ورتّب أيضاً مسألة الاستعانة بالكلاب البوليسية. سنعود مجدداً إلى الشاطئ الجنوبي.

قلـــتُ بصوتٍ مرتجفٍ بينما تحوّل حزني على **غابي** إلى رعبٍ لا يُحتمل: "متى نبدأ بالعمل في الصباح؟"

"سأحدّد السابعة موعداً للبدء بالعمل".

"دعنا نبدأ عند الساعة السادسة".

"لتكن السادسة إذاً".

"هل أمرّ لاصطحابك بالسيارة؟"

"شكراً لك".

تردّد قليلاً: "قد تكون بخير".

"أجل".

شـــرعتُ بالأعمـــال الـــروتينية التي اعتدتُ عليها قبل التوجه للنوم: تنظيف الأســـنان، غسل الوجه، وضع مستحضر اليدين، وارتداء ثوب النوم. رحتُ أتجول مـــن غرفة إلى غرفة في محاولةٍ مني عدم التفكير في النساء اللواتي عُلّقت صورهنّ في لـــوحات الإعلانـــات، وصوَر مسارح الجريمة، واللواتي ترد أوصافهن في قائمات التشريح. ماذا بشأن **غابي**؟

أعـــدتُ إحـــدى الصور إلى مكانها الصحيح، ونقلتُ مزهريةً من مكانها، ثم رفعـــتُ كـــرة شـــعرٍ عن السجادة. شعرتُ بالبرد، وحضّرتُ كوب شاي لي، ثم أطفأتُ جهاز تكييف الهواء. عدتُ بعد دقائق قليلة لتشغيله مجدداً. انسحب **بيردي** إلى غـــرفة النوم، ولعله سأم من تحركاتي التي لا تحمل معنىً، لكنني لم أستطِع إجبار نفـــسي على الامتناع عنها. شعرتُ أنّ العجز في مواجهة هذا الرعب الوشيك هو إحساسٌ لا يُحتمل.

تمطـــيتُ عند حوالى الساعة الثانية على الأريكة، وأغلقتُ عينيّ، وحاولتُ أن أســـترخي. ركّـــزتُ على أصوات الليل المعتادة: مضخة تكييف الهواء، سيارات الإســـعاف، قطرات المياه التي تتساقط على الأرض في الطابق الثاني. سمعتُ صوت المياه ينساب عبر الأنابيب، وصوت صرير الخشب في مكانٍ ما، سمعتُ حتى سكون الجدران.

سرح ذهني في جولة خيالية. انسابت صور الماضي، ودارت، ثم تشقلبت مثل أجزاء متتالية في حلمٍ من أفلام **هوليوود**. رأيتُ كنـــزة **شانتال تروتييه** المزخرفة، كمـــا شـــاهدتُ بطن **موريسيت – شامبو** المشقوق. رأيتُ رأس **إيزابيل غاغنون** الـــذي أصابه التحلل، واليد المقطوعة، والنهد المقطوع والمحشور في شفتين اكتسبتا لون العظام البيضاء، وجثة القرد الهامدة، والتمثال الصغير، والغطّاس، والسكّين.

لم يكن الأمر بيدي. أنتجتُ فيلماً سينمائياً يدور حول الموت، وعذّبتني فكرة أنّ **غـــابي** قـــد انضمّت إلى قائمة شخصيات هذا الفيلم المرعب. استيقظتُ عندما بدأت الظلمة تتراجع أمام ضوء النهار، فأسرعتُ بارتداء ثيابي.

34

لم تكد الشمس تتسلق خط الأفق حتى اكتشفنا جثة **غابي**. انطلقت **مارغوت** مباشـــرة إلى الجـــثة، و لم تُظهر أي تردد عندما أُطلقت إلى داخل الأرض المسيجة بأخـــشاب **البلاي وود** (الخشب المعاكس). وقفت للحظة تشمّ، ثم أخذت تعدو عـــبر هذه الأرض المشجرة، بينما انعكست أضواء الفجر الزعفرانية كي تلوّن فراء **مارغوت**، وأضاءت الغبار الذي يحيط بقوائمها.

اختار المجرم أن يدفنها قرب أساسات بيت متداع. كان مكان دفنها ضحلاً، ومحفـــوراً على عجل، ومملوءاً بسرعة. بدا الأمرُ معتاداً هكذا، لكن القاتل أضاف لمـــسةً شخـــصيةً في هذه الحالة فأقدم، بأقصى قدرٍ من العناية، على وضع حجارة بيضاوية على حدود القبر.

رأيـــتُ جثتها ملقاةً في الأرض، وموضوعةً داخل كيس الجثث. أقفلنا المكان بالأعمدة الخشبية المخصصة لهذا الغرض، بالإضافة إلى الشريط الأصفر، لكن ذلك لم يكن ضرورياً.

وفّـــر الوقت المبكر من الصباح، والسياج الخشبي الذي يحيط بالأرض، حمايةً كافيةً. لم يتقدم أحد ليتفرّج علينا عندما استخرجنا الجثة ومضينا في تنفيذ خطواتنا البشعة المعتادة في مثل هذه الأحوال.

جلـــستُ في ســـيارة الدوريـــة، ورحتُ أرتشف القهوة الباردة من كوب بلاســـتيكي، بيـــنما راح جهـــاز الراديو يُصدر أصواته المعتادة. رأيتُ الأشخاص الموجودين من حولي ينشغلون بتحركاتهم. جئتُ لتأدية مهمتي، وكي أكون مهنية،

لكنني وجدتُ نفسي عاجزة عن القيام بواجباتي. يستطيع الآخرون تدبّر أمورهم. أعتقد أنّ عقلي سيتقبّل لاحقاً المعطيات التي يقوم برفضها الآن. وجدتُ نفسي مشلولة في الوقت الحاضر، وكذلك كان دماغي. لم أرغب برؤيتها في تلك الحفرة، وفي مشاهدة جثتها المنتفخة أثناء ظهورها بعد إزالة طبقات التراب والغبار عنها. تأكدتُ أكثر عندما رأيتُ القرطين الفضيين اللذين يمثلان **غانيش**. تذكّرتُ **غابي** عندما شرحت لي قصة ذلك الفيل الصغير الذي يمثّل صفات الود والسعادة، لا الألم والموت. أين أنت يا **غانيش**؟ لماذا لم تقدّم الحماية لصديقتك؟ ولماذا لم يحمِها أي صديقٍ من أصدقائها؟ يا للمعاناة التي يتوجّب عليّ طردها من تفكيري!

أنهيتُ لتوي إجراء كشفٍ حسيٍّ يهدف إلى تحديد هوية الضحية. تولى **رايان** الإشراف على مسرح الجريمة. راقبتُه عندما راح يتشاور مع **بيار جيلبير**. تحدث الرجلان لبرهةٍ من الزمن، عاد **رايان** بعدها ليسير باتجاهي. رفع ساقَي سرواله، وجلس القرفصاء قرب باب السيارة المفتوح، ثم وضع إحدى يديه على المقعد. وصلت الحرارة في هذا الوقت إلى سبع وعشرين درجة مئوية، رغم أنّ الصباح لم يتجاوز منتصفه بعد. ظهرت حبيبات العَرَق على شعره، وتحت إبطيه.

قال لي: "أنا آسف للغاية!"

أومأت.

"أعرف كم أنّ الأمر صعبٌ عليك".

لا. أنتَ لا تعرف. "ليست حالة الجثة بذلك السوء. دُهشتُ لذلك بالنظر إلى درجة الحرارة العالية".

"إننا لا نعلم كم من الوقت مضى على وجودها هنا".

"أجل".

اقترب مني، ووضع يده على يدي. تركت راحة يده أثراً صغيراً من العرق على قماش المقعد المصنوع من الفينيل.

"لم يكن هناك من شيء..."

"ألم تجدوا شيئاً؟"

"لم نجد الكثير".

"لم نعثــر علــى آثــار أقدام، ولا آثار إطارات. لم نجد شيئاً في هذا الحقل الدامي".

هزّ رأسه.

"ألم تجدوا شيئاً تحت الأحجار؟" أدركتُ أنه سؤال غبي، حتى وأنا أتلفظ به.

ركّز بصره على عينيّ.

"ألم تجدوا شيئاً أسفل الحفرة؟"

"وجــدنا شــيئاً واحداً فقط يا **تمب**. كان ملقى على صدرها". تردد لبرهةٍ قصيرة. "قفازاً طبياً".

"كــان ذلــك من سوء حظّه. لم يتعوّد ترك أي شيء وراءه. يُحتمل أن نجد بصمات في داخله". جهدتُ كي أسيطر على أعصابي. "هل من شيء آخر؟"

"لا أعــتقد أنهــا قُتلت هنا يا **تمب**. يُحتمل أنها نُقلت إلى هنا من مكانٍ آخر".

"وأين يقع هذا المكان؟"

"هــناك مطعم أُقفل منذ أعوام عديدة. تم بيعُ هذا العقار ثم هُدم المبنى. أفلس الشاري بعد ذلك. أُقفل المكان مدة ستة أعوام".

"ومن هو مالك المكان؟"

"أتريدين اسماً؟"

أجبتُ بسرعة: "أجل. أريد اسماً".

راح **رايان** يقلّب دفتر ملاحظاته: "إنه شخص يُدعى **بايلي**".

تمكــنتُ من رؤية مساعدَين يرفعان ما بقيَ من **غابي** على نقّالة، ويسرعان بها نحو عربة المحقق الجنائي.

آه يا **غابي!** كم أنا آسفة!

"هل أجلب لكِ شيئاً؟" بقيَت العينان الزرقاوان تتفحصان وجهي.

"ماذا؟"

"أتريدين أن تشربي أو تأكلي شيئاً؟ أو هل تفضّلين الذهاب إلى المنــزل؟"

أجل أريد هذا، شرط ألا أعود أبداً إلى هذا المكان.

"لا. أنا بخير".

لاحظـــتُ، للمرة الأولى يده التي وضعها فوق يدي. رأيتُ أصابعه النحيلة، لكن اليد بحد ذاتها كانت عريضة وقاسية. رأيتُ نصف دائرة تحيط بمفصل إبهامه.

"ألم تتعرض للتشويه؟"

"لا".

"لماذا الأحجار؟"

" لم أستطِع أبداً أن أفهم كيف يفكر هؤلاء المعتوهون".

"إن الأمـــر لـــيس بمزحة، أليس كذلك؟ أرادنا الرجل أن نجدها، وأرادنا أن نصرّح بشيء. لا أتوقع إيجاد أي بصمات داخل القفّاز".

لم يقل شيئاً.

"إنه أمر مختلف، أليس كذلك يا **رايان؟**"

"أجل".

بدأت الحرارة داخل السيارة تضايقني، وشعرتُ أنّ كمية من قَطْر السكر قد انسكبت على جلدي. نهضتُ، ثم رفعتُ شعري كي أشعر بالنسيم على رقبتي. لم أشـــعر بمـــرور النسيم. راقبتُ الرجال عندما انشغلوا بوضع الجثة في كيسها الذي رُبط بأشرطة خيش سوداء اللون، ثم وهم يضعونها داخل العربة. شعرتُ أنني سأبدأ بالنشيج، لكنني قاومتُ هذا الدافع.

"هل كان بإمكاني أن أنقذها يا **رايان؟**"

"وهـــل كـــان بإمكـــان أحدنا إنقاذها؟ لا أعرف". أخرج نَفَساً عميقاً من صدره، وراح يحدّق بالشمس. "ربما كان بإمكاننا فعل شيء ما قبل أسابيع عديدة، لكن ليس البارحة أو اليوم الذي سبقه". تلفّت إلى الوراء وثبّت نظره عليّ. "إنّ ما أعرفه هو أننا سنقبض على ذلك النذل. إنه رجل ميت بالنسبة لي".

لمحـــتُ **كلوديل** وهو يسير باتجاهنا حاملاً كيساً مخصصاً لجمع الأدلة. وعدتُ نفسي أنني سأقوم بمهاجمته إذا وجّه أي كلمة لي. وعزمت على ذلك حقاً.

تجنّب **كلوديل** النظر إلى عينيّ: "آسف جداً". تحوّل نحو **رايان**: "أوشكنا على الانتهاء من عملنا هنا".

رفع **رايان** حاجبيه. أشار **كلوديل** إليه برأسه إشارة تعني **هناك**.

تسارعت نبضات قلبي: "ماذا؟ ماذا وجدت؟" وضع يديه الاثنتين على كتفيّ.

نظرتُ إلى الكيس الذي يحمله **كلوديل** بيده. تمكّنتُ من رؤية قفازٍ طبي بلون أصفر يميل إلى الشحوب، ولاحظتُ وجود بقع بنية تلوّث الجهة الخارجية منه. برز شـــيء مـــسطح من حافته. كان شيئاً مستطيل الشكل ذا حوافٍ بيضاء اللون مع خلفـــية داكنة. تأكدتُ من أنها صورة، لكن يدَي **رايان** ضغطتا بقوة على كتفيّ. رميته بنظرة متسائلة، لكنني خشيتُ سلفاً من الإجابة.

"دعينا نؤجل هذا إلى وقت لاحق".

"دعني أراها". مددتُ يدين مرتعشتين.

تـــردّد **كلـــوديل** قليلاً، وقرّب الكيس نحوي. أمسكتُ بالكيس، ثم دفعت بإحدى أصابع القفاز من خلال البلاستيك، ونقرتُ بلطف حتى انـــزلقت الصورة أخيراً. أعدتُ تعديل وضعية الكيس، ثم حدّقتُ من خلال البلاستيك.

ظهـــر شخصان متعانقان في الصورة، وبدت قطرات المياه وهي تتساقط من شـــعرهما، بيـــنما بدت أمواج المحيط تتدحرج وراءهما. تملّكني الخوف. تسارعت أنفاسي. اهدئي يا **برينان**. ابقَيْ هادئة.

التُقطت الصورة في **ميرتل بيتش** في عام 1992. ظهرتُ أنا و**كاتي**. أقدم ذلك اللعين على دفن صورة ابنتي مع صديقتي القتيلة.

لم يـــتحدث أحدٌ منا. شاهدتُ **شاربونيو** يتقدم من موقع القبر. انضم الرجل إليـــنا، ونظـــر إلى **رايان** الذي أومأ نحوه. وقف الرجال الثلاثة بصمت. تحيّر كل واحد منا كيف يتصرّف، وماذا يقول. لم أعرف كيف أساعدهم. كسر **شاربونيو** نطاق الصمت.

"هيا بنا كي نمسك بهذا النذل".

قال **رايان**: "هل حصلتَ على مذكرة توقيف من المحكمة؟"

"ســـيلاقينا **برتران** إلى هنا. سطّروا المذكرة فور عثورنا على... الجثة". نظر إليَّ، ثم أشاح بنظره بعيداً على الفور.

"هل ما زال رجلنا هنا؟"

"لم يدخل أحد إلى هذا المكان أو يخرج منه منذ أن أغلقناه. لا أظن أنه يجدر بنا الانتظار".

"أجل".

التفت **رايان** نحوي: "شكّ القاضي **تيسييه** بوجود دافعٍ محتملٍ للقتل، وهكذا سطّر مذكرة التوقيف. سنقبض على ذلك الرجل الذي لاحقتِه ليلة الخميس. سوف أقلّك..."

"مستحيل يا **رايان**. إنني معكم".

"**بري**..."

"أذكّرك بأنني تعرفتُ للتو على أفضل صديقاتي. كانت تمسك بصورتي مع ابنتي. يُحتمل أن يكون هذا التافه هو الذي قتلها، أو أي معتوه آخر. سأعرف الحقيقة، وسأقوم بكل ما يسعني كي أدمّر هذا النذل. سألاحقه وأقبض عليه من دونك، ومن دون مساعدة رجالك المرحين". أخذتُ أطعن الهواء بإصبعي، وكأنه مكبسٌ يعمل على الطاقة المائية. "سأكون هناك! وبدءاً من هذه اللحظة!"

شعرتُ بالحرقة في عينيّ، وبدأ صدري يعلو ويهبط. لا تبكي. إياكِ أن تجرؤي على البكاء. أجبرتُ نفسي على إظهار بعض الهدوء رغم الهستيريا التي أشعر بها. لم ينبس أحدٌ منا بكلمة، ولمدة طويلة.

قال **كلوديل**: "هيا بنا".

35

ارتفعــت درجــة الحرارة، ونسبة الرطوبة، في المدينة إلى مستوىً كادت أن تــصبح معــه مديــنة خالية. لم يتحرك شيء فيها، لا الأشجار، ولا الطيور، ولا الحــشرات، ولا حتى البشر. شلّت الحرارة حركة الجميع، وفضّل معظمهم الابتعاد عن الأنظار.

انــشغل الجمــيع بالاحــتفال بذكرى **سان بابتيست**. خيّم سكون متوتر. وانتشرت في الأجواء رائحة العرق الممتزج بهواء التكييف. ملأ الخوف أعماقي، إذ تخلى **كلوديل** عن ثقته العالية بنفسه، وعلمتُ أنه سيلاقينا مع **شاربونيو** إلى هناك.

كانت حالة السير مختلفة هي الأخرى. وتعيّن علينا أثناء مرورنا **بشارع بيرغر** أن نــشق طــريقنا بصعوبة بين حشود الناس التي تحتفل بالذكرى. مررنا اليوم في شــوارع فارغــة، لذلك وصلنا إلى منــزل المشتبه به في أقل من عشرين دقيقة. تمكــنتُ من رؤية **برتران، وشاربونيو، وكلوديل**، وهم يستقلون سيارة خالية من أي علامــات، بينما كانت سيارة وحدة **برتران** مركونة في الخلف. شاهدتُ عربة مسرح الجريمة في نهاية **المجمّع**، ورأيتُ **جيلبير** وراء عجلة القيادة، بينما جلس أحد التقنيين في الجهة المقابلة.

خــرج رجال التحري الثلاثة من السيارة أثناء تقدّمنا باتجاههم. لاحظتُ أنّ حركة الشارع بقيت كما أتذكرها، مع أنه بدا أكثر اتساعاً، وأقل ترتيباً، في ضوء الــنهار عمــا كان عليه في عتمة الليل. أحسستُ أنّ قميصي قد التصقت بجلدي الدبِق.

سأل **رايان** أثناء إلقائه التحية على الرجال: "أين فريق المراقبة؟"

أجاب **شاربونيو**: "إنهم يجولون في الشارع الخلفي".

"هل يتواجد الرجل في الداخل؟"

"لم يلحظ الرجال أي تحرّك منذ أن وصلوا إلى هنا عند منتصف الليل تقريباً. يُحتمل أنه نائم في الداخل".

"هل يوجد في المبنى مدخلٌ خلفي؟"

أومأ **شاربونيو**: "أبقيناه تحت المراقبة طيلة الليل. وضعنا وحدات عند جهتَي **المجمّع السكني**، بالإضافة إلى واحدة في **المارتينيو**". حرّك إبهامه باتجاه الجهة المقابلة من الشارع. "إذا كان صاحبنا في الداخل فلن يستطيع الذهاب إلى أي مكان".

التفت **رايان** نحو **برتران**: "هل قرأتَ الصحيفة؟"

أومأ **برتران**: "يسكن في **سيغوين 1436**، شقة رقم 201. انظر إلى الأسفل". راح الرجل يشير بيده.

وقفنا للحظة، ورحنا نتأمل المبنى وكأننا نراقب خصماً لنا. تحضّرنا في نفس الوقت لعملية الاقتحام والقبض على المجرم. ظهر صبيّان من السود في البعيد، وتناهت إلى أسماعنا أصوات موسيقى الراب من جهاز ضخم للموسيقى. ارتدى الصبيّان سترتين كُتب عليهما **آير جوردانز**، وسروالين واسعين جداً. ارتديا كنزتين كُتبت عليهما شعارات العنف، بينما رُسمت جمجمة تحمل مقلَتَي عينين متحللتين. حملت الكنزة رسم ريبر، مع مظلة تُستخدم على الشواطئ. خُيّل إليّ أنني انظر إلى رسم **إجازة الموت**. لاحظتُ أنّ الصبي الأطول قد حلق رأسه، ولم يترك فيه سوى منطقة بيضاوية الشكل من الشعر. أما الصبيّ الآخر فترك جدائل شعره تتدلى على جانبَي وجهه.

رجعتُ بخيالي إلى جدائل **غابي**. شعرتُ بوخزةٍ من الألم تجتاح جسدي بكامله. أريد تأجيل هذه المشاعر إلى وقتٍ آخر، وليس الآن. لذا رجعتُ بتركيزي إلى اللحظة الراهنة.

راقبنا الصبيّيْن أثناء دخولهما مبنى مجاور، ولاحظتُ أنّ صوت موسيقى **الراب** قد توقف على نحوٍ مفاجئٍ فور انغلاق الباب وراءهما. نظر **رايان** في الاتجاهين، ثم عاد كي ينظر نحونا.

"هل نحن جاهزون؟"

قال **كلوديل**: "دعونا ننال من هذا السافل".

"أريـــدكَ يا **لوك** أن تغطي أنتَ و**ميشال** الجهة الخلفية من المبنى. اسحقاه إذا أطلق الرصاص عليكما".

حدّق **كلوديل** بنا، وتقدّم قليلاً وكأنه يريد أن يتكلم، لكنه اكتفى بهزّ رأسه، وزفــر بحـــدّة مـــن خلال أنفه. تحرّك هو و**شاربونيو**، لكنهما رجعا عند سماعهما صوت **رايان**.

أرســـل **رايان** نظرات حادة في اتجاههما: "سنقوم بعملنا حسب الأصول. لا أريد أي أخطاء".

عـــبر رجلا تحري **شرطة مونتريال** الشارع، واختفيا عبر المبنى ذي الأحجار الرمادية.

التفتَ **رايان** نحوي.

"هل أنتِ جاهزة؟"

أومأتُ.

"يُحتمل أن يكون هذا هو الرجل الذي نبحث عنه".

"أجل يا **رايان**. أعلم ذلك".

"هل أنتِ بخير؟"

"**رايان**. يا إلهي..."

"هيا بنا إذاً".

شـــعرتُ بـــشيء من الخوف يتزايد في صدري أثناء تسلقنا السلّم الحديدي. وجدنا الباب الخارجي مفتوحاً. دخلنا رواقاً صغيراً ذا أرضية مبلطة وداكنة. ملأت صناديق البريد الجدار على يميننا، بينما تكدست المنشورات على الأرض من تحتها. حاول **برتران** فتح الباب الداخلي. فوجده مفتوحاً هو الآخر.

قال **برتران**: "يا للإجراءات الأمنية العظيمة!"

عـــبرنا إلى ممـــر خافـــت الإضاءة وتخيّم عليه الحرارة ورائحة دهون الطبخ. شاهدتُ سجادة رثّة تصل إلى خلف المبنى، وتُكمل صعوداً حتى الدرج الموجود إلى الـــيمين. ثُبّـــتت هذه السجادة بأشرطةٍ معدنيةٍ رقيقةٍ كل تسعين سنتمتراً. وضع

أحـــدهم بـــساطاً فوقها. كان شفافاً في البداية إلا أنه أصبح معتماً الآن مع مرور الزمن، والأوساخ التي تراكمت فوقه.

تابعـــنا الصعود حتى الطابق الثاني. أحدثت أقدامنا أصوات قرقعة خافتة على أرضـــية الفينيل. كانت الشقة رقم 201 هي الأولى إلى يميننا. وقف **رايان وبرتران** قـــبالة بعضهما بعضاً على جانبَي الباب الخشبي، وأسندا ظهريهما إلى الجدار. فتح الرجلان سترتيهما، بينما وضعا يديهما على سلاحيهما.

أشار لي **رايان** بالوقوف إلى جانبه. حشرتُ نفسي إزاء الجدار، لكنني شعرتُ بالتـــصاق الطين الخشن للجدار بشعري. أخذتُ نَفَساً عميقاً اختلطت معه رائحة العفن والغبار. شممتُ رائحة عرق **رايان**.

أومـــأ رايان باتجاه **برتران**. شعرتُ بأن مستوى القلق عندي يتعاظم حتى كاد يخنقني.

دقّ **برتران** الباب.

لا جواب.

دقّ الباب ثانية.

لا جواب.

توتّر **رايان وبرتران**. شعرتُ بأنفاسي تتسارع.

"الشرطة. افتحوا الباب".

سمعنا باباً يُفتح بهدوء في مكان ما من الشقة. رأينا بعد ذلك عينين تبرزان من خلال شقٍ بمقدار ما تسمح به سلسلةُ الأمان.

دقّ **برتـــران** بقوة أكبر، وتردّدت في المكان خمس دقات حادة كسرت نطاق الصمت المخيّم على المكان. استمرّ الصمت.

ماذا بعد؟ السيد تانغواي ليس هنا.

تحـــركّت رؤوسنا نحو مصدر الصوت. كان الصوت الذي تناهى إلى أسماعنا من الرواق ناعماً وحاداً.

أومـــأ **رايـــان** باتجاه **برتران** بما معناه **ابقَ مكانك**. تحركنا، لكن العينين بقيتا تراقبان فيما تضخّمت الحدقتان من وراء نظارة سميكة. لم ترتفع هاتان العينان أكثر من مئة وعشرين سنتمتراً عن الأرض، ثم ازداد ارتفاعهما مع اقترابنا منهما.

تنقّلت العينان ما بين **رايان** وبيني ثم بالعكس، على أمل إيجاد مكانٍ تستقران عليه. جلس **رايان** القرفصاء كي يستطيع النظر إليهما على المستوى ذاته.

قال رايان: "بونجور".

"مرحباً".

"كيف حالك؟"

"أنا بخير".

انتظر ذلك الطفل، لكنني لم أتمكن من التأكد ما إذا كان صبياً أم بنتاً.

"هل أمّك موجودة في المنـــزل؟"

هزّ الولد رأسه.

"ووالدك؟"

"لا".

"هل يوجد أحد في المنـــزل؟"

"ومن أنت؟"

حسناً فعلتَ أيها الصبي. لا تُخبر الغرباء أي شيء.

"نحن من الشرطة". أبرز **رايان** شارته. توسعّت العينان أكثر.

"هل أستطيع أن أمسكها؟"

مـــرّر **رايـــان** الشارة من خلال فتحة الباب. تفحصها الطفل بهدوء، ثم أرجعها.

"هل تبحثون عن المسيو **تانغواي**؟"

"أجل، إننا نبحث عنه".

"لماذا؟"

"نريد أن نطرح عليه بعض الأسئلة. هل تعرف **المسيو تانغواي**؟"

أومأ الطفل، لكنه لم يقل شيئاً.

"ما اسمك؟"

"**ماثيو**". تأكد من أنه صبي.

"متى ستعود والدتك إلى المنـــزل يا **ماثيو**؟"

"إنني أعيش مع جدتي".

غيّـــر **رايـــان** من وضعية وقوفه، فسمعنا صوتاً مدوياً لمفصل. صدم الأرض بـــركبته، بينما أسند مرفقه على الركبة الأخرى، وأسند ذقنه على مفاصل أصابع يديه، ثم نظر باتجاه **ماثيو**.

"كم عمرك يا **ماثيو**؟"

"ستة أعوام".

"منذ متى وأنتَ تعيش هنا؟"

بـــدا الصبي مندهشاً، وكأن الاحتمالات الأخرى غير واردة بالنسبة إليه على الإطلاق.

"عشت هنا على الدوام".

"هل تعرف المسيو تانغواي؟"

أومأ ماثيو.

"منذ متى وهو يعيش هنا؟"

هزّ كتفيه.

"متى ستعود جدتك إلى المنـــزل".

"تقـــوم جدتي بتنظيف منازل الناس". صمتَ قليلاً. "السبت". أغمض ماثيو عينـــيه قليلاً، وعضّ شفته السفلى. "دقيقة واحدة من فضلكم". اختفى الطفل في الشقة، ثم عاود الظهور في أقل من دقيقة. "الثالثة والنصف".

"تكلّم". قال **رايان** وهو ينهض من وضعية القرفصاء. وجّه كلامه إليّ، وبدا صـــوته متوتراً، وأعلى بقليل من الهمس. "قد يكون ذلك النذل هناك، لكن لدينا طفل متروكٌ وحده هنا".

ظـــل **ماثـــيو** يراقبنا، فبدا مثل هرّة برية تراقب فأرة محاصرة، لكن عينيه بقيتا مركّزتين على وجه **رايان**.

"المسيو تانغواي ليس هنا".

جلس **رايان** القرفصاء ثانية: "هل أنت متأكد؟"

"لقد رحل".

"إلى أين؟"

هزّ الطفل كتفيه ثانيةً، ومدّ إصبعاً سمينة كي يدفع نظارته فوق أنفه.

"كيف علمتَ أنه رحل؟"

"أنـــا أعتني بأسماكه في غيابه". أضاءت وجهه ابتسامة عريضة. "يمتلك الرجل أسماكاً استوائية ملونة، وأسماكاً **ملائكيةً**، وأسماك **الغيوم البيضاء**". استخدم الصبي أسماءً إنكليزيةً. "إنها رائعة!" ***رائعة!*** يا للكلمة النموذجية. لا ترقى الكلمة الإنكليزية المرادفة لها إلى مستوى قوتها.

"متى سيعود المسيو تانغواي؟"

هزّ كتفيه مجدداً.

سألته: "هل دوّنت الجدة موعد عودتها على الروزنامة؟"

راح الطفل يتفحصني مندهشاً، ثم اختفى كما فعل سابقاً.

نظر **رايان** إلى الأعلى وسألني: "أي روزنامة؟"

"لا بـــد أنّ لديهم واحدة. ذهب الطفل كي يتأكد من أمرٍ ما، لأنه لا يعرف موعد عودة جدته إلى المنـــزل هذا اليوم".

عاد **ماثيو** ليقول: "لا".

وقف **رايان**: "والآن ماذا نفعل؟"

"إذا كان محقاً فسوف نحاصر المكان. حصلنا على الاسم، لذلك سنقبض على **المـــسيو تانغـــواي**. يُحتمل أن تعرف الجدة المكان الذي توجّه إليه، وإذا لم تكن تعرف فسنقبض عليه ما إن يأتي إلى هنا".

تطلع **رايان** باتجاه **برتران**، ثم أشار إلى الباب.

دقّ **برتران** خمس مرات إضافية.

لا جواب.

سأل **برتران**: "هل نكسره؟"

"لن يوافق المسيو **تانغواي** على خلع الباب".

نظرنا جميعاً إلى الصبي.

انحنى **رايان** للمرة الثالثة.

قال **ماثيو**: "سيجنّ جنونه إذا فعلتم أمراً سيئاً مثل هذا".

شرح **رايان** الأمر للصبي: "يتعيّن علينا أن نبحث عن شيء ما في شقة **المسيو تانغواي**".

جلستُ القرفصاء بالقرب من **رايان.**

"**ماثيو**، هل تتواجد أسماك **المسيو تانغواي** في شقتكم؟"

هزّ رأسه.

"هل لديكَ مفتاح لشقة المسيو **تانغواي؟**"

أومأ ماثيو.

"هل ستسمح لنا بدخول الشقة؟"

"لا".

"ولمَ لا؟"

"لا أستطيع الخروج في غياب جدتي".

"حسناً يا **ماثيو**. تريدك جدتك أن تبقى في الداخل لأنها تعتقد أنك ستكون بأمان أكثر هكذا. إنها على حق، وأنتَ ولد مطيع تسمع كلامها".

اتسعت ضحكة الصبي مجدداً.

"هل ستسمح لنا باستخدام المفتاح يا **ماثيو**، ولو لدقائق قليلة؟ تريد الشرطة التحقق من أمرٍ مهم، كما أنك على حق في عدم سماحك لنا بخلع الباب".

قال الصبي: "أعتقد أنني سأسمح لكم لأنكم من الشرطة".

ابتعد **ماثيو** عن أنظارنا، ثم رجع والمفتاح في يده. زمّ شفتيه ونظر إليّ مباشرة عندما أمسك بالمفتاح من خلال شقّ الباب.

"لا تخلعوا باب **المسيو تانغواي**".

"سنكون حريصين جداً".

"لا تدخلوا إلى المطبخ، لأن ذلك سيكون أمراً سيئاً. لا تستطيعون دخول المطبخ".

"أقفِل الباب وابقَ في الداخل يا **ماثيو**. سأدق على الباب بعد أن ننتهي من عملنا. لا تفتح الباب قبل أن نقرعه".

أومأ ذلك الوجه الصغير بهدوء، ثم اختفى وراء الباب. مرّت فترة صمت متوترة، أومأ **رايان** بعدها، بينما انصرفتُ إلى إدخال المفتاح في القفل.

فتحنا الباب لنجد أمامنا مباشرة غرفة معيشة صغيرة تقترب ألوان أثاثها من الأرجواني. امتدت الرفوف على الجانبين، ومن الأرض حتى السقف. لاحظتُ أنّ

الجـــدران الأخرى مصنوعة من الخشب، في حين أصبحت أسطحها داكنة نتيجة تلميعها مرةً بعد مرة عبر الأعوام. تدلت الستائر المخملية الحمراء المجعدة، والأقمشة المخـــرمة والـــشاحبة، فوق النوافذ، ولذلك لم يرشح منها سوى القليل من ضوء الشمس. وقفنا جامدين تماماً، ورحنا نصغي وننظر في أرجاء الغرفة غير المضاءة.

كـــان الـــصوت الوحيد الذي سمعته طنيناً خافتاً ومتوتراً مثل تيار كهربائي يتجاوز دارة كهربائية مقطوعة.

بزت. بززززت. بزت. بزت. أتى هذا الصوت من وراء أبوابٍ مزدوجةٍ إلى يسارنا. كان المكان هادئاً بصورةٍ **مميتة** ما عدا هذا الصوت.

يا للاستعمال غير الموفق لهذه الصفة يا **بريتان.**

نظرتُ من حولي، فظهرت لي أشكال الأثاث وسط هذه الظلال. بدت قديمة ومـــستهلكة. احـــتلّت طاولة خشبية منحوتة وسط الغرفة، واصطفّت من حولها كراسٍ مناسبةً لها. تصدّرت الغرفة أريكة مستهلكة مغطاة ببطانية مكسيكية. رأيتُ في الجهـــة المقابلـــة للأريكـــة صـــندوقاً خشبياً وُضع فوقه جهاز تلفزيون **سوني ترينيترون.**

تناثرت الطاولات والخزائن الخشبية الصغيرة في الغرفة. لاحظتُ أنّ بعض قطع الأثـــاث هـــذه كانـــت في غاية الروعة، ولا تختلف كثيراً عن تلك التي أجدها في أســـواق التحف القديمة **(البرغوت).** شككتُ أن تكون هذه القطع مشتراة بسعر مناســـب بهدف تنظيفها والعناية بها في ما بعد. بدت هذه القطع وكأنها بقيت في مكانهـــا مـــنذ أعـــوام عديدة، وظهر الإهمال وعدم الاكتراث عليها رغم تعاقب المستأجرين على الشقة.

لاحظتُ أنّ الأرض مغطاة بسجادة قطنية قديمة. رأينا أصص النبات تنتشر في كـــل مكـــان. أخذت هذه النباتات مكانها في الزوايا، وامتدّت مع ألواح الأرضية الخـــشبية، وتـــدلى بعضها من الجدران. حرص شاغل هذه الشقة على تعويض ما ينقـــصه مـــن قطع الأثاث بالنباتات الخضراء. تدلّت هذه النباتات من على رفوف الجـــدران، بيـــنما وُضـــع بعـــضها الآخر على حواف النوافذ السفلى، وأسطح الطاولات، وعلى الرفوف الجانبية، ورفوف الجدران.

قال **برتران:** "يبدو هذا المكان اللعين مثل حديقة نباتية".

أكملـــتُ عنه في سرّي **ومليئة بالروائح**. ملأت الهواء رائحة عفنة هي مزيج من رائحة الفطر وأوراق الأشجار، والتراب الرطب.

لاحظنا بعد المدخل الرئيسي مباشرة وجود قاعة صغيرة، وباب موصد. أشار **رايان** نحوي بالتراجع بالطريقة ذاتها التي استخدمها في القاعة، ثم انــزلق مع الجدار بعد أن أحنى كتفيه قليلاً، وأحنى ركبتيه، أما ظهره فكان يضغط على الجص. تحرّك **رايان** نحو الباب ببطء، وتوقف قليلاً، ثم ركل الباب الخشبي بشدة.

تــراجع الــباب من مكانه، وصدم الجدار، ثم ارتدّ نحو إطاره الخشبي ليستقر أخيراً نصف مفتوحٍ. أصغيت السمع لعلّي أنتبه إلى حدوث أي حركة، وتسارعت نبــضات قلبي، وتناغمت مع الطنين المتوتر الذي سبق لي أن سمعته. **بززززززت. بزت. بزت. بززززت. دا دوم دوم دوم. دا دوم دوم**.

تسرّب وهج مخيف من وراء الباب نصف المفتوح، وترافق الوهج مع صوت غرغرة هادئة.

تحرّك **رايان** من خلال الباب قائلاً: "وجدنا الأسماك".

اســتخدم **رايــان** قلمــه كي يضغط على مفتاح كهربائي فامتلأت الغرفة بالأنــوار. بــدت غرفة نوم نموذجية: سرير مفرد، وغطاء سرير بزخارف هندية، وطاولــة صــغيرة، ومصباح، ومنبّه، وبخّاخ للأنف، وخزانة من دون مرآة، وحمّام صغير في طرف الغرفة، وشبّاك واحد. لاحظت وجود جدار حجري تغطيه ستائر ثقيلة.

بقــيت الأحواض التي اصطفّت على طول الجدار الخلفي هي الأشياء الوحيدة الــتي يُمكنــنا اعتــبارها غير مألوفة في الغرفة. كان **ماثيو** على حق، إنها **رائعة**. تــراوحت ألــوانها مــا بين اللونين الأزرق الفاتح، والأصفر الفاتح، بالإضافة إلى الأشــرطة الــسوداء والبيــضاء الــتي تتدافع صعوداً وهبوطاً من المرجان الأبيض والزهــري، وكــل التــنويعات المختلفة من الظلال الخضراء التي يُمكن للمرء أن يتخــيلها. كــان كل نظامٍ بيئي صغير من هذه الأنظمة مضاءً بالأنوار الفيروزية، ترافقه أصوات مقطوعة من الأوكسجين المنحدر.

راقــبتُ مــشدوهةً، وشــعرتُ بفكرة على وشك التكوّن في ذهني. رحتُ أستعرضها، لكن ماذا بقيَ منها؟ ها هي الأسماكُ أمامي. ماذا بشأنها؟ لا شيء.

تحـــرّك **رايـــان** من حولي، واستخدم قلمه كي يجر ستارة الحّمام إلى الخلف، وكـــذلك فـــتح خـــزانة الأدويـــة، ثم راح يتفحص علب الطعام والشباك المحيطة بالأحـــواض. استخدم منديلاً كي يفتح خزانة الأدراج، ثم عاد كي يستخدم القلم من أجل تقليب الثياب الداخلية، والجوارب، والقمصان، والكنـــزات.

انـــسَيْ كـــل شيء يتعلّق بالأسماك يا **بريتان**. كانت الفكرة التي مرّت بذهني قـــصيرة الأجـــل، مثلما هي الفقاعات التي تتكوّن في الأحواض، والتي تتصاعد إلى السطح حيث تختفي.

"هل وجدتَ شيئاً؟"

هـــزّ رأسه بالنفي. "لم أجد أي شيء واضح. لا أرغب في إفساد عمل فريق استعادة الأدلة، لذلك أجريت مسحاً سريعاً. أريد إغلاق بقية الغرف قبل أن أعهد بهـــا إلى **جيلبير**. يتضح من هذا أن **تانغواي** موجودٌ في مكان آخر. سنقبض عليه، لكن بإمكاننا أن نعرف ماذا يمتلك الرجل ما دمنا هنا".

انشغل **برتران** في تفحص جهاز التلفزيون الموجود في غرفة المعيشة.

علّق قائلاً: "إنه جهاز حديث ومتطور. يبدو أنّ الرجل يحب جهازه".

توتر جسد **رايان** وراح يتفحص الوهج المحيط بنا، ثم قال بشرود: "يُحتمل أن يكون بحاجة إلى تصليح **كوستو** روتيني".

لم نفاجـــأ بأحد هذا اليوم. تحوّلتُ بنظري إلى الرفوف التي تحمل الكتب. لفـــت نظري التنوع المدهش لمواضيع الكتب التي بدت جديدة، أي مثلما هو جهاز التلفزيون. رحت أتفحص عناوين الكتب التي تضمنت حقولاً مثل: علم البيـــئة، علم **الأسماك**، علم الطيور، علم النفس، الجنس. اشتملت الكتب على عـــناوين علمية، لكن ذوق الرجل كان انتقائياً: البوذية، العلموية، الآثار، الفن **المـــاوري**، نحـــت الأخـــشاب عـــند شعب **كواكيوتل** (الذي عاش في جزيرة فانكوفـــر)، محاربـــو **الساموراي**، وتذكارات من الحرب العالمية الثانية، وأكلة لحوم البشر.

احـــتوت الرفوف على مئات الكتب ذات الغلافات الورقية، والتي تضمنت الـــروايات الحديثة باللغتين الفرنسية والإنكليزية. لاحظتُ وجود بعض الكتب التي تهمـــني، مثل مؤلفات **فونغوت**، **إيرفينغ**، **ماك مورتري**. كانت غالبية الكتب من

الـــروايات الخيالية، التي تتحدث عن المجرمين المتوحشين، والشاذين الذين يطاردون ضـــحاياهم. شعرتُ أنه باستطاعتي اقتباس تعريفات هذه الكتب من دون قراءتها. لاحظـــتُ أيضاً وجود رفّ بأكمله من الكتب غير القصصية التي تروي سيَر حياة القـــتلة التسلـــسليين والمغـــالين في إجرامهم. تضمنت هذه الكتب سيَر **مانسون، بوندي، راميريز، وبودن.**

قلتُ: "أعتقد أنّ **تانغواي وسان جاك** ينتميان إلى نادي الكتاب ذاته".

علّق **برتران:** "يُحتمل أن يكون هذا النذل هو **سان جاك**".

ردّ **رايان:** "كلا، لأن هذا الرجل يقوم بتنظيف أسنانه".

"أجل، لكن عندما يكون في شخصية **تانغواي**".

قلتُ: "إذا كان الرجل يقرأ كل هذه الكتب فلا بد أن تكون اهتماماته منوعةً جداً. يجيد الرجل اللغتين معاً". نظرتُ إلى مجموعة الكتب مجدداً. "كما أنه مهووسٌ نفسياً".

سأل **برتران:** "وماذا لديكِ الآن يا دكتورة **روث؟**"

"انظروا إلى هذه".

انضمّا إليّ فتابعت:

"تم ترتيب الكتب بحسب المواضيع، وبحسب الأحرف الأبجدية".

أشـــرتُ نحـــو عدة رفوف. "وكذلك بحسب أسماء المؤلفين المرتبة بالأحرف الأبجدية ضمن كل فئة، وبحسب عام النشر لكل مؤلف".

"ألا يفعل الجميع ذلك؟"

نظرتُ أنا و**رايان** إليه. لم يكن **برتران** من النوع الذي يقرأ كثيراً.

"انظروا كيف أنّ كل كتاب يتسق مع حافة الرفّ تماماً".

قـــال **رايان:** "إنه يفعل الشيء ذاته مع سراويله القصيرة وجواربه. لا بد أنه يستخدم زاوية مربع لترتيبها".

عبّر **رايان** عما فكّرتُ به تماماً.

"يتطابق هذا مع طريقة حياته".

قال **برتران:** "يُحتمل أنه يحتفظ بالكتب لمجرد العرض. يرغب الرجل أن يحمل أصدقاءه على الاعتقاد بأنه مثقف".

قلتُ: "لا أعتقد ذلك، لأنني لم ألحظ غباراً على الكتب. انظروا أيضاً إلى تلك الأوراق الصفراء الصغيرة. لا يكتفي الرجل بقراءة محتوى الكتب، لكنه يدوّن أموراً محـددة كـي يعـود إليها لاحقاً. دعونا نطلب من **جيلبير** ورجاله أن لا يضيّعوا علامات الأوراق هذه. يُحتمل أن تكون مفيدة لنا".

"سأطلب منهم تغطية الكتب قبل أن يعلوها الغبار".

"هناك أمرٌ آخر يلفت الانتباه عند **مسيو تانغواي**".

نظر الجميع إلى الرفوف.

قال **برتران**: "إنه يقرأ بعض التفاهات الغريبة".

سألتُ: "ما هي المواضيع التي تثير اهتمامه عدا عن **قصص الجريمة**؟ انظروا إلى الرفّ الأعلى".

نظروا مجددوا إلى الرفوف.

قال رايان: "اللعنة! ها هي كتب التشريح، **غراي**. **دليل كانينغهام للتشريح العملـي**. **الأطلس الملوّن للتشريح البشري**. **دليل التشريح**. **الرسوم الإيضاحية الطبّـية للجسم البشري**. يا إلهي! انظروا إلى هذا. **مبادئ سابستون في الجراحة**. يمـتلك الرجل كتباً في هذه المواضيع أكثر مما تملكه مكتبة معهد طبي. يبدو الرجل مصمماً على معرفة كل شيء داخل الجسم البشري".

"أجـل، إنه يريد أن يعرف أموراً أكثر بكثير من **الأنظمة**. يريد الرجل معرفة الأجهزة والأعضاء الداخلية".

تـناول **رايان** جهاز اتصاله: "أريد أن يحضر **جيلبير** ورجاله إلى هنا. سأطلب من الفرَق الموجودة في الخارج أن يجولوا ويراقبوا **الدكتور برك**. لا أرغب في إخافته عندما يعاود الظهور في هذا المكان. يا إلهي! أخشى أن يكون **كلوديل** قد أفزعه".

تحدّث **رايان** في جهازه، بينما تابع **برتران** تفحص عناوين الكتب ورائي.

بزت. بززززززت. بززت. بزت.

"إنـه نوع كتبكِ المفضّل". استخدم منديلاً كي يسحب شيئاً ما. "يبدو أنه الوحيد هنا".

وضـع نـسخةً مـن ***الأنثروبولوجي الأميريكي*** على الطاولة. لاحظتُ أنّ الكتاب صدر في تموز من العام 1993. لم أشعر بحاجةٍ إلى فتحه. أعرف عنوان أحد

الفصول في جدول المحتويات. أطلقت عليه المؤلفة صفة **كتاب مهم من أجل الترويج لبلوغ الأستاذية الكاملة.**

إنها مقالة **غابي**. صعقني منظر كتاب ***الأنثروبولوجي الأميركي***. شعرتُ فجأة بالرغبة في الخروج من هذا المكان. أردتُ الذهاب كي أمضي يوم سبتٍ مشمسٍ حيث أكون بأمان، حيث لا يموت أحد، وحيث تستطيع صديقتي دعوتي إلى الغداء.

المياه. اسكبي بعض المياه الباردة على وجهك يا **برينان.**

أسرعتُ نحو الأبواب المزدوجة، ودفعتُ أحدها بقدمي، ورحت أبحث عن المطبخ.

بززززت. بززززت. بزت. بززززززت. بزت.

لم تكن هناك نافذة في الغرفة. ومضت ساعة رقمية موجودة إلى يميني بألوان برتقالية. استطعتُ أن أرى شكلين أبيضين، وكذلك رأيتُ شيئاً شاحباً على مستوى الخصر. افترضتُ أنني رأيتُ ثلاجة، وموقداً، وحوض غسل أطباق. بحثتُ عن مفتاحٍ كهربائيٍّ وسط هذه العتمة. فلتذهب التعليمات القانونية إلى الجحيم، ولا بأس إذا ما وجدوا بصماتي في هذا المكان.

وضعتُ ظاهر يدي على فمي، وسرتُ متعثرة باتجاه الحوض حيث رششتُ بعض المياه على وجهي. رأيتُ **رايان** واقفاً عند الباب.

"أنا بخير".

اندفع بعض الذّباب وحام في الغرفة بعدما أزعجه هذا التدخل الذي لم تتوقعه.

بززت. بزت. بزززت.

"أتريدين نعناعاً؟" قدّم إليّ لفةً من **لايف سايفر**.

تناولتُ واحدة: "يا للحرارة الشديدة!"

"كأننا في إناء طبخ".

تقلّبت ذبابة على خدّه: "اللعنة..." دفع يده في الهواء. "ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟"

رأيتُ تلك الأشياء أنا **ورايان** في الوقت ذاته. استلقى شيئان على طاولة الطبخ، ظهرت بقع الدهن على المناديل الورقية التي وضعت لتجفيفها. تراقص

الذباب حول هذين الشيئين، وحطّ ثم طار بعصبية مرات عديدة. رأيتُ قفازاً طبياً إلى اليسار، وهو الجزء الآخر من القفّاز الذي عثرنا عليه قبل قليل. تقّدمنا قليلاً، وهو الأمر الذي أثار الذبابات ودفعها للطيران بعصبية.

نظرتُ إلى هاتين الكتلتين المنكمشتين، ثم أخذني تفكيري إلى الصراصير والعناكب التي شاهدتها في زاوية محل الحلاق. لاحظتُ أرجلها الجافة وعصبيتها بسبب ضيق مكان تواجدها. لاحظتُ، مع ذلك، أنه لا علاقة لهذين الشيئين بثمانيات الأرجل. عرفتُ طبيعتهما على الفور، مع أنني رأيتُ بقية الأشياء في الصور.

"إنها مخالب".

"ماذا؟"

"إنها مخالب تعود لنوعٍ معيّنٍ من الحيوانات".

"هل أنت متأكدة؟"

"يمكنك أن تقلب إحداها".

فعل ذلك مستخدماً قلمه.

"يمكنك أن ترى هناك نهايات عظام الأطراف السفلية".

"وماذا يفعل بها؟"

أخذني تفكيري إلى **إلسا**: "وكيف لي أن أعرف بحق الجحيم، يا **رايان؟**"

"يا إلهي".

"يتعيّن علينا أن نفتش في الثلاجة".

"أوه. يا إلهي".

وجدنا الجثة الصغيرة هناك مسلوخةً وملفوفةً بقطع النايلون الشفاف. رأينا أشياء أخرى أيضاً.

"ما هذه؟"

"كأنها من أنواع الثدييات. لا أستطيع الجزم من دون رؤية جلودها، لكنني أستطيع القول إنها ليست جياداً".

"شكراً يا **برينان**".

انضمّ **برتران** إلينا: "ماذا لديكما؟"

كـــان صـــوت **رايان** مليئاً بالانـــزعاج عندما أجاب: "لدينا حيوانات ميتة، وقفاز آخر".

قال **برتران**: "لعل الرجل يأكل الحيوانات التي تُقتل على الطرقات".

"يُحتمل ذلك. ويُحتمل أيضاً أنه يصنع مظلّلات للمصابيح من جلود الناس. هـــذا يكفـــي. أريـــد إقفال هذا المكان. أريد مصادرة كل شيء هنا. ضعوا كل السكاكين، وذلك الخلاّط، وكل شيء موجود في تلك الثلاجة اللعينة، في أكياس. أريـــد أيضاً قشط كل هذه المجموعة، وأن يُغسّل المكان ببلورات **الليومينول**. أين **جيلبير** بحق الجحيم؟"

تحرّك **رايان** باتجاه هاتف معلّق على الجدار إلى يسار الباب.

"توقف قليلاً. هل يوجد في هذا الهاتف زر إعادة طلب الرقم؟"

أومأ رايان.

"اضغط عليه إذاً".

"لعله اتصل برجل الدين، أو بجدته".

ضغط **رايان** على الزر. استمعنا إلى نغمة من سبعة مقاطع تبعتها أربع رنّات. أجـــاب صـــوتٌ، وعـــندها تصاعدت فقاعة الخوف، التي حبستُها طيلة النهار في أعماقي، إلى رأسي، وشعرتُ أنني سأصاب بالإغماء.

"اترك اسمك ورقمك من فضلك. سأتصل بك في أقرب وقتٍ ممكنٍ. شكراً. أنا **تمب**".

36

أصـــابتني الـــصدمة عند سماع صوتي. شعرتُ وكأنني تلقيتُ ضربةً على رأســـي. أحســـستُ أنني لن أقوى على الوقوف، بينما تسارعت أنفاسي حتى بدأتُ ألهث.

ســـاعدني **رايان** في الوصول إلى كرسي، وأحضر لي كوباً من المياه، لكنه لم يطـــرح أي أسئلة. لا أذكر كم من الوقت جلستُ هناك، وأنا لا أشعر بشيء غير الفراغ. في النهاية، بدأتُ أستعيد رباطة جأشي فتمكنتُ من تقييم الواقع.

اتصل ذلك النذل بي. لماذا؟ ومتى؟

شاهدتُ **جيلبير** وهو يرتدي قفازين مطاطيين، ويمد يده إلى داخل المجموعة. تناول شيئاً وألقاه في حوض غسل الأطباق.

هل كان يحاول الاتصال بي؟ أو **بغابي**؟ ماذا كان يريد أن يقول؟ هل أراد أن يتكلم، أم أنه أراد أن يعرف إذا كنت موجودة في المنـــزل؟

تنقّل أحد المصورين من غرفةٍ إلى غرفةٍ، وومض الفلاش مثل اليراعات المتنقلة في هذه الشقة الكئيبة.

تذكرتُ تلك الاتصالات المقطوعة. هل جاءت منه؟

أقـــدم أحـــد التقنيين، الذي ارتدى قفازين مطاطيين ورداءً واقياً، على وضع الكتب في أكياسٍ بلاستيكية، وأحكم ربطها بأشرطة لاصقة باعتبارها أكياس أدلة، وعلّـــم كل حزمةٍ منها، ثمّ وقّع فوق الختم. وعمد أحد رفاقه من التقنيين إلى رشّ بـــودرة بيـــضاءٍ فوق الطلاء المصقول باللون الأحمر الداكن للرفوف. انهمك تقنيّ

ثالـــث في إفراغ الثلاجة من محتوياتها، ووضع الرزَم داخل مغلفات سمراء عادية، ثم نقلها إلى جهاز تبريد خاص.

هل ماتت هنا، وبالتالي كانت هذه المناظر التي أراها الآن هي آخر المناظر التي رأتها؟

تحـــدّث رايان مع **شاربونيو**. تناهى إليَّ جزءٌ من الحديث عبر هذا الجو الخانق بحرارته. أين هو **كلوديل**؟ ماذا يفعل الآن؟ هل يقوم باستجواب القيّم على المبنى؟ وهـــل يقـــوم بإلقاء نظرة على الطابق السفلي، ومناطق التخزين؟ هل حصل على المفاتـــيح؟ علمتُ أنّ **شاربونيو** قد غادر، ثمّ عاد بعد قليل برفقة امرأة في منتصف العمـــر تـــرتدي رداء عمل منـــزلياً وتنتعل خفاً. اختفيا مجدداً برفقة الرجل الذي وضّب الكتب.

عـــرض علـــيّ **رايـــان** أكثـــر مـــن مرة أن يأخذني إلى المنـــزل. قال لي، بلطـــف، إنـــه لا يمكـــنني فعـــل أي شيء هنا. أدركتُ ذلك، لكنني لم أستطِع المغادرة.

وصـــلت الجدة عند الرابعة تقريباً. لم تكن عدائية ولا متعاونة في الوقت ذاته. أعطتنا وصفاً **لتانغواي**، وإن كانت قد ترددت في البداية. قالت إنه ذكرٌ، وهـــادئ، وشعره بنيّ اللون، وهو نحيل البنية، يميل إلى الوسطية في كل شيء. يتطابق هذا الوصف مع نصف الرجال الذين يعيشون في أميركا الشمالية. قالت إنها لا تعرف المكان الذي يتواجد فيه الآن، ولا الوقت الذي غادر فيه. أضافت أنه غاب من قبل، لكنه لم يمكث طويلاً. قالت إنها لاحظت غيابه لأن **تانغواي** طلـــب من **ماثيو** أن يُطعم أسماكه. أبلغتنا أنه كان لطيفاً مع **ماثيو**، واعتاد أن يعطيه المال لقاء اعتنائه بأسماكه. قالت إنها لا تعرف أموراً عنه أكثر مما أخبرتنا به، وإنها نادراً ما تراه. أطلعتنا على ظنونها بأنه كان يعمل، وأنه يمتلك سيارة، وإن كانت غير متأكدة. أضافت أنها لا تكترث بشأنه، ولا تريد أن تعرف عنه أي شيء.

أمـــضى فريق استعادة الأدلة المساء بطوله وبعض الليل، في تفتيش الشقة. لم أبـــقَ معهم، لأنني شعرتُ بالحاجة إلى مغادرة الشقة بحلول الساعة الخامسة، عندها قبلتُ عرض **رايان** بالمغادرة.

تكلمـــنا قليلاً في السيارة. كرّر **رايان** أمامي ما سبق أن قاله لي على الهاتف. يتعيّن عليّ البقاء في المنـــزل، وستتولى وحدة من الشرطة حراسة بنايتي على مدار الـــساعة. شدّد عليَّ أن أمتنع عن القيام بأي مغامرات في أوقاتٍ متأخرةٍ من الليل، وعن القيام بمهمات بمفردي.

أحســـستُ أنّ صـــوتي قـــد وشى بمدى ضعفي العاطفي عندما قلتُ له: "لا أضمن لك ذلك".

أمـــضينا بقية الوقت في السيارة وسط صمت ثقيل. وعندما وصلنا إلى المبنى الـــذي أسكنه، أدخل رايان السيارة إلى المرآب ثم التفتَ نحوي. أحسستُ بنظرات عينيه على وجهي.

"اسمعي يا **برينان**. لن أحاول أن أصعّب الأمور عليك. أؤكد لك أننا سنقبض علـــى هـــذا التافه. تستطيعين الاعتماد على قولي هذا، وكل ما في الأمر هو أنني أريدك أن تعيشي لترَي هذا بنفسك".

تأثرتُ لاهتمامه بي بصورة أكبر بكثير من التي أظهرتُها.

أُقفلت كل المعابر، وأُرسلت النشرات إلى كل شرطيّ في **كيبيك**، وإلى شرطة **أونـــتاريو** الإقليمـــية، وإلى **ســـلاح الفرسان الملكي الكندي**، وإلى شرطة ولاية **نـــيويورك** وولاية **وفيرمونت**، غير أنّ حدود **كيبيك** كانت دائماً سهلة العبور. إذ تـــتواجد أمـــاكن كـــثيرة تصلح للاختباء، أو للهرب من خلالها على امتداد هذه الحدود.

عانـــيتُ في الأيـــام التي تلت من التفكير في الاحتمالات. يُحتمل أن يكون **تانغـــواي** مـــتوارياً عن الأنظار الآن مراهناً على مرور الوقت. يُحتمل أن يكون الرجل ميتاً الآن، أو لعلّه فرّ من البلاد، مثلما يفعل القتلة التسلسليون. إنهم يحزمون حقائبهم ويرحلون ما إن يحسّوا بالخطر. إذ يتفادى بعضهم إلقاء القبض عليه. كلا. رفضتُ قبول هذه الحقيقة.

لم أغادر منـــزلي نهار الأحد. لازمتُ المنـــزل أنا **وبيردي**. لم أرتدِ ملابسي، وتجنبتُ الاستماع إلى جهاز الراديو والتلفزيون. لم أتحمّل رؤية صورة **غابي**، أو أن أســـتمع تكراراً إلى أوصاف الضحية والمشتبه به. أجريتُ ثلاث مكالمات. كانت الأولى إلى **كـــاتي**، أما المكالمة الثانية فأجريتها مع عمتي في **شيكاغو**. اتصلتُ بالعمة

كـــي أتمـــنى لها ذكرى ميلاد سعيد! باركتُ لها بذكرى ميلادها الرابع والثمانين. أحسنت صنعاً أيتها السيدة!

عرَفتُ أنّ **كاتي** موجودة في **شارلوت**، لكنني أردتُ أن أطمئن نفسي. لم أتلقَ جواباً، كما توقعتُ بالضبط. لعنتُ المسافات البعيدة، ثم عدتُ كي أباركها، لأنني أريـــد أن تكون ابنتي بعيدة عن المكان الذي احتفظ فيه هذا الوحش بصورها. لن أخبرها أبداً بما اكتشفته.

أجريتُ المكالمة الأخيرة مع والدة **غابي**. أظن أنها كانت تحت تأثير المسكنات، لأنها لم تستطِع أن ترد على مكالمتي الهاتفية. تحدثتُ مع **السيد ماكولاي**. أبلغني أنّ الجنازة ستُجرى يوم الخميس، إذا ما استلمت العائلة الجثة.

مكثتُ أبكي لفترةٍ من الوقت، وراح جسدي يهتز على إيقاع منتظم. طالبت الـــشياطين الـــتي تسكُن في مجرى دمي بنصيبيها من الكحول. وثابرت على مبدئها الـــثابت في الحصول على المتعة المترافقة مع الألم. راحت تصرخ مطالبة بالارتواء، وبالشعور بالخدر. ساعدينا على القضاء على ما نشعر به.

رفـــضتُ تلبـــية طلبها، وكان من السهل عليّ أن أفعل ذلك. شارفتُ على الأربعـــين، وأعرف أنّ الأمر ليس لعبة كرة مضرب. إذا استسلمتُ في هذه اللعبة، فسأخـــسر وظـــيفتي، وأصـــدقائي، واحترامـــي لنفسي. اللعنة، قد أسمح **لسان جاك/تانغواي** أن يقضي عليّ!

لـــن أستـــسلم، لا أمام زجاجة الشراب، ولا أمام المهووس. أدين بهذا **لغابي**. أدين بهذا لنفسي، ولابنتي. بقيتُ صاحيةً وانتظرتُ، وتمنيتُ، بيأس، أن تكون **غابي** هنا كي أتحدث معها. تأكدتُ مراتٍ عديدة من استمرار وجود وحدة الشرطة في المكان.

اتـــصل بي **رايان** يوم الإثنين عند الحادية عشرة تقريباً. أخبرني أنّ **لامانش** قد أنهى التشريح. استنتج **لامانش** أنّ سبب الوفاة هو الخنق بشريط طبي. كانت الجـــثة متحلّلة، ومع ذلك استطاع أن يكتشف شقاً موجوداً في مكان عميق في لحـــم رقـــبة **غـــابي**. لاحـــظ أنّ الجلد المشقوق يشكّل سلسلة من الفجوات والخـــدوش. ظهرت مئات من أماكن النـــزيف في الأوعية الدموية الموجودة في أنسجة العنق.

تلاشى صوت **رايان**، وتخيّلتُ **غابي** وهي تكافح من أجل الحصول على هواء تتنفسه، وكي تبقى على قيد الحياة. مهلاً. شكراً لله لأننا وجدناها بهذه السرعة. لا أستطيع أن أواجه الرعب الذي يمثله وجود جثة **غابي** على طاولة التشريح. كان الألم الناتج عن فقدانها ألماً لا يُحتمل أبداً.

"... هناك كسر في العظمة اللامية (عظمة تحت اللسان). تركت الأداة المستخدمة، بغضّ النظر عن نوعها، أثراً حلزونياً على الجلد".

"هل تعرضت للاغتصاب؟"

"تعذّر عليه الجزم بسبب تحلّل الجثة. أتت النتيجة سلبية بالنسبة إلى الحيوانات المنوية".

"ماذا بشأن زمن الوفاة؟"

"يقول **لامانش** إنّ الوفاة حدثت منذ خمسة أيام كحدٍ أدنى، أما الحد الأقصى فهو عشرة أيام".

"إنه مجالٌ واسعٌ جداً".

"يعتقد **لامانش** أنّ الجثة يُفترض أن تكون في حالٍ أسوأ بالنظر إلى الحرارة الشديدة، والمستوى الضحل الذي دُفنت فيه".

آه يا إلهي. يعني ذلك أنها ربما لم تمُت في اليوم الذي اختفت فيه.

"هل فُتِّشَت شقتها؟"

"لم يرَها أحد، لكنها كانت هناك".

"ماذا بشأن **تانغواي**؟"

"تحضّري جيداً لما سأقول. يعمل ذلك الرجل مدرّساً في مدرسة صغيرة تقع في الجزيرة الغربية". سمعتُ حفيف أوراقٍ. "**سان إيزادور**. تواجد الرجل هناك منذ عام 1991. وهو يبلغ الثامنة والعشرين من عمره. عازب. وضع الرجل علامة **لا أحد** أمام الخانة المخصصة للأقارب. إننا نبحث الآن عن أقارب محتملين له. سكن الرجل في **سانغوين** منذ العام 1991. تعتقد مالكة شقته أنه كان في مكانٍ ما من **الولايات المتحدة** قبل ذلك".

"هل وجدتم بصمات معينة؟"

"وجدنا بصمات كثيرة قمنا بإدخالها في النظام المعلوماتي، لكننا لم نحصل على نتيجة. أرسلناها جنوباً هذا الصباح".

"هل وجدتم شيئاً داخل القفاز؟"

"وجدنا بصمتين واضحتين على الأقل، وراحة يد ملطخة".

تخيّلت **غابي**، والكيس البلاستيكي، والقفّاز الآخر. كتبت كلمة وحيدة على الورقة: **قفّاز**.

"هل يحمل الرجل درجةً جامعيةً؟"

"إنــه يحمــل درجة أسقفية. توجّه **برتران** إلى **لينوكس فيل** في هذا الوقت. يحــاول **كلــوديل** أن يقبض على شخصٍ ما في **سان إيزادور**، لكنه لم يوفّق حتى الآن. يقــول إنّ حــارس المبنى يكاد يبلغ المئة عام، ولا يوجد أي شخص آخر في المكان المقفل هذا الصيف".

"هل عثرتم على أسماء في الشقة؟"

"لم نجد أياً منها. لم نجد صورةً، ولا دفاتر عناوين. لم نجد رسائل، ولا بد أنّ الرجل يعيش في فراغ اجتماعي".

مــرّت فترة صمت طويل استغرقنا فيها بالتفكير في هذه المعلومات، وبعدها تكلّم **رايان**.

"هناك أمرٌ قد يفسّر هواياته الغريبة".

"أتعني الحيوانات؟"

"أجل، بالإضافة إلى مجموعة السكاكين التي يمتلكها".

"أتقول السكاكين؟"

"يمــتلك ذلك النذل أنصالاً أكثر مما يمتلكه جرّاح عظام. يتكوّن معظمها من أدوات جــراحية: سكاكين، شفرات، مباضع. احتفظ بها الرجل تحت سريره إلى جانب علبة من القفازات الجراحية، وكلها أصلية".

"يا لهذا الرجل المنعزل الذي يمتلك ولعاً بالشفرات! عظيم!"

"يمتلك أيضاً مجموعةً من الصور الجنسية، وكلها حسنة الترتيب".

"وماذا بعد؟"

سمعــتُ مــزيداً من حفيف الأوراق: "يمتلك الرجل سيارةً. إنها **فورد بروب** مــوديل 1987. لم نجــد السيارة في الحي. إنهم يبحثون عنها. حصلنا على صورة رخصة قيادة الرجل، فأرسلناها هي الأخرى".

"وماذا بعد؟"

"ســـأتركك تحكمـــين بنفسك، لكنني أعتقد أنّ الجدة على حق. لا يستطيع الإنسان أن يتذكره بسهولة، أو لعل ماكينة فاكس **زيروكس** لا تفيه حقه".

"أيمكن أن يكون هو **سان جاك** بذاته؟"

"إنـــه احتمالٌ واردٌ. يُحتمل أن يكون **جان كريتيان** أيضاً، أو قد يكون هو الـــرجل ذاتـــه الذي يبيع النقانق في شارع **سان بول**، أو قد يكون **ريتشارد بيتي** طليقاً. يمتلك الرجل شارباً".

"يا لك من رجل مشاغب يا **رايان!**"

"لا يمتلك الرجل حتى ضبط مخالفة لسيارته. كان رجلاً مستقيماً على الدوام".

"صحيح. إنه مواطن صالح ينشغل بجمع السكاكين، والصور الجنسية، ويشرّح الثدييات الصغيرة".

مرّت فترة صمت.

"وما هي طبيعة كل هذه الأشياء؟"

"لسنا واثقين بعد. إنهم يستجوبون شخصاً في **جامعة مونتريال**".

نظرتُ إلى الكلمة التي كتبتها، وبلعت ريقي بصعوبة.

وجـــدتُ صـــعوبةً في لفظ اسم صديقتي: "هل وجدتم بصماتٍ داخل القفاز الذي وجدناه مع **غابي؟**"

"لا".

"عرفنا أنه لن توجد بصمات".

"أجل".

سمعتُ ضجيج أفراد الفرقة عند الطرف الآخر من الخط.

"أريـــد أن أرسلِ لكِ نسخةً عن صورته الموجودة على رخصة قيادته. أريدكِ أن تكـــوّني فكـــرةً عن مظهره في حال التقيتِ به شخصياً، وعن قرب. أريدكِ أنَ تلازمي منـــزلكِ إلى أن نلقي القبض على ذلك النذل".

"سأوافيكَ إلى هناك. أريد أن أُخضع أي معلومات تدل على هوية القاتل إلى الفحـــص البيولوجـــي، هـــذا إذا استطعتم أن تتوصلوا إلى تحديد الهوية عن طريق القفّاز. يأتي دور **لاكروا** بعد ذلك".

"أعتقد أنه يتعيّن عليكِ..."

"وفّر عليك هذا الكلامَ الذكوري يا **رايان!**"

سمعتُه يُخرج الهواء من رئتيه.

"هل تحاول إخفاء أي معلومات عني؟"

"إنّ ما نعرفه نحن تعرفينه كله".

"سأكون هناك في غضون ثلاثين دقيقة".

وصلتُ بعد مضي نصف ساعة إلى **قسم تحديد الهوية** في المختبرات. أنهى هذا القسم عمله على القفازين ثم أرسلهما إلى القسم البيولوجي.

نظـــرتُ إلى ساعتي التي أشارت إلى الثانية عشرة والأربعين دقيقة، ثم اتصلتُ بقسم تحديد الهوية في مركز **شرطة مونتريال،** كي أسأل إذا ما كنتُ أستطيع رؤية الـــصور التي أُخذت في شقة **سان جاك** التي تقع في **شارع بيرغر**. قالت لي عاملة الهاتف إنه وقت الغداء، وطلبت مني ترك رسالة.

مـــشيتُ عـــند الساعة الواحدة إلى قسم **البيولوجيا** (علم الأحياء). شاهدتُ امـــرأة تمـــيل إلى الـــسمنة ذات شـــعر جميل، ووجه ملائكي. رأيتها ترجّ قارورة زجاجية. ولاحظتُ وجود قفازين مطّاطيين ملقيين على الطاولة خلفها.

"***بونجور فرانسوا***".

"آه. تـــوقعت أن أراكِ الـــيوم". لاحت نظرة قلقٍ في العينين الملائكيتين. "أنا آسفة. لا أعرف ماذا أقول لكِ بالضبط ".

"***شكراً***. لا بأس". أشرتُ إلى القفّازين. "ماذا لديك؟"

"إنـــه نظيف، ولا وجود للدماء فيه". أشارت إلى قفازي **غابي**. "بدأتُ لتوي بالعمل على القفّاز الذي وُجد في المطبخ. هل تريدين أن تلقي نظرة؟"

"شكراً لكِ".

"أخذت عيِّناتٍ من تلك البقع البنية، ثم جففت العيّنة بمياه الملح".

تفحصّت السائل، ثم وضعت القارورة في الصينية التي تحتوي أنابيب الاختبار. تـــناولت أنبوباً زجاجياً ماصاً يتميز بعنق طويل فارغ، ثم أمسكته فوق نار خفيفة كي تحكم إغلاقه، ثم أدارت الغطاء.

"سأقوم بدايةً بفحصٍ كي أتأكد من وجود الدماء".

تـــناولت قارورة زجاجية صغيرة من الثلاجة. كسرت الغطاء، ثم أدخلت من خلالـــه الأنـــبوب الزجاجي الماص. بدا المنظر مثل بعوضة تقوم بمصّ الدماء حينما تـــصاعد المـــصل الذي يحمل المضادات الحيوية في الأنبوب الرفيع. وأقفلت النهاية الأخرى بإبهامها.

أدخلـــت **فرانـــسواز** القسم الطويل والرفيع إلى الأنبوب الذي أُحكم إغلاقه باســـتخدام النار، ثم أبعدت إبهامها فسمحت للمصل الذي يحمل المضادات الحيوية بالخروج. حدّثتني أثناء عملها.

"يتعـــرف الـــدم على بروتيناته الخاصة به، أو المضادات. أما إذا تعرف على أجـــسامٍ غـــريبة، أي مـــضادات الـــتي لا تنتمي إليه، فعندها يسارع إلى تدميرها مـــستخدماً أجسامه المضادة الخاصة به. تقوم بعض الأجسام المضادة الأخرى بربط المضادات الغريبة معاً. تدعى عملية التجميع هذه **تفاعل التغرية**".

"يتـــشكل المصل الذي يحتوي على المضادات الحيوية في الحيوانات، وعادة ما يكون أرنباً أو دجاجة. يحدث ذلك عندما يُحقن بدماء من فصيلة أخرى. تتعرف دمـــاء الحـــيوان على الدماء الغريبة فيسارع الجسم إلى إنتاج الأجسام المضادة كي يحمي نفسه. إنّ حقن الحيوان بالدم البشري يُنتج المصل البشري الذي يحتوي على المضادات الحيوية. أما إذا حُقن الحيوان بدماء الماعز فعندها نحصل على مصل الماعز الـــذي يحـــتوي على المضادات الحيوية. يصحّ الأمر ذاته عندما نحقن الحيوان بدماء حصان، فعندها نحصل على مصل حصانٍ يحتوي على مضادات حيوية".

"يتسبب المصل البشري الذي يحتويٍ على المضادات الحيوية في إطلاق **تفاعل التغـــرية** عـــندما يمتزج مع الدم البشري. راقِبي ذلك. إذا كانت هذه دماء بشرية ستتـــشكل طـــبقة من الترسبات في أنبوب الاختبار، أي في المكان الذي يلتقي فيه محلـــول العيّنة مع المصل الذي يحتوي على المضادات الحيوية. سنقارنه بعد ذلك مع الملح كي نتأكد من النتيجة".

ألقـــت بالأنـــبوب الماص في صندوق للنفايات البيولوجية، ثم تناولت قارورة تحـــتوي عيّنة من المحلول الذي أُخذ من **تانغواي**. استخدمت **فرانسواز** أنبوباً ماصاً جديـــداً، ثم سحبت العينة في الأنبوب، ونقلتها إلى المصل الذي يحتوي المضادات الحيوية، ثم وضعت الأنبوب في صندوق خاص.

سألتُ: "كم سيأخذ هذا من الوقت؟"

"يعتمد هذا على قوة المصل الذي يحتوي على المضادات الحيوية. تتراوح المدة مـــا بين ثلاث دقائق إلى خمس عشرة دقيقة. إنّ هذا أمر مناسبٌ جداً. لن يستغرق الأمر أكثر من خمس، أو ست، دقائق".

ألقينا نظرة بعد خمس دقائق. حملت **فرانسواز** الأنابيب تحت مصباح **لوكسو لامب**، ولاحظت وجود بطاقة سوداء استُخدمت كخلفية. وألقينا نظرة ثانية بعد مرور عشر دقائق، ثم ألقينا نظرة ثالثة بعد مرور خمس عشرة دقيقة. لم نحصل على شـــيء. لم تتـــشكل حلقة بيضاء ما بين المصل الذي يحتوي مضادات حيوية وبين محلول العينة. بقي المزيج صافياً مثل لون الملح الذي ينظّم العملية.

"هكـــذا إذاً. إنهـــا ليـــست دماءً بشريةً. دعينا نتأكد ما إذا كانت دماء حيوان".

عادت إلى الثلاجة مجدداً، وتناولت صينية تحتوي على زجاجات صغيرة.

سألتُها: "هل تستطيعين تحديد الفصائل بدقة؟"

"كـــلا. أســـتطيع عادةً تحديد العائلة التي ينتمي النموذج إليها، مثل **بوفيد، سيرفيد، وكانيد**".

نظـــرتُ إلى الـــصينية. وجدتُ اسم حيوان إلى جانب كل زجاجة: عنـــزة. فأرة. حصان. تذكرت المخالب التي وجدناها في مطبخ **تانغواي**.

"دعينا نجرّب الكلاب".

لم نحصل على نتيجة.

"ماذا لو جرّبنا شيئاً، مثل سنجاب، أو أي من القوارض الأخرى؟"

فكّرت لبرهة ثم أمسكت إحدى الزجاجات. "أو فأرة".

تشكّلت لدينا طبقةٌ رقيقةٌ في الأنبوب بغضون أقل من أربع دقائق. ظهر اللون الأصـــفر في أعلـــى الطبقة، بينما كانت الطبقة شفافة في الأسفل، وتشكّلت طبقة بيضاء غائمة في الوسط.

قالـــت **فرانسواز: "**هكذا إذاً. إنها دماء حيوان، ويبدو أنه حيوان صغير من الثديـــيات، مثل أحد القوارض أو خنـــزير الأرض، أو ما شابه ذلك. هذا هو كل ما أستطيع قوله الآن. لا أعرف ما إذا كانت هذه المعلومات ستساعدك".

قلتُ: "أجل. تساعدني هذه المعلومات. هل أستطيع استخدام هاتفك؟"

"بالتأكيد".

طلبتُ رقماً داخلياً خارج القاعة.

"لاكروا".

عرّفتُ عن نفسي وشرحتُ ما أردته.

"بالتأكـــيد. أعطِني عشرين دقيقة فقط. أنتظر الآن إحدى النتائج على جهاز الكمبيوتر".

وقّعـــتُ بأنني استلمت القفازين، وعدتُ إلى مكتبي. أمضيتُ نصف الساعة التالـــية أدقّق في التقارير وأوقّعها. عدت بعد ذلك كي أسير في الرواق الذي تشغله دائرة البيولوجيا، ثم دخلتُ باباً كُتب عليه **نيران ومتفجرات**.

وقف رجلٌ يرتدي معطف مختبر أمام ماكينة ضخمة. حملت هذه الماكينة اسم **مطـــياف الأشعة السينية**. لم يقل الرجل شيئاً، وأنا لم أقل شيئاً بدوري حتى انتهى من نقل شريحة تحمل بقعةً صغيرةً بيضاء اللون، ووضعها على الصينية. نظر الرجل إليَّ بعـــد ذلـــك نظـــرةً تحمل النعومة ذاتها التي يحملها ظبي من ظباء **ديزني**. تدلّى جفناه، والتفّت رموشه إلى الخلف مثل تويجات الأقحوان.

"*بونجور*، مسيو لاكروا. كيف حالك؟"

"أنا بخير. أنا بخير. هل هما معكِ؟"

رفعتُ كيسين بلاستيكيين.

"هيا نبدأ العمل".

قـــادني إلى غـــرفة صغيرة مزودة بجهاز بحجم آلة تصوير، وشاشتين، وطابعة. شاهدتُ جدولاً دورياً للعناصر معلقاً على الحائط.

وضـــع **لاكروا** الكيسين اللذين يحتويان الأدلة على طاولة، ثم ارتدى قفازين جراحيين في يديه. تناول، بحذر شديد، القفازين المشتبه بهما الواحد بعد الآخر، ثم تفحّـــصهما. أعادهما **لاكروا** إلى الكيس مجدداً. بدا القفازان الممطوطان على يديه مشابهين لهذين القفازين الموضوعين على طاولة العمل.

"فلنـــتفحّص في الـــبداية الميزات العامة، وتفاصيل الصنع. والوزن، والكثافة، واللـــون، وكيفية إنهاء الحواف". قَلَب كل قفاز من القفازين رأساً على عقب أكثر

مـــن مرة، وراح يتفحصهما متابعاً الحديث. "يبدو هذان الزوجان متشابهين تماماً. تتميّز الحواف بالتقنية ذاتها. أترين؟"

نظـــرت. لاحظـــتُ أنّ معصم كل كفّ ينتهي بحافةٍ تلتف على نفسها من الخارج.

"ألا تنتهي كل القفازات بالطريقة ذاتها؟"

"لا. تنتهـــي بعض القفازات بلفّة إلى الداخل، بينما تلتف قفازاتٌ أخرى إلى الخـــارج. يلـــتف هـــذان القفـــازان بلفّـــةٍ إلى الخارج. سننتقل الآن إلى تفحص محتوياهما".

حمـــل الـــرجل قفّـــاز **غابي** إلى الماكينة، ورفع الغطاء، ثم وضعه على صينية داخلها.

أشـــار الرجل إلى صينية مليئة بالأنابيب الصغيرة: "أستخدِم هذه الأنابيب مع العيّنات الصغيرة الحجم. أعمد عادةً إلى وضع قطعة مربعة من شريط **بولي بروبيلين** اللاصـــق، الذي يُستخدم على زجاج النوافذ، فوق الأنبوب، ثم أعمد إلى الضغط كـــي أجعل البقعة الدبقة تمسك بالشظية. لكن هذه العملية ليست ضرورية مع ما لدينا هنا. سنكتفي بوضع القفّاز بكامله في الداخل".

ضـــغط **لاكروا** على زر فدبّت الحياة في الجهاز. أضاء صندوق صغير يرتكز علـــى عمـــود في إحدى زوايا الجهاز. ظهرت كلمة **أشعة X** باللون الأبيض على خلفـــية حمـــراء. ومضت لوحة من المفاتيح التي تشير إلى حالة الماكينة. يشير الزر الأحمـــر إلى أشعة X، والزر الأبيض إلى التشغيل، أما الزر البرتقالي اللون فيشير إلى انفتاح المصاريع.

انـــشغل **لاكروا** بتعديل المفاتيح برهةً من الزمن، ثم أغلق الغطاء، وتوجّه إلى كرسيّ موجود أمام الشاشتين.

أشار إلى الكرسي الآخر: "اجلسي من فضلك".

ظهـــر أحـــد المناظر الصحراوية على الشاشة الأولى. بدت خلفية المنظر حبيبـــية، مظهرةً تشكيلات منوعة من الصخور. تناثرت الظلال والصخور هنا وهـــناك على الشاشة. تداخلت مع هذا المنظر سلسلة من الدوائر ذات المركز الواحد، فيما أخذت أصغر دائرتين وأقربهما إلى المركز شكل كرة القدم. تقاطع

خطّـــان في زاويـــة عامودية، ورسما بذلك شكلاً متصالباً فوق الدائرتين اللتين تتوسطان الشاشة.

عـــدّل **لاكـــروا** الصورة عن طريق تحريك عصا قيادة. تحركت الصخور إلى داخل الدوائر وخارجها.

"ننظـــر الآن إلى القفّاز بعد أن قمنا بتكبيره ثمانين مرة. إنني أبحث عن موقع محـــدد. تقوم كل عملية مسح بأخذ نموذجٍ عن مساحة تبلغ ثلاثمئة ميكرون، وهي المساحة التي تماثل تقريباً الدائرة المنقطة. وهكذا تتمكنين من توجيه الأشعة السينية إلى معظم العيّنة".

نقل الخطوط المتصالبة قليلاً، ثم استقر على رقعةٍ خاليةٍ من الحصى.

"هناك. لا بد أنّ ذلك هو المكان المناسب".

ضغط على زرّ فبدأت الماكينة بالهمهمة.

"سيـــستغرق ذلك عدة دقائق. تأتي عملية المسح بعد ذلك. إنها عملية سريعة جداً".

"وهل ستحدّد هذه العملية الأشياء الموجودة داخل القفاز؟"

"نعـــم. إنه نوعٌ من أنواع التحليل بالأشعة السينية. تستطيع الأشعة السينية الناتجة عن موجات متفلورة متناهية القصر أن تحدد طبيعة العناصر الموجودة في نموذج معيّن".

تـــوقفت الهمهمة وبدأ نمط معيّن بالتشكّل على الشاشة الموجودة إلى اليمين. انتـــشرت سلسلة من التلال على طول الجهة السفلى من الشاشة، وازدادت عدداً علـــى خلفية زرقاء لامعة، بينما ظهر شريط رفيع أصفر وسط كل واحدة من هذه التلال. ظهرت عند الزاوية السفلى واليسرى صورة لوحة مفاتيح. حمل كل مفتاح رمزاً مختصراً لعنصرٍ من العناصر الموجودة في الطبيعة.

نقر **لاكروا** مجموعة أوامره، فظهرت أحرف معينة على الشاشة. بقيت بعض الـــتلال الـــصغيرة، بينما ظهرت تلال أخرى بشكل قمم عالية، تماثل شكل هذه التلال مع القلاع التي يبنيها النمل الأبيض، والتي سبق لي أن رأيتها في **أستراليا**.

"هذه هي". أشار **لاكروا** إلى عمود إلى أقصى اليمين. ارتفع هذا العمود من الأســـفل إلى أعلى الشاشة حيث يظهر مبتوراً هناك. ظهرت قمة أصغر إلى اليمين والتي ارتفعت نحو ثلث ارتفاع القمة المجاورة. وظهر الرمز Zn.

"**زنك**. لا أستغرب وجوده، لأن هذا العنصر يتواجد في كل القفازات".

أشــار إلى قمّتين موجودتين إلى أقصى اليسار. بدت إحداهما منخفضة، بينما ارتفعــت الأخــرى إلى مسافة ثلاثة أرباع الشاشة. "تمثّل القمة المنخفضة عنصر **المغنيــزيوم**، أو Mg. أمــا القمــة التي تحمل إشارة Si فهي عنصر **السيليكون**".

شاهدتُ في اتجاه اليمين قمة مزدوجة تحمل الحرف S.

"إنه عنصر **الكبريت**".

برزت قمة وصلت إلى منتصف الشاشة تحمل رمز Ca.

"هناك القليل جداً من **الكالسيوم**".

شاهدتُ ثغرة وراء **الكالسيوم**، برزت بعدها سلسلة من التلال تقارب القمة التي تمثّل **الزنك**. تألفت هذه التلال من عنصر Fe.

"هناك القليل من **الحديد**".

اســترخى في جلــسته، وراح يلخّص النتائج لي: "إنه كوكتيل مألوف جداً. هــناك الكــثير مــن **الزنك** المترافق مع مكوّنين رئيسيين آخرين هما **السيليكون والكالسيوم**. سأطبع هذه النتيجة، وسنعمد بعد ذلك إلى اختبار بقعة أخرى".

أجــرينا عشرة اختبارات أخرى. أظهرت كل هذه النتائج التشكيلة ذاتها من العناصر.

"حسناً إذاً. لننتقل الآن إلى القفّاز الآخر".

كرّرنا هذا الإجراء مع القفاز الذي وجدناه في مطبخ **تانغواي**.

بــدت القمتان اللتان تمثلان **الزنك والكبريت** متشابهتين، لكننا لاحظنا أنهما تحــتويان كمية كالسيوم أكثر، في حين يخلو هذا القفّاز من **الحديد، والسيليكون، والمغنيــزيوم**. لاحظنا وجود قمة صغيرةٍ تدل على وجود **البوتاسيوم**. بقيت كمية هذا العنصر ثابتة مع كل عملية مسح.

سألتُه، علماً بأنني كنتُ متأكدة من الجواب: "وماذا يعني هذا؟"

"يــستخدم كل صانعٍ وصفةً مختلفةً قليلاً لصنع المطاط. يُلاحظ أيضاً وجود اختلافات بين القفازات المصنوعة في الشركة ذاتها، لكنها تبقى في حدود معقولة".

"نستنتج إذاً أنّ هذين القفازين ليسا زوجاً واحداً".

"تستطيعين القول إنهما لم يُصنعا في الشركة ذاتها".

نهض الرجل كي يُخرج القفاز من الجهاز. شعرتُ بالارتباك للمعلومات التي اكتشفناها.

"هـــل سنحـــصل علـــى معلومات أكثر إذا أجرينا اختباراً بانحراف الأشعة السينية؟"

"تعطينا التجربة التي أجريناها، أي عملية فلورة الأشعة السينية القصيرة جداً، فكـــرةً عـــن العناصر الموجودة في منتج معين. بينما تستطيع عملية انحراف الأشعة الـــسينية تحديـــد الخليط الحقيقي للعناصر، أي التركيب الكيميائي. وتمكننا عملية الأشعة المتفلورة من معرفة أنّ شيئاً ما يحتوي **الصوديوم والكلوريد**. في حين تمكننا عملـــية الانحراف من التأكد ما إذا كان شيء ما يتألف من **الصوديوم والكلوريد**. نـــستطيع التأكد ما إذا كان شيء ما مصنوعاً من بلورات **كلوريد الصوديوم** عن طـــريق انحراف الأشعة. أستطيع أن أبسّط الأمور أكثر من ذلك. توضع العيّنة في جهاز **انحراف الأشعة السينية المتفلورة** وتُدار، ثم تُعرّض إلى الأشعة السينية. تدفع الأشـــعة الـــسينية الـــبلورات للتقافز. يُظهر لنا نمط الانحراف طبيعة تركيب تلك البلورات.

نـــستطيع القول، تبعاً لذلك إنّ إحدى معوقات انحراف الأشعة تكمن في أنها تُجـــرى فقط على المواد ذات التركيبة البلورية. تشكّل هذه المواد ما نسبته ثمانين بالمـــئة تقـــريباً مـــن كل الأشياء التي تردنا. إنّ المطاط، مع الأسف، ليس متبلوراً بطبيعـــته، لـــذلك لا تفيدنا عملية انحراف الأشعة بالشيء الكثير. أجزم أنّ هذين القفازين من صنع صانعين مختلفين".

"ماذا لو كانا من صندوقين مختلفين؟ أنا متأكدة من أنّ دفعات التصنيع تتنوع في طبيعتها".

حافظ الرجل على صمته لبرهة من الزمن، عاد بعدها للكلام.

"انتظري. دعيني أريكِ شيئاً".

تـــوجّه على الفور إلى المختبر الرئيسي، حيث تمكنتُ من سماعه وهو يتحدث مع أحد التقنيين. عاود الظهور مع رزمة من أوراق نتائج الاختبارات المطبوعة، التي تتألف كل واحدة من سبع أو ثماني صفحات تُظهر الأنماط المألوفة للقمم والأبراج. فتح الرجل كل مجموعة. ورحنا ننظر في تنويعات الأنماط.

"تُظهـــر كل واحدة من هذه الأنماط سلسلة من الاختبارات التي أُجريت على القفازات الآتية من صانعٍ واحد، مع العلم أنّ العيّنات أُخذت من صناديق مختـــلفة. وجـــدنا فـــروقات فـــيهاً لكنها ليست كبيرةً، وعلى أي حال فإنها ليـــست كبيرة بدرجة تصل إلى الفروقات الموجودة في القفازين اللذين حللناهما للتو".

تفحـــصتُ مجمـــوعات عديدة. تفاوت حجم القمم، لكن طبيعة المكوّنات أظهرت ثباتاً ملفتاً.

"والآن، انظري إلى هذه".

نـــشر أمامـــي مجموعةً أخرى من الأوراق المطبوعة. لاحظتُ، مجدداً، وجود بعض الفروقات، لكن طبيعة الخليط كانت ذاتها بالإجمال.

أمـــسكتُ أنفاســـي فجأةً. بدت ترتيبات التراكيب مألوفة لدي. نظرتُ إلى رمـــوز العناصـــر الـــتي تـــشكلت من **الزنك**، **الحديد**، **الكالسيوم**، **الكبريت**، **الـــسيليكون**، **والكالسيوم**. تواجدت آثار بعض العناصر الأخرى معها. وضعتُ التقريـــر المطـــبوع عن قفّاز **غابي** فوق باقي المجموعة. لاحظتُ أنّ النمط متماثلٌ تقريباً.

"**مسيو لاكروا**، هل أتى القفازان من صانعٍ واحد؟"

"أجـــل، أجـــل. هذا ما أريد أن أقوله. يُحتمل أنهما أتيا من الصندوق ذاته. تذكرتُ هذه للتو".

تسارعت نبضات قلبي: "إلى أي قضية تعود هذه؟"

"أتت منذ أسابيع قليلة فقط". قلّب الصفحات حتى وصل إلى الصفحة الأولى في المجموعة. ***رقم القضية***: 327468. "أستطيع أن أظهّرها على شاشة الكمبيوتر إن أردت".

"افعل، من فضلك".

ظهرت المعطيات على الشاشة في غضون ثوانٍ قليلة. رحتُ أتفحصها.

رقـــم القـــضية: 327468. رقم **مختبرات مونتريال القضائية**: 29427. اسم المكتب طالب الاختبار: **شرطة مونتريال**. المحققون: **ل. كلوديل**، **وم. شاربونيو**. مكان الاسترداد: 1422 **شارع بيرغر**. تاريخ الاسترداد: 24 حزيران 1994.

إنــه **قفــاز** مطاطي قديم. هل قلق الرجل على أظافره؟ و**كلوديل!** ظننتُ أنه كــان يتحدث عن **قفّازٍ** مخصصٍ لتنظيف الأدوات المنــزلية! هل اقتنى **سان جاك** قفّازاً جراحياً؟ توافق **قفّازه** هذا مع القفّاز الذي وُجد في قبر **غابي!**

شــكرتُ **المــسيو لاكــروا**، وجمعتُ النتائج المطبوعة، ثم غادرتُ المكتب. أرجعــتُ القفازين إلى قسم الموجودات، وراح عقلي يسابق الزمن في تحليل الأمور التي اكتشفتُها للتو. لم يتوافق القفاز الذي وُجد في مطبخ **تانغواي** مع القفاز الذي كان مدفوناً مع جثة **غابي**. وُجدت بصمات **تانغواي** على هذا القفاز، بينما كانت البقع الموجودة عليه من الخارج تعود لدماء حيوان، لكن القفّاز الذي وُجد مع **غابي** كــان نظيفاً. لم يحتوِ دماً، ولا بصمات. امتلك **سان جاك** قفازاً جراحياً توافق مع ذلــك الذي وُجد في قبر **غابي**. هل كان **برتران** على حق؟ هل إنّ **تانغواي وسان جاك** هما الشخص ذاته؟

وجــدتُ علــى طاولتي قصاصة زهرية اللون. اتصل بي قسم تحديد الهوية في **شــرطة مونتريال**. أبلغوني أنّ الصور التي التُقطت للشقة في **شارع بيرغر** قد تمت أرشــفتها علــى أسطوانة مدمجة، وأنني أستطيع تفحصها هناك، أو أن آخذها إن أردت. اتــصلتُ بالمكتب كي أبلغهم أنني أريد أخذها، وأنني سأحضر إلى مكتبهم بعد وقت قصير.

شــققتُ طريقي بصعوبة نحو مركز **شرطة مونتريال**، ولعنتُ ساعة الازدحام هــذه، والسواح الذين يملأون منطقة **المرفأ القديم**. تركتُ سيارتي مركونة بطريقة تأخــذ مكان سيارتين، ثم أسرعتُ إلى الدّرَجِ، وتوجهت مباشرة إلى المسؤول في الطابق الثالث. دُهشت لأن الأسطوانة المدمجة كانت بحوزته. وقّعتُ على استلامها، وأسرعتُ عائدةً إلى سيارتي، حيث وضعتُ الأسطوانة في حقيبتي.

حافظــتُ طيلة الطريق على حذري، ورحتُ أتطلع من وراء كتفيّ، بحثاً عن **تانغواي**، وبحثاً عن **سان جاك**. لم أستطِع منع نفسي من الاحتراس.

37

وصـــلتُ إلى البيت عند االساعة الخامسة والنصف تقريباً. جلستُ بصمت في شـــقتي، ورحـــتُ أستعرض الأمور التي يمكنني القيام بها. لم أعثر على شيء. كان **رايـــان** على حق، لأن **تانغواي** قد يكون في مكان ما متربصاً بي، ومتحيّناً فرصته المؤاتية للانقضاض عليّ. صمّمتُ ألا أسهّل الأمر عليه.

شعرتُ بالجوع وبضرورة الخروج، بالإضافة إلى البقاء منشغلةً على الدوام.

مـــا إن خرجتُ من الباب الرئيسي حتى تفحصّتُ حالة الشارع. كانا هناك، وبالـــتحديد في الممر الذي يقع إلى يسار مطعم البيتزا. أومأتُ باتجاه الشرطيين، ثم أشـــرتُ نحـــو **ســـانت كاثرين**. شاهدتُهما يتشاوران، ثم ما لبث أحدهما أن ترك مكانه.

يـــتقاطع الشارع الذي أسكن فيه مع شارع **سانت كاثرين** في مكان لا يبعد كـــثيراً عـــن **لا فابـــورغ**. سِرتُ نحو السوق وما لبثتُ أن أحسستُ بانـــزعاج الـــشرطي الذي يتبعني. كان النهار رائعاً على أي حال. لم أنتبه إلى درجة الحرارة عندما كنتُ في المختبرات. تدّنت درجة الحرارة قليلاً، وتشكلت غيوم بيضاء هائلة في الـــسماء الزرقاء الرائعة، ونشرت جزراً من الظلال فوق المدينة وكل المنشغلين فيها. شعرتُ بالسرور لأنني خرجتُ إلى صخب الشارع.

انطلقتُ كي أشتري بعض المواد الغذائية. عاينتُ في متجر **لا بلانتايشن** بعض فواكه **الأفوكادو**، ونظرتُ إلى ألوان ثمار الموز، واخترتُ بعض **البروكولي** (القنّبيط الأخضر)، والكرنب المسوّق، والبطاطا، وفعلتُ كل ذلك بالعناية ذاتها التي يمارسها

جـــرّاح الأعصاب. حصلتُ على بعض الخبز الفرنسي من الفرن. واشتريتُ بعض موســيّة الـــشوكولاته من متجر الحلويات. انتقيتُ بعض قطع اللحم، وقليلاً من اللحم المطحون، وفطيرة لحم من متجر بيع اللحم.

"هل هذا كل ما تريدينه؟"

"لا، و لِمَ العجلـــة؟ أعطِــني قطعة من عظمة T، على أن تكون سميكة فعلاً". رفعتُ إبهامي وسبابتي وأبعدتهما مسافة سنتمترين ونصف.

رأيتُه يتناول المنشار من خطّافه، فأحسستُ مجدداً بتلك الرعشة التي سبق أن شعرتُ بها. حاولتُ أن أطوّر ما أحس به إلى فكرة كاملة عن الأحداث، لكن من دون أن أحـــرز نجاحـــاً أكبر من ذلك الذي لاقيته في المرة الماضية. ماذا يعني هذا المنـــشار؟ ألـــيس الأمر بديهياً جداً؟ ألا يستطيع أيّ شخص شراء منشار الطهاة؟ تتـــبعت **أمـــن كيبـــيك** هذا الدليل، وأقدموا على الاتصال بكل محلات البيع في المقاطعة. تبيّن أنّ آلاف المناشير قد بيعت.

مـــاذا إذاً؟ تعلمـــتُ أنّ محاولة التمعن بفكرة ما نابعة من اللاوعي تتسبب في تعمـــيق هـــذه الفكرة. وإذا ما سمحتُ لهذه الفكرة بالانسياب، فإنها تطوف على الـــسطح. دفعـــتُ ثمن ما اشتريته من اللحم وتوجهتُ إلى منـــزلي، لكن بعد أن عرّجتُ قليلاً على مطعم **بيرغر كينغ** الذي يقع في شارع **سانت كاثرين**.

اســتقبلتني مفاجأة كانت آخر ما توقعته وأردته. اتصل بي أحدهم. جلستُ علـــى حافـــة الأريكـــة لدقائق عديدة متمسكةً بمشترياتي، ورحتُ أحدّق بالضوء الصغير للمؤشر. تلقيتُ اتصالاً واحداً. هل كان من **تانغواي**؟ هل يريد أن يتحدث معي، أم أنني سأسمع كيف سيصغي إليّ قليلاً قبل سماع نغمة الخط الهاتفي؟

"لماذا أنت عصبيةٌ هكذا يا **برينان**؟ يُحتمل أن يكون **رايان**".

جفّفـــتُ راحـــة يدي، مددتُها، ثم ضغطتُ على الزرّ. لم يكن الاتصال من **تانغواي**، بل من مصدر أسوأ بكثير.

"مـــرحباً أمي. هل تستمتعين في الخارج؟ هل أنت في المنـــزل؟ سألتقي بك قـــريباً". سمعـــتُ مـــا بدا أنه صوت السيارات، أي أنها كانت تتكلم من هاتف خارجـــي. "لا أعـــتقد ذلك. حسناً، لا أستطيع التحدث على أي حال. إنني على الطـــريق. إنـــني علـــى الطريق مجدداً..." قلّدت **ويلي نيلسون**. "هذا رائع، أليس

كـــذلك؟ على أي حال. سأزورك يا أمي. هل أنت بخير؟ تبيّن لي أنّ **ماكس** رجل تافـــه أســـتطيع الاستغناء عنه". سمعتُ صوتاً في الطَرف الآخر من الخط. "حسناً، أعطِـــني دقيقةً واحدة فقط". قالت ذلك لشخصٍ ما. "اسمعيني، لديّ فرصة لزيارة **نيويورك** ضمن برنامج **التفاحة الكبيرة**. ضمنتُ لنفسي رحلة مجانية، وها أنا هنا. أستطيع السفر إلى **مونتريال** على أي حال، لذلك أنا آتية. أراكِ قريباً!"

سمعت القرقعة التي تدل على إقفال الخط.

"لا! لا تأتي إلى هنا يا **كاتي**. لا!" وجدت نفسي أتكلم مع الفراغ.

سمعـــتُ صـــوت شريط آلة التسجيل وهو يعود إلى بدايته. يا إلهي، ما هذا الكابـــوس! ماتت **غابي**، كما أنّ أحد المعتوهين أقدم على وضع صورة تجمعني مع **كـــاتي** في قبرها. إنها في طريقها إلى هنا. شعرتُ بنبض عروق جبهتي، وتسارعت أفكاري. يتعيّن عليّ إيقافها. لكن كيف؟ لا أعرف أين تكون.

بيتي.

ومضت في ذهني فكرة عندما رنّ هاتفه. رأيت **كاتي** في المتنـــزه وهي في عمر الثالثة. كنت أتحدث وقتها مع إحدى الأمهات الأخريات، لكن عينيّ بقيتا تراقبان **كـــاتي** أثناء لهوها بملء أوعية بلاستيكية بالرمل. تركت **كاتي** رفشها الصغير فجأة، وركـــضت باتجـــاه الأراجيح. ترددت قليلاً عندما رأت أرجوحة حصان حديديٍّ تـــتأرجح إلى الـــوراء. ركضت باتجاه ذلك الحصان بعد أن ملأت وجهها حماسة الربيع، ورأت منظر العرف الملوّن للحصان ولجامه يتحركان في الهواء. عرفتُ أنهما سيصدمانها، لكنني لم أستطِع أن أفعل شيئاً لمنع ذلك. هل سيتكرر الأمر ثانيةً الآن.

لم يرد عليّ هاتف **بيتي** المباشر.

جـــرّبت الاتـــصال بموظفة الهاتف في شركته. أبلغتني مساعدةٌ ما بأنه ليس موجوداً بسبب انشغاله باستلام وديعة. تركتُ، بالطبع، رسالةً له.

حدّقتُ بالآلة المجيبة. أغلقتُ عينيّ، وأخذتُ أنفاساً طويلة وعميقة، وتمنيتُ أن يُبطـــئ قلـــبي من دقاته. شعرتُ أنّ رقبتي مشدودة بملزمة، بالإضافة إلى سخونتها الشديدة.

"هذا لن يحدث أبداً".

فتحتُ عينيّ لأكتشف أنّ **بيردي** يحدّق بي عبر الغرفة.

كرّرتُ له: "هذا لن يحدث أبداً".

حدّق بي، وبدت عيناه مسمّرتين.

"أستطيع القيام بأمر معيّن".

قوّس ظهره، ووضع مخالبه الأربعة كلها في مربع ضيّق، ثم جلس من دون أن تبرح عيناه وجهي.

"سأفعل شيئاً. لن أكتفي بالجلوس هنا، وانتظار الشيطان كي ينقضّ. لن أدعه يُنـــزل الأذى بابنتي".

نقلـــتُ الأغراض التي اشتريتها إلى المطبخ، ثم وضعتُها في الثلاجة. أحضرتُ حاســوبي المحمـــول، وشغّلته، ثم أظهرتُ الجدول الذي سبق لي أن بدأته. منذ متى بدأتُ بهذا الجدول؟ تمعنتُ في التواريخ التي أدخلتُها. وُجدت جثة **إيزابيل غاغنون** في 2 حزيران. مرّت سبعة أسابيع. بدت سبعة أعوام بالنسبة إليّ.

شرعتُ بدراسة القضايا بعد أن أحضرتُ الملفات. تمنيتُ أن لا يكون الوقت الذي أمضيتُه في تصوير الأوراق قد ضاع هباءً.

تفحصتُ على مدى الساعتين التاليتين كل صورة، وكل اسم، وكل تاريخ، وحـــتى كل كلمة وردت في المقابلات التي أجرتها الشرطة، وفي تقاريرها. أعدتُ الكـــرّة بعد ذلك وتمنيتُ أن أجد شيئاً كنتُ قد غفلتُ عنه في السابق. فعلتُ ذلك للمرة الثالثة.

بـــدأتُ بقـــراءة مقابلـــة **رايان** مع والد **غرايس داماس**، وفجأة لاحظتُها. انفجـــرت الفقاعة أخيراً في عقلي الواعي مثل عطسةٍ كانت تتهيأ وتزداد قوة، بعد أن استمرت بإزعاجها رافضة أن تنتهي.

الملحمـــة (محـــل جزارة). عملت **غرايس داماس** في ملحمة. استخدم القاتل منشار طهاة، ولا بد أنه يعرف شيئاً حول التشريح. أعرف أنّ **تانغواي** سبق له أن شرّح حيوانات من قبل. ألا يُحتمل وجود رابط بين الأمرين. بحثتُ عن اسم تلك الملحمة، لكنني لم أستطِع إيجاده.

طلبتُ رقماً كان موجوداً في الملف. أجابني رجل.

"السيد داماس؟"

أجابني بلهجة إنكليزية ثقيلة: "أجل".

"أنـــا **الدكتورة بريتان**. إنني أعمل في التحقيقات المتعلقة بمقتل زوجتك. هل أستطيع أن أطرح عليك بعض الأسئلة".

"أجل".

"هل كانت زوجتك تعمل خارج المنـــزل عندما اختفت؟"

مرّت فترة صمت قال بعدها: "أجل".

سمعتُ صوت جهازٍ تلفزيون عند الطرف الآخر من الخط.

"هل يمكنني أن أسأل أين كانت تعمل، من فضلك؟"

"عملـــت في فرن في **فايرمونت** يدعى **لو بون كرواسان**. كان عملاً بدوام جزئي، لأنها لم تعمل بدوام كاملٍ أبداً بسبب وجود الأولاد، وأسباب أخرى".

فكّرتُ ملياً في ما قاله لي، وبما يعنيه ذلك بالنسبة إلى الرابط الذي أبحث عنه.

أخفيتُ خيبة أملي: "كم من الوقت عملت هناك يا سيّد **داماس؟**"

"عملـــت هناك أشهراً قليلة فقط، على ما أعتقد. لم تتعوّد **غرايس** على البقاء فترة طويلة في وظيفة واحدة".

تابعتُ الموضوع: "وأين عملت قبل ذلك؟"

"عملت في ملحمة".

أمسكتُ أنفاسي: "في أي ملحمة عملت؟"

"تدعـــى ملحمة **سان دومينيك**، ويملكها رجل ينتمي إلى رعيّتنا. إنها في **سان دومينيك** الواقعة قرب **سان لوران**، أتعرفينها؟"

أجل. تخيّلتُ هطول المطر على نوافذها.

حاولتُ إبقاء صوتي هادئاً: "متى عملت هناك؟"

"مـــنذ عام تقريباً على ما أعتقد. يبدو أنها عملت معظم عام 1991. أستطيع الـــتحقق من ذلك. أتعتقدين أنّ للأمر أهمية؟ لم يسبق لهم أن سألوني عن التواريخ من قبل".

"لـــستُ متأكدة من ذلك يا سيد **داماس**، هل حدّثتك زوجتك عن شخصٍ يُدعى **تانغواي؟**"

قال بصوتٍ قاسٍ: "مَن؟"

"تانغواي".

سمعتُ صوت مذيعٍ عند الطرف الآخر يعد بالعودة بعد استراحة الإعلانات.

بدأ رأسي يؤلمني، وكذلك حنجرتي.

"لا".

أدهشتني القسوة في صوته.

"شكراً لك، لقد ساعدتني كثيراً. سأعلمك إذا حدثت تطورات جديدة".

أنهيتُ المكالمة، واتصلتُ **برايان** على الفور. أبلغوني أنه غادر بعد أن أنهى عمله لهذا اليوم. حاولتُ الاتصال برقم منزله ولكنني لم أتلقَ جواباً. أدركتُ ما يتعيّن عليّ فعله. أجريتُ مكالمة أخرى، وتناولتُ مفتاحاً، وتوجهتُ إلى الخارج.

وجدتُ الملحمة أكثر انشغالاً مما كانت عليه في اليوم الذي انتبهتُ فيه إليها. احتلت الإعلانات ذاتها نوافذها، لكنني لاحظتُ أنّ المتجر كان مضاءً ومفتوحاً للعمل. لم ألاحظ وجود الكثير من الزبائن. رأيتُ امرأة مسنّة تتحرك ببطء على محاذاة الواجهة الزجاجية، وبدا وجهها مترهلاً في وهج **الفلوريسنت**. شاهدتُها تلتفت وتعود كي تشير إلى أرنب. ذكّرني هيكله الصغير والجامد بمجموعة **تانغواي** الكئيبة، وكذلك **بإلسا**.

انتظرتُ حتى غادرت المرأة، ثم اقتربتُ من الرجل الواقف وراء الواجهة الزجاجية. بدا وجهه مستطيلاً بعظامه الكبيرة، وملامحه الخشنة. أما ذراعاه المتدليتان من كنزته فبدتا نحيلتين بشكل مدهش. وتناثرت لطخات داكنة على مئزره الأبيض، فظهرت مثل تويجات مجففة تناثرت على غطاء طاولة كتاني.

"بونجور".

"بونجور".

"هل البيع بطيء هذه الليلة؟"

"يتباطأ البيع في كل ليلة". قالها بإنكليزية ثقيلة تشبه لهجة **داماس**.

سمعتُ شخصاً ما يحدثُ أصواتاً بأدوات مطبخية في إحدى الغرف الخلفية.

"إنني أشارك في التحقيقات الجارية بشأن جريمة قتل **غرايس داماس**". تناولتُ بطاقتي وأبرزتُها. "أريد أن أطرح عليك أسئلة قليلة".

حدّق الرجل بي. سمعتُ في الخلف صوت حنفية تُفتح وتُغلق.

"هل أنتَ مالك المتجر؟"

أومأ.

"أنت السيد؟"

"بليفريتيس".

"ســـيّد بليفـــريتيس، عملت **غرايس داماس** في متجرك لفترة قصيرة، أليس كذلك؟"

"مَن؟"

"**غرايس داماس**. أعتقد أنها عضوة في أبرشية **سان ديميتريوس**".

وضع الرجل ذراعيه النحيلين في وضع متصالب فوق صدره وأومأ.

"ومتى عملت عندك؟"

"منذ ثلاثة أعوام، أو أربعة. لا أعرف بالضبط. إنهم يأتون ويرحلون كثيراً".

"هل تركت العمل؟"

"تركت من دون أن تخطرني مسبقاً".

"ولماذا؟"

"لا أعلم إطلاقاً. فعل آخرون ذلك حينها".

"هل بدت غير سعيدة، أو متوترة، أو عصبية؟"

"هل أبدو لكِ مثل **سيغموند فرويد**؟"

"هـــل كانت على صداقة مع أشخاص معيّنين هنا، أو هل كانت مقربة جداً من أي شخص؟"

شـــعّت عيناه باتجاهي، وبدا شبح ابتسامة على زاويتَي فمه. "مقربة؟" سألني بـــصوتٍ زلقٍ مثل مادة **الفالفولين**. صوّبتُ باتجاهه نظرة مماثلة، لكن من دون أن أبتسم.

تلاشت ابتسامته، وحوّل نظره عني كي يجول بعينيه في أنحاء الغرفة.

"لا يوجد هنا غيري وغير شقيقي، لذلك ما من أحد هنا كي ***تتقرب*** إليه". لفظ تلك الكلمة بالأسلوب ذاته الذي يستخدمه المراهقون عندما يروون نكتة بذيئة.

"هل كان يزورها أشخاص معيّنون، أو أي شخص كي يضايقها؟"

"اسمعـــي، أعطيـــتها وظيفة، ثم أبلغتها ماذا يتعيّن عليها أن تقوم به، وهذا ما فعلَته. لم أتتبع مجريات حياتها الاجتماعية".

"اعتقدتُ أنك لربما لاحظتَ..."

"كانـــت **غـــرايس** موظفة رائعة. فوجئتُ كثيراً عندما غادرت العمل. ترك الجمـــيع العمل في الوقت ذاته، وتركوني في ورطة. أعترف بذلك، لكنني لا أحمل ضـــغينة تجاه أحد. سمعتُ بعدها، عندما كنت في دار العبادة، بأنها اختفت. ظننتُ في الـــبداية بأنها هربت. لا أظن أنّ هذا من طباعها، لكن والدها كان **يقسو** عليها أحياناً. أشعر بالأسف لأنها قُتلت، لكنني بالكاد أتذكرها".

"ماذا تعني بأنه كان **يقسو** عليها؟"

ظهر الشرود على وجه الرجل على نحو مفاجئ. غضّ الرجل بصره، وخدش بظفـــر إبهامه شيئاً موضوعاً على الواجهة. "يتعيّن عليك التحدث مع **نيكوس** بهذا الشأن. إنها أمور عائلية".

أدركـــتُ مغـــزى ما قاله **رايان**. والآن ماذا؟ المساعِدات البصرية. فتشتُ في حقيبتي، وتناولتُ منها صورة **سان جاك**.

"هل سبق لك أن رأيتَ هذا الرجل؟"

مال **بليفريتيس** إلى الأمام كي يتناولها: "من هو هذا الشخص؟"

"إنه أحد جيرانك".

تفحّص وجهه ملياً: "لا أستطيع القول إنها صورة تستحق جائزة".

"أُخذت الصورة بكاميرا فيديو".

"وكذلك الحال مع فيلم **زابرودر**، لكنكِ على الأقل تستطيعين رؤية شيء ما".

رحتُ أتساءل عن الفيلم الذي أشار إليه، لكنني لم أقل شيئاً. أفضّل أن أتجنّب دخـــان مؤامـــرة أخرى. رأيتُ بعد قليل شيئاً يعبر ملامح وجهه، شيئاً يشبه نظرةً رقيقةً غضّنت جفنيه، في البداية، قبل أن يعودا إلى طبيعتهما.

"ماذا؟"

"حسناً..." راح يحدّق بالصورة.

"نعم؟"

"يحمـــل هذا الرجل شبهاً قليلاً مع رجلٍ تافه آخر خذلني. يُحتمل أنني أقول ذلـــك بـــسبب الأسئلة التي طرحتِها بشأنه. اللّعنة! لا أعرف". ناولني الصورة عبر الواجهة الزجاجية. "لدي صورة أوضح له".

"من هو؟ من كان ذلك الرجل؟"

"اسمعي. إنها صورة رديئة، ويبدو فيها مثل الكثيرين من الشبان الذين يتميزون بشعر سيّئ. إنهم لا يساوون شيئاً".

"ماذا تقصد بقولك إنّ شخصاً آخر خذلك؟ ومتى؟"

"تضايقتُ من **غرايس** لهذا السبب. ترك الرجل الذي وظّفته قبلها العمل حتى مـــن دون كلمة وداع. تركت **غرايس** عملها بعد ذلك، وبعد وقت قصير تركني هذا الرجل بالطريقة ذاتها. عمل هو و**غرايس** بدوامٍ جزئي، لكنهما كانا الوحيدين اللـــذين يـــساعدانني في العمل. كان شقيقي في الولايات المتحدة في ذلك الوقت، وعملتُ في إدارة هذا المكان بمفردي في ذلك العام".

"من كان ذلك الرجل؟"

"**فورتيـــيه**. دعيني أتذكّر. **ليو**. **ليو فورتييه**. تذكرتُ اسمه لأن قريبـــي كان يحمل اسم **ليو**".

"هل عمل الرجل هنا في الوقت ذاته مع **غرايس داماس؟**"

"أجـــل. وظّفته كي يحل مكان الرجل الذي ترك العمل قبل أن تبدأ **غرايس** العمل. وظّفت عاملَين بدوامٍ جزئي كي أقسّم الساعات بينهما، أعني في وقت عدم حـــضور أحـــدهما. كان هناك نقصٌ في الموظفين لنصف يوم فقط. ثم ترك كلاهما العمـــل. ***اللعـــنة!*** ترك غيابها حالة فوضى في العمل. أعتقد أنّ **فورتييه** عمل قرابة العام، أو ربما عاماً ونصف، ثم توقف عن الحضور فجأة. لم يكلّف نفسه حتى عناء تـــسليم مفاتيحه. اضطررت إلى البدء من الصفر. لا أريد متابعة الحديث عن هذا الموضوع مجدداً".

"ماذا بوسعك أن تخبرني عنه؟"

"إنـــه ســـؤالٌ سهل. لا شيء. رأى لافتة المتجر، ودخل قائلاً إنه يريد العمل بدوام جزئي. عمل الرجل في الوقت الذي احتجته فيه، أي في الصباح الباكر وقت فتح المتجر، وفي المساء لإقفال وتنظيف المتجر، كما أظهر خبرته في تقطيع اللحم. تبـــيّن فعـــلاً أنه ماهرٌ في عمله. وظّفته على أي حال. قال لي إنه يعمل في وظيفة أخـــرى في مكـــان ما خلال النهار. بدا الرجل مناسباً. كان هادئاً بالفعل، واعتاد القيام بعمله من دونَ أن يفتح فمه. اللعنة! لم أعرف أبداً مكان سكنه".

"وكيف كانت علاقته مع **غرايس؟"**

"لا أعـــرف مطلقاً. اعتاد الرجل على مغادرة العمل عندما تحضر، ثم العودة بعد مغادرتها. لستُ متأكداً ما إذا كانا يعرفان بعضهما بعضاً".

"أتعتقد أنّ الرجل الذي يظهر في هذه الصورة يشبه **فورتييه؟"**

"إنه يشبهه، ويشبه كل شخصٍ آخر أشعث الشعر، ويميل إلى إبقائه كذلك".

"أتعرف أين يتواجد **فورتييه** الآن؟"

هزّ رأسه.

"أتعرف شخصاً يُدعى **سان جاك؟"**

"لا، أبداً".

"أو تانغواي؟"

"يبدو اسم مادة للسمرة يستخدمها الشاذون".

بدأ رأسي يؤلمني، وشعرتُ بحرقةٍ في حنجرتي. تركتُ بطاقتي وانصرفت.

38

اســـتقبلني **رايان** عند وصولي إلى مدخل شقتي بحالةٍ من الهيجان. لم يتأخر في طرح أسئلته.

"لا أســـتطيع الاتـــصال بكِ، أليس هذا صحيحاً؟ لا أحد يقدر على ذلك، وكأنـــكِ إحدى الر**اقصات الهنديات**. تضعين أثواباً فوق أثوابك، ولا تنتهين من الرقص، كما أنّ الرصاص لا يستطيع اختراقكِ".

تـــورّد وجهـــه، واســـتطعت رؤية شريانٍ ينبض في جبهته. افترضتُ أنه من الأفضل لي ألا أعلّق على الفور.

"لمن السيارة التي استخدمتِها؟"

"إنها لجارتي".

"هل تجدين تسليةً في هذه الأمور يا **بريناان؟**"

لم أقل شيئاً. تنقّل الألم من منطقة خلف رقبتي حتى غطى كل أنحاء جمجمتي. استنتجتُ من عطستي الجافة أنّ جهازي المناعي بدأ يتعرض للغزو.

"هل يستطيع أحد ما في هذا الكوكب أن يسبر أغواركِ؟"

"هل تود الدخول لشرب فنجان قهوة؟"

"مـــا الـــذي يجعلـــكِ تظنين أنك تستطيعين الخروج هكذا، وبكل بساطة، وتتركين الجميع يقلقون عليكِ؟ هل خُلق هؤلاء الشبان لحمايتكِ فقط، يا **بريناان؟** لماذا، بحق الجحيم، لم تتصلي بي، أو تناديني عبر الجهاز؟"

"فعلتُ ذلك".

"ألم تستطيعي الانتظار عشر دقائق؟"

"لم أعـرف مكان تواجدك، أو طول مدة غيابك، كما أنني لم أتصوّر بأنني سأتغيّب كل هذا الوقت". اللعنة! لم أتأخر إلا قليلاً.

"كان بإمكانكِ ترك رسالة".

"كان من الأفضل لي ترك كتاب *الحرب والسلام*، لو كنتُ أعلم أنك ستبالغ في رد فعلك هكذا". أدركتُ أنّ كلامي هذا ليس صحيحاً تماماً.

"هـل بالغتُ في رد فعلي؟" جاء صوته بارداً كالجليد. "دعيني أذكّركِ ببعض الأمـور. تعرضت خمس نساء، أو سبع، للقتل والتشويه الوحشيّين في هذه المدينة. وقعـت أحدث هذه الجرائم منذ أربعة أسابيع". بدأ يعدّ على أصابعه. "ظهر جزء من إحدى النساء في حديقة منـزلكِ، كما أنّ أحد المعتوهين احتفظ بصورتك في مجموعـته المتـنوعة، وما لبث أن اختفى. اتصل بكِ في الشقة أحد المنعزلين الذين لـديهم هواية جمع السكاكين والصور الجنسية، والذين يترددون على بنات الهوى، ويحبون تقطيع الحيوانات الصغيرة. لاحق الرجل أعزّ صديقاتك، التي أصبحت ميتة الآن. دُفنت وهي ممسكة بصورة تجمعك مع ابنتك. اختفى هذا المنعزل بدوره".

مـرّ شـاب وفتاة من أمامنا على الرصيف، لكنهما غضا الطرف، وأسرعا بخطواهما. بدا أنهما أحسّا ببعض الإحراج لأنهما شهدا شجار أحبّة.

"**رايـان**، دعنا ندخل إلى الشقة. سأحضّر القهوة". خرج صوتي خشناً بعض الشيء لأنني بدأتُ أتضايق من حديثنا هذا.

رفـع يـده دلالةً على غضبه، ومدّ أصابعه، ثم أسبل يده على جانبه. أعدتُ المفـتاح إلى جـارتي، شـكرتُها لأنها سمحت لي باستخدام سيارها، ثم دخلتُ أنا و**رايان** إلى الشقة.

"هل تفضلها منـزوعة الكافيين، أم ثقيلة؟"

رنّ جهاز اتصاله، فقفزنا واقفَين.

"أعتقد أنني سأشرب قهوتي من دون كافيين. تعرفين مكان جهاز الهاتف".

أصغيتُ ممسكةً بكوبي القهوة، لكنني تظاهرتُ أنني لا أعرف.

"**رايان**". صمتَ لبرهة. "أجل". صمتَ مرةً أخرى. مّرت فترة صمتٍ طويلة. "متى؟" صمت لبرهةٍ أخرى. "حسناً. شكراً لك. سأكون هناك".

رأيتُه واقفاً قرب باب المطبخ. بدا وجهه متوتراً. بدأت حرارتي، وضغط دمي، ونبـــضات قلبي، بالتصاعد. اهدئي يا **برينان!** سكبتُ كوبين من القهوة، وأجبرتُ يدي على عدم الارتعاش. تريّثتُ حتى يبدأ الكلام.

"نالوا منه".

جمُدت يدي في مكانها، وتوقف وعاء القهوة في الهواء.

"أتعني تانغواي؟"

أومـــأ. أعدتُ، بعناية، وعاء القهوة إلى سخّانه. أحضرتُ الحليب ثم وضعتُ القليل مـــنه في كـــوبي. قـــدّمتُ بعض الحليب إلى **رايان،** بالعناية ذاتها. هزّ رأسه. أعدتُ علبة الحليب إلى الثلاجة، بعنايةٍ أيضاً. ارتشفتُ القليل من القهوة. حسناً. تكلّم يا رجل.

"أخبِرني".

"دعينا نجلس".

انتقلنا إلى غرفة المعيشة.

"قبضوا عليه قبل ساعتين تقريباً. كان في الطريق 417، ويتجه شرقاً. انتبهت فرقة من أمن **كيبيك** إلى لوحة سيارته، فأوقفوه على الفور".

"وهل كان تانغواي؟"

"كان **تانغواي**. تطابقت البصمات".

"هل كان متجهاً إلى **مونتريال؟"**

"يبدو الأمر كذلك".

"وما هي التهم التي وجّهت إليه؟"

"وجّهـــوا إليه، في الوقت الحالي، تهمة حيازة زجاجة شراب مفتوحة في عربة متحـــركة. أقـــدم ذلك المغفل على فتح زجاجة من **جيم بيم،** وتركها على المقعد الخلفي. صادروا من سيارته بعض المجلات الجنسية. يعتقد الرجل الآن أن هذه هي كل التهم الموجهة إليه. تركه الرجال كي يقلق من أجل هذه التهم".

"وأين كان؟"

"يدّعـــي الرجل أنه يمتلك حجرةً في **غاتيناو**. قال إنه ورثها عن والده. أصغي جـــيداً. كان الرجل يتصيّد. أرسل فريق **مسرح الجريمة** عدة رجال ليفتشوا المكان تفتيشاً دقيقاً.

"أين هو الآن؟"

"إنه في **بارثينياس**".

"هل ستتوجه إلى هناك؟"

"أجل". أخذ نفساً عميقاً، وتوقع شجاراً في ما يبدو. لم أرغب برؤية **تانغواي** شخصياً.

"حسناً". شعرتُ بجفاف في حلقي، وبإعياء ينتشر في أنحاء جسدي. هل أشعر بالهدوء؟ لم أشعر بهذا الإحساس منذ وقت طويل.

"ستأتي **كاتي** لزيارتي". قلتُ ذلك مع ضحكة عصبية. "هذا هو سبب... سبب خروجي هذه الليلة".

"أتقولين ابنتك؟"

أومأتُ.

"يا للتوقيت السيئ!"

"ظننتُ أنّ بإمكاني إيجاد أمرٍ ما. أنا... لا عليك".

لم يتكلم أحدنا في اللحظات القليلة التالية.

"أنا مسرور لأن الأمر قد انتهى". تلاشى غضب **رايان** كلياً. نهض وقال: "أتريدين أن أمرّ بك بعد أن أتحدّث معه؟ قد يكون الوقت متأخراً عندها".

شعرتُ بأنه لا يمكنني الاستسلام للنوم قبل أن أعرف النتيجة، مهما كانت سيئة. من هو **تانغواي** هذا؟ ماذا سيجدون في حجرته؟ وهل ماتت **غابي** هناك؟ وهل لقيت **إيزابيل غاغنون** مصرعها هناك أيضاً؟ **وغرايس داماس**؟ أو هل نُقلت الضحايا إلى هناك بعد القتل من أجل ذبحهنّ وتقطيع جثثهنّ، ووضعها في أكياس؟

"نعم، تعال رجاءً".

تذكرت بعد مغادرته أنني لم أخبره عن القفازين. حاولت الإتصال **ببيتي** مجدداً. لم يفارقني الشعور بالقلق، رغم القبض على **تانغواي**. بقيتُ على موقفي من عدم الرغبة بمجيء **كاتي** إلى أي مكان في منطقة **مونتريال**، لذلك لعله يجدر بي أن أتوجه جنوباً بنفسي.

تمكنتُ من التحدّث إليه هذه المرة. قال لي إنّ **كاتي** قد غادرت منذ أيام عديدة. أخبرتُ والدها أنني أنا التي اقترحتُ عليها القيام بهذه الجولة. هذا صحيح،

لأنـــه سبق لي أن وافقتُ على خططها، لكن ليس بالكامل. قال إنه غير متأكد من المحطات التي ستتوقف فيها **كاتي**. لم يجد **بيتي** شيئاً غريباً في برنامجها، لأنها ستسافر مع أصدقائها في الجامعة. سيذهبون بالسيارة إلى **مقاطعة كولومبيا**، حيث ستمكث مـــع إحدى العائلات. ستُكمل جولتها إلى **نيويورك** بعد ذلك حيث ستزور عائلة صديقة أخرى. تعتزم **كاتي** أن تتوجه بعد ذلك إلى **مونتريال**. قال لي إنه ليس قلقاً. أضاف أنه متأكد من أنها ستتصل بي.

بدأتُ بإخباره عن **غابي**، والتطورات التي حدثت في حياتي، لكنني لم أستطِع أن أُكمـــل. لم يحن الوقت بعد، وعلى أي حال فإنّ الأمر انتهى. قال، كعادته، إنه مضطر للإسراع لاستقبال وديعة جديدة في وقت مبكر من الصباح، وتأسف لعدم تمكنه من التحدث معي لوقتٍ أطول. هل من جديد في هذا؟

شـــعرتُ بأنني غير قادرة على أخذ حمام بسبب التعب والإرهاق الذي أشعر به. جلستُ في الساعات القليلة التالية وتغطيتُ بلحاف. أخذ جسدي بالارتعاش، بيـــنما رحــــتُ أحدّق في الموقد الفارغ، وتمنيتُ لو أنّ شخصاً ما يعيش معي كي يـــساعدني على تناول الحساء، ويأخذ بتمسيد جبهتي، ثم يخبرني بأنني سأتحسّن بعد قلـــيل. غفـــوتُ قلـــيلاً ثم استيقظتُ، وانجرفتُ مع أجزاء من حلم، فيما تكاثرت كائنات مجهرية في مجرى دمي.

دقّ **رايان** جرس الباب عند الساعة الواحدة وخمس عشرة دقيقة.

"يا إلهي! تبدين مريعةً يا **برينان!**"

"شـــكراً لاهـــتمامك". عـــدتُ كي أتغطى باللحاف. "أعتقد بأنني مصابةٌ برشح".

"لماذا لا نؤجل حديثنا إلى الغد؟"

"مستحيل".

نظر إليَّ بغرابة ثم تبعني إلى الداخل. ألقى سترته على الأريكة، ثم جلس.

"يدعـــى الـــرجل **جان بيار تانغواي**. يبلغ الثامنة والعشرين من العمر، ومن الـــسكان القدماء في المنطقة. نشأ في **شاوينيغان**. لم يتزوج مطلقاً، ولا أولاد لديه. تعـــيش شقيقته في **أركنساس**. توفيت أمه عندما كان في التاسعة من عمره. عانى مـــشاكل كثيرة هناك. عمل والده ورّاقاً (يطيّن الجدران والسقوف الداخلية)، ربّى

الـــوالد ولديه بصعوبة. توفي العجوز بحادث سيارة عندما كان **تانغواي** في الجامعة. يبدو أنه تأثر كثيراً لموته، لأنه ترك المدرسة، وسكن مع شقيقته لفترة من الزمن، ثم راح يجـــول في أنحاء الولايات المتحدة. هل أنتِ جاهزة لما ستسمعينه الآن؟ أراد أن يكـــون رجل دين، أو شيئاً من هذا القبيل، لكنه فشل في دعوته هذه. يبدو أنهم لم يعتقدوا أنّ شخصيته تتناسب مع رغبته هذه. ظهر الرجل في **كيبيك** مجدداً في العام 1988، واســـتطاع بطريقة ما أن يتقرب من الملتزمين. استطاع أن ينال درجته في التعمق بدراسة الدين بعد مرور عام ونصف عام".

"إذاً، هل تواجد الرجل في المنطقة منذ العام 1988؟"

"أجل".

"تتوافق هذه الفترة من الزمن مع الفترة التي تمّ فيها قتل **بيتري وغوتييه**".

أومأ **رايان**: "وبقيَ هنا منذ ذلك الوقت".

تعيّن عليّ أن أبلع ريقي قبل أن أتمكّن من الكلام.

"وكيف يفسّر تعلّقه بالحيوانات؟"

"يدّعـــي أنه يدرّس مادة **علوم الأحياء** (البيولوجيا). دقّقنا في هذه المعلومة. يقـــول إنه يُنشئ مجموعةً مرجعيةً كي يعود إليها طلاب صفوفه. إنه يُزيل الرطوبة من الجثث، ويجمع الهياكل العظمية".

"يُحتمل أن يقدّم ذلك تفسيراً لوجود كتب التشريح في منـــزله".

"يُحتمل ذلك".

"ومن أين يحصل على الجثث؟"

"يحصل عليها من الحيوانات التي تُقتل على الطرقات".

"أوه، يا إلهي! كان **برتران** على حق إذاً". تصورتُه متسللاً في الطرقات ليلاً، وملتقطاً الجثث قبل أن يجرّها إلى البيت بأكياس بلاستيكية.

"هل سبق له أن عمل في ملحمة؟"

"لم يقل ذلك. لماذا؟"

"ماذا استنتج **كلوديل** من الأشخاص الذين يعمل معهم؟"

"لم يـــستنتج شيئاً لا نعرفه. يُعرف الرجل بأنه منغلقٌ على نفسه، ويقوم بتدريس طلابه. لا أحد يعرفه حق المعرفة. يقولون إنهم لا يُدهشون لزياراته المسائية".

"يتوافق هذا مع ما قالته الجدة لنا".

"تقـــول شـــقيقته إنّ شقيقها لم يكن اجتماعياً أبداً في حياته. لا تستطيع أن تتذكـــر أي صديقٍ له. تكبره شقيقته بتسعة أعوام، ولهذا فهي لا تتذكر الكثير عنه في فترة صباه. زوّدتنا المرأة بمعلومةٍ مهمةٍ عنه".

"وما هي".

ابتسم **رايان**: "يعاني **تانغواي** من العجز في رجولته".

"هل نطقت بهذه المعلومة من تلقاء نفسها؟"

"ظـــنّت أنّ هـــذه المعلومة قد تحمل تفسيراً لنـــزعاته غير الاجتماعية. تعتقد الـــشقيقة بأنـــه غير مؤذٍ أبداً، لكنه يعاني من تدنّي في مستوى تقديره لذاته. تمتك المرأة معلومات واسعة عن وسائل تثقيف الذات، وتعرف كيفية التحدث عن هذه المعلومات".

لم أردّ عليه. انشغلتُ بتذكر أسطرٍ وردت في تقارير التشريح.

"يـــبدو هذا الكلام منطقياً. أظهرت الاختبارات التي أُجريت على **موريسيت – شامبو** نتيجةً سلبيةً بالنسبة للحيوانات المنوية".

"صحيح".

"كيف أصبح عاجزاً؟"

"ســـاعدت الوراثة وبعض الصدمات على هذا. وُلد الرجل بخصيةٍ واحدة، ثم مـــا لبث أن أعطبها نتيجة حادث تعرّض له أثناء ممارسته للعبة كرة القدم. صودف أنّ اللاعـــب الآخـــر كان يحمل قلماً. اصطدم اللاعب الآخر به في تلك المنطقة. توقفت بسبب ذلك عملية حيوية مهمة عند الرجل".

"هل دفعه هذا الواقع إلى الانغلاق على نفسه؟"

"مهلاً، لعل الشقيقة على حق".

تذكـــرتُ تعلـــيقات **جويل**، وكذلك تعليقات **جولي**: "يُحتمل أن يفسّر هذا عدم حماسة الرجل تجاه الفتيات".

"يفسّر هذا عدم حماسته بالنسبة إلى الآخرين أيضاً".

أكمل **رايان** بالقول: "أليس من الغريب أن يختار مهنة التدريس؟ ولماذا يعمل في بيـــئةٍ يضطر فيها إلى التفاعل مع أشخاصٍ كثيرين؟ وإذا كان الرجل يشعر بأنه

عاجـــز، فلماذا لا يختار عملاً أقل خطورة بالنسبة إليه، والذي يضمن له خصوصية أكبر؟ مثل الكمبيوترات؟ أو المختبرات؟"

"لستُ محلّلةً نفسيةً، لكنني أعتقد أن التعليم أكثر مثالية بالنسبة إليه. لا يتفاعل الإنسان مع أنداده، كما تعرف. يتفاعل الكبار مع الأولاد. يختار الرجل أن يمتلك الـــسلطة، وبهذا يصبح الصفّ مملكته الصغيرة، حيث يضطر الطلاب إلى تنفيذ ما يطلبه منهم. لا يستطيع هؤلاء أن يسخروا منه، أو يتوقعوا ما يُمكن أن يفعله".

"لن يفعلوا ذلك أمامه مباشرة، على الأقل".

"يُحـــتمل أن يـــؤمّن له ذلك التوازن الذي يبحث عنه. تلبّي له هذه الوظيفة حاجته إلى السلطة والتحكّم أثناء النهار، وتلبّي تخيّلاته الجنسية المثيرة في الليل".

قلـــتُ له: "أعتقد أنّ هذا هو السيناريو الأفضل. فكّر في فرص التلصّص التي لديه، أو حتى فرص الاحتكاك مع الفتيات".

"أجل".

جلـــسنا وســـط صمت لبرهة من الزمن، فيما راحت عينا **رايان** تجولان في الغرفة بالطريقة ذاتها التي لاحظتُها عندما كان في شقة **تانغواي**. بدا مرهقاً.

قلتُ: " أعتقد أنني لم أعد بحاجة إلى وحدة المراقبة".

نهض واقفاً: "أجل".

مشيتُ معه نحو الباب.

"ما رأيكَ به يا **رايان؟**"

لم يجِبني على الفور. تكلّم بعدها، لكن بحذر شديد.

"يدّعـــي الرجل أنه بريء مثل **آني اليتيمة الصغيرة**. إنه يخفي شيئاً ما. سنعلم في الغد ماذا يدور في ذلك الوكر. سنستخدم ما نكتشفه فيه ونواجهه به. أعتقد أنّ الرجل سينهار".

أخذتُ بعد مغادرته جرعةً كبيرةً من دواء الرشح، واستسلمتُ لنومٍ عميقٍ للمرة الأولى منذ أسابيع. لم أتذكر شيئاً من أحلامي، هذا إذا كنتُ قد حلمت فعلاً.

تحـــسّن مزاجـــي كثيراً في اليوم التالي، لكن ليس إلى الدرجة التي تسمح لي بالتوجه إلى المختبرات. تجنبتُ الخروج ومقابلة الناس من قبيل الحذر، لذلك بقيتُ في المنـــزل.

شغلتُ نفسي بقراءة أطروحة لأحد الطلاب، والرد على الرسائل التي تجاهلتُها لأسابيع عديدة. اتصل بي **رايان** عند الواحدة تقريباً، أي عندما كنتُ منشغلة بإخراج ثيابي المغسولة من آلة التجفيف. استنتجتُ من نبرة صوته أنّ الأمور لا تسير على ما يرام.

"فتّش فريق مسرح الجريمة الحجرة رأساً على عقب، لكنه لم يجد شيئاً. لم يجد الرجال شيئاً يشير إلى أنّ الرجل يعمد إلى الغش حتى في لعبة الورق. لم يجدوا أي أثر للسكاكين، أو المسدسات أو البنادق، أو الأفلام الجنسية، أو تذكارات **دوبجانسكي** التي ينتزعها من ضحاياه. لم يجدوا مجوهرات، ولا ملابس، ولا جماجم، أو أجزاء من جثث. وجدوا سنجاباً ميتاً في الثلاجة. هذا كل ما وجدوه، ولم يجدوا شيئاً غير ذلك.

"هل وجدوا أدوات حفر؟"

"لا شيء".

"هل يمتلك الرجل كوخاً، أو حجرةً سفلية حيث يمكنه الاحتفاظ بمناشير، أو بأنصال قديمة؟"

"أو بأمشاط، أو معزقة، أو بصناديق خشبية، ومنشار قديم، وعربة يد غير صالحة. إنها أدوات الحدائق المعتادة، وما يكفي من العناكب التي تملأ كوكباً صغيراً. يبدو أن **جيلبير** يحتاج إلى تحليلٍ نفسي".

"هل توجد مساحة تتسع للزحف؟"

"أنت لا تصغين إليّ يا **برينان**".

سألتُ بصوتٍ ينضح بالكآبة: "**واللومينول**؟"

"لا شيء".

"هل وجدوا قصاصات صحف؟"

"لا".

"هل وجدوا أي شيء يربط ذلك المكان مع الغرفة التي قمنا بتفتيشها في **بيرغر**؟"

"لا".

"أو مع **سان جاك**؟"

"لا".

"أو مع **غابي**؟"

"لا".

"أو مع أي ضحية أخرى؟"

لم يردّ على سؤالي هذا.

"وماذا تعتقد أنه يفعل هناك؟"

"إنه يمارس هواية الصيد، ويفكر في خصيته المفقودة".

"وما العمل الآن؟"

"سأجري، أنا **وبرتران** حديثاً مطولاً مع المسيو **تانغواي**. حان الوقت كي نواجهه ببعض الأسماء، وكي نقوم بزيادة الضغط عليه. أعتقد أنه سينهار في النهاية".

"وهل يعني هذا شيئاً بالنسبة إليك؟"

"يُحتمل ذلك، وأعتقد أنّ فكرة **برتران** ليست سيئة بهذا القدر. يُحتمل أن يكون **تانغواي شخصية من** إحدى شخصياته المتعددة، ولعل إحدى جوانب شخصيته أستاذ البيولوجيا الذي يعيش حياةً نظيفةً، ويمارس هواية صيد السمك، والذي يجمع العيّنات لصالح طلابه. يتميّز الجانب الآخر من شخصيته بحقد لا محدود تجاه النساء، وبشعورٍ بالعجز يحمله على ملاحقة النساء وضربهنّ حتى الموت. يُحتمل أنه يفصل ما بين جزأي شخصيته، حتى إلى الحد الذي يجعله يحتفظ بمكان منفصلٍ كي يمارس فيه تخيلاته، ويستمتع بتذكاراته. اللعنة، لعل **تانغواي** ذاته لا يعرف أنه معتوه!"

"رائع! يبدو الأمر مثل السيد **بيبرز** والسيد **كريبرز**".

"مَن؟"

"لا عليك. إنهما شخصيتان من مسرحية هزلية قديمة". أخبرته بما علمته من **لاكروا**.

"لماذا لم تخبريني من قبل؟"

"يصعب على المرء أن يحدد مكانك يا **رايان**".

"إذاً فأنتِ تظنين أنّ شارع **بيرغر** له علاقة بالجرائم".

"ما الذي يجعلك تظن أن لا وجود للبصمات هناك؟"

"اللعنة يا **بريتان!** لا أعرف. أعتقد أن **تانغواي** بارد مثل الثلج الأسود. أدان **كلوديل** هذا الرجل. يمكنك أن ترتاحي لسماع هذا الخبر".

"لماذا؟"

"سأطلب منه أن يخبرك بنفسه. اسمعي، عليّ التوجّه إلى هناك".

"ابقَ على اتصالٍ معي".

أنهـــيت الرد على الرسائل وقررتُ أخذها إلى مكتب البريد. فتحتُ الثلاجة. لن تأكل **كاتي** قطع اللحم المفروم. ابتسمتُ، وتذكّرتُ ذلك اليوم الذي أعلنت فيه أمامــي أنهـــا ستتوقف عن أكل اللحم. إنها ابنتي المتحمسة النباتية التي تبلغ الرابعة عـــشرة مـــن عمرها. ظننتُ عندها أنّ الأمر لن يستمر أكثر من ثلاثة أشهر، لكنه استمر ما يزيد عن الخمسة أعوام.

حضّرتُ قائمةً في ذهني. **حمّص، تبولة**، جبن، عصائر الفواكه. لا تتناول **كاتي** الصودا. كيف أنجبتُ هذه الفتاة!

شعرتُ بألمٍ في حنجرتي، وأحسستُ بالحرارة مجدداً، ولذلك قررتُ أن أتوقف قلـــيلاً في الـــنادي. قرّرتُ أن أحارب تلك الكائنات المجهرية عن طريق التمارين والبخار. وسيخرج أحدنا منتصراً في النهاية.

تبيّن لي في ما بعد أن فكرة التمارين غير موفقة أبداً. بدأت رجلاي بالارتعاش بعـــدما أمـــضيت عـــشر دقائـــق على **ستاير ماستر**، وتصبّب العرق من وجهي. اضطررت إلى التوقف عن التمارين.

أعطـــى الـــبخار نـــتائج متناقضة. شعرتُ بارتياح في حنجرتي، وأراح تلك الأربطة التي كانت تضغط على جبهتي وعظام وجهي. جلستُ وسط البخار الذي غمرني، لكن عقلي بحث عن شيء يفكّر به. وقع خياره على **تانغواي**. رحتُ أفكّر بمـــا قالـــه **رايـــان** لي عن نظرية **برتران**، وعن توقعات **جاي. أس**. بالإضافة إلى المعطـــيات التي أعرفها. أقلقني أمرٌ ما يتعلّق **بتانغواي**. تسارعت أفكاري فشعرتُ بتوتر أكبر. القفازان. لماذا أخفيت أمر القفازين؟

هـــل أن إعاقـــة **تانغـــواي** الجسدية قادته إلى تخيّلاته الجنسية، والتي انتهت بالعنف؟ هل كان فعلاً رجلاً يتميز بحاجةٍ ملحةٍ لفرض سيطرته؟ هل كان القتل هو

أقصى فعل يمكّنه من فرض هذه السيطرة؟ ***أستطيع الاكتفاء بمراقبتك، وإلا سأنزل الأذى بك، أو حتى سأقتلك!*** هل يمارس تخيلاته المثيرة هذه مع الحيوانات؟ هل فعل ذلك مع **جولي**؟ إذاً لماذا القتل؟ هل يستطيع منع نفسه من ممارسة العنف لفترة معينة، ثم يستسلم فجأة أمام حاجته؟ هل أن نزعات **تانغواي** ما هي إلا نتيجة منطقية للإهمال الذي تعرّض له من والدته؟ أم أنها نتيجة عاهته؟ وهل نتجت هذه العاهة عن كروموسوم سيئ؟ أم من أمرٍ آخر؟

لماذا **غابي** بالذات؟ إنها لا تتناسب مع الصورة العامة. عرفها الرجل، وكانت من الناس القلائل الذين كانوا يتحدثون معه. شعرتُ بموجة من الكَرَب.

أجل. إنها تتناسب مع الصورة العامة، هذه الصورةً العامة التي تشملني أنا. وجدتُ **غرايس داماس** بنفسي، وحدّدتُ هوية **إيزابيل غاغنون**. هل أقوم بالتدخل في شؤونه، وبالتالي أتحدى سلطته، ورجولته. هل نفّست عملية قتل **غابي** غضبه الذي يشعر به تجاهي، وبالتالي أعادت إليه شعوره بالسيطرة والتحكّم. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ هل تحتّم الصورة العامة عليه أن ينصرف لمطاردة ابنتي؟

إنه مدرّس، وقاتل، والرجل الذي يحب صيد الأسماك. إنه الرجل الذي يحب تشويه الجثث. استمر عقلي بالشرود على هواه. أغمضتُ عينيّ، وشعرتُ بأنني مقيدة تماماً. تراقصت أمام عينيّ ألوان زاهية. غابت وعادت مثلما تفعل أسماك الزينة في أحواضها.

المدرّس. أستاذ علوم الأحياء.

عاودني الشعور بالضيق. أحسستُ بشعورٍ معيّن. هيا. هيا. ماذا. مدرّس. مدرّس. هذا ما كنت أبحث عنه. إنه مدرّس، ويعمل بالتدريس منذ العام 1991. **سان إيزادور**. نعم. نعم. نعرف ذلك. وماذا يعني الأمر؟ شعرتُ بثقلٍ في رأسي بحيث عجزتُ عن التفكير. والآن ماذا:

القرص المدمج. نسيتُه كلياً. تناولتُ منشفتي ومضيتُ في طريقي. يُحتمل أن يحتوي ذلك القرص على شيء ما.

39

تـــصبّب العرق مني بشدة، وشعرتُ بالضعف في أنحاء جسمي، لكنني تمكنتُ من قيادة سيارتي. إنها مغامرةٌ غير موفقة يا **بريتان**. ربحت الميكروبات هذه الجولة. أخفـــضي من سرعتك، لأن آخر شيء ترغبين به هو أن توقفك الشرطة. توجهي إلى منـــزلك. اعثري عليها، لا بد أن تجدي شيئاً.

أســـرعتُ عبر **شيربروك**، واستدرتُ على طول المجمّع السكني، ثم انطلقتُ في الـــشارع مجـــدداً. صدر صوت طنين من باب المرآب مجدداً. اللعنة! لماذا لم يُقدم **وينـــستون** على إصلاحه بعد؟ ركنتُ السيارة وأسرعتُ نحو شقتي. توجهتُ كي أتأكد من التواريخ.

رأيتُ حقيبةً على الأرض أمام باب شقتي.

"اللعنة! ماذا يعني وجود هذه الحقيبة؟"

نظـــرتُ إلى الحقيبة. إنها من الجلد الأسود، ومن صنع **كاوش**. إنها غالية الثمن. كُتب عليها بأنها هدية من **ماكس فيرانتي** قُدّمت إلى **كاتي**. ربضت الهدية خارج بابي.

جمُد قلبي في صدري.

كاتي!

فـــتحتُ الباب وناديتُ اسمها. لا جواب. نقرتُ رمز الأمان وحاولتُ مجدداً. صمت.

ركـــضتُ من غرفة إلى غرفة، وبحثتُ على علامات وجود ابنتي، لكنني كنتُ علـــى ثقة بأنني لن أجد أحداً. هل تذكّرت أن تجلب مفتاحها معها؟ لو أنّ المفتاح

معهـــا لمـــا تركت حقيبتها في الرواق. حضرت **كاتي** إلى هنا، لكنها لم تجدني في المنـــزل، فتركت حقيبتها وتوجهت إلى مكان ما.

وقفـــتُ، مرتعـــشة، في غرفة النوم. أدركتُ أنني وقعتُ ضحية الفيروسات والخوف. فكّري يا **بريнан**. فكّري! حاولتُ، لكن الأمر لم يكن سهلاً.

وصـــلت ابـــنتي إلى الـــشقة، لكنها لم تستطِع دخولها. يُحتمل أن تكون خـــرجت من أجل إحضار كوب من القهوة، أو كي تشتري شيئاً من المحلات، أو حتى كي تبحث عن هاتف. لا بد أن تتصل بي في غضون دقائق قليلة.

لا تمـــتلك **كـــاتي** مفـــتاحاً للشقة، إذاً كيف دخلت من الباب الخارجي إلى الرواق، وإلى الباب الذي يؤدي إلى الشقة؟ المرآب. لا بد من أنها دخلت من باب المشاة إلى المرآب، أي من الباب الذي لا ينغلق جيداً بعد إغلاقه.

الهاتف!

ركـــضتُ باتجاه غرفة المعيشة. لم أجد أي رسائل آتية. هل يُحتمل أن يكون **تانغواي** هو السبب؟ هل نال منها؟

يستحيل هذا، لأنه في السجن.

يقـــبع المـــدرّس في الـــسجن، لكنه ليس الشخص المسؤول. المدرّس ليس الشخص المسؤول. أو هل يُحتمل أن يكون هو؟ هل ما زال يحتفظ بالغرفة في شارع **بيرغر**؟ هل هو الشخص الذي دفن القفّاز مع صورة **كاتي** في القبر الذي أعدّه **لغابي**؟

تـــسبّب الخـــوف الذي شعرتُ به بموجة من الغثيان تتصاعد داخل صدري. بلعتُ ريقي فشعرتُ بألمٍ شديد في حنجرتي.

راجعي الحقائق يا **بريнан**. تحققي مما إذا كانت الأيام أيام عطلات.

شـــغّلتُ الحاسوب بيدينٍ مرتعشتين، لكن أصابعي بالكاد استطاعت تحريك المفتاح. ملأت الجداول مساحة الشاشة، فظهرت أمامي التواريخ والأوقات.

قُـــتلت **فرانـــسين موريسيت – شامبو** في شهر كانون الثاني. ماتت ما بين العاشرة صباحاً وظهيرة يوم الخميس.

اختفت **إيزابيل غاغنون** في شهر نيسان ما بين الواحدة والرابعة من بعد ظهر يوم جمعة.

اخـــتفت **شانتال تروتييه في** ظهيرة يوم من أيام تشرين الأول. شوهدت آخر مرة في مدرستها التي تقع في وسط المدينة، أي على بعد أميالٍ من **الجزيرة الغربية.**

اختفت الضحايا خلال أيام الأسبوع، وأثناء النهار، وفي أيام الدراسة. يُحتمل أن تكون **تروتييه** قد خُطفت بعد ساعات الدراسة، بعكس ما حصل مع الضحيتين الأخريين.

أمسكتُ سماعة الهاتف.

لم يرد **رايان** عليّ.

أرجعـــتُ السمّاعة إلى مكانها. شعرتُ بثقلٍ شديدٍ في رأسي، لكن أفكاري كانت تتحرك ببطء.

جرّبتُ رقماً آخر.

"كلوديل".

"مسيو كلوديل، أنا الدكتورة برينان".

لم يردّ.

"أين تقع سان إيزادور؟"

تردد قليلاً، ظننتُ أنه لن يجيبني.

"بايكونـــزفيلد".

"هل تبعد هذه مسافة ثلاثين دقيقة عن وسط المدينة؟"

"نعم، لكن من دون وجود زحمة سير".

"هل تعرف مواعيد ساعات الدراسة هناك؟"

"ولماذا تريدين معرفتها؟"

"هل أستطيع الحصول على جواب من دون تقديم شرح؟" كنتُ أدفع بالأمور إلى حافة الانفجار، ولا بد أنه استنتج ذلك من صوتي.

"أستطيع أن أسأل".

"أريد أن أعرف ما إذا كان **تانغواي** قد اعتاد التغيّب عن صفوفه، وإذا كان قـــد اعـــتاد أن يتـــصل كـــي يُبلغ بأنه مريض، أو ما إذا كان قد أخذ يوم إجازة شخصية، وعلى الأخص في الأيام التي قُتلت فيها **موريسيت – شامبو وغاغنون.**

أعـــتقد أهم يحتفظون بسجلات في المدرسة، التي كانت تضطر إلى إيجاد بديل عنه، إلا إذا كانت مقفلة لسبب ما".

"سأتوجه غداً إلى هناك..."

"الآن. أريـــد هـــذه المعلومات الآن!" أحسستُ أنني على وشك أن أصاب بالهستيريا، وتمسكت أصابعي بحافة السرير. تمنيتُ أن لا أضطر للقفز.

شعرتُ أنني أسمع أصوات عضلات وجهه أثناء توترها. هيا يا **كلوديل**. أقفِل الخط، سأنال منك.

"سأتصل بك لاحقاً".

جلـــستُ على حافة السرير، ورحتُ أحدّق بشرود في الغبار أثناء تراقصه في ذلك الحيّز من ضوء الشمس.

هيا تحركي.

تـــوجهتُ إلى الحمّـــام وغـــسلتُ وجهي بالمياه الباردة. استخرجتُ مربعاً بلاستيكياً من حقيبتي، ثم عدت إلى الحاسوب. حملت الحقيبة عنوان **شارع بيرغر**، بالإضـــافة إلى تاريخ 94/06/24. رفعتُ الغطاء، وتناولتُ القرص المدمج منها، ثم وضعتُه في محرّك الأقراص.

فـــتحتُ برنامجاً مخصصاً لمشاهدة الصور، فظهرت على الشاشة سلسلة من الأيقـــونات. نقـــرتُ علـــى ***ألبوم، ثم افتح***. برز اسم البوم واحد في المساحة المخصـــصة، بيرغر أي. بي. أم. ***Berger.abm***. نقرتُ مرتين، فامتلأت الشاشة بـــثلاثة صـــفوف من الصور. عرضت كل واحدة منها ست صورٍ جامدة تمثل شقة **سان جاك**. ظهر سطر في الأسفل جاء فيه أنّ الآلبوم يحتوي مئة وعشرين صورة.

نقـــرتُ كي أكبّر الصورة الأولى التي تمثّل **شارع بيرغر**. أظهرت الصورتان الثانـــية والثالثة الشارع من زوايا مختلفة. مثّلت الصورة الثانية بناية للشقق المفروشة مـــن الـــواجهة والخلف. ظهر بعد ذلك الرواق الذي يؤدي إلى شقة **سان جاك**. بدأت مناظر الشقة الداخلية بالظهور بدءاً من الصورة الثانية عشرة.

شـــاهدتُ الـــصور واحدةً بعد أخرى، وتأملتُ كلّ التفاصيل التي أظهرتها. بدأت الدماء تضج في رأسي. وتوترت عضلات كتفي وظهري وكأنها أسلاك طاقة

ذات توتـــرٍ عــــالٍ. وجـــدتُ نفسي في تلك الشقة مجدداً وسط الحرارة الخانقة، والخوف، وروائح القذارة والعفونة.

فتّشتُ صورة إثر صورة. أفتّش عن ماذا؟ لم أكن واثقة. شاهدتُ كل شيء. صـــور **هسلر**، والصحف، وخريطة المدينة، ومبنى الدرج، والحمّام القذر، وسطح الطاولـــة الملـــيء بالـــزيوت، وكوب **بيرغر كينغ**، والإناء المليء بقطع السباغيتي المستديرة.

تـــوقفتُ كـــي أتأمل مناظر الحياة الجامدة. إنه الملف رقم 102. رأيتُ إناءً بلاســـتيكياً وسخاً، وحلقات دهنية بيضاء تجمعت في ترسبات حمراء. رأيتُ ذبابةً وقـــد ضـــمّت يديها وكأنها تؤدي صلاة. لاحظتُ كتلةً برتقالية اللون ترتفع من الصلصة وقطع المعكرونة.

حـــدّقتُ جيداً، وانحنيتُ إلى الأمام. هل يُعقل أنني أرى ما اعتقدتُ أنني أراه؟ إنه هناك، ويعبر فوق تلك الكتلة البرتقالية اللون. تسارعت ضربات قلبي. لا يُمكن أن يكون هذا صحيحاً. لا يُمكن أن نكون محظوظين هكذا.

نقـــرتُ مـــرتين فظهر أمامي خط متقطع. حرّكتُ المؤشر وما لبث الخط أن تحـــوّل إلى مـــستطيلٍ تـــشكلت حدوده من سلسلة من النقاط الدوارة. وضعتُ المـــستطيل فـــوق تلك الكتلة البرتقالية مباشرة. نقرتُ زرّ تكبير الصورة مرةً بعد أخـــرى. كبّـــرتُ الـــصورة ضعفين، ثم ثلاثة أضعاف. وصلتُ بالتكبير إلى ثمانية أضـــعاف الحجم الطبيعي للصورة. واظبتُ على مراقبة ذلك القوس الشاحب الذي لاحظـــته في البداية حتى أصبح خطاً من النقاط والأشرطة. أعدتُ تصغير الصورة حتى وصلت إلى حجمها الطبيعي، ثم تفحصتُ القوس بكامله.

"أوه، يا إلهي!"

اســـتخدمتُ محـــرّر الـــصورة كي أعدّل سطوع الصورة وتباينها، ثم عدّلتُ الـــشكل والإشـــباع فيها. جرّبتُ أن أعكس الألوان، واستبدلتُ كل نقطةٍ على الـــشاشة بمـــا يكمّلها. استخدمتُ أمراً للتركيز على الأطراف، فأصبح ذلك الخط الدقيق أكثر بروزاً على الخلفية البرتقالية اللون.

تراجعتُ قليلاً وبدأتُ بالتحديق. تنفستُ بعمق. يا إلهي القدير! إنه هو بالذات.

أسرعتُ نحو الهاتف بيدٍ مرتعشةٍ.

علمـــتُ من الرسالة المسجلة التي ردّت عليّ أن **بيرغيرون** ما زال في إجازة. يتعيّن عليّ إذاً أن أعمل بمفردي.

بحثتُ عن رقمٍ آخر وطلبته.

"مركز احتجاز ***بارثينياس***".

"أنا **تمب برينان**. هل **آندرو رايان** موجود؟ يُفترض أن يكون الآن مع سجين يدعى **تانغواي**".

"لحظة واحدة من فضلك. ابقَي على الخط".

سمعتُ أصواتاً عند الطرف الآخر. هيّا. هيّا.

"إنه غير موجود هنا".

اللعنة! نظرتُ في ساعتي. "هل **جان برتران** موجود؟"

"أجل. لحظةً واحدةً".

سمعتُ المزيد من الأصوات، والمزيد من الثرثرة.

"برتران".

عرّفتُ عن نفسي، وشرحتُ له ما اكتشفته لتوي.

"اللعنة! لا. وماذا قال **بيرغيرون**؟"

"إنه في إجازة حتى الإثنين المقبل".

"رائـــع، رائع جداً! أعتقد أنني أصبحتُ أميل إلى الترحيب بما تكتشفينه. ماذا تريدنني أن أفعل؟"

"ابحث عن قطعة **ستايروفوم** عادية، ودعه يعضّ عليها. لا تدخلها بعيداً جداً في فمه. أريد الحصول على آثارٍ لأسنانه الست الأمامية. دعه يعضّ من الطرف إلى الطـــرف كي تحصل على آثارٍ واضحة لأسنانه، أريد الحصول على قوسٍ من كل جهة من جهتَي القطعة. أريدكَ بعد ذلك أن تأخذ **الستايروفوم** إلى الطابقِ السفلي وتعطـــيها إلى **مـــارك دالاير**، الذي يعمل في قسم التصوير. يقع مكتب الرجل في الخلف، أي وراء قسم الأسلحة. هل استوعبتَ هذا؟"

"أجل. أجل، لكن كيف أُقنع **تانغواي** أن يفعل ذلك؟"

"إنها مشكلتك أنت. يمكنك التفكير بشيء ما. لن يمانع الرجل إذا كان يدّعي بأنه بريء".

"ومن أين أحصل على **الستايروفوم** عند الرابعة والأربعين دقيقة مساءً؟"

"اذهــب واشــترِ لنفسك **بيغ ماك** يا **برتراند**. لا أعرف. احصل عليها بأي طريقة. يتعيّن عليّ أن أقابل **دالاير** قبل أن يغادر. هيا تحرك!"

كان **دالاير** ينتظر المصعد عندما اتصلتُ به. ردّ عليّ من مكتب الاستقبال.

"أريد خدمةً منك".

"نعم".

"سيأتي **جان برتران** إلى مكتبك في غضون ساعة، وسيعطيك نماذج من آثار عضة. أريد أن أنقل الصورة إلى ملّف Tif. أريد أن يُرسل هذا الملّف إليّ في أسرع وقت ممكن. هل تستطيع أن تفعل هذا من أجلي؟"

مرّت فترة صمت طويلة. رأيتُه في ذهني وهو ينظر إلى ساعة المصعد.

"هل يتعلق هذا **بتانغواي؟**"

"نعم".

"إذاً سأنتظر، بالتأكيد".

"أريــدكَ أن تسلّط الضوء بشكلٍ مائل عبر **الستايروفوم**، وابذل جهدكَ كي تكون متوازية قدر الإمكان، وذلك كي تظهر العلامات. حاوِل أن تُدخل مقياساً في الصورة مثل مسطرة، أو أي شيء آخر. أريد أن يكون مقياس الصورة متساوياً، أي واحداً إلى واحد، من فضلك".

"لا مــشكلة في ذلــك. أعتقد أنني أمتلك مسطرة ABFO، في مكان ما في مكتبي".

"رائــع". أعطيــته عنوان بريدي الإلكتروني، وطلبتُ منه أن يتصل بي هاتفياً عندما ينتهي من إرسال الملف.

رحتُ أنتظر بعد ذلك. مرّت الثواني ببطء يماثل بطء مسيرة جبلٍ جليدي. لم يتــصل بي أحد، حتى **كاتي**. ومضت أرقام الساعة باللون الأخضر. سمعتُ الأرقام أثناء تغيّرها. **كليك، كليك، كليك**.

أمسكتُ بسماعة الهاتف ما إن رنّ.

"دالاير".

"نعم". بلعتُ ريقي، لكن الألم كان لا يُطاق في حنجرتي.

"أرسلتُ الملّف منذ خمس دقائق تقريباً. أسميته تانغ.تيف. Tang.tif. إنه ملّف مــضغوط، وهكذا يتعيّن عليك إزالة التشفير. سأبقى هنا حتى تنتهي من التحميل، وذلــك كي أتأكد من عدم وجود مشاكل في البرنامج. إنني أنتظر رداً منكِ. أتمنى لك حظاً طيباً".

شــكرتُه وأنهــيتُ المكالمــة. أســرعتُ نحو الحاسوب، ثم فتحتُ بريدي الإلكتــروني في **مــاك جــيل**. ومضت أمامي الكلمات التالية ***البريد في حالة الانــتظار!!!*** تجاهلتُ الرسائل الأخرى، وباشرتُ كي أحمّل الملف الذي أرسله **دالاير** لي، ثم أرجعتُه إلى صيغته الأصلية. ظهرت أمامي صورة آثار الأسنان على طــول الــشاشة، وبــدا كل سنٍ بوضوح إزاء خلفية بيضاء. بدت العلامات عامودية إلى يسار الشاشة وأسفلها وشكّلت مسطرة ABFO. أرسلتُ رداً إلى **دالاير**، ثم أقفلتُ البرنامج.

عــدتُ إلى بــرنامج الــصور، وأظهرتُ برنامج تانغ.تيف. ***Tang.tif*** على الــشاشة، ثم نقــرتُ مــرتين كي يُفتح. ملأت علامات أسنان ***تانغواي*** الشاشة. اســترجعتُ آثار العضة التي وُجدت على قطعة الجبن في **شارع بيرغر**، ثم وضعتُ الصورتين جنباً إلى جنب.

حوّلتُ الصورتين بعد ذلك إلى مقياس أر. جي. بي. RGB، وذلك من أجل الحــصول علــى أكبر كمية ممكنة من المعلومات الواردة في الصور. عدّلتُ درجة اللــون، والــسطوع، والإشباع. استخدمتُ **معدّل** الصورة من أجل تحديد أكبر لأطراف العلامات على **قطعة الستايروفوم**، وفعلتُ الأمر ذاته بالنسبة إلى العلاّمات الموجودة على قطعة الجبن.

وجــدتُ أنــه من الضروري تواجد الصورتين بنفس المقياس، هذا إذا أردتُ إجــراء ذلك النوع من المقارنة. أبرزتُ مسماكاً وتفحصتُ المسطرة الموجودة في صــورة **تانغواي**، فلاحظتُ أنّ المسافة الفاصلة ما بين علامتَي العضّ تبلغ ميليميتراً واحداً بالضبط. حسناً. تأكدتُ أن المقياس هو واحد إلى واحد.

لم تظهر مسطرة في صورة **بيرغر**. ما العمل الآن؟

يتعيّن عليّ استخدام شيء آخر، مثل العودة إلى الصورة الكاملة، وذلك كي أحصل على معلومةٍ معيّنة.

وجـــدت هذه المعلومة. لامس كوب **بيرغر كينغ** الوعاء المجاور للجبن، وبدا شعاره الملون بالأحمر والأصفر واضحاً ومميزاً. رائع.

هرعتُ إلى المطبخ. تمنيت لو أنه ما زال هناك! فتحتُ أبواب الخزانة، ورحتُ أفتّش في سلة المهملات الموجودة تحت حوض الأطباق.

أجــل! غـــسلتُ بقايا تفل القهوة، ثم حملتُ الكوب إلى جانب الحاسوب. ارتعـــشت يداي عندما نشرتُ المقياس. تبيّن لي أنّ سماكة الذراع العامودية لحرف الباء B تبلغ أربعة ميليمترات بالضبط.

اخترتُ زرّ تعديل الحجم في **تعديل** الصورة، ونقرتُ على أحد طرفَي حرف الـــباء B الموجود على كوب **شارع بيرغر**، وسحبتُ المؤشر حتى الطرف (الحد) الأقـــصى، ثم نقـــرتُ مجـــدداً. أمرتُ البرنامج بتغيير حجم الصورة بكاملها بعدما فـــرغتُ من اختيار نقاط القياس. فعلتُ ذلك إلى أن أصبح قياس حرف الباء B في تلك الوضعية أربعة ميليمترات بالضبط. تغيّرت أبعاد الصورة على الفور.

أصـــبحت الـــصورتان الآن بمقياس واحد إلى واحد. نظرتُ إليهما جنباً إلى جنب في شاشة الحاسوب. أظهرت آثار عضة **تانغواي** قوس أسنانٍ تاماً يمتلك ثمانية أسنان على كل من جانبَي خط الوسط.

تواجدت علامات خمس أسنانٍ فقط على قطعة الجبن. كان **برتران** محقاً. بدا الأمر وكأنه بداية زائفة. عضّت الأسنان، ثم انـــزلقت، أو تراجعت، قبل أن تقضم قطعة خلف العلامة التي كنتُ انظر إليها.

حـــدّقتُ في مسار العلامات. تأكدتُ من أنها تعود إلى القوس الأعلى من الأســـنان. تمكنتُ من رؤية منخفضَين طويلين على كل جانبٍ من جانبَي خط الوســـط، ولعلـــهما يعـــودان إلى الأسنان القاطعة الوسطى. لاحظتُ وجود أخـــدودَين أقـــصر قليلاً إلى جانب هذين المنخفضين. تواجد إلى أقصى يسار القوس منخفضٌ صغير ودائري، ولعله ناتج عن أحد الأنياب. لم أشاهد علامات لأسنان أخرى.

مرّرتُ راحتَي يديّ المتعرقتين إلى أسفل جهتَي قميصي، وقوست ظهري، ثم أخذت نَفَساً عميقاً.

حسناً، أستطيع الآن أن أنتقل إلى الموقع.

اختـــرتُ زر ***المفعـــول***، ونقرتُ زر ***تدوير***، ثم ناورتُ ببطء بين آثار أسنان **تانغـــواي**، وتمنيتُ أن أتوصّل إلى التوجيه ذاته الذي حصلتُ عليه للعلامة الموجودة على قطعة الجبن. أدرتُ القواطع الوسطى باتجاه عقارب الساعة نقرةً فنقرة. قدّمتُ الـــصورة درجات قليلة في كل مرة إلى الأمام، وإلى الوراء، ثم إلى الأمام مرةً ثانية. ســـاهم القلـــق والشرود اللذان شعرتُ بهما في إطالة هذه العملية. استغرق الأمر جلسة بأكملها، لكنني شعرتُ بالرضا في النهاية. تواجدت أسنان **تانغواي** الأمامية على الزاوية ذاتها، والموقع ذاته مثل مثيلاتها على قطعة الجبن.

عـــدتُ مجدداً إلى قائمة ***تعديل***. نقرتُ على زرّ ***وصل***. اخترتُ صورة الجبن لـــتكون الصورة الحية إلى جانب علامات أسنان ***تانغواي***، الصورة الجانبية. عدّلتُ مـــستوى الشفافية عند نسبة 30 بالمئة، وما لبثت عضّة **تانغواي** أن ظهرت معتمةً أكثر.

نقـــرتُ على البقعة الموجودة مباشرة ما بين أسنان **تانغواي** الأمامية، ونقرتُ مجدداً على الفجوة المقابلة في قوس قطعة الجبن، وهكذا حددتُ نقطة ***وصل*** في كل صـــورة. شـــعرت بالارتياح. شغّلتُ زر ***ضع***، وهكذا وضع **زر تعديل الصورة** علامـــات عضة **تانغواي** فوق تلك الموجودة في قطعة الجبن. بدت الصورة الناتجة معتمة جداً. وتلاشى المسار الموجود على قطعة الجبن كلياً.

رفعـــتُ مستوى الشفافية إلى 75 بالمئة وراقبتُ نقاط **الستايروفوم** وأشرطته وهـــي تتلاشى إلى أن أصبحت شفافةً كالأشباح. تكوّنت لديّ الآن رؤية واضحة للمنخفـــضات والفجـــوات الموجودة في قطعة الجبن من خلال الآثار التي أحدثتها أسنان **تانغواي**.

يا إلهي القدير!

عـــرفتُ علـــى الفـــور أنّ العضتين لا تعودان للشخص ذاته. لم تفلح محاولات الـــتلاعب اليدوية، أو التعديل الدقيق، في تغيير هذا الانطباع، وتأكدتُ أنّ الفم الذي أحدث العضّة على **الستايروفوم** ليس هو ذاته الذي ترك أثره على قطعة الجبن.

تبـــيّن لي أنّ قـــوس الأســـنان لدى **تانغواي** ضيّق جداً، وأنّ منحنى الأسنان الأمامـــية عنده أضيق بكثير من ذلك الذي حُفظ في قطعة الجبن. أظهرت الصورة المركّبة شكل حدوة حصان فوق شكل نصف دائرة.

لاحظتُ أمراً أكثر إدهاشاً، وهو أنّ الشخص الذي كان يأكل الجبن في **شارع بيرغو** يمتلك انقطاعاً شاذاً إلى يمين فجوة خط الوسط الطبيعية، إلى جانب بروز السن المجاور بزاوية ثلاثين درجة، وهذا ما جعل صف الأسنان عنده يبدو مثل سياجٍ من الأوتاد. يمتلك آكِل الجبن سناً قاطعة وسطية مكسورة بشدة، بالإضافة إلى سنٍ جانبية مائلة. بدت أسنان **تانغواي** منتظمة وغير منقطعة. لم تظهر عضّته أيّاً من هاتين الميزتين، لذلك فهو لم يقضم الجبن. إما أن يكون **تانغواي** استضاف ضيفاً في **شارع بيرغو**، أو أن شقة **شارع بيرغو** لا علاقة لها **بتانغواي** على الإطلاق.

40

أقـــدم الشخص الذي استخدم **شارع بيرغر**، كائناً من كان، على قتل **غابي**. تأكـــدتُ من تطابق القفازين، لكن ظهر احتمالٌ قويٌّ بأنّ **تانغواي** لم يكن ذلك الـــشخص الـــذي ارتكب الجريمة. لم تقضم أسنان **تانغواي** قطعة الجبن، وهكذا تأكدتُ من أن **سان جاك** ليس **تانغواي**.

سألتُ بصوت أجش وسط سكون منـــزلي الفارغ: "من أنتَ بحق الجحيم؟" انطلقت مخاوفي على **كاتي** بكل قوتها. لماذا لم تتصل بعد؟

حاولتُ الاتصال **برايان** في المنـــزل. لم يردّ عليّ. حاولتُ الاتصال **ببرتران**. قالوا لي إنه غادر المكان. اتصلتُ بغرفة اللجنة الخاصة المكلفة بالبحث عن إمكانية وجود قاتل تسلسلي. لم يجبني أحد.

توجهتُ نحو الباحة، ونظرتُ من خلال السياج إلى مطعم البيتزا الذي يقع في الناحية الأخرى من الشارع والذي بدا خالياً، حتى من فريق المراقبة الذي سُحِب. أصبحتُ لوحدي الآن.

استعرضـــتُ الخـــيارات المتاحة أمامي. ماذا أفعل؟ ليس أمامي الكثير كي أقـــوم بـــه. لا أســـتطيع تـــرك المكان لأن **كاتي** قد تعود في أي لحظة، ***في أي لحظة***.

نظـــرتُ في الـــساعة - أشارت إلى 7:10 من بعد الظهر. تذكرتُ الملفّات. ينبغـــي أن أعود إليها، وماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك داخل هذه الجدران؟ ها قد أصبح ملجئي بمثابة السجن لي.

غيّرتُ ملابسي وتوجهتُ نحو المطبخ. شعرتُ بألم شديد في رأسي، لكنني لم أتناول أي دواء، لأنني شعرتُ بتبلد في ذهني من دون تخدير إضافي. قررتُ أن أقهر الجراثيم بواسطة فيتامين **سي**. أحضرتُ علبة من عصير الليمون المثلّج من الثلاجة، ثم بحـــثت عن فتّاحة العلب. اللعنة! أين هي؟ لم أجد في نفسي ما يكفي من الصبر كي أبحث طويلاً، لذلك تناولتُ سكين تقطيع اللحم، وبدأتُ في نشر الجهة العليا مـــن علبة الكرتون من أجل إزالة غطائها المعدني. افتحي العلبة يا **بريينان**، وقومي بإزالـــة الغطـــاء، ثم أضيفي المياه. تستطيعين أن تفعلي ذلك، وبإمكانكِ أن تنظّفي المكان في ما بعد.

وجدتُ نفسي بعد لحظات قليلة مستلقيةً على الأريكة بعد أن تلحّفتُ جيداً. وضـــعتُ المناديل الورقية، وعلبةَ العصير على مسافةٍ قريبةٍ مني. وضعت يديَّ على حاجبيَّ كي أحصل على بعض الهدوء.

دامـــاس. فتحتُ الملف، وأعدتُ تفحّص الأسماء، والأماكن، والتواريخ التي رأيتها من قبل. برزت أسماء **موناستير سان برنار، ونيكوس داماس، ورجل الدين بواريبه**.

أجـــرى **برتران** دراسةً عن **بواريبه** في جهاز الكمبيوتر. أعدتُ قراءتها، لكن عقلـــي رفض التركيز. تبيّن أنّ رجل الدين الطيب ذاك قد غادر. راجعتُ المقابلة الأساســـية، وبحثتُ عن أسماء أخرى كي أتتبعها، وأستخدمها مثل علامات الطريق في سباق المطاردة. راجعتُ التواريخ بعد ذلك.

من كان حارس الموناستير؟ **روي. إميل روي**. رحتُ أفتش عن إفادته.

لم أجـــدها. فتشتُ كل شيء في المظروف. لم أجد شيئاً. لا بد أنّ أحداً قد تحدّث إليه. لا أتذكّر رؤية ذلك التقرير، لكن لَمَ لا أجده هنا؟

جلـــستُ لبرهةٍ من الزمن، و لم أسمع في عالمي سوى أصوات أنفاسي. عاودني الإحـــساس بأفكـــارٍ بديهية، مثل الإحساس الذي يُنذر بصداع الشقيقة (الصداع النصفي). تزايد الشعور بأنني أفتقد شيئاً ما أكثر من أي وقتٍ مضى، لكن الحقيقة رفضت أن تتبلور.

عـــدتُ إلى تـــصريح **بواريـــبه**. يعتني **روي** بالبناء وبالأراضي. يقوم الرجل بإصلاح الفرن، ويجرف الثلوج.

يجرفُ الثلوج؟ هل يجرف الثلج رجلٌ يبلغ الثمانين من العمر؟ و لِمَ لا؟ يستطيع **جورج برنـــز** أن يقوم بذلك. راح عقلي يستعرض صوراً من الماضي. فكّرتُ في ذلـــك الـــشبح الذي رأيته عندما كنتُ وحيدة في السيارة، ورأيتُ عظام **غرايس داماس** تقبع بجواري في تلك الغابة المبلّلة بمياه الأمطار.

رحـــتُ أفكّـــر بحلميَ الآخر في تلك الليلة: الفئران، **بيتي**، رأس **إيزابيل غاغنون**، وقبرها، ورجل الدين. ماذا قال لي؟ يُمنع الدخول إلا لمن يعمل لصالح دار العبادة.

هـــل يُعقـــل هذا؟ هل تمكّن هذا الرجل من دخول أرض الموناستير، **ولا غـــراند سيمينابر**، بهذه الطريقة؟ هل يعمل القاتل الذي نبحث عنه لصالح دار العبادة.

روي!

حسناً يا **برينان**، هل توصلت إلى قاتلٍ تسلسليٍّ يبلغ الثمانين من عمره.

هل يجدر بي أن أنتظر اتصالاً من **رايان**. تناولتُ دفتر الهاتف بيدٍ مرتعشةٍ. إذا تمكّنتُ من معرفة رقم هاتف الحارس فسوف أتصل.

وجدتُ اسم **إي. روي** ضمن عنوان **سان لامبرت**.

ردّ عليّ صوتٌ يتصف بالخشونة: "نعم".

كوني حذرة، وتحركي بهدوء.

"مسيو إميل روي؟"

"نعم".

شرحتُ له من أكون وسبب اتصالي به. ها قد توصلتُ أخيراً إلى **إميل روي** الـــذي أبحث عنه. سألته عن مهامه في الموناستير. بقي فترةً طويلةً من دون أن يرد. سمعتُ صوت أنفاسه التي دخلت إلى رئتيه، وخرجت وكأنها هواء يدخل في قصبة نفخ. تكلّم الرجل أخيراً:

"لا أريد أن أخسر وظيفتي. إنني أعتني بالمكان جيداً".

"أجل. هل تقوم بمهامك وحدك؟"

سمعتُ صوت أنفاسه عند توقفها. بدا لي أن هذا الصوت يشبه صوت حصاة عند اصطدامها بقصبة نفخ.

قـــال لي بصوت يشبه الأنين: "أحتاج إلى قليلٍ من المساعدة بين وقت وآخر. لا يكلفهم ذلك مبلغاً إضافياً. إنني أدفع هذه الكلفة الإضافية بنفسي، ومن أجوري أنا".

"ومن يساعدك يا **مونسيور روي؟**"

"يـــساعدني ابـــن شقيقي. إنه فتى رائع، وغالباً ما أكلفّه بجرف الثلج. كنت سأخبر **المسؤول**، لكن..."

"ما هو اسم ابن شقيقك؟"

"**ليو**. لم يتورط في أي مشكلة، أليس كذلك؟ إنه فتىً رائع".

أحسستُ أنّ سماعة الهاتف تنـــزلق في راحة يدي.

"وما اسم عائلة **ليو؟**"

"فورتييه. ليو فورتييه. إنه حفيد شقيقتي".

تلاشـــى صوته، بينما أحسستُ أنني أتصبب عرقاً. أنهيتُ المكالمة بالكلمات المعتادة، بينما راح عقلي يضرب أخماساً بأسداس، وتسارعت ضربات قلبي.

هدّئـــي مـــن روعـــك. أيُحتمل أن تكون هذه مجرد مصادفة. إنّ كون المرء حارساً ومساعداً في ملحمة بدوامٍ جزئي لا يجعل منه قاتلاً. فكّري قليلاً.

نظرتُ إلى الساعة، ثم أسرعتُ نحو الهاتف. هيا، كوني هناك.

رفعت السماعة بعد الرنة الرابعة.

"لوسي دومون".

أجل!

"لوسي، لا أصدق أنك لا تزالين في العمل".

"أعاني من مشكلة مع برنامج ملفات. كنت على وشك المغادرة".

"أحـــتاج شيئاً يا **لوسي**. إنه أمرٌ هام جداً. يُحتمل أن تكوني الوحيدة القادرة على تقديمه لي".

"وما هو؟"

"أريـــدكِ أن تستقـــصي لي عن أحد الأشخاص على الحاسوب. افعلي ما بوســـعك كـــي تحصلي على كل شيء يتعلق بهذا الرجل. هل تستطيعين القيام بهذا؟"

"إنه وقت متأخر، كما أريد..."

"إنه أمرٌ هام يا **لوسي**. يُحتمل أن تكون ابنتي في خطر. أحتاج هذا فعلاً!"

لم أحاول أن أخفي درجة اليأس الذي شعرتُ به.

"أستطيع أن أصِل حاسوبي مع ملفات **أمن كيبيك** كي أتأكد من وجود معلومات عنه. أمتلك الإذن لذلك. ماذا تريدين أن تعرفي؟"

"أريد معرفة كل شيء عنه".

"ماذا لديك من معطيات؟"

"سأعطيك اسماً فقط".

"أليس لديك شيء آخر".

"لا".

"ومن يكون هذا الشخص؟"

"فورتييه. ليو فورتييه".

"سأتصل بكِ لاحقاً. أين أنتِ الآن؟"

أعطيتُها رقمَ هاتفي وأقفلت الخط.

رحتُ أذرع الشقة جيئةً وذهاباً، وكاد خوفي على **كاتي** أن يصيبني بالجنون. هل هو **فورتييه**؟ هل ركّز عليّ غيظه المهووس لأنني كدتُ أُفشل مخططاته؟ هل قتل صديقتي كي ينفّس غيظه الذي يشعر به؟ وهل خطّط الأمر ذاته لي؟ وكذلك لابنتي؟ وكيف عرف من تكون ابنتي؟ هل سرق الصورة التي تجمعني مع **كاتي** من **غابي**؟

أحسستُ أنّ الخوف البارد الذي يبعث على الخدَر قد وصل إلى أعماق روحي. سيطرتُ على أسوأ أنواع الأفكار التي عرفتها على الإطلاق. تخيّلتُ اللحظات الأخيرة في حياة **غابي**، كما تخيّلت المشاعر التي لا بد أنها شعرت بها.

كسر رنين الهاتف سلسلة أفكاري.

"نعم!"

"أنا **لوسي دومون**".

"نعم". تسارعت دقّات قلبي بشدة.

"هل تعرفين كم يبلغ **ليو فورتييه** من العمر؟"

"آه... ثلاثين، أو أربعين عاماً".

"وجــــدتُ اسمــــين: وُلد الأول في التاسع من شباط 1962، ويكون بذلك في حــــوالى الثانــــية والثلاثين من عمره. أما تاريخ ميلاد الشخص الآخر فهو الحادي والعــــشرين مــــن شــــهر نيسان، 1916، وهكذا فهو يبلغ... الثامنة والسبعين من عمره".

قلتُ: "إنه الشخص الذي يبلغ الثانية والثلاثين من العمر".

"ظننتُ هذا، ولهذا طلبت كل المعلومات المتوافرة عنه. يمتلك الرجل ملفاً كــــبيراً يــــرجع بــــه إلى محكمــــة الأحداث. لا يتحدث ملفّه عن جرائم، لكنه ملــــيء بسلــــسلة مــــن المشاكل المتعلقة بجنحٍ مختلفة، والإحالات على الطبيب النفسي".

"ما نوع هذه المشاكل؟"

"ضُــــبط الفتى متلبساً بالتلصّص عندما كان بعمر الثالثة عشرة". خيّل إليّ أنّ أصــــابعها تنقــــر على لوحة مفاتيح حاسوبها. "التخريب، وبالتغيّب من دون عذر. وقــــع حادثٌ عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. خطفَ فتاةً لمدة ثمانية عشرة ساعة. لم توجّه إليه أي تهمة. أتريدين الملف كله؟"

"ماذا بشأن أحدث المخالفات؟"

سمعــــتُ صوت قرقعة: **كليك، كليكتي، كليك**. تخيلتها منحنيةً على الشاشة وقد انعكس وميض الشاشة الأخضر على نظّارتها الزهرية اللون.

"أُدخلــــت آخر إضافة في عام 1988، حينما قُبض عليه بتهمة الاعتداء على شخصٍ آخر. يبدو أنّ الضحية قريبٌ له، لأنه يمتلك اسم العائلة ذاته. لا ذكر لمدة السجن، لكنه أمضى ستة أشهر في **البابنل**".

"ومتى خرج؟"

"هل تريدين تاريخ الخروج بالضبط؟"

"هل يتوفر لديك؟"

"يبدو أنه خرج في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني، 1988".

ماتت **كونستانس بيتري** في كانون الأول من العام 1988. شعرتُ أنّ غرفتي حارة جداً، بينما كان جسمي لزجاً نتيجة العرق.

"هـــل يتضمن الملف اسم الطبيب النفسي الذي كان يعتني به عندما كان في **البابنل؟**"

"هـــناك إشـــارة إلى اسم الدكتور **أم. سي. لابيرييه**، لكن لا إشارة إلى هويته".

"هل رقم هاتفه مدوّن في الملف؟"

أعطتني إياه على الفور.

"أين يتواجد **فورتييه** الآن؟"

"ينتهي الملف في العام 1988. هل تريدين عنوان سكنه في ذلك العام؟"

"أجل".

شـــعرتُ بأنّ دموعي على وشك الانهمار عندما نقرت الرقم، واستمعتُ إلى صـــوت الهاتـــف يرن في أقصى الطرف الشمالي من جزيرة **مونتريال**. حاولتُ أن أفكّر بما يجدر بي قوله، وأن أحافظ على رباطة جأشي.

رد عليّ صوت أنثوي: "**مؤسسة فيليب باينل**. كيف يمكنني مساعدتك؟"

"أريـــد التحدث مع الدكتور **لابيرييه** من فضلك". يا إلهي! أريده أن يكون موجوداً في العمل.

"لحظة من فضلك".

رائـــع! إنه ما زال يعمل. انتظرتُ قليلاً على الهاتف، قبل أن يقودني صوتٌ أنثوي آخر إلى ما ينبغي عمله.

"مَن يتكلم؟"

"أنا الدكتورة برينان".

مرّت فترة لم يُسمع فيها سوى الهواء. سمعتُ صوتاً بعد ذلك.

أجابني صوت أنثوي، لكنه بدا متعباً ونافد الصبر: "**دكتورة لابيرييه**".

"أنـــا **الدكـــتورة تمبرنس برينان**". حاولتُ إخفاء ارتعاش صوتي. "أنا عالمة الأنثـــروبولوجيا العدلية لدى **مختبرات الطب القضائي**. إنني منشغلة في التحقيق في سلـــسلة مـــن الجـــرائم التسلسلية التي حدثت على مدى أعوام عديدة في منطقة **مونتـــريال**. أمتلك أسباباً تدفعني إلى الاعتقاد أنّ أحد مرضاكِ السابقين قد يكون متورطاً في هذه الجرائم".

ردّت بصوت متعب: "أجل".

شـــرحتُ لهاً عن الّلجنة الخاصة بالتحقيقات، وطلبتُ منها تزويدي بما تعرفه عن **ليو فورتييه**.

"يـــا **دكـــتورة... بريان**، أليس كذلك؟ تعرفين يا **دكتورة بريان** بأنني لا أســـتطيع أن أطلعك على ملف مريض، وخاصة بناءً على مكالمة هاتفية. إذا فعلتُ ذلـــك مـــن دون الحـــصول على تفويض من المحكمة فسيُعتبر ذلك خرقاً لقانون السريّة".

ابقَي هادئة يا **بريان**. عرفتِ ماذا سيكون الجواب سلفاً.

"ستحـــصلين علـــى تخويلِ المحكمة في ما بعد بالطبع، لكننا الآن في وضعٍ مـــستعجلٍ يا دكتورة، ولا أستطيع التأخر في حديثي معك. أعتقد أن التخويل من المحكمةِ غير ضروري في هذه المرحلة. هناك نساء يلقينَ حتفهنّ يا **دكتورة لابرييه**. أقدم المجرم على قتلهنّ، وتشويههنّ بعد ذلك، بكل وحشية. تعوّد ذلك الـــرجل الذي أقدم على هذه الجرائم على ارتكاب أعمال عنف فظيعة. تعوّد المجـــرم على تشويه ضحاياه. نعتقد أنه شخصٌ يمتلك حقداً هائلاً ضد النساء، كمـــا أنـــه يتمتع بما يكفي من الذكاء الذي يسمح له بالتخطيط لهذه الجرائم وتنفيذها. نعتقد أيضاً أنه سيُقدم على تنفيذ جريمة جديدة قريباً". بلعتُ ريقي، لكنني شـــعرتُ بجفـــافٍ في حلقـــي نتيجة الخوف. "إنّ **ليو فورتييه** هو مشتبهٌ به في الوقت الحاضـــر. نريد أنْ نعرف ما إذا كان الرجل يمتلك، برأيك، سجلاً يخوّله القيام بجرائم كهـــذه. إنّ المستندات الضرورية التي تبرر الحصول على هذه المعلومات ستكون في طريقها إليكِ قريباً، لكننا نود الآن الحصول على أي معلومات قد تساعدنا على توقيف هذا القاتل قبل تنفيذ جريمته الجديدة، هذا إذا كنتِ تتذكرين شيئاً عن هذا المريض".

أحـــضرتُ لحافاً آخر ووضعتُه حولي. أفادني هذا اللحاف بحيث أدخل الهدوء على صوتي. لا أريدها أن تعرف مدى الخوف الذي أشعر به.

"أنا، وببساطة، لا أستطيع..."

زلق اللحاف من حولي.

"لدي ابنة يا دكتورة **لا برييه**. هل لديكِ أطفال؟"

جاء ردها مزيجاً من التحدّي الممزوج بالتعب: "ماذا؟"

"كانت **شانتال تروتييه** في السادسة عشرة من عمرها. ضربها ذلك المجرم حتى الموت، وقطّعها قبل أن يلقي بها في مكبٍ للمهملات".

"يا إلهي!"

لم ألتقِ **بماري كلود لا بربيه** من قبل، لكن صوتها رسم لي مشهداً حياً أوحى لي برســـمٍ مؤلـــفٍ من ثلاثة أجزاء، وتخيّلتُ ألوانه: الرمادي المائل إلى الرصاصي، والأخضر الشاحب، والقرميدي الداكن.

تمكّـــنتُ من تخيّل تلك المرأة: إنها في منتصف عمرها بحيث نستطيع أن نتخيّل مدى الإحباط المحفور بعمقٍ في وجهها. عملت هذه المرأة لصالح نظامٍ فقدت ثقتها بـــه منذ زمنٍ طويلٍ، ذلك النظام الذي يعجز عن التفهم، هذا إذا لم نقل يعجز عن الكـــبح، وهـــو النظام الذي يعكس قساوة مجتمعٍ وصل إلى أقصى حدود جنونه. تتـــصيّد العـــصابات ضـــحاياها، تتصيد المراهقات بعيونهنّ الشاردة، ومعاصمهنّ الدامـــية، وتقـــوم بحـــرق جلود الأطفال وتشويهها بأعقاب السجائر. تلقي هذه العـــصابات الأجنة في أحواض الحمامات، حيث تعوم بدمائها. يُترك الكبار فريسةً للجـــوع، ويقيّدون قرب الأقذار. وتتعرّض وجوه النساء إلى الضرب الشديد رغم عـــيونهن المتوسّلة. ظنّت تلك الدكتورة ذات مرة بأنها تستطيع إحداث فرقٍ، لكن التجربة أقنعتْها بعكس هذه الفرضية.

لكنها أقسمت. **أقسمت على ماذا؟ ولصالح مَن؟** أصبح المأزق مألوفاً لديها، أي كما كانت مثاليّتها ذات مرة. سمعتُها تأخذ نَفَساً عميقاً.

"حُكـــم **لـــيو فورتييه** مدة ستة أشهر في العام 1988. بقيتُ طيلة هذه الفترة طبيبته النفسية المكلّفة بعلاجه".

"هل تتذكرينه؟"

"أجل".

انتظرتها كي تكمل، وتسارعت دقات قلبي في هذه الفترة. سمعتُ قرقعة ولاعة سجائرها فتحاً وإغلاقاً، ثم سمعتُها تتنفس بعمق.

"وصـــل **ليو فورتييه** إلى **البانيل** لأنه ضرب جدته بمصباح". استخدمت المرأة جمـــلاً قصيرة، وتابعت حديثها بحذر. "احتاجت تلك المرأة المسنّة إلى ما يزيد عن

المـئة قطـبة، لكـنها رفضت تقديم شكوى على حفيدها. نصحتُ الرجل بمتابعة العلاج عندما انتهت المدة الإلزامية، لكنه رفض".

توقفت قليلاً كي تختار الكلمات المناسبة بعناية.

"وقـف **لـيو فورتيـيه** يتفرج على جدّته أثناء احتضارها. ربّته تلك الجدة، وغرسـت فـيه صورة ذاتية شديدة السلبية، وهو الأمر الذي أدّى إلى عجزه عن إنشاء علاقات اجتماعية مناسبة له.

اعـتادت جدة **ليو** على معاقبته بشكلٍ مفرط، لكنها أقدمت على حمايته من عواقب أعماله خارج المنـزل. توحي نشاطات **ليو** عندما كان في سنوات المراهقة بأنـه كـان يعاني من اضطراب إدراكي (معرفي) شديد، والذي ترافق مع حاجة طاغـية عنده لفرض السيطرة، كما أظهرت هذه النشاطات غضباً نرجسياً شديداً عندما كان يتعرض للخذلان.

إنّ حاجـة **لـيو** لفرض سيطرته، بالإضافة إلى حبّه وحقده المكبوتين تجاه جدّته، وكـذلك عـزلته الاجتماعية المتزايدة، دفعته إلى تمضية أوقات متزايدة مع عالم تخيّلاته الذي نسجه بنفسه. طوّر الفتى أيضاً كلّ آليّات الدفاع الكلاسيكية: الإنكار، والكبح، والإسقاط. يتميّز الفتى بأنه غير ناضج إطلاقاً من الناحيتين العاطفية والاجتماعية".

"أتظنين بأنه قادر على التصرّف بحسب السلوك الذي وصفته لك؟" دُهشتُ مـن درجة ثبات صوتي، لكنني كنت أغلي من الداخل نتيجة الرعب الذي شعرتُ به على ابنتي.

صمتت قليلاً بحيث استطعت سماع أنفاسٍ عميقةٍ أخرى.

"أعتقد أنّ **ليو فورتييه** هو رجلٌ خطرٌ جداً".

سألتُها بصوتٍ مرتعشٍ هذه المرة: "أتعرفين أين يعيش الآن؟"

"لا أعرف عنه شيئاً منذ مغادرته مؤسستنا".

كـنتُ على وشك توديعها عندما فكّرتُ في طرح سؤالٍ آخر عليها: "كيف ماتت والدة **ليو**؟"

أجابت: "ماتت على يد أخصائي بالإجهاض".

تـسارعت الأفكار في ذهني في الوقت الذي أنهيتُ فيه المكالمة. أصبح عندي الآن اسـمٌ، كما أعرف أنّ **ليو فورتييه** سبق له أن عمل مع **غرايس داماس**. تمتّع

الرجل بحق الدخول إلى أملاك دار العبادة، بالإضافة إلى أنه كان خطراً جداً. والآن ماذا؟

سمعتُ حفيف أوراقٍ ناعمٍ، لكنني لاحظتُ أنّ الغرفة تحولّت إلى اللون البنفسجي. فتحتُ الأبواب الزجاجية ونظرتُ إلى الخارج. رأيتُ الغيوم الكثيفة مكدسةً فوق سماء المدينة، فتحوّلت أضواء المساء إلى ظلمة قبل أوانها. تغيّر اتجاه الريح، وبدا الهواء مشبعاً برائحة المطر. لاحظتُ أنّ أشجارً السرو كانت تتمايل جيئةً وذهاباً، كما تراقصت أوراق الأشجار على الأرض.

تذكرتُ إحدى أولى القضايا التي عملتُ عليها. كانت قضية **نيللي آدامز**، تلك الفتاة التي اختفت بعمر الخامسة. كنتُ قد سمعتُ بأمرها في الأخبار. تذكرتُ أيضاً أنّ عاصفةً رعدية عنيفة قد حدثت في يوم اختفائها. فكّرتُ فيها تلك الليلة وأنا أتمتع بالأمان الذي توفره لي غرفة نومي. هل كانت وحيدةً ومرتعبةً وسط العاصفة؟ تمكنتُ من تحديد هويتها بعد ستة أسابيع عندما قمت بتحليل بقايا عظام جمجمتها وقفصها الصدري.

أرجوكِ يا **كاتي!** أرجوكِ عودي الآن!

توقفي عن هذا يا **برينان!** اتّصلي **برايان**.

تراقصت أضواء البرق على جدران الغرفة. أحكمتُ إغلاق الأبواب، ومضيتُ كي أنير المصباح. لم يحدث شيء. تذكّري وجود المنبّه يا **برينان**. جهّزته كي يرنّ عند الساعة الثامنة. ما زال الوقت مبكراً جداً.

مددتُ يدي من وراء الأريكة، وضغطتُ على زرّ الموقّت. لم يحدث شيء. حاولتُ الضغط على المفتاح الكهربائي الموجود في الجدار. لم يحدث شيء. تحسّستُ طريقي على طول الجدار واستدرتُ نحو المطبخ. لم تستجب المصابيح الكهربائية. تزايد قلقي، لكنني أكملتُ باتجاه الردهة وغرفة النوم. بدت الساعة معتمة بسبب انقطاع الكهرباء. وقفتُ للحظة، لكن عقلي راح يبحث عن تفسيرات. هل حدثت صاعقة؟ أم أنّ الرياح قد أوقعت أغصان الأشجار على أسلاك الطاقة؟

أيقنتُ أنّ الشقة هادئة بشكلٍ غير طبيعي، فأغلقتُ عينيّ كي أستطيع الإصغاء جيداً. ملأ خليط من الأصوات الفراغ الذي خلّفه صمت الأجهزة

الكهـــربائية. تـــزايدت حدة العاصفة في الخارج. سمعتُ أصوات دقّات قلبي، بالإضـــافة إلى شيء آخر. هل سمعتُ قرقعةً خفيفةً؟ هل هو صوت باب يُغلق؟ هل هو صوت **بيردي**؟ من أين أتى هذا الصوت يا ترى؟ هل أتى من غرفة النوم الأخرى؟

عبرتُ الغرفة باتجاه نافذة غرفة النوم. ومضت أضواء المصابيح التي شعّت على طول الطريق، ومن الشقق المتواجدة في **شارع دي مايزونيف**. أسرعتُ عائدةً إلى الأبـــواب المؤدية إلى الباحة عبر الردهة. تمكّنتُ من رؤية أنوار منازل الحيّ المتسلّلة عـــبر مياه المطر. أيقنتُ أنّ الكهرباء مقطوعة عن منـــزلي، ومنـــزلي فقط! وفجأةً تذكرت: لم يرنّ جهاز الإنذار عندما فتحت الأبواب الزجاجية. إذاً، جهاز الأمان معطّل في شقتي!

هرعتُ نحو جهاز الهاتف.

اكتشفتُ أنّ الخط الهاتفي معطّلٌ هو الآخر.

41

أنهــيتُ المكالمة، وغرقت عينايَ بالظلمة الدامسة التي تلفني. لم تلقَ عيناي أي شــكلٍ من أشكال التهديد، لكنني استطعتُ أن أحس بشيء آخر. رحتُ أرتجف وشعرتُ بالتوتر. تراكضت الأفكار في رأسي، فاستعرضتُ الخيارات المتاحة أمامي وكأنها كدسةٌ من أوراق اللعب.

أمــرتُ نفسي أن أحافظ على هدوئي، إذ يجب عليّ الخروج إلى الحديقة من خلال الأبواب الزجاجية.

تذكّــرتُ أنّ بوابة الحديقة موصدةٌ وأنّ مفتاحها في المطبخ. تخيّلتُ السياج، لكــن هل أستطيع تخيّل أبعاد الحديقة؟ وإذا لم أتمكّن من ذلك فعلى الأقل سأكون خــارج الــشقة، ولعل أحدهم سيسمعني إذا ما صرختُ. هل سيسمعني أحد، مع تلك العاصفة الشديدة؟

أصــغيتُ كــي أسمع كل الأصوات مهما كانت خافتةً، وبدأ قلبي يضج بين أضــلعي مــثل حشرةٍ مسجونةٍ في حيّزٍ ضيّقٍ. راح ذهني يفكّر في اتجاهات شتى. أخــذني تفكــيري إلى **مارغريت آدكينــز**، **وبيتري** والأخريات. فكّرتُ برقابهنّ المذبوحة، وبعيونهنّ المحدّقة التي لم ترَ شيئاً.

هــيا تحركي يا **بريتان**. **تحركي!** لا تنتظري حتى تقعي فريسةً له. صعُب عليّ الــتفكير بطــريقة منطقــية بسبب خوفي على **كاتي**. ماذا سيحدث لو أنني نجوتُ بنفسي، بينما يتربّص المجرم بها؟ لا. أقنعتُ نفسي أنه لن يتربّص بأحد، لأنه يحتاج إلى أن يشعر بالسيطرة. أعتقد أنه سيختفي كي يخطط لجريمته الجديدة.

بلعــتُ ريقي، وكدت أصرخ من شدة الألم، وأحسستُ بالجفاف الشديد في حنجـــرتي نتيجة المرض والخوف. قررتُ أن أركض، وأن أفتح الأبواب الزجاجية، ثم أندفع وسط المطر وحرية الحركة. أحسستُ بالتصلّب في جسمي، وتوترت كل عـــضلة ووترٍ فيه، لكنني تمكنتُ من الوثوب باتجاه الباب. استدرتُ حول الأريكة. ووجدتُ نفسي بعد أن قطعتُ خمس خطوات وأنا أمسك بمقبض الباب بيد، بينما أدرتُ مزلاج الباب باليد الثانية. شعرتُ بالمقبض النحاسي بارداً بالنسبة لأصابعي المحمومة.

لطمت وجهي يدٌ منتفخة، وكأنها سوطٌ صُنع من اللحم، فاندفعتُ إلى الخلف وارتطـــم رأسي بجسمٍ صلد كالصخر. أحسستُ بشفتيّ تنسحقان، وبفكّي يُلوى ويتحـــرّك من مكانه. غطتْ تلك الراحة القاسية فمي، فملأت أنفي رائحةٌ مألوفة عـــندي. كانت تلك اليد ناعمة وزلقة بشكلٍ غير طبيعي. لمحتُ وميضاً معدنياً من زاوية عيني، وأحسست بشيء بارد على صدغي الأيمن. تعاظم خوفي وسيطر على عقلي، فتلاشى كل شيء يقع وراء جسمي وجسمه.

"حـــسناً، يا **دكتورة بريتان**. أعتقد أننا على موعد هذه الليلة". تكلّم الرجل بلغة إنكليزية، لكن بلكنة فرنسية. بدا بصوته المنخفض والناعم وكأنه يؤدي أغنية حبٍ تمرّن على أنغامها جيّداً.

قاومـــتُه بجسدي الذي تحرّك يمنةً ويسرةً، وبيديّ الاثنتين، لكن قبضته كانت شديدةً كالملزمة. اندفعتُ خارجاً ورحتُ أعبّ الهواء بيأس.

"لا. لا. لا تقاومي. ستكونين معي هذه الليلة، حيث لن يتواجد أحدٌ في هذا العـــالم إلا أنـــا وأنتِ". شعرتُ بحرارته على رقبتي عندما شدّني نحوه. أحسستُ بجسده الذي تميّز بطراوةٍ وتماسكٍ غريبين، سبق لي أن أحسستُ بهما في راحة يده. سيطر الرعب عليّ، وشعرتُ بالعجز التام.

عجزتُ عن التفكير، ولم أتمكّن من الكلام. لم أعرف ما إذا كان يجدر بي أن أتوسّـــل، أو أن أقـــاوم، أو أن أتحـــدث إليه بمنطق. أمسك الرجل برأسي وجمّده، وراحت يده تضغط شفتيّ على أسناني. تذوّقتُ طعم الدم في فمي.

"ألا تقـــولين شيئاً؟ حسناً، سنتحدث لاحقاً". أقدم على حركةٍ غريبةٍ بشفتيه عندما تكلّم. بلّل شفتيه، ثم سحب السائل ثانيةً بين أسنانه.

"جلبتُ لكِ شيئاً". شعرتُ بجسده يتحرك يمنةً ويسرةً، ثم سحب يده عن فمي. "أحضرتُ لكِ هدية".

سمعت صوتاً معدنياً، ثم جذب رأسي إلى الأمام. مرّر الرجل معدناً بارداً فوق وجهي، ثم نزولاً إلى رقبتي. تحرّكت ذراعه قبل أن أتمكّن من فعل أي شيء. جذبني إلى مكان لا يستطيع فكري أن يتصوره. شعرتُ، وأنا مقيدة، بالاختناق في مكان أعماني ضوؤه. لم أستطِع فعل أي شيء حتى هذه اللحظة غير تصنيف نوعية ألمي بحسب التحركات التي قام بها.

أرخى قبضته بعض الشيء، ثم جذب السلسلة مجدداً حتى كاد يسحق حنجرتي. راح فكّي وعمودي الفقري يهتزان بشدة، لكن الألم كان لا يطاق.

حركتُ أصابعي بجنون، ورحتُ ألهث طلباً للهواء، لكنه أدارني بعد أن أمسكَ يديّ، ثمّ أحاط معصميّ بسلسلة أخرى. جذب الرجل السلسلة بشدة وبحركة واحدة، ثم ربطها بالسلسلة التي قيّدت رقبتي، ثم جذب السلسلتين وأمسكهما فوق رأسي. اخترقت رئتيّ نيران حارقة، بينما توسل دماغي الحصول على الهواء. جاهدتُ كي أبقى واعية، بينما انهمرت الدموع على وجهي.

"أوه، هل آلمكِ ذلك؟ أنا آسف".

أرخى السلسلة قليلاً، فاندفعت حنجرتي المعذّبة تطلب نصيبها من الهواء.

"تبدين مثل سمكة كبيرة تعبّ الهواء عباً".

وقفتُ بمواجهته الآن، ولم تبعد عيناه عن عينيّ سوى سنتمترات قليلة. لم أستطِع أن أميّز ملامحه إلا قليلاً، بسبب الألم الذي كان يعميني. كان وجهاً عادياً يصلح أن يكون وجه أي إنسان، أو وجه حيوان. ارتعشت زاويتَي فمه، وكأنه سمع نكتةً ما. أحاط الرجل شفتيّ بطرف سكّين حاد.

أحسستُ بجفاف شديد في حلقي بحيث شعرتُ أنّ لساني قد التصق بحلقي عندما حاولتُ الكلام. بلعتُ ريقي.

"أحبُ أن..."

"اخرسي! أقفلي فمك اللعين! أعرف ما تحبينه، وأعرف رأيكِ بي. أعرف رأيكنّ بي جميعكنّ. تعتقدن بأنني مجرد مهووس بالوراثة ينبغي التخلص منه. حسناً، إنني مثل أي شخصٍ آخر، لكنني أمتلك السيطرة هنا".

أمسك بالسكّين بقسوةٍ جعلت يده ترتعش. بدت يده كيد شبح شاحبة تحت أضواء الممشى، وبدت مفاصلها منتفخةً ومستديرةً بلونها الأبيض. إنهما قفازان جراحيان تمكنتُ من شمّ رائحتهما! أحسستُ أنّ نصل السكين قد شقّ خدّي قليلاً، كما شعرتُ بحرارةٍ تنساب نزولاً فوق ذقني. شعرتُ بأنني يائسة تماماً.

"ستمزقين ثيابك الداخلية قبل أن أنتهي منك، وسوف ترغبين بي كثيراً. لكن هذا سيحدث في ما بعد، يا ***دكتورة بريينان***. أما الآن فلا تتكلمي إلا عندما أسمح لك".

كان يتنفس بصعوبة جعلت أنفه أبيض اللون. عبثت يده اليسرى بالسلسلة المعدّة لخنقي، وراح يلفّ حلقاتها حول راحة يده، ثم يتركها.

"الآن، أخبريني". صمت مجدداً. "بماذا تفكّرين؟" بدت عيناه باردتين وقاسيتين، مثلما كانت ثدييات ما قبل التاريخ.

"هل تعتقدين بأنني مجنون؟"

لم أرد. راح المطر يضرب زجاج النافذة وراءه.

جذب السلسلة مجدداً، وقرّب بذلك وجهي من وجهه. مسحت أنفاسه العرق المتصبب على بشَرَتي.

"هل أنتِ قلقة على ابنتك؟"

قلتُ بصوتٍ مختنق: "ماذا تعرف عن ابنتي؟"

"إنني أعرف كل شيءٍ عنك يا **دكتورة بريينان**". بدا صوته خافتاً وحلواً مجدداً، كما بدت كلماته بذيئةً عندما خرقت أذنيّ. بلعتُ ريقي رغم ألمي. شعرتُ أنني بحاجة إلى أن أتكلّم، لكنني لم أرغب أن أستفزه. تغيّر مزاجي مثل أرجوحةٍ تتلاعب بها الأعاصير.

"هل تعرف أين هي؟"

"يُحتمل أن أعرف". رفع السلسلة مجدداً، لكن ببطء هذه المرة، وهكذا جذب ذقني إلى حدها الأقصى، ثمّ مرّر السكّين فوق رقبتي بحركة ارتدادية بطيئة.

ومض البرق، فتحركت يده بعيداً عني. سألني: "هل هي شديدة بما يكفي؟"

قلت بصوت مختنق: "أرجوك..."

أرخـــى السلسلة قليلاً بحيث تمكنتُ من خفض ذقني. بلعتُ ريقي، وأخذتُ نَفَـــساً عميقاً. شعرتُ بنيران تحرق حنجرتي، وأحسستُ بجروحٍ وانتفاخٍ في رقبتي. رفعـــتُ يـــديّ كـــي أمسح مكان الجروح، لكنه ما لبث أن دفعهما إلى الأسفل مستخدماً السلسلة التي قيّد معصميّ بها. وتحرّك فمه، مرةً أخرى، بما يشبه ارتعاشة أحد القوارض.

"ألـــيس لـــديكِ ما تقولينه؟" راح يحدّق بي بحدقتَي عينيه السوداوين. ارتجف جفناه السفليان، مثلما فعلت شفتاه.

مرتعبة، رحتُ أفكّر بما فعلته الأخريات. تساءلتُ عما فعلته **غابي**.

رفـــع السلسلة إلى ما فوق مستوى رأسي وبدأ بزيادة الضغط. بدا المنظر مثل ولد يعذّب كلباً، لكن الولد مولعٌ بالإجرام. تذكّرتُ **إلسا**، كما فكّرتُ بالعلامات الـــتي لاحظتُها على جثة **غابي**. ماذا قال **جاي. أس.** وكيف يمكنني أن أستفيد من كلامه هذا؟

"أريد أن أتحدث إليكَ، أرجوك. لماذا لا نذهب إلى مكانٍ ما حيث يمكننا أن نتناول شراباً، وكذلك..."

"أيتها الساقطة!"

ارتفعـــت يـــداه، وما لبثت السلسلة أن ضاقت حول عنقي. اخترقت رأسي ورقـــبتي سهام الألم. رفعتُ يديّ تلقائياً، لكنهما كانتا باردتين، وغير قادرتَين على فعل أي شيء.

"أعرف أنّ ***الدكتورة*** الكبيرة لا تتناول الشراب، أليس كذلك؟ يعرف الجميع هذه الحقيقة".

رأيـــتُ، مـــن خـــلال دموعي، أجفانه تتقافز بجنون. وصل جنونه إلى حدّه الأقصى. ساعدني يا الله. ساعِدني!

"أنتِ مثل الأخريات جميعهنّ. تظنين بأنني معتوه، أليس كذلك؟"

طلب دماغي تنفيذ أمرين: الهرب، والعثور على **كاتي**.

أمـــسكني وســـط أنين الرياح وضربات المطر على زجاج النوافذ. سمعتُ من بعـــيد صـــوت بوقٍ. وتمازجت رائحة عرقه مع رائحة عرقي أنا. تسمّرت عيناه،

اللــتان جمّــدهما الجــنون حتى أصبحتا كالزجاج، على وجهي. انطلق قلبي ينبض بوحشية.

كسر شيء ما جدارَ الصمت في غرفة النوم، فتصلّبت أجفانه لبرهة، وتوقف قلــيلاً، وأمــسك عن فعل أي شيء. ظهر **بيردي** في مدخل الغرفة، وراح يُصدر ضــجيجاً تــراوح ما بين العويل والأنين. تحولّت عينا **فورتيبه** نحو الظلال الفاتحة اللون الموجودة في الغرفة، فاغتنمت هذه الفرصة.

حــرّرتُ ســاقي، ودفعــتُها إلى الأعلى ما بين ساقيه. ركّزتُ كل الخوف والكراهية اللذين سيطرا عليّ في قوة هذه الضربة. واصطدمت ذقني بقوةٍ في منطقة الهدف. صرخ، وتراجع إلى الوراء. حرّرتُ نهايَتي السلسلة من يديه، واستدرتُ، ثم انــدفعتُ راكضةً في أنحاء الغرفة. شعرتُ أنّ الخوف والألم يدفعانني، لكنني كنتُ مثل شخصٍ يسير بحركة بطيئة.

تعافى ذلك النذل من صدمته بسرعة، فتحولت صرخة ألمه إلى عويلٍ ناتجٍ عن الغضب.

"أيتها السافلة!"

سرتُ من خلال الرواق الضيّق، وكدتُ أتعثّر بالسلسلة التي تلاحقني.

"سأقضي عليك أيتها السافلة!"

سمعــتُه يجــري ورائي، وترنّحتُ وسط الظلمة، ورحتُ أتنفس مثل حيوانٍ يائس. ***"أنت ملكي الآن! لن تستطيعي الإفلات مني!"***

تــرنحتُ حــول زاوية الغرفة، ورحتُ أحرّك يديّ في محاولة يائسة مني كي أتخلــص من السلسلة التي تقيّد معصمي. تحوّلتُ في لحظةٍ إلى ***روبوت*** (إنسانٍ آلي) حيث يتولى نظامي العصبي عصا القيادة.

"أيتها الساقطة!"

رأيتُه يقف ما بيني وبين المدخل الأمامي، فاضطررتُ إلى اختصار طريقي، وتــوجّهتُ نحــو المطــبخ! سيطرت عليّ فكرة واحدة: توجّهي نحو الأبواب الزجاجية!

تحركت يدي اليمنى، وتحررتُ من السلسلة.

"أيتها الساقطة! أنت ملكي الآن!"

وجـــدتُ نفسي في المطبخ بعد خطوتين، واخترقني ألمٌ شديد مجدداً اعتقدتُ معـــه بـــأنّ رقبتي قد انخلعت. فلقد اندفعت ذراعي اليسرى إلى الأعلى بينما ارتدّ رأســـي إلى الـــوراء. إذ كان قد وضع يده على السلسلة التي تقيّد رقبتي وجرّني. شعرتُ برغبة شديدة للتقيؤ، بينما انقطع الهواء مجدداً عن رئتيّ.

حاولـــتُ أن أُحرّر عنقي بيدي غير المقيدة، لكن كلما جذبتُ السلسلة بعيداً عـــني، كلما جذب هو بقوةٍ أكبر كي يخنقني. تحركتُ يمنةً ويسرةً، لكن السلسلة أخذت تشق طريقها بعمقٍ في رقبتي.

بـــدأ يجـــذب السلسلة ببطء، وهكذا وجدتُ نفسي أقترب منه أكثر فأكثر. أحسستُ بارتجاف جسده وارتعاشاته مع تذبذب السلسلة. أخذ يقصّر قيدي حلقة فحلقة. بدأتُ أشعر بالدوخة، واعتقدتُ بأنني على وشك أن يُغمى عليّ.

جاء صوته كالفحيح: "سأحاسبك على ذلك أيتها العاهرة!"

بـــدأتُ أشـــعر بالوخـــز في وجهـــي وأطراف أصابعي نتيجة افتقادي إلى الأوكسجين، وأخذت أذناي بالطنين، مثل طبلٍ فارغٍ. أحسستُ بالغرفة تدور من حولي. تناثرت بقع كثيرة في منتصف حقل الرؤية عندي، وما لبثت أن تجمعت، ثم انتـــشرت خارجـــاً مثل الغيوم الركامية السوداء. رأيتُ من خلال الغيمة المتراكمة بلاطـــةً خـــزفيةً تتجه صوبي ببطء. شاهدتُ يديّ تمتدان خارجاً أثناء اندفاعي إلى الأمام. حسبتُ نفسي مضيفاً عديم الحس يتعثّر براكبه الطفيلي.

اصطدم بطني بطاولة المطبخ أثناء تقدمنا البطيء، وارتطم رأسي بخزانةٍ معلّقةٍ. أرخى الرجل قبضته على السلسلة، لكنه ظل يتقدم من خلفي.

وقف الرجل خلفي تماماً بعد أن باعد ما بين رجليه، فدفعني هكذا نحو طاولة المطـــبخ. اصـــطدمتُ بغسالة الأطباق من الوسط فآلمتني كثيراً، لكنني تمكنتُ من التنفس.

بـــدأ صدره يعلو ويهبط، وأحسستُ بتوتر كل عضلةٍ من عضلاته، فبدا مثل وتر القوس الذي شُدّ كي يُطلق رمحه. استعاد قبضته على السلسلة بحركة دائرية من معصمه، كما دفع برأسي إلى الخلف بحركة منحنية مرتدة إلى الوراء. مدّ يديه بعد ذلك، ووضعهما حول رقبتي واضعاً طرف السكين تحت زاوية فكّي. أصبح شرياني السباتي تحت رحمة الفولاذ البارد. شعرتُ بأنفاسه تضرب خديَ الأيسر.

أمسكني لفترةٍ خلتها دهراً، بقيَ رأسي مشدوداً إلى الخلف، بينما تدلت يداي في حالــة عجــزٍ عن القيام بأي شيء، وبدتا مثل جثة معلقة بخطّاف. خلت أنني أراقــب نفسي من خليجٍ واسع، أي أنني كنتُ مثل متفرجةٍ مرتعبةٍ، لكنها عاجزة عن تقديم المساعدة.

وضعتُ يدي اليمنى على طاولة المطبخ، وحاولتُ أن أدفع باتجاهها كي أرفع جــسمي، وأخفّف من وطأة السلسلة. لمست شيئاً موضوعاً على سطح الطاولة. كانت علبة عصير البرتقال، بينما استلقى السكّين إلى جانبها.

بصمت، التفّت أصابعي حول المقبض. حاولتُ أن أنشج، وتظاهرتُ بالأنين. أردتُ تحويلَ انتباهه.

"اهدئــي أيــتها الــساقطة! ســنبدأ بلعبتنا الآن. أنت تحبين الألعاب، أليس كذلك؟"

أدرتُ السكين بعنايةٍ شديدةٍ، ورحتُ أئنّ بصوتٍ عالٍ كي أخفي أي حفيفٍ قد يصدر.

أرتعشت يدي، فترددتُ قليلاً.

فجأةً، رأيت النساء من جديد، وتخيّلتُ ماذا فعل بهنّ. شعرتُ بالرعب الذي أحسسنَ به، وعرفتُ ماذا يعني اليأس النهائي.

افعليها!

تدفق **الأدرينالين،** وانتشر في أنحاء صدري وأطرافي، مثلما تتدفق الحمم فوق سفح الجبل. صمّمتُ ألا أموت كجرذٍ في حفرة إذا ما كُتب الموت عليّ. سأموت وأنــا أهاجم عدوي وسط دويّ البنادق. عاد عقلي للتركيز، فأصبحتُ مشاركةً فعّالــةً في صــنع مــصيري. تمسكتُ بالسكين بقوة شديدة، ووجّهتُ النصل إلى الأعلــى، ثم قــدّرتُ الزاوية. ودفعتُ بكل ما أوتيتُ من قوة، من فوق جسدي وكتفي اليسرى، وجمعتُ أشتات قوتي من الخوف، واليأس، والرغبة بالثأر.

اصطدم حد السكين بالعظم. انــزلق قليلاً، ثم انغرز في طراوة هشة. لم تكن صرخته السابقة شيئاً يُذكر إذا ما قورنت بالصرخة التي انطلقت من حنجرته الآن. اندفع إلى الخلف بينما نــزلت يده اليسرى إلى الأسفل، وأحسستُ بيده اليمنى تمرّ من فوق عنقي. وتساقطت نهاية السلسلة على الأرض فأرخت قبضتها المميتة.

شعرتُ بألمٍ في أنحاء عنقي، ثم أحسستُ بشيء رطب. لم أهتم لذلك، لأن الشيء الوحـيد الـذي احتجتُه كان الحصول على الهواء. حصلتُ بيأسٍ على جرعات منه، ومددتُ يدي كي أتحرر من حلقات السلسلة، وأحسستُ بما تأكدتُ من أنه دمي أنا.

سمعـتُ من خلفي صرخةً حادةً أخرى. كانت صرخةً غريزيةً، مثل صرخة المـوت التي تصدر عن حيوانٍ مفترسٍ. تشبثتُ بطاولة المطبخ، وأمسكتُ بها جيداً، ثم التفتُّ كي أنظر.

رأيـته متـرنحاً إلى الخلف عبر المطبخ واضعاً يده فوق وجهه، بينما مدّ يده الأخـرى كـي يحافظ على توازنه. انطلقت أصواتٌ مريعةٌ من فمه المفتوح أثناء ارتطامه بالجدار، وذلك قبل أن ينـزلق ببطءٍ نحو الأرض. تركت يده المدودة أثراً أسـود اللـون علـى الجدار. ظلّ رأسه، لبُرهة، يترنح إلى الخلف وإلى الأمام ثم تـصاعدت أنةٌ خافتة من حنجرته. انسدلت يداه إلى الأسفل، واستقر رأسه، بينما تدلت ذقنه نحو الأسفل، أما عيناه فتركزتا على الأرض.

وقفـتُ جامـدةً في هذا السكون الذي حلّ فجأة، و لم أسمع سوى أصوات أنفاسـي اللاهثة، وأنينه المتلاشي. بدأتُ بإدراك الأشياء المحيطة بي من خلال ألمي: حوض جلي الأطباق، الموقد، الثلاجة. كانت كلها غارقةً في سكونٍ مميتٍ. شعرتُ بشيء زلقٍ ينساب من تحت قدميّ.

حـدّقتُ في هذا الجسم الملقى بلا حراك على أرضية مطبخي، ورأيتُ ساقيه الممـددتين إلى الأمام، بينما استقرت ذقنه على صدره، أما ظهره فكان مستنداً إلى الجـدار. تمكّنتُ وسط العتمة من رؤية بقعة داكنة ممتدة على صدره تتجه نحو يده اليسرى.

ومض البرق مثل مشعل التلحيم، فأنار كل شيء في المطبخ.

بدا جسده أملس ومصقولاً بفعل ذلك اللون الأزرق الذي غلّفه. امتد غشاء باللونين الأزرق والأحمر فوق رأسه، فبدا شعره ملبداً فتحوّل رأسه بذلك إلى شكل بيضاوي عديم الملامح.

بـرز مقبض سكين اللحم من عينه اليسرى، فظهرت السكين مثل عصا علم رفعـت علـى مساحة للعبة الغولف. انسابت الدماء من وجهه ورقبته، فجعلت كنـزته قاتمة اللون. لاحظتُ أنه توقف عن الأنين.

أحســـستُ بما يشبه الاختناق، وعادت تلك البقع التي لا حصر لها إلى مجال بصري. شعرتُ بارتخاءٍ في ركبتيّ، لذلك حاولتُ الاستناد إلى طاولة المطبخ.

جهـــدتُ كـــيٍ أتنفس بعمقٍ أكبر، ورفعتُ يدي إلى عنقي كي أتخلّص من السلـــسلة. أحســـستُ بلزوجةٍ حارةٍ. أنـــزلتُ إحدى يديّ وحدّقتُ جيداً. أوه، نعم. أنا أنـــزف.

تحـــركتُ باتجاه الباب، وشغلتُ تفكيري **بكاتي**، وبالحصول على المساعدة، وفجـــأةً تـــسمرتُ في مكاني عند سماعي صوتاً مفاجئاً. سمعتُ انـــزلاق الحلقات الفولاذية! وومضت الغرفة باللونين الأبيض والأسود.

شعرتُ بالعجز عن الركض فالتفتُّ خلفي. تحرك نحوي، بصمت، ظلٌّ داكن.

سمعتُ صوتي أنا، ثم رأيت آلاف البقع، بينما لفّت غمامةٌ سوداء كل الأشياء المحيطة بي.

سمعتُ، من بعيد، عويل صفارات الإنذار، وتناهت أصوات مختلفة إلى سمعي.

شعرتُ بضغطٍ فوق حنجرتي.

فتحتُ عينيّ بسبب الضوء والحركة. انحنى فوقي شكلٌ ما. شعرتُ بيدٍ تضغط على عنقي.

مَنْ هو هذا الشخص؟ وأين أنا؟ هل أنا موجودة في غرفة معيشتي؟ عادت إليّ بعض الذكريات، وشعرتُ بالهلع. بذلتُ مجهوداً كبيراً كي أجلس.

"انتبهوا. انتبهوا. إنها على قيد الحياة".

شعرتُ بأيدٍ تضعُني على الأرض.

سمعـــتُ صوتاً مألوفاً لديّ. لم أتوقع سماع هذا الصوت لأنه كان من خارج دائرة صداقاتي.

"لا تتحركـــي. خـــسرتِ كمية كبيرة من الدماء، لكن سيارة الإسعاف في طريقها إلى هنا".

إنه **كلوديل**.

"أين؟ أنا..."

"أنت بأمان بعد أن قبضنا عليه".

قال **شاربونيو**: "أو على ما تبقى منه".

"أين **كاتي**؟"

"اســـتريحي الآن. هـــناك جرحٌ في حنجرتك، وفي الجهة اليمنى من رقبتك. ســـتنـــزفين إذا مـــا حرّكتِ رأسك. خسرتِ كمية كبيرة من الدماء. لا نريد أن نخسرك الآن".

"وماذا بشأن ابنتي؟"

طافـــت وجـــوه الحاضرين من فوقي. ومض البرق في تلك اللحظة، فظهرت وجوههم باللون الأبيض.

راح قلبي ينبض بشدة، وشعرتُ بالاختناق: "أين **كاتي**؟"

"إنها بخير، وتتلهف كي تراك، لكنها الآن برفقة أصدقائها".

"اللعنة!" تحرّك **كلوديل** بعيداً عن الأريكة. "***أين أصبحت سيارة الإسعاف؟***"

مـــشى نحو الغرفة وتطلّع نحو شيء ملقىً على أرض المطبخ، ثم عاد ونظر إليّ وقد ظهرت ملامح غريبة على وجهه.

تصاعد صوت سيارة الإسعاف بحيث ملأ الشارع الصغير. مرّت لحظة قبل أن أرى الوميض الأحمر والأزرق خارج الأبواب الفرنسية.

قـــال **شاربونيو**: "استريحي الآن. إنهم هنا. سنتأكد من أنّ ابنتك بخير. انتهى الأمر".

42

مـــا زلـــتُ أعاني من ثغرة في ملفات ذاكرتي الرسمية. بقيَ اليومان التاليان في مكانهمـــا، لكـــنهما تميزا بالتشوّش، لكنهما خارج موقعهما الزمني. يحتفظ هذان الـــيومان بمجموعة مفككة من الصور والمشاعر التي ترد على ذهني ثم تتلاشى من دون رابط منطقي.

تذكـــرتُ وجـــود الساعة وأرقامها التي لا تثبت على وضع واحد، والألم، والـــيدين اللـــتين تجـــرّانني، والفحص، ورفع جفوني، والأصوات، ونافذة مضاءة، وأخرى غير مضاءة.

تذكّرتُ الوجوه: وجه **كلوديل** الصلب الذي بدا وسط الضوء، ووجه **جويل تامـــبو** الـــذي واجه أضواء الشمس اللاهبة، ووجه **رايان** الغارق في لون المصباح الأصـــفر أثناء انشغاله بتقليب الأوراق ببطء شديد، كما أنّ ألوان جهاز التلفزيون الزرقاء قد انعكست هي الأخرى على ملامح وجهه.

دخلـــت جسمي كمية من الأدوية تكفي لتخدير جيشٍ بكامله، وهكذا صعُب علـــيّ أن أفـــصل مـــا بين فترات النوم بتأثير المهدئات، وبين حقائق اليقظة. تمازجت الأحلام والذكريات ودارت مثل إعصار يدور حول مركزه. لم تنفع محاولاتي المتكررة، التي هدفت إلى ترتيب تحركاتي في ذلك الوقت، في تصنيف صور هذين اليومين.

عاد الاتساق إلى ذاكرتي بحلول يوم الجمعة.

فتحتُ عينيّ على ضوء الشمس الساطع، ورأيتُ ممرضةً تعدّل انسياب الحقنة الـــوريدية. عـــرفتُ على الفور مكان تواجدي. أصدر شخصٌ ما يقف إلى يميني

أصوات قرقعة خافتة. أدرتُ رأسي فشعرتُ بألمٍ شديد. استنتجتُ من الألم المتقطع في عنقي أنه من الأفضل لي أن أمتنع عن الحركة.

جلس **رايان** على كرسي بلاستيكي، وانهمك بإدخال معلوماتٍ إلى حاسوب جيبٍ (منظّم) يحمله في يده.

"هل سأعيش؟" بدت كلماتي هذه نوعاً من التمتمة.

قال مبتسماً: "**يا إلهي!**"

بلعتُ ريقي وكررتُ سؤالي. أحسستُ أنّ شفتيّ متصلبتان ومتورمتان.

تناولت الممرضة معصمي، ووضعت أطراف أصابعها فوقه، ثم حدّقت بساعة يدها.

"هكـــذا يقولـــون". وضع **رايان** حاسوبه الصغير في جيب قميصه ونهض، ثم اقتـــرب من سريري. "تعانين من ارتجاج، وتمزّق في الجهة اليمنى من الرقبة والعنق، بالإضـــافة إلى خـــسارة كمية كبيرة من الدماء. سبع وثلاثون قطبة على يد أمهر الجراحين. توقعات ما بعد العلاج: ستعيشين".

نظرت إليه الممرضة بنظرة توبيخ، وقالت قبل أن تغادر: "عشر دقائق".

اخترق جزء من ذاكرتي حاجز الأدوية.

"أين **كاتي**؟"

"اســـتريحي الآن. ستكون هنا بعد قليل. سبق لها أن جاءت إلى هنا من قبل، لكنكِ لم تكوني واعية".

نظرتُ نحوه متسائلة.

"حضرت إلى الشقة مع صديقٍ لها قبل مغادرتكِ بسيارة الإسعاف. قالت إنه فتى تعرفه من **ماك جيل**. كان قد سبق لها أن حضرت إلى شقتك في ذلك المساء، لكن من دون أن تُحضر المفتاح معها وتمكنت من الدخول من خلال الباب الخارجي. يبدو أنّ أحـــد جيرانك لا يهتم بإجراءات الأمن". شبك إبهامه بحزام سرواله. "لكنها لم تتمكن من الدخول إلى شقتك. اتصلت بمكتبكِ من دون نتيجة، ولذلك تركت حقيبتها كي تعلمك بأنها وصلت إلى المدينة، ثم انضمّت إلى صديقها، أيتها السيدة الوالدة!

أرادت أن تعـــود وقـــت الغـــداء، لكن هبوب العاصفة منعها، وهكذا بقيَ الـــرفيقان في **هـــيرلي**، وتناولا بعض المشروب. حاولت أن تتصل، لكنها لم تفلح.

كـــادت تنهار عندما وصلت إلى الشقة، لكنني استطعتُ أن أهدّئها قليلاً. كلّفتُ أحـــد أفـــراد الشرطة الموجلين بمساعدة الضحايا كي يظل على اتصالٍ معها، وكي يُعلمهـــا بالمستجدات. عرض عدة أشخاص استضافتها، لكنها فضّلتْ البقاء برفقة صديقها. اعتادت الحضور إلى هنا كل يوم، وتريد أن تراكِ بأي طريقة".

ذرفتُ دموع الارتياح رغم محاولتي منعها. حصلتُ على منديل ورقي، ونظرة تعاطـــف مـــن **رايان**. بدت يدي غريبةً بعض الشيء فوق غطاء السرير الأخضر اللـــون، فظهرت وكأنها يد شخصٍ آخر. أحاط سوار بلاستيكي بمعصمي. تمكنتُ من ملاحظة وجود بقعٍ صغيرة من الدماء تحت أظافري.

عادت إليّ بعض شذرات من ذاكرتي. رأيتُ وميض البرق، ومقبض السكين.

"ماذا حدث مع **فورتييه؟**"

"سنتحدث عنه لاحقاً".

"بـــل الآن". ازداد الألم في رقبتي. أدركتُ أن لا مزاج لي لتبادل الحديث لمدة طويلة، كما أنّ **فلورنس ناتينجايل** ستعود بعد وقت قصير.

"فقَـــدَ الـــنذل كميةً كبيرةً من الدماء، لكن الطب الحديث أنقذه. فهمتُ أن نـــصل السكين جرح **وقب العين**، لكنه انـــزلق نحو **العظم الغربالي**، الذي يقع في مقدمة الدماغ، لكن من دون أن يخترق الجمجمة. سيفقد الرجل عينه، لكن **جيوبه الجبهوية** ستظل سليمة".

"يا لك من مشاغبٍ يا **رايان!**"

"دخل الرجل إلى بنايتك من خلال باب المرآب الذي لا يقفل، ثم انتزع قفل باب شقتك. لم يتواجد أحد غيره في الشقة، وهكذا تمكّن من تعطيل جهاز الأمان، وقطـــعِ الطاقة الكهربائية عن الشقة. لم تلاحظي ذلك، لأن جهاز الحاسوب عندك يعمـــل علـــى البطارية تلقائياً عند انقطاع الطاقة عنه، كما أنّ هاتف المنـــزل لا يـــرتبط بالكهرباء، ما عدا وحدة الهاتف النقالة. لا بد أنه قطع خط الهاتف بعد أن أجريت مكالمتكِ الأخيرة. يُحتمل أنّ الرجل كان في الشقة عندما حاولت **كاتي** أن تفتح الباب من دون طائل، وهو الأمر الذي اضطرها إلى ترك حقيبتها".

شعرتُ بوخزة باردة من الخوف. تذكّرتُ اليد الساحقة، وذلك الطوق الخانق.

"أين هو الآن؟"

"إنه هنا".

جهـــدتُ لأجلـــس، لكـــني شعرتُ بألمٍ في معدتي. دفعني **رايان** برفقٍ نحو الوسادة.

"يخـــضع الـــرجل لحراســـةٍ مشددةٍ، يا **تمب**. لن يتمكن من الذهاب إلى أي مكان".

قلتُ بصوت مرتجف: "هل هو **سان جاك** بذاته؟"

"سنتحدث لاحقاً عن هذا الموضوع".

فكّـــرتُ بطرح ألف سؤال، لكن الأوان فات لذلك، إذ أحسستُ أنني أعود إلى دائرة الفراغ التي أحاطت بي في اليومين الماضيين.

عادت الممرضة ورمقت **رايان** بنظرة توبيخ. لم أشاهده وهو يغادر.

رأيـــت، عندما استيقظتُ في المرة التالية، **رايان وكلوديل** قرب نافذة الغرفة يتحدثان بهدوء. سادت الظلمة في الخارج. كنتُ أحلم **بجويل وجولي**.

"هل حضرت **جويل تامبو** إلى هنا؟"

التفت الرجلان نحوي.

أجاب **رايان**: "أتت يوم الخميس".

"وماذا بشأن **فورتييه**؟"

"نقلوه من هنا بحالة حرجة".

"هل اعترف بشيء؟"

"أجل".

"هل هو **سان جاك** بذاته؟"

"أجل".

"وماذا قال أيضاً؟"

"أعتقد أنه يمكننا تأجيل الحديث بهذا إلى أن تتحسن صحتك".

"أخبرني".

تبادل الرجلان النظرات، ثم اقتربا مني. تنحنح **كلوديل**.

"يدعى الرجل **ليو فورتييه**، ويبلغ الثانية والثلاثين من عمره. يعيش في الجزيرة مـــع زوجته وولديه. يتنقّل بين وظيفةٍ وأخرى، لكنه لا يشغل وظيفة ثابتة. تورط

هو **وغرايس داماس** في علاقة غرامية في عام 1991. التقيا أثناء عملهما في ملحمة (محل جزارة)".

"تُدعى لا بوشيري سان دومينيك".

نظر **كلوديل** إليّ بغرابة: "*وي*. ساءت الأمور بينهما، فهدّدته بإبلاغ الزوجة بالعلاقة، وبدأت في ابتزاز الأموال من عشيقها. وصل الرجل إلى نقطة لم يعد يقدر بعـــدها على احتمالها. عندها طلب منها أن تلاقيه في الملحمة بعد ساعاتٍ عديدةٍ. قتلها هناك وقطّع جثتها".

"إنها مخاطرة كبرى".

"كـــان المالك خارج المدينة، لذلك أُقفل المحل لعدة أسابيع. تتواجد كل العدّة الضرورية في المحل. قطّع جثتها على أي حال، نقلها إلى **سان لامبرت**، ثم دفنها في أرض الموناستير. يبدو أنّ خاله هو المكلّف بالإشراف على الموناستير وأراضيه. إما أنّ العجوز قد أعطاه المفتاح، أو أنّ **فورتييه** قد ذهب من تلقاء نفسه".

"هل يدعى العجوز **إميل روي**؟"

"*وي*".

رمقني بالنظرة ذاتها مجدداً.

قال **رايان**: "هذا ليس كل شيء. استخدم الموناستير من أجل الإيقاع **بتروتييه وغاغنون**. أخذهما إلى هناك، وقتلهما، ثم قطع جسديهما في الطابق السفلي. نظّف المكـــان بنفسه، وهكذا لم يشك **روي** بشيء، لكن عندما قام **جيلبير** ورجاله هذا الـــصباح برشّ الطابق السفلي برذاذ **اللومينول**، اشتعل المكان مثلما يشتعل جمهور لعبة **أورانج بال** بالحماسة في وقت منتصف المباراة".

قلت: "وهكذا استخدم الطريقة ذاتها للدخول إلى **لا غراند سيمينايير**".

"أجـــل. يقـــول إنّ الفكـــرة خطرت على ذهنه عندما كان يلاحق **شانتال تـــروتييه**. يقـــع منـــزل والدها قرب المنعطف. يحتفظ **روي** بلوحةٍ في الموناستير تحـــتوي على مختلف مفاتيح دار العبادة، وكلها مرتبة ومعلقة على خطافات. أخذ **فورتييه** المفتاح الذي يريده بكل بساطة".

قـــال **رايان**: "أوه. قال **جيلبير** إنه يحتفظ بمنشار طهاة من أجلك. أضاف إنه يلمع".

لا بد أنه رأى شيئاً في وجهي.

"متى تتحسن صحتك؟"

"أنــا متــشوقة للخروج". بذلتُ أقصى جهدي، لكن دماغي المتضرر شرع بالتراجع مجدداً.

دخلت الممرضة إلى الغرفة.

قال **كلوديل**: "إنه حديث رجال الشرطة".

وضعت ذراعيها فوق صدرها بشكل متصالب، وهزّت رأسها.

"اخرجا من فضلكما".

قادت الممرضة الرجلين إلى خارج الغرفة بسرعة، لكنها عادت بعد برهة. لم تعد وحدها، لأنها اصطحبت **كاتي** معها. عبرت ابنتي الغرفة من دون أن تقول أي كلمة، وشبكت يديّ الاثنتين بيديها. ملأت الدموع عينيّ.

قالت بصوت خافت: "أحبك يا أمي".

اكتفيت بالنظر إليها لبرهة من الزمن، لكن عدداً لا يحصى من المشاعر اختلج في أعماقــي: الحــب، الامتنانً، العجز. أحبّ هذه الفتاة كثيراً أكثر من كل شيء آخــر في هذا العالم، وأتمنى لها السعادة من كل قلبي، كما أريد لها أن تكون بأمان. شــعرتُ بأنني عاجزة تماماً عن تقديم أي من هذين الأمرين لها. أحسستُ بالدموع تجري على خديّ.

"وأنا أحبك يا عزيزتي".

قــرّبت كرسياً، وجلست بمحاذاة سريري، لكنها لم تترك يديّ. عكَسَ ضوء **الفلوريسينت** هالةً من اللون الأشقر حول رأسها.

تنحــنحت وقالــت: "أقيم الآن عند **مونيكا**. إنها تقصد **ماك جيل** من أجل دراســتها الــصيفية، وتعــيش في منــزلها. تعتني أسرتها بي جيداً". سكتت قليلاً، وترددت في ما تقوله وما لا تقوله. "يمكث **بيردي** معنا".

تطلعت نحو النافذة، ثم عادت بنظرها نحوي.

"يتــصل بي رجل شرطة مرتين في اليوم، وهو مستعد لإحضاري إلى هنا متى أريــد". انحنت إلى الأمام وأسندت ساعديها على السرير. "لم أجدك مستيقظة في أحيان كثيرة".

"أنوي أن أتحسّن".

ابتسمت بعصبية: "يتصل بي والدي كل يوم كي يتأكد إن كنتُ أحتاج شيئاً، وليسأل عنكِ".

انضمت مشاعر الذنب والخسارة إلى المشاعر الأخرى التي عصفت بي: "أبلغيه أنني بخير".

عادت الممرضة بهدوء ووقفت إلى جانب **كاتي** التي وقفت بدورها وهي تقول: "سأعود غداً".

حصلتُ على الدفعة التالية من أخبار **فورتييه** في الصباح التالي.

"أقدم الرجل منذ أعوام عدة على ممارسات جنسية غير مشروعة. يرجع سجّل أعماله هذه إلى العام 1979. أقدم على احتجازٍ فتاة لمدة يوم ونصف اليوم عندما كان في الخامسة عشرة من عمره، لكن من دون أن يجني شيئاً من عملية الخطف. لم ترفع الجدة الأمر إلى القضاء، لذلك لم يتضمن سجله إلقاء القبض عليه في تلك الفترة. اعتاد الرجل أن يختار امرأة، ويلاحقها، ثم يسجّل أنشطتها. قُبض عليه أخيراً بتهمة تنفيذ اعتداء في العام 1988..."

"الجدّة".

تلقيتُ نظرةً أخرى من نظرات **كلوديل** المعتادة. لاحظتُ أنّ ربطة عنقه الحريرية تتناسب تماماً مع لون قميصه البنفسجي.

"**وي**. أمرت المحكمة بتعيين طبيب نفسي لمعالجته في وقت وصفته فيه بأنه رجلٌ مذعورٌ ومولعٌ بالإكراه". التفت نحو **رايان** وقال: "ماذا كتب ذلك الطبيب النفسي إضافة إلى ذلك؟ الغضب العارم، قابلية للعنف، وعلى الأخص تجاه النساء؟"

"لهذا السبب حُكم عليه بالسجن ستة أشهر قبل أن يُطلق سراحه. إنه أمر غير مستغرب".

اكتفى **كلوديل** هذه المرة بالتحديق بي. فرك عينيه في منطقة أرنبة أنفه، ثم تابع حديثه.

"في ما عدا أن الأمر يتعلق بفتى وجدّته. لم يفعل **فورتييه**، حتى هذه المرحلة أشياء تتعدى أموراً تافهة. استعجل الرجل كثيراً في قتل **غرايس داماس**، وقرّر أن

ينـــتقل إلى أشياء أكثر أهمية. عمد الرجل إلى استئجار أول مخبأ له. أما ذلك المخبأ الموجود في شارع **بيرغر** فهو أحدث مركزٍ له".

علّق **رايان:** "لم يرغب الرجل أن يتشاركَ هوايته مع تلك السيدة الصغيرة التي تشاركه منـــزله".

"كيف استطاع تأمين قيمة الإيجار من وظيفةٍ بدوامٍ جزئيٍّ؟"

"لديـــه زوجـــة موظفة. يُحتمل أنه ينتزع قيمةَ الإيجار منها، بعد أن يلفّق لها كذبـــةً مـــا. يُحـــتمل أن تكون لديه هواية أخرى نجهلها. سنعرف تفاصيل أكثر بالتأكيد".

تابع **كلوديل** روايته تفاصيل القضية بشكلٍ حيادي.

"بـــدأ في العام التالي بملاحقة النساء جدياً، وبشكل منهجي. كنتِ على حق بـــشأن المتـــرو، ويبدو أنه يحب الرقم ستة. يبدأ الرجل بتجاوز ست محطات، ثم يلاحـــق امرأة تتناسب مع المواصفات التي يضعها. كانت **فرانسين موريسيت – شامبو** ضحيته العشوائية الأولى. إذ كان يستقل عربة المترو في محطة **بيري – جامعة كيبـــيك ومونتـــريال،** ويتـــرجّل في محطة **جورج – فانييه** كي يتبع ضحيته حتى منـــــزلها. يـــستمر الرجل في تتبع المرأة لأسابيع عديدة قبل أن يبدأ بالانقضاض عليها".

فكّـــرتُ في كلماته وشعرتُ بموجة من الغضب. أرادت تلك المرأة أن تشعر بالأمان، وأنّ أحداً لا يستطيع إيذاءها داخلَ منـــزلها. إنّ هذا هو أقصى ما تحلم به الأنثى. أعادني صوت **كلوديل** إلى عالم الواقع.

"حمَـــل هـــذا النوع من الملاحقة مخاطرةً كبرى لأنه لا يستطيع التحكم به. خطـــرت على ذهنه فكرة الاستفادة من لافتات العقارات عندما رأى واحدةً منها معلقةً أمام منـــزل **موريسيت – شامبو**. إنها العذر المثالي الذي يمكّنه من الدخول إلى المنازل".

شعرتُ بألمٍ كبيرٍ في أعماقي: "وماذا عن **تروتييه؟**"

"**تـــروتييه**. قرّر الرجل استخدام الخط الأخضر هذه المرة. عبَرَ ست محطات، وترجّل في **آتواتر**. استمّر بالتجوال حتى شاهد لافتةً. كانت لافتة تعرض منـــزل والـــدها للبـــيع. واظب على المراقبة بصبرٍ كبيرٍ، وراقب **شانتال** في ذهابها وإيابها.

يقول ذلك المجرم بأنه لاحظ وجود شعار مدرستها على الزيّ الذي ترتديه، **ودفعه** هذا إلى الذهاب إلى مدرستها لأيامٍ عديدة. ونصب كمينه بعد ذلك".

علّــق **رايـــان**: "وجــد الرجل في هذا الوقت مكاناً أكثر أماناً يصلح لقتل ضحاياه".

"الموناســتير. إنه المكان المثالي لهذه الغاية. لكن، كيف استطاع إقناع **شانتال** بالذهاب معه؟"

"تــربّص بها في أحد الأيام حتى تأكد أنها وحدها. قرع الجرس، وطلب رؤية الشقة. قال إنه يرغب بشراء المنــزل ويريد أن يراه من الداخل، لكنها رفضت أن تسمح له بالدخول. رآها بعد ذلك بأيام وهي تغادر المدرسة، وسار إلى جانبها. يا لهـــا من صدفة! ادعّى بأنه على موعدٍ مع والدها الذي تخلّف عن الحضور. تعرف **شـــانتال** مدى تلهف والدها لبيع المنــزل، وهكذا وافقت على مرافقته. نعرف ما تبقى من تفاصيل".

أزّ مصباح **الفلوريسينت** فوق سريري، واستمر بإصدار صوت خافت. تابع **كلوديل** حديثه.

"لم يــرغب **فورتييه** في دفن جثة أخرى في أراضي الموناستير، وهكذا ساقها نحو **سان جيروم**. لم يعجبه ذلك المكانُ أيضاً. قدّر أن قيادة السيارة ستستغرق زمناً طــويلاً، كمــا وضع في حسبانه أن يتم توقيفه من قِبَل الشرطة. سبق له أن رأى مدرســة الموناستير، وتذكّر المفتاح الذي يسمح له بدخوله. صمّم أن يرتب المسألة بطريقة أفضل في المرة القادمة".

"أتعني **غاغنون**؟"

"تعلّم الرجل بطريقة منهجية".

"هكذا إذاً".

ظهــرت الممرضة في تلك اللحظة، لكنها بدت أصغر سناً، وألطف مما كانت علــيه في الأيـــام الـــسابقة. قرأت ملخص التقرير عن حالتي، ووضعت يدها على جبهتي، وقاست معدل نبضات قلبي. لاحظتُ، للمرة الأولى أنّ الحقنة الوريدية قد اختفت عن ذراعي.

"هل أنتِ متعبة؟"

"أنا بخير".

"تستطيعين الحصول على دواءٍ آخر مضادٍ للألم إذا أردتِ".

قلتُ: "دعينا نرى كيف تسيرُ الأمور".

ابتسمت لي ثم غادرت.

"وماذا حصل مع **آدكينـــز**؟"

قال **رايان**: "إنه يشعر بإضطرابٍ كبيرٍ عندما يتحدث عن **آدكينـــز**، ثم يلتزم الصمت. يبدو أنه يفتخر بما فعله مع الأُخرياتِ، لكن شعوره تجاهها يختلف كثيراً".

رأيـــتُ عربة مليئة بالأدوية تعبر الممر، فيما دارت الدواليب المطاطية بصمتٍ فوق بلاطه.

"لماذا كانت **آدكينـــز** خارج النمط المعتاد؟"

حثّ صوت آلي أحد الأطباء كي يتصل بالرقم 237.

لماذا كل هذا الاضطراب؟

فُتحت أبواب المصعد، ثم تناهى إليّ أزيز إغلاقها.

قلـــتُ: "لنفكّر في هذا. يستخدم الرجل ذلك المكان في **بيرغو**، ويمتلك نظامه الخـــاص به والجاهز للعمل. يجد هذا المجرم ضحاياه في المترو، وإلى جانب لوحات **للبـــيع**. يقوم بعدها بملاحقة ضحاياه إلى أن تحين اللحظة المناسبة. إنه يمتلك مكاناً آمـــناً ينفّذ فيه جرائمه، كما يمتلك مكاناً آمناً يستخدمه لإلقاء جثث ضحاياه فيه. تـــسير الأمـــور علـــى ما يرام في هكذا نظام، ولهذا لم تعد هناك ضرورة للعجلة، وهكذا يندفع في مغامرات أكبر، ويقرّر أن يعود إلى منـــزل ضحيته، مثلما فعل مع **موريسيت – شامبو**".

تذكّـــرتُ الصور الفوتوغرافية، وبذلة التمارين الرياضية المجعّدة، وبِركة الدماء الداكنة حول الجثة.

"أصبح الرجل مهملاً بعض الشيء. اكتشفنا أنه اتصل مسبقاً من أجل تحديد مـــوعدٍ مع **مارغريت آدكينـــز**. لم يحسب حساب أن الزوج سيتصل أثناء زيارته هـــذه. ترتّب عليه أن يقتلها بسرعة، كما كان عليه أن يقطّعها بسرعةٍ أيضاً، وأن يـــستخدم أدوات قريبة من متناول يده لتنفيذ عملية التشويه. أنهى العملّية وخرج، لكن بتسرّع، ومن دون أن يكون في حالة من يتحكّم بالوضع".

تذكرتُ التمثال الصغير، والثدي المقطوع.

أومأ رايان.

"يبدو هذا منطقياً. يُعتبر القتل آخر عملٍ يقوم به في سيناريو تخيلاته للسيطرة. يسمح له هذا السيناريو بقتل الضحية أو بالسماح لها بالعيش. ويسمح له بإخفاء جثتها أو عرضها، ويستطيع أن يحرمها من أعضائها التناسلية عن طريق قطع نهديها، أو تدمير مهبلها. يستطيع أيضاً أن يجعلها عاجزةً تماماً عن طريق قطع يديها. لكن الزوج يتصل فجأة، ويهدّد بتدمير كل هذه الصورة الخيالية المثيرة".

قال **رايان**: "أفسدت السرعة الأمر برمته".

"لم يستخدم الرجل أشياء مسروقة قبل **آدكينز**. أعتقد بأنه استخدم بطاقتها المصرفية بعد ذلك كي يؤكد سيطرته على الأمور".

قال **كلوديل**: "أو يُحتمل أنه عانى من مشكلة سيولة، وأراد أن يبتاع شيئاً من دون أن يمتلك قوةً شرائية".

علّق **رايان** بالقول: "يبدو الأمر غريباً. لا أستطيع إثبات جرائمه الأخرى، لكنه كان سريعاً جداً مع **آدكينز**".

لم يقل أحدٌ شيئاً لمدة من الزمن.

حاولتُ تجنب ما عليّ معرفته، فسألتُ: "وماذا عن **بيتري وغوتييه**؟"

"يدّعي الرجل بأنه لم يقتلهما".

تبادل **رايان وكلوديل** بضع كلمات، لكنني لم أسمعها. اجتاحتني قشعريرة ملأت صدري، وما لبث أن بدأ سؤال يتشكّل في ذهني. بدأ السؤال بالتشكّل، وعلق في ذهني، ثم انساب قبل أن يفرض صياغته بكلمات.

"وماذا عن **غابي**؟"

غضّ **كلوديل** بصره.

تنحنح **رايان**.

"تعرّضتِ إلى..."

فاضت الدموع من عيني، لكنني كرّرتُ: "ماذا عن **غابي**؟"

أومأ **رايان**.

"لماذا؟"

لم ينطق أحد بكلمة.

جهدتُ كي أحافظ على هدوء صوتي: "يتعلّق الأمر بي، أليس كذلك؟"

قـــال **رايـــان**: "هـــذا المعتوه مغفلٌ تماماً. يجنّ كي يفرض سيطرته. لم يُعطِنا إلا معلـــومات قليلة عن طفولته، لكنه يكّن غضباً شديداً تجاه جدّته بحيث يصعب علينا أن ننـــسى ما قاله عند مغادرتنا. إنه يحمّل هذه الجدة مسؤولية مشاكله كلها، ولا يتوقف عـــن القول إنها حطّمته. علمنا إنها امرأة تحب فرض سيطرتها على الدوام، بالإضافة إلى أنها امرأة متعصبةٌ. أعتقد أنّ مشاعره بالعجز تعود إلى ما جرى بينهما في الماضي".

قال **كلوديل**: "نستنتج من ذلك أنّ الرجل فاشلٌ مع النساء، ويحمّل مسؤولية هذا الفشل إلى تلك العجوز".

"لكن ما علاقة كل هذا مع **غابي**؟"

بدا **رايان** متردداً في متابعة الحديث.

"اســـتمتع **فورتيـــيه** بالتلـــصّص في الـــبداية. كان يراقب ضحاياه، ثم يتتبعهنّ ويلاحقهن، ويعرف كل شيء عنهن، لكن من دون أن يعرفن بوجوده. احتفظ الرجل بدفاتـــر ملاحظات، وقصاصات الجرائد، ثم كان يستمتع بعرضٍ خياليٍّ في ذهنه. كان يستمتع أكثر عندما لا تكون هناك مخاطرة بالرفض. ولم يعد هذا كافياً في النهاية. أقدم بعـــدها علـــى قتل **داماس**، فاكتشف أنه استمتع بقتلها، ثم قرّر التوسّع مهنياً. مضى الرجل في خطف ضحاياه وقتلهنّ، كي يحصل على أقصى قدرٍ ممكنٍ من السيطرة. إنها لعبة الحياة والموت: يحتفظ بالسيطرة، ولا يمكن منعه من ارتكابٍ أيٍ جريمة".

حدّقتُ في بحر الحدَقتين الزرقاوين.

"أتيت أنتِ وكشفت جثة **إيزابيل غاغنون**".

توقعتَ ما سيقوله، لذَلك أكملتُ عنه: "إذاً كنتُ أمثّل تهديداً له".

"أفـــشلتِ نظامـــه بالكامـــل، شعر بوجود خطرٍ كاملٍ يتهدده، وتبيّن له أنّ **الدكـــتورة بـــرينان** هـــي السبب. تمكّنتِ أنتِ من تدمير تخيلاته بكاملها، وهي التخيّلات التي تجعله اللاعب الأقوى".

رحتُ أستعرض في ذهني الأحداث التي جرت في الأسابيع الستة المنصرمة.

"نبـــشتُ جـــثة **إيزابيل غاغنون**، وحدّدتُ هويتها، في وقتٍ مبكرٍ من شهر حزيـــران. أقـــدم **فورتييه** بعد ذلك بثلاثة أسابيع على قتل **مارغريت آدكينـــز**.

ظهــرنا نحــن في الــيوم التالي في **شارع بيرغر**. اكتشفتُ هيكل **غرايس داماس** العظمي بعدها بثلاثة أيام".

"إذاً فهمتِ كل شيء".

"إنه غاضبَ جداً".

"بالضبط. إنّ المطاردة هي طريقته في إظهار كراهيته إزاء النساء..."

قال **كلوديل** معلقاً: "أو كراهيته لجدته".

"يُحتمل هذا. اعتبركِ الرجل عائقاً أمامه على أي حال".

"بالإضافة إلى كوني امرأة".

بدأ **رايان** بتناول سيجارة، لكنه تذكّر المكان الذي يتواجد فيه.

"ارتكــب الــرجل خطأً ثانياً. كانت **آدكينــز** فوضوية بعض الشيء، لكن استخدامه بطاقتها المصرفية كاد يكلفه كثيراً".

"ولهذا السبب احتاج إلى شخصٍ كي يحمّله المسؤولية".

"لا يعتــرف الرجل بأنه انتهى، وبالتأكيد فهو لا يستطيع تحمّل وجود امرأة تعمل في سبيل القبض عليه".

"لكن لماذا اختار **غابي**، وليس أنا؟"

"من يدري؟ لعلها الصدفة؟ أو التوقيت؟ أو لعلها ظهرت أمامه قبلك".

قلــتُ: "لا أظن ذلك، فمن الواضح أنه كان يطاردني طيلة فترة من الزمن. فلقد وضعَ جمجمة في حديقتي، أليس كذلك؟"

أومأ الجميع.

"كان يستطيع انتظاري ثم ينقض عليّ بعد ذلك، أي كما فعل مع الأخريات".

قال **كلوديل**: "إنه مجرد نذل مهووس".

"لم تكن **غابي** كالأخريات بالنسبة إليه، ولم تكن مجرد ضحية عشوائية محتملة. عرف **فورتييه** مكان سكني، كما عرف بأنها تسكن معي".

لاحظتُ بأنني أتكلّم مع نفسي أكثر مما كنتُ أتكلم مع **رايان** و**كلوديل**. تكــوّنت عــندي ما يشبه الجلطة العاطفية على امتداد الأسابيع الستة الماضية، لكنني تمكنتُ من السيطرة عليها عن طريق الإرادة، لكنها كانت تهدد بالانفجار في أي وقت.

"فَعَلــها عمــداً. أرادني ذلك النذل أن أعرف. كانت رسالةً لي، أي مثلما كانت الجمجمة".

بــدأ صــوتي بالارتفاع من دون أن أتمكن من السيطرة عليه. تخيّلتُ وجود مظروف أمام باب شقتي، ومجموعة بيضاوية من الأحجار. رأيتُ وجه **غابي** المتورم بكل زخارفه الفضية الصغيرة. تخيّلتُ أخيراً صورة ابنتي.

انفجر أخيراً بالونَ العاطفي ذو الغلاف الرقيق، فتدفقت من خلال ثقبه مقدار أسابيع من الحزن والتوتر المكبوتَين.

شعرتُ بوجود وخزاتٍ لا تحصى من الألم في حنجرتي، لكنني صرختُ: "لا! لا! لا! أيها النذل اللعين!"

سمعــتُ **رايــان** يتكلم بحدة مع **كلوديل**، وشعرتُ بيديه على ذراعيّ. رأيتُ الممرضة، وشعرتُ بوخز الحقنة. ولم أشعر بشيء بعد ذلك.

43

زارني **رايـــان** في منـــزلي نهار الأربعاء. أنهت الأرض سبع دورات لها حول نفـــسها منذ ليلة الجحيم التي مرّت عليّ، وهكذا أُتيح لي أن أقوم بصياغة رسمية لما حدث معي. بقيت، رغم ذلك، بعض الثغرات التي أردت تسويتها.

"هل وُجّهت التهمة إلى **فورتييه**؟"

"وُجّهت خمس تهم قتلٍ من الدرجة الأولى إليه نهار الإثنين".

"خمسُ تهمٍ؟"

"يُحتمل أن لا تكون له علاقة بقتل **بيتري وغوتييه**؟"

"أخبرني شيئاً. كيف عرف **كلوديل** أنّ **فورتييه** سيحضر إلى منـــزلي؟"

" لم يعرف، في الواقع. أيقن من أسئلتك حول **تانغواي** أنه لا يمكن أن يكون الفاعـــل. تفحّص هذا الأمر فوجد أنّ الأولاد يحضرون عند الثامنة وينصرفون عند الثالـــثة وخمـــس عشرة دقيقة. حاز **تانغواي** على شارة الحضور المثالي. لم يتغيّب الرجل يوماً واحداً منذ أن بدأ العمل. تأكد أيضاً من عدم وجود عطلاتٍ مدرسيةٍ في الأيام التي سألتِ عنها. عرف كذلك عن قضية القفازات.

عـــرف أنكِ مكشوفة ولهذا أسرع بالعودة إلى شقتك. وصل إلى هنا وحاول الاتـــصال بـــك هاتفياً، فوجده معطلاً. قفز **كلوديل** فوق بوابة الحديقة ووجد أنّ الأبـــواب الفرنسية غير مقفلة. لم تستطيعا سماعه بسبب انشغالكما بالعراك. كان يستطيع كسر الزجاج، لكنكِ فتحتِ المزلاج عندما حاولتِ الإفلات منه".

كلوديل. تحرك الرجل لإنقاذيَ مجدداً.

"هل استجدّ شيء؟"

"وجـــدوا حقيبة رياضية في سيارة **فورتييه**. احتوت هذه أطواقاً خانقةً، وعدة ســـكاكين تـــصلح للصيد، وصندوقاً من القفازات الجراحية، ومجموعة من الثياب العادية".

انشغلتُ في إعداد ثيابي أثناء تحدثه معي، ثم جلستُ على طرف السرير.

"إنها عدة عمله".

"أجل. أنا متأكد من عثورنا على رابط ما بين القفاز الذي وجدناه في **شارع بيرغر**، والقفاز الذي كان مع جثة **غابي**، مع الصندوق الذي وجدناه في سيارته".

تصورته في تلك الليلة التي كان يتحرك فيها بخفة **الرجل العنكبوت**، وتخيّلتُ يديه تحت القفازين، ذوي اللون الأبيض بلون العظام وسط الظلمة الحالكة.

"اعـــتاد الـــرجل أن يرتدي البذلة المخصصة لرياضة قيادة الدراجات الهوائية عـــندما يقوم بأعماله، وحتى عندما يكون في **بيرغر**. يفسّر هذا سبب بقائه نظيفاً بعد تنفيذه لجرائمه، فلا وجود للشَعر، ولا للألياف، ولا لأشياء غير ظاهرة".

"ألم يجدوا حيوانات منوية؟"

"أوه. يمتلك الرجل علبة مليئة بالواقيات الذكرية".

"رائع!"

توجهتُ إلى الخزانة كي أُحضر حذائي الرياضي القديم، ووضعتُه في الحقيبة.

"ولماذا فعل هذا؟"

"أشكُ في أننا سنعرف في يومٍ من الأيام. يبدو أنّ الجدة كانت حريصةً جداً".

"ماذا تعني؟"

"كانت متشددة، ومتعصبة".

"تجاه أي أمور؟"

"الجنس والدين، ولا أهمية في هذا الترتيب بالضرورة".

"أيمكنك أن تعطيني مثالاً على هذا؟"

"اعتادت أن تعطي **ليو** الصغير حقنةً، قبل أن تجرّه إلى دار العبادة كل صباح، وذلك من أجل أن تطهّر جسده وروحه".

"أتعني إخضاعه للبروتوكول الخاص يومياً؟"

"تحدثنا إلى أحد الجيران الذي تذكّر أنّ الصبي كان يتصارع مع كلب العائلة علـــى الأرض. كـــاد الشراب المعتّق أن يسيل على الأرض في إحدى المرات، لأن ذلـــك الكلب الألماني أُصيب بضربة في مكانٍ حساسٍ من جسمه. تبيّن بعد مرور يومين أن جوف الكلب مليء بسم الفئران".

"وهل يتذكر **فورتييه** هذه الأمور؟"

"لم يـــتحدث عن هذا الموضوع، لكنه تحدّث عن تلك الفترة من عمره عندما كـــان في الـــسابعة، ويقوم بحركات غير لائقة. ربطت الجدة معصمَي **ليو** الصغير بمعـــصميها ذات مرة، وظلّت تجول به لمدة ثلاثة أيام. يجّن الرجل عندما يفكّر بأمر يتعلّق باليدين".

توقفتُ بغتة اثناء قيامي بطيّ كنـــزة.

"اليدان".

"أجل".

"هـــذا ليس كل شيء. علمنا أنّ خالاً له، والذي سبق له أن كان رجل دين، قد أُجبر على التقاعد في عمرٍ مبكرٍ. اعتاد هذا الرجل أن يتجوّل في المنـــزل مرتدياً ثوب حمام. يُعتقد أنّ هذا الخال قد استغّل الصبي. إنه موضوع آخر يلتزم الصمت التام حياله، لكننا نقوم بالتحقق من هذا الموضوع".

"أين هي الجدة الآن؟"

"ماتت قبل أن يقتل **داماس** بوقتٍ قصير".

"وما هو سبب موهما؟"

"لا أحد يعلم".

بدأتُ بتفحّص بذلات السباحة عندي، لكنني توقفتُ عن ذلك ودسستُها في الحقيبة.

"وماذا بشأن **تانغواي؟**"

هـــزّ **رايـــان** رأســـه وأخرج نَفَساً عميقاً. "يبدو أنه مجرد مواطنٍ آخر يمتلك سلوكاً فاسداً تجاه الأمور المتعلقة بالجنس".

توقفتُ عن ترتيب جواربي ونظرتُ إليه.

"إنه رجلٌ في منتهى الغرابة، لكنني أعتقد أنه غير مؤذٍ".

"ماذا يعني هذا؟"

"عمـــل الرجل أستاذاً لمادة الأحياء، وجمع الحيوانات التي تُقتل على الطريق، وقـــام بغلـــي جثثها، وركّب هياكلها العظمية. حضّر هذا الأستاذ معرضاً لطلاب صفّه".

"ماذا بشأن المخالب".

"جففّها من أجل الحصول على مجموعة من مخالب الفقاريات".

"هل قتلَ **إلسا**؟"

"يدّعـــي بأنه وجدها مقتولة في الشارع قرب **جامعة كيبيك ومونتريال**، وأنه أحضر جثتها إلى المنـــزل كي يضمها إلى مجموعته. قال إنه قطّعها عندما قرأ المقالة الـــواردة في ***الغازيـــت***. أضاف بأن المقالة أشعرته بالخوف، لذلك وضع الجثة في الكيس، وتركها قرب محطة الباصات. أعتقد بأننا لن نعرف أبداً كيف أخرجها من المختبر".

"إنّ **تانغواي** هو زبون **جولي**، أليس كذلك؟"

"نعـــم بالتأكـــيد. يحصل الرجل على متعةٍ كبيرةٍ عندما يستأجر بنت هوىً ويجعلها ترتدي ثياب نوم والدته. كما أنّ..."

تردّد قليلاً هنا.

"كما أنّ ماذا؟"

"هل أنت مستعدة لما سأخبرك به؟ إنّ **تانغواي** هو شبه رجل".

"كلا. هلَ كان يتسلّل إلى غرف النوم؟"

"فهمتِ الأمر إذاً. هذا هو السبب الذي جعله يخاف عندما قمنا باستجوابه. ظـــنّ أنـــنا سنقبض عليه لهذا السبب. تبرّع ذلك النذل المغفل الصغير بسرد أمورٍ كثيرةٍ بنفسه. يبدو أنه يستخدم خطته البديلة عندما يفشل في العثور على مبتغاه في الشارع".

"أتعني أنه يتسلّل ويسرق ثياب نوم أي امرأة أخرى؟"

"نعم، حزرت. اعتبرَ أنّ ذلك هو عملٌ أفضلُ من القيام بأمورٍ أخرى".

بقيَ هناك أمرٌ آخر يقلقني.

"وماذا بشأن المكالمات الهاتفية؟"

"إنها الخطة الثالثة. يتصل هاتفياً بامرأة، ويقطع المكالمة، ويستمتع عندما تشعر المـــرأة بالخـــوف. إنه نوعٌ نموذجيٌّ من التلصّص. يمتلك الرجل لائحة طويلة مليئة بأرقام هاتفية".

"هل هناك فرضية في كيفية حصوله على رقمي أنا؟"

"يُحتمل أنه انتزعه من **غابي**، التي كان يتلصّص عليها".

"هل فعل ذلك عن طريق الصورة التي وجدتها في سلة مهملاتي؟"

"يحب **تانغواي** الفن الأصيل. كانت الصورة نسخة عما رآه في أحد الكتب. فعل ذلك كي يعطيها إلى **غابي**. أراد أن يطلب منها أن لا تستبعده عن مشروعها".

نظـــرتُ إلى **رايـــان**: "أليس من سخرية الأمور أن تعتقدَ بأن شخصاً واحداً يطاردها، في حين أنّ شخصين كانا يطاردانها".

أحسستُ بالدموع تملأ عينيّ. بدأت تتكوّن عندي تلك الندبة العاطفية، لكنها كانت ما تزال في بدايتها. سيمّر بعض الوقت قبل أن أتمكّن من التفكير فيها.

نهـــض **رايـــان** وتمطـــى: "أين **كاتي** الآن؟" طرح عليّ هذا السؤال كي يغيّر الموضوع.

"ذهـــبت لإحـــضار بعـــض المستحضرات الخاصة بالسمرة". سحبتُ الزمّام الخاص بالحقيبة إلى نهايته، ثم ألقيتُها أرضاً.

"وكيف تسير الأمور معها؟"

"تبدو بخير. إنها تعتني بي وكأنها ممرضة خاصة منتدبة".

خدشتُ، عفوياً، القُطَب الموجودة في عنقي.

"يُتعبها الواقع بأكثر مما تُظهر. كانت تعرف أنّ العنف موجود في هذا العالم، لكنه العنف الذي يظهر في نشرات الأخبار المسائية. كانت تشاهد مناظر العنف في جـــنوب **لوس آنجلوس**، **والقدس**، **وسراييفو**. اعتبرت أنّ العنف هو شيء يحدث للآخـــرين. تقصّدتُ أنا **وبيتي** أن نبقيها بعيدة عن أخبار أعمالنا. تغيّر الأمر الآن، فالعـــنف أصبح حقيقياً، وقريباً، وشخصياً. لقد انقلب عالمها، لكنها ستعتاد الواقع الجديد".

"وأنت؟"

"أنا بخَير. فعلاً".

وقفنا بصمت وحدّقنا ببعضنا بعضاً لبرهةٍ من الوقت. تناول سترته بعد ذلك وطواها فوق ذراعه.

"هل أنتِ ذاهبة إلى شاطئ البحر؟" لم يُقنعني عدم اكتراثه الذي أظهره.

"سنقصد شواطئ كثيرة في جولتنا هذه التي أطلقنا عليها اسم **مغامرة البحث عن الرمال والأمواج العظمى**. سنذهب أولاً إلى **أوغونكويت**، ثم سنعرّج نـــزولاً إلى شـــواطئ **كايب كود، ريهوبيث، كايب ماي، وشاطئ فيرجينيا**. نخطط أيضاً أن نصل إلى **ناغز هيد** في الخامس عشر من هذا الشهر".

رتّب **بيتي** هذه الجولة، وهو يخطط للانضمام إلينا.

وضـــع **رايان** إحدى يديه على كتفي. أوحت لي عيناه بشيء يتعدى اهتمام زملاء المهنة ببعضهم بعضاً.

"هل ستعودين إلى هنا؟"

طـــرحتُ هذا السؤال على نفسي طيلة هذا الأسبوع. هل سأعود؟ أعود إلى مـــاذا؟ هـــل أعود إلى عملي؟ هل أستطيع تحمّل جولة أخرى مما مررتُ به، ولربما على يد معتوهٍ آخر؟ هل أعود إلى **كيبيك**؟ هل أستطيعً أن أتحمل ملاحقة **كلوديل** لي عندما يضعني أمام لجنة تحقيق؟ ماذا سيحدث بقضية زواجي؟ تقع صلاحية هذه القضية خارج حدود **كيبيك**. وماذا سأفعل مع **بيتي**؟ وبماذا سأشعر عندما أراه؟

اتخـــذتُ قـــراراً واحداً: لن أفكّر بكل هذا في الوقت الحاضر. أقسمتُ على وضـــع كل الشكوك المتعلقة بالغد القريب جانباً، وأن أترك الوقت الذي أمضيه مع **كاتي** من دون منغصات.

أجبتُ: "سأعود طبعاً. أريد إنهاء كل التقارير، ثم الإدلاء بشهادتي".

"أجل".

مرّت فترة صمت مليئة بالتوتر. عرف كلانا بأن هذا ليس بجواب.

تنحنح، ومدّ يدهً إلى جيب سترته.

"طلب مني **كلوديل** أن أعطيكِ هذا".

أخـــرج مظروفاً أسمر اللون يحمل شعار **شرطة مونتريال** في زاويته العليا إلى اليسار.

"رائع!"

وضعتُه في جيبي، ثم تبعت رايان إلى الباب. لا، ليس الآن.

"رايان".

التفت نحوي.

"كيف تستطيع أن تقوم بعملك يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، من دون أن تخسر إيمانك بالجنس البشري؟"

لم يقدّم لي جواباً فورياً، وبدا أنه يركّز على نقطةٍ ما تتواجد ما بيننا. التقت أعيننا.

"يُنتج الجنس البشري من وقتٍ إلى آخر رجالاً يفترسون مَن حولهم. لا ينتمي هؤلاء إلى هذا الجنس. إنهم مجرد طفرات متحولة من هذا الجنس. أعتقد أنّ هؤلاء الأنذال لا يتمتعون بحق سحب الأوكسجين من جوّنا. إنهم هنا يجولون بيننا، ولهذا أساعد في عملية القبض عليهم، ووضعهم في مكان لا يستطيعون فيه إنزال الأذى بالآخرين. إنني أساهم في جعل الحياة أكثر أماناً بالنسبة إلى الذين ينهضون باكراً، ويذهبون إلى أعمالهم كل يوم، ويعتنون بأولادهم أو بمزروعات البندورة في أراضيهم، أو بأسماكهم الاستوائية، أو أولئك الذين يحبون مشاهدة مباراة في كرة القدم في المساء. يمثّل كل هؤلاء الجنس البشري على حقيقته".

رأيتُه وهو يغادر، وأُعجبتُ بهندامه. فكّرتُ عندما أغلقتُ الباب كم أنا معجبة بذكائه. فكّرتُ مبتسمةً، بيني وبين نفسي، بأنه في يومٍ من الأيام لربما شاء الله...

توجهتُ أنا و**كاتي** لشراء بعض المثلجات في وقتٍ لاحقٍ من ذلك المساء. قدنا السيارة إلى الجبل بعد ذلك. جلستُ في مكاني المفضّل الذي يشرف على وادي **سان لوران** بكامله، والذي يبدو من بعيد مثل خط فاصلٍ أسود اللون. ظهرت **مونتريال** من هذا المكان منظراً ساحراً بأنوارها المتلألئة التي تنتشر حتى أطرافها.

نظرتُ من مكاني إلى الأريكة، وأحسستُ أنني أحد ركاب **الرحلة الجنونية للسيد تود**. انتهت الرحلة أخيراً، ولعلني أتيتُ إلى هذا المكان كي أقول وداعاً.

أنهيتُ تناول المثلجات ثم حشرتُ المنديل الورقي في جيبي. لمستُ بيدي المظروف الذي أرسله **كلوديل** لي.

اللعنة! لَمَ لا؟

فتحـــته، وســـحبت منه رسالةً مكتوبةً بخط اليد. يا للغرابة! لم تكن رسالة الشكوى الرسمية التي توقعتها. كانت رسالةً مكتوبةً باللغة الإنكليزية.

دكتورة برينان

أنـــتِ علـــى حـــق. لا ينبغي لأحد أن يموت مجهولاً. لم يحدث هذا للنساء بفضلك أنتِ. انتهت الجرائم التي يقترفها ليو فورتييه، بفضلك أنتِ أيضاً.

إنـــنا خـــط الدفاع الأخير ضدهم جميعًا: القوادون، والمعتدون على النساء، والذين يقتلون بدماء باردة.

سأتشرّف بالعمل معك مجدداً.

لوك كلوديل

ومضت الأنوار اللطيفة في قمة الجبل، ناشرةً رسالته فوق الوادي بأكمله. ماذا قال **كوجاك؟ أحدهم يحبك يا عزيزتي.**

أصاب **رايان وكلوديل** كبد الحقيقة. إننا فعلاً خط الدفاع الأخير.

قلتُ لهذه الليلة الصيفية: "ألقاكِ قريباً".

سألتني **كاتي**: "ماذا قلتِ؟"

"قلت ألقاكِ قريباً".

بدت الحيرةَ على وجه ابنتي.

"دعينا ننطلق إلى الشاطئ".

المؤلفة في سطور

كـــاتي رايكس، هي عالمة أنثروبولوجيا عدلية مجازة تعمل في **مختبرات العلوم القـــضائية والطب الشرعي** في **مقاطعة كيبيك**، أي أنها مثل الشخصية الخيالية التي ابتكرتها. وتشغل المؤلفة المنصب ذاته في **مكتب الطب الشرعي** في ولاية **كارولاينا الـــشمالية**. وتحـــتل المـــؤلفة أيضاً منصب نائب رئيس **الاتحاد الأميركي للعلوم العدلـــية**، كمـــا تشغل مقعداً في **المجلس الاستشاري الكندي لخدمات الشرطة**. تعمل **رايكس** بصفتها أستاذة لمادة الأنثروبولوجيا في **جامعة كارولاينا الشمالية** في **شـــارلوت**. يُذكـــر أنّ **الدكتورة رايكس** حصلت على درجة دكتوراه فلسفة من جامعة **نورث ويسترن**. تقسّم الكاتبة وقتها ما بين **شارلوت ومونتريال**. أوصلتها روايـــتها الأولى **ديجـــا ديد** إلى الشهرة، عندما وُضعت على قائمة الكتب الأفضل مبـــيعاً في جـــريدة **نيويورك تايمز**، وأفضل الكتب مبيعاً على الصعيد الدولي، كما حازت هذه الرواية على **جائزة إيليس** التي تُمنح لأفضل أول رواية لعام 1997. أما روايـــتها **عظـــام ورماد**، فهي الرواية العاشرة التي تجسّد شخصية **تمبرنس برينان**.

موقع المؤلفة على شبكة الإنترنت: www.kathyreichs.com

الرواية التي حازت على جائزة آرثر إيليس (مؤلفي روايات الجريمة في كندا) عن أفضل رواية أولى كتبها مؤلف في عام 1997.

«تأخذ رواية وُجدت ميتة مكانها إلى جانب أعمال باتريشيا كورنويل... وتتميز هذه الروايات بقدرتها على سرد قصة رائعة، والتي تكون مخيفة في بعض الأحيان».

– واشنطن تايمز

«مرعبة إلى الحدّ الذي يدفعك إلى إبقاء المصابيح مضاءة، وإبقاء الكلب في الداخل. تمتلك رايكس هذا القدر من المهارة».

– دايلي نيوز (نيويورك)

«يجد هواة تحقيقات مسرح الجريمة أنفسهم في سماءٍ من المتعة، عندما يدخلون عالم الدكتورة تمبرنس برينان، عالمة الأنثربولوجيا العدلية، وهي النجمة المذهلة التي ابتكرتها كاتي رايكس في رواياتها التي تحقق أكبر رواج».

– صحيفة بيبول.

«تشبه كورنويل في أفضل رواياتها». – ديترويت فري برس

«مسلية، رائعة، ومثيرة». – نيوزداي (نيويورك)

اقرأ أيضاً للروائية كاتي رايكس

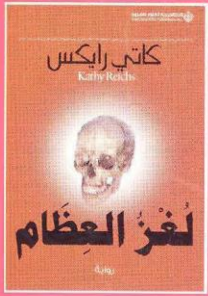

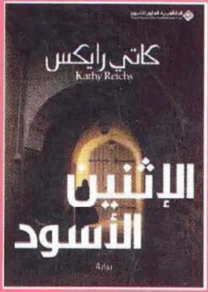

لم تستطع تمبرنس برينان التعرف على كيبيك بعد عام من انهيار زواجها في كارولاينا الشمالية، وذلك بسبب ظروف عملها التي اضطرتها إلى العمل في عطلات نهاية الأسبوع. تكتشف برينان نمطاً مقلقاً في الجرائم بعد أن تنبش جثة امرأة، مقطعة ومشوهة تشويهاً فظيعاً، وملفوفة داخل كيس نفايات. تبدأ برينان بحثاً مضنياً عن القاتل. تتسبب التحقيقات في وضع أقرب الناس إليها – أي أعزّ صديقاتها وابنتها– ضمن دائرة الخطر المميت...

كاتي رايكس، هي عالمة أنثروبولوجيا عدلية تعمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي في مقاطعة كيبيك، أي أنها مثل الشخصية الخيالية التي ابتكرتها. وتشغل المؤلفة منصب نائب رئيس الاتحاد الأميركي للعلوم العدلية، كما تشغل مقعداً في المجلس الاستشاري الكندي الوطني لخدمات الشرطة. وتُعتبر كاتي رايكس واحدة من مجموعة قليلة لا يتعدى عددها ستة وخمسين عالماً من علماء الأنثروبولوجيا العدليين المجازين من المجلس الأميركي للأنثروبولوجيا العدلية. تعمل الكاتبة أيضاً بصفتها أستاذة لمادة الأنثروبولوجيا في جامعة كارولاينا الشمالية في شارلوت. ويُذكر أن رواية «وُجدت ميتة» قد أوصلتها إلى الشهرة، وذلك عندما أصبحت ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز. فازت هذه الرواية أيضاً بجائزة «إيليس» لأفضل أول رواية لعام 1997. احتلت الروايات التي كتبتها المؤلفة مكانها في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز، ومنها رواية «الإثنين الأسود» التي صدرت بالعربية عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بالإضافة إلى Death du Jour، Deadly Decisions، Fatal Voyage، Grave Secrets، Bare Bones، وCross Bones. موقع المؤلفة على شبكة الإنترنت www.kathyreichs.com.

ISBN 978-9953-87-496-8

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102
بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+)
فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت في نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com